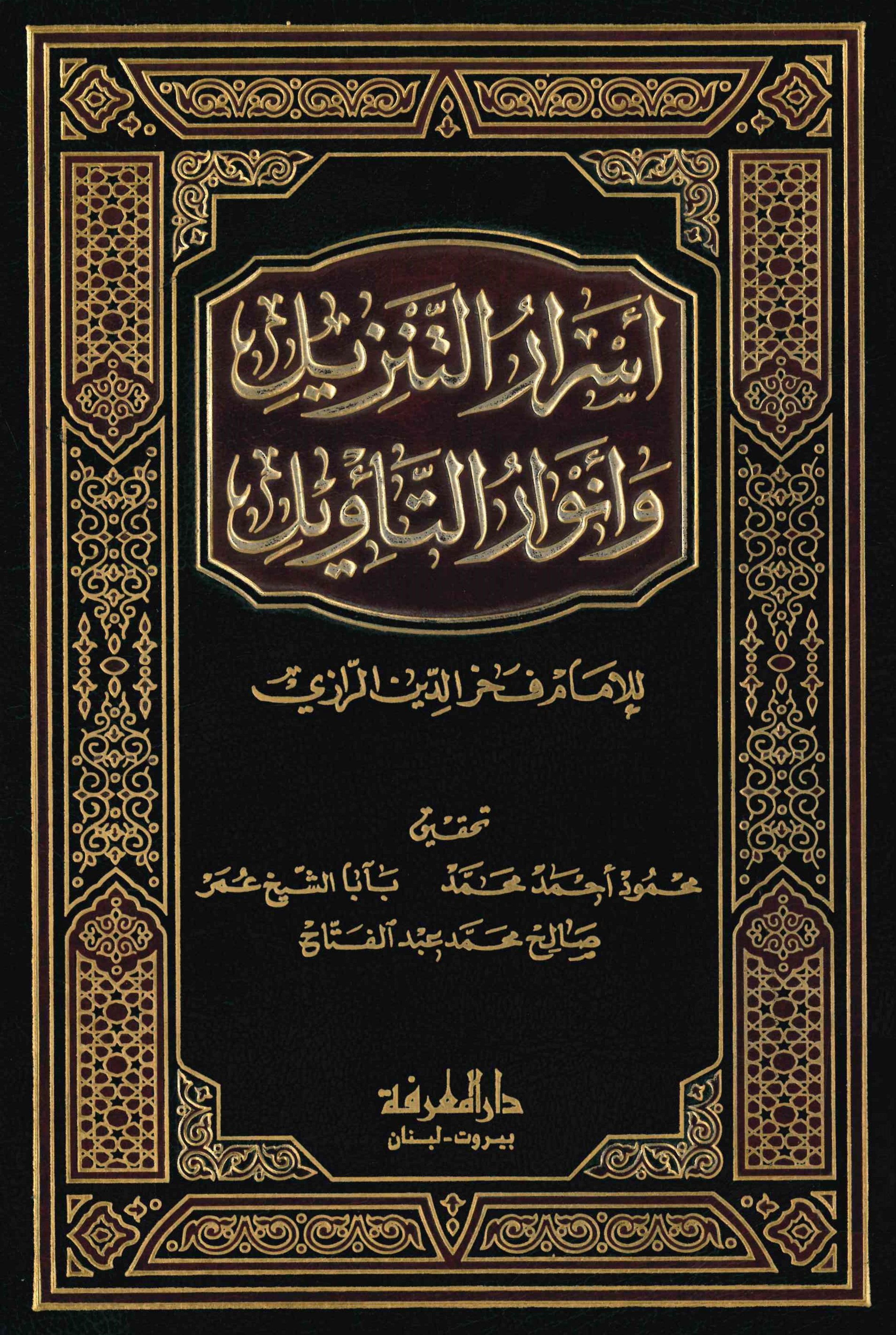

أسرار التنزيل
وأنوار التأويل
للإمام فخر الدين الرازي
تحقيق
محمود أحمد محمد
بآبا الشيخ عمر
صالح محمد عبد الفتاح
دار المعرفة
بيروت - لبنان

أسرار التنزيل وأنوار التأويل

للإمام فخر الدين الرازي

تحقيق

محمود أحمد محمد بابا الشيخ

صالح محمد عبد الفتاح

الجزء الأول

دار المعرفة

بيروت - لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسرنا أن نصدر هذه الطبعة الكاملة من كتاب **«أسرار التنزيل وأنوار التأويل»** للإمام الفخر الدين الرازي، الذي تميَّز بمنهجه وعمق تفكيره بتأويل معاني وأسرار القرآن الكريم، والتبصّر في بديع خلق الله سبحانه وتعالى، وكأن الإمام الرازي رحمه الله قد كتب كتابه هذا في عصرنا الحالي، فألقى الضوء على القضايا الإيمانية والكونية والإعجازية في القرآن الكريم، الكتاب الوحيد الذي حفظه الله تعالى كما أَنزَلهُ وجعلهُ لكل زمان ومكان، لا ينتهي تأويله أو إعجازه مهما طال الزمان وعظُمت الأفهام، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

وأخيرًا ليس آخرًا نتقدم بالشكر الجزيل إلى اللجنة العلمية الفاضلة التي جمعت مخطوطات الكتاب وبذلت جهدًا طيبًا لتحقيقه تحقيقًا علميًا، فكان لهم الفضل في نشر هذا السفر القيّم، ونَخصُّ بالشكر المحقق **الأستاذ الفاضل محمود أحمد محمد** الذي أرسل لنا الكتاب في طبعته الأولى الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في العراق، حرصًا منه على نشر الكتاب وغيرةً لعدم نفاذه من المكتبة الإسلامية والعربية، لِمَا يحتويه من علم نافع وفَهم واسع لأسرار التأويل في القرآن الكريم، ونحن بدورنا جَهدنا على ترتيب الكتاب وإخراجه بحلة جديدة، تسهل على القارىء البحث والدراية لمكنونات هذا الكتاب القيّم. والله من وراء القصد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دار المعرفة ــ لبنان

بيروت في 15 فبراير 2011م.

الموافق 12 ربيع الأول 1432 هـ.

ISBN: 9953-85-268-5

الطبعة الأولى
1432 هـ - 2011 م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

على أن شخصية الرازي وموسوعيته باديتان على الكتاب بوضوح؛ فقد أكثر فيه الرازي من الحجج العقلية والنقلية إلى حدّ الإسراف، ودقق في مواضعه أشد ما يكون التدقيق، وأطال ذيل البحث في كل مجال أقصى ما تكون الإطالة.

واستخدم فيه جميع مبادىء العلوم المتوفرة في عهده في إقامة الحجج، إضافة إلى سرد الدلائل النقلية من القرآن الكريم والحديث الشريف، والاهتمام الزائد ببيان وجوهها ودلالاتها المحتملة، وسرد أقوال الصحابة والسلف مما لم يكن متوفراً لأحد من علماء الكلام أو المفسرين لوحده إلا للرازي الموسوعة.

وبالرغم من هذه الدلائل الواضحة فقد جزم أيضاً حاجي خليفة بصحة نسبة الكتاب للرازي، ونقل شيئاً من صدره ومقدمته ويبدو أنه الوحيد بين من تعرضوا لهذا الكتاب من أصحاب الفهارس والمحققين والذين تكلم عنه عن خبرة ومشاهدة فقد قال:

(أسرار التنزيل وأنوار التأويل ـ مجلد للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي سنة 606هـ (ست وستمائة) وهو مجلد أوله: الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه، ذكر فيه أنه على أربعة أقسام: الأول في الأصول، والثاني في الفروع، والثالث في الأخلاق، والرابع في المناجاة والدعوات لكنه توفي قبل إتمامه فبقي في أواخر القسم الأول)[1].

وبالرجوع إلى صدر الكتاب يظهر أن ما ذكره حاجي خليفة هو نفس ما ذكره المؤلف، فهو إذاً الكتاب الذي تعرض له حاجي خليفة، وأنه للرازي، وفيما ذكره إفادة أنه آخر ما ألفه الرازي مما يضفي أهمية خاصة بالنسبة إلى أنه يحتوي على آخر الآراء التي ارتضاها الرازي لنفسه ما يحب أن يلقى الله به.

إلا أن قوله: (فبقي في أواخر القسم الأول) ليس دقيقاً بما فيه الكفاية إذ أن مصطلح الأصول حتى ولو كان مراداً به أصول الدين فإن الكتاب لم يتعرض إلا لجزء قليل منه وهو مبحث ذات الله تعالى تقديساً وبرهاناً، وهو لا يشكل إلا حوالي الخمس من مباحث علم أصول الدين وهو واضح من أسلوب الرازي نفسه في ذلك الموضع

---

(1) كشف الظنون ج (2/ 83).

أيضاً مشافهة عن الشيخ الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي[1] قدم علينا بتعز المحروسة في سنة سبع وتسعين وسبعمائة واجتمعت به في مكة المشرفة في 783هـ وإجازتي في ذلك بروايته عن قاضي القضاة نور الدين علي بن عبد النصير السخاوي بروايته عن الشيخ الإمام الحافظ عبد المؤمن[2] بن خلف عن الشيخ عبد الحميد بن عيسى «الخسروشاهي» الدمياطي بروايته عن الإمام فخر الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ. أنا (العبد الفقير إلى الله العلي سليمان بن إبراهيم العلوي)[3] لطف الله به (ورحمه) في سلخ الرابع من شهر ذي الحجة الحرام سنة اثنتي عشرة وثمانمائة مدينة تعز المحروسة وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً مباركاً طيباً منه كما يحب ويرضى».

وعلى النسخة وفي الصفحة الأولى تملكات عدّة كلّها تؤكد أهمية الكتاب.

نسبة الكتاب إلى الرازي:

لعلّنا قد ألقينا في التعريف بالمخطوطة ضوءاً ساطعاً على صحة نسبة الكتاب إلى الرازي بما لا يقبل الشك والترديد ولا يدع مجالاً للمناقشة والجدل؛ فإن المخطوطة ترجع إلى بداية القرن الثامن الهجري، وهي قريبة العهد بالمؤلف نسبياً.

فما وجدناه بخط الناسخ من نسبته الكتاب إلى الرازي كافي في تصحيح النسبة، فضلاً عما ورد في إجازة الكتاب ومقابلة المخطوطة على الأصل الذي نسخت منه، عن سليمان بن إبراهيم العلوي سنتي ثمانمائة واثنتي عشرة وثمانمائة وثلاث عشرة للهجرة على الترتيب.

فقد وردت في الإجازة نسبة الكتاب إلى الرازي مرتين: مرة عند الحديث عن الإجازة بالرواية، وأخرى حين الكلام على الإجازة بالمشافهة، وكذلك وردت النسبة عند الكلام على المقابلة، وهذه حجج لها مكانتها التي لا تنكر ودلالتها الواضحة التي تقطع كل مجال للريب، سيّما إذا استندت على كتابة محدث مثل سليمان بن إبراهيم العلوي.

---

(1) انظر: معجم المؤلفين (12/ 118).
(2) انظر: معجم المؤلفين (6/ 197).
(3) انظر: معجم المؤلفين (4/ 252).

«ترجمة الإمام العالم
سلطان العلماء فخر الدين»

هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي، العلاّمة سلطان المتكلمين في زمانه، فخر الدين أبي عبد الله القريشي البكري التميمي الطبرستاني الأصل ثم الرازي ابن خطيبها، الشافعي، المفسر المتكلم صاحب المصنفات المشهورة والفضائل الغزيرة المذكورة. اشتغل أولاً على والده ضياء الدين عمر، وهو من تلامذة محب السنة البغوي، ثم لما مات والده قصد الكمال السمناني فاشتغل عليه مدة ثم عاد إلى الري فاشتغل على المجد الجيلي صاحب محمد بن يحيى الفقيه أحد تلامذة الغزالي وأتقن علوماً كثيرة وبرز فيها وتقدم وساد وقصده الطلبة من سائر البلاد، وصنف في فنون كثيرة. فمن ذلك تفسيره المشهور وله تفسير الفاتحة في مجلد منفرد، وله شرح الأسماء الحسنى، وله مناقب الشافعي ﷺ أكثر فيه من الحكايات والغرائب، وقد شرح الوجيز أو أكثره وله شرح سقط الزند وشرح المفصل والمحصول في أصول الفقه والمنتخب، وله الأربعون في علم الكلام ونهاية العقول والمطالب العالية وتأسيس التقديس وكتاب الملخص وشرح الإشارات والمعالمين في الأصلين وله نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز في علم البيان وغير ذلك من المصنفات المتنوعة. ومنها ما ذكره القاضي شمس الدين ابن خلكان وهو «كتاب السر المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم» وقد قيل إنما صنفه لأم الملك (خوارزم شاه) وأنها أعطته على ذلك جعلاً فعمل صناعة وبياناً لفضله وتمكنه من العلوم ومنهم من أنكر أن يكون من مصنفاته والله أعلم. وكان له مجلس كبير للوعظ وكان يتكلم كلاماً جيداً وله تمكن من الوعظ باللسانين العربي والتركي، وكان يحضره الناس على اختلاف أصنافهم ومذاهبهم ويجيء إلى مجلسه الأمراء والأكابر والملوك ويحصل له بكاء في مجلسه ورقة ويظهر عليه خشوع؛ ومات بسببه أناس كثيرون، وجدت بينه وبين جماعة من الكرامية مخاصمات وفتن وأوذي بسببهم وأذاهم وكان ينال منهم في مجلسه وينالون منه، وأخرج من بعض البلدان بسببهم فيما ذكره القاضي ابن خلكان. قال: «ثم عاد إلى

حيث يقول: (واعلم أن معرفة ذات الله تعالى لا تحصل إلا بأمور خمسة: معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء ونحن جعلنا معرفة الله تعالى مبنية على هذه الأمور الخمسة، الباب الأول في معرفة الذات).

ومن الواضح أن ما وصل إليه الرازي من المجلد الذي ذكره حاجي خليفة لا يتعدى الكلام على معرفة الذات إلى غيرها من الأصول الأربعة الباقية، على أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار سائر مباحث علم الكلام يكون ما وصل إليه الرازي جزءاً قليلاً منه لا غير.

أما من عدا حاجي خليفة فيبدو أنهم لم يذكروا كل الحقيقة عن اسم الكتاب ونسبته وموضوعه؛ فقد ذكره إسماعيل باشا الباباني[1] ضمن سرد مؤلفات الرازي بالاسم الذي ذكره به حاجي خليفة دون أن يتعرض لموضوع الكتاب ولا لشيء من المعلومات الأخرى.

وذكره الزركلي[2] ضمن سرد مؤلفات الرازي باسم (أسرار التنزيل) فقط ثم ذكر أنه في علم التوحيد وهو قاصر كما ترى.

وذكرته هيئة التحقيق للتفسير الكبير للفخر الرازي في المرتبة الثالثة بعنوان (كتاب التفسير الصغير واسمه أسرار التنزيل وأنوار التأويل) وهو يوحي بأنه في التفسير وليس كذلك.

وذكره الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد باسم (أسرار التنزيل وأنوار التأويل) وصحح نسبته إلى الرازي ولكنه جعله من كتب التفسير أيضاً[3].

ويبدو أن هؤلاء جميعاً لم يطلعوا على الكتاب نفسه وإنما على قوائم مؤلفات الرازي الذي ذكرتها المصادر، واستقوا موضوع الكتاب من اسمه، ولكن الذي نريد أن نؤكده هنا أن الكل متفقون على أن الكتاب للرازي وإن قصروا في بعض المعلومات الأخرى.

(1) انظر: هداية العارفين ج (1/ 107).
(2) انظر: الأعلام ج (7/ 203).
(3) انظر: الرازي مفسراً رسالة للدكتوراه، ص: 38.

تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن. اقرأ في التنزيه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:38] وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:11] و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] واقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:5] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:50] و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10] واقرأ في أن الكل من الله قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:78] ثم يقول: أقول من صميم القلب من داخل الروح أني مقر بأن كل ما هو الأكمل الأفضل الأعظم الأجل فهو لك، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزه عنه وهذه وصيته عند موته: (أنا) والدي الإمام برهان الدين العلوي ـ وآخرون ـ قالوا: (أنا) الشيخ الإمام عماد الدين ابن كثير قال (أنا) الشيخ الإمام كمال الدين المراغي عمر بن إلياس بن يونس قدم علينا دمشق وكان أحد تلامذة النصير الطوسي بقراءتي عليه بدار الحديث الإشرفية (أنا) التقي يوسف بن أبي بكر النسائي بمصر قال: (أنا) الكمال محمود بن عمر الرازي قال سمعت الإمام فخر الدين يوصي تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني، يقول العبد الراجي رحمة ربه الواثق بكرم مولاه محمد بن عمر بن الحسين الرازي وهو أول عهده بالآخرة وآخر عهده بالدنيا، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس ويتوجه إلى مولاه كل آبق وأحمد الله العلي بالمحامد التي ذكرتها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات شهاداتهم وأحمده بالمحامد التي يستحقها، عرفتها أو لم أعرفها، لأنه لا مناسبة للتراب مع رب الأرباب وصلواته على الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين وجميع عباد الله الصالحين.

ثم اعلموا إخواني في الدين وأخلائي في طلب اليقين أن الناس يقولون أن الإنسان إذا مات انقطع عمله وتعلقه عن الخلق، وهذا مخصوص من وجهين:

الأول: أنه إذا بقي معه عمل صالح صار ذلك سبباً للدعاء، والدعاء له عند الله أثر. **والثاني**: ما يتعلق بالأولاد وأداء الجنايات، أما الأول فاعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم فكنت أكتب في كل شيء لأقف على كلّيته وكيفيته سواء كان حقاً أم باطلاً، إلا أن الذي نظرته من الكتب المعتبرة أن العالم المخصص تحت تدبير مدبر منزه عن مماثلة المتحيزات موصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة. ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن الكريم لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلالة لله ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى في تلك

بلده وكان بها رجل طبيب له أموال كثيرة وحضره الموت فأوصى إلى الإمام فخر الدين وكان له ابنتان ولفخر الدين ابنان فزوجهما لهما، واتسعت الأموال على فخر الدين كثيراً وأقبل عليه الملوك وصارت له أرزاق وأنعام كثيرة وصارت له سيادة ووجاهة وخدم وحشم»، ثم أثنى عليه كثيراً وبالغ في وصفه ومدحه.

وأما الشيخ الإمام تقي الدين ابن الصلاح فلم يكن مقبلاً عليه وربما غض من مكانته.

وتوسط فيه أبو شامة وذكر أنه خلف من الذهب بمائتي ألف دينار والله أعلم.

وذكره الإمام الذهبي في كتاب الضعفاء وهذا مجرد تعصب، فإن الرجل ثقة ثبت أحد أئمة المؤمنين ثم إنه لا رواية له فكيف يدخله مع الرواة وذكره في حرف الفاء وسماه الفخر وهو لم يشتهر بهذا إنما نظر إلى هذا التحامل المفرط، انتهى.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: جالت أقلام الإمام فخر الدين في فنون كثيرة من العلوم واتسعت دائرته وتسلط في فن الكلام خاصة حتى قيل أنه كان يحفظ الشامل لإمام الحرمين في ذلك، وله اختيارات كثيرة في كتب متعددة يرد بعضها بعضاً ولكن الذي صنفه على طريقة أهل الكلام (نهاية العقول) وهي من أجود كتبه، وكذا كتاب الأربعين وأما المباحث المشرقية فأكثرها على طريقة الحكمة ومذاهب الفلاسفة وكتاب (المطالب العالية) أجمع ذلك كله وهي آخر ما صنف في ذلك ولهذا لم يتمه وبقي عليه منها بقية ثم قيل أنه ندم على دخوله في هذا الفن، كما قال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح حدثني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع الفخر الرازي يقول: ليتني لم أشتغل بعلم الكلام وبكى ومن شعره وكلامه:

نهاية أقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة في جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
فلم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادروا جميعها مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فبادوا والجبال جبال

ثم يقول رحمه الله: لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فلم أجدها

أبو شامة: وبلغني أنه خلَّف من الذهب بمائتي ألف دينار سوى الدواب والعقار وغير ذلك، وترك ولدين كان الأكبر منهما قد تجنجد في حياة أبيه وخدم السلطان (خوارزم شاه) وقال الموفق: كان ربع القامة ضخم البدن كبير اللحية في صوته فخامة، وذكروا أنه كان يلحقه حالة الوعظ حال وجد حتى أنه قال يوماً للسلطان شهاب الدين وهو تحت منبره: يا سلطان العالم لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي يبقى، وإن مردنا إلى الله. فأبكى السلطان رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن تلامذته المشهورين مصنف الحاصل تاج الدين محمد بن الحسين الأرمو، وشمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي، والقاضي شمس الدين ابن الجويني، ومحيي الدين قاضي مزيد، انتهى.

قلت: ومن تلاميذه الزكي بن عمران البيلقاني قدم إلى عدن صنف وأفاد وأقرأ وكان إماماً بارعاً، وقطب الدين المصري وغيرهما والله أعلم.

وقلت: وقدم علينا نفر لبعض أولاد مواليه وعتقائه وحكى لي مشافهة غير مرة أن آباءه تواتر عندهم أن رأس الشيخ الإمام فخر الدين كان كبيراً كالعمامة الكبيرة، تمت مقابلتها في آخر نهار السبت السابع من شهر ذي الحجة سنة اثنتي عشرة وثماني مائة. كتبت هذه الترجمة تبركاً بالإمام هذا... والله علينا من بركاته.

وكتب العبد الفقير إلى الله العلي سليمان بن إبراهيم بن عمر العلوي خادم الحديث النبوي لطف الله به وكان له.

وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وسلم.

انتهى

المضايق العميقة والمناهج الخفية فلهذا أقول كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية والتقدير والفعالية فذلك هو الذي أقول به وألقى الله به، وأما ما انتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض فكل ما ورد في القرآن والصحاح المتعين للمعنى الواحد فهو كما هو والذي لم يكن كذلك أقول: يا إله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، فكل ما مر به قلمي أو خطر ببالي فأستشهد وأقول: إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق فافعل بي ما أنا أهله، وإن علمت مني أني ما سعيت إلا في تقرير اعتقدت أنه الحق وتصورت أنه الصدق فلتكن رحمته قصدي لا مع حاصلي، فذاك جهد المقل وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في زلة فأغثني وارحمني واستر زلتي وامح حوبتي، يا من لا يزيد ملكه عرفان العارفين، ولا ينقص ملكه أخطاء المجرمين.

وأقول: ديني متابعة الرسول محمد ﷺ وكتابي القرآن العظيم وتعويلي في طلب الدين عليهما. اللهم يا سامع الأصوات ويا مجيب الدعوات ويا مقيل العثرات أنا كنت عند حسن الظن بك عظيم الرجاء من رحمتك وأنت قلت: «وأنا عند ظن عبدي بي» وأنت قلت: «أمّن يجيب المضطر إذا دعاه» فهب أني ما جئت بشيء فأنت الغني الكريم وأنا المحتاج اللئيم. وأعلم أنه ليس لي أحد سواك ولا أجد كريماً سواك، ولا أحد محسناً سواك وأنا معترف بالذل والقصور والعيب والفتور ولا تخيّب رجائي ولا ترد دعائي. واجعلني آمناً من عذابك قبل الموت وبعد الموت وعند الموت سهّل علي سكرات الموت فإنك أرحم الراحمين.

وأما الكتب التي صنفتها واستكثرت فيها من إيراد السؤالات فليذكرني من نظر فيها بصالح دعائه على سبيل التّفضل والإنعام وإلا فليحذف القول السيىء فإني ما أردت إلا تكثير البحث وشحذ الخاطر والاعتماد في الكل على الله ﷻ.

ثم ذكر فصلاً في الوصية بأولاده وأطفاله إلى أن قال: وآمر تلامذتي ومن لي عليه حد إذا أنا مت يبالغون في إخفاء موتي ويدفنوني على شرط الشرع، فإذا دفنوني قرأوا علي ما قدروا عليه من القرآن ثم يقولون: يا كريم جاءك الفقير المحتاج فأحسن إليه.

وكانت وفاته بهراة يوم عيد الفطر سنة ست وستمائة. قال الشيخ شهاب الدين

وجدنا أن هناك فصولاً وأبواباً كثيرة موجودة في نسختنا ولكنها حذفت من المطبوعة تماماً فأصبحنا متأكدين أن جميع هذه النسخ المختصرة وبضمنها النسخ التي تم تحقيق المطبوع على ضوئها ما هي إلا نسخ جرى اختصارها من قبل أحد العلماء من الكتاب الأصلي بغرض الحفظ والدراسة، وقد كان هذا الأسلوب متبعاً ولهذا سماه: «من أسرار التنزيل. . .» بزيادة من التبعيضية. ولقد تداولتها الأيدي بالنسخ والنقل فانتشرت في مكتبات العالم وهذا ما جعلنا أمام حالة أكثر إلحاحاً في تحقيق الكتاب ودفعه إلى الطبع ونشره لتسد مكانه في مكتبات العالم الإسلامي ولتصحيح هذا الخلط والتشويه في كتاب مؤلف كالرازي حيث إن النسخة المختصرة مبتورة وغير متسلسلة الأفكار والمضامين وناقصة الأدلة والحجج.

ولما كانت نسختنا صحيحة وعهد نسخها قريباً من عصر الرازي، وأن ناسخها كان متقناً في النسخ إلى حد كبير ثم أجريت عليها مقابلة من قبل أحد المحدثين المشهورين وهو «سليمان بن إبراهيم العلوي» وتداولتها الأيدي بالتملك والمراجعة والتدريس فقد آثرنا عدم التريث في نشرها على أمل الحصول على نسخة أخرى أو عدة نسخ من زوايا مكتبات العالم كما أن الهدف من الحصول على أكثر من نسخة لتحقيق كتاب ما هو إلا رد النص إلى أقرب ما كتبه المؤلف، ونحن على يقين بأن النسخة التي بين أيدينا هي أقرب ما يكون إلى ما كتبه الرازي ورضي به وأخرجه إلى الناس.

ولقد بذلنا جهوداً مضنية في سبيل إخراج الكتاب بهذا الشكل حيث إن تاريخ نسخه قديم، وغير منقوط إلا نادراً، وتعرض إلى ظروف جوية سيئة فبذلنا كل ما بوسعنا في سبيل قراءته بصورة صحيحة ولقد استفدنا أحياناً من النسخة الناقصة التي أشرنا إليها سابقاً في تقويم بعض الكلمات حيث إنها كانت أسهل قراءة وأوضح خطاً وأكثر تنقيطاً، فقمنا بمقابلة النسختين قدر الإمكان وأشرنا إلى الاختلافات والفروق الموجودة بينهما في الهامش مشيرين إلى النسخة الكاملة بحرف (أ) وإلى النسخة الأخرى بحرف (ب)، كما قمنا بتخريج الآيات والأحاديث الموجودة في النص وذكرنا نبذة مختصرة عن الأعلام في الهامش أيضاً.

ولم نكن نبيح لأنفسنا تغيير شيء من النص أو الزيادة عليه أو النقص منه إلا

فكرة تحقيق الكتاب والجهود المبذولة في هذا المجال

عندما كنا نقوم بفهرسة الكتب المخطوطة الموجودة في مكتبة الأوقاف المركزية في السليمانية التي كانت من بقايا مكتبة البابانيين العامرة ـ في حينه ـ بأمّهات الكتب النادرة والمهمة، عثرنا على النسخة المخطوطة من هذا الكتاب، وبعد تفحصه والبحث عنه في فهارس المخطوطات المتوفرة لدينا علمنا بأهمية الكتاب ومكانته بين الكتب التراثية الإسلامية وعلو مرتبته بين مؤلفات الرازي، فعقدنا العزم على تحقيقه وطبعه مساهمة متواضعة منّا في إحياء التراث الإسلامي، وقمنا بالبحث عنه جدياً في فهارس المخطوطات بغية العثور على أماكن وجود نسخ أخرى منه وراسلنا عدة مكتبات وجهات متخصصة داخل العراق وخارجه، فوردت إلينا عدة إجابات من تلك الجهات توصلنا من خلالها إلى نتيجة واحدة وهي: أن هناك عدة نسخ بنفس العنوان في مكتبات القاهرة وبلاد الهند وتونس والمغرب والقسطنطينية وغيرها، ولكنها ليست النسخة الأصلية الموجودة بحوزتنا وإنما هي نسخ من كتاب اختصر فيه الكتاب الأصلي، مع العلم أن هذا المختصر لا يمثل إلا عشره، فأصبحنا نعتقد أن نسختنا يتيمة لا ثانية لها في مكتبات العالم، وبعد فترة من الزمن عثرنا على نسخة أخرى من الكتاب ناقصة الأول والآخر، يبدو أن تاريخ نسخها يرجع إلى القرن السابع الهجري وتوجد في مكتبة الأوقاف المركزية بالسليمانية تحت رقم (309/ 3/ 5) وبعد فحصها وجدنا أنها مختصرة من الكتاب الأصلي.

وفي عام 1985 سمعنا أنه جرى تحقيق الكتاب في القاهرة من قبل الأستاذ عبد القادر أحمد عطا، وتم طبعه ونشره من قبل دار المسلم تحت عنوان «من أسرار التنزيل للإمام الرازي» وعندما حصلنا على النسخة المطبوعة وجدنا أنها النسخة المختصرة أيضاً والتي توجد منها نسخ عديدة في مكتبات العالم، ولقد قام المحقق بتحقيقها في ضوء ثلاث نسخ موجودة بالقاهرة ولدى مقابلتها بنسختنا التي قمنا بتحقيقها خرجنا بنتيجة وهي: أن المطبوع لا يمثل إلا أقلّ من عشر الكتاب، حيث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مُقل العقول[1] من عجائب قدرته، وردع خطرات هماهم النفوس[2] عن عرفان كنه صفته، يعلم عجج[3] الوحوش في الفلوات، ومعاصي العباد في الخلوات، واختلاف (. . . .)* في البحار الزاخرات، وتلاطم الماء بالرياح العاصفات، الذي عظم حلمه فعفى، وعدل في كل ما قضى، وعلم ما يمضي وما مضى، وله ما في السمٰوات وما في الأرض وما تحت الثرى، ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: 7 ـ 8] كان ولا مكان ولا حين ولا أوان، ولا وقت ولا زمان، ولا طل ولا غمام، ولا هواء ولا هوام، ولا خلق ولا أنام، ولا خامد ولا جامد، ولا راكد ولا هامد، ولا متحرك ولا ساكن ولا ظاهر ولا باطن ولا لوح ولا قلم، ولا جسم ولا روح، ولا عرش ولا كرسي ولا جنّي ولا أنسي، ولا خفض ولا رفع، ولا ضرّ ولا نفع ولا طول ولا عرض، ولا سماء ولا أرض، ولا ليل ولا نهار، ولا جنة ولا نار، واحد وحداني، ليس معه إلٰه ثان باق لا يبلى، دائم لا يفنى، عالم لا يلهو، حافظ لا يسهو، جبار لا يضام، عزيز لا يرام، حيّ لا يموت، ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، أحمده حمداً يليق بعلوّ شأنه وباهر برهانه وقديم إحسانه وعظيم امتنانه، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقرونة بالصدق والصواب مبرأة عن الشك والارتياب وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[4]، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً.

---

(1) المقل: جمع مقلة وهي العين وإضافتها إلى العقول مجاز.

(2) هماهم النفوس: أفكارهم وما تهم عند الريبة في الأمر.

(3) عجج: الظاهر ضجيج.

(*) (. . .) إن الكلمة مكتوبة (لتبنان) ولا معنى لها.

(4) اقتباس من القرآن الصف/ 9.

عند الضرورة وعندما كان بحاجة إليها حيث لا يستقيم المعنى بدونها وقد دأبنا على وضع الزيادة أو البديل بين القوسين [. . .] المتعارف عليهما بين المشتغلين بتحقيق النصوص التراثية، وزيادة في الحرص على الأمانة العلمية أشرنا في الهامش إلى مصدر التقويم منا أو من غيرنا.

ودعوة مخلصة إلى جميع السادة قراء هذا الكتاب أن يوافونا بملاحظاتهم ومعلوماتهم حول نسخ أخرى اطلعوا عليها، أو تصويباتهم للأخطاء التي وقعنا فيها فنحن لا ندّعي الكمال فالكمال لله وحده وهو من وراء القصد.

ـ اللجنة ـ

أوائل محرم الحرام 1406 ـ أواخر آب 1985

[القسم الأول من هذا الكتاب
ما يتعلق بعلم الأصول]

واعلم أن القرآن العظيم قد دلّ على أن معاقد الإيمان مبنية على أمور أربعة كما قال ﷻ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:285]، ونحن رتبنا علم الأصول على هذه القواعد الأربعة:

القاعدة الأولى في معرفة الله تعالى: واعلم أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا بأمور خمسة: معرفة الذات والصفات والأفعال والأحكام والأسماء. ونحن جعلنا معرفة الله تعالى مبنية على هذه الأصول الخمسة:

«الباب الأول معرفة الذات»

وفيه فصول:

الفصل الأول:
في أسرار كلمة [لا إله إلا الله]

قال الله تعالى لرسوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: 19] واعلم أنه تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار، والسبب فيه أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول[1] والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع. والأصل يجب تقديمه على الفرع فإنه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع الاشتغال بطاعته وخدمته وهذه الدقيقة معتبرة في آيٍ كثيرة.

أولها: أن إبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال: ﴿رَبِّ

---

(1) أي علم أصول الدين (العقائد).

أما بعد، فهذا كتاب الذي نرجو من فضل الله العظيم وإحسانه القديم أن يوفقنا لنظمه وتنقيحه وتهذيبه وتلويحه، ورتبناه على أربعة أقسام:

الأول: ما يتعلق بعلم الأصول.

والثاني: ما يتعلق بعلم الفروع.

والثالث: ما يتعلق بعلم الأخلاق وتصفية الباطن.

والرابع: ما يتعلق بالمناجاة والدعوات.

ونسأل الله العظيم أن يوفقنا لإتمامه إنه خير مأمول وأكرم مسؤول.

والجواب :أن أخس المراتب وأدناها العلقة وذلك لأنه يستقذرها كل أحد، وأعلى المراتب وأشرفها كون الإنسان عالماً محيطاً بحقائق الأشياء، كأنه قال تعالى: عبدي تأمل إلى أول حالك حيث كنت علقة وهي أخس الأشياء وإلى آخر حالك حيث صرت ناطقاً عالماً بحقائق الأشياء وهو أشرف المراتب حتى يظهر لك أنه لا يمكن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة إلا بتدبر أقدر القادرين وأحكم الحاكمين سبحانه وتعالى عن قول الظالمين.

وثانيها :أنه تعالى في أول سورة البقرة مدح المؤمنين من أول السورة إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ثم ذم الكافرين في آيتين أولهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 6 ـ 7]، ثم ذم المنافقين في ثلاث عشرة آية أولها قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 8 ـ 21] ثم لما مدح المؤمن وذم الكافر والمنافق كأنه قيل هذا المدح والذم لا يستقيمان إلا بتقديم الدلائل على أسباب التوحيد والنبوة والمعاد، فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة فلهذا السبب بيَّنَ الله تعالى صحة هذه الأصول الأربعة بالدلائل القاطعة فبدأ أولاً بإثبات الصانع وتوحيده وبين ذلك بخمسة أنواع من الدلائل:

أولها: أنه تعالى استدل على التوحيد بأنفسهم وإليه الإشارة بقوله: ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

وثانيها: بأحوال آبائهم وأجدادهم وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

وثالثها: بأحوال الأرض وإليه الإشارة بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22].

ورابعها: بأحوال السماء وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: 22].

وخامسها: بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة:22] فإن السماء كالأب والأرض كالأم تنزل قطرة من صلب السماء إلى رحم الأرض فيتولد منها أنواع النبات. ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] وذلك لأن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من

﴿هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء:83] فقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء، وقوله: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العملية بالاجتناب عن طرفي الإفراط والتفريط فقدّم العلم على العمل والله أعلم.

وثانيهما: أنه تعالى لما أوصى إلى موسى عليه السلام راعى هذا الترتيب فقال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه:13-14] فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ إشارة إلى علم الأصول، وقوله: فاعبدني، إشارة إلى علم الفروع.

وثالثها: أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله في وقت الطفولية[1] قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[مريم:30] فقوله ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى علم الأصول وقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إشارة إلى علم الفروع، فإن الاحتياج إلى الكتاب إنما يكون في معرفة الأحكام والشرائع لا في معرفة ذات الله وصفاته.

ورابعها: الآية التي نحن فيها على ما قررناه ولا نزاع أنّ أفضل الأنبياء والرّسل هؤلاء الأربعة، فلما ثبت أن الله تعالى قدّم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع في حق هؤلاء الأنبياء المكرمين ثبت أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك، ومما يؤيد ذلك وجوه أخرى:

أحدها: أن أكثر المفسرين على أن أول ما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ هو قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: 1 ـ 5] وهذه الآية مشتملة على دلائل التوحيد وذلك أن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم تولد الإنسان من تلك النطفة. ثم إنه تعالى نبّه في هذه الآية على لطيفة عجيبة ولا يتأتى شرحها إلا في معرض السؤال والجواب. فإن قال قائل: لا بد في رعاية النظم بين آخر الكلام وأوله، وهاهنا ذكر الله تعالى تولد الإنسان من النطفة فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق:1-2] ثم ذكر بعده:

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:5]، فأي مناسبة بين هذين الأمرين؟

(1) الطفولية: هكذا وجدنا في النسخة الموجودة بحوزتنا، والظاهر: الطفولة.

رابعة وهي العلم بأحوال الأفلاك فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل والصغر والكبر والبطؤ والسرعة اختلاف أحوال الكواكب المركوزة فيها كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسٓ: 40] وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28] وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمٰن: 17] وقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: 40] وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: 54] وقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: 61] وقال في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: 15 ـ 16] وقال في سورة يسٓ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يسٓ: 40] وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير: 15 ـ 17].

وبعد هذه المرتبة الرابعة مرتبة خامسة وهي الأحوال المنزلة من السماء والأرض وهي نزول المطر من صلب السماء ووقوعه في رحم الأرض، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة أنواع من النبات بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في اللون والشكل والطعم والطبع والخاصية فمنه ما يكون قوتاً ومنه ما يكون أداماً ومنه ما يكون فاكهة ومنه ما يكون دواء ومنه ما يكون سُمّاً ومنه ما يكون علفاً لسائر الحيوانات، فذكر في تفصيل المطعومات قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس: 25 ـ 26] إلى آخره، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95] بل إذا نظرت إلى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أحد وجهيها في غاية الحمرة والوجه الآخر في غاية الصفرة مع أنها تكون في غاية الدقة وقلة الثخانة، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة تأثير الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع إلى كل واحد من وجهي تلك الورقة الدقيقة جداً من الورد نسبة واحدة فاختصاص أحد وجهي تلك الورقة بالحمرة والأخرى بالصفرة لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار الذي يفعله بالعلم والقدرة لا بالغلبة والطبيعة.

وإذا عرفت ذلك ظهر أن لله تعالى في ترتيب هذه الدلائل الخمسة وتقديم بعضها على بعض حكماً بالغة وأسراراً مرعية فسبحان من لا نهاية لعلمه ولا غاية لحكمته. ثم إنه تعالى لما بيّن دلائل الذات لإثبات الصانع ووحدانيته أردف هذه المسألة بمسألة إقامة الدلالة على نبوة محمد ﷺ هي قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: 23] وذلك لأن التحدّي وقع بكل القرآن في

وجه وعلى كونه تعالى واحداً من وجه آخر، فإنها من حيث إنها حدثت مع جواز أن لا تحدث ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت يدل على وجود الصانع القادر، ومن حيث إنها حدثت لا على وجه الخلل والفساد دلت على وحدة الصانع كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22] فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل الخمس ذينك المطلوبين: أحدهما إثبات الصانع والثاني إثبات أنه واحد لأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ مشتمل على إثبات الإله وعلى إثبات كونه واحداً، ثم هاهنا لطيفة أخرى مرعية في هذه الآية وهي أن الترتيب الحسن المفيد في التعليم من الأظهر فالأظهر مرتقياً من الأخفى فالأخفى وهذه الدقيقة مرعية في هذه الآية وذلك أنه ﷻ قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:21] فجعل استدلال كل عاقل بنفسه مقدماً على جميع الاستدلالات لأن اطلاع كل أحد على نفسه أتمّ من اطلاعه على أحوال غيره فيجد بالضرورة من نفسه أنه تارة يكون مريضاً وتارة صحيحاً، وتارة متلذذاً وتارة متألماً، وتارة شاباً وتارة شيخاً والانتقال من بعض هذه الصفات إلى غيرها ليس باختياره ولا باختيار أحد، وأيضاً فكثيراً ما يجتهد في طلب شيء فلا يجد وكثيراً ما يكون غافلاً عنه فيحصل، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ الهمم أنه لا بد من مدبر يكون تدبيره فوق تدبير البشر، وربما اجتهد العاقل الذكي في الطلب فلا يجد والغرّ الغبي يتيسر له ذلك المطلوب، فعند هذه الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعي ﷺ:

[ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق] ويظهر له أن هذه المطالب إنما يحصل ويتيسّر بناء على قسمة قسّام لا يمكن منازعته ومغالبته كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: 32]. ثم إن مراتب هذه الاعتبارات غير محصورة فتارة كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:62]، وأخرى كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنبياء:42]. وبالجملة فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أشد من اطلاعه على أحوال غيره لا جرم قدّم هذا الدليل على سائر الدلائل ثم هذه المراتب يتلوها مرتبة أخرى وهي علم كل واحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده، ثم هذه المرتبة الثانية يتلوها مرتبة ثالثة وهي علم الإنسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق فإنها مختلفة الأجزاء كما قال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: 4] وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27]، ثم هذه المرتبة الثالثة يتلوها مرتبة

ثمّ إنّ موسى عليه السلام لم ينكر هذا السؤال بل اشتغل بذكر الدّلائل الدالة على وجود الصّانع فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26] فاستدلّ على وجود الصانع أوّلاً: بأحوال نفسه، وثانياً: بأحوال آبائه.

وهو نظير قوله في سورة البقرة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21]؛ فظهر بما ذكرنا، وجوه الفائدة في أنّه تعالى ذكر أولاً قوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وذكر ثانياً: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ والله أعلم بحقائق كتابه؛ فهذا ما يتعلق بالدلائل القرآنية الدّالة على تقديم علم الأصول على علم الفروع، **ولنؤكد هذه الوجوه بخمسة عشر وجهاً:**

الوجه الأوّل: هو أن شرف العلم بشرف المعلوم، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف فلمّا كان أشرف المعلومات ذات الباري وصفاته وجب أن تكون معرفته وتوحيده أشرف المعلوم.

الحجة الثانية[1]: أنّ العلم إمّا أن يكون دينياً أو يكون غير دينيّ، ولا أشك في أنّ العلم الدينيَّ أشرف من غير الدينيّ، وأما العلم الدينيّ فإما أن يكون علم الأصول أو ما عداه، أمّا ما عدا علم الأصول فإن صحته موقوفة على صحة علم الأصول؛ لأنّ المفسر إنما يبحث عن معاني كلام الله وذلك فرع على معرفة الصّانع المختار المتكلم، وأمّا المحدّث فإنّما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ، وذلك فرع على ثبوت نبوّته، والفقيه إنمّا يبحث عن أحكام الله تعالى، وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوّة؛ فثبت أن هذه بأسرها مفتقرة إلى علم الأصول، وظاهر أنّ علم الأصول غني عنها بأسرها فوجب أن يكون علم الأصول أشرف.

الحجة الثالثة: أنّ شرف الشيء قد يظهر بواسطة خساسةِ ضِدِّه، فكُلما كان ضِد الشيء أخسَّ كان هو أشرف، ولا شك أنّ ضدَّ علم الأصول هو الكفر والبدعة وهما من أخسّ الأشياء فوجب أن يكون علم الأصول من أشرف العلوم.

الحجّة الرابعة: أن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه وتارةً لشدَّة الحاجة إليه، وتارة لقوّة براهينه ودلائله؛ وذلك لأنّ علم الهيئة أشرف من علم الطب نظراً إلى أن موضوع علم الهيئة أشرف من موضوع علم الطبّ، وإن كان علم الطبّ أشرف من

---

(1) الحجة الثانية: غيّر التعبير بالوجه إلى التعبير بالحجة هنا وفي الثلاث عشرة الباقية.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] فلمَّا عجزوا عن معارضة كل القرآن أتبعه بالتحدّي بعشر سور من القرآن فقال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13] فلمَّا عجزوا عنه أتبعه بالتحدّي بسورة فقال هاهنا: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ فلما عجزوا عنه أتبعه بالتحديّ بآية: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: 34] فلما عجزوا عنه مع توفّر الداعي ظهر كونه معجزاً باهراً وبرهاناً قاهراً.

ثم إنه أتبع هذه المسألة بمسألة المعاد وهي قوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 25] كأنه قيل: إنا قدّمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين فلو لم يكن معاد يجد المحسن ثمرة إحسانه ويجد المسيىء عاقبة إساءته لم يكن ذلك لائقاً بحكمتي وهذا هو المراد في قوله في «النجم»: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31].

وقال تعالى في «طه»: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: 14 ـ 15]، وقال في «صٓ»: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [صٓ: 28] وظهر بما ذكرنا أنه تعالى لم يذكر في أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع فلهذا السبب قدم الله الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار فقال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: 19].

[الوجه الثالث]: في تقرير هذا الأصل أنه تعالى قال في أول سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

فقوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ إشارة إلى علم الأصول وقوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ إشارة إلى علم الفروع.

[الوجه الرابع]:

أن موسى عليه السلام لـمّا ادّعى الرّسالة عند فرعون، قال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 23] يعني أن رسالتك متفرعة على إثبات أنّ للعالم إلٰهاً؛ فما الدليل عليه؟

على معرفة الأصول.

الحجة السابعة: أن الآيات المشتملة على دلائل علم الأصول أشرف من الآيات المشتملة على دلائل علم الفروع بدليل أنه جاء في فضل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ وآية الكرسيّ و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ ...﴾ ما لم يجيء مثله في فضل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ...﴾ و﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ...﴾ و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ...﴾ ولذلك فإن الزهاد والعُبّاد مواظبون في شرائف الأوقات على قراءة هذه الآيات المشتملة على الإلٰهيات دون الآيات المشتملة على هذه الأحكام.

الحجة الثامنة: أنّ الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية، وأمّا البواقي فهي في[1] بيان التوحيد والرّد على عبدة الأوثان، وأصناف المشركين[2]؛ وفي إثبات النبوّة والمعاد ومسألة القضاء والقدر.

وأما الآيات الواردة في القصص فالمقصود منها إما التوحيد وإما النبوّة، أما على[3] التوحيد (فهي الاستدلال)[4] بها على قدرة الله تعالى وحكمته كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [يوسف: 111] وأمّا على النبوّة فمن وجهين:

الأول: (بألفاظ مختلفة)[5] كما قال في سورة الشعراء بعد ذكر القصص: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 192-194] ووجه الاستدلال به أنّه ﷺ لما لم يتعلم علماً ولم يقرأ كتاباً ولم يتلمّذ لأستاذ استحال منه رواية هذه القصص إلّا عن وحي الله وتنزيله.

والثاني: أنّه يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة (بألفاظ مختلفة)[6]، وكل (ذلك)[7] متشابهة في الفصاحة، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة (مرة واحدة)[8]

---

(1) [في] زيادة من (ب).
(2) [وأصناف المشركين] في (ب): [والأصنام والمشركين].
(3) [على] زيادة من (ب) يقتضيها السياق.
(4) [فهي الاستدلال] في (ب) [فهو أن يستدل].
(5) [بألفاظ مختلفة] ساقط في (ب).
(6) [بألفاظ مختلفة] ساقط في (ب).
(7) [ذلك] ساقط من (ب).
(8) [مرة واحدة] ساقط من (ب).

حيث إن الحاجة إلى علم الطب أشد، وعلم الحساب أشرف منهما من حيث إن براهين هذا العلم أقوى، وعلم الأصول يستجمع لهذه الخصال:

أمّا شرف الموضوع فذلك لأنّ المبحوث عنه ذات الله وصفاته وقدسه وعظمته، ولا شكَّ أنها أشرف، وأما شدة الحاجة فظاهر، لأن الحاجة إما في الدّين وإما في الدّنيا، أمّا في الدّين فلأن من عرف هذه المطالب استحق الثواب العظيم وتخلّص من العقاب العظيم[1] وصار من زمرة الملائكة المقربين في جوار ربّ العالمين، ومن جهلها صار محروماً من الثواب العظيم مستوجباً للعقاب الأليم وصار من زمرة الأبالسة والشّياطين، وبقي في دركات الضَّلالة أبد الآباد ودهر الدّاهرين وأما في الدنيا، فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في الثّواب والرّهبة من العقاب وإلاّ لوقع الهرجُ والمرج في العالم.

وأما قوة براهين هذا العلم فلأن براهينها مركبة من المقدمات البدهية الضرورية، وهي أقوى العلوم والمعارف فثبت أن علم الأصول مستجمع خصال الشرف فوجب أن يكون أشرف العلوم.

الحجة الخامسة: أن هذا العلم لا يتطرّق إليه النّسخ والتغيير ولا يختلف باختلاف النواحي والأمم بخلاف سائر العلوم فوجب أن يكون أشرف العلوم.

الحجة السادسة: أن الإنسان لا يكون من أهل النّجاة والدّرجات إلا مع هذا العلم، وقد يكون من أهل النجاة وإن لم يتعلم شيئاً من الفقه أصلاً ألبتة.

أما أنه لا بُدَّ في النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله العليّ وصفاته الحقة لا يكون من أهل النجاة بالإجماع، وأما أنه قد تحصل النجاة بدون الفقه فلأن الإنسان قبل البلوغ لا يكون مكلفاً بشيء من الأعمال؛ فإذا بلغ وقت الضحوة ففي هذه الساعة لم يجب عليه شيء من الصلوات والزكوات والصّيامات وسائر العبادات؛ فلو مات في هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد لقي الله مؤمناً حقاً. ولو قدرنا أن هذا الذي بلغ كان امرأة ثمَّ لمّا بلغت حاضت وبقيت مدةً أخرى في البلوغ وهي غير مكلفة لا بالصلاة ولا بالصّيام ولا القراءة فإذا انقضى زمان حيضها ماتت فهي قد لقيت حضرة الله تعالى مؤمنةً حقاً فعلمنا أن النجاة واستيجاب الدرجات لا يتوقف على الفقه وهي موقوفة

(1) العظيم: كذا في الأصل، والظاهر: الأليم بقرينة قوله في الفقرة الآتية: (للعقاب الأليم).

هؤلاء سبب الشرّ والفتنة وذلك قبيح والحكيم لا يفعل القبيح؛ فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] والمعنى - والله أعلم - : إنّي لما كنت عالماً بكل المعلومات كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم[1] حكمةً لا تعلمونها[2] أنتم فلمّا سمعوا ذلك سكتوا.

فأمّا مناظرة الله تعالى مع إبليس - نعوذ بالله منه - فالقرآن ناطق بها، وأمّا الأنبياء فأوّلهم آدم عليه السلام وقد أظهر الله تعالى الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة وذلك محض الاستدلال.

وأما **نوح** عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32] ومعلوم أنّ مجادلة الرسول ﷺ مع الكفار لا تكون في تفصيل الأحكام الشرعية فلم يبق إلا أنها كانت في التوحيد والنبوّة وأيضاً فإنه ﷺ لمّا أمرهم بالاستغفار في قوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: 10] ففي الحال ذكر ما يدلّ على التوحيد فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح: 15-16].

وأمّا **إبراهيم** عليه السلام فالاستقصاء في شرح أحواله يطول في هذا الباب[3]، وله مقامات: أحدها مع نفسه وهو قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: 76]، إلى آخر الآية، وهذه هي طريقة المتكلمين فإنه استدل بأفولها وتغيّرها على حدوثها ثم استدلّ بحدوثها على وجود محدثها كما أخبر الله تعالى عنه في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: 78 - 79]، ثمّ إن الله تعالى عظّم شأنه بسبب ذلك فقال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [الأنعام: 83]، وأيضاً أتى وقت دعائه[4] ما هو محض الاستدلال وهو قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ [الشعراء: 78 -79] إلى آخر الآية.

---

(1) وإيجادهم في (ب) واتخاذهم.
(2) تعلمونها في (ب) تعلمون بها.
(3) يطول في هذا الباب في (ب) (في هذا الباب يطول).
(4) أتى وقت في (ب) قال في وقت.

بالألفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى بالألفاظ الفصيحة؛ فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر، فدلَّ هذا على أن معظم القرآن في علم الأصول فلننشر إلى (معاقد)[1] الدلائل أما دلائل التوحيد فتارة (بانخلاق)[2] الإنسان من النطفة والله تعالى ذكر هذه الدلائل في القرآن أكثر من ثمانين مرة، وتارة بدلائل الآفاق وهي أحوال السّماء والأرض والهواء والنبات والحيوان، وهي أظهر من أن يحتاج للشرح.

وأمّا الدلائل الدالة على الصفات فنقول: أما الذي يدل على العلم فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:5] (ثم أردفه بقوله جلّ وعزّ)[3]: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:6] (و)[4] هذا هو دليل المتكلمين فإنهم يستدلّون بأحكام الأفعال وإتقانها على علم الفاعل؛ فهاهنا استدلّ سبحانه بتصوير المصور في ظلمات الأرحام على كون الفاعل عالماً وقال أيضاً: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:14] وهو (غني عن)[5] تلك الدلالة وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام:59] وهذا تنبيه على كونه تعالى عالماً بكل المعلومات لأنه تعالى يخبر عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر، وذلك يدلّ على كونه[6] تعالى عالماً بالمغيبات.

وأما صفة القدرة فكل ما ذكر الله تعالى في القرآن من الثمار المختلفة والحيوانات المختلفة مع استواء تأثير الطبايع والأفلاك فإنه يدلّ على صفة القدرة، وسيجيء الاستقصاء في هذه الدلائل القرآنية إن شاء الله تعالى.

الحجة التاسعة: أن الله تعالى حكى عن أكثر الأنبياء: أنّهم كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلائل ولنذكر ما يدلّ على المقصود: أمّا الملائكة فإنّهم لمّا قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30] كان المراد أنّ خلق أمثال

---

(1) [معاقد] في (ب) معنى.
(2) [بانخلاق] في (ب) بخلق.
(3) [ثم أردفه بقوله جل وعز] ساقط من (ب).
(4) [و] ساقط في (أ).
(5) [غني عن] في (ب) عين.
(6) في (ب) [على أن كونه].

والعلم، أمّا القدرة فقوله: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وسمّي المخبوء بالمصدر، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال، وإخراجه من السماء بالغيث ومن الأرض بالنبات، وتقريره ما قدّمنا.

وأما العلم فيدلّ على ثبوته[1] قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرّد على من يعبد الشمس وتلخيص الدلالة على قانون الجدل على وجهين:

الأول: الإله يجب أن يكون قادراً على[2] إخراج الخبء ويكون عالماً بالخفيات والشمس ليست كذلك فهي لا تكون إلٰهاً، أما أنه سبحانه يجب أن يكون قادراً عالماً بالخفيات فلما أنه كان[3] واجب الوجود لذاته فلا يختص قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض، وأمّا أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناهٍ وكلّ ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون الشمس قادرة على الخبء وعالمة بالخفيات وإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها[4] كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار، فرجع حاصل هذا الدليل إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42].

والوجه الثاني:[5] أن هذا إشارة إلى دليل إبراهيم في قوله: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إلى آخر الآية، وبيانه أنّه تعالى هو الذي يخرج الشّمس من المشرق إلى المغرب بعد أفولها فهذا هو المراد بإخراج الخبء في السمٰوات، وهو المراد في قول إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] ومن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾[6] [البقرة: 258] ومن قول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وحاصل الكلام

---

(1) وأما العلم فيدل على ثبوته ساقط في (ب).
(2) على إخراج إلى قوله بالخفيات ساقط في (أ) ويوجد بدله: (عالماً على الوجه المذكور فلما).
(3) كان: ساقط في (أ).
(4) ذلك لم يعلم من حالها ساقط (أ).
(5) والوجه الثاني ساقط في (ب).
(6) ومن قوله إلى المشرق ساقط من (ب).

وثانيها:[1] حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه وهو قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: 42] إلى آخر الآيات.

وثالثها: حاله مع قومه تارة بالقول وأخرى بالفعل أمّا القول فقوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: 52] وأما الفعل فقوله: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: 58].

ورابعها: حاله مع ملك زمانه حيث قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258] إلى آخر الآية فهذا كله مباحث إبراهيم عليه السلام في معرفة المبدأ، وأمّا بحثه في معرفة المعاد فهو قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: 260] آخره.

وأمّا **موسى** عليه السلام فانظر إلى مباحثته مع فرعون. واعلم أن موسى عليه السلام كان يعول في الاستدلال على دلائل إبراهيم، وذلك لأنه حكى في سورة طه أن فرعون قال له ولهارون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 49-50]. وهذا هو الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ ثم حكى تعالى عن موسى في سورة الشعراء أنه قال لفرعون: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهذا هو الذي عوّل عليه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فلما لم يكتف فرعون بذلك وطالبه بدليل آخر فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [الشعراء: 28] وهذا هو الذي عوّل عليه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 258] فهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء الأنبياء ثم إن موسى عليه السلام لمّا فرغ من تقرير دلائل التوحيد ذكر بعده دلائل النبوة فقال: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: 30] فهذا يدل على أنه عليه السلام فرّع بيان النبوّة على بيان التوحيد والمعرفة.

وأمّا **سليمان** عليه السلام فله مقامان: أحدهما في إثبات التوحيد والآخر في إثبات النبوّة، أما المقام الأول في إثبات التوحيد فهو قوله تعالى حكاية عنه: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: 25 ـ 26] وهذه الآية دالة على وصف الله بالقدرة

(1) وثانيها إلى قوله «يخرج الخبء في السماوات» ساقط في (ب).

الصحيح عندنا أن الآتي بذلك العرش هو سليمان وذلك لأنه عليه السلام إنما قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ على سبيل التحدي فقال العفريت: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ فقال سليمان عليه السلام للعفريت: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فهذا الكلام قاله سليمان للعفريت تقريراً للتحدي به الذي ذكره أولاً وكسراً للعفريت وإظهاراً للعجز والذي يدل عليه وجوه:

[الأول]:[1] أن سليمان عليه السلام قد ذكر دلائل التوحيد أولاً فافتقر بعد ذلك إلى تقرير دلائل النبوّة مع بلقيس فإن سليمان عليه السلام قد كلفها للإقرار بالتوحيد والنبوّة، فلما ذكر دلائل التوحيد وجب عليه أن يذكر بعد ذلك النبوة وهذا معجز دال على النبوّة فوجب جعله معجزاً لسليمان عليه السلام حتى يتم الدليل.

[الثاني]: أن لفظة [الذي] موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأن عنده علم الكتاب هو سليمان قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: 79] وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16] فوجب انصرافه إليه، أقصى ما في الباب أن آصف أيضاً كان عالماً بالكتاب إلا أن سليمان كان أعرف به من آصف لأن الرسول أعرف بكلام الله من غيره فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان أولى.

[الثالث]:[2] أن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصل لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان وذلك غير جائز.

[الرابع]: أن سليمان لو افتقر في هذا العرض إلى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق.

[الخامس]: أن سليمان قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40] وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله بدعاء سليمان[3] فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان عليه السلام بتقرير التوحيد والنبوة. والله أعلم.

أما **عيسى** عليه السلام فإنه أول ما تكلم شرح أمر التوحيد فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: 30] وشهادة حاله كانت دالة على صدق مقالته وهذه الكلمة الواحدة

---

(1) الأول في (ب) منها في (ب) سقط هذا الوجه إلى قوله الثاني.
(2) الثالث: سقط هذا الوجه والوجه الرابع من (ب).
(3) فهذا ما يتعلق إلى الحجة العاشرة ساقط في (ب).

يرجع إلى أنّ أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبّر قاهر؛ فكانت العبادة لقاهرها ومدبّرها والمتصرّف فيها أولى.

وأمّا إخراج الخبء في الأرض فالمراد منه إخراج النطفة من بين الصلب والترائب، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ومن قول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

فإن قيل[1]: أن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدّما دلائل النّفس على دلائل الأفلاك، فإن إبراهيم عليه السلام قال أولاً: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ وموسى عليه السلام قال أولاً: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ثم قال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ فلِمَ عكس سليمان هذا الترتيب؟ فقدّم دلائل السمٰوات على دلائل الأنفس فقال: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قلنا: إن إبراهيم وموسى عليهما السلام كانت مناظرتهما مع من ادّعى إلٰهية البشر فإن (نمرود وفرعون) كل واحد منهما كان يدّعي الإلٰهية فلا جرم ابتدأ إبراهيم وموسى عليهما السلام بإبطال إلٰهية البشر ثمّ انتقلا إلى إبطال إلٰهية الأفلاك والكواكب. وأمّا سليمان عليه السلام فإنّه كانت مناظرته مع من يدّعي إلٰهية الشمس؛ فإنّ الهدهد قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: 24] فلا جَرَم ابتدأ بذكر السمٰوات ثم بذكر الأرضيّات ثمّ إن سليمان عليه السلام لمّا تمّم دلائل التوحيد قال بعده: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ والمراد به أنّه لمّا بيَّن افتقار السمٰوات والشمس وسائر الكواكب إلى مدبّر خالق ذكر بعد ذلك أنّ كل ما كان جسماً فهو مخلوق ومربوب سواء كان عظيماً أو صغيراً فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فهذا مقام سليمان عليه السلام في تقرير دلائل التوحيد. أمّا المقام الثاني له عليه السلام في تقرير دلائل النبوّة فهو قوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: 38-40] واعلم أن كثيراً من الناس قالوا: ذلك الشخص الذي قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النمل: 40] هو غير سليمان وظنوا أن الكاف في قوله: ﴿ءَاتِيكَ﴾ خطاب مع سليمان عليه السلام وعلى هذا التقدير لا بد وأن يكون ذلك القائل غير سليمان عليه السلام إلا أن هذا ضعيف، بل

(1) فإن قيل إلى قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ ساقط من (ب).

كان من وجوه: تارة بالطعن في القرآن من حيث أنه مشتمل على ذكر خسائس الحيوانات من البعوضة والنملة والذبابة أجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾ [البقرة: 26] وتارة بأن القرآن سحر وشعر فأجاب الله عنه بقوله:

﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23] وتارة بالتماس سائر المعجزات وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90] فأجاب الله تعالى عنه بقوله: بأن الدليل لما تمّ لم يبق للاقتراح في الزيادات فائدة وهو قوله: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: 93] وتارة بأن هذا القرآن نزل نجماً نجماً وذلك بطريق [التهمة] فأجاب الله عنه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: 32] وتارة يحتمل أن يكون هذا القرآن من إلقاء الجن والشياطين كما في الشعر فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ [الشعراء: 221-222] الذين أنكروا الحشر والنشر والقرآن مملوء من الردّ عليهم. فثبت بمجموع ما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الأنبياء عليهم السلام.

[الحجة العاشرة]: على نهاية شرف هذا العلم[1] قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125] وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرائع لأن من أنكر نبوّته فلا فائدة في الخوض معه في تفاريع الأحكام ومن أثبت نبوّته فلا يخالفه[2] فعلمنا أن هذا الجدال المأمور به كان في تقرير مسائل الأصول وإذا ثبت هذا في حق الرسول ثبت في حق أمته لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: 153] ولقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] ولقوله ﷺ: «**سنتي وسنة الخلفاء من بعدي**».

[الحجة الحادية عشرة]:[3] قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [الحج: 8].

---

(1) هذا العلم في (ب) علم الأصول.
(2) في (ب) فإنه لا يخالفه.
(3) الحجة الحادية عشرة من هنا إلى نهاية الحجة الرابعة عشر ساقط في (ب).

كانت جامعة لكل المقاصد، أما دلالته على التوحيد فلأن إنطاق الطفل في زمن الطفولة لا يتأتى إلا من الإلٰه القادر على كل المقدورات.

وأما دلالتها على النبوة فلأن اختصاصه بهذا الفعل الخارق للعادة دال على النبوة. وأما دلالتها على براءة أمه عن طعن اليهود فلأنه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية والدرجة الشريفة، ثم إنه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض انتقل إلى بيان الشرائع فقال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: 30].

وأما **محمد** ﷺ فاعلم أن اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج إلى مزيد تقرير فيه، وذلك لأنه عليه أفضل الصلاة والسلام كان مبتلى بالرد على جميع فرق الكفار **(فالأول)**: الدهرية الذين كانوا يقولون: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية:24] والله تعالى أبطل قولهم بأنه خالق الدهر والزمان و**(الثاني)**: الذين ينكرون القادر المختار والله أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات وأصناف الحيوانات مع اشتراك الكل في تأثير الطبائع والأفلاك... و**(الثالث)**: الذين أثبتوا شريكاً مع الله وذلك الشريك إما أن يكون علوياً أو سلفياً، والشريك العلوي فمنهم من أثبت ذلك الشريك هو الكوكب والشمس والقمر والله تعالى أبطله بدليل الخليل وهو قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾[الأنعام:76] ومنهم من قال هو النور والظلمة والله أبطله بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] ومنهم من قال: «يزدان وأهرمن» والله أبطله بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:22] وبقوله: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42] وبقوله: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: 91]. أما الشريك السفلي فمنهم من قال بإلٰهية المسيح والله أبطله بقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: 172] ومنهم من قال أنه هو الوثن والله أبطله بقوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17]. و**(الرابع)**: الذين طعنوا في أصل النبوة وحكى الله عنهم قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 94] ثم إن الله ردّ عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: 32]؟ و**(الخامس)**: الذين طعنوا في التكليف تارة بأنه لا فائدة فيه والله تعالى ردّ عليهم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7] وأخرى بأن الحق هو الخير وهوينا في صحة التكليف وأنه تعالى أجاب عنه بقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23] و**(السادس)**: الذين سلموا أصل النبوة وطعنوا في نبوة محمد ﷺ والقرآن مملوء من الرد عليهم، ثم إن طعنهم

إلى وقت الحاجة ضاراً فثبت بمجموع هذه الدلائل[1] وجوب تقديم الأصول على الفروع فلا جرم، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:19] فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار.

(1) الدلائل في (ب) البيانات.

وذلك يقتضي أن الجدال مع العلم لا يكون مذموماً وأيضاً حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32] ومن المعلوم أن ذلك الجدال كان في تقرير دلائل الأصول وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدال في تقرير الدلائل مستحسن ثبت أن المراد من قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 58] محمول على ذم الجدال في تقرير الباطل.

[الحجة الثانية عشرة]: أنه تعالى أمر بالنظر فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: 82] ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: 17] ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: 41] ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185].

[الحجة الثالثة عشرة]: أنه تعالى ذكر التفكير في معرض المدح فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: 13] وأيضاً ذم المعرضين فقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: 105] ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179].

[الحجة الرابعة عشرة]: أنه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23] وقال: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: 170] ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: 74] وقال: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: 42] وقال في والد إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: 46] وذلك يدلّ على وجوب النظر وفساد التقليد.

[الحجة الخامسة عشرة]: أنه تعالى حكى عنهم أنهم سألوا محمداً ﷺ عن أمور: كقوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222] فذكر في هذه المواضيع كذا وكذا إلاّ في آية واحدة وهي أنهم سألوا عن مسألة أصولية وهي قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: 105] فها هنا ذكر حرف التعقيب يعني يا محمد: اذكر هذا الجواب في الحال لأن هذه المسألة مسألة أصولية فلا يجوز تأخير الجواب عنها لأن ذلك يقدح في الإيمان. أما سائر المسائل فإنها فرعية فلا يكون تأخير الجواب عنها

الثاني:[1] أن يونس ﷺ إنما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ وكان في الحضور والشهود، وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة فقال: أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير وأيضاً فقد قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [المؤمن: 85] وفرعون قالها عند البأس والغرغرة فلم ينفعه إيمانه. نسأل الله العفو والعافية من كلّ لمّة ومن مكر الله ونسأل الله أن يختم لنا بخير والمسلمين آمين.

الثالث: أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد لبني إسرائيل فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأما يونس ﷺ فإنه إنما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز والانكسار وذلك لأنه كان ينادي في الظلمات فحصل له العجز والانكسار بسبب تلك الظلمات، ثم قال بعده: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فحصل له العجز والانكسار بسبب الزلة وهي خروجه بلا إذن من الله تعالى فلما كانت هذه الكلمة مسبوقة بالعجز والانكسار ملحوقة بهما لا جرم صارت مقبولة لقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

الرابع: أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة للمصلحة لا للعبودية بل لطلب الخلاص من الغرق بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس: 90] [2] ولو خلص لعاد [على] طغيانه وكفره كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وأما يونس ﷺ فهو إنما[3] قالها لما حصل له من الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية بدليل قوله بعده: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فظهر الفرق[4] من هذه الوجوه.

(الفضيلة الثانية):[5] لهذه الكلمة أنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة من الصلوات والصيام والزكاة والحج ويستحيل أن يكون موافقاً لك في شيء منها، ثم أمرك بأن تقول لا إله إلا الله ثم إن الله تعالى يوافقك فيها فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾

---

(1) (الثاني أو يونس) إلى نهاية الوجه الثالث ساقط من (ب).

(2) (ولو خلص) إلى (وأما يونس) ساقط من (ب).

(3) فهو إنما ساقط من (ب).

(4) فظهر الفرق من (ب) فضيلة الفرق.

(5) الفضيلة الثانية غيّر التعبير من الفائدة إلى الفضيلة هنا وفي ما بعده.

[الفصل الثاني]:
في فوائد لا إلٰه إلا الله

(الفائدة الأولى): أن هذا الذكر لمّا كان أفضل الأذكار فالعدو لما جاءته المحنة فزع إليه والولي لما جاءته المحنة فزع إليه. أما العدو فلأن فرعون لما قرب من الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:90] والمعنى أنه لا إلٰه يقدر على أن يجعل النار راحة كما في حق إبراهيم عليه السلام والماء عذاباً كما في حقي ﴿إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:90]، وأما الولي فكما في حق يونس عليه السلام قال تعالى: في حقه:[1] ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمعنى لا إلٰه إلا أنت فإنك أنت الذي تقدر على حفظ الإنسان[2] حياً في بطن الحوت ولا قدرة لغيرك على هذه الحالة، فإن قيل كل واحد منهما نادى فلم قبل نداء أحدهما ولم يقبل نداء الآخر؟[3]. قلنا الفرق بينهما من وجوه:

الأول: أن يونس عليه السلام قد كان[4] سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة فسبق المعرفة إعانة على قبولها منه، وأما فرعون فقد تقدمت له سبق الفكرة وذلك لأن الذي تقدم له في النداء إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: 23 ـ 24] وأما يونس عليه السلام فقد كان ينادي الله تعالى: قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: 48] وأيضاً قال: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: 143 ـ 144] وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات يحفظه في الفلوات[5].

---

(1) في حقه ساقط من (ب).
(2) في حقه الإنسان في (ب) حفظ.
(3) الآخر في (ب) الثاني.
(4) (كان) ساقط في (ب).
(5) حفظ إلخ في (أ) حفظ الله في الخلوات والفرحات يحفظه في الفلوات والترحات ولا يضيع عنده شيء.

(الرابعة)[1]: أنه تعالى سمَّاك وقت التخليق مختاراً فقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ وفي موضع الذنب جاهلاً: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وفي موضع الرزق دابة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وفي موقف الطاعة أجيراً: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ وعند الشهادة عالماً: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ ثم إن العلم أفضل الدرجات: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ والغرض منه التنبيه على الدرجات فأنت من حيث أتى خلقتك مختاراً فلك درجة موسى حيث قال: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ وحين أذنبت فأنت جاهل والجهل عذر من بعض الوجوه، وحيث تشتغل بطلب الرزق كالبهيمة لأنه تكفل برزقك فما هو مقدر لك يصل إليك وما ليس مقدراً لك لا يصل إليك فكان الطلب عديم الفائدة فكان شبيهاً بأفعال البهائم وحين تشتغل بالعمل كنت كالأجير وكل ذلك درجات نازلة، أما حين تشتغل بالشهادة والتوحيد فأنت من العلماء الغائصين في لجة بحر التحقيق والتوحيد وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: 11].

الخامسة: قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 17] وقعت هذه الإشارة على العصا وعلى اليد أما العصا فقوله: «تلك» وأما اليد فقوله: «بيمينك» وصارت العصا من قوة هذه الكلمة تلقف حبال السحرة وعصيّهم، وصارت اليد يداً بيضاء﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ وكلمة لا إله إلا الله وهي صفة وحدانيته وفردانيته وجلاله وعزته ألا يستقل بإفناء آثار العصيان عن قلب العبد وإنارة روحه بنور المعرفة والهداية.

السادسة: عصا موسى أخرج من الجنة فبطل عصيّ السحرة عندها فهذه الكلمة إنما ظهرت من شجرة العزة والربوبية والعظمة ونرجو أن يبطل الذنوب عندها.

السابعة: حكي[2] عن الحجاج أنه أمر بقتل رجل فقال: لا تقتلني حتى تأخذ بيدي وتمشي معي[3]، فأجابه إليه فقال الرجل: بحرمة صحبتي معك في هذه الساعة

---

(1) والرابعة من هنا إلى السابعة حكى ساقط من (ب).
(2) حكى في (ب) روي.
(3) معي في (ب) توحد (في دارك) زيادة.

إلى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ والمقصود من التكرير[1] وجهان:

الأول: أن يكون العبد مواظباً على تكريرها طول عمره والثاني كأنه قال:[2] عبدي جعلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها فاجعلها أنت أيضاً أول عمرك وآخره حتى تفوز بالنجاة والسلامة، وها هنا نكت:

(الأولى): أنه تعالى جعلك ثالث نفسه في هذه الآية وكفاك هذا فخراً.

(الثانية): أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيراً فجاءه جبريل عليه السلام فقال له[3]: «إن الله يأمرك أن تتخذ فلاناً وزيراً لك[4] الذي شهد لك بالبراءة من الفاحشة قد بلغ مبلغاً من العلم فاتخذه وزيراً» فنظر إليه يوسف عليه السلام فكان في غاية الدناءة فسأل جبريل عليه السلام عن السبب فقال: إن له عليك حق الشهادة لأن هو الذي شهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ الآية.

والإشارة إلى من شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا فمن شهد لله[5] بالوحدانية والصمدية والبراءة من المعايب والنقائض والأضداد والأنداد والجلال والتنزيه جدير وحقيق بأن يجد مغفرته ورحمته في العقبى ولله الحمد.

(الثالثة): في الحديث أن الله[6] ملائكته يؤمنون عند تأمين الإمام فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه[7] والإشارة إلى من وافق تأمينه تأمين الملائكة.. مرة صار مغفوراً له[8] فمن وافقت شهادته بوحدانية الله شهد الله ألف ألف مرة أن يصير مغفوراً[9].

---

(1) من التكرير ساقط من (ب).
(2) قال في (ب) قيل.
(3) فقال له في (ب) وقال.
(4) الذي شهد إلى وزيراً ساقط من (ب).
(5) بالوحدانية إلى قوله ولله الحمد في (ب) هكذا «بالتوحيد والجلال ألا يجد مغفرته ورحمته في العقبى».
(6) لله إلخ في (ب) إن الله وملائكته يؤمنون.
(7) من ذنبه في (ب) يوجد (وما تأخر).
(8) مرة إلخ في (ب) مرة واحدة غفر له.
(9) شهد الله إلى مغفوراً في (ب) شهادة الملائكة آلاف مرة ألا يصير مغفوراً له.

لا إلٰه إلا الله فإنه يصعد بنفسه، دليله قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ثم قال[1]: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10] أي العمل الصالح يرفعه الملك إلى الله تعالى[2] هكذا قال بعضهم[3].

الفضيلة الرابعة: قول[4] بعضهم: الحكمة في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: 1 ـ 2] أن يوم القيامة يتجلى نور[5] كلمة (لا إله إلاّ الله) فيمحق في ذلك النّور[6] نور الشمس والقمر؛ لأن تلك الأنوار مجازية عرضيّة نور: (لا إلٰه إلا الله) نور ذاتي، واجب الوجود لذاته والمجاز يبطل في مقابلة الحقيقة، فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا النّور بل يبطل كل وجود في مقابلة هذه الوجود كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88].

الفضيلة الخامسة[7]: أن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحجّ :فإن التكاليف الظاهرة تزول في عالم القيامة أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على أنّهم مواظبون على الحمد؟ والمواظبة على الحمد توجب المواظبة على الذكر والتوحيد وإنما قلنا أنهم مواظبون على الحمد، لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: 74] ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34] ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: 10] ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: 70] فثبت أنهم مواظبون على الحمد والمواظبة على الحمد مواظبة على الذكر لا محالة فعلمنا أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد.

الفضيلة السادسة: ما روي في الآثار أنّه إذا قال العبد: لا إلٰه إلا الله فإنه

---

(1) ثم قال ساقط من (أ).
(2) تعالى في (ب) عز وجلّ.
(3) هكذا قال بعضهم ساقط من (ب).
(4) قوله في (ب) قال.
(5) نور ساقط من (ب).
(6) النور ساقط من (ب).
(7) الفضيلة الخامسة إلخ ساقطة من (ب).

أن لا تقتلني، فعفا عنه. فهاهنا[1] وقعت للمؤمن[2] صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة فنرجو الله أن يغفر له[3].

الثامنة[4]: وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة إبراهيم قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وأمومة أزواج النبي ﷺ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6] وأخوة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] واستغفار الأنبياء: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: 19] واستغفار الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: 7] وشفيعاً مثل محمد ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» ومشاركة الله في الاسم: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23]؛ فذنبه ما أزال عنه هذه التشريفات أفترى أنّه يخرجه عن رحمة الرحمٰن وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين؟!

التاسعة: يحكى أنه عرض على (نصر بن) أحمد[5] عسكره فكان يسأل عن أسماء الرجال فيجيبونه؛ فسأل واحداً عن اسمه فسكت لأنه كان سميّه ففطن لذلك فأعطاه خلعة جسيمةً؛ فإذا كان حال سميّ الملك ذلك فكيف بمن كان سميّ ربّه تعالى؟

وفي الخبر: (يؤتى برجل يوم القيامة اسمه محمد فيقول الله تعالى له: أما استحييت أن عصيتني وأنت سمي حبيبي؛ فأنا أستحي أن أعذبك وأنت سميّ حبيبي).

فإذا كان لا يعذّب سميّ رسوله ﷺ فنرجو من فضله أن لا يعذب سميّ نفسه وهو المؤمن.

الفضيلة الثالثة: لهذه الكلمة أن كل طاعة فإنه يصعد الملك بها فأمّا قوله:

(1) فهاهنا في (ب) وهاهنا.
(2) للمؤمن في (ب) للمؤمنين.
(3) له في (ب) لهم.
(4) الثامنة من هنا إلى (الفضيلة الثالثة لهذا الكلمة) ساقط من (ب).
(5) هو نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني أبو الحسن الشهير بالسعيد ولد في بخارى سنة 293هـ ـ 905م، تولى الإمارة بعد مقتل أبيه عام 301هـ إلا أن الرعية استصغروه وكاد ينفرط عقد إمارته إلا أنه ما لبث أن شبّ ذكياً مقداماً فجمع الجموع وقاتل الخصوم فاتسع سلطانه فشمل خراسان وجرجان والري ونيسابور وتلك الأطراف. الأعلام جـ8/ 338 نقلاً عن ابن خلدون (4/ 336) وابن الوردي (1/ 275) وابن الأثير (8/ 130) وشذرات الذهب (20/ 331).

والثالث[1]: يروى أنّ المأمون لمّا انصرف من المرو يريد العراق واجتاز نيسابور وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا فقام إليه قوم من المشايخ وقالوا: نسألك بحق قرابتك من رسول الله ﷺ أن تحدّثنا بحديث ينفعنا؛ فروى عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى أنه قال: «**لا إلٰه إلا الله حصني، من دخل حصني أمن من عذابي**»[2].

والرابع: روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**يفتح الله أبواب الجنة، وينادي مناد من تحت العرش أيتها الجنة وكل ما فيك من النعم لمن أنتِ فتنادي الجنة وما فيها: نحن لأهل لا إلٰه إلاّ الله ونشتاق إلى أهل لا إلٰه إلاّ الله ولا نطلب إلاّ أهل لا إلٰه إلاّ الله ولا يدخل علينا إلاّ أهل لا إلٰه إلاّ الله، ونحن محرّمون على من لم يقل لا إلٰه إلاّ الله ومن لم يؤمن بلا إلٰه إلاّ الله، وعند هذا تقول النار وكلّ ما فيها من العذاب: لا يدخلها إلاّ من أنكر لا إلٰه إلاّ الله ولا أطلب إلا من كذّب بلا إلٰه إلاّ الله وأنا حرام على من قال: لا إلٰه إلاّ الله ولا أمتلئ إلا بمن جحد لا إلٰه إلاّ الله وليس غيظي إلا على من أنكر لا إلٰه إلاّ الله قال: فتجيء رحمة الله ومغفرته ويقولان: أنا لأهل لا إلٰه إلاّ الله وناصر لمن قال لا إلٰه إلاّ الله ومحبّ لمن قال لا إلٰه إلاّ الله ومتفضّل على من قال لا إلٰه إلاّ الله ويقول الله تعالى: أبحت الجنة لمن قال لا إلٰه إلاّ الله وحرمت النار على من قال لا إلٰه إلاّ الله وأغفر كل ذنب لمن قال لا إلٰه إلاّ الله ولا أحجب رحمة ومغفرة عمّن قال لا إلٰه إلاّ الله وما خلقت الجنة إلاّ لأهل لا إلٰه إلاّ الله فلا (نلحظ)[3] أهل لا إلٰه إلا آلله إلا بما يوافق لا إلٰه إلا الله**»[4].

= وورواه ابن عساكر من حديث علي ابن أبي طالب وفيه عبد الله أحمد بن عامر. قال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء رواه الحاكم في تاريخ نيسابور وأبو نعيم في الحلية، والقضا علي في مسند الشهاب من رواية علي بن موسى عن آبائه وهو ضعيف جداً قال ابن طاهر في الكشف عن أخبار الشهاب رواية عن علي الرضي في الحلية أبو الصلب الهروي متفق على ضعفه وراوية عن علي عند القضا عن أحمد بن علي بن حدقة متهم بالوضع، وأما قول صاحب الفردوس أن هذا الحديث ثابت مشهور فمردود عليه. انتهى.

(1) والثالث إلخ من هنا إلى قوله: والسادس عن أنس إلخ ساقط من (ب).

(2) . . . رواه القضا علي في مسند الشهاب (1451) من رواية علي بن موسى الرضي عن آبائه وهو ضعيف جداً.

(3) [نلحظ] في الأصل: (نحلط).

(4) . . . لم نجد هذا الحديث في المراجع التي بحوزتنا.

سبحانه[1] يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض)[2]. قال المحقق: السّبب في ذلك أنه كما قال هذه الكلمة فإنه قد ردّ على كل كافر وكافرة تثبت لله ضدّاً ونداً وشريكاً فلا جرم يستحق الثواب بعددهم.

الفضيلة السابعة[3]: قال السديّ[4] في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ الحاء حلمه وحكمه وحجته والميم ملكه ومجده والعين عظمته وعلمه وعزّه وعدله والسين سناؤه وسره والقاف قهره وقدرته، يقول الله تعالى: بحلمي وحكمي وحجّتي وملكي ومجدي وعظمتي وعزّتي وعلمي وعدلي وسناي وسِري وقدرتي وقهري لا أعذّب في النّار من قال مرة: **لا إله إلاّ الله**.

الفضيلة الثامنة: قيل: إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل كلمة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأن صلاتهم وصيامهم يشوبهما الرّياء والسمعة وصدقاتهم يشوبها الحرام ولا إخلاص في شيء منها وأمّا كلمة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهي ذكر الله، والمؤمن لا يذكرها إلا عن صميم القلب.

الفضيلة التاسعة: الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة **فالأول**: قوله عليه السلام: «**أفضل الذكر لا إله إلاّ الله وأفضل الدعاء الحمد لله**»[5]، **والثاني**: عن ابن عمر أنّه عليه أفضل السلام قال: «**ليس على أهل لا إله إلاّ الله وحشة في الموت ولا عند النشر**[6]**، وكأنّي أنظر إلى أهل لا إله إلاّ الله عند الصيحة ينفضون شعورهم من التراب ويقولون: الحمد لله أذهب عنّا الحزن**»[7].

---

(1) سبحانه ساقط من (أ).

(2) لم نجد هذا الحديث في المراجع التي بحوزتنا.

(3) الفضيلة السابعة من هنا إلى قوله، والثاني عن ابن عمر ساقط من (ب).

(4) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير القرشي (أبو محمد) مفسر سكن الكوفة، معجم المؤلفين (جـ2/ 276) وأعيان الشيعة (جـ 12/ 9 ـ 17).

(5) رواه الترمذي (3380 و3443) وابن ماجه (3800) وابن حبان (834 موارد) والخرائطي في فضيلة الشكر (2/ 2) والحاكم (1/ 503) والبغوي في شرح السنة (1268).

(6) النشر: في (ب) النشور.

(7) رواه الطبراني في الأوسط (ص 436 ـ 437 مجمع البحرين) وابن عدي في الكامل (4/ 1582) والخطيب في تاريخ بغداد (1/ 266 و10/ 265) من حديث ابن عمر ورواه الخطيب في تاريخ بغداد (1/ 266 و10/ 265 من حديث ابن عمر ورواه الخطيب 5/ 305 من حديث ابن عباس ولا يصح).

=

أشهد أن لا إلٰه إلاّ أنت وحدك لا شريك لك وأشهد[1] أن محمداً عبدك ورسولك إلاّ كتب الله له به صكاً بالعتق عن النار»[2].

التاسع[3]: عن ابن عمرو قال: قال ﷺ: **«يُجاء برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً كل سجلّ مثل مدّ البصر فيقال له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك الحافظون؟ فيقول: لا يا رب فيقال له: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب فيقول الله تعالى: إن لك عندي وديعة وإنه لا ظلم عليك اليوم فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: لا ظلم اليوم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا ثقل مع اسم الله تعالى[4]».**

العاشر: عن أنس قال: قال ﷺ: **«ما زلت أشفع إلى ربي فيشفّعني حتى أقول: يا رب شفّعني فيمن قال لا إلٰه إلا الله فيقول الله تعالى: هذه ليست لك يا محمد إنما هذه لي وعزّتي وحلمي ورحمتي لا أدع في النار أحداً قال لا إلٰه إلا الله»[5].**

---

(1) وأشهد ساقط من (ب).

(2) . . . لم نجد الحديث في المراجع التي بحوزتنا.

(3) التاسع إلخ من هنا إلى قوله: الأول أسلم نصراني إلى ساقط من (ب).

(4) رواه أحمد (2/ 312 و221)، والترمذي (2639) وحسّنه، وابن ماجه (4300)، وابن حبّان (2524)، والحاكم (1/ 6 و529) وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي ورواه الخطيب في الموضع (2/ 188 و189)، والبغوي في شرح السنة (828).

(5) رواه أبو يعلى (2786)، وابن أبي عاصم في السّنة (828) وهو في حديث أنس الطويل في الشفاعة في الصحيحين.

والخامس: قال عليه السلام: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[1] قال بعض العلماء: إن الله جعل العذاب عذابين أحدهما السيف في يد المسلمين والثاني عذاب الآخرة فالسيف في غلاف يُرى، والنار في غلاف لا يُرى، فقال تعالى لرسول الله ﷺ: من أخرج لسانه من الغلاف (المرئي) وهو الفم فقال: لا إلٰه إلاّ الله أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى، ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السرّ فقال له لا إلٰه إلاّ الله أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرّحمة حتى يكون واحد بواحد ولا ظلم ولا جور.

السادس: عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ: «**من قرأ عند منامه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾** [آل عمران: 19] **خلق الله سبعين ألف خلق يستغفرون له يوم القيامة قال**[2]: **﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾**».

السابع[3]: عن علي بن أبي طالب ﷺ قال ﷺ: «**إن فاتحة الكتاب وآية الكرسي و﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [آل عمران: 26- 27] **معلقات، ما بينهنّ وبين الله حجاب**»، «**يقول الله تعالى: بي حلفت لا يقرأكن أحد من عبادي إلاّ جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه ولأسكنته حظيرة القدس ولأنظرنّ إليه بعين الرحمة كل يوم ستين مرة ولقضيت في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة وأحفظه من كل عدو وحاسد**».

الثامن: قال[4] أبو سعيد الخدري: قال عليه السلام:[5] «**ما من عبد يقول أربع مرات: اللهم إنّي أشهدك وكفى بك شهيداً وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنّي**

---

(1) . . . رواه مسلم (20 و21) من حديث أبي هريرة وكذلك البخاري (3/ 262 و6/ 111 و12/ 275 و13/ 250 فتح الباري الطبعة السلفية) والبخاري (1/ 497 و496) من حديث أنس ومسلم (21) من حديث جابر و(مسلم 22) من حديث ابن عمر ورواه جمع من الصحابة من طرق كثيرة.

(2) قال في (ب) ثم قال.

(3) السابع إلخ ساقط من (ب).

(4) قال في (ب) روى.

(5) قال عليه السلام في (ب) قال عليه السلام.

وقال جعفر الصادق[1] وقد سألوه عن هذه الآية: أن الله يشهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأحدية والأزلية والأبدية ثم خلق الخلق فشغلهم بعبادة هذه الكلمة وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق وشهادتهم له رسم فكيف يستوي الرسم مع الحق؟

ومن أعلى المراتب طاقة تجلّي نور رب الأرباب. وقال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاث مائة وستون صنماً فلما نزل ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ خرّت الأصنام سجّداً حول الكعبة. **وأما خاتمة المجلس ففيها وجوه:**

«الأول»: أسلم نصراني ببغداد أيام الشبلي فقال الشبلي: ما سبب إسلامك؟ فقال: كنت في حال النصرانية أكرم دين النصرانية ورزقت دين الإسلام ببركة إكرام ذلك الدين، فصاح الشبلي وقال: إذا كان من يكرم الدين الباطل والله[2] يرزقه الدين الحق ،فمن يكرم الدين الحق ألا يرزقه الله الرحمة والغفران؟

«الثاني»[3]: يحكى أن رجلاً كان واقفاً بعرفات وكان في يده سبعة أحجار فقال: يا أيها الأحجار السبعة اشهدوا لي أنّي أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فنام فرأى في المنام كأن القيامة قد قامت وحوسب ذلك الرجل فوجب له النار، فلما ساقوا به إلى باب من أبواب جهنم جاء حجر من تلك الحجارة السبعة وألقت نفسها على ذلك الباب فاجتمعت ملائكة العذاب على رفعها فما قدروا ثم سبق إلى الباب الثاني فكان الأمر كما في الأول وهكذا الأبواب السبعة فسيق به إلى العرش فقال الله سبحانه: «عبدي أشهدت الأحجار فلا يضيع حقك وأنا شاهد على شهادتك على توحيدي ادخل الجنة». فلما قرب من باب الجنان فإذا أبوابها مغلقة فجاءت شهادة أن لا إلٰه إلا الله وفتحت الأبواب ودخلها الرجل.

---

(1) هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولد عام 80هـ وتوفي عام 148هـ، يعد من أجلاء التابعين وكان له منزلة رفيعة في العلم أخذ منه جماعة من العلماء منهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، كان صريحاً وجريئاً في مقابلة الظلم والظالمين صادقاً في كلامه لذا لقب بالصادق. تاريخ بغداد (جـ 7/ 162)، وفيات الأعيان (جـ 1/ 105)، جمهرة الأولياء (2/ 75).

(2) والله في (أ) فالله. والشبلي هو أبو بكر بن جحدد الشبلي ولد في بغداد سنة 249هـ صحب أبا القاسم الجنيد، ومن عاصره من المشايخ وصار وحيد عصره علماً وتصوفاً وفقهاً تفقه على مذهب الإمام مالك، مات ببغداد عام 336هـ وقبره اليوم مزار معروف. جمهرة الأولياء (جـ 2/ 152).

(3) الثاني إلخ من هنا إلى قوله السابع سأل إلخ ساقط من (ب).

[تفسير كلمة لا إله إلا الله]

واعلم أن أهل العرفان ذكروا في تفسير لا إله إلاّ الله وجوهاً:

«الأول»: قال ابن عباس: لا إله إلا الله لا نافع ولا ضار ولا معزّ ولا مذلّ ولا معطي ولا مانع إلا الله.

«الثاني»: لا إله يرجى فضله ويخاف عدله ويؤمن جوره فيوكل رزقه ويترك أمره ويسأل عفوه ويرتكب نهيه ولا يحرم فضله إلا الله الذي هو رب المؤمنين وغفار المذنبين وملجأ التائبين وستار المغبونين وغاية رجاء الراجين ومنتهى مقصد العارفين.

«الثالث»: قول العبد لا إله إلا الله إشارة إلى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتشديد إلى الملك المجيد.

فإذا قال العبد: لا إله إلا الله فالمعنى لا إله له الآلاء والنعماء والقدرة والبقاء والعظمة والسناء والعز والثناء والسخط والرضاء إلا الله رب العالمين وخالق الأولين والآخرين وديّان يوم الدين.

«الرابع»: لا إله للرغبة ولا إله للرهبة إلا الله الذي هو كاشف الكربة. عن عمران بن الحصين: قال ﷺ لأبي حصين: «**كم تعبد اليوم من إلهٍ؟**» فقال: أعبد ستة أو سبعة في الأرض وواحداً في السماء، فقال ﷺ: «**وأيهم تعبد برغبتك ورهبتك؟**» فقال: الذي في السماء فقال ﷺ: «**فيكفيك إله السماء**» ثم قال: «**يا حصين لو أسلمت علّمتك كلمتين تنفعانك**» فأسلم حصين، ثم قال: يا رسول الله علّمني هاتين الكلمتين فقال ﷺ: «**قل اللهم ألهمني رشدي واغفر لي واعصمني من شرّ نفسي**».

«الخامس»: قيل: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 18] يشهد الله تعالى في عوالم القدس وحظائر الجلال وسرادقات الصمدية والملائكة يشهدون بهذه الشهادة في السمٰوات وأولو العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين.

السائل: أريد أعلى من هذا فقال الشبلي: أستحي من ذكر كلمة النفي في حضرته والكل نوره، فقال السائل: أريد أعلى من هذا فقال الشبلي: أخشى أن أموت عند الإنكار فلا أصل إلى الإقرار. قال السائل: أريد أعلى من هذا فقال الشبلي: قال الله لرسوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91] فقام السائل وزعق زعقة، فقال الشبلي: الله. فزعق ثانياً فقال الشبلي: الله فزعق ثالثاً ومات فاجتمع أقرباء الفتى وتعلقوا بالشبلي وادعوا عليه الدم وحملوه إلى الخليفة فأذن لهم فدخلوا عليه وادعوا الدم فقال الخليفة للشبلي: ما جوابك؟ فقال: روح حنت فرنت وسمت فصاحت فدعيت فسمعت فعلمت فأجابت فما ذنبي؟

فصاح الخليفة وقال: خلّوا سبيله.

«السابع»: سئل بعض العلماء عن قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: 45] فقال: البئر المعطلة قلب الكافر معطلة[1] من قول لا إله إلا الله، والقصر المشيد قلب المؤمن معمور بقوله لا إله إلا الله.

«الثامن»[2]: جاءت امرأة إلى بعض أكابر الصوفية بقارورة من زيت وقالت: يا شيخ أحب أن تصلح قناديل المسجد من هذا الزيت فقال الشيخ: أيّما أحب إليك نور يصعد إلى السقف أو نور يصعد إلى العرش.

فقالت المرأة: بل نور يصعد إلى العرش، فقال الشيخ: إذا صببت هذا الدهن في القناديل صعد النور إلى السقف وإذا صببته في طعام الفقراء صعد النور إلى العرش، ثم أخذه وأصلح به طعاماً للفقراء فلما أكلوا قال: قولوا من صدق وإخلاص: لا إله إلا الله واجعلوا ثوابها لتلك المرأة.

«التاسع»: روي أن أمية بن خلف الجمحي[3] كان ذا مال وأولاد وكان له صنم

---

(1) معطلة في (ب) معطل.

(2) الثامن إلخ من هنا إلى قوله العاشر قال بعضهم ساقط من (ب).

(3) هو أمية بن خلف بن وهب من بن لؤس أحد جبابرة قريش في الجاهلية ومن ساداتهم أدرك الإسلام ولم يسلم وهو الذي عذّب بلالاً الحبشي في بداية ظهور الإسلام أسره عبد الرحمٰن بن عوف يوم بدر فرآه بلال فصاح بالناس يحرضهم على قتله، سيرة ابن هشام (2/ 52)، والكامل لابن الأثير (2/ 48)، وعيون الأثر (1/ 259).

«الثالث»: رُئي يزيد بن هارون[1] في المنام بعد موته فقالوا له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي قلنا: بالحديث؟ قال: لا، قلنا: بالعلم أو بالزهد؟ قال: لا، قلنا: فبِمَ ذا؟ قال: أتاني ملكان مهيبان فقالا لي: من ربك؟ ومن نبيك وما دينك؟ فقلت: أمثلي يسأل عن هذا وقد كنت أدعو الخلق إليه منذ سبعين سنة؟ فانصرفا عني.

«الرابع»: زاد الماء في بغداد حتى أشرفت على الغرق فقال بعض الصالحين: رأيت في بعض تلك الليالي كأني واقف على طرفٍ وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله غرقت بغداد، فجاء إنسان حسن الصورة وكنت أعلم أنه ملك وجاء آخر من ناحية أخرى فقال أحدهما للآخر: ما الذي أمرت به؟ قال: أمرت بتغريق بغداد ثم نُهيت عنه فقال: ولِم؟ قال: رفعت ملائكة الليل أن البارحة افتضّ ببغداد سبعمائة فرج حرام فغضب الله وأمرني بتغريقها، ثم رفعت ملائكة النهار في صبح هذا اليوم سبعمائة أذان وإقامة فغفر الله لهؤلاء بهؤلاء، قال صاحب الرؤيا: فانتبهت وجئت إلى دجلة فإذا الماء قد نقص.

«الخامس»: قال بعضهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله أربعة وعشرون حرفاً وساعات النهار والليل كذلك فكأنه قيل: كلّ ذنب أذنبته من الصغيرة والكبيرة والسرّ والجهر والخطأ والعمد والقول والفعل في هذه الساعات فهي مغفورة بهذه الحروف والكلمات، وأيضاً قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله سبع كلمات وللعبد سبعة أعضاء وللنار سبعة أبواب كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: 44] وكل كلمة من هذه الكلمات السبع يغلق باباً من الأبواب السبعة على عضو من الأعضاء السبعة وقيل أيضاً: أن كلمة لا إله إلا الله اثنا عشر حرفاً فلا جرم وجب له اثنتا عشرة فريضة ستة ظاهرة وستة باطنة، أما الظاهرة فالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وأما الباطنة فالتوكل والتفويض والصبر والرضى والزهد والتوبة.

«السادس»: سأل الشبلي رجل وقال: لم تقول الله ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: لأن الصدّيق أعطى ماله كله فلم يبقَ له شيء فتجلل بكساء بين يدي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: **«ما خلّفت لعيالك يا أبا بكر؟»** قال: الله. فكذا أنا أقول: الله، فقال

---

(1) هو يزيد بن هارون بن زاذان بن ثابت السلمي بالولاء الواسطي أبو خالد، كان من حفاظ الحديث الثقات كان واسع العلم بالدين، ذكياً، كبير الشأن أصله من بخارى ومولده ووفاته بـ(واسط) قدر من كان يحضر مجلسه بسبعين ألفاً. تاريخ بغداد (14/ 337)، وطبقات الشعراني (1/ 74).

المؤمن وأدخل[1] القبر سأله الملكان عن هذه الشهادة فيشهد بها في قبره فيسمع تلك الشهادة، فإذا جاء يوم القيامة جاء إبليس وأراد أن يأخذه ويضيفه إلى حزبه[2] ويقول: هذا من شيعتي لأنه[3] تبعني في المعاصي فيقول الله تعالى: لا سلطان لك عليه لأني سمعت منه التوحيد في الابتداء، والأنبياء[4] والرسل سمعوا منه ذلك في الوسط، والملائكة سمعوا منه ذلك في الانتهاء، فكيف يكون من شيعتك؟ وكيف يكون لك عليه سلطان؟ اذهبوا به إلى الجنة.

«الحادي عشر»[5]: قال بعضهم :حضرت مجلس يحيى بن معاذ الرازي[6] فقرأ رجل قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: 44] فبكى يحيى وقال: هذا رفقك بمن يقول: «أنا الإله» فكيف رحمتك بمن يقول: أنت الإله؟ هذا رفقك بمن يعاديك فكيف رفقك بمن والاك ويناديك، هذا رفقك بمن يقول أنا الرب، فكيف رفقك بمن يقوله أنا العبد وأنت الرب، إلٰهي قول لا إله إلا الله يهدم كفر خمسين سنة فما يصنع بذنوب ساعة؟

«الثاني عشر»: قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ معنى ذلك القول اللّين أن يقول موسى وهارون لفرعون: يا فرعون وجدت عمرك أربعمائة سنة تقول: أنا ربكم الأعلى فأتيت بقولٍ منكر ما ذكره أحد من الكفار قبلك فقل مرة واحدة: أنت الرب الأعلى ليغفر لك كفر أربعمائة سنة ويطهّرك عن نجاسة الشرك والكفر.

«الثالث عشر»: سُئل الشبلي عن أرجى آية في القرآن فقال قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38] والله تعالى أطلق للكفار[7] دخول الجنة بذكر الكلمة مرة واحدة، أترى أن من واظب عليها[8] طول

(1) وأدخل من (ب) ودخل.
(2) ويضيفه إلى حزبه ساقط من (ب).
(3) لأنه ساقط من (ب).
(4) والأنبياء في (أ) والانتهاء.
(5) الحادي عشر من هنا إلى الثالث عشر ساقط من (ب).
(6) هو يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، (أبو زكريا واعظ، زاهد لم يكن له نظير في عصره من أهل الري أقام ببلخ ومات في نيسابور عام 258، جمهرة الأولياء وأعلام التصوف (2/ 141)، والأعلام للزركلي (9/ 218).
(7) للكفار في (ب) للكافر.
(8) عليها في (ب) على هذه الكلمة.

يعبده من دون الله وكان له اثنا عشر مملوكاً ولم يكن أحب إليه من بلال وكان (الحب) له بيت الصنم فسجد لله بلال في بيت الصنم فكان يقول: أحد، أحد، فبلغ ذلك إلى النّبي ﷺ فسُرَّ بذلك وبلغ هذا الخبر إلى أمية فقال: يا بلال أتسجد لربّ محمد؟ فقال: نعم أسجد لله الكبير المتعال، فوثب إليه أميّة يضربه ويعذبه، فلما كان نصف النهار جعله عرياناً وطلى عليه الزيت وأقامه في الرمضاء يجرّه الصبيان وكان إذا أصابته الشمس وحرّ الرمضاء يقول: أحد، أحد، فمرّ عليه أبو بكر فقال: يا أمية إلى كم تعذب هذا الغلام؟ فقال: اشتريته بمالي فأنا أحقّ بعذابه، فقال: لا كرامة لك تعذب عبداً قال لا إله إلا الله، فاختصما فقال أبو بكر: لي غلام أبيض على دينك فأنا اشتريته بذلك العبد وعشر أواق من الذهب، وفي رواية أخرى بأوقيتين، فقال: لو طلبت مني هذا الغلام بدرهمين بعته منك، فقال أبو بكر: لو ساومتني بكل ما أملكه لاشتريته، فأخذ بيد بلال وستره بردائه ومسح وجهه من التراب وجاء النبي ﷺ وقال: «**يا معشر قريش اشهدوا أنه حرّ لوجه الله تعالى**» فأنزل الله تعالى في شأنه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الغاشية: 1].

«**العاشر**»: قال بعضهم: الحكمة في سؤال الملكين أن الملائكة طعنت في بني آدم بقولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] فقال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] فإذا مات المؤمن بعث الله إلى قبره ملكين فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: الله ربي والإسلام ديني فيأمرهما الله ويقول: «اشهدا بين الملائكة[1] بما سمعتما لأن أقل الشهود اثنان» ثم يقول الله تعالى: «ملائكتي انظروا إلى عبدي وقد أخذت روحه وماله فماله لعدوّه وزوجه[2] في حجر غيره وضيعته في يد غيره، ثم إن الملائكة سألوه في بطن الأرض فلم يذكر عن شيء إلّا عن توحيدي وتنزيهي لتعلموا أني أعلم ما لا تعلمون». وأيضاً قيل[3]: الحكمة في هذا السؤال أن الله قال في الابتداء: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172] فشهد الله عليهم فلما جاؤوا[4] إلى الدنيا شهدوا بالتوحيد وشهد عليهم الأنبياء والمؤمنون بذلك فإذا مات[5]

(1) بين الملائكة ساقط من (أ).
(2) زوجه في (ب) زوجته.
(3) قيل في (ب) قالوا.
(4) جاءوا في (ب) أخرجهم.
(5) المؤمن ساقط من (ب).

الفصل الثالث:
في أسماء كلمة التوحيد[1]

الاسم الأول: التوحيد: وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق وفائدة قولنا على الإطلاق أنه تعالى قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163] أمكن أن يخطر ببال أحد أن يقول: هَبْ أن إلٰهنا واحد فلعلّ إلٰه غيرنا مغاير لإلهنا والله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق فقال: لا إلٰه إلا هو، وذلك لأن قولنا لا رجل يقتضي نفي الماهية ومتى انتفت الماهية انتفى جميع أفرادها إذ لو حصل فرد من أفراد الماهية لحصلت تلك الماهية، لأن كل فرد من أفراد الماهية مشتمل على تلك الماهية وإذا وجدت تلك الماهية، فذلك يناقض نفي الماهية فثبت أن قولنا لا رجل في الدار تفيد النفي العام الشامل، فإذا قيل بعد ذلك إلا زيد أفاد التوحد التام الكامل. ثم أعلم أن لهذه الكلمة ثمرتين:

إحداهما: أن جوهر الإنسان خلق في الأصل مشرفاً مكرماً قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70] وإذا كان الأصل فيه كونه مكرماً كان كونه مطهراً على وفق الأصل، فكونه منجساً على خلاف الأصل ثم أنا إذا رأينا الإنسان متى أشرك صار نجساً بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28] وإذا كان الشرك يقتضي كونه نجساً مع أن ذلك على خلاف الأصل فكونه موحداً يقتضي كونه طاهراً أولى لأنه على وفق الأصل، وإذا ثبت أن الموجود كامل في كونه طاهراً وجب أن يكون من خواص الله كقوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: 26].

الثانية: أن الشرك سبب لخراب العالم بدليل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90-91] وإذا

(1) الفصل الثالث إلخ من هنا إلى الحجة الأولى ما روى أن رجلاً ساقط من (ب).

عمره كيف يمنع[1] من دخول الجنة وهو طاهر عن نجاسة الشرك[2]؟

(1) يمنع في (ب) يمنعه.
(2) وهو طاهر عن نجاسة الشرك ساقط من (ب).

للنفس والدنيا مستغرق الهم بهما بحيث لم يبق لحب الله تعالى في قلبه مقرّ وكان أن في القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه اكتسبت جميع حركاته الاختيارية هذه الصفة كذلك من غلب حب النفس والدنيا على قلبه اكتسبت جميع حركاته وأفعاله تلك الصفات.

فلا تسلم له شيء من عباداته، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما في الثواب والعقاب وأمّا الأقسام الثلاثة الباقية فنقول: أمّا الذي يستوي الباعثان فيه فالأظهر أنّهما يتعارضان ويتساقطان، ويصير ذلك العمل لا له ولا عليه.

وأما الذي يكون أحد الطرفين فيه أغلب فيحبط منه ما يساوي الطرف الآخر، وتبقى الزيادة موجبة أثرها اللائق، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة: 7].

وتمام التحقيق فيه: أن الأعمال لها تأثيرات في القلب فإن خلى المؤثر عن المعارض خلى الأثر عن الضعف، وإن كان المؤثر مقروناً بالمعارض فإن تساويا تساقطا وإن كان أحدهما أغلب فلا بدّ وأن يحصل في الزائد بمقدار الناقص فحصل التساوي بينهما ويحصل التساقط ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض فيؤثر لا محالة أثراً مّا، وكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والدواء عن أثر في الجسد كذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشرّ عن أثر في التقرب من باب الله والتبعيد منه فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعد شبراً (فقد)[1] عاد إلى ما كان: لا عليه ولا له وإن كان أحد الفعلين ممّا يقرّبه شبرين، والفعل الثاني ممّا يبعّده شبراً واحداً يصل لا محالة له شيء.

واحتجّ من زعم أن المشوب لا ثواب عليه بوجهين:

الحجة الأولى: ما روى أن رجلاً سأل النبي ﷺ عمّن يصطنع المعروف ثم يحبّ أن يحمد عليه[2] فيؤجر، فلم يدر ما يقول حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[3] [الكهف: 110].

---

(1) [فقد] في الأصل [وقد].

(2) عليه: ساقط من (ب).

(3) والحديث في صحيح مسلم (2985) بمعناه في حديث أبي هريرة.

كان الشرك سبباً لخراب العالم وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم، ضرورة كون الضدين مختلفين في الحكم، وإذا ثبت أن كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم فأولى أن يكون لعمارة القلب الذي هو محل الوحدانية ولعمارة اللسان الذي هو محل ذكر الوحدانية وذلك يناسب عفو الله تعالى عن أهل التوحيد.

الاسم الثاني: أن هذه الكلمة تسمى كلمة الإخلاص: وكان معروفاً الكرخي[1] رحمه الله يقول: يا نفس أخلصي تتخلّصي، ثم التحقيق فيه إن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفى عن شوبه وخلص سمي خالصاً، وسمي الفعل المصفي إخلاصاً ولا شك أن كل من أتى بفعل اختياري فلا بد له في ذلك الفعل من غرض، فمهما كان الغرض في الفعل واحداً سمي ذلك الفعل إخلاصاً، فمن تصدّق وكان غرضه محض الرياء فهو غير مخلص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصّصه العرف بالميل عن الحق، وإذا عرفت هذا فنقول الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط وهو الإخلاص أو شيطاناً فقط وهو الرياء أو مركباً منهما وهو على ثلاثة أقسام لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية أو يكون الروحاني أقوى أو يكون النفساني أقوى. القسم الأول وهو أن يكون الباعث رحمانياً فقط وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم به بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مقر. حتى لا يحب الأكل والشرب بل يكون رغبته فيه في قضاء الحاجة من حيث أنه ضرورة الجبلّة فلذلك لا يشتهي الطعام لأنه طعام بل لأنه يقوّيه على عبادة الله تعالى، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلاً ليستريح بنفسه فيقوى على العبادة كان نومه أيضاً عبادة، وأما القسم الثاني وهو أن يكون الباعث نفسانياً فهذا لا يتصور إلا من محب

---

(1) معروف الكرخي: هو معروف بن فيروز الكرخي أبو محفوظ أحد أعلام التصوف والزهد، وهو من موالي علي بن موسى الرضا، ولد في كرخ ببغداد من أبوين نصرانيين ونشأ بها وتوفي بها سنة (200هـ) اشتهر بالصلاح والتقوى وكان يقصده الناس للتبرك حتى كان الإمام أحمد بن حنبل من الذين يزورونه بين حين وآخر.

انظر جمهرة الأولياء جـ2/ 142، الأعلام للزركلي (جـ8/ 185) طبقات الصوفية ص: 83-90، تاريخ بغداد (جـ13/ 199).

أجعله في حماية لا إله إلا الله. **وثانيها**: قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] والمراد من قوله ﴿أَحْسَنُوا۟﴾ قول لا إله إلا الله باتّفاق أئمة التفسير وبدليل أنه لو قال ذلك ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة. **وثالثها**: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: 33] واتفقوا على أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان، وما ذاك إلاّ لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلاّ الله.

وأيضاً[1] فلأنه تعالى قال في صفة الكفار: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21] وكما أنّه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر فكذلك لا حسن أحسن من كلمة التوحيد؛ ولهذا قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ وقال في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ثم إنّه لما كان قول الموحد حسناً كان فعله أيضاً حسناً كما قال تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: 24]، ولمّا كان قول الكافر قبيحاً مظلماً كان مقيله أيضاً مظلماً قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ﴾ [البقرة: 257].

ورابعها: قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: 17-18] ولا شك أن أحسن القول هو قول لا إله إلاّ الله.

خامسها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: 90]، وقيل[2]: العدل الإعراض عمّا سوى الله، والإحسان الإقبال على الله[3].

وسادسها: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: 7] ولا شك أن الإحسان[4] هنا هو قول لا إله إلاّ الله.

وأما الخبر فما[5] روى أبو موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**للذين أحسنوا الحسنى**»، أي: للذين قالوا لا إله إلاّ الله، الحسنى وهي الجنة، والزيادة

---

(1) وأيضاً فلأنه إلى قوله وخامسها قوله أن الله يأمر بالعدل. . . ساقط من (ب).

(2) قيل في (ب) قال.

(3) على الله في (ب) عليه سبحانه.

(4) أن الإحسان في (ب) أوّل هذا الإحسان.

(5) وأما الخبر فما ساقط من (ب).

الحجة الثانية[1]: ما روى أبو هريرة أنه ﷺ قال لمن أشرك في عمله: «**خذ أجرك ممّن عملت له**». وعن النّبي ﷺ: «**أن الله تعالى يقول: (أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركت نصيبي لشريكي)**»[2]. والجواب عن الحجة الأولى[3]: أنّها محمولة على ما إذا أتى بالعمل لغرض الدنيا فقط والجواب عن الثانية أن لفظ الشرك محمول على تساوي الداعيتين وقد بينّا أن عند التساوي ينحبط كل واحد منهما بالآخرة.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: كلمة لا إلٰه إلا الله مسمّاة بكلمة الإخلاص؛ وذلك لأن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب وهو كون الإنسان عارفاً بقلبه وحدانية الله تعالى وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب يستحيل أن يؤتى بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحبّه وعبوديته، فهذه المعرفة إن طلبت لوجه الله تعالى لا لغرض آخر ألبتة، بخلاف سائر الطاعات البدنية فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله تعالى فقد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الرياء والمدح والثناء فلهذا السبب سمّيت هذه الكلمة بكلمة الإخلاص.

الاسم الثالث: لهذه الكلمة كلمة الإحسان: ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول: أما القرآن فآيات إحداها قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمٰن: 60] قال المفسرون: المراد من قوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي هل جزاء الإيمان.

والتحقيق فيه: أن عليك عهد العبودية وعلى كرمه عهد الربوبية كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] وعهد عبوديتك أن تكون عبداً له لا لغيره ثم كمال هذه الدرجة أن يعرف أنّ كلّ ما سوى الله فهو عبد كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]، ومن أتى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسناً فيه وقوله: لا إلٰه إلا الله يدل على اعترافه بأن كل من سواه فهو عبده ومربوبه، فثبت أن قوله: لا إلٰه إلا الله إحسان من العبد فقوله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ أي: ما جزاء من أتى بقول لا إلٰه إلا الله إلاّ أن

---

(1) الحجة الثانية إلى قوله عملت له ساقط من (ب).

(2) انظر: تفسير ابن كثير (3/ 108) والدر المنثور (4/ 253 ـ 254) للسيوطي.

(3) والجواب عن الحجة الأولى إلى قوله وثالثها قوله: وحسن قولاً إلخ ساقط من (ب).

دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فصلت: 33] ولقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [آل عمران: 193].

الاسم الخامس: كلمة العدل: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ قال عثمان بن مظعون الجمحي: ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياء من محمد ﷺ وذلك أنه كان كثير العرض للإسلام علي فاستحييت منه وأسلمت ولكن الإسلام ما كان مستقراً في قلبي، ثم أنه ﷺ دعاني يوماً فجلست إليه فبينا هو يحدثني إذ وقع بصري على شخص ينزل من السماء فإذا هو جبريل ﷺ وقال يا محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ العدل شهادة أن لا إله إلاّ الله والإحسان القيام بالعبودية، قال عثمان: فوقع الإيمان في قلبي[1]. وقال ابن عباس: العدل شهادة أن لا إله إلا الله والإحسان الإخلاص فيه، وقال آخرون: العدل مع الناس والإحسان مع نفسك بالطاعة كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ وقال آخرون: يأمر بالعدل مع الأعضاء وبالإحسان مع القلب بأن يربيه بعد التوحيد وشراب المحبة وقال آخرون: العدل رؤية الافتقار إلى الحق والإحسان مشاهدة إحسان الحق على كل شيء في الخلق.

واعلم أن السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه:

السبب الأول: أن العدل في كل شيء تحصيل ما هو سبب اعتداله وكمال حاله ومن المعلوم أن كمال حال القوى الحساسة في إدراك المحسوسات وكمال حال القوة الشهوانية في جلب الأشياء النافعة الجسمانية، وكمال حال القوة الغضبية في دفع الأشياء المنافية الجسمانية.

وأما القوة العقلية وكمال حالها وغاية سعادتها أن ترتسم فيها صور الحقائق وأشياء المعقولات كما هي حتى تصير القوة العقلية كالمرآة التي تجلب فيها صور الوجود بتمامها ولا شك أشرف المعقولات وأعلاها معرفة جلال الله وقدسيته وعظمته وعزته فكان غاية العدل والاعتدال للأرواح البشرية والقوى العقلية كونها مقبلة على هذه الحالة مستغرقة فيها فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلاّ الله بكلمة العدل.

السبب الثاني: أن هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل لأن معرفة الله تعالى متوسطة بين الإفراط الذي هو التشبيه وبين التفريط الذي هو التعطيل، فمن بالغ بالإثبات وقع في التشبيه ومن بالغ في التعطيل وقع في التعطيل والحق هو طريق

---

(1) لا يوجد فيما لدينا من المراجع.

(هي[1] النظر إلى وجه الله الكريم).

وأمّا المعقول[2] فهو أن الفعل كلّما كان أشدّ حسناً كان فاعله أكبر إحساناً، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر لا إلٰه إلا الله وأحسن المعارف معرفة لا إلٰه إلا الله وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر إحساناً.

الاسم الرابع: دعوة الحق: قال الله تعالى في سورة الرعد: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد:14] قال ابن عباس ﷺ: هو قول لا إلٰه إلاّ الله. واعلم أن قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ يفيد الحصر، معناه: له هذه الدعوة لا لغيره كما أن قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ معناه لكم دينكم لا لغيركم. وتحقيق الكلام في إثبات هذا الحصر أن الحق نقيض الباطل فالحق هو الموجود والباطل هو المعدوم فلمّا كان الحق سبحانه حقاً في ذاته ولذاته ولصفاته وكان ممتنع التغيير في حقيقته كان معرفته هي المعرفة الحقة، وذكره هو الذكر الحق والدعوة إليه هي الدعوة الحقة، أمّا كل ما سواه فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا تكون معرفته واجب التحقق ولا ذكره ولا الدعوة إليه، وإذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾.

واعلم أن دعوة الحق تارة تكون من الحق للحق إلى الحق وتارة تكون من الخلق للخلق إلى الخلق:

أما الأول فنقول: أما أن دعوة الحق تكون من الحق فلأنه تعالى هو دعا القلوب إلى حضرته، فلولا دعوته إلى تلك الحضرة وتوفيقه لها في ذلك الوصول وإلا فمن أين يتمكن العقل البشري من الوصول إلى جلال حضرة الله تعالى، وأيضاً فلأن مبادىء الحركات وأوائل المحدثات تنتهي إلى قدرة الله تعالى وقضائه وقدره، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: 4].

وأمّا أن تلك الدعوة للحق فلقوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16].

وأمّا الانتهاء إلى الحق فلقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: 42] وأمّا أن

(1) هي ساقط من (أ).
(2) وأما المعقول إلى قوله: إحساناً ساقط من (ب).

الحاصلة بين هذين الإدراكين وبين هذين المدركين فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة من اللذات العقلية الحاصلة بسبب إدراك المطعوم والروائح وسائر الحواس. وإذا عرفت هذا ظهر أن الطيب المطلوب هو معرفة لا إلٰه إلا الله وذكر لا إلٰه إلا الله، والاستغراق في أنوار جلال لا إلٰه إلا الله فلهذا السبب قال الله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ والمراد منه كلمة لا إلٰه إلّا الله والألف واللام في لفظ الطيب للاستغراق كأنه تعالى نبّه أنه لا لذيذ ولا طيب إلا هذا وذلك هو الحق (لأنابينا) أن طيب المحسوسات بالنسبة إلى طيب هذه الحالة عدم محض فلذلك بيَّن بحرف الاستغراق أن كل الطيب ليس إلّا ذلك.

الاسم السابع: الكلمة الطيبة: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ واختلفوا في أنه تعالى لم سماها كلمة طيبة على وجوه:

الأول: أنها طيبة بمعنى أنها طاهرة عن التشبيه والتعطيل، ولكنها طريقة متوسطة بينها مباينة لكل واحد منها مصفى عن شائبة كل واحدة منها.

الثاني: أنها طيبة بمعنى أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا طيب المسكن في العقبى أما طيب اسمه فيقول تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ وأراد به المؤمنين والمؤمنات، وأما طيب المسكن فلقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

الثالث: أنها طيبة بمعنى أنها مقبولة يقبلها الله تعالى ويصعد إليه كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ قال أهل الإشارة والسبب في أن هذه الكلمة تصعد إلى الله تعالى بذاتها لأن هذه الكلمة طيبة وقال ﷺ: **«إن الطيب لا يقبل إلا الطيب»** وتمام التحقيق فيه أن العقل والروح عاشقان على التجلي والمعرفة والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان والمعرفة منجذبة إلى المعرفة وإذا تصاعد العرفان إلى المعروف والعارف ملازم للعرفان انجذب العارف إلى المعروف وصعد إليه فذاك هو المراد من قوله عزّ وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

سؤال: قال المفسرون: الشجرة الطيبة هي النخلة، فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة؟ الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان بل في البعض دون البعض،

الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين.

والسبب الثالث: من ترك النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى وعوّل على الطريقة التي ألفها بحسه وخياله وقع في الضلالات. وأما من توغل في البحث وأراد الوصول إلى كنه العظمة وهوية الجلالة تحير وتردد بل عمي، فإن نور جلال الإلٰهية ما يعمي أحداق العقول البشرية فصار هذان الطرفان مذمومين والطريق المستقيم هو أن يخوض الإنسان البحث المعتدل ويترك التعميق، وإلى هذا الكلام الإشارة بقوله ﷺ: «**تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق**»(1)، فهذه هي الوجوه التي لأجلها سميت كلمة لا إلٰه إلا الله كلمة العدل.

فإن قيل كيف أمر الله بالعدل في بحر التوحيد وقد قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[النساء: 129] فمن عجز عن العدل في حق النساء كيف يقدر على العدل في معرفة الأحد الصمد. والجواب أظهر عجزك في الضعيف وأقدرك على الشريف لتعرف أن الكل منه.

الاسم السادس: الطيب: من القول قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ وأي كلمة توحيد توجد أطهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين سنة يزول بسبب ذكر هذه الكلمة الطيبة مرة واحدة.

وتحقيق القول فيه أن الطيب هو اللذيذ واللذيذ هو إدراك الملائم، وقد بيّنا أن الملائم للقوى الحساسة إدراك المحسوسات، والملائم للقوة العقلية إدراك جلالة الله وقدسه وعزته. إذا عرفت هذا فنقول إدراك القوة العاقلة أقوى من إدراك القوة الحساسة، وسيأتي شرح هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى. وأما مدركات القوى الحساسة فهي الأعراض القائمة بالأجسام الكائنة الفاسدة، ومدرك القوة العاقلة هو ذات الله وجلاله وعظمته، وظاهره أنه كلما كان الإدراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب ذلك الإدراك أشرف وأعلى، فعلى هذا نسبة اللذة العقلية إلى الحسية في الشرف والقوة كنسبة الإدراك العقلي إلى الإدراك الحسي وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في الشرف والتعالي إلى الأعراض القائمة بالأجسام، وكما أنه لا نهاية للنسبة

---

(1) نسب إلى ابن الشيخ وأغلب الظن أنه في كتاب العظمة، وأنه غير صحيح.

لأن الموحّد وإن عظم ذنبه إلا أنه يرجو المغفرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48] والكافر وإن عظم كفره فإذا رجع عن الكفر إلى توحيد هدم التوحيد كفره.

الرابع: أنّ هذه الكلمة ثابتة في الآخرة لا ترتفع عن العبد وذلك لأن أهل الجنة مشتغلون في الجنة بذكر التوحيد، ألا ترى أن الله أخبر عنهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34] ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43].

الخامس: أنها ثابتة؛ لأنّ لها أصلاً محكماً؛ وذلك أنّ أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى بدليل قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾؛ فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله فرع على شهادة الله، وشهادته هي الأصل وكل شهادة أصلها شهادة الله فهي ثابتة في الدنيا والآخرة.

السادس: أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار، ومع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار، أمّا بيان أن الإنسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار، أنّ فرعون أغرق في الماء أولاً ثم نقل من الماء إلى النار: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [1]، وعجل السامري إحراق بالنار أولاً ثم نقل من النار إلى الماء: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97].

وأمّا [بيان أن الإنسان مع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار فهو] إبراهيم وموسى؛ فقد كانا مع حقيقة هذه الكلمة ولم تعمل النار في إبراهيم: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: 69]، ولم يعمل الماء في موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 7].

الاسم التاسع: كلمة التقوى: قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: 26] وفي سبب هذه التسمية وجوه:

الأول: أنه لما اتقى صاحب هذه الكلمة أن يصف ربّه بما وصفه به المشركون

---

(1) ويلاحظ أن المغرقين المدخلين النار هم قوم نوح، ولا علاقة للآية بفرعون.

فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان ومعرفة التوحيد لا تحصل في كل قلب.

والثاني: أن النخلة أطول الأشجار، فكذا كلمة التوحيد أعلى الكلمات.

والثالث: أن الشجرة الطيبة ثابتة في الأرض وفرعها في السماء، وكذا أصل الكلمة الطيبة ثابت في القلب وهو المعرفة وفرعها ثابت في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾.

والرابع: أن شجرة النخلة تحمل في كل سنة مرتين كذلك الإيمان يحمل في الدنيا مرة فيثاب لأجل إيمانه وهو أهلية الشهادة والولاية والإمامة ومرة أخرى في الآخرة وهي الجنة الباقية والنعمة الدائمة.

الخامس: أن النخلة وإن حصل في وسط ثمرتها نواة ولا منفعة، فإن قيمة تلك الثمرة لا تنقص بسبب تلك النواة، فكذلك كلمة التوحيد فإن كان يحصل معها شيء من المعاصي إلا أن قيمتها لا تنتقص بسبب ذلك ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

والسادس: أن النخلة أسفلها الذي يقرب من الناس كله شوك والثمرة والمنفعة لا تحصل إلا في أعلاها، فكذلك الدين أوله التكاليف الشاقة التي هي كالشوك وفي أعلاها الثمرة الحلوة اللذيذة وهي المعرفة والمحبة.

الاسم الثامن: الكلمة الثابتة: قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وفي علة هذه التسمية وجوه:

الأول: أن المذكور والمعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته ممتنع العدم لذاته والقول والاعتقاد تتبعان المقول والمعتقد فلما كان المقول والمعتقد واجب الثبوت لذاته كان القول والاعتقاد فلهذا سماه الله بالقول الثابت.

الثاني: أن هذا القول الثابت لا تؤثر فيه الأعمال وذلك إشارة بالقول الثابت إلى الإيمان لا يزداد بالطاعة ولا ينقص بالمعصية.

الثالث: أن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه بل هو مؤثر في إزالة الذنب

الثاني: أنه تعالى قال في آخر القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] فبيّن أن كل شيء هالك إلا هو فإنه واجب الدوام والبقاء والسرمديّة، وقد عرفت أن القول يتبع المقول والاعتقاد يتبع المعتقد فكان صدق لا إلٰه إلا الله وحقيقة لا إلٰه إلا الله واجب الثبوت والبقاء والدوام وذلك هو المراد بكونها باقية.

الثالث: أنا بيّنا أن التوحيد لا يزول بسبب المعصية والمعصية تزول بسبب التوحيد، وأيضاً يبقى مع أهل الجنة وسائر الطاعات لا تبقى روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ عن جبريل ؑ: «**يقول الله يوم القيامة: ما لي أرى فلاناً في صفوف أهل النار؟ فأقول: يا ربّ إنّا لم نجد له حسنة، فيقول الله تعالى: إني سمعته في الدنيا يقول: يا حنّان يا منّان فاذهبْ إليه فاسأله، فيأتيه فيجده في زاوية من زوايا جهنّم يقول: يا حنّان يا منّان فيسأله جبريل عن هذه الكلمة فيقول: وهل حنّان ومنّان غير الله؟! قال جبريل: فآخذ بيده أخرجه من صفوف أهل النار فأدخله في صفوف أهل الجنة**»(1).

الاسم الحادي عشر: كلمة الله العليا: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

واعلم أن السبب في علو هذه الكلمة وجوه:

الأول: هو أن القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك التجلي نور الربوبيّة، ونور الربوبية إذا تجلى في القلب استعقب حصول قوة إلٰهية بالله ولهذا السبب فإن العارفين المستغرقين في أنوار جلال الله يستحقرون الأحوال الدنيوية، فيستحقرون عظماء الملوك ولا يبالون بالقتل ولا يقيمون لشيء من طيبات الدّنيا وزناً ألبتّة؛ فكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة على جميع الأشياء؛ فإن سلطان كل شيء يضمَحِلّ في سلطان جلال هذه الكلمة. انظر إلى استغراق سحرة فرعون لمّا تجلى لهم نور هذه الكلمة كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل؟! وأن محمداً لما استغرق في هذا النور لم يلتفت إلى الملكوت كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: 17]. روي أن إبراهيم الخواص كان في البادية فظهر عليه شيء من هذه

(1) نسبه السيوطي في الجامع الكبير إلى الحكيم الترمذي في النوادر، وهو لا يصح على قاعدة السيوطي، لكنه في حديث أنس عند البيهقي في الأسماء والصفات ما يشبهه.

وصف هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى، ورأس التقوى اتقاء الكفر.

ثم في هذه الآية إشارة وبشارة:

أما الإشارة: فهي أنه تعالى سمى نفسه أهل التقوى فقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾ [المدثر: 56] وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى فقال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ فكأنه تعالى يقول: أنا أهل أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة، وأنت أهل أن تكون ذاكراً لهذه الكلمة فما أعظم هذا الشرف.

وأمّا البشارة: فهي أنه تعالى قال: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ فأثبت أن الموحدين أحقّ الخلق بهذه الكلمة وهم أهل هذه الكلمة وأنه كريم لا ينزع الحق عن مستحقه فهذا يدل على أنه لا ينزل الإيمان من المؤمن.

الوجه الثاني: في بيان أنّه لِمَ سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى، هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف، ولِمَالِك عن الاستغنام ولذمتك عن الجزية ولأولادك عن السبي، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر وإن انضمَّ التوفيق إليه صارت واقية لجوارحك عن المعاصي ثم قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ أي نحن ألزمناهم هذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة، فنحن أردناهم أولاً وهم ما أرادونا فلنا المِنّة في فتح هذا الباب.

وتقريره قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: 17]

الاسم العاشر: الكلمة الباقية: روي عن كثير من المفسرين أنّهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 28] أنها قول لا إله إلا الله، ويدل عليه وجوه:

الأول: مقدمة هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: 26-27] فكان معنى قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الإلٰهية عن الأشياء التي كانوا يعبدونها ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فكان فيه إثبات الإلٰهية للذي فطره؛ فإذا حصل هذان المعنيان كان مجموعها هو قول: لا إلٰه إلاّ الله، ثم قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ فثبت أن المُراد من الكلمة الباقية هو قول: لا إلٰه إلاّ الله.

وممّا يقرر ذلك أن جميع العقول معترفة بصحة لا إِلٰه إلاّ الله وجميع الألسنة ناطقة بها وجميع الرقاب مُتخضِعة لها، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: 87].

وأيضاً يحتمل أنها سميت بكلمة السواء لأنها تفيد الاستواء في الدين والعقل والروح ويوجب الاستقامة وترك الاعوجاج في كل الأمور والله أعلم.

الاسم الرابع عشر: أنها كلمة النجاة: والذي يدل عليه القرآن والحديث والمعقول، أما القرآن فمن وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:116] فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بلا إِلٰه إلا الله وتحصل مع الإيمان بلا إِلٰه إلا الله.

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ [غافر: 41] [أي] إلى قول لا إِلٰه إلاّ الله. وأما الخبر فيدل عليه الأخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني ونزدها هنا أخباراً أخر:

أحدها: ما روي عن جابر بن عبد الله قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الموحدين[1] فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ومن لقي الله يشرك به شيئاً دخل النار**[2]».

ثانيها[3]: عن أبي سعيد الخدري قال ﷺ: «**لقّنوا موتاكم شهادة أن لا إِلٰه إلا الله**[4]».

(1) الموحدين في (ب) الموجبتين.
(2) رواه مسلم (93).
(3) ثانيها: من هنا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ إلخ ساقط من (أ).
(4) رواه مسلم (3117)، والترمذي (983)، والنسائي (4/ 5)، وابن ماجه (1445)، وأحمد (3/ 3)، وابن أبي شيبة في المصنف (4/ 75)، والبيهقي (3/ 383)، والبغوي في شرح السنة (1465) وليس عندهم «شهادة أن» وهو عندهم من حديث أبي سعيد ورواه مسلم (917)، وابن ماجه (1444)، وابن الجارود في المنتقى (256)، وابن حبان (719/ موارد) والبيهقي من حديث أبي هريرة ورواه النسائي (514) من حديث عائشة.

الأحوال، فاضطجع وجاءته السباع وأحاطوا به وما كان يبالي بها فخاف صاحبه الذي كان معه وصعد بعض تلك الأشجار وبقي هناك جائعاً، وفي الليلة الثانية زال ذلك الوجد فوقعت بعوضة على يده فتألّم وأظهر الجزع فقال صاحبه: ما جزعت في البارحة من حضور السباع وأظهرت في هذه الليلة من البعوضة، فقال إبراهيم:

«كان في البارحة نزل في القلب سلطان، فبقوة ذلك السلطان ما كنت أبالي بجميع الملكوت، وأمّا الآن فقد غاب عني ذلك السلطان فظهر العجز كما ترى».

السبب الثاني: في كون هذه الكلمة عالية استعلاؤها في الدنيا على سائر الأديان كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33].

السبب الثالث: في استعلائها كونها مستعلية على جميع الذنوب فإنها تزيل جميع الذنوب، وشيء من الذنوب لا يزيل هذه الكلمة.

الاسم الثاني عشر: المثل الأعلى: قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: 60] قال[1]: معناه قوله لا إله إلا الله.

واعلم أنّ معنى المثل هنا الصفة، كذا قال أهل اللغة ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: 35] أي صفتها فصار المراد[2] من قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ عين المراد من قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾.

الاسم الثالث عشر[3]: كلمة السّواء: قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64].

قال أبو العالية الرياحي: هي كلمة لا إله إلاّ الله، والدليل عليه أنه تعالى قال بعدها:

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 64] ولا معنى لهذه الآية إلا ما هو المراد من قولنا: لا إله إلاّ الله، فثبت أن المُراد من كلمة السّواء هي كلمة لا إله إلاّ الله.

---

(1) قال معناه في (ب) قال قتادة معناه.

(2) فصار المراد في (ب) والمراد.

(3) الاسم الثالث عشر من هنا إلى قوله أحدها ما روى جابر بن عبد الله ساقط من (ب).

لا إلٰه إلاّ الله وفاضت نفسه بعده دخل الجنة[1]».

الاسم الخامس عشر: العهد: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: 87] العهد هو قول: لا إلٰه إلا الله. وأقول: الذي يدل على صحة قول ابن عباس وجوه:

الأول: أن قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ نكرة في ظرف الثبوت، وذلك لا تفيد إلا عهداً واحداً، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد، ثم أجمعنا على أن ما سوى الإيمان.. فإن الواحد منه بل مجموعه لا تفيد تلك الشفاعة ألبتة، فوجب أن يكون ذلك العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الإيمان وقول لا إلٰه إلاّ الله.

والثاني: أن جماعة من المفسّرين قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] هو عهد الإيمان بدليل أن[2] لفظ العهد مجمل فلما أعقبه بقوله: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: 41] علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الإيمان، وهو قول لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله.

والثالث[3]: أن أول ما وقع من العهد قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ وذلك في الحقيقة هو قول لا إلٰه إلاّ الله فكان لفظ العهد محمولاً عليه.

والرابع: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 111] فكان العهد من جانبك عهد الإقرار بالعبوديّة ومن جانب الحق ﷻ عهد الكرم والربوبية فثبت بهذه الوجوه أن المراد من قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:87] وهو عهد قول لا إلٰه إلا الله.

الخامس: قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: 80] أي: قلتم لا إلٰه إلاّ الله.

الاسم السادس عشر: كلمة الاستقامة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا

---

(1) رواه أحمد (5/ 233)، وأبو داود (3116)، والحاكم (1/ 351) ولكن ليس عندهم: «وفاضت نفسه بعد».
(2) أن ساقط من (ب).
(3) والثالث من هنا إلى قوله أن قيل ما الحكمة ساقط من (ب).

ثالثها: رأى عمر بن الخطاب طلحة بن عبد الله ثقيلاً مغموماً بعد موت رسول الله ﷺ فقال: ما لك؟ قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأله إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: «**إن أعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه ونفّس الله بسببها كربته**» فقال عمر: (إني أعلم ما قال، قال: وما هي؟ قال: هي الكلمة التي أمر بها عمّه عند الموت وهي لا إلٰه إلاّ الله، فقال طلحة: صدقت هي والله هي).

رابعها: روى أبو أمامة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ينادي في الناس: من شَهِد أن لا إلٰه إلاّ الله دخل الجنة[1].

خامسها: قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة: اكشفوا عني سجف القبة حتى أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلموا[2] ويزكوا النار.

سادسها: عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يجري بها لسانه ويطهّر بهما قلبه حرمت النار عليه**[3]».

سابعها: روى أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لأبي الدرداء: «**ناد في الناس من شهد أن لا إلٰه إلاّ الله وجبت له الجنة**» قال أبو الدرداء: وإن زنا وإن سرق؟ قال: «**وإن زنا وإن سرق**». قال: وإن زنا وإن سرق؟ قال «**وإن زنا وإن سرق**»، قال: وإن زنا وإن سرق؟ حتى قالها ثلاث مرّات فقال في الثالثة: «**وإن. . . . رغم أنف أبي الدرداء**»[4].

ثامنها: ما روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كان آخر كلامه**

= وورد لفظ «شهان أن» في حديث ضعيف عند الطبراني في الكبير (13024) من حديث ابن عباس.

(1) رواه أبو يعلى (105) من حديث أبي بكر بإسناد ضعيف ونسبه السيوطي في الجامع الكبير إلى ابن عساكر، وله شاهد في حديث أبي هريرة عند مسلم (31)، وابن حبّان (7/ موارد) من حديث جابر.

(2) توجد على هامش (أ) عبارة (هنا سقط من الأم) والظاهر أن الناسخ لم يجد ما يكمل هذا الخبر.

(3) لم نره من حديث أبي قتادة، وهو عن عبادة عند مسلم (29)، وأحمد والترمذي (2639) بلفظ مغاير.

(4) هو عند الطبراني من حديث أبي الدرداء، انظر فتح الباري (11/ 261ـ265) كتاب الرقاق، باب: المكثرون هم الأقلون وتغليق التعليق (5/ 165 ـ 167) لابن حجر.

تنفتح إلا بهذا القول، وأبواب النيران لا تنغلق إلّا بهذا القول، وباب القلب لا ينفتح إلا بهذه الكلمات، وأنواع الوسائس لا تندفع إلا بهذا القول، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السمٰوات والأرض وعزّ مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول.

الاسم الثامن عشر: السديد: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: 70].

قيل في تفسيره: الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل كالسميع بمعنى السامع، وقد يكون بمعنى المفعول كالقتيل بمعنى المقتول والجريح بمعنى المجروح، وإذا حملته على معنى الفاعل كان معناه أنه يسدّ على صاحبه أبواب جهنم، وإذا حملته على معنى المفعول كان معناه أنه يسد عن أن يضره شيء من الذنب، وأيضاً أن ذا القرنين بنى السد دفعاً لضرر يأجوج ومأجوج والله تعالى جعل الإيمان سدًّا لضرر الشياطين من الجن والإنس.

الاسم التاسع عشر: البر: قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 177] والإشارة في الآية أن من كان مشتغلاً بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر وإنما صاحب البر هو الذي يتوجه إلى الكعبة ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 79].

فقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إشارة إلى الكثرة والقول بالشركاء، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إشارة إلى التوحيد فصار معناه هو المفهوم من قولنا لا إلٰه إلّا الله.

الاسم العشرون: الدين: قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3] واعلم أن الدين هو الانقياد والخضوع، قال عليه أفضل السلام في دعواته: «**من دانت له الرقاب**» أي: خضعت، فقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي له الخضوع والخشوع لا لغيره وإنما يكون كذلك إذا كان واحداً في إلٰهيته إذ لو وجد إلٰهان لكان كما أن الخضوع حاصل لأحدهما، كان أيضاً حاصلاً للثاني فحينئذ لا يمكن حصر ثبوت الخضوع لله فقط، فالحصر دل على أنه لا إلٰه إلّا هو ولا معبود إلّا إياه.

الاسم الحادي والعشرون: الصراط: قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قال تعالى حكاية عن رسوله ﷺ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ و﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ

﴿ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: 30] هو قول لا إلٰه إلا الله وذلك لأن قولهم ربنا الله إقرار بوجود الرب ثم إن [من] المقرين بذلك من أثبت له ندًا وشريكاً، فالذين نفوا الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم والصراط المستقيم. واعلم أن القيام في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء. قال ابن مسعود: المراد من قوله استقاموا نفي الشركاء فمن الناس من أثبت الشريك ظاهراً وهو الشريك الظاهر فالاستقامة في الدين لا تحصل إلا بنفي الشركاء كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] ومنهم من أقرّ بالوحدانية في الظاهر إلا أنه يقول قولاً يهدم ذلك التوحيد مثل أن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب أو يضيف الصحة والسقم إلى الدواء والغذاء أو يضيف الفعل إلى العبد على سبيل الاستقلال وكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق ﷻ ومنهم من ترك كل ذلك ولكن قد يُطيع النفس والشهوة في بعض الأفعال وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: 43] وهذا النوع من الشرك وهو المسمى بالشرك الخفي. والمراد من قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل ﵉: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128] وقول يوسف ﵇: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ [يوسف: 101] فإن الأنبياء مبرّؤون عن الشرك الجلي، أما الحالة المسمّاة بالشرك الخفي وهو الالتفات إلى غير الله فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات. فلهذا السبب يضّرع الأنبياء والرسل إلى الله في أن يصونهم عنه.

الاسم السابع عشر: مقاليد السماوات والأرض: قال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ [الزمر: 63] قال ابن عباس: هو قول لا إلٰه إلا الله وأقول هذا هو الحق ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى بيّن أنه لو كان في الوجود إلٰهان لحصل الفساد في العالم ولاختلت المصالح، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] فثبت أن الشريك سبب لفساد العالم وأن التوحيد سبب لانتظام أمر العالم فثبت أن مقاليد السمٰوات والأرض هو قول لا إلٰه إلا الله.

الثاني: أنّا بيّنا أن الشرك سبب لفساد العالم بدليل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90 - 91] وإذا كان كذلك كان التوحيد سبباً لعمارة العالم.

الثالث: أن أبواب السماء لا تنفتح إلا بقول لا إلٰه إلاّ الله وأبواب الجنان لا

الفصل الرابع:
في الأشياء التي شبه الله تعالى كلمة التوحيد بها

فالأول :أن الله تعالى شبَّه الإيمان بالنار فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:17] وقال في آية أخرى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ [الرعد:17] وفيه إشارتان: **الأولى**: كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش أحرقت كل ما فيه من الغش ويبقى جوهر الذهب سليماً عن الاحتراق، فكذلك يوم القيامة إذا عرض المذنب على نار جهنم احترقت ذنوبه ومعاصيه وبقي إيمانه سليماً عن الاحتراق.

الثانية: أن النار تحرق كل شيء، فكذا الإيمان إذا قوي نوره أحرق ما سوى الله على القلب: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91].

النوع الثاني: من الأمور التي شبه الله الإيمان بها: النور، قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾.. إلخ والسبب أنه أضاف المعرفة إلى نفسه من وجوه:

الأول: أنه أضاف المعرفة إلى نفسه قطعاً للأطماع عنها، وذلك أنها جوهرة نفيسة وقيمتها رفيعة وصاحبها عاقل، والشيطان مختار مكّار ويحل مقصوده أن يأخذ المعرفة من القلب العارف ويحول بينه وبينه، فالله سبحانه برحمته جعل المعرفة في حمايته حتى ينقطع طمع إبليس عنها وتحقيقه أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ ولما أضاف العباد إلى نفسه انقطع طمع إبليس عنهم فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [صٓ:82-83] فهاهنا لما أضاف الإيمان إلى نفسه بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ لا جرم كان طمع إبليس منقطعاً عنه.

الثاني: أن كلّ ما للعبد فهو للحق، لأنه حصل بتخليقه وإيجاده فإذا بلغ العبد درجات المكاشفات إلى أن شاهد هذه الحالة فقد كملت حالته وعظمت درجته فعند ذلك قيل كل ما له فهو لنا، وكل ما لنا فهو له، فالمعرفة التي هي له فهي لنا فلا جرم أنه أضافها إلى نفسه فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ واعلم أن هذا الصراط المستقيم هو قول لا إله إلا الله وذلك باعتبار أن حدوث كل محدث وإمكان كل ممكن يحوجه إلى المؤثر الذي يوجده وينقله من العدم إلى الوجود فإذا كان الموحد والمدبر واحداً، فمتى نسبت حدوث المحدثات أو وجود الممكنات إلى قدرته كان ذلك صراطاً مستقيماً وطريقاً قيماً.

ومتى نسبت حدوث محدث أو وجود ممكن إلى غير قدرته كان ذلك طريقاً معوجاً وسبباً منحرفاً، فثبت أن الصراط المستقيم لا يحصل إلا بإسناد كل الحوادث والممكنات إلى تخليق الله وتكويناته وإسناد الكل إليه، فهو التوحيد فثبت أن الصراط المستقيم هو قولنا لا إله إلاّ الله.

الاسم الثاني والعشرون: كلمة الحق: لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزخرف:86] يعني قول لا إله إلاّ الله.

الاسم الثالث والعشرون: العروة الوثقى: قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ يعني لا إله إلاّ الله.

الاسم الرابع والعشرون : كلمة الصدق: لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

فهذا جملة الكلام في أسماء قول لا إله إلاّ الله اللهم بحق أسمائك الطاهرة المطهرة المقدسة احفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة في قلوبنا وذكرها على ألسنتنا يا أرحم الراحمين.

السادس: أن جرم السراج صغير وضوؤه منتشر في كل جانب، وكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب إلى جميع الجوانب كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ وخصوصاً من جانب العلو قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

السؤال الثاني: ما الفرق بين سراج الدنيا الذي هو الشمس وبين سراج المعرفة؟
الجواب ـ والله أعلم[1] ـ الفرق من وجوه:

الأول: أن الشمس تحجبها غمامة والمعرفة لا تحجبها سبع سمٰوات.

الثاني: أن الشمس تغيب في الليل[2]، والمعرفة لا تغيب ليلاً ولا نهاراً بل هي في الليل آكد قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًۭٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمّل: 6][3] وقال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًۭا﴾ وقال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌۭ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍۢ﴾.

والثالث: أن الشمس تفنى قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1]، والمعرفة لا تفنى قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: إلا ما حصل برضاه.

الرابع: الشمس تنكسف والمعرفة لا تنكسف.

الخامس: الشمس تسوِّد الأشياء والمعرفة تبيضها.

السادس: الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق.

السابع: الشمس تارة تضر وتارة تنفع، والمعرفة تنفع ولا تضر البتة.

الثامن: الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في الدنيا والآخرة.

التاسع: الشمس في السماء زينة لأهل الأرض والمعرفة في الأرض زينة لأهل السماء[4].

---

(1) في (ب) والجواب من وجوه.
(2) في الليل، في (ب) بالليل.
(3) من هنا إلى قوله التاسع الشمس في السماء زينة ساقط من (ب).
(4) من هنا إلى قوله الثالث عشر ولاية الشمس في الدنيا ساقط من (ب).

الثالث: أن تخصيص الشيء بإضافته إلى الله سبحانه سبب لتشريفه كما في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:26] وكما في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [هود:64] وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن:19] فكذا هاهنا إضافة المعرفة إلى نفسه يدل على أنها أشرف الخلع والتشريفات. ثم هاهنا سؤالان:

السؤال الأول: ما الحكمة في أن الله سبحانه شبه نور المعرفة بنور السراج؟.

قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:35] الجواب من وجوه:

الأول: أن البيت إذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله مخافة أن يفتضح، وكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة لم يتجاسر الشيطان على دخوله مخافة أن يفتضح.

الثاني: أن البيت إذا كان فيه[1] سراج اهتدى صاحبه إلى طلب الأمتعة ،وكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة اهتدى صاحبه إلى الشروع في الطاعات.

والثالث: إذا كان السراج في البيت انتفع بضيائه كل أحد من غير أن ينقص من استضاءة صاحبه بنوره شيء، فكذلك كل قلب كان فيه سراج المعرفة ينتفع بنوره غير صاحبه من غير أن ينقص من نور صاحبه شيء.

الرابع: أن السراج إذا كان في البيت وكان موضوعاً في كوة مسدودة بزجاجة أضاء داخل البيت وخارجه، فكذلك سراج المعرفة في القلب يضيء داخل القلب وخارجه حتى يظهر نوره على الأذنين والعينين واللسان، فيظهر فنون الطاعات من هذه الأعضاء. وإليه الإشارة بقوله ﷺ: **«اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي عظمي نوراً وفي مخي نوراً»**.

الخامس: أن البيت إذا كان فيه سراج كان صاحبه مستأنساً مسروراً، فإذا أطفىء السراج صار مستوحشاً، فكذا القلب ما دام فيه سراج المعرفة كان صاحبه مستأنساً مسروراً، وإذا فارقه ـ والعياذ بالله ـ صار حزيناً مغموماً، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام:125].

---

(1) من هنا إلى قوله أن قيل ما الفرق بين سراج الدنيا. . . إلخ. ساقط من (ب).

السؤال الرابع: ما الحكمة في تشبيه المعرفة بالمصباح؟

الجواب: وبالله التوفيق ـ من وجوه:

الأول: أنّ المصباح تضرّه الرياح، والمعرفة تضرّها الوساوس والشبهات.

الثاني: أن المصباح لا تبقى بغير الدهن، والمعرفة تبقى بغير الدهن.

الثالث: لا بد للمصباح من حافظ يتعهده ولا بدّ لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله ورحمته.

السؤال الخامس: ما الحكمة في تشبيه القلب بالزجاجة؟

وهلاّ شبّهه بالذهب والفضة فإنهما أعزّ من الزجاجة، والجواب من وجوه:

الأول: أن الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنّهما كثيفان يوقعان الحجاب، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا يوقع الحجاب؛ فإنه يُرى باطنها من ظاهرها وبالضد، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه.

الثاني: أنه ليس لآنية الزجاجة خطر إنما الخطر لما في الآنية، وكذا ليس لقلبك خطر إنّما الخطر للإيمان.

الثالث: إذا انكسرت الزجاجة[1] لم تصلح إلاّ بإدخال النار والإذابة، وكذا القلب إذا فسد لا يصلح إلاّ بإدخال النار والإذابة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 71].

الرابع: أن صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسر[ما][2] لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الانكسار. أما صاحب الزجاجة فإنه يكون على حذر ووجل لعلمه بأنّها إذا انكسرت بطلت قيمتها، وكذلك المؤمن ينبغي أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة ولا يكون على أمن وسكون كصاحب الذهب والفضة.

والخامس: شبهه بالزجاجة لأن النور في[3] الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه في

---

(1) لم في الأصل ولم.
(2) كسرهما: في الأصل كسرها.
(3) في: في هامس (أ) (من) كنسخة ثانية.

العاشر: [الشمس] في الفوق وهي تضيء ما تحت، والمعرفة في قلب المؤمن وهو في التحت وتضيء ما فوقه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10].

الحادي عشر: بالشمس ينكشف وجود الخلق، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق. والدليل عليه قول أمير المؤمنين علي ﷺ حين قيل له: هل رأيت ربك؟ فقال :لا أعبد رباً لم أره.

الثاني عشر: الشمس يقع نورها على الولي والعدو، والمعرفة ليست إلا للولي.

الثالث عشر: ولأن الشمس في الدنيا دون الآخرة. وأما المعرفة فإنها في الدنيا ذات بداية وفي الآخرة ذات ولاية، وأيضاً فإن الكواكب مصباح الخلق والمعرفة مصباح الحق، وأيضاً فإن شعاع الكواكب ينزل إلى الأسفل[1] وشعاع المعرفة يصعد إلى العلو، وأيضاً فإن الكواكب تطلع من خزانة الفلك والمعرفة تطلع من خزانة الملك، وأيضاً فإن الكواكب علامة والمعرفة كرامة، وأيضاً فإن الكواكب[2] موضع نظر المخلوقين والمعرفة موضع نظر ربّ العالمين؛ قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

السؤال الثالث[3]: **ما الفرق بين السّراج والمعرفة؟** والجواب من وجوه:

الأول: أن سراج الدنيا نوره مشوب بالظلمة، وهي الدخان الذي يعلوه، وسراج المعرفة نوره صاف لا ظلمة معه.

الثاني: أن سراج الدنيا يحرق نفسه لينتفع به غيره، وسراج المعرفة يحرق الذّنب ويروّح السرَّ وينوّر الصّدر.

الثالث: أن سراج الدنيا يضمحِل في نور الشمس، وأمّا سراج المعرفة والتوحيد فإنّه يضمحِل نور الشمس في نوره.

الرابع: أن سراج الدنيا لا وفاء له يحرق من أوقده ومن أمدّه بالفتيلة كما يحرق من لم يوقده ومن لم يمده بشيء، وسراج المعرفة ذو وفاء لا يحرق صاحبه ألبتة بل ينجيه من الحرق، فشتان ما بين السّراجين.

---

(1) الأسفل في (ب) أسفل.
(2) الكواكب في (ب) الكوكب.
(3) السؤال الثالث: من هنا إلى قوله روي أن معرفة العارف ساقط من (ب).

مصباح العارف قال تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: 35].

السؤال الثامن: هل في تشبيه الإيمان بالسراج بشارة لأهل الإيمان؟

الجواب نعم لوجوه:

الأول: أن الشمس سراج استوقده الله للفناء ثم لا يقدر أحد على إطفائه، والمعرفة سراج استوقده للبقاء فكيف يقدر إبليس على إطفائه؟!

الثاني: استوقد الله سراج الشمس في السّماء فهي تزيل الظلمة عن بيتك مع غاية البعد فإذا استوقد شمس المعرفة في قلبك [أفلا][1] تزيل ظلمة المعصية عنك.

الثالث: من استوقد سراجاً فعليه تعهّده، والله هو الموقد لسُرُج المعرفة قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22] فلا جرم إمداد رحمته وعواطف تعهده حافظة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9].

الرابع: اللص إذا رأى السراج في البيت مستوقداً لا يقصد ذلك البيت بالسرقة، والله تعالى أوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقدر الشيطان من القرب منك؟!

الخامس: المجوس أوقدوا ناراً فلا يريدون إطفاءها، فالملك القدوس أوقد نار المحبة والمعرفة فكيف يرضى بإبطالها وإطفائها؟!

السادس: من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء: زند وحجر وحرّاق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن؛ فالعبد إذا طلب سراج المعرفة فلا بد له من زند الجهاد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾ [العنكبوت: 69] وحجر التضرع: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف: 55] وأمّا الحرّاق فهو (حرّاق)[2] النفس بمنعها من شهواتها قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: 40] والرابع[3] كبريت الإنابة: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: 54] والخامس مسرجة الصبر: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46] والسادس فتيلة الشكر: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:114]، السابع دهن الرّضا بقضاء الله قال

(1) [أفلا] في الأصل فلا.
(2) [حراق] في الأصلين [أحراق] حذفنا الهمزة لتصحيح الحمل.
(3) والرابع هذه الكلمة ساقط من (ب) ككلمات الخامس والسادس والسابع.

الذهب والفضة؛ فالزجاجة لقلة قيمتها واستعدادها للانكسار والبطلان صار النور فيها أحسن، وهو إشارة إلى قوله: (**أنا عند المنكسرة قلوبهم**).

السؤال السادس: ما الحكمة في تشبيه تلك الزجاجة بالكوكب الدري؟

الجواب من وجوه؟.

الأول: أن الكوكب الدرّي فيه لأهل الأرض هداية كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: 16] ولأهل السماء زينة قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ [الصافات: 6] فكذا قلب المؤمن سبب لهداية صاحب القلب إلى الخيرات وأيضاً نزهة لأهل السّماء فإنه روي: (أن معرفة العارف تضيء لأهل السّماء كما يضيء الكوكب الدّري لأهل الأرض).

الثاني[1]: أن الكوكب لا قدرة للشيطان عليه بل الكواكب[2] تحرق الشيطان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: 5] فكذا هاهنا قلب المؤمن لا سبيل للشيطان عليه بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشيطان ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾ ولم يقل في قلوب الناس وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201]. وذلك التذكير هو ظهور نور الإيمان وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ إشارة إلى احتراق وساوس الشيطان.

السؤال السابع[3]: **ما الحكمة في أنّه شبه القلب بالكوكب لا بالشمس والقمر؟**

والجواب من وجوه:

الأوّل: أن الكوكب يستتر بالنهار ويظهر بالليل، والعارف مستور بالنهار فإذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع.

الثاني: أن الكوكب زينة السماء والقلب زينة العارف.

الثالث: أن الكواكب مصابيح السّماء: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ والقلب

---

(1) والثاني في (ب) وأيضاً.

(2) الكواكب في (ب) الكوكب.

(3) السؤال السابع من هنا إلى قوله: السادس من أراد أن يستوقد، ساقط من (ب).

الأول: أن الماء يزيل النجاسة والأوساخ من البدن والثياب: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48]، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: 4] وكذلك الإيمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب قال ﷺ: «**الإسلام يَجبُّ ما قبله**».

الثاني: أن الله تعالى سمّى الماء المنزل رحمة قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 57] وسمّى القرآن رحمة فقال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57] وجعل الإيمان رحمة وسبباً للرحمة فقال: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22] وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54] فلا جرم شبّه القرآن والإيمان بالماء لهذا السبب.

الثالث: أنه تعالى سمّى القرآن مباركاً فقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50] وقال في الماء: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [قٓ: 9] فلا جرم شبه القرآن بالماء لكون كل واحد منهما مباركاً.

الرابع: أن الماء شفاء للنفوس والقرآن شفاء للقلوب قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82] فهو شفاء لقلوبهم ورحمة لذنوبهم.

الخامس: كما أنه تعالى هو الذي تولّى إنزال الماء من السماء ولا يقدر عليه أحد سواه فكذلك هو الذي تولى إنزال القرآن ولا يقدر عليه أحد غيره.

السادس: كما أن الله تعالى إذا أنزل المطر من السماء لم يقدر أحد على دفعه فكذلك لما أنزل القرآن من السماء لم يقدر أحد على دفعه وإدخال الباطل عليه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [فصلت: 41 - 42].

السابع: (1) [كما] أن المطر لا يقدر مخلوق أن يحصي عدد قطراته فكذلك القرآن لا يحيط أحد بكمال أسراره ولطائف حقائقه.

الثامن: كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ثم يسيل في الأرض نهراً نهراً وبحراً بحراً، فكذلك القرآن تنزل من السماء آية آية نجماً نجماً ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً وفي الخبر أن القرآن بحر عميق لا يدرك قعره.

---

(1) السابع من هنا إلى قوله قيل لا يستكمل العبد إلخ ساقط.

تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: 48]، وقال ﷺ: «**الرضا بالقضا باب الله الأعظم**» فهذه السبعة تتعلق بك في حفظ عهد العبودية فإذا وفيت بعهد العبودية فهو[1] أولى أن يفي بعهد الربوبية كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ فيحفظ هذه المعرفة في قلبك وهذا الذكر في لسانك ويجعلها نوراً باقياً معك في القبر والظلمات والقيامة[2].

النوع الثالث[3]: من الأمور التي شبه الله الإيمان بها التراب؛ قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: 58].

ووجه المشابهة أن التراب ذو أمانة: من أودع فيه شيئاً أسلم إليه أضعافه، قال الله تعالى: ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261] وكذا المؤمن إذا عمل عملاً سلّم الله إليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

الثاني: من خاصية الأرض أنّه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها مليح، فكذا أرض الإيمان يطرح عليها قبائح الكفر والذنوب ثم يخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: 70].

الثالث: من خاصية الأرض أنّها كالأم الحاضنة لك؛ فهي لك كالمهد، قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: 10] أو كالخزانة لك: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] وكالأم المشفقة عليك: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: 55] وكذلك الإيمان منه يحصل جميع منافعك في الدنيا والعقبى.

النوع الرابع: من الأشياء التي شبّه الله بها القرآن والإيمان: الماء، قال الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد: 17] أي: الإيمان والكفر فالزبد الكفر، والماء الإيمان.

وفي تقرير وجه المشابهة أوجه:

---

(1) فهو في (ب) وهو.
(2) والظلمات والقيامة في (ب) وظلمات القيامة.
(3) النوع الثالث: من هنا إلى قوله وشبه الله تعالى القرآن بالمطر ساقط من (ب).

الأول: أن من أراد أن يصعد من الأسفل إلى العلو وخاف من الانزلاق فإذا تمسّك بالحبل أمن من ذلك الخوف، فالعبد إذا أراد أن يصعد من سفل البشرية إلى علو عالم الجلال والكبرياء ويخاف أن ينزلق قدم عقله فإذا تمسك بالقرآن أمن منه.

الثاني: أن الأعمى إذا أراد الذهاب إلى موضع فإن كان بين مكانه وبين ذلك الموضع حبل مشدود تمسّك بذلك الحبل فيصير بذلك فارغاً من غير خوف، فكذلك العقول البشرية كالعمى في سلوك سبل التوحيد والمعرفة فإذا تمسّكوا بالقرآن أمِنوا من الخوف.

الثالث: أن من سقط في البئر فطريق تخليصه أن يرسل إليه حبل ليتعلق به ويصعد وينجو من الهلاك، فالأرواح البشرية وقعت في هاوية عالم الأجسام فالملك الرحيم أرسل إليهم حبل القرآن فمن تعلق به وصعد نجا، ومن لم يتعلق به بقي في بئر الظلمات وكان من الهالكين.

النوع السادس: من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الإيمان شجرة الزيتون.

قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[المؤمنون: 20] وذكروا في تشبيه القرآن أقوالاً:

الأول: أنه تعالى إنما شبه الإيمان بهذه الشجرة لأن الشجرة في أكثر الأمر إنما تنبت في الأمكنة المطهرة فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب بل في القلوب المطهرة.

الثاني: أن شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذين هو في غاية الصفاء، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الإيمان والمعرفة وهما أصفى الأنوار وأشرفها.

واعلم أن الله تعالى وعد المؤمنين بعشر كرامات:

الأولى: المغفرة قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38] والمعنى إن قَبِلوا الإيمان وتركوا الكفر.

وثانيها: الأمن قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: 82].

التاسع: كما أن المطر لو نزل من السماء دفعة واحدة لقلع الأشجار وخرّب الديار وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح فكذلك القرآن لو نزل جملة واحدة لضلت فيه الأفهام ولتاهت فيه الأوهام قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: 21].

العاشر: كما أن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بالمطر فكذلك أحيا القلوب الميتة بالقرآن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122].

الحادي عشر: كما أن المطر واحد ثم أنه يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان وعلى أرض أخرى فيخرج منه الشوك والسم فكذلك القرآن يقع على قلوب المطيعين فيخرج منها ورد العبودية وريحان الطاعة ويقع على قلب الكافر فيخرج منه سم الكفر وشوك المعصية، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26].

الثاني عشر: أن في الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه، فكذلك في القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم.

الثالث عشر: أن الماء الكثير إذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة يهلك، فكذلك القرآن إذا تكلم فيه أحد بغير علم هلك. قال ﷺ: «**من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار**».

الرابع عشر: كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع فكذلك القرآن فوق الفهم والفطنة يضر ولا ينفع، قال ﷺ: «**أُمرت أن أكلّم الناس على قدر عقولهم**».

الخامس عشر: إذا نزل المطر زال القحط وظهر النبات والغذاء والفواكه فكذلك كان قبل نزول القرآن ظهر قحط الدين فلما نزل القرآن زال القحط في الدين وظهر أنواع الغذاء والفواكه للروح وهو بيان التوحيد والنبوة والشرائع.

السادس عشر: كما أن الماء يطفىء النار فكذلك القرآن والإيمان يطفىء عن المؤمن الذي هو حامل القرآن نار جهنم.

النوع الخامس: من الأشياء التي شبّه الله تعالى بها الإيمان والقرآن: الحبل، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103] **ووجه المشابهة من وجوه:**

والثالث[1]: لا يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يكون خيره مأمولاً وشره مأموناً وحتى تكون الضعة أحب إليه من الرفعة، والفقر أحب إليه من الغنى، والذل في الله أحب إليه من العزّ فيما سواه، ويستكثر القليل من عمل غيره ويستقلّ الكثير من عمل نفسه، ولا يرى[2] أحداً إلا ظن أنه خير منه.

قال لقمان لابنه: يا بني، الإيمان[3] سبع حقائق لكل حقيقة منها حقيقة[4]، فالحقائق السبع اليقين والمخافة والمعرفة والهدى والعمل والتفكر والورع، فحقيقة اليقين الصبر، وحقيقة الخوف الطاعة، وحقيقة المعرفة الإيمان، وحقيقة الهدى البصيرة، وحقيقة العمل[5] النية، وحقيقة التفكر الفطنة، وحقيقة الورع القرار.

والخامس[6]: قيل أركان الإيمان أربعة: توحيد بلا حدّ، وذكر بلا لبث، وحال بلا نعت، ووجد بلا وقت، ومعنى قولنا حال بلا نعت يصير بحيث لا يضيف حالاً من الأحوال الرفيعة إلا ويكون حاصلاً له لأنه لو لم يكن حاصلاً لكان غائباً وقبل ذكر الغائب غيبة.

والسادس: قال علي ﷺ: أربعة خصال من كنّ فيه فهو مؤمن :إذا قال صدق وإذا وعد وفى وإذا اؤتمن أدى وإذا عاهد لم يغدر.

والسابع: قال الجنيد: المؤمن كالأرض يطيق حمل كل شيء، وكالمطر إذا سقط سقى كل شيء، والتحقيق فيه أنه في جميع أحواله نظر إلى الله تعالى وهو لا ينظر من يعامل ولكنه ينظر لأجل من يعامل فلا جرم يستوي الكل عنده.

الثامن: قال يحيى بن معاذ[7]: الإيمان نقيّ فلا تدنّسه بآثامك ،والليل طويل فلا تقصره بمنامك، والأيام قصيرة فلا تخلها عن صيامك. وقال[8] أيضاً: إذا لم يكن الإيمان هادماً للسيئات كما أن الكفر هادم للحسنات فما فضل الإيمان؟

---

(1) والثالث في (ب) قيل.
(2) يرى في بـ(رأى).
(3) الإيمان في (ب) للإيمان.
(4) حقيقة في (ب) حق.
(5) العمل في (ب) العلم وهو سهو من الناسخ.
(6) والخامس من هنا إلى قوله قال يحيى بن معاذ ساقط من (ب).
(7) معاذ في (ب) الرازي.
(8) وقال أيضاً من هنا إلى قوله والعاشر قال إلخ ساقط من (ب).

(وثالثها): الهداية قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: 9].

رابعها: الزيادة قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

وخامسها: الفلاح قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1].

وسادسها: التثبيت قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: 27].

وسابعها: الشفاعة قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: 109] يعني قول لا إله إلا الله.

وثامنها: إصلاح الأعمال، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى قوله ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [الأحزاب: 70 - 71].

وتاسعها: البشارة قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30].

وعاشرها: سمع كلام الله ورؤيته قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22 - 23] **وأما الخاتمة فمن وجوه:**

الأول: قال بعضهم: عجباً لمن عرفك كيف يخلو قلبه عن ذكرك، وكيف يكون همّ نفسه وولده أكبر من همّ مناجاتك، وكيف يفرح بغير إحسانك، وكيف لم يطلب الغنى [و] التعزز بك، وكيف لم يطلب الكفاية في صدق التوكل عليك، وكيف لم يعد البلاء في طاعتك أعظم أنواع السعادات، وكيف لم تشغله معرفتك عن معرفة غيرك، وكيف لم يهن على قلبه مصائب الدنيا، وكيف لم يطلب راحته وروحه بتفويض أموره إليك وكيف يطلب لذة العيش في غير وقت المعرفة وكيف يستلذ بما يشغله عنك، وكيف يؤثر شهوة الدنيا مع سرعة فنائها على محبتك، وكيف يغفل عنك وهو يعلم أنك لا تغفل عنه.

والثاني: قال مقداد بن حسين: من أقبل على الدنيا أحرقته بنيرانها يعني الحرص فصار رماداً، ومن أقبل على الآخرة أحرقته نيرانها يعني نار الخوف فصار سبيكة ذهب ينتفع به [و] من أقبل على الله أحرقته نار التوحيد والمحبة فصار جوهرة نفيسة فلا قيمة لها.

الفصل الخامس:[1] في شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إلٰه إلا الله

وهي من وجوه:

البحث الأول:

زعم جماعة من النحويين أن هذا الكلام فيه حذف وإضمار ثم ذكروا فيه وجهين:

أحدهما: التقدير لا إلٰه لنا إلا الله.

والثاني: لا إلٰه في الوجود إلا الله.

واعلم أن هذا الكلام غير سديد (أما الأول) فلأنه لو كان التقدير: لا إلٰه لنا إلاّ الله لم يكن هذا الكلام مفيداً لتوحيد الخلق إذ يحتمل أن يقال: هبْ أنه لا إلٰه لنا إلاّ الله فلم قلتم أنه لا إلٰه لجميع المحدثات والممكنات إلا الله ولهذا السبب أنه تعالى لأنه لما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قال: بعده ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾لأنه لما قال: وإلٰهكم إلٰه واحد بقي لسائل أن يسأل ويقول: هب أن إلٰهنا واحد فلم قلتم أن إلٰه الكل واحد؟ فلأجل إزالة هذا السؤال قال بعده لا إلٰه إلا هو ولو كان المراد من قول لا إلٰه إلاّ هو الأول كان هذا تكراراً محضاً (وأما الثاني) وهو قولهم التقدير لا إلٰه في الوجود إلا الله فنقول: وأيّ حامل يحملكم على التزام هذا الإضمار بل نقول حمل الكلام على ظاهره أولى من ذلك الإضمار الذي ذكرتم وذلك لو أنّا ألزمنا ذلك الإضمار كان معناه لا إلٰه في الوجود إلا هو فكان هذا نفياً لوجود الإلٰه الثاني أما لو أجرينا الكلام على ظاهره كان هذا نفياً لماهية الإلٰه الثاني، ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في إثبات التوحيد من نفي الوجود فثبت أن إجراء الكلام على ظاهره أولى.

---

(1) الفصل الخامس من هنا إلى قوله قال حاتم الأصم ساقط من (ب).

التاسع: قال سهيل بن عبد الله: المؤمن بين خمسة أعداء: نفس تنازعه، ومنافق يبغضه، وشيطان يغويه، ومؤمن يحسده، وكافر يقاتله.

العاشر: قال أبو بكر الوراق: للمؤمن أربع علامات: كلامه ذكر، وصمته فكر، ونظره عبرة، وعمله طاقة.

الحادي عشر[1]: قال أبو بكر الواسطي في معنى قول معاذ :تعالوا نؤمن ساعة، أي حتى نخرج من الإرادات والمنازعات لأن كل إرادة الإنسان على خلاف إرادة الحق فهي منازعة مع الربوبية.

الثاني عشر: قال أبو يزيد: إلٰهي إنك خلقت هذا الخلق بغير علمهم وقلوبهم أمانة بغير علمهم وإرادتهم، فإن لم تغنهم فمن يغنيهم؟

(الثالث عشر): قال ﷺ:«**المؤمن من تكون نفسه منه في عناء والناس منه في راحة**».

(1) الحادي عشر من هنا إلى قوله الثالث عشر ساقط من (ب).

المعنى كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ قيل: التقدير لو كان فيهما آلهةً غير الله لفسدتا والذي يدل على صحة ما قلناه أنّا لو حملنا إلا على الاستثناء لم يكن قولنا: لا إلٰه إلا الله توحيداً محضاً لأنه يصير تقدير الكلام. لا إلٰه يستثنى عنهم الله فيكون هذا نفياً لآلهة يستثنى عنهم ولا يكون نفياً لآلهة لا يستثنى عنهم الله، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون إثباتاً لذلك وهو كفر، فثبت أنه لو كانت كلمة إلا محمولة على الاستثناء لم يكن قولنا لا إلٰه إلا الله توحيداً محضاً ولما اجتمعت العقلاء على أنه يفيد التوحيد المحض وجب حمل إلّا على معنى غير حتى يكون معنى الكلام لا إلٰه غير الله.

البحث الرابع:

قال جماعة من الأصوليين: الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً، واحتجوا عليه بوجهين:

الأول: أن الاستثناء مأخوذ من قولك: ثنيت الشيء عن وجهته إذا صرفته عنها، فإذا قلت: لا عالم فها هنا أمران.

أحدهما: الحكم بهذا العدم والثاني نفس هذا العدم، ثم إذا قلت عقبه: إلا زيد فهذا الاستثناء يحتمل أن يكون عائداً إلى حكمك ذلك العدم ويحتمل أن يكون عائداً إلى نفس ذلك العدم فإن كان عائداً إلى الحكم بالعدم، لم يلزم تحقيق الثبوت لأن بسبب الاستثناء يزول الحكم بالعدم وعند زوال الحكم بالعدم يبقى المستثنى مسكوتاً عنه غير محكوم عليه لا بالنفي ولا بالإثبات وحينئذ لا يلزم الثبوت أما إن كان تأثير الاستثناء في صرف العدم ومنعه فحينئذ يلزم تحقيق الثبوت لأنه لما ارتفع العدم وجب حصول الوجود بالضرورة لأنه لا واسطة بين النقيضين إذا ثبت هذا فنقول: عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس العدم ويدل عليه وجهان:

الأول: أن الألفاظ وضعت دلالة على الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية، فإنك إذا قلت العالم قديم فهذا لا يدل على كون العالم قديماً في نفسه وإلا لكنّا إذا قلنا العالم قديم والعالم حادث لزم كون العالم قديماً وحادثاً وذلك محال، بل هذا الكلام يدل على حكمك بقدم العالم، وإذا كانت الألفاظ دالة على

فإن قيل: نفي الماهية غير معقول فإنك إذا قلت: السواد ليس بسواد كنت قد حكمت بأن السواد انقلب إلى نقيضه وصيرورة الشيء عن نقيضه غير معقول، أما إذا قلت: السواد غير موجود كان هذا كلاماً معقولاً فلهذا السبب أضمرنا فيه الإضمار، والجواب قولكم: نفي الماهية غير معقول، قلنا: هذا باطل فإنك إذا قلت: السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية فإذا نفيت الماهية المطلقة نفيت الماهية المسماة بالوجود، وإذا كان كذلك صار الماهية أمراً معقولاً، وإذا عقل ذلك فلم لا يجوز إجراء هذه الكلمة على ظاهرها؟ فإن قلت: فإنك إذا قلت: السواد ليس بموجود فإنك ما نفيت الماهية وما نفيت الوجود أيضاً وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود فنقول: موصوفية الماهية بالوجود هل هي أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا؟ فإن كانت مغايرة لهما كان لذلك المغاير ماهية فكان قولنا: السواد ليس بموجود نفياً لتلك الماهية المسماة بالموصوفية وحينئذ يعود الكلام المذكور، وأما إذا قلنا: أن موصوفية الماهية بالوجود ليست أمراً مغايراً للماهية وللوجود امتنع توجيه النفي إليها وإذا امتنع ذلك بقي النفي متوجهاً إما إلى الماهية وإما إلى الوجود، وحينئذ يحصل غرضنا من أن الماهية يمكن نفيها وإذا كان الأمر كذلك صح أن قولنا: لا إلٰه إلاّ الله حق وصدق من غير حاجة إلى إضمار.

البحث الثاني:

قال النحويون: قولنا لا إلٰه إلاّ هو، ارتفع هو لأنه بدل من موضع لا مع الاسم، وبيانه أنك إذا قلت: ما جاءني رجل إلا زيد فقولك: إلا زيد مرفوع بالبدلية لأن البدل هو الإعراض عن الأول والاجتزاء بالثاني، فصار التقدير: ما جاءني إلا زيد وهذا معقول لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد، وأما قوله: جاءني القوم إلاّ زيداً فهاهنا البدلية غير ممكن لأنه يصير التقدير: جاءني إلاّ زيداً وذلك يقتضي أنه جاءه كل أحد إلاّ زيداً وذلك محال فظهر الفرق.

البحث الثالث:

اتفق النحويون أن محل إلا في هذه الكلمة محل غير، والتقدير: لا إلٰه غير الله، وهو قول الشاعر:

[وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان]

إنّا قد دلّلنا على أنّ كلمة إلاّ بمعنى غير في غير هذا الموضوع وإذا كان كذلك كان قولنا: لا إلٰه إلاّ الله [معناه][1] لا إلٰه غير الله، فيصير المعنى نفي إلٰه يغاير الله، ولا يلزمهم من نفي ما يغاير الشيء إثبات ذلك الشيء وحينئذٍ يعود.

والجواب من وجهين:

الأوّل: أن إثبات الإلٰه ﷻ متّفق عليه بين جميع العقلاء بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، وكان ذلك مفروغاً منه متفقاً عليه إلا أنهم كانوا يثبتون الشركاء والأنداد والأضداد، فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الأضداد والأنداد، فأمّا القول بإثبات الإلٰه للعالم فذلك من لوازم العقول.

والثاني: إن سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفي سائر الآلهة دلّت على إثبات إلٰهية الله تعالى، إلاّ أنّا نقول هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة فهذا تمام القول في هذا المقام.

البحث الخامس:

اعلم أنه يجوز أن يقال: لا رجلَ في الدار وأن يقال: لا رجلٌ في الدار.

أمّا الوجه الأول: فإنه يوجب نفي الرجال بالكلية، والدليل عليه: أن قولنا: لا رجلَ يقتضي نفي ماهية الرّجل ونفي الماهيّة يقتضي انتفاء كل أفراد الماهية؛ لأنّه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية ضرورة؛ وأنّه إن ثبت فرد من أفراد الماهية ثبتت الماهية لا محالة.

وأمّا قولنا: لا رجل في الدّار فهو نقيض قولنا: لا رجلَ في الدار، ولكن قولنا لا رجل في الدّار يفيد ثبوت رجل واحد، فقولنا: لا رجلَ في الدار وجب أن يفيد عمومَ النّفي حتى يتحقق التناقض بين القولين.

فالحاصل، أن قولنا: لا رجلَ أقوى في الدلالة على عموم النفي من قولنا: لا رجلُ مع أنّ كلّ واحد منهما يفيد عموم النفي. ولأجل كون كلّ واحد منهما يفيد العموم قوى قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2] بالقراءتين وكذا قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا

---

(1) [معناه] في الأصل.

الأحكام الذهنية لا على الموجودات الخارجية كان صرف ذلك الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من صرفه إلى نفس ذلك العدم.

الوجه الثاني: في بيان أن عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى نفس ذلك العدم، وذلك لأن عدم الشيء في نفسه ووجوده لا يقبل تصرف هذا العامل بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم، وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء إلى الحكم أولى من عوده إلى المحكوم به.

الحجة الثانية في بيان أن الاستثناء من النفي ليس بإثبات هو أنه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة في الاستثناء في النفي مع أنه لا يقتضي الثبوت قال ﷺ: **«لا نكاح إلا بوليّ ولا صلاةَ إلا بطهور»**[1].

ويقال في العرف: لا عزّ إلا بالمال، ولا مال إلا بالرجال، ومرادهم من الكلّ مجرّد الاشتراط، أقصى ما في الباب أن يقال: (قد)[2] ورد هذا اللفظ في صورة أخرى وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي إثباتاً، إلا أننّا نقول: أنه لا بدّ وأن يكون مجازاً في إحدى الصورتين، إلا أننا نقول: إن قلنا: أنه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً فحيث أفاد ذلك احتمل أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر، ولا يكون ذلك تركاً لما دلّ اللفظ عليه.

فإن قلنا: إنّه يقتضي أن يكون الخارج من النفي إثباتاً، فحيث لا تفيد ذلك لزمنا ترك العمل [بما][3] يكون اللفظ دليلاً عليه، ومعلوم أن الأوّل أولى؛ لأنّ إثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدّليل، أما ترك ما دلّ الدليل عليه يكون مخالفاً للدليل فثبت بما ذكر أن الاستثناء من النفي لا يكون إثباتاً، وإذا ثبت هذا كان قولنا: لا إلٰه إلا الله تصريحاً بنفي سائر [الآلهة][4]، ولا يكون إترافاً بوجود الله، وإذا كان كذلك لم يكن مجرد هذا القول كافياً في صحة الإيمان وهٰهنا إشكال آخر وهو:

---

(1) هو حديثان، الأول عند أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم من حديث أبي موسى وابن ماجه من حديث ابن عباس، والثاني بلفظ آخر عند أحمد وأبي داود وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة.

(2) [قد] في الأصل فقد.

(3) [بما] في الأصل ما.

(4) [الآلهة] في الأصل الإلٰهية.

وعن هذا قال المحققون: أن النّصف الأوّل من هذه الكلمة ينظف الأسرار، والنصف الثاني جلالة الأنوار عن حضرة الملك الجبار.

والنصف الأوّل فناء والثاني بقاء، والنصف الأول انفصال والثاني اتصال، والنصف الأوّل إشارة إلى قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: 50] والنصف الثاني إشارة إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91].

البحث السابع:

لقائل أن يقول: أنّ من عرف أنّ للعالم صانعاً قادراً قاهراً عالماً موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة في الإلٰهية من الصفات السلبية والثبوتية فقد عرف الله تعالى معرفة تامة ثم إن علمه بعدم الإلٰه الثاني لا يزيده علماً بحقيقة ذات الإلٰه وصفاته، لأن عدم الإلٰه الثاني ليس عبارة عن وجود الإلٰه الأوّل ولا صفة من صفاته، ثم إنا أجمعنا على أنّ علمه بذات الإلٰه وصفاته لا يكفي في تحقيق النجاة، بل ما لم يعلم عدم الإلٰه الثاني لا يحصل العلم المعتبر في النجاة، فما السّبب في أن كانت معرفة ذات الله تعالى وصفاته غير كافية في تحقيق النجاة، بل كان العلم بعدم الثاني معتبراً في تحقيق النجاة.

البحث الثامن:

أن المكلف إذا تمّم النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى، ثمّ كما تمّم مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه: لا إلٰه إلاّ الله فهٰهنا لا شك أنّه يموت مؤمناً؛ لأنّه أدّى ما وجب عليه ولم يجد مهلة التلفظ بهذه الكلمة. أمّا إذا تمّم النظر والاستدلال في معرفة الله ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه: لا إلٰه إلاّ الله ثمّ إنّه لم يقل ثم مات فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا؟

مِن النّاس من قال: إنّه مات كافراً لأنّ صحة الإيمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه.

ومِن النّاس من قال: إنّه مؤمن لأجل أنّه حصل له العرفان التام، وفاسق لأجل أنّه كان مأموراً بذكر هذه الكلمة ولم يذكرها[1].

---

(1) ولم يذكرها بهامش (أ) نسخة ثانية هي: وما ذكرها.

فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 197] ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على العموم اتفقوا عليه في قولنا: لا إله إلاّ الله.

البحث السادس:

ومن الناس من يقول: إن تصور الإثبات مقدم على تصور النفي بدليل أنّ الواحد منا يمكنه أن يتصور الإثبات وإن لم يخطر بباله معنى النفي والعدم، ويمتنع عليه أن يتصور العدم والنفي إلا وقد تصوّر الإثبات أولاً؛ وذلك لأن العدم المطلق غير معقول بل العدم لا يُعقل إلا إذا أضيف إلى أمر معين، فيقال: عدم الدار وعدم الغلام؛ فثبت أن تصور الإثبات أصل ومتقدم وتصور النفي متأخر وفرع.

وإذا ثبت هذا: فما السبب في أن جعل النفي الذي هو الفرع مقدماً والإثبات الذي هو الأصل مؤخراً؟

والجواب: أن في تقديم النفي على الإثبات هٰهنا أغراضاً:

الأوّل: أن نفي الربوبية عن غيره ثم إثباتها له آكد في الإثبات من إثباتها له من غير نفيها عن غيره كما أن قول القائل: ليس في البلد عالم غير فلان أقوى في باب المدح من قولنا: فلان عالم البلد.

الثاني: أي لكل إنسان قلباً واحداً والقلب الواحد لا يتسع باشتغالٍ بشيئين دفعة واحدة فبقدر ما يبقى مشغولاً بأحد الشيئين يبقى محروماً عن الشيء الثاني، فقوله: لا إله إلاّ الله إخراج لكل ما سوى الله عن القلب حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سوى الله ثم حضر فيه سلطان: إلاّ الله أشرق نوره إشراقاً تاماً وكمل استيلاؤه عليه كمالاً قوياً.

الثالث: أن النفي الحاصل بلا يجري مجرى الطّهارة والإثبات **[الحاصل بإلاّ]**(1) يجري مجرى الصلاة، فكما أنّ الطهارة مقدمة على الصلاة فكذا أوجب تقديم (لا إله) على قولنا (إلاّ الله)، ويجري مجرى تقديم الاستعاذة على القراءة فكما كنا هذه الاستعاذة مقدمة على قراءة القرآن فكذا هٰهنا.

وأيضاً من أراد أن يحضر الملك في بيته وجب عليه أن يقدم تطهير البيت عن الأقذار فكذا هٰهنا.

---

(1) [الحاصل بألا] في الأصل بألا الحاصل.

وهذه درجة يشترك فيها المخلصون والمنافقون، وكل من تعلّق بهذه الكلمة نال من بركتها وأحرز حظاً من فوائدها، وإن طلب بها الدنيا نال الأمن فيها والسلامة من آفاتها، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظّين وأحرز بها السعادة في الدارين.

والطبقة الثانية: الذين ضموا إلى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد.

واعلم أن الاعتقاد التقليدي لا يكون عِلماً وذلك لأنّ العقد ضدّ الانحلال والانشراح، والعلم عبارة عن انشراح الصّدر، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22].

فثبت أن صاحب التقليد لا يكون عارفاً ولا عالماً، وهل يكون مسلماً؟ فيه الخلاف المشهور بين الأمة.

الطبقة الثالثة: الذين ضمّوا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل الإقناعية المقوّية لذلك الاعتقاد، إلاّ أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينيَّةً بل إقناعيّة ظنّيةً.

الطبقة الرابعة: الذين أثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية والبراهين اليقينية. إلاّ أنّهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات، ولا من أصحاب التجلي وأرباب مطالعة (الأنوار) الإلٰهية.

ثم اعلم أن الإقرار باللسان له درجة واحدة، أمّا الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه وعدمه ودوامه، وكثرة تلك الاعتقادات وقلتها؛ فإن المقلد ربّما كان مقلداً في مجرد أن الله تعالى واحد وربّما زاد عليه، فكان مقلداً في ذلك وفي أن صانع العالم عالم وقادر.

واعلم أن كلّما كان وقوف الإنسان على هذه المطالب أكثر، كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر؛ وذلك لأنّ القلب إذا حصل له شعور بهذه المطالب وحصل له وقوف [على] مشاهدة المباحث مال إلى العلم وكره التقليد فتعسر عليه التقليد.

وأمّا المرتبة الثالثة: وهي تقوية الاعتقاد بالدلائل الإقناعية فمراتب الخلق فيها متفاوتة وغير مضبوطة.

والدليل على أنّه مؤمن قوله ﷺ: «**يُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان**»[1] وهذا الشخص قلبه مملوء من الإيمان فكيف لا يخرج من النار؟!

البحث التاسع:

مِن النّاس من قال تطويل المدّة في كلمة (إلٰه)[2] من قولنا: لا إلٰه إلاّ الله مندوب إليه مستحسن؛ لأنّ المكلف في زمان التمديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد وينفيهما ثم بعد ذلك يعقّب هذه الكلمة بقوله إلاّ الله فيكون ذلك أقرب إلى الإخلاص والكمال، ومنهم من قال: ترك التمديد أولى، لأنّه ربّما مات في زمن التلفظ بلا قبل الانتقال إلى كلمة إلّا.

والجواب: أن بتقدير أن يكون للعالم إلٰهان فالعبد لا يعلم أنه عبد لهذا الإلٰه أو عبد لذلك الإلٰه أو عبد لهما معاً، فحينئذ لا يكون جازماً بكونه مشتغلاً بشكر مولاه وخالقه بل يجوز أن تكون عبادته لغير خالقه، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن جازماً في تلك العبودية وتلك الطاعة، أمّا إذا عرف أنّه لا إلٰه للعالم إلاّ إلٰه واحد فحينئذ يكون جازماً بكونه مشتغلاً بعبودية مولاه وخالقه، فلهذا السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات إلّا معرفة التوحيد.

والذي عندي: أن المتلفّظ بهذه الكلمة إن كان يتلفظ بها لينتقل بها من الكفر إلى الإيمان فترك التمديد أولى حتى يحصل الانتقال من الكفر إلى الإيمان على إسراع الوجوه وإن كان المتلفظ بها مؤمناً وإنما يذكرها لتجديد هذه الكلمة فالتمديد أولى؛ حتى يحصل في زمن التمديد صور الأضداد والأنداد على التفصيل في الخاطر، وينفيها ثم يعقبها بقوله: إلاّ الله.

البحث العاشر:

اعلم أن الناس في قول هذه الكلمة على مراتب وطبقات:

وأدناها طبقة: من قالها ليحقن بها دمه فأحرز ماله على ما اقتضاه موجب قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إلٰه إلاّ الله فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقها**».

---

(1) رواه أحمد (3/ 94 ـ 95)، والنسائي (8/ 112 ـ 113)، والترمذي (2725).
(2) [إلٰه] في الأصل (لا).

ويستبهج بها ثم يصير استعظامه لها وابتهاجه بها شاغلاً له عن الاستغراق في المبتهج به فكان يستغفر الله عن ذلك.

الرابع: أنّه كلّما لاح له شيء من عالم الغيب كان يعلم أن الذي لاح له إنّما لاح بقدر قوته وطاقته، وكان يعلم أنّ قدر عقله وطاقته بالنسبة إلى جلال الله وعلوّ كبريائه كالعدم فحينئذ يعلم أنّ الذي لاح له من كمال عالم الغيب بالنسبة إلى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل إليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره.

وأمّا المرتبة الرابعة: وهي الترقي من الدلائل الإقناعية إلى البرهانية القطعية فالأشخاص الذين يكونون واصلين إلى هذه الدرجة يكونون في غاية القلّة ونهاية الندرة؛ لأنّ ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين واستعمالها في المطالب وذلك في غاية العزة.

وأمّا المرتبة الخامسة: وهم أصحاب المشاهدات والمكاشفات فنسبتهم في القلّة إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أصحاب البراهين القطعية إلى عوام الخلق.

واعلم أنّ عالم المكاشفات لا نهاية لها؛ لأنّه عبارة عن سفر العقل في مقامات جلال الله ومدارج عظمته، ومنازل كبريائه وقدسه.

ولما كان لا نهاية لهذه المقامات فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات.

واعلم أن الإنسان إذا انكشف له أسرار لا إله إلاّ الله أقبل على الله وأخلص في عبادته ولم يلتفت إلى أحد سواه، فلا يرجو غيره ولا يخاف غيره، ولا يرى الضرَّ والنفع إلا منه فانقطع بالكلية ممَّن دونه وتبرأ من شرك الباطن كما قد تبرّأ من شرك الظاهر، وذلك كلّه موجب كلمة التوحيد، ولهذا السبب لمّا قال لمحمّد ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال بعده: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: 19]، والمعنى ـ والله أعلم ـ أنّ الأمر بالاستغفار في تعقب وقع في موجب كلمة لا إله إلاّ الله إمّا لغفلة تحول دونه أو لعارض شغل يعوقه عنه، وهو معنى قوله ﷺ: «**إنّه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**» وقد روى (مائة مرة).

وفي الحديث وجوه:

الأول: أن المراد ما يغشى قلبه من غفلة أو يعرضه من فترة بحكم الطبع البشري فعند ذلك يفزع إلى الاستغفار.

الثاني: أنه عليه أفضل الصلاة والسلام كان أبداً في الترقي، فإذا انتقل إلى درجة نظر إلى الدرجة التي انتقل عنها فكان يستحقرها في العبودية فكان يستغفر الله منها.

الثالث: أنّه ربما لاح له شيء من تجلّي عالم الغيب فيستعظم تلك الدرجة

(الخامسة)[1]: ثلاثة نفر حضروا عند بعض الزهاد وقالوا: أوصنا فقال لواحد: ألست تقول أنه عالم؟ قال: بلى فقال: إياك أن يعلم منك شيئًا يفضحك به غداً، وقال للثاني: أليس هو بصيراً؟ قال: بلى فقال: إياك أن يراك على عمل تستحي منه يوم القيامة، وقال للثالث: أليس هو سميعاً؟ قال: بلى قال: احذر أن لا يسمع منك شيئاً يردّك عن باب رحمته بسببه.

(السادس): قال سفيان: من وجد في نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها بالسعادة: الهيبة للعزيز الجبار، والحرمة للنبي المختار والحياء من الأبرار والأخيار.

(المقام الثاني)[2]: **الولاية**، وأنه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فيها فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: 55] قيل: نزلت في عبد الله بن سلام حين شكى من عداوة اليهود له بعد إسلامه فنزلت. وقال محمد بن إسحاق: نزلت في عبادة بن الصامت قال: يا رسول الله تبرأت من حلف اليهود وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة. **وفيه نكت:**

(الأولى): أن يوسف عليه أفضل السلام قال: ﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يوسف: 101] فوجد العزّ والملك بسبب ذلك القول الذي هو قائله، وهاهنا قال الله تعالى للمؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فأولى أن يرجو المؤمن[3] تلك الجنة والمغفرة.

(الثانية): قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني حافظكم وناصركم الله ورسوله والمؤمنون، ثم قال ﷺ: **«المؤمن مع من أحبّ»** ثم إن كل مسلم يحب الله فوجب له بحكم ذلك الخبر أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله، فإذا كان حفظ الله لا يفارقني بسبب أني أحب الله فكيف يفارقني حفظ الله مع أن الله وليي وحافظي وناصري.

(الثالثة):[4] هذه الآية دلت على أن الصحابة ﷺ يحبوننا لأن الله تعالى جعل

---

(1) الخامسة من هنا إلى قوله السادس ساقط من (ب).
(2) المقام الثاني من هنا إلى قوله الأولى أن يوسف إلخ ساقط من (ب).
(3) المؤمن في (ب) المؤمنين.
(4) الثالثة من هنا قوله قال عمر بن الخطاب ساقط من (ب).

الفصل السادس: في فضل المؤمن

اعلم أن الله تعالى سمّى المؤمنين ثالث نفسه في عشرة أشياء: في المراقبة والولاية والموالاة والصلاة والعزة والطاعة والمشاقة والأذى والالتجاء والشهادة.

(المقام الأول): في المراقبة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105] هدّد المذنبين الحاضرين برؤية المؤمنين كما هدّدهم برؤية نفسه.

وفيه لطائف:

(الأولى): روي أن عمر ﷺ خرج ليلة فسمع امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه قومي، وامزجي الماء باللبن، فقالت: أوَ ليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين قالت: فلا يرانا أمير المؤمنين قالت: بلى ولكن يرانا ربّ العالمين، فلما سمع عمر ذلك خطبها في الغد لابنه فكان عمر بن عبد العزيز من خير حَفدتها.

(الثانية): امرأة شاطرة كانت بمكة قالت: لا أبرح حتى أفتن طاووس اليماني، وكان رجلاً جميلاً فعرضت نفسها عليه مراراً حتى ظنّت أنّها أعجبته فقال طاووس: احضري الليلة فجاء بها إلى المقام فقال: اضطجعي هٰهنا فقالت: سبحان الله ألا يرى الناس؟ فقال طاووس: أوَليس قد يرانا الله في كل موضع؟! فتابت.

(الثالثة): قال أبو عبد الرحمٰن العتبي: خرجت ليلة فإذا أنا بجارية مليحة فأردتها فقالت: وَيْلَكَ أما لَكَ زاجر من عقل إن لم يكن ناهٍ من الدين؟ فقلت: إنه لا يرانا إلّا الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها؟

(الرابعة): قال حاتم الأصمّ: راع نفسك في ثلاثة أوقات: إذا عملت بالجوارح فاذكر نظر الله إليك، وإذا قلت بلسانك فاذكر سمع الله عليك، وإذا كنت ساكتاً فاذكر علم الله فيك لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46].

(الأول): جاء في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: **«هنئوني هنئنوني»**، فقالوا: هنيئاً لك يا رسول الله فما حظنا؟، فنزل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: 43][1] والإشارة أنه صلّى الله على الرسول عليه أفضل السلام في الدنيا فما ترك المذنبين حتى صلّى عليهم أيضاً، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة؟

(الثانية): الصلوات[2] من الله على رسوله على أوجه: عام وخاص، وخاص الخاص، والعام: هو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: 43] والخاص: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157] وخاص الخاص: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: 56].

(الثالثة):[3] جاء في الحديث: **«إن لله ملائكة بأيديهم ألواح وقراطيس من فضة وأقلام من ذهب لا يكتبون شيئاً إلا الصلوات عليّ وعلى أهل بيتي»** والسبب من هذه الصلوات أن روح الإنسان الضعيفة لا تستعدّ لقبول الأنوار الإلٰهية فإذا استحكمت العلاقة بين روحه وروح الأنبياء فالأنوار الفائضة من عالم الغيب على أرواح الأنبياء تنعكس إلى أرواح هؤلاء المُصلّين بسبب الانعكاس، مثال الشمس والطست المملوء من الماء والسقف معلوم.

(الرابعة): جعل الله أهل نبيه مساوياً له في خمسة أشياء في المحبة، قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] وقال تعالى في أهل بيته: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] والثاني في تحريم الصدقة عليهم قال ﷺ: **«حرمت الصدقة عليّ وعلى أهل بيتي»**[4].

(والثالث): في الطهارة: قال تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ

---

(1) الحديث لم نعثر عليه فيما لدينا من المراجع.

(2) الصلوات في (ب) الصلاة.

(3) الثالثة من هنا إلى قوله المقام الخامس ساقط من (ب)، والحديث لم نعثر عليه فيما لدينا من المراجع، والظاهر أنه لا يصح.

(4) لم نعثر عليه بهذا اللفظ ومعناه في الأحاديث الصحيحة.

المؤمنين أولياء لنا وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55] ثم أكد ذلك بقوله ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71] ثم أمرنا بأن نحب الصحابة بدليل قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: 100] وقوله ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: 10] فثبت بمجموع هاتين الآيتين حصول المحبة بتساوٍ بين الصحابة، والحبيب لا يرضى بعذاب المحبوب فدلّ ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين كلهم يكونون شفعاء في ذنوب المذنبين.

(المقام الثالث) الموالاة: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: 4] فحكم بأن مولى المؤمنين هو الله وجبريل وصالح المؤمنين. ثم أسقط شركة جبريل والمؤمنين فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: 78] وقال في حق الكافر: ﴿ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحديد: 15]، ثم قال: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ فمن كان الله مولاه فلا يذل ولا يخزى، ومن كان المؤمنون مواليه فلا يضيع ولا يشقى، قال عمر بن الخطاب ﷺ يوم أحد للكفار حيث قالوا: لنا عزّى وليس لكم عُزّى، فقال عمر: لنا مولى وليس لكم مولى، فنزل على وفق قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 11].

(الثانية):[1] أن الله تعالى سمى النار مولى الكفار فقال: ﴿ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ وإنما سمى النار مولاهم لأنها لا تتركهم، ولما سمى نفسه مولى المؤمنين فنرجو أن لا يترك إعانتهم ورعايتهم.

(الثالثة): قال بعضهم: من كان مؤدّبه ربه لا يعاب، ومن كان ناصره ربه لا يغلب، ومن كان هاديه ربه لا يضل، ومن كان مُعينه ربه لا يشقى، ومن كان مولاه ربه لا يضيع ولا يحتاج إلى أحد.

(المقام الرابع): الصلوات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56]، فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول ﷺ وها هنا ثلاث نكت:

---

(1) الثانية من هنا إلى قوله الثانية الصلاة من الله الخ ساقط من (ب). .

أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6] وللمؤمنين أيضاً العِزّة بالولاية لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71].

(السادسة): لله العِزّة بالعلو والعظمة لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255].

وللرسول بالرفعة لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الانشراح: 4] وللمؤمنين بالقبول والرحمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

(السابعة): لله عِزّ المعبودية لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92] وللرسول عِزّ والمتبوعية لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158] وللمؤمن عز العبودية لقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: 53].

(الثامنة): لله عِزّ الاستغناء ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: 38] وللرسول عز الأغنياء لقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: 8] وللمؤمن عز الغنى لقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: 32] ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء: 129].

(التاسعة): قال علي ﷺ: (من أراد عزاً بغير عشيرة وهيبة بغير سلطان، وغنى بلا مال وحسبًا بلا نسب، فيلخرج نفسه من ذل المعصية[1] إلى عز الطاعة).

(العاشرة): قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار: من أعقل الناس وأجهلهم وأغناهم وأعزهم؟ فقال: أعقلهم محسن خائف، وأجهلهم مسيىء آمن، وأعزهم الأتقياء، وأغناهم القانع[2].

(المقام السادس)[3] الطاعة: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59]. وفيه نكت: روى في الخبر: أني ملك لا أزول فأطعني حتى أجعلك ملكاً لا تزول، وأني حيّ لا أموت فأطعني حتى أجعلك حياً لا تموت، وأني إذا أردت شيئاً قلت له كن فيكون فأطعني حتى أُنزلك داراً إذا قلت

(1) ذل المعصية إلخ في (ب) ذل معصية الله إلى عز طاعته.
(2) وأعزهم إلخ في (ب) وأغناهم القانع وأعزهم الأتقياء.
(3) المقام السادس من هنا إلى قوله قال ج من آذى مؤمناً إلخ ساقط من (ب).

إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ [طه: 1 ـ 3] وقال لأهل بيته: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: 33].

(والرابع): في السلام: قال: (السلام عليك أيها النبي) وقال: في أهل بيته ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: 130].

(والخامس): في الصلوات على الرسول وعلى آلهِ: كما في آخر التشهد.

(المقام الخامس): العِزّة. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8] فعزّة الله عزّة الربوبية، وعزّة الرسول عزّة النبوة، وعزّة المؤمنين عزّة التلفظ بكلمة الإخلاص وهي:[1] لا إلٰه إلاّ الله، ثم إن كما عزّ[2] الله وعِزّ الرسول لا يقبلان الذل فكذا عزّ المؤمنين لا يقبل الذل.

(الثانية)[3]: لله عِزّة الإنشاء والتكوين: قال تعالى: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] وللرسول عزّ الدنيا حيث أشار إلى القمر فانشق ببركة دعائه، وللمؤمن عزّ الإيمان والشهادة ثم إن الأشياء تكونت عند قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والقمر انشق عند دعاء الرسول فنرجو أن يحصل الغفران والرحمة للمؤمن عند كلمة الشهادة.

(الثالثة): عِزّ المؤمن في أن قيده المعرفة وصيده الجنة ووعده الرؤية، فإذا كان للعبد المؤمن رباً كافياً وكتاباً شافياً ورسولاً وافياً [اسمه اسم الله] ولساناً شاهداً لله ونفسه طالبة لمرضاة الله وقلبه محل لنظر الله، وسراجه معرفة الله وشهادته محبة الله، وروحه نور الله وبصيرته مشتاقة إلى رؤية الله، فجدير به أن يكون عزه متصلاً بعِزّ الله.

(الرابعة): لله العِزّة سواء أوجد أو أعدم، وللرسول العِزّة سواء بلغ أو سكت فكذلك المؤمن له العِزّة سواء أطاع أو عصى.

(الخامسة): لله العِزّة بالولاية: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: 196] وللرسول العِزّة أيضاً بالولاية لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ

---

(1) الإخلاص وهي ساقط من (ب).
(2) عِزّ الله في (ب) عِزّة الله.
(3) الثانية من هنا إلى قوله قال علي إلخ ساقط من (ب).

معتصم يتمسك بها، فجعل حبل التوحيد سبباً للنجاة من الكفر فقال تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256] وجعل القرآن سبباً للنجاة عن البدعة لقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ وجعل الإجماع سبباً للنجاة عن الفتن لقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾.

(الثانية): قال ﷺ: «**سبع من الهدى وفيهن الجماعة من خرج منهنّ فقد خرج من الجماعة لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا شرك واتركوا سرائرهم، وصلوا على من تاب من أهل القبلة وصلّوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف كل برّ وفاجر، وجاهدوا مع كل خليفة ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف وادعوا [لهم][1] بالصلاة ولا تدعوا عليهم وجانبوا الأهواء كلها فإن أولها وآخرها باطل[2]**».

(**الثالثة**): سئل عن القلب السليم فقال: هو الذي دينه بلا شك، ومذهبه بلا هواء، وعلمه بلا رياء، وبدنه بلا خصم.

(**المقام الثامن) في الأذى**: نهى عن الأذى للمؤمنين، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: 57] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

اعلم أنه تعالى نهى عن إيذاء المؤمن كما نهى عن إيذاء نفسه وإيذاء رسوله ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: 63] وقال ﷺ: «**المؤمنون قوم بررة وهم المتحابون المتبادلون، والمنافقون قوم فجرة وهم المتقاطعون المتدابرون**»،[3] وقال ﷺ لعائشة: «**إن الله يبغض الفاحش والمتفحش**»[4] فيه نكت:

---

(1) لهم (في الأصل) له.

(2) لم نعثر عليه فيما لدينا من المراجع.

(3) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(4) انظر: المعجم الكبير للطبراني (405) من حديث أسامة بن زبير ورواه مسلم، وأحمد (6/ 135 ـ 135 و230)، والبخاري في الأدب المفرد (755) من حديث عائشة.

ومن حديث سهل بن الحنظلية انظر المعجم الكبير (5616 و5617)، ومن حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد (2/ 159 و162 و191 و195)، والحاكم (1/ 75 و4/ 513)، وحديث جابر بن عبد الله عند البخاري في الأدب المفرد (320) وحديث أبي هريرة عند الحاكم (1/ 12).

لشيء كن فإنه يكون[1].

(الثانية): في الخبر ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح[2] وقال ﷺ: «**لا يجتمع أمتي على ضلالة**»[3].

وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين بعدي عضوا عليها بالنواجذ**»[4] وقال ﷺ: «**اقتدوا بالذين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ**[5]» وقال ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[6] وكل ذلك يدل على أنه كما يجب طاعة الله وطاعة رسوله فكذلك يجب طاعة أولي الأمر من المؤمنين وهم العلماء والصالحون.

(الثالثة): قيل بقاء الدنيا بسيوف الأمراء ولسان العلماء: فعليك بطاعتهما إلا في معصية الله.

(المقام السابع) المشاقة: قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13] وقال تعالى في المؤمنين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 115] وفيه نكت:

(الأولى): أن لله تعالى ثلاثة بحور عظيمة يهلك العبد فيها إن لم يكن له

---

(1) لا يوجد فيما لدينا من المراجع.

(2) رواه الخطيب (4/ 165) مرفوعاً، وفي إسناده سليمان بن عمر والنخعي وهو كذاب، فهو موضوع مرفوعاً من حديث ابن مسعود. لكن رواه أحمد (3600) والطبراني في المعجم الكبير (8582)، والبزاز (30) كشف الأستار على ابن مسعود وهو صحيح موقوفاً على ا بن مسعود.

(3) هو حديث صحيح ورد عن جماعة من الصحابة منهم ابن عمر، انظر المعجم الكبير (13623) للطبراني، ومنهم أبو مالك الأشعري انظر المصدر السابق (3440)، وكذلك ابن عباس عند الحاكم (1/ 116) وأنس عند ابن ماجه (2950) وغيرهم.

(4) يراجع المعجم الكبير للطبراني، الأرقام (597 ـ 603 و625).

(5) ورد من حديث حذيفة بن اليمان وابن مسعود.

فحديث حذيفة رواه أحمد (5/ 382 و402)، والترمذي (3742 و3887)، وابن ماجه (97)، والبيهقي (8/ 153)، وابن حزم في الأحكام (6/ 81) وحديث ابن مسعود رواه الترمذي (3893)، ولكن ليس في حديثيهما «عضّوا عليها بالنواجذ».

(6) هو الحديث قبله.

«النكتة الأولى» أنه تعالى مدح إبراهيم حيث تبرأ من أبيه وشكى عن حاطب بن أبي بلتعة حيث كاتب الكفار من أهل مكة فقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: 1] وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: 22].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: 56] سمى من يتولى الله ورسوله حزب الله، ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: 62].

«النكتة الثانية» قال الواسطي: علامة الولي أربع: لا يشكو من المصائب، ولا يتخذ عمله رياء ويحتمل أذى الخلق ولا يكافيهم ويداري عباده على تفاوت أخلاقهم. وقال الشبلي: أحوال الأولياء ثلاثة، ترك الاختيار وترك الشكوى عند الاضطرار والافتقار إلى الملك الجبار.

(المقام العاشر)[1] في الشهادة على التوحيد. قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 18].

(الأول) هو أن الله شهد لنفسه بالوحدانية ومن شهد لنفسه في الشاهد فإن تلك الشهادة لا تقبل.

والجواب من وجوه:

الأول: أن هذا في الظاهر شهادة وفي المعنى إقرار، وإقرار المقرّ على نفسه مقبول وإنما قلنا أن هذا إقرار وذلك لأنه لما ادعى الوحدانية من الإلٰهية فقد أقر بأن الخلق كلهم عبيده ورزق العبد على المولى لازم، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بالرزق والتربية والحفظ والنصرة، ألا ترى أنه قال: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6].

الثاني: أن الشهادة عبارة عن قول يدل على شيء دلالة ظاهرة ثم إن ذلك القول لا يراد لكونه قولاً بل لكونه دالاً على ذلك المطلوب فلا جرم كل فعل قام مقام القول في ذلك التعريف كان شهادة، ثم إن القول الدال لو كانت دلالته قطعية غير محتملة كان

---

(1) المقام العاشر من هنا إلى قوله هو الأول والآخر إلخ ساقط من (ب).

(الأولى): قال تعالى في الملائكة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المؤمن: 7] ولم يقل يلعنونهم ويؤذونهم.

(الثانية): قال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق**»[1].

(الثالثة): عاتب الله نوحاً حين دعا على قومه بالهلاك.

وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71] ولم يقل أعداء بعض وقال ﷺ: «**من آذى مؤمناً بغير حق فكأنما[2] هدم مكة والبيت المعمور عشر مرات، وكأنما قتل ألف ملك من المقرّبين**»[3].

وقال ابن عمر ﷺ: (إذا لعن العبد دابة تقول الدابة لعنه الله إغضاباً لربه)[4].

(الرابعة)[5] قال تعالى لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159] وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: 199] ونهى عن الهمز واللمز فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1] وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ﴾ [القلم: 10-11] وقال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: 44] وقال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات: 18].

(المقام التاسع) الالتجاء: قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: 16] يمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي في ذلك بالمؤمنين، لأن المنافقين كانوا يتولون اليهود ويتخذونهم وليجة وبطانة، فعليك أن تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة.

---

(1) ورد عن جمع كثير من الصحابة: من حديث حبر انظر الطبراني (2301 و2302)، ومن حديث عبد الله بن مغفل عند أبي داود (4807)، والبخاري في الأدب المفرد (472)، ومن حديث أبي هريرة عند ابن ماجه (3688)، وابن حبان (1914)، والبزار (1964 كشف الأستار)، ومن حديث علي عند أحمد (1/ 112)، والبزار (1960 كشف الأستار)، وأبي يعلى (490)، ومن حديث أبي أمامة عند الطبراني (7477)، وفي مسند الشاميين (421) ومن حديث أنس عند البزار (1961 و1962 كشف الأستار)، والبخاري في الأدب المفرد (466)، ومن حديث عائشة عند مسلم (593)، وابن ماجه (3689).

(2) فكأنما: في (ب) فقد.

(3) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(4) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(5) الرابعة: من هنا إلى قوله الواسطي ساقط من (ب).

وأعطاك الحياة والعقل. فأنواع المنافع وإظهار الدعوى بعد إقامة البرهان على المعنى يكون مستحسناً بخلاف حال العبد فإن [في] أكثر أحواله يكون إظهار الدعوى مقدماً على إظهار المعنى.

الوجه الرابع: أن من أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة وفي ما [بينهما][1] جمال القدرة لا يليق به أن يمدح نفسه، إنّما [الأحق بمدح][2] النفس هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

الوجه الخامس: أنّ حبّ الإنسان لنفسه غالب فإذا شرع في مدح نفسه استولى حبّ ذلك عليه، ثم إن ذلك يعميه ويصمّه عن التنبه لما فيه من المعايب فيصير ذلك سبباً لبقائه في ظلمات الحماقات والجهالات، بخلاف الحق ﷻ فإنه منزه عن النقائض والآفات فلا يصير مدحه لنفسه سبباً لشيء من المعايب والنقائص.

السؤال الثالث: **لمّا شهد لنفسه بالوحدانية فأيّ حاجة مع حصول شهادته إلى شهادة الملائكة و[أولي][3] العلم؟ فما الحكمة في أنه تعالى ذكر بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة والمؤمنين؟**

والجواب من وجهين:

الأوّل: روي أنه ﷺ كان يمشي خلف جنازة فقيل: هذا الميت كان رجلاً صالحاً، فقال ﷺ: **«واحد»** وقال الثاني والثالث كذلك فقال ﷺ: **«اثنان ثلاثة»** فلمّا قال الرابع مثل ذلك قال ﷺ: **«وجبت»**؛ فقيل له: يا رسول الله وما الذي وجب؟ قال ﷺ: **«وجبت مغفرته في كرم الله»**[4].

فقال: لأن المؤمنين شهود على وحدانيته فلو لم تقبل شهادتهم هٰهنا لصارت شهادتهم في الوحدانية غير مقبولة وهو حكيم لا يغفل هذا.

إذا عرفت هذا فنقول: أنه تعالى لما جعل المؤمنين شهوداً لوحدانيته، فلو أظهر

(1) [بينهما] في الأصل: بينه.
(2) [الأحق بمدح] في الأصل: (الحق مدح).
(3) [أولى] في الأصل: (ألو).
(4) لم نره فيما لدينا من المراجع.

أولى بأن تكون شهادة وإذا ثبت ذلك فجميع مخلوقات الله تعالى دالة على وحدانيته و[إلهيته][1] دلالة يقينية قطعية فكانت أولى بأن تكون شهادة، فإذن شهادة الله على التوحيد لأجل أنه خلق الدلائل الدالة على التوحيد قطعاً، وأما شهادة الملائكة وأولي[2] العلم فمعناها شهادة الإقرار والاعتراف فكانت شهادة الله على ذلك أقوى وأتم.

الثالث: هو أن كل مسألة[3] لا يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها فإنه يمكن إثباتها بالدلائل السمعية، ومسألة الوحدانية كذلك، فلا جرم ذكر العلماء أنه يمكن إثبات أن الإله واحد بالدلائل السمعية وإذا كان الأمر كذلك كان المقصود من هذه الشهادة أن يستدل بها على وحدانية الله تعالى.

(السؤال الثاني) **أنه تعالى نهى العباد عن أن يمدحوا أنفسهم لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾** [النجم: 32] **ثم إنه مدح نفسه وأثنى على نفسه فما السبب فيه؟**

والجواب من وجوه:

الأول: أنه إذا حصّل الواحد منا نوع فضيلة فذلك من فضل الله وكرمه فالمستحق للثناء هو الله حيث أعطاه تلك الفضيلة وحلّاه بها، فلا جرم قبح من الواحد أن يثني على نفسه إذا كان المانّ بها غيره عليه، أما الحق ﷻ فإنه قد حصلت له صفات الكمال ونعوت الجلال على وجه يمتنع زواله وتغييره عليه فظهر الفرق.

الوجه الثاني: في الفرق أن ما فينا من الخصال الممدوحة لا ينفكّ عن أضدادها فإن علمنا مشوب بالجهل، وقدرتنا مشوبة بالضعف، وملكنا بعرض الهلاك، وبقاؤنا بعرض الفناء وحياتنا بعرض الموت، وأما صفات الله تعالى فإنها خالية عن أضدادها فإنه عالم بلا جهل قادر بلا عجز، ملكه بلا زوال وبقاؤه بلا فناء، وحياته بلا موت وعزه بلا ذل، فظهر الفرق.

الوجه الثالث: أن الله تعالى إنما نهى عبده عن تزكية نفسه لأن العبد يقدّم الدعوى على إظهار المعنى، فأمّا الحق سبحانه فإنّه كان قد أظهر المعنى قبل الدعوى؛ لأنّه خلقك

---

(1) وإلهيته في الأصل وإلا لهيته.
(2) وأولي العلم في الأصل وأولو العلم.
(3) مسألة في الأصل مسلمة.

الفصل السابع:
في إقامة الدليل على أن الله واحد لا شريك له

قد بيّنا أن هذا المطلوب يمكن إثباته بالدلائل العقلية وبالدلائل النقلية فلنذكر الكلَّ، أما الدلائل العقلية فمن وجوه:

الحجة الأولى: القول بوجود إلٰهين يفضي إلى المحال فيكون القول به محالاً. وإنّما قلنا إنه يفضي إلى المحال لأنّا لو فرضنا وجود إلٰهين فلا بد وأن يكون كلّ واحد منهما قادراً على كلّ المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه، فأما أن يقع المرادان وهو محال؛ لاستحالة الجمع بين الضدين، أو لا يقع واحد منهما وهو أيضاً محال، لأنّ المانع، من وجود مراد كلّ واحد منهما حصول مراد الآخر، ولا يمتنع وجود [مراد هذا إلا][1] عند وجود مراد ذاك وبالعكس فلو امتنعا معاً لوجدا معاً وذلك محال.

وإمّا أن يقع مراد أحدهما دون الآخر وهو أيضاً محال لوجهين:

الأوّل: أنه لما كان كل واحد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقل من الآخر بل لا بد وأن يستويا في القدرة، وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع، وإذا لزم ترجّح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح وهو محال.

الثاني: أنّه إن وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي يحصل مراده يكون إلٰهاً قادراً والذي لا يقع مراده يكون عاجزاً والعاجز لا يكون إلٰه الخلق.

فإن قيل: لا نسلم صحة المخالفة في الإرادة ويدل عليه وجهان:

---

(1) [مراد هذا إلّا] في الأصل: (هذا الإفراد لا).

ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة صارت شهادتهم مردودة وذلك لا يليق بحكمة الحكيم، فلما جعلهم في هذه الآية شهوداً على وحدانيته دلّ ذلك على أنّه تعالى لا يظهر ذنبهم وقبح فعلهم يوم القيامة. اللّهم حقق رجاءنا بكرمك وفضلك.

الثاني: أنه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا المطلوب على شهادتهم، بل المقصود [منه][1] شهادة الله لهم بأنّهم يوافقون الله في كل ما وصل إليهم من أمره ونهيه وخبره، فالمقصود إظهار شرفهم في كونهم موافقين لله في هذه الشهادة لا توقيف المطلوب على شهادتهم.

السؤال الرابع: **ما الحكمة في تكرير كلمة لا إلٰه إلا الله في ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾** [آل عمران: 18]؟

الجواب من وجوه:

أحدهما: أن المقصود من التكرار التنبيه على أن الإنسان يجب أن يكون مواظباً على ذكر هذه الكلمة في أوقات عمره.

وثانيها: أنّه لمّا حصل هذه الكلمة أوّل الآية وآخرها صار ذلك تنبيهاً على أنّه يجب على العاقل أن يجعل هذه الكلمة مذكورة في أول عمره وفي آخر عمره حتى يكون في الدنيا سعيداً وفي الآخرة حميداً.

وثالثها: أن إحدى الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق والثانية بعد خلقهم.

ورابعها: أنه تعالى ذكر إحدى الشهادتين عن نفسه والأخرى عن خلقه.

---

(1) [منه] في الأصل: فيه.

وإنما قلنا: إن ذلك محال لأنّ ذلك الفعل مستغن بكل واحد منهما عن كل واحد منهما، فيكون محتاجاً إليهما وغنياً عنهما معاً وذلك جمع بين النقيضين وهو محال.

الحجة الثالثة: إذا قدّرنا الإلٰهين فإمّا أن يصح عليهما أن يختلفا أو لا يصحّ. فإن صحّ الاختلاف أفضى ذلك إلى عجز أحدهما على ما بيّناه في الحجة الأولى.

وإن لم يصحّ عليهما الاختلاف كان كل واحد منهما عاجزاً عن إظهار مخالفة صاحبه فيعود الأمر إلى كون كلّ واحد منهما عاجزاً، والعاجز لا يكون إلٰهاً.

واعلم أنّك متى وقفت على تقرير هذه الوجوه الثلاثة عرفت أن جميع ما في العالم العلويّ والسفليّ من المحدثات والمخلوقات فهو دليل وحدانية الله تعالى، لأنّه لو أراد أحدهما أن يكون صيفاً والآخر أن يكون شتاءً وصحيحاً ومريضاً، وسعداً ونحساً فحينئذٍ يكون التقسيم المذكور.

الحجة الرابعة: لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لذاتيهما فلا بد أن يكون كل واحد منهما مشاركاً للآخر في الوجود ومبايِنًا له في نفسه، وما به المشاركة غير ما به المباينة، وكل واحد منهما مركب عن الوجود الذي به يشارك الآخر وعن التباين الذي به يباين الآخر وكل مركب فإنه محتاج إلى كلّ واحد من أجزائه [وأجزاؤه][1] غيره؛ فكل مركب محتاج إلى غيره، وكل ما كان محتاجاً إلى غيره فهو ممكن لذاته فيوجد سببان كل واحد منهما ممكن الوجود لذاته، وذلك محال فالقول بأن واجب الوجود أكثر من واحد محال.

الحجة الخامسة: لو فرضنا موجودين كل واحد منهما واجب الوجود لذاته فلا بد أن يتميّز كل واحد منهما عن الآخر بأمور، وإلاّ لم يحصل التعدد.

ثم نقول ما به الممايزة إمّا أن يكون صفة كمال أو لا يكون، فإن كان صفة كمال فالخالي عنها يكون خالياً عن صفة الكمال، فيكون ناقصاً والناقص لا يكون إلٰهاً وإن لم تكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفاً بما لا يكون صفة كمال، وما لا يكون صفة كمال كان صفة نقصان، والموصوف به ناقص والناقص لا يكون إلٰهاً.

---

(1) [وأجزاؤه] في الأصل: (وأجزاء).

الأوّل: أنه لا بد وأن يكون كلّ واحد منهما عالماً بجميع المعلومات وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما عالماً بأنّ أيّ أحد الضدين نفع؟ وأيّهما لا نفع، وما علم الله أنّه لا نفع كان ممتنع الوقوع، وما كان ممتنع الوقوع فإنّ العالم بامتناعه لا يريده، وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما [لا يريد][1] إلا إيقاع شيء واحد.

والثاني: أنّ كلّ واحد منهما لا بدّ وأن يكون حكيماً، فيكون كل واحد منهما عالماً بأن أيّهما هو الأصلح وأيّهما ليس هو الأصلح، فيكونان متوافقين في إرادة ما علما أنه هو الأصلح، وبهذا الطريق يمتنع وقوع المخالفة بينهما، سلّمنا أنه تصح المخالفة، ولكن المحال إنما يلزم من وقوع المخالفة لا من جواز المخالفة فلا جرم نقول: المخالفة لا تقع وإن كانت ممكنة الوقوع.

الجواب: لو كان العلم بأن أيّهما نفع وأيّهما لا نفع [أوجب][2] إرادة ما علم[3] وقوعه لزم أن يكون الله موجباً لأفعاله لا موجداً لها على سبيل الاختيار، والكلام في الوحدانية فرع على الكلام في إثبات القادر المختار.

الحجة الثانية: لو فرضنا إلٰهين لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات وذلك يفضي إلى وقوع مقدور واحد بين قادرين مستقلين، وذلك محال؛ فالقول بوجود إلٰهين محال.

بيان الملازمة أنّه إذا كان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات كان مقدور كل واحد منهما مقدوراً للآخر، ثم إذا اتّفقا على أنه لا بدّ من دخول أحد تلك المقدورات في الوجود فحينئذ لا يكون وجود ذلك المقدور بأحدهما أولى من وقوعه بالثاني لأن كل واحد منهما مستقل بإيجاده، وكل واحد منهما مريد وجوده، ولا رجحان لأحدهما على الآخر في ذلك فلزم وقوع المقدور الواحد بالقادرين المستقلّين [وذلك محال][4].

---

(1) [لا يريد] في الأصل: لا يريده.
(2) [أوجب] في الأصل: وجب.
(3) علم وقوعه في الأصل: على عدم وقوعه، وتنبه للخطأ أحد العلماء فكتب على الهامش: (الأولى حذف لفظة عدم كما لا يخفى والله أعلم).
(4) [وذلك محال] زيادة يقتضيها السياق.

الحجة الثانية عشرة: لو قدرنا إلٰهين لكان مجموع قدرتيهما أقوى من قدرة كل واحد منهما على الانفراد، والأقل من الغير متناهٍ فقدرة كل واحد منهما متناهية، وكل واحد منهما عاجز.

الحجة الثالثة عشرة: العدد ناقص لاحتياجه إلى الواحد، وأيضاً الواحد الذي يوجد من جنسه ونوعه وغيره أيضاً ناقص؛ لأن مجموع العدد أزيد منه والناقص لا يكون إلٰهاً.

الحجة الرابعة عشرة: لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود ثم قدرنا إلٰهين فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كلّ واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلٰهاً.

وإن قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر لا يكون إلٰهاً.

وإن أقدر جميعاً فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر فيكون كل واحد منهما عاجزاً، وإن قدر كل واحد منهما على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال، لأنّ إيجاد الموجود محال، وإن لم يبق فحينئذ يكون الأول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهوراً تحت تصرفه فلا يكون إلٰهاً.

فإن قيل: فالواحد إذا أوجد مقدوراً بنفسه فقد زالت قدرته فيلزمك أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً.

قلنا: الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته، فنفاذ القدرة لا يكون تعجيزاً، وأمّا الشريك فإنه ما نفذت قدرته ألبته بل زالت قدرته بسبب قدرة الأول فيكون ذلك تعجيزاً.

الحجة الخامسة عشرة: إنّا نعيِّن جسماً نقول: هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلاً عن السكون وبالعكس أو لا يقدر؟

فإن لم يقدر كان عاجزاً، وإن قدر فتسوق الدلالة المتقدمة إلى أن نقول: إذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالأول أزال قدرة الثاني وجعله عاجزاً فلا يكون إلٰهاً.

الحجة السادسة عشرة: أنا لو قدرنا إلٰهين لكان كل واحد منهما عالماً بجميع

الحجة السادسة: أن يقال: ما به امتياز أحدهما عن الآخر إمّا أن يكون معتبراً في تحقق الإلٰهية وإمّا أن لا يكون معتبراً.

فإن كان معتبراً فيه كان الخالي عنه لا يكون إلٰهاً، وإن لم يكن معتبراً في الإلٰهية لم يكن الاتصاف به واجباً فيفتقر إلى المخصّص [فالموصوف][1] به مفتقر ومحتاج فلا يكون إلٰهاً.

الحجة السابعة: لو فرضنا إلٰهين لا بد أن يكون كل واحد منهما بحيث يتمكن العبد من التمييز بينهما، لكن الامتياز في عقولنا لا يحصل إلّا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الإمكان، وكل ذلك على الإلٰه محال فيمتنع حصول الامتياز.

الحجة الثامنة: أحد الإلٰهين إما أن يكون كافياً في تدبير العالم وتخليقه أو لا يكون، فإن كان كافياً كان الثاني صانعاً غير محتاج إليه وذلك نقص والناقص لا يكون إلٰهاً، وإن لم يكن كافياً فهو ناقص والناقص لا يكون إلٰهاً.

الحجة التاسعة: العقل يقتضي احتياج الفعل إلى الفاعل والفاعل الواحد كافٍ وما وراء الواحد فليس عدد أولى من عدد فيُفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها، وذلك محال فالقول بوجود إلٰهين محال.

الحجة العاشرة: أحد الإلٰهين إما أن يقدر على تحقق نفسه بدليل يدلّ عليه على التعيين أو لا يقدر.

والأول: محال؛ لأن دليل إثبات الصانع ليس إلّا [هيآت][2] المحدثات وإمكانها، وليس في الحدوث والإمكان ما يدل على تعيين أحدهما.

والثاني: أيضاً باطل؛ لأنه يفضي إلى كون كل واحد منهما عاجزاً عن تعرف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون إلٰهاً.

الحجة الحادية عشرة: أحد الإلٰهين إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله أو لا يقدر، وإن قدر لزم كون المستور عنه جاهلاً وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً.

---

(1) [فالموصوف] في الأصل: (فلو وصف به).
(2) [هيآت] في الأصل: (لهيآت).

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: 3] فالأول هو الفرد السابق ولذلك لو قال: أول عبد اشتريته هو حرُ فلو اشترى أولاً عبدين لم يحنث لأن الأول يجب أن يكون فرداً، وهذان[1] ليسا بفرد ثم لو اشترى بعد ذلك واحداً لم يحنث أيضاً لأن الأول يجب أن يكون سابقاً وهذا ليس بسابق، فثبت أن الأول هو الفرد السابق فلما وصف الله نفسه بكونه أولاً لزم أن يكون فرداً سابقاً وذلك يقتضي أن لا يكون له شريك.

الحجة الثالثة[2]: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59] فالنّص يقتضي أن لا يعلم أحد سواه تلك المغيبات ولو كان له شريك لكان عالماً بالغيب وكان على خلاف هذا النص.

الحجة الرابعة: أن الله تعالى صرّح بكلمة: لا إلٰه إلاّ الله في سبعة وثلاثين موضعاً في كتابه العزيز وكلّ ذلك يدل على المقصود[3].

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] حكم بأن كلَّ ما سواه هالك[4]، وكلُّ ما جاز عليه العدم بعد وجوده لا يكون قديماً لأن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، وما لا يكون قديماً لا يكون إلٰهاً.

الحجة السادسة[5]: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: 17] ولو كان له شريك لكان الشريك قادراً على الضر والنفع وذلك خلاف قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

(الحجة السابعة) أنه تعالى استدل في كتابه على صحة التوحيد بثلاثة أوجه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

---

(1) وهذان في (ب) وهذا.
(2) الحجة الثالثة من هنا إلى قوله: اعلم أن الله تعالى صرح إلخ ساقط من (ب).
(3) على المقصود في (ب) على الوحدانية.
(4) كل ما سواه هالك في (ب) كل ما سواه فهو هالك.
(5) الحجة السادسة من هنا إلى قوله أن من فعل فعلاً إلخ ساقط من (ب).

المعلومات وكان علم كل واحد منهما متعلقاً بغير معلوم الآخر، فوجب تماثل علمهما، والذات القابلة لأحد المثلين قابل للمثل الآخر فاختصاص هذه الذوات بهذا العلم مع جواز اتصافها بذلك العلم الثاني بدلاً عن هذا العلم يكون أمراً جائزاً فيستدعي مخصصاً يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبداً ناقصاً مفتقراً إلى الإلٰه وأنّه محال.

الحجة السابعة عشرة: أن الشركة في الملك عيب في الشاهد والفردانية والتوحيد بالملك والاستقلال به صفة كمال، ونرى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المتحقر أشد الكراهية، ونرى أنّه كلما كانت المملكة أعظم كانت النفرة عن الشركة أشدَّ فما ظنك بملك الله وملكوته؟!

وإذا أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه [و][1] قدر عليه كان المغلوب فقيراً عاجزاً فلا يكون إلٰهاً وإن لم يقدر عليه كان في أشد الغمّ والحيرة فلا يكون إلٰهاً.

الحجة الثامنة عشرة: أنّا لو قدرنا إلٰهين لكان إمّا أن يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر أو يستغني كل واحد عن الآخر، فإن كان الأول كان كل واحد منهما محتاجاً [وكل][2] محتاج ناقص وكل ناقص لا يكون إلٰهاً.

وإن كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنٍ عنه والمستغنى عنه ناقص، ألا يرى أن البلد إن كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم إليه ومن غير التفات منه إليهم عُدّ ذلك الرئيس في غاية الذلة والمهانة؛ فالإلٰه هو الذي يستغنى به ولا يستغنى عنه، وإن احتاج أحدهما إلى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصاً والمستغنى هو الإلٰه.

واعلم أن هذه الوجوه بعضها قطعية وبعضها إقناعية وأما الدلائل السمعية:

فالحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 163] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: 51].

---

(1) [و] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [وكل] في الأصل: (فكل).

بعض عبيده بالفقر والألم والموت فيرجع حاصل الكلام إلى طلب الكمية في أفعال الله.

والجواب: الأصل لهذه الشبهة أن أفعال الله لا تُعلّل، وله أن يفعل كل ما يشاء، فلمّا كان مدار المثبتين لشريك الله على طلب الكمية من أفعال الله فلا جرم أنه تعالى بعد أن ذكر الدليل الدال على التوحيد ذكر ما هو النكتة الأصلية في الجواب عن شبهة القائلين بالشريك، لأن الترتيب الحسن في المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده بما هو الجواب المعتمد عن شبهة الخصم. فإن قال قائل: فما الدليل العقلي على أنه تعالى لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وأنه لا يجوز تعليل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح؟

قلنا: أما أصحابنا أهل السنة فقد استدلوا عليه من وجوه:

الحجة الأولى: أنه لو كان كل شيء معللاً بعلة لكانت عليّة تلك العلة بعلة أخرى، ولزم إما الدور وإما التسلسل وهما محالان فلا بد من قطع السلسلة من الانتهاء إلى ما يكون غنياً عن العلة وأولى الأشياء بذلك ذات الله وصفاته فكما أن ذاته منزهة عن الافتقار إلى المؤثر والعلة وصفاته مبرأة عن الافتقار إلى المبدع والمخصص، فكذلك فاعليته وجب أن تكون مقدسة عن الافتقار إلى الموجب والمؤثر.

الحجة الثانية: فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة إما أن تكون واجبة أو ممكنة، فإن كانت واجبة لزم من وجوبها كونه تعالى فاعلاً وحينئذ يكون واجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار[1]، وإن كانت ممكنة كانت تلك العلة أيضاً فعلاً لله تعالى فيفتقر كونه تعالى فاعلاً لها إلى علة أخرى ولزم التسلسل.

الحجة الثالثة: علة تلك الفاعلية إن كانت قديمة لزم كون الفاعلية قديمة فيلزم كون المفعول قديماً وهذا خلف، وإن كانت محدثة افتقرت إلى علة أخرى ولزم التسلسل.

---

(1) بالاختيار في الأصل لاختيار.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: 91].

والثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42].

واعلم أنه لما ذكر قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

قال[1] بعده: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22]

وفيه لطائف:

أولها: أنه تعالى لما أقام الدلالة القاطعة على صحة التوحيد قال بعده: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وذلك تنبيه على أن الاشتغال بالتسبيح إنما ينفع بعد إقامة الدلالة على كونه منزهاً.

وثانيها: إنه لم يقل: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بل قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ والسبب فيه أن هذه المناظرة إنما وقعت مع عبدة الأوثان إلا أن الدليل الذي ذكره الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ يفيد الرد على كل من أثبت لله شريكاً، ثم إنه بعد أن ذكر هذا الدليل العام نبه على نكتة خاصة لعبدة الأصنام وهي أنه كيف يجوز للعاقل أن جعل الجماد الذي لا يحسّ ولا يعقل شريكاً في الإلٰهية لخالق العرش العظيم وموجد السمٰوات والأرضين وأما قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23] فاعلم أنه تعالى علق هذه الآية بما قبلها لأن[2] عمدة من أثبت لله شريكاً ليست إلا طلب الكميّة في أفعال الله تعالى، وذلك لأن الوثنية والمجوس وهم الذين أثبتوا لله شريكاً عوّلوا في تقرير[3] مذهبهم على نكتة واحدة وهي أننا نرى في العالم خيراً وشراً ،ولذة وألماً، وصحة وسقماً، وحياة وموتاً، وغنى وفقراً، وقد ثبت في العقول أن فاعل الخير خير وفاعل الشر شرّ ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيراً وشراً معاً، فلا بد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلاً للخير والآخر فاعلاً للشرّ، ويرجع حاصل هذه الشبهة إلى أن الفاعل الحكيم لا يجوز أن يخصّ

---

(1) قال في الأصل ثم قال.
(2) لأن في الأصل: أن.
(3) تقرير في الأصل: تقدير.

والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفه على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضاً على الله محال لأن استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور له ذاتية، وما ثبت لشيء لذاته مستحيل أن يتبدل لأجل تبدل الصفات العرضية فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز أن يقال لله في أفعاله لم فعلت كذا. فظهر صدق قول مشايخنا رحمهم الله أن كل شيء صنعه لا علة لصنعه. أما المعتزلة فإنهم سلموا أنه يجوز أن يقال لله تعالى لم فعلت، لكنهم بنوا الجواب عن شبهة الثنوية على أصل آخر وهو أنه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنياً عنها، ومن كان كذلك فإنه يستحيل أن يفعل القبيح وإذا عرفنا ذلك عرفنا إجمالاً أن كل ما يفعله الله فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله: لم فعلت هذا فظهر بما ذكرنا على اختلاف المذهبين صدق قوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ وإذا ظهر ذلك سقطت شبهة الثنوية في إثبات الشريك وبالله التوفيق.

الحجة الرابعة: أن من فعل فعلاً لغرض فإما أن يكون قادراً على تحصيل الغرض[1] بدون تلك الواسطة أو لا يكون قادراً عليه، فإن كان الأول كان توسط تلك الواسطة عبثاً وإن لم يكن قادراً عليه كان عاجزاً، وذلك على الله محال بخلاف الواحد منّا فإن العجز علينا جائز فلا جرم أفعالنا كانت معللة بالأغراض.

الحجة الخامسة[2]: لو كان فعله تعالى معللاً بغرض لكان ذلك الغرض إما أن يكون عائداً إلى الله تعالى أو إلى العباد، والأول محال لأنه منزه عن النفع والضر وإذا بطل هذا تعيّن أن الغرض لا بد أن يكون عائداً إلى العباد، ولا غرض للعباد إلا حصول اللذات وعدم حصول الآلام، والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شيء من الوسائط، وإذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئاً لأجل شيء.

الحجة السادسة: لو فعل فعلاً لأجل غرض لكان ذلك الغرض وعدمه بالنسبة إليه إما أن يكون على السوية أو لا يكون، فإن كان على السويّة استحال أن يكون غرضاً وإن لم يكن على السوية لزم كونه سبحانه ناقصاً لذاته مستكملاً بغيره وهو محال.

فإن قلت: وجود ذلك الغرض وعدمه إن كان بالنسبة إليه على السواء أما بالنسبة إلى عباده فالوجود أولى من العدم.

فنقول: تحصيل تلك الأولوية للعبد وعدم تحصيلها له إما أن يكون بالنسبة إلى الله على السوية أو لا على السوية وحينئذ يعود التقسيم الأول.

الحجة السابعة: أن الموجودات بأسرها مملوكة له ومن تصرف في ملك نفسه لا يقال له: لِم فعلت؟

الحجة الثامنة: من قال لغيره: لم فعلت ذلك؟ فهذا السؤال إنما يحتمل حيث يقدر السائل على منع المسؤول عنه عن فعله وذلك من العبد في حق الله تعالى محال، فإنه لو فعل أي فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك فإن المنع إنما يحصل بأن يهدده بالعقاب والإيلام، وذلك محال على الله تعالى أو بأن يهدده باستحقاق الذم

---

(1) تحصيل الغرض في (ب) تحصيل ذلك الغرض.
(2) الحجة الخامسة من هنا إلى قوله: الفصل الثامن إلخ ساقط من (ب).

مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: 46] جنّة في الوقت وهي جنّة المعرفة، وجنّة غداً وهي جنة الآخرة.

اختلف المحققون فقال الأكثرون: الأولى أن يكون الذكر في الابتداء قوله: لا إلٰه إلّا الله وفي الانتهاء الاختصار على ذكر كلمة: **الله**.

ومنهم من واظب في الابتداء والانتهاء على ذكر: لا إلٰه إلّا الله.

وحجة هؤلاء: أنّ عالم القلب مشحون بغير الله فلا بد من كلمة النفي لنفي الأغيار، فإذا صار خالياً فحينئذ يوضع سرير[1] التوحيد ويجلس عليه سلطان المعرفة.

وأما الذين اكتفوا في النهايات بكلمة: الله، فلهم فيه وجوه:

الحجة الأولى: أن نفي العيب عمن يستحيل عليه العيب عيب.

الحجة الثانية: أن من[2] قال: لا إلٰه إلّا الله فلعلّه حين ذكر كلمة النفي لم يجد من[3] المهلة ما يصل فيه إلا الإثبات فحينئذ يبقى في النفي غير منتقل إلى الإثبات وفي الجحود غير منتقل إلى الإقرار.

الحجة الثالثة: أنّ المواظبة على هذه الكلمة مشعر بتعظيم الحق ـ جلّ وعلا ـ بنفي الأغيار، إلّا أن نفي الأغيار من باب الاشتغال بالأغيار والاشتغال بنفي الأغيار يرجع في الحقيقة إلى شغل القلب بالأغيار، وذلك ممتنع من الاستغراق في نور التوحيد فمن قال: لا إلٰه إلّا الله فهو مشتغل بغير الحق ومن قال: **الله** فهو مشتغل بالحق؛ فأين أحد المقامين من الآخر؟!

الحجة الرابعة: أن نفي الشيء إنّما يحتاج إليه عند خطور[4] ذلك الشيء بالبال وخطور شريك الله بالبال لا يكون إلّا من نقصان الحال، وأمّا الكاملون الذين لا يخطر

---

(1) سرير هكذا في (ب) وهامش (أ).
في (أ) وهامش (ب) (منير).
(2) من في هامش (ب) زيادة (كلّ).
(3) لم يجد من المهلة في (أ) لا يجد المهلة.
(4) خطور: في (ب) هنا وما بعده حضور.

الفصل الثامن:
في الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا إله إلا الله

اعلم أن الإيمان لا بد له من أمرين:

أحدهما: وهو الأصل[1] حصول المعرفة في القلب وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: 19].

وثانيها: الإقرار باللسان بالتوحيد وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1] وذلك لأن قوله ﴿قُلۡ﴾ أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ثم تأكدت هذه الدلالة بالسنة الغرّاء وهي قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله**»[2]. والسبب في أنه لا بد من هذا القول هو أن للإيمان أحكاماً بعضها يتعلق بالباطن وبعضها بالظاهر فما يتعلق بالباطن فهو أحكام الآخرة وذلك متفرع على العلم الذي هو باطن عن الخلق وما يتعلق بالظاهر فهو أحكام الدنيا، ولا يمكن[3] إقامتها إلا بعد معرفتنا أنه مسلم ولا معرفة إلاّ بالقول باللسان فصارت المعرفة ركناً أصلياً في حق الله تعالى، والقول ركناً شرعياً في حق الخلق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ [البقرة: 221].

وقال ﷺ: «**من قال: لا إله إلاّ الله مخلصاً دخل الجنة**»[4] وقال الشيخ أبو علي الدقاق[5]: من قالها مخلصاً من قلبه[6] دخل الجنة في حالته؛ قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ

---

(1) وهو في الأصل في (أ) وهو أن الأصل.
(2) تقدم تخريج هذا الحديث.
(3) ولا يمكن في (أ) وما يمكن.
(4) هو عند ابن حبان (4 و7) من حديث جابر وعند أبي نعيم في الحلية (7/ 312) من حديث معاذ (9/ 254) ومن حديث زيد بن أرقم.
(5) أبو علي الدقاق في (ب) علي بن الدقاق.
(6) من قلبه ساقط من (ب).

المشتري[1] فاقبل ديننا، وأسقط عنا تبعات أعمالنا، وافعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله يا من لا يشغله شأن من شأن!

إلٰهنا! يروى في الخبر[2] أن عليّ بن أبي طالب ﷺ كان له مؤذن وكانت له جارية فقالت الجارية: يا مولاي إن المؤذن[3] يقول لي: إنّي أحبّك، فقال ﷺ: فقولي[4] له أيضاً: وأنا أحبّك، وانظري ماذا يقول[5] فلمّا قالت له الجارية: ذلك، قال المؤذن لها: أصبرُ واصبري[6] حتى يحكم[7] الله بيننا، واستحقر[8] نفسه ولم يرها أهلاً للطلب من عليّ [فسكت] فقالت الجارية لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ذلك فطلبه علي ﷺ وزوّجها منه، إلٰهنا! المؤذن لما استحقر نفسه ولم ير نفسه أهلاً لذلك الطلب طلبه عليّ وأكرمه بها، وأنت العليّ الأعلى، وأنت أكرمُ الأكرمين، وأرحم الراحمين، ونحن لا نرى أنفسنا أهلاً لطلب رحمتك لحقارة أنفسنا في أعيننا، فلا تحرمنا فيض رحمتك وآثار جودك يا من لا يبرمه إلحاح الملحّين!

إلٰهنا! يروى[9] أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يخافت في صلاته بالليل، ولا يرفع صوته بالقراءة، وكان عمر يجهر في صلاته في الليل[10]، فسأل رسول الله أبا بكر عن فعله فقال: من أناجيه يسمع كلامي، وسأل عمر فقال: أوقِظ الوسنان وأطرد الشيطان وأرضي الرحمٰن، فأمر رسول الله ﷺ [أبا بكر] حتى يرفع صوته قليلاً، وأمر عمرَ حتى يخفض صوته[11] قليلاً.

---

(1) دَين المشتري، في (ب) دَين الغرماء.
(2) في الخبر: ساقط من (ب).
(3) إن المؤذن في (ب) إن هذا المؤذن.
(4) فقولي في (أ) قولي.
(5) وانظري ماذا يقول في (ب) فماذا تريد.
(6) أصبرُ واصبري في (ب) فأصبر.
(7) حتى يحكم في (ب) إلى أن يحكم.
(8) واستحقر من هنا إلى فحكت ساقط من (ب).
(9) يروى إلخ رواه أحمد (1/ 109) من حديث عليّ والترمذي (447)، وأبو داود (1329) من حديث أبي قتادة والترمذي (1330) من حديث أبي هريرة.
(10) يجهر في صلاته في الليل في (ب) يجهر بها.
(11) يخفض صوته في (ب) يخفضه.

ببالهم وجود الشريك امتنع أن يكلفوا بنفي[1] الشريك بل هؤلاء لا يخطر ببالهم ولا يخطر في خيالهم إلّا ذكر الله فلا جرم يكفيهم أن يقولوا: الله.

الحجة الخامسة: قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91] فأمر بذكر الله ومنعه من الخوض معهم في أباطيلهم ولعبهم، والقول بالشريك من الأباطيل، ففيه خوض في ذلك الكلام فكان الأولى الاقتصار على قولنا: الله، فهذا ما في هذا المقام وهٰهنا أنواع من التضرّعات.

أحدها: أن نقول: إلٰهنا[2]! أن موسى عليه السلام سأل أجلَّ الأشياء فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وسأل أقلّ الأشياء فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24] فنحن أيضاً نسألك أجلّ الأشياء وهي خيرات الآخرة وأقلّها وهو خيرات الدنيا فنقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201].

إلٰهنا! يحكى أن رجلاً باع جارية ثم ندم فاستحيا أن يظهر هذه الحالة للمشتري ولسائر الناس فكتب في كفّه حاجته ورفعها إلى السماء ولم يقل بلسانه شيئاً، فرأى المشتري في المنام [الله تعالى يقول له]: إن فلاناً من أوليائي قلبه مشتغل بهذه الجارية فردَّها عليه وأجرُك عليّ، فلما أصبح الرجل[3] حَمَل الجارية إليه[4] وردّها عليه، فلمّا أراد البائع أن يرد الذهبَ قال المشتري: إن لهذا[5] الثَّمن ضامناً هو خير منك. إلٰهنا! إن كان ذلك البائع ندم على بيع تلك الجارية فنحن ندمنا على بيع[6] الآخرة بالدنيا، وإن كان ذلك البائع قد استحيا من العود فنحن من كثرة ذنوبنا نستحيي منك، وإن كان ذلك البائع قد كتب على كفه[7] شيئاً من حاجته[8] ورفعها إلى السماء فجميع أعضائنا مكتوب عليها احتياجنا إلى رحمتك وذلنا بين يديك، فهاهنا وكما ضمنت دَين

---

(1) يكلفوا ينفي: في (أ) يكلفه انتفاء.
(2) إلٰهنا ساقط من (ب).
(3) أصبح الرجل في (أ) فلما أصبح حمل الرّجل.
(4) إليه: ساقط من (ب).
(5) لهذا: في (ب) لذلك.
(6) على بيع: في (ب) على أن بعنا.
(7) على كفه: في (ب) في كفه.
(8) شيئاً من حاجته: في (ب) حاجته.

الشهوات سكران عن الآخرة، حيران عن الله، لم يحصل فيه اليقين ألبتة؛ لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله فلا يحصل فيه الميل إلى الله.

أمّا إذا حصل في القلب اليقين بالله كان الأمر بخلاف ذلك، لأن اليقين سُمي يقيناً لاستقراره في القلب وهو النور، يقال: يقن الماء في الحفرة إذا استقرَّ، فإذا استقر النور دام وإذا دام صارت النفس صاحب بصيرة؛ فاطمأنّ القلب بجلال الله ثم انقطع عن غير الله فوقف هناك عاجزاً فاستعان بالله صارخاً مضطراً فأجابه الحق ﷻ: بأنه يُجيبُ دعوة المضطرّين، فيفرق ذلك النور المتلألىء في القلب يفلق به ظلمات الاشتغال بغير الله، فيصير أمر الملكوت شاهداً له، وهو قول حارثة لرسول الله ﷺ حيث قال: كأنّي أنظر إلى عرش ربّي بارزاً، فقال رسول الله ﷺ: **«عبد نوَّر الله الإيمان في قلبه»**، وقد جاء في الأخبار أنّ إدريس وموسى ومحمداً صلوات الله عليهم وسلامه كلّ واحد منهم كان في زمانه مواظباً على هذا الدعاء: «يا نور كل شيء أنت الذي فلق الظلمات نوره» وما يحقق ما قلناه قوله ﷺ: **«من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»** مخلصاً بها روحه مصدقاً بها قلبه ولسانه فتقتْ له السمٰوات فتقًا حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا[1]. وعن زيد[2] بن أرقم قال: قال ﷺ :**«من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة»** قيل: يا رسول الله وما إخلاصها؟ قال: **«أن تحجره عن المحارم»**[3] وقال ﷺ: **«اخلص يكفك القليل»** وعن زيد بن أرقم قال ﷺ: **«أن الله عهد إليّ أن لا يأتيني أحد من أمتي بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئاً إلا وجبت له الجنة»** قالوا: يا رسول الله وما الذي يخلط بها؟ قال: **«حرصاً على الدنيا وجمعاً لها ومنعاً لها[4]، يقول بقول الأنبياء ويعمل عمل الجبابرة[5]»**. والحاصل أنه لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة حتى تكون نافعة[6] ولا يحصل اليقين بها إلاّ بموت الشهوات ولا يحصل موت الشهوات إلاّ **بأحد الطريقين:**

---

(1) لم نره فيما لدينا من المراجع.

(2) وعن زيد بن أرقم من هنا إلى قوله: قال ﷺ: إنّ الله عهد، ساقط من (ب).

(3) انظر: معجم الطبراني (5074)، ورواه الحاكم (4/ 306)، وأبو نعيم في الحلية (1/ 244) من حديث معاذ.

(4) لها: ساقط من (أ).

(5) رواه الترمذي في نوادر الأصول، وهو ليس بصحيح على قاعدة السيوطي.

(6) ولا يحصل من هنا إلى قوله قال علي ﵁ قال رسول الله إلخ ساقط من (ب).

إلٰهنا! الإيمان فينا كالرسول، والقلب كأبي بكر واللسان مثل عمر، فالقلب يخافت بالذكر مثل أبي بكر واللسان يظهر [خفايا][1] الذكر مثل عمر، والإيمان يأمر القلب بالزيادة في الفكر ويأمر اللسان بإخفاء الذكر، فوفقنا لما تحب وترضى بفضلك يا أكرم الأكرمين.

فصل[2]: ومن العارفين من اختار السكوت عن الكل في النهاية قال ﷺ[3]: «**من عرف الله كَلَّ لسانه عن ما سوى الله**» أي: إلّا عن ذكر الله[4]، ويروى أن الجنيد كان في الكلام فزعق الشبلي وقال: الله، فقال الجنيد: الغيبة حرام. ومعناه: إنّك إن كنت غائباً فذكر الغائب غيبة وإن كنت حاضراً فذكر الاسم في الحضرة سوء أدب، وتمام التحقيق[5] في هذا المقام سيأتي إن شاء الله تعالى.

فصل: روى الإمام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من نفس تموت فتشهد أن لا إلٰه إلّا الله وإني رسول الله يرجع ذلك إلى قلب موقن إلا غفر الله [لها]**»[6].

قال الشيخ: فهذه شهادة شهد بها عند الموت وقد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمرِّدة من هول الموت، وذهب حرصه، وألقى نفسه بين يدي قدرة ربّ العالمين، فاستوى منه الظاهر والباطن فلقى الله مخلصاً بتلك الشهادة؛ فغفر الله له بتلك الشهادة الصادقة التي وافق ظاهرها باطنها.

أمّا الذي يقول أيام الصحة فقول مع التخليط؛ لأنّه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات، ونفسه أشرة بطرة فلا يستوجب بذلك القول المغفرة. فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة حال الصّحة وذكرها في آخر زمن الحياة.

وتمام القول فيه: أن الإنسان الذي يكون قلبه مفتوناً بدنياه ومأسوراً في

---

(1) [خفايا] في (أ) (باخفا) والظاهر أن فيه قلباً في (ب) الكلمة ساقطة.
(2) فصل: هذه الكلمة ساقطة من (ب).
(3) قال صلى إلخ: لم نره فيما لدينا من المراجع.
(4) عن ما سوى إلى عن ذكر الله: ساقط من (ب).
(5) وتمام التحقيق: من هنا إلى قوله: من قال لا إلٰه إلا الله وحده. ساقط من (ب).
(6) [لها] زيادة يقتضيها السياق.

[الكهف: 39] وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول: حسبي الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 173 - 174] وعجبت لمن خاف من مكر مُكر به كيف لا يقول: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: 44 - 45] وعجبت لمن أصابه غمّ أو كرب كيف لا يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] إلى قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾. وقال سفيان بن عيينة أنه تعالى لما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقد وعد كل مؤمن يقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن ينجيه من كل غمّ، ومن المعلوم بالضرورة أن الله لا يخلف الميعاد.

(فصل) اعلم أنه تعالى ذكر كلمة لا إله إلاّ الله في القرآن العظيم[1] في سبع وثلاثين موضعاً.

اثنان في سورة البقرة[2]:

1: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

2: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255].

وأربعة في آل عمران:

3: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 1-2].

4: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

5: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18].

6: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

---

(1) العظيم ساقط من (أ).

(2) اثنان من البقرة من هنا إلى قوله اتفق مشايخ الطريقة إلخ ساقط من (ب).

أحدهما: أن يروِّض نفسه حتى تموت شهوته حال حياته.

والثاني: إنسان ماتت شهواته عند وفاته وعظم رجاؤه وخوفه عن ربه وانقطع فكره عن غير الله بالكلية اضطراراً فإذا نطق بهذه الكلمة في تلك الحال استوجب المغفرة فلهذا السبب استحب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة فقال ﷺ: «**لقنوها موتاكم**» فالإنسان عند القرب من الموت فنيت شهواته فحصل له نور اليقين فصارت هذه الكلمة مقبولة منه. وأما الأول وهو الذي يروِّض نفسه فقد فتح له روزنة إلى الغيب فركبته أهوال سلطان الجلال فنطق بها عن القلب الصافي فهو بالمغفرة أولى.

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: «**لقنوا موتاكم لا إلٰه إلا الله الحكيم الكريم سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين**» فقالوا: يا رسول الله فكيف هي للحيّ؟ قال: «**هي أجود وأجود**»[1] وكان أهل البيت يسمّون هذه الكلمات كلمات الفرج فيتكلمون بها في النوائب والشدائد فيجيئهم الفرج وفيه زيادة كلمة لا إلٰه إلاّ الله العلي العظيم. وعن مكحول أن كلمات الفرج: لا إلٰه إلاّ الله العلي العظيم لا إلٰه إلاّ الله الحليم الكريم رب السمٰوات ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين. وقال علي بن أبي طالب ﷺ قال رسول الله ﷺ: «**ألا أعلّمك كلمات إذ قلتها غفرت لك ذنوبك وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا لا إلٰه إلا الله الحليم الكريم لا إلٰه إلا الله العلي العظيم سبحان الله رب السمٰوات السبع**[2] **ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين**».

فصل[3]: يروى أنه كان صنفان يتقابلان من المسلمين والكفار، والكفار كانوا نصارى فقال الكافر للمسلم: لمن تقاتل؟ قال المسلم: عن الواحد، فقال النصراني: بل أنا أقاتل عن ثالث ثلاثة، فلمّا تقابلا صرع المسلم الكافر وجلس على صدره وقال: نصرني الواحد وضيّعك الثلاثة. قال جعفر بن محمد الصادق: عجبت لمن بُلي بأربع كيف يغفل عن أربع. عجبت لمن أعجب بأمر كيف لا يقول: ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله وأنه تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾

---

(1) رواه ابن ماجه (1446) والطبراني في الكنى والحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

(2) السبع ساقط من (أ).

(3) فصل يروي إلخ من هنا إلى قوله اعلم أن الله تعالى ذكر ساقط من (ب).

وواحد في الرعد:

15: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30].

وواحد في النحل:

16: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2].

وثلاثة في طٰه:

17: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: 8].

18: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه: 14].

19: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

واثنان في الأنبياء:

20: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

21: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

وواحد في المؤمنين:

22: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: 116].

وواحد في النمل:

23: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: 26].

واثنان في القصص:

24: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 70].

25: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

وواحد في سورة النساء:

7: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: 87].

واثنان في الأنعام:

8: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الأنعام: 102].

9: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام: 106].

وواحد في الأعراف:

10: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ [الأعراف: 158].

واثنان في التوبة:

11: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

12: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129].

وواحد في يونس:

13: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

وواحد في هود:

14: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود: 14].

وفي التغابن واحد:

36: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التغابن: 13].

وفي المزمل واحد:

37: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمّل: 9].

فهذا مجموع سبعة وثلاثين من كلمات لا إلٰه إلاّ الله وردت في القرآن العظيم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: 10].

فصل: في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى. اتفق [عليه] مشايخ الطريقة وعلى هذا[1] نقل الأستاذ أبو القاسم القشيري في كتاب «الرسالة من باب التوحيد» عن يوسف بن حسين أنه قال: سمعت ذا النون المصري ـ وقد سئل عن التوحيد ـ فقال: أوَ لَم تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا مزاج وصنعه الأشياء بلا علاج، عِلَّةُ كُلِّ شيء صنعه، ولا علّة لصنعه، ومهما تصور في نفسك شيء فالله بخلافه.

وأقول: لما كان كُلُّ ما تصورته النفس فالله بخلافه لم يتمكن العقل والنفس من الإشارة إلى حقيقة معلومة بأن حقيقة الإلٰه هي هذه الحقيقة.

وقال أيضاً: أعرف الناس بالله أشدهم تحيُّراً فيه. ويروى عن سهل بن عبد الله أنه سئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته، والقلوب تعرفه والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطةٍ ولا إدراك نهاية.

وروى عنه أيضاً أنه قال: غاية المعرفة الدهشة والحيرة. وقال يوسف بن حسن: من وقع في بحار التوحيد لا يزداد على مرّ الأيام إلاّ ظمأ. ووقف رجل على حسين بن منصور فقال: أين الحق الذي تشيرون إليه؟ فقال: غفل الأنام ولا يغفل.

وقيل للشبلي: أخبرنا عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد، فقال: من أشار إليه فهو ثَنَويٌّ ومن كيّفه فهو وثنيٌّ، ومن نطق فيه فهو غافل[2] ومن سكت عنه فهو

(1) وعلى هذا من هنا إلى قيل للشبلي ساقط من (ب).
(2) غافل في (ب) عاقل.

وواحد في فاطر:

26: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: 3].

وواحد في الصافات:

27: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات: 35].

وواحد في الزمر:

28: ﴿ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر: 6].

وثلاثة في غافر:

29: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: 3].

30: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [غافر: 62].

31: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: 65].

وواحد في الدخان:

32: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: 8].

وواحد في محمّد:

33: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد: 19].

واثنان في الحشر:

34: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22].

35: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر: 23].

﴿قَدْرِهِۦ﴾ فيكون هذا الكلام عائداً إلى الذين أشار إليهم قبل هذه الكلمة بقوله[1]: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الزمر: 64].

وإذا أثبت هذا فنقول: قوله[2] تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ عائد[3] في الآية الأولى إلى من أنكر نبوّة كل الأنبياء، وفي الآية الثانية والثالثة إلى عبدة الأوثان.

فهذه الآية في المواضيع الثلاثة عائدة إلى الكفار. ولا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف أن يكون المؤمنون أيضاً كذلك[4]، وهذا سؤال حسن بل لمن يدعي كمال المعرفة أن يتمسك بهذه الآية لأنه تعالى لمّا جعل قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ عيباً على الكفار وطعناً فيهم وجب أن يكون حال المؤمنين بخلاف ذلك.

ومما اشتهر التمسك به في هذه المسألة قوله تعالى في سورة طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110] وأُجيب[5] عنه بأن قيل: لِم لا يجوز أن يكون المراد من الآية يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم فالضمير[6] في قوله: به لا يكون عائداً إلى الله بل إلى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين هو الأولى. واعلم أن العمدة في هذه المسألة أن الله ﷻ غير متناه في الذات والصفات[7]، والعقل متناه في الذات والصفات، والمتناهي لا سبيل له إلى إدراك غير المتناهي وهذا هو النكتة، ونحن نشرحها لتظهر قوّتها؛ فعقول الخلق[8] عاجزة عن معرفة كونه تعالى قديماً أزلياً، وذلك لأن كل ما يتحضره العقل استحضاراً على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة فذاك متناه، مثلاً نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة، ونفرض بحسب كل لمحة من هذه المدة ألف ألف سنة وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره، ثم إذا

---

(1) بقوله في (أ) لقوله.
(2) فنقول قوله في (ب) فقوله.
(3) عائد في من هنا إلى قوله الآيات الثلاث ساقط من (ب).
(4) أن يكون المؤمنون أيضاً كذلك في (ب) كون المؤمنين موصوفين بهذا الوصف.
(5) وأجيب من هنا إلى قوله بما بين أيديهم من (أ).
(6) فالضمير من هنا إلى قوله لان عو ساقط من (ب).
(7) والعقل إلى والمتناهي ساقط من (ب).
(8) فعقول الخلق عاجزة في (ب) فنقول العقل عاجز.

جاهل، ومن وهم أنّه واصل فليس له حاصل، ومن ظنّ أنه قريب فهو بعيد، ومن توهم أنه واجد فهو فاقد، وكل ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم، محدث مصنوع مثلكم، وقال الشبلي أيضاً: ما شم روائح[1] التوحيد من تصور عند التوحيد. وقال ابن عطاء: العبد خلق آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبيّة.

وقال آخر[2]: العقل يجول حول الكون فإذا نظر إلى [المكوّن][3] ذاب. واعلم أن من الناس من احتج في هذه المسألة بآيات، أولها قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91] قال أهل التفسير: أي ما عرفوه حق معرفته، من قدر الثوب إذا حزره وأراد معرفة قدره[4].

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هذه الآية وردت في ثلاثة مواضيع:

أولها: في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ فهؤلاء الذين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ كانوا منكرين لكل النبوات[5]، ومن كان كذلك كان كافراً فقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ عائد إلى هؤلاء.

وثانيها: قال تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ إلى قوله: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ﴾.

ولمّا كان الكلام الأول مع عبدة الأوثان، كان[6] هذا الكلام عائداً إليهم.

وثالثها: قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ ثم قال بعد هذا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ

---

(1) روائح: في (ب) رائحة.
(2) وقال آخر: من هنا إلى قوله: ما قدروا الله ساقط من (ب).
(3) [المكون] في الأصل: الكون.
(4) قدره: في (ب) مقداره.
(5) النبوات: في (أ) النبوة.
(6) هذا: ساقط من (أ).

ثُمَّ قال المحققون: لمّا كان كلُّ ما تصور في ذهنك فالله بخلافه فلو تصور في وهمك من ذلك الخلاف شيء فالله بخلافه، ثم لو تصور في هذه المرتبة الثانية أمر آخر لزم نفيه فلم يبق للعقل في طريق معرفة الحق إلى أن يَنفي كلَّ شيء[1] وقع في خاطرك، ثم إذا وقع من هذا النفي شيء[2] في ذهنه اشتغل بنفيه أيضاً وهكذا في النفي الثالث والنفي[3] الرابع إلى غير النهاية، فلو بَقي العبد أبد الآباد ودهر الداهرين لكان مشغولاً بنفي شغل القلب عن هذه الواردات وإزالة هذه التصورات، وإذا كان الأمر كذلك بقي الحق تعالى منزّهاً عن لواحق فكره وإشارات عقله وعلايق ضميره وذكره.

الحجة الثانية: هي أن الإنسان عاجز عن معرفة نفسه فإنه إن قيل: أنّ نفسه هو هذا الهيكل المشاهد فهو باطل من وجهين:

الأوّل: أن الإنسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم.

الثاني: أن ذاته من أول عمره إلى آخر عمره شيء واحد، وأجزاء بدنه غير باقية، والباقي مغاير لغير الباقي، فثبت أنّه ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس ثم بعد هذا يحتمل أن يقال أنه جسم في داخل هذا الهيكل إما في القلب فقط أو في الدماغ فقط أو يكون سارياً في كل البدن، ثم ذلك الجسم أهو من جنس الأجسام التي تولد البدن عنها أو هو جسم مخالف لهذه الأجسام في الماهية والحقيقة. ويحتمل أيضاً أن يقال أنه ليس بمتحيّز ولا حالّ في المتحيّز بل هو مدبر لهذا البدن على ما تقوله الفلاسفة.

واعلم أن هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم إلى الآن وبعد ما زالت[4] الشكوك والشبهات، ولا شك أن أعرف المعارف في الشيء المشار إليه بقولي أنا فإذا كان حالي في معرفة أظهر الأشياء كذلك فكيف يكون حالي في معرفة أبعد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات. وتحقيق الكلام فيه أن العقل كالشمع ولا شك أن كل ما كان أقرب إلى الشمع كان ضؤوه أكثر مما بعد عنه وأقرب الأشياء إلى

---

(1) شيء: في (ب) ما.
(2) شيء: ساقط من (أ).
(3) والنفي في (أ) ونفي.
(4) وبعد ما زالت في (أ) وما بعد وما زالت.

تأمّل العقل عرف أن كل ذلك متناهي الأول[1] وهو إنما كان قديماً أزلياً لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التي أحاط العقل والخيال بها؛ فثبت أن كل مقدار يصل العقل والخيال إليه، فالحق ﷻ ليس[2] قديماً باعتبار أنه كان موجوداً في ذلك[3] الوقت، فإذاً لا سبيل للعقل ألبتّة إلى معرفة القدم والأزلية. وإذا عرفت هذا في كونه أزلياً قديماً فاعرف مثله في كونه دائماً أبديّاً؛ فإذاً العقل ليس له ألبتة سبيل إلى معرفة كونه أزلياً ولا إلى معرفة كونه أبديّاً دائماً، على سبيل التفصيل فإن كل ما يشير إليه العقل فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك التصور[4].

وأيضاً إذا قلنا: موجود[5] ليس بجوهر ولا عَرَضٍ ولا محلّ[6] ولا حالّ فهو نقيض معرفته[7] فهذا ليس يقتضي معرفة ذات الله لأنا أردنا بقولنا: موجود ما ينافيه[8] العدم، وهذا المفهوم المناقض للعدم أمر يصدق على جميع الموجودات، وحقيقة الحق لا توجد في شيء سواه، فالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقته المخصوصة، وأما العلم بأنه ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم فهذا علم بعدم هذه الأشياء، وليس علماً بحقيقته؛ لأن حقيقته ثابتة، والسلب لا يكون نفس الثبوت فيمتنع أن تكون حقيقته هي نفس أنها ليست بجوهر ولا بجسم ولا بعرض.

فثبت بمجموع ما ذكرنا أنه لا سبيل للعقول إلى معرفة حقيقته وما يحقق ما ذكرنا أن العقلاء اتفقوا على أن كل صفة شاهدها الحِسّ وأدركها العقل في المكونات فلو وصف الحق بها صار جهلاً، فإذًا لا سبيل إلى معرفة الحق إلّا بنفي كل ما عرفه؛ ولهذا اتفقوا على أنّ أحسن كلمة قيلت في التوحيد ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ، هو: أنّ المعرفة أن تعرف أنّ[9] كلّ ما يتصور في ذهنك فالله بخلافه.

---

(1) متناهي الأول في (ب) متناه له أوّل.

(2) ليس ساقط من (ب).

(3) في ذلك في (ب) في ما وراء ذلك.

(4) خارجتان عن ذلك الصور في (أ) خارجة عن ذلك المقصود.

(5) موجود ساقط من (أ).

(6) في (أ) محال.

(7) فهو نقيض معرفته ساقط من (ب).

(8) ينافيه في (ب) يناقض.

(9) أنّ: ساقط من (أ).

قرص الشمس فنيت وبطلت، ونسبة القطرة إلى البحر والشعلة إلى الشمس أعظم من نسبة نور العقل إلى أنوار الجلال بل لا نسبة لأحد البابين إلى الآخر لأن القطرة متناهية والبحر متناه وللمتناهي إلى المتناهي نسبة وهكذا[1] الشعلة ،أما نور العقل فهو في غاية القصور في القلة[2] ونور جلال الله في غاية العظمة وعدم التناهي فلما اضمحلت القطرة في البحر والشعلة في الشمس فكيف يعقل بقاء ضوء العقل في حضور نور جلال الله وشروق أعلام كبريائه.

الحجة الرابعة: أن نسبة نور العقل إلى منبع الأنوار الروحانية كنسبة نور البصيرة إلى منبع الأنوار الجسمانية، وكما أن الشمس أظهر الأشياء من وجه وأخفاها من وجه آخر فكذلك منبع الأنوار الروحانية بالنسبة إلى عين البصيرة يكون أظهر الأشياء من وجه وأخفاها من وجه آخر.

الحجة الخامسة: العقل أضعف من العاقل لأن العقل صفة والعاقل موصوف، والصفة أضعف من الموصوف فإذا عجز العاقل عن المعرفة فلأن يعجز العقل مع غاية ضعفه كان أولى.

الحجة السادسة: من أمكنه إدراك شيء بتمامه وكماله فله قدرة بوجه ما عليه وقدرة المحدث ممزوجة بالعجز ومتناهية، والحق سبحانه واجب الوجود غالب لا يغلب قاهر لا يقهر فالمحدث الموصوف بالقصور والتناهي كيف يمكنه معرفة القديم الذي لا نهاية له.

الحجة السابعة: العقل لا يتصرف إلا فيما يكون في مكان أو زمان لأن كل ما أدركه فإنه يدركه إما في الماضي أو في المستقبل أو في الحال وكل ذلك بحسب الزمان وكل ما يتصوره فإنه إنما يتصوره إما ها هنا أو هناك وكل ذلك بحسب المكان، وإذا قلت الحق بخلاف هذه الأشياء فمعرفتك في هذه المعرفة ليس إلا نفي ما عرفته وتصورته فالحاصل فيه نفي غير الحق ونفي غير الحق لا يكون [هو] وجدان الحق.

الحجة الثامنة: اشتهر في أقوال الخلق قولهم: إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه فلم لم يكن الإنسان أعلم من غيره لا يمكنه أن يعرف مقداره ألا ترى أن الناس

---

(1) وهكذا في (ب) وكذلك.

(2) فهو في غاية القصور في القلة في (ب) فهو في غاية القلة والقصور.

الشيء[1] نفسه فإذا كان نور العقل أضعف من أن يصير ذاته مضيئاً[2] فحضرة الجلال مع بعده عنه بغير نهاية كيف يصير مضيئاً به؟ ولهذا قال السنائي الشاعر بالفارسية:

أي شده درشناسي خود عاجز كي شناسى خداي را هوگز
چون تودر علم خود زبون باشي عارف كردگار چون باشي[3]

واعلم أنه كما وقعت الشبهات المذكورة في معرفة النفس فقد وقعت أيضاً في معرفة حقيقة الزمان وحقيقة[4] المكان، وتحير الخلق في أن القوة الباصرة كيف تبصر بخروج الشعاع أو بحصول الشبح في العين أو بحالة مغايرة لخروج الشعاع وحصول الشبح، وكذا القول في البحث عن القوة السامعة والذائقة وتحيروا أيضاً في البحث عن كيفية التخيلات فإن هذه الصورة المتخيلة إن لم يكن لها وجود أصلاً فكيف حصل فيها التمييز والتعيين؟ وإن كان لها وجود فهي قائمة بأنفسها أو بمحلها[5]، ومحلها شيء مجرد أو جسم والكل محال ممتنع. ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجلية بلغت في الصعوبة إلى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدس عن مناسبة[6] العقول والأفكار وتنزه عن مشابهات الخيالات[7] والأنظار.

الحجة الثالثة: قد ثبت في العلوم الحقيقية أنه ﷻ هو النور المطلق وهو نور الأنوار وكما أن من وضع السراج في مقابلة الشمس انطفأ ولم يظهر ألبتة له أثر، فكذلك إذا وقع ضوء العقل في مقابلة نور جلال الله فني واضمحلّ وتلاشى، ولذلك قالوا[8]: بأن العقل يدور على المكونات فإذا وصل إلى حضرة مكون الأكوان ذاب.

واعلم أن القطرة إذا وقعت في البحر اضمحلت والشعلة إذا وقعت في مقابلة

---

(1) الشيء ساقط من (أ).
(2) فإذا كان... إلخ في (ب) نور العقل في الضعف إلى حيث لم تصر به ذاته مضيئاً.
(3) ترجمة البيتين:
يا من عجزت عن معرفة نفسك متى تعرف ربك؟ لا تعرف ذلك قط
فإذا كنت عاجزاً عن العلم بنفسك فكيف تكون عارفاً بالخالق؟
(4) الزمان وحقيقة ساقط من (أ).
(5) أو بمحلّها ساقط من (ب).
(6) مناسبة في (ب) مناسبات.
(7) الخيالات في (أ) الجليات.
(8) قالوا في (أ) قال.

سراباً فإذا وصل إليه لم يجد عنده شيئاً كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فكذلك العقول البشرية والأرواح الإنسانية وقعت في بيداء كبرياء الله تعالى فعظمت الأنوار وتعاكست الأشعة وغلبت حرارات الاشتياق إلى الوصول إلى حضرة الله تعالى، فكلما نظر إلى جانب ظنه ماء المعرفة فالمعطلة نظروا إلى جانب البادية فظنوا أن الماء هناك، والمشبهة نظروا إلى جانب[1] الإثبات فظنّوا أن ماء العرفان هناك وكذلك القدر والجبر والرفض والخوارج ثم إن كان كل واحد توجه إلى مقصده وصار إلى مطلبه فوصلوا إلى مطالبهم يوم القيامة فلم يجدوا هناك من هذا الحديث شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ ثم الأقوياء لما عرفوا عظمة المفازة وعجز البشرية وحيرة العقول فرغوا[2] عن أنفسهم واستعانوا بإرشاده وهدايته فقال الخليل: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقال يوسف الصديق ﷺ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: 101]، وقال الكليم ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: 25- 26] وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: 19]، وقال عيسى ﷺ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116] وقال الحبيب: **«أرنا الأشياء كما هي»**.

الثالثة: قالوا: الصبيّ ينظر في المرآة فيرى فيها صورته[3] فيشتاق إلى أن يقرب من تلك الصورة، فيقرب من الصورة فيرى تلك الصورة أيضاً تقرب منه، فإذا رأى قرب الصورة منه حال قربه منها يشتدّ[4] طمعه في أخذها فيمدُّ يده إليها ليأخذها.

فإذا مدّ يده رأى حجاباً من الحديد ورأى الصورة مختفية[5] بحجب العزة وسرادقات القدرة، فهكذا القوة العقلية تنظر في مرآة[6]: «من عرف نفسه» فيلوح له تجلّي أنوار معرفة ربّه، فكلما كان نظر العين إلى هذه المرآة أشدّ كان هذا[7] التجلّي

(1) جانب ساقط من (أ).
(2) فرغوا في (أ) فروا.
(3) صورته في (أ) صورة.
(4) يشتد في (ب) أشتد.
(5) مختفية في (ب) مخفية.
(6) مرآة: في (أ) المرأة.
(7) هذا: في (ب) ذلك.

يقولون: لا يقدر على التمييز بين فلان وفلان إلاّ من كان أعلم منهما لأنه لا بدّ أن يعرف مقدار معلومات هذا ومقدار معلومات ذاك، ومقدار ما به ازداد أحدهما على الآخر وما انتقص منه[1] فهذا لا يتيسر إلا لمن كان أعلم من كل واحد منهما، فإذا كان لا يتيسر للناقص أن يحيط بمن هو أكمل منه في العرف في الشاهد[2] فكيف يتيسر للعقول الناقصة الإحاطة بجلال من جلاله غير متناهٍ.

الحجة التاسعة: العقل كالأنثى والفكر كالذكر فإذا حصل الازدواج بينهما تولدت المعرفة ولا شك أن الولد يكون على قدر قوة الأبوين، والعقل ناقص فكيف وهو عاجز عن معرفة نفسه والفكر ناقص وكيف ولا يمكنه أن يصون نفسه عن الغلط[3] وإذا كان الأبوان في غاية النقصان كيف يعقل أن يكون الولد في غاية الكمال فامتنع تولد مثل هذه المعرفة على غاية شرفها من هذين الأبوين.

الحجة العاشرة: إذا أدرك العقل شيئاً وقف عند مدركه وما انتهى إليه، وكل مدرك هذا شأنه فهو متناهٍ والحق لا نهاية له وهذا يوجب أن ذلك المدرك ليس هو الحق بل كان شيئاً غير الحق.

الحجة الحادية عشرة: قال ﷺ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصبع[4] الرحمٰن**» وهذا عبارة عن كونه محدوداً مقصوراً مقلوباً متناهياً وما كان كذلك امتنع أن يكون له إحاطة بما لا نهاية له، **ومن النكت في هذا الباب وجوه:**

الأول: أخبر عن ضعف البشر فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: 73]، فمن بلغ عجزه إلى حيث لا يقوى على مقاومة الذباب فكيف يمكنه الوصول إلى كنه صمدية رب الأرباب؟

الثاني: قالوا: الرجل إذا كان في مفازة عظيمة واشتد به الحر ولم يكن هناك ماء أصلاً وألبتة، واشتد عطشه وغلبه خوف الفقدان فإلى أي جهة نظر ظنه ماء ورآه

---

(1) وما انتقص منه في (ب) أو انتقص منه.
(2) في العرف في الشاهد في (ب) في المعرفة وفي الشاهد.
(3) الغلط في (أ) عن النظر.
(4) أصبع في (ب) أصابع.

وإن عرضته على نفاذ الحق كان الكلّ قبيحاً لأن المعارف بالنسبة إلى حضرة جلاله جهل والعبادات بالنسبة إلى عتبة عزته تقصير.

أمّا إن عرضته على نفاذ الأمر كان البعض حسناً والبعض قبيحاً؛ فالحكم فضل محض والحق عدل محض والأمر تارة مع الفضل وتارة مع العدل.

فإن عُرضت على الحكم أعمال كل الخلق لم يكن شيء منها مردوداً، وإن عُرضت على الحق أعمال الأنبياء والملائكة لم يصر شيء منها مقبولاً. وأمّا الأمر فعلى ما عرفت بالفارسيّة: (هر باركه در[1] آينة أمر نِگرى سودايى در سرت پديد) آيد: (لي من كسبي أمرلكم بر عقب آن در آينه حق نگرى تاخودرا از عدم گم بيني، امروز أنبيا بنبوّت ورسالت مة نگرند، ملائكة بطاعت وعصمت مي نگرند موحّدان باخلاص وإيمان مى نگرند، فرداچون سرادقات جلال بازگشتند وسراپرده عزت بزنند، وأعلام جلال حقيقت ظاهر كنندهم فرياد عجز فزايش آرند: يكى گويد): (ما عبدناك حق عبادتك) يكى گويد: (ما عرفناك حق معرفتك).

السابعة: در راه إلهيت أو هركه خواست كه پيش رود فروماند نور عقل خواست كه پيرا من جلال اوگردد هباء منثور گشت، سروجان خواست كه قدر كمال او بداند حيرة گشت، معرفت خواست كه بحضرت قدس أو محيط شود عاجز شد.

أي ديده عقول در إدراك جلال أو حيره واحداقأرواح در مقابلة نور عزّت أو تيرة، أفكار أرباب حكمت در نثار بحار عظمت أو غرق شده، نتايج أصحاب فكرت وفطنت در أنوار أسرار جلال أو محترق گشته، زبانهاى أهل فصاحت از اگر، هزار دلائل وحدانيّت جوئى وآنچه بنقل آمده است نقد كنى وبر تجّار منقول ومعقول عرض كنى ودُرّ وعزيز وجواهر وزواهر درسلك تحصل كنى چون نيك نظر كنى خودرا در پله زيري: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255]، بيني ودون العين أستار وفي الأستار أسرار محجوبة عن الأغيار، فسبحان من عزيز ضلّت العقول في بحار عظمته وحارت الألباب دون إدراك نعمته [و] أصبح منسوباً إلى العيّ.

---

(1) هريار من هنا إلى قوله تقرير أخر إلخ اسقطه (ب) منبهاً على أنه تعمد ذلك.

أعظم؛ فيشتاق العقل إلى الوصول إلى كنه الصمدية، فيمدُّ يد الطلب فيرى بين نفسه[1] وبين المطلوب سدّاً من الأزلية والقِدَم والاستغناء فيبقى وراء هذا السدّ عاجزاً مسكيناً، وبسبب مدِّ يد التصرف يزول ذلك التجلي محتجباً بسرادقات الكبرياء والعظمة والجبروت.

الرابعة: كان سوداوي[2] يحمل حملاً من القوارير، وكان يذهب به لأجل التجارة إلى بلد، فلمّا وصل إلى باب البلد وضع ذلك الحمل ثمّ قال: إني إذا دخلت هذه البلدة أبيع هذه القوارير وأشتري بأثمانها الغنم ثم يحصل من نتاجها وأولادها مال عظيم أشتري به[3] آلات المملكة، فإذا حصل الملك أتزوج بابنة الملك الفلاني ويحصل لي منها أولاد، ثم أحضر الأدباء والعلماء لتأديبهم وتعليمهم ففي أثناء ذلك ضرب يده على الحمل فسقط الحمل وانكسر الكلّ.

وهذا مثل لأكثر توهمات الخلق فإن كل أحد يظنّ أنّ ما معه من العلوم والأعمال يكون وسيلة له[4] إلى وجدان ملك الجنة والوصول إلى عتبة حضرة الله ـ جلّ وعزّ ـ فإذا جاء وقت الموت بطلت تلك الأوهام وزالت الأفكار وبقي المسكين على تراب الحرمان وموضع الذلة والعجز.

الخامسة: من أسمائه تعالى الجبَّار، وهو مأخوذ من قولهم: (نخلة جبارة)، إذا لم تصل إليها الأيدي، فكذا هٰهنا الأفهام[5] لا تصل إلى صمديَّته؛ فالعبد له اليوم عرفان وجوده وغداً طلب جوده، وحقيقة الصمديّة منزهة عن الإحاطة والإدراك.

السادسة: للسيّارين[6] إلى الله ثلاث مقامات: الحكمُ والحقُ والأمرُ، ثم كلُّ ما دخل تحت الوجود أن عرضته على نفاذ الحكم كان الكلّ[7] حسناً لأن الكلَّ بتقديره وحكمه حصل.

---

(1) بين نفسه: في (ب) بينه.
(2) سوداوي في (أ) سواديّ.
(3) به آلات: في (ب) به الخيل والبغال ثم يحصل من نتاجها مال عظيم أشتري به آلات.
(4) له: ساقط من (ب).
(5) الأفهام: في (ب) الأوهام.
(6) للسيارين: في (ب) للسائرين.
(7) الكلّ: ساقط من (ب).

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

النوع الثاني من علوم هذا الكتاب في تقرير الدلائل الدالة على إثبات الصانع ﷻ

وهذا النوع مشتمل[1] على مقدمة وأبواب.

أمّا المقدمة فاعلم أنه تعالى رتّب دلائل إثبات الصانع في القرآن العظيم على وجهين:

الأوّل: أنه تعالى ابتدأ من الأعرف فالأعرف نازلاً إلى الأخفى فالأخفى في الدلائل، وهذا هو الترتيب[2] الذي اختاره في سورة البقرة لأنه ابتدأ باستدلال كلّ[3] أحد على وجود الصانع بنفسه وذاته فقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: 21] ثم ذكر عقيبه استدلالهم بأحوال آبائهم وأجدادهم ثم ذكر عقيبه استدلالهم بأحوال الأرض فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال السماء ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ ثم ذكر عقيبه الاستدلال بالأحوال المتولدة بين[4] السماء والأرض، والسبب في هذا الترتيب أنّ أظهر الأشياء لكل أحد نفسه ثم أبوه[5] وأجداده ثم الأرض التي هي مسكنه، ثم السماء التي هي في غاية البُعد عنه. ثمّ الأحوال لا يتولد إلا بمجموع الأرض والسماء وهو المراد بقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22].

---

(1) مشتمل في (ب) يشتمل.
(2) الترتيب: في (أ) الترتيبة.
(3) كلّ: في (ب) لكلّ.
(4) بين: في (ب) فيما بين.
(5) أبوه في (أ) أباه.

شرح ومدح جمال أو كليل ودر هرگوشه هزار [ذبيح][1] وجريح وشهيد وقتيل.

المناجاة: أي آنكه تراجستن محال وازتو عبارت كردن وبال چون بامنى تراچگونه جويم، وچون بهيچ چيز ننمايى ازتوچگونه عبارت كنم، نه بى تو إيمان ونه باتو توان: (لا منك فرار ولا معك قرار المستغثات منك إليك). أي عزّ توهمه عزّهارا نعت دل بركشيده وأي جلال توهمه كلالها را داغ احتلال برنهاده، أي كمال توهمه كالمهار رارقم نقصان برزده، آي الهيّت توهمه عالمرار بق عبوديّت درگردن كرده، أي ذات توبى أين واى صفات توبى كيف واي بطش توبى جارحه، أي بصرتوبى حدقه، اي صفات تو عقولرا متحيِّر كرده، أي صمديّت تو جانهارا سراسيمه گردانيه، أي ارادت ومشيّت وأحكام آلهيّت تو از آلايش وهم خلق پاك، أي غيب غيب وأزل أزل تواز هواجس خواطر وضما يرآب وگل منزه، أي همه جانهابر (من تريد) عشق تونهادة وجز [وحشت][2] سود ناكرده، اي همه عشاق قصد رواق اشراق توكرده وجز نوميدى بدست نا آورده، آي همه أحباب بادل كباب قدم در راه تونها ده ومال وعيال وجاه ومهرّى وسرورى برباد داده وجزباد بدست ايشان نا آمده يا أرحم الرّاحمين.

تقرير آخر: في أنه لا سبيل إلى معرفته.

لا شك أن كلّ من كان انقطاع نظره عمّا[3] سوى الحق أكمل وكان استغراق قلبه في معرفته أتمَّ كانت معرفته أكمل، ولا شكَّ أن محمَّداً عليه أفضل الصلاة والسلام ليلة المعراج[4] بلغ الغاية القصوى في هذا الباب وكانت معرفته أكمل المعارف ثم إنّه مع ذلك اعترف بعدم المعرفة لأنه قال: (**لا أحصي ثناء عليك**) فإذا كان [هو] مع كمال القرب لم يعرف فمن كان في غاية البُعد كيف يمكنه المعرفة؟ والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

---

(1) [ذبيح] في الأصل: مديح.
(2) [وحشت] في الأصل: (حسب).
(3) عمّا: في (ب) ما.
(4) ليلة المعراج: ساقط من (ب).

ثم نذكر دلائل الشمس والقمر، ثم نذكر دلائل[1] النجوم ثم نذكر دلائل الإنسان ثم نذكر دلائل النبات، ثم نذكر[2] دلائل الآثار العلوية من الرعد والبرق والصاعقة والسحاب، ثم نذكر دلائل[3] أحوال البحار ثم نذكر دلائل الجبال، وذلك هو تمام المقصود من هذا النوع والله الموفق للخيرات.

---

(1) ثم نذكر دلائل ساقط من (ب).
(2) نذكر ساقط من (أ).
(3) دلائل ساقط من (أ).

«الوجه الثاني»: في ترتيب الدلائل ما ذكره تعالى في أول سورة النحل فإنه تعالى ابتدأ من الأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون، وذلك لأنه تعالى ذكر المطلوب أولاً فقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: 2]، ثم أنه ابتدأ في[1] ذكر دلائل الصانع بالسمٰوات فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 3]، ثم ذكر عقبه الاستدلال بالإنسان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4] ثم ذكر بعده أحوال الحيوانات فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: 5]، ثم ذكر بعده أحوال النبات فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: 10]، ثم ذكر أنواع[2] العناصر فذكر الماء فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: 14]، ثم ذكر الأرض فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15] ثم لمَّا تمّم ذكر هذه الدلائل أعاد المطلوب الذي ذكره أولاً وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 17]، والمطلوب منه إثبات التوحيد ونفي الشركاء والأنداد. ثم قال بعده: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: 18] يعني أن هذه الأشياء التي ذكرناها استدلالاً بها على الصانع وعلى وحدانيته فهي أيضاً نعم جليلة ومنافع عظيمة في حقكم، والإنسان لو استقصى في تعداد[3] نعم الله عليه فإنه يعجز بالآخرة[4] وأكثر دلائل القرآن هكذا فإنها تكون دلائل من وجه ونعماً من وجه آخر ومثل هذه[5] الدلائل الخفية تكون أنجع في القلب وأشد تأثيراً في الروح، لأنها من حيث أنها دلائل تفيد المعرفة ومن حيث أنها نعم تفيد الانقياد للمنعم والاشتغال بشكره والخضوع لعزّ جلاله فإذا تعاون هذان الوجهان كمل حصول المقصود من الاعتراف بالخالق المنعم والانقياد لعز وجهه وكمال صمديته وإذا عرفت هذين النوعين من الترتيب في هذه الدلائل فنحن في هذا الكتاب[6] نرتب الدلائل على هذا[7] الوجه الثاني فنبدأ بشرح دلائل السمٰوات

---

(1) ساقط من (أ).
(2) أنواع في (ب) أحوال.
(3) تعداد في (ب) تعديد.
(4) بالآخرة ساقط من (ب).
(5) هذه ساقط من (ب).
(6) الكتاب في (ب) الباب.
(7) هذا ساقط من (ب).

«الباب الأول في كيفية دلالة السمٰوات والأرض على إثبات الصانع عز وجل وعلا»

اعلم أنه تعالى ذكر في الكتاب الكريم مبدأ تكوّن السمٰوات وأحوال بسطها[1] وأحوال معادها وفيه فصول:

الفصل الأول: في شرح مبدأ تكون السمٰوات

اعلم أنه ﷻ ذكر في هذا المعنى آيتين: الآية الأولى قوله تعالى في سورة الأنبياء [30]: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: أن المراد من قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ إما الرؤية وإما العلم، لا يجوز أن يكون المراد هو[2] الرؤية لأن القوم ما رأوا كيفية تخليق السمٰوات لأنه تعالى قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: 51]. ولا يجوز أن يكون المراد هو العلم لأن الرتق والفتق عبارة عن الاجتماع والافتراق ولا شك أن الأجسام قابلة لكل واحد منهما بدلاً عن الآخر وإذا كان كذلك فلا سبيل إلى العلم بتقديم الرتق على الفتق إلا بقول الرسول عليه أفضل السلام، وهذه المناظرة كانت مع الكفار المنكرين للرسالة فكيف يجوز مثل هذا الاستدلال؟. فهذا أحد السؤالين في الآية.

السؤال الثاني: أنه ما معنى الرتق والفتق في الآية[3]؟.

---

(1) بسطها في (ب) وسطها.

(2) هو ساقط من (ب).

(3) أنه ما معنى إلخ في (ب) أنه ما يعني... إلخ.

صفاتها جليّة قوية ظاهرة، والعلم إذا قوي وبعد عن مواقع الشكوك والشُبهات جاز أن يسمى بالرؤية لقوته وجلائه وكثرة شواهده ودلائله.

(الوجه الثاني): في تفسير الرتق والفتق أن الظلمة سابقة على النور ويدل عليه النقل والعقل أما النقل فوجوه:

(الأول): قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] فقدم الظلمات على النور في الذكر.

(الثاني): قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5] فظاهر اللفظ على أنه جعلها ضياء بعد أن لم يكن كذلك.

(الثالث): قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: 37].

(الرابع): قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35] أي منور السمٰوات والأرض وهذا يشعر[1] بأن النور متأخر عن الظلمة.

فإن قيل فهذا يشكل[2] بقوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: 40] وهذا يدل على أن السابق هو النهار، **قلنا**: لا بد من التوفيق بين هذه وبين الآيات التي قدمناها فالمعنى: ولا الليل المتأخر يسبق النهار المتقدم.

أما المعقول فهو أن الليل ظلمة والظلمة عدم والنور وجود وعدم المحدثات تتقدم على وجودها فدل ذلك[3] على أن ظلمة العدم كانت سابقة على نور وجود هذه المحدثات.

إذا عرفت هذه القاعدة فنقول كانت السمٰوات والأرض مظلمة أولاً ثم أظهر الله الأنوار فيها فعبر عن الظلمة السابقة بالرتق وعن الأنوار اللاحقة بالفتق فلهذا قال:

---

(1) يشعر في (ب) مشعر.
(2) يشكل في (ب) مشكل.
(3) ذلك ساقط من (ب).

واعلم أنّا نخوض في معنى الرتق والفتق[1] وفي أثناء الكلام يظهر الجواب عن السؤال الأول، فنقول: لفظ الرتق والفتق يحتمل وجوهاً:

الأول: أن الرتق إشارة إلى العدم والفتق إشارة إلى الوجود[2] وتقريره بحسب اللفظ أن الأجسام إذا كانت مرتقة لا يكون لبعضها تميز عن البعض، وإذا كانت متفتقة تميز بعضها عن البعض وإذا عرفت هذا فنقول: أن العدم نفي محض فليس فيه ذوات متميزة وأعيان متباينة فصح تسمية المعدوم[3] بالرتق من حيث أنه ليس امتيازاً أو بوجه ما، وإذا وجدت فقد تميز كل واحد من الجواهر عن غيره، وكل واحد من الصفات عن غيرها فصحّ تسمية الوجود بالفتق. من هذا الوجه وبهذا التأويل سمى الله تعالى خلق النور في وسط الظلمة بالفلق فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: 96] بل سمى نفس الإيجاد والتكوين بالفلق فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1] فكذا لا يبعد أن يريد بالفتق بعد الرتق الوجود بعد العدم.

وإذا عرفت هذا فيكون المراد من هذه الآية المراد من قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، ومن قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] ومن قوله في أول سورة النحل [3] ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وتمام وجه الاستدلال أن كل واحد من السمٰوات والأرض مختص بحيّز معين وبصفة معينة وبخاصية معينة[4] وبمقدار معين مع أنه لا يمتنع وقوعه في العقل على خلاف[5] تلك الخاصية والصفة والحيز، وإذا كان كذلك كان اختصاص كل واحد منهما بصفته وحيزه وشكله[6] لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتدبير مدبر وتقدير مقدر، فدلّ وجود السمٰوات من هذه الجهة ومن وجودها بعد أن لم تكن على افتقارها إلى[7] القادر المختار وإذا حملنا الرتق والفتق على هذا الوجه كان المراد من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أو لم يسلم. وذلك لأن دلائل الحدوث في ذوات السمٰوات وفي

---

(1) واعلم إلى وفي أثناء ساقط من (ب).

(2) أن الرتق إلخ في (أ) أن الرتق والفتق إشارة أي العدم إشارة إلى الوجود.

(3) المعدوم في (ب) العدم.

(4) وبصفة إلخ في (أ) وصفة وخاصية معينة.

(5) خلاف في (أ) خلق.

(6) كان. . إلى وشكله ساقط من (أ).

(7) افتقارها إلى ساقط من (ب) وكذلك (بعد أن لم) ساقط من (ب).

لا شك أن كرة الأرض محفوفة[1] بالماء، والماء بالهواء، والهواء بالنار، والنار بالأفلاك، وكل فلك بفلك آخر إلى آخر الأفلاك فنقول: هذه الأفلاك والعناصر متساوية في الجسميّة؛ لأنه لا معنى للجسمية إلّا الطويل العريض العميق، والكل متشاركة في هذا المعنى، ثم إنّ كل واحد من هذه الأجسام يخالف الآخر في الصفات والأعراض، وهي كون بعضها عالية والبعض سافلة والبعض لطيفاً والبعض حاراً والبعض بارداً؛ فنقول: اختصاص كل واحد من هذه الأجرام الفلكية والعنصرية بصفته المعينة وحيّزه المعيّن إما أن يكون لذاته أو لشيء من لوازم ذاته، أو لشيء[2] غير لازم لذاته، والأول والثاني يوجبان استواء الأجسام في كل الصفات وهو محال، والثالث يقتضي أن يكون اتصاف كل واحد من هذه الأجسام بما اتصف به أمراً جائزاً، وإذا كان الأمر كذلك استحال اختصاصه بتلك الصفة إلّا لمرجّح ومخصّص، ثم ذلك المخصص إما أن يكون جسماً وإما أن لا يكون جسماً، فإن كان جسماً كان ذلك الجسم متميزاً عن سائر الأجسام بتلك المؤثريّة فيفتقر ذلك الاختصاص إلى مخصص ومرجح ويلزم التسلسل وهو محال. وإن لم يكن جسماً فإما أن يكون موجباً بالطبع[3] أو مختاراً، لا جائز أن يكون [موجباً] لأن نسبته إلى الكل على السّوية، فوجب أن يكون قادراً مختاراً[4] فثبت افتقار الأجسام من العرش إلى ما تحت الثرى إلى مؤثر، فاعل بالاختيار، قادر على جميع الممكنات، ليس بجسم ولا جسمانيّ وذلك هو الله تعالى.

وإذا عرفت هذا فنقول: المُراد من الرتق كون تلك المواد متشابهة في الماهية والحقيقة، والمُراد من الفتق اختصاص كلّ واحد منها بطبع معيّن وبشكل معين وبصفة معينة، وحيّز معيّن.

وعلى هذا التقدير تكون الرؤية بمعنى العلم.

الوجه الرابع: في تفسير الرّتق والفتق، أنّ السمٰوات كلها كانت سماء واحدة ثم إنه تعالى جعلها سبع سمٰوات.

---

(1) محفوفة: في (أ) محففة.
(2) لشيء: في (ب) لأمر.
(3) بالطبع: ساقط من (ب).
(4) مختاراً: في (أ) محتاجاً.

﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ويتأكد[1] هذا بما روى أنه عليه أفضل السلام قال حاكياً عن رب العزة[2] جلَّ جلاله: «**خلق الخلق في ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره**» وعلى هذا التفسير تكون الرؤية المذكورة في الرتق والفتق[3] في الآية بمعنى العلم.

(الوجه الثالث): في تفسير الرتق والفتق أن السمٰوات والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتزقاً بعضها ببعض، ثم فصل الله بينهما وأقر الأرض حيث هي ورفع السمٰوات إلى العلو، وهذا القول يدل عليه وجوه:

(الأول): قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2] فوصف السمٰوات بأنها[4] مرفوعة وذلك يطابق ما قلناه من أن السمٰوات والأرض كانت بعضها ملتصقاً ببعض، ثمّ أنه ﷻ أقر الأرض في مكانها وأصعد أجزاء السمٰوات ورفعها إلى الجو العالي.

(الثاني): قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11] يروى أنه تعالى خلق جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فانذابت الجوهرة ثم سلط عليها الحرارة فارتفع على وجه الماء زبد وعلاه دخان، فخلق الأرض من الزبد وخلق السمٰوات من ذلك الدّخان، وهذا يدل على أن أجزاء السمٰوات والأرض كان بعضها مختلطاً بالبعض وملتصقاً به، ثم أنه تعالى ميّز البعض عن البعض وصيّر البعض زبداً وأسكنه حيث هو وأصعد الباقي إلى الجو العالي وخلق منه السمٰوات.

(الثالث): قوله تعالى في صفة السمٰوات: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: 28] وذلك يدل على أنه تعالى أصعد الأجزاء التي منها خلق السمٰوات عن السفل إلى العلو، وذلك هو المراد من الرتق والفتق.

واعلم أن وجه الاستدلال بالرتق والفتق على وجود الصانع بناء على هذا القول أن نقول:

---

(1) ويتأكد في (ب) ويؤكد.
(2) العزة في (ب) العرش.
(3) الرتق والفتق ساقط من (ب).
(4) بأنها في (ب) أنها.

القولين ظاهر أيضاً؛ وذلك لأن على القول الأول أنه ﷻ فصل بعض هذه الأفلاك عن بعض، وخصّ كل واحد منها بقدر معيّن وسير معيّن وجهة معيّنة، لحكمة ظاهرة في علم الغيب مستورة عن عقول الخلق[1]، فلا بد و[2] أن تكون تلك[3] القدرة غالبة ومشيئته نافذة على ما حققنا القول فيه.

وأما على القول الذي ذكره الغزالي ـ أنار الله بُرهانه ـ فاعلم أن منافع الرَتق والفَتق بهذا المعنى كبيرة ونحن نذكر منها شمَّةً فنقول: لو لم تكن للكواكب[4] حركة في هذا الميل لكان التأثير مخصوصاً ببقعة واحدة، فكان[5] سائر الجوانب يخلو عن المنافع الحاصلة منه، وكان الذي يقرب متشابه الأحوال وكانت القوة هناك لكيفية[6] واحدة: فإن كانت حارّة أفنت الرطوبات فأحالتها[7] كلها إلى الناريّة[8] ولم تتكون المتولدات، فيكون الموضع المحاذي لمَمرّ الكواكب[9] على كيفية واحدة[10]، وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما [على] كيفية متوسطة، فيكون في موضع شتاء دائماً يكون فيه الشهوة والفجاجة وفي موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفي موضع آخر ربيع أو خريف، لا يتم فيه النضج فلو لم تكن عودات متتالية لكان[11] الكوكب يتحرك بطيئاً وكان[12] الميل قليل المنفعة ولكان التأثير شديد الإفراط وكان يعرض قريباً مما لم تكن سيّارة[13]، ولو كانت الكواكب أسرع من هذه لمَا كملت المنافع وما تمَّت.

---

(1) الخلق: في (ب) الخلائق.
(2) وأن: الواو ساقطة من (أ).
(3) تلك: في (أ) ذلك.
(4) للكواكب: في (أ) للكوكب.
(5) فكان: في (أ) لكان.
(6) لكيفية: في (ب) في الكيفية.
(7) فأحالتها: في (أ) وأحالها.
(8) النارية: في (ب) النيرانية.
(9) الكواكب: في (أ) الكوكب.
(10) واحدة: ساقط من (ب).
(11) لكان: في (ب) وكان.
(12) وكان: في (ب) فكان.
(13) قريباً مما لم تكن سيارة في (ب) قليلاً كما لو لم يكن قبل.

والذي يدل عليه قوله تعالى في أول سورة البقرة [29]: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وهذه الآية دالّة على ما قلناه من وجهين:

أحدهما أنه تعالى قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ولفظة السماء دالّة على الواحدة.

الثاني أنه قال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ والفاء تدل على التعقيب.

فهذا يدل على أن السماء كانت واحدة ثم أنه تعالى جعلها سبعة بعد أن كانت واحدة.

فإن قيل: فعلى هذا القول ما معنى فتق الأرضين بعد رَتقها؟

قلنا: أنه تعالى قال في سورة الطلاق [12]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فلهذا السبب اختلفوا في تفسير الأرضين السبعة، فقال بعضهم: هي طباق سبعة بعضها أسفل من بعض كالسمٰوات، وقال آخرون: هذه الأرضون إشارة إلى الأقاليم السبعة فإنه تعالى[1] جعل لكل واحدة من هذه الأقاليم خاصيّة ومنفعة.

الوجه الخامس: في تفسير الرَتق والفَتق.

قال الغزالي رحمه الله في كتابه المسمّى بالمضنون به على غير أهله:

الرتق عبارة عن انطباق دائرة البروج على دائرة معدل النهار، وفي ذلك الوقت ما كانت الأرض معمورة على ما عرف تحقيق ذلك في علم الهيئة، والفتق عبارة عن انفراج إحدى[2] هاتين الدائرتين عن الأخرى، وحدوث ميل فلك[3] البروج عن معدل النّهار، ولمّا حدث هذا الانفراج حدثت الفُصول الأربعة في الأرض، وحصل بسبب ذلك اختلاف الأهوية والبلدان والمساكن. فهذا هو المُراد من حدوث الفتق في الأرض.

واعلم أن وجه الاستدلال على إثبات الصانع الحكيم سبحانه بناء على هذين

---

(1) فأنه تعالى إلى خاصّية ساقط من (ب).

(2) إحدى: ساقط من (أ).

(3) فلك: في (أ) ذلك.

واعلم أن هذا التأويل يجوز حمل قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على الإبصار، فإنّ النّاس يشاهدون انصباب[1] السَّحاب بالمطر والأرض بالشجر، ثمّ وجه الاستدلال على وجود الصانع بناء على هذا التفسير أنّك ترى الهواء في غاية الصّحو ثم إنه ينعقد الغيم دفعة، وينزل من المطر ما يمتلىء منه الأدوية العظيمة ويقلع [الأشجار][2] العظيمة من شدة سيلانها.

ثم إن نزول ذلك المطر يصير سبباً لخروج الأنواع المختلفة من النبات من الأرض، وكل ذلك يدلّ على تقدير الصانع المختار الحكيم جلّ جلاله.

فهذه الأقوال الستة المذكورة ـ وإن كنا قد بالغنا في تقديرها ـ ولكن هٰهنا[3] وجوه أخرى يمكن حمل الآية عليها، فالأول: أن السمٰوات كانت رتقاً فما كان أحد[4] ينزل من السماء إلى الأرض وما كان أحد يصعد من الأرض إلى السماء، ثم إنه تعالى فَتَقَها فصارت الملائكة تنزل من السمٰوات إلى الأرض وصار البشر يصعدون من الأرض إلى السماء، أما نزول الملائكة فقال تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: 64] وقال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾[5] [النحل: 2] وقال :﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: 4].

وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193 – 194] وأما صعود البشر إلى السمٰوات، فقوله في إدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 57] وقال في عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55] وقال في محمد ﷺ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: 9].

(**الثاني**) كانتا رَتقاً ففتقناهما [تارة] بإنزال أنوار الكواكب من السمٰوات العالية إلى الأرضين المستفلة كما قال: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: 3]. قيل أنه زُحل لأنه يثقب بنوره سُمك سبع سمٰوات[6] وهو الذي بعد الثريا فوق الدبران بقليل نجم أحمر ويُسمى

---

(1) انصباب: في (ب) إنفتاق.

(2) [الأشجار] في الأصلين الجبال.

(3) ولكن ههنا: في (ب) فههنا.

(4) فما كان في (أ) لما كان.

(5) وهذه الآية ساقطة من (ب).

(6) وهو الذي من هنا إلى وتارةساقط من (ب).

فأمّا إذا كان هناك ميل تحفظ الحركة في جهة ثم تنتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في تلك الجهة[1] بُرهة من الدهر ثم بذلك عظمت تأثيره وكثرت منفعته[2]، فسبحان الخالق المدبّر بالحكمة البالغة والقدرة غير المتناهية.

القول السادس: إنّ السمٰوات والأرضين[3] كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة، فَفَتق الله[4] السماء للمطر والأرض للنبات والشجر ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: 11 - 12] وأكثر المُفسرين اختاروا هذا القول، واحتجّوا على ترجيحه على سائر الأقوال بقوله تعالى عقيبه:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30].

وهذا الكلام لا يليق ذكره بهذا الموضع إلّا والمُراد ما ذكرناه

فإن قيل: هذا الوجه ضعيف لوجهين:

أحدهما: أن المطر لا ينزل من السماء بل ينزل[5] من السحاب والسحاب بين السماء والأرض[6].

الثاني: أن بتقدير أن يكون المطر نازلاً من السماء لكنه ينزل من السّماء الدنيا لا من كل السمٰوات.

والجواب عن الأول: أنّ السّماء مُشتق من السموّ فكل ما سَمَاك أي[7]: عَلَاك فهو سماء. وعن الثاني: إنّما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء كما يقال: ثوب أخلاق وبرمة أعشار.

---

(1) في تلك الجهة في (أ) كل جهة.
(2) ثم بذلك إلى منفعته: في (ب) ثم يميل إلى تلك الجهة عظمة تأثيره وكثرة منافعه.
(3) الأرضين: في (أ) الأرض.
(4) الله: ساقط من (أ).
(5) ينزل: ساقط من (ب).
(6) والسحاب بين السماء والأرض: ساقطة من (ب).
(7) ما سماك أي: ساقط من (ب).

الفصل الثاني:
في تفسير آية أخرى دلت على حدوث مبدأ السموات

قــال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصّلت:11] إلى قوله ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] ونظير هذه الآية قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29] وفي هذه الآية أبحاث.

البحث الأول:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾. واعلم أن قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ يدل على أمرين:

الأول: أنه يدل على أنه حين استوى الحق سبحانه إليها كانت سماء واحدة ثم قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ ليدل على أنها إنما صارت سبع سمٰوات بعد ذلك لأن الفاء للتعقيب فصار قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ نظيراً لقوله في سورة البقرة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وصارت الفاء في قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصّلت:12] في دلالته على أن هذا العدد إنما حصل بعد أن كانت السمٰوات لواحدة نظير الفاء في قوله في سورة البقرة «فسواهن سبع سمٰوات» في دلالته على أن هذا العدد إنما حصل بعد أن كان الكل واحداً وهو الرتق والفتق الذي شرحناه في الفصل الأول.

الثاني: أن الآية دالة على أن السمٰوات مخلوقة من الدخان واعلم أن تخليق السماء من الدخان دال على كمال القدرة ونهاية الحكمة، **وذلك في وجوه**:

الوجه الأول: أن الدخان في غاية الكدورة، والظلمة والسمٰوات في غاية الصفاء والنقاء والشفافية، فإظهار أصفى الأشياء صفاء ولطافة من أشد الأشياء كدورة وظلمة

الحمل ويُسمى الثور، وتارة بصعود الدعوات والتضرعات من الأرضين إلى أعلى السمٰوات كما قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10].

(الثالث) أن يحمل هذا الفتق على نزول القضاء والقدر من معاقد عِزّه على أركان عرشه ومن أركان عرشه إلى عالم[1] السمٰوات ثم إلى بقاع[2] الأرضين ثم قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5]، وتمام الكلام في تحقيق نزول القضاء والقدر وعروجه سيأتي إن شاء الله في باب تحقيق القضاء والقدر.

(1) عالم في (أ) أركان.
(2) بقاع ساقط من (أ) وتارة ساقط من (ب).

الدخان الكثيف هذه الأجرام النورانية الباقية المحفوظة فأي عجب فيما[1] لو أعاد الحياة إلى البدن بعد صيرورتها تراباً رميماً وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: 81] فالخلاّق إشارة إلى كمال القدرة وهي القدرة النافذة في جميع أجزاء الممكنات والمبتدعات[2] المستولية على كل أحوال المحدثات والكائنات وقوله العليم إشارة إلى كمال علمه المتعلق بجميع الجزئيات والكليات والحاضرات والغائبات والذوات والصفات والموجودات والمعدومات، ولا شك أن مدبر العالم متى كان موصوفاً بهاتين الصفتين كان كل عسير بالنسبة إلى كمال قدرته يسيراً، وكل صعب بالنسبة إلى عظمة قهارته وجلاله هيّناً فتبارك الله رب العالمين.

الموضع الثاني: من المواضيع التي اشتمل عليها هذه الآية في بيان ابتداء تخليق العالم قوله تعالى:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] وللناس في هذه الآية قولان:

أحدهما: أن هذا الأمر والإجابة محمولان على لسان الحال لا على ظاهر المقال ويدل عليه وجوه:

الأول: أن السمٰوات والأرضين جمادات والأمر بالجماد[3] لا يليق بالحكمة.

الثاني: أنّها بتقدير أن تكون أحياء عاقلة فاهمة لكنها لا تقدر على التصرف في أنفسها وفي ذواتها لأن المتصرف في الشيء متقدم بذاته وصفاته على ذلك التصرف وتقدم الشيء على نفسه محال فثبت أنه يمتنع كونها قادرة على التصرف في نفسها.

الثالث: أنه سبحانه نصّ في محكم التنزيل على[4] أنه سبحانه هو الخالق

---

(1) فيما ساقط من (ب).
(2) والمبتدعات في (ب) والمبدعات.
(3) والأمر بالجماد في (أ) وأمر الجماد.
(4) في (أ) التنزيل كونها قادرة على.

من أدل الدلائل على كمال القدرة ونهاية الحكمة. ثم الذي يزيد هذا الكلام تقريراً وإيضاحاً ما روي في الخبر أنه ﷻ خلق جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم سلط الحرارة على ذلك الماء فارتفع منه زبد وعلاه دخان فخلق الأرض من الزبد وخلق السمٰوات من الدخان، ثم إن الزبد يكون في غاية البياض والصفاء، والدّخان يكون في غاية الظلمة والكدورة فخلق الأرض الكدرة المظلمة من الزبد الأبيض الشفاف وخلق السمٰوات الشفافة الصافية من الدخان الكدر المظلم استدلالاً[1] بإخراج الضد من الضد على كمال القدرة ونهاية الحكمة ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: 80].

والنظير الثاني لهذا المعنى أن النار نورانية صافية[2] والتراب ظلماني كدر ثم خلق إبليس من النار وأغواه في ظلمات الكفر والضلال وخلق آدم من التراب ورباه بأنوار الهداية والإرشاد حتى يعرف الإنسان أن الكل من الله تعالى وبتقدير الله.

الوجه الثاني: أن الدخان مما يعمي العين ويبطل البصر ثم أنه تعالى زين السماء الدنيا[3] بزينة الكواكب وجعلها بحيث أن النظر إلى السماء وإلى الكواكب يزيد البصر قوة وكمالاً وجعل لون السماء الزرقة وهي أنصع الألوان ليعلم الإنسان أنه هو الذي يقلب الشيء عن صورة[4] إلى ضدها، فيعرف به كمال قدرته وحكمته.

الوجه الثالث: أن الدخان يكون سريع التفرق والتلاشي، ثم أنه تعالى وصف السمٰوات بأضداد هذه الصفات فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ وقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبإ: 12] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [قٓ: 6].

الوجه الرابع: أن الدخان إذا توسط بين الناظر والمنظور إليه صار حجاباً بينهما ثم أنه تعالى خلق الكواكب النيرة في أجرام الأفلاك وعمق ثخنها مع أنه لم يصر شيء من أجرام الأفلاك حاجباً بين تلك الأنوار وبيننا، وكل هذه الأحوال يدل على أنه سبحانه هو القادر الذي يقلب الشيء من الضد إلى الضد، فلما قدر على أن يخلق من

---

(1) استدلالاً في (ب) ليستدل.
(2) صافية ساقط من (ب).
(3) الدنيا ساقط من (ب).
(4) صورة في (ب) صفة.

فكذا هٰهنا فهذا تمام الكلام على تقرير هذا القول.

الوجه الثاني: أنه لا يبعد في قدرة الله أن [خلق][1] فيها الفهم والعقل ثم أمرها وخاطبها فقال للسمٰوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] والذي يدل عليه وجوه:

الأول: الدلائل التي ذكرناها من القرآن والمعقول على أن الحيوانات عارفة ربّها[2]، وإذا لم يبعد خلق العقل ومعرفة الله تعالى في الحيوانات فأيّ بعد في خلق الحياة والفهم في أجرام الأفلاك؟!

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143] والتجلي لا يمكن إلّا بعد خلق الفهم والإدراك.

الثالث: قوله ﷻ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: 10].

الرابع: قوله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يٰس: 65].

الخامس: قوله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: 72].

وبالجملة فهذا الاستبعاد زائل عند الاعتراف بكونه ﷻ قادراً على جميع[3] الممكنات عالماً بكل المعلومات.

ومما يدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ولو كانت السمٰوات جمادات لكان حق اللغة أن يقال: أتينا طائعات فدل قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ على أنه تعالى خلق فيهما[4] الفهم والعقل في ذلك الوقت.

---

(1) [خلق] في الأصلين يخلق.
(2) ربّها في (ب) بربّها.
(3) جميع في (ب) كلّ.
(4) فيهما في (ب) فيها.

لذوات[1] السمٰوات فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: 1] ثم بيّن في آية أخرى أنه سبحانه خلقها من العدم المحض والنفي الصرف فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم بيَّن في آية أخرى [2] أنه جعلها سبعاً شداداً فقال: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبإ: 12]، وبين أنه جعلها سقفاً محفوظاً فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، ثم بين أنه ﷻ الذي رفعها بغير علاقة ولا دعامة فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، ثم ذكر الله، سبحانه أنه[3] هو الذي وصف جميع أجرام السمٰوات بجميع صفاتها وأحوالها ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 28 - 29] وإذا ثبت بهذه الآيات[4] المتأكدة بالبراهين العقلية أن المدبر والمقدر والمتصرف والخالق والموجد لذوات هذه السمٰوات ولصفاتها هو الله سبحانه لم يكن في أمرها فائدة ثم قالوا[5] والأمر والإجابة هاهنا عبارتان عن سرعة نفوذ قدرته ومشيئته بلا مانع ولا معارض ولا منازع.

ونظيره قول العرب: قال الجدار للوتد: لِمَ تشقى؟ فقال[6]: سل من يدقني؛ فإنّ الذي ورائي ما خلاني، وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: 40].

والمراد من هذا الأمر هو سرعة التكوين؛ وذلك لأنه إن أمره وهو معدوم فذاك محال، وإن أمره بعد الوجود فلا يمكن أن يقال للموجود كن موجوداً.

وأيضاً قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44] والمراد منه التسبيح بلسان الحال لا التسبيح بلسان المقال، فإن الجمادات لا قدرة لها على النطق. وأيضاً قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: 18] وقال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمٰن: 6] ومعلوم أن سجود الدوابّ[7] والشجر لا يكون إلّا بلسان الحال

---

(1) لذوات في (ب) لذات.
(2) في آية أخرى ساقط من (ب).
(3) أنه ساقط من (ب).
(4) الآيات في (أ) الآية.
(5) قالوا في (أ) قال.
(6) فقال: في (ب) قال.
(7) الدوابّ ساقط من (ب).

ثم إنّ المُمكن لذاته ما لم يجب وجوده لأجل ترجيح مؤثر، لم يوجد فقوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ إشارة إلى ذلك الترجيح والتأثير الحاصل بسبب تخليقه وتكوينه، وذلك الترجيح هو الإلزام لأحد الطرفين لا محالة.

وعند هذه الدقيقة يظهر أن كل ما سوى الله فهو من حيث هو، هو غير موجود بل وجوده من إيجاد[1] الحق وبقاؤه من إبقاء الحق وعدمه من إعدام[2] الحق فإذا تأمّلت علمت أنه لا موجود بالحق إلاّ الحق.

كما قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88].

السؤال الثاني: قال ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصّلت:12]، واليوم عبارة عن مدة حركة الشمس بحسب الطلوع والغروب فقبل خلق الفلك يمتنع حصول اليوم.

والجواب: المدة أمر وراء دور الفلك؛ وذلك لأن الحق سبحانه قديم والعالم محدث[3]؛ فتقدم[4] الباري على العالم ليس بسبب دور الفلك وحركة الشمس والقمر.

وأيضاً فالزمان إما أن يكون قديماً أو حادثاً.

فإن كان قديماً كان مستمراً من الأزل إلى الأبد، فذلك الاستمرار لا يكون لأجل الزّمان وإلاّ لزم افتقار كل زمان إلى زمان آخر لا إلى نهاية وذلك محال؛ فثبت أن تعقل الاستمرار[5] والدوام لا يتوقف على وجود الزمان.

وإن كان الزمان محدثاً كان عدمه مستمراً من الأزل إلى الأبد فلا يكون ذلك الاستمرار موقوفاً على وجود الفلك وحركة الشمس والقمر. إذا ثبت هذا فنقول:

هذا الاستمرار هو الذي يسميه المتكلمون بالزمان المقدر والمدّة المفروضة، فتلك

---

(1) إيجاد: في (ب) اتحاد.
(2) إعدام: في (أ) عدم.
(3) محدث: في (ب) حادث.
(4) فتقدم: في (أ) فقدم.
(5) الاستمرار: في (ب) الاستمرارات.

واعلم أنّا سواء حملنا[1] هذا الأمر والإجابة على لسان الحال أو على لسان المقال فذلك[2] يدل على كمال عظمة الله ونهاية كبريائه وقدسه وعزته، وذلك يدل على أن كُلّ ما كان غائباً عن الحس والخيال والعقل فإنه لا سبيل إلى معرفة جلالته وعظمته إلا بمعرفة عظمة[3] آثار مخلوقاته ولا شك أن السمٰوات والأرضين أجسام في غاية من العظم والشدة والاتساع ثم إنّها مع ذلك منقادة لأمر الله وتسخيره وقهره وقدرته وتكوينه وتخليقه وذلك يدل على قدرة لا نهاية لكمالها، وحكمة لا غاية لجلالها.

ودليل إجابة[4] السمٰوات والأرضين على كمال عظمة الله تعالى قوله جلّ وعزّ في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود: 44] فإن هذا النداء يدل على كون السمٰوات والأرضين مسخرة في قبضة قدرته وتصريف [حكمه][5]؛ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]

الموضع الثالث: في ذكر الآية[6] قوله جلّ جلاله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12] وفيه سؤالان:

السؤال الأول: القضاء هو الإلزام، وذلك مشعر بسبق منازعة وقد دلت الآية على أنه ما كان فيها منازعة ومدافعة حيث قال مخبراً عنها: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾.

والجواب: لا نزاع في أنّ القضاء عبارة عن الإلزام لكن يجب أن يعلم أن ما سوى الله ممكن الوجود لذاته، والممكن هو الذي تكون[7] نسبة الوجود والعدم إليه على السوية، وإذا استوى الطرفان لم يكن في ذاته اقتضاء[8] ولا استلزام لا للوجود ولا للعدم.

---

(1) حملنا: في (أن) علمنا.
(2) فذلك: في (أ) وذلك.
(3) عظمة: ساقط من (أ).
(4) ودليل إجابة في (ب) ونظير دلالة إجابة.
(5) [حكمه] في الأصلين حكمته.
(6) في ذكر الآية في (ب) في هذه الآية.
(7) تكون: ساقط من (أ).
(8) اقتضاء: في (ب) قضاء.

حكمة وأسرار لا يعلمها إلا هو.

السؤال الرابع: لا شك[1] أن العالم الأكبر هو هذا العالم بما فيه من السمٰوات والأرضين والعالم الأصغر هو الإنسان، ولا شك أن العالم الأكبر أعلى وأعظم من العالم الأصغر، فإن العقل يدل عليه وكذا القرآن، قال ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57] ثم إنه تعالى خلق العالم الأكبر في ستة أيام وخلق العالم الأصغر[2] في ستة أشهر بدليل أنه تعالى قال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15] ثم قال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: 233] فإذا أسقطنا مدة الرضاعة هي أربعة وعشرون شهراً عن ثلاثين شهراً بقي[3] الباقي لمدة الحمل ستة أشهر فما الحكمة في أن[4] جعل مدة تخليق العالم الأكبر ستة أيام ومدة[5] تخليق العالم الأصغر ستة أشهر؟

والجواب من وجوه:

الأول: أنا بيّنا أن الحكمة[6] قد تقتضي تخليق بعض الأشياء على سبيل التدريج إلا أنا بينا أن التخليق على سبيل التدريج يوهم العجز والحاجة إلى المادة والمدة والحق ﷻ أزال هذا الإشكال بأن خلق العالم الأكبر في ستة أيام وخلق العالم الأصغر في مدة ستة أشهر ليعلم الخلق أن التخليق على سبيل التدريج ليس لأجل العجز والحاجة إذ لو كان الأمر كذلك لكان تخليق العالم الأكبر في مدة أطول أولى فسبحان من له تحت كل شيء حكمة قدسية إلٰهية.

والثاني: قال بعضهم أنه تعالى لما أراد أن يخلق السماء[7] والأرض كان جبريل وميكائيل وسائر أكابر الملائكة عقلاء مكلفين فخلق الله العالم على مهل حتى يمكنهم الوقوف على دقائق الحكمة في ذلك التخليق.

---

(1) لا شك: ساقط من (ب).
(2) العالم: ساقط من (أ).
(3) (عن ثلاثين شهراً بقي) ساقط من (أ).
(4) أن ساقط من (ب).
(5) ومدة ساقط من (ب).
(6) أن الحكمة إلى قوله أن التخليق ساقط من (ب).
(7) أن يخلق السماء في (ب) تخليق السموات.

المدة المقدّرة المفروضة هي المشار إليها بقوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ وهذا كلام دقيق لا يتم المقصود منه إلاّ بالكشف عن حقيقة الدهر والزمان وذلك من محارات العقول.

السؤال الثالث: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فبيّن أن تخليقه وتكوينه لا يحصل إلاّ على هذا الوجه، وهذا يناقض قوله في هذه الآية: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

والجواب: أنه سبحانه قادر على الإيجاد دفعة واحدة وهو المراد بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وقادر أيضاً على الإيجاد جزءًا فجزءًا على سبيل التدريج، وأنه سبحانه فاعل مختار، وفي كل واحد من الوجهين حكم[1] وأسرار:

أمّا الحكمة في الإيجاد على سبيل التدريج هو أنّه لو حصلت مخلوقاته كلّها دفعة واحدة بحيث لا يخلق شيئاً أصلاً بعدها[2] أشبه ذلك تأثير ما يكون بالطبع وبالغلبة لا بالقدرة والاختيار؛ فإن الشمس إذا طلعت حصلت الإضاءة دفعة واحدة[3]، والسراج إذا حضرت حصلت الإضاءة دفعة، والنار إذا حضرت حصل التسخين والإحراق دفعة، فلو حصلت أفعاله دفعة واحدة لما تميزت فاعليّته في عقولنا وأفكارنا عن تأثيرات العلل والموجبات[4] والطبايع.

وأمّا الحكمة في الإيجاد دفعة واحدة هي[5] أن أفعاله ﷻ لو حصلت أبداً على سبيل[6] التدريج ولم يحصل منها شيء دفعة لكان ذلك يوهم العجز والاحتياج[7] في الخالقية إلى مدة وآلة، ولمّا كان الأمر كذلك فلا جرم تارة يفعل ويخلق دفعة لئلا تبقى شبهة العجز والحاجة، وتارة على سبيل التدريج لئلا تبقى شبهة أنه موجب بالذات ومؤثر بالطبع، فهذا ما وصل إليه العقل[8] المختصر، وله ﷻ تحت كل فعل

---

(1) حكم في (أ) حكمة.
(2) بعدها: ساقط من (ب).
(3) واحدة: ساقط من (ب).
(4) والموجبات في (أ) والموجدات.
(5) هي: في (ب) هو.
(6) سبيل: ساقط من (ب).
(7) والاحتياج: في (أ) والحاجة والاحتياج.
(8) إليه العقل: في (ب) إليه هذاا لعقل.

التدحية من لوازم تخليق ذات الأرض ثبت بالنص أن التدحية متأخرة عن تخليق السماء لزم أن يكون تخليق الأرض متأخراً عن تخليق السماء وحينئذ يعود الإشكال.

الثاني: الدلائل الاعتبارية دلت على أن الأرض الآن كرة وأيضاً أنه تعالى قال في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:29] وهذا يدل على أن خلق الأرض وخلق ما فيها مقدم على خلق السماء[1]، لكن من المعلوم أن خلق الأشياء في الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوة، فهذه الآية تقتضي تقدم كون الأرض مدحوة على خلق السماء وحينئذ يعود السؤال، ومما يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:9-11] فهذه الآية تقتضي أنه تعالى جعل في الأرض رواسي من فوقها وبارك فيها بخلق البحار والأشجار والثمار، وقدر فيها أقواتها بخلق الزروع منها وكل ذلك حصل قبل خلق السمٰوات ومعلوم أن خلق الرواسي والأشجار والزروع لا يمكن إلا بعد تدحية الأرض فصارت هذه الآية مع الآية المذكورة في سورة البقرة تدلان على أن تدحية الأرض[2] حصلت قبل تخليق السماء وحينئذ يعود الإشكال، وأيضاً يقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: 30 - 32] يدل على أن[3] إخراج الماء وإرساء الجبال وتخليق المرعى كل ذلك وقع متأخراً عن تخليق السماء والآية الواردة في السجدة صريحة في أن كل ذلك قبل تخليق السماء[4] وحينئذ يعود الإشكال.

القول الثاني: في هذه المسألة قول من قال أن[5] السماء مخلوقة قبل الأرض واحتجوا عليه بالنقل والعقل، أما النقل (**فالحجة الأولى**) قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ وقد بينا في ما تقدم[6] أن كون الأرض مدحوة من لوازم وجود الأرض

---

(1) وهذا إلى قوله لكن من ساقط من (أ).
(2) على أن تدحية الأرض في (ب) على التدحية وأنها.
(3) أن ساقط من (أ).
(4) والآية إلى وحينئذ ساقط من (ب).
(5) أن ساقط من (أ).
(6) في ما تقدم في (ب) في الأول.

والثالث: لا يبعد أن يقال أنه تعالى خلق العالم على التدريج وأخبر عن ذلك حتى يصير ذلك شبهة في تخيّل العجز والحاجة في قدرة الله تعالى وهذا نوع ابتلاء وامتحان كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7] حتى أن الموافق يعلم أن ذلك التدريج ليس للعجز والحاجة بل للعبرة والحكم وكان هذا الابتلاء سبباً لمزيد الثواب في حق الموافقين ويظهر بسبب هذا المعنى أن هذا الدار دار ابتلاء وامتحان.

والرابع: أنه ﷻ بيّن في هذه الآية أنه خلق[1] الأرض في يومين ثم خلق[2] كل ما في الأرض من الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوانات في يومين آخرين، ثم خلق السمٰوات السبع بما فيها من الشمس والقمر والنجوم والجبال[3] والعجائب والآيات في يومين آخرين، والحكمة فيه أنه لا نسبة للأرض وما فيها إلى السمٰوات وما فيها فإن الأرض في جنب السمٰوات كالقطرة في جنب البحر، فلما خلق الأرض على صغرها في يومين وخلق السمٰوات على كبرها وغاية عظمتها في يومين عرف أن ذلك التدريج ما كان لأجل العجز والحاجة بل لحكمة بالغة وأسرار خفية تعجز عقول الخلق عن الوقوف عليها.

(السؤال الخامس) أن قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يدل على أن تخليق السمٰوات متأخر عن تخليق الأرض، وقوله في سورة النازعات [30]: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يقتضي أن تخليق الأرض وقع بعد تخليق السماء وحينئذ يحصل التناقض بين الآيتين:

والجواب أن فيه قولين:

(الأول)[4] أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ثم خلق السمٰوات ثانياً ثم دحى الأرض بعد تخليق السماء لأن التدحية عبارة عن البسط وحينئذ يزول التناقض بين الآيتين. واعلم أن على هذا القول إشكالين:

الأول: أن الأرض جسم عظيم يمتنع انفكاك تخليقها[5] عن التدحية فإذا كانت

(1) خلق في (ب) في خلق.
(2) ثم خلق في (ب) وخلق.
(3) والجبال ساقط من (ب).
(4) الأول في (ب) أحدهما.
(5) تخليقها في (أ) تدحيتها.

إبراهيم ﷺ من قوله (يحيي ويميت) إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258] والله أعلم.

السؤال السادس: أنه تعالى قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 9] ثم قال: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: 10] فيكون المجموع ستة، ثم قال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12] فيكون المجموع ثمانية أيام فظاهر هذه الآية يقتضي أنه تعالى خلق السمٰوات والأرض في ثمانية[1] أيام فيكون هذا مناقضاً لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54].

والجواب: أن تخليق الأرض حصل في يومين وتخليق الجبال وغيرها[2] حصل في يومين آخرين وكان المجموع أربعة، وهو المراد بقوله: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 10] ثم يحصل تخليق السمٰوات في يومين آخرين فكان مجموع الأيام ستة، فقد زال السؤال والإشكال في هذه الآية الموضع الرابع[3] قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ وسنذكره إن شاء الله في[4] باب الملائكة.

---

(1) ثمانية في (ب) ستة.

(2) وغيرها في (أ) بعدها.

(3) الموضع الرابع ساقط من (أ).

(4) باب في (ب) آيات.

لأنها جسم عظيم والجسم العظيم وإن كان كرة إلا أن كل قوس[1] منها يكون في المنظر على شكل المستقيم[2] فيكون مدحوة لا محالة.

(الحجة الثانية) قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ سماها سماء حال الاستواء إليها ثم إنه تعالى جعلها بعد ذلك سبعة وهي المراد من قوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصّلت: 12].

وهذا صريح في أنها كانت سماء قبل ذلك ثم صيرها الله سبعة بعد ذلك.

الحجة الثالثة: قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] فقدم السماء في الذكر على الأرض[3].

وأما المعقول فمن وجوه:

الأول: أن السماء كالزوج والأرض كالزوجة والسماء كالغني والأرض كالفقير فكان تخليق السماء قبل تخليق الأرض.

الثاني: أن السماء مسكن الملائكة والأرض مسكن البشر والملائكة قبل البشر وكان تخليق مسكنهم قبل تخليق مسكن البشر أولى: بقي أن يقال: ما معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ في سورة البقرة وفي سورة السجدة؟ فنقول فيه وجهان:

الأول: أن لا يكون المُراد من كلمة «ثم» الترتيب في الوجود بل المُراد الترتيب في الذكر كقول الرجل: أنت كذ وكذا ثم أنت بعدها كذا، ويكون المُراد الترتيب في الذكر، قال الله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: 13 - 14] إلى قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ والمُراد منه الترتيب في الذكر.

الثاني: لعل السبب في تقديم ذكر الأرض على السماء هو أن الأرض أقرب إلينا من السماء أو لأجل أن السماء أعظم من الأرض وآياتها أعظم من آيات الأرض والانتقال من الحجة إلى الحجة إنما يحسن من الأدنى إلى الأعلى كما انتقل

(1) قوس في (ب) فرسخ.
(2) شكل المستقيم في (ب) الشكل المستقيمة.
(3) على الأرض ساقط من (أ).

وثانيها: قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: 110] أي: تقدر.

ثالثها: أن يسمى الكذب خلقاً واختلافاً يقال: هذا حديث مخلوق ومختلق أي كذب لا أصل له، قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17] أي تقدرون كذباً، وقال حكاية عن الكفار: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 137] يريدون الكذب، والسبب في تسمية الكذب بالخلق والاختلاق لأن الكاذب يضمر ذلك الكذب في ذهنه ويقدره في خاطره.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59] قدم التخليق على التكوين، فدلّ على أن التخليق عبارة عن التقدير وهو متقدم على التكوين، وأما الشعر فكقول زهير:

لأنت تفري ما خلقت ... وبعض القوم تخلق ثم لا يفرى

وقال[1]:

ولا تنط بأيدي الخالقين ... ولا يدي الخوالق الأجدا لآدم

وأما الاستشهاد: فيقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بالمقياس، ومنه قول العرب للمقدار المعين من الخلق: الخلاق، ويقولون: هو خليق بكذا، أي: جدير به، أي: حقيق، أي هذا الشيء على قدر استحقاقه، والصخرة الخلقاء: الملساء لأن الملاسة عبارة عن صيرورة جميع أجزاء الشيء بقدر واحد، ومنه أخلق الثوب: إذا بلى وصار أملس واستوى جميع أجزائه؛ فثبت بهذه الوجوه أن الخلق عبارة عن التقدير، وهذا الذي قلناه هو قول جمهور المعتزلة، ثم القائلون بهذا القول[2] اختلفوا فقال أبو عبد الله البصري منهم: إطلاق اسم الخالق على الله محال في الحقيقة لأن التقدير عبارة عن الفكر والنظر والحسبان وذلك في حق الله محال. وقال تلميذه القاضي عبد الجبار بن أحمد: التقدير عبارة عن العلم بعواقب الشيء وهذا المعنى حاصل في حق العبد وفي[3] حق الله تعالى ،أما في العبد فإنه قد يحصل له هذا العلم بناء على

(1) وقال. . . هذا البيت ساقط من (ب).
(2) بهذا القول ساقط من (أ).
(3) في ساقط من (أ).

الفصل الثالث: في الاستدلال بصفات السموات وأحوالها الموجودة في هذا الوقت على أن لها صانعاً ومدبراً

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ إلى قوله: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 3-5]، وقال في سورة آل عمران [190]: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ﴾ وقال في أول سورة الأنعام [1]: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ وقال في هذه السورة حكاية عن الخليل ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ وقال في سورة الأعراف [54]: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ وقال في أول النحل [3]: ﴿خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ وقال في أول سورة سبأ [1]: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقال في سورة الملائكة [1]: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفي القرآن في هذا الجنس آيات كثيرة.

وأقول أن[1] هذا البحث لا يتخلص إلا بذكر[2] مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير لفظ الخلق بحسب اللغة نقول: المشهور في اللغة أن الخلق عبارة عن التقرير واحتجوا عليه بالقرآن والشعر والاستعمال:

أما القرآن فآيات:

أحدها: قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ الْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14] أي: المُقَدِّرين.

(1) ساقط من (ب).
(2) ذكر ساقط من (ب).

المتكلمين[1]: الخلق غير المخلوق ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أجمعت الأمة على أنه ﷻ خالق، والخالق من كان موصوفاً بالخلق والله ﷻ موصوف بالخلق، وغيره موصوف بالمخلوق باتفاق العقلاء، فعلمنا أن الخلق غير المخلوق.

الحجة الثانية: إذا خطر ببال أحد[2] أن هذا الشيء يمكن أن يوجد ويمكن أن يبقى على العدم يقضي[3] العقل بأنه لا يمكن دخوله في الوجود إلا بإيجاد موجد وتخليق خالق[4]، فإذا قد علمنا وجود المخلوق بالتخليق وحصول المكون بالتكوين والإيجاد، فلو كان الخلق والإيجاد والتكوين عبارات[5] عن وجود المخلوق لكان قولنا: المخلوق إنما وجد لأن الخالق خلقه عائد إلى أن المخلوق إنما وجد لذاته ولأنه مخلوق وذلك يوجب استغناءه عن الخالق[6] ووقوعه بذاته فكل ذلك محال.

الحجة الثالثة: أنا قد نعقل وجود هذا المخلوق وذاته ونعقل وجود ذلك الخالق وذاته مع الشك في كون ذلك الشيء خالقاً لهذا الشيء، وكون هذا الشيء مخلوقاً لذلك الشيء والمشكوك فيه مغاير للمعلوم وكون الشيء خالقاً لذلك الشيء لا بد وأن يكون أمراً زائداً على ذات الخالق وذات المخلوق، وهذا يفيد القطع بأن الخلق[7] غير المخلوق ثم قال جمهور المتكلمين الخلق يمتنع أن يكون مغايراً للمخلوق[8].

ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الخلق إن كان قديماً لزم من قدمه قدم المخلوق، وإن كان حادثاً افتقر إلى خلق آخر ولزم التسلسل.

الحجة الثانية: أن الخلق كان محدثاً افتقر إلى خالق وإن كان قديماً كان من

---

(1) جمع من المتكلمين في (أ) جميع المتكلمين.
(2) أحد في (ب) العاقل.
(3) يقضي في (ب) قضى.
(4) خالق ساقط في (أ).
(5) عبارات في (ب) عبارة.
(6) الخالق في (ب) الخلق.
(7) الخلق في (ب) الخالق.
(8) للمخلوق في (أ) وهامش (ب) كنسخة ثانية للقدرة.

الأمارات اللائحة والواضحة وبسبب الفكر والرّوية، وأما في حق الله تعالى فلا شك في حصوله وإذا كان الأمر كذلك كان إطلاق لفظ الخالق[1] على الله تعالى وعلى العبد على سبيل الحقيقة. وأما أصحابنا من أهل السنة والجماعة فقالوا: الخلق حقيقة في الإيجاد والإبداع والاختراع والذي يدل على هذا وجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى في أول سورة الفرقان [2]: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ولو كان الخلق عبارة عن التقدير لصار تقدير الآية: وقدر كل شيء فقدره تقديراً ومعلوم أنه تكرير من غير فائدة، أما إذا حملنا الخلق على معنى[2] الإيجاد لم يحصل التكرار وانتظم الكلام.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49] ولو كان الخلق هو التقدير لكان قوله: ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ تكريراً من غير فائدة.

الحجة الثالثة: إجماع سلف الأمة على أنه لا خالق إلا الله، وأيضاً فقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24] يقتضي أن لا يحصل هذه الصفات إلا لله سبحانه كما إذا قلت: زيد هو العالم، فإنه يقتضي حصر هذا[3] الوصف فيه، فإذا ثبت أنه لا خالق إلا الله وثبت أن غير الله مصوّر ومقدر علمنا أن أصل الخلق ليس عبارة عن التقدير.

وأما الجواب عن الوجوه التي تمسكوا بها فنقول: الوجوه التي ذكرتم تدل على استعمال لفظ الخلق[4] بمعنى التقدير والوجوه التي ذكرنا تدل على استعمال لفظ الخلق من غير معنى التقدير بل في معنى الإيجاد والإبداع والاختراع فنقول: لا بد من جعله حقيقة في أحدهما، مجازاً في الآخر فنقول: من فرض شيئاً وقدره مع أن ذلك الشيء معدوم فإنه يريد أن يجريه مجرى الموجود، فكان هذا شبيهاً بالإيجاد والإبداع فلأجل هذه المشابهة أطلق لفظ الخلق على التقدير.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن الخلق نفس المخلوق أو غيره فقال جمع من

---

(1) الخالق في (أ) الخلق.
(2) معنى ساقط من (أ).
(3) أن لا يحصل إلى قوله حصر هذا ساقط من (أ).
(4) بمعنى في (أ) من غير معنى.

واعلم أن أليق الوجوه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 190] هذا الوجه؛ لأنا ذكرنا أن إطلاق لفظ الخلق على المقدار إطلاق مشهور متعارف.

واعلم أنّا لو ساعدنا على أن لفظ الخلق في اللغة عبارة عن التقدير لكنّا نقول: إنّما صار لفظ الخلق مخصوصاً بفعل الله؛ لأن أفعاله واقعة على وفق علمه ومشيئته من غير زيادة ولا نقصان فلمّا كان هذا المعنى لا يحصل في فعل غير الله لا جرم، لا يصح استعمال لفظ الخلق إلاّ في فعل الله.

النوع الثاني: في الاستدلال كون بعض الأفلاك أعلى وبعضها أسفل من بعض، وهذا في الجملة معلوم، إلاّ أن أهل علم الهيأة[1] قالوا: أقرب الكواكب إلينا القمر ثم عطارد ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل ثم الكواكب الثابتة.

وذكروا في معرفة[2] هذا الترتيب ثلاثة وجوه:

الأوّل: السّتر[3]: وذلك لأن الكوكب الأسفل إذا مرّ بين أبصارنا وبين الكوكب الأعلى فإنّهما يصيران مثل كوكب واحد في الرؤية ويتميّز الساتر عن المستور بكونه الغالب عليه كصفرة عطارد وبياض الزهرة وحمرة المريخ ودريّة المشتري وكدورة[4] زحل.

ثم إن القدماء وجدوا القمر يكسف الكواكب السيارة[5] وكثيراً من الثوابت التي في طرفيه، في مَمَرّ البروج[6] وكوكب عطارد يكسف الزهرة والزهرة يكسف المريخ والمريخ يكسف المشتري والمشتري يكسف زحل وزحل يكسف الكواكب الثابتة التي تكون في ممرّه؛ فعرفوا هذا الترتيب بهذا الطريق إلاّ أنه **بقي الإشكال من وجوه:**

الأول: أنّ الشمس يحتجب[7] في نورها[8] ما هو أعلى منها وما هو أسفل

(1) أهل علم: في (ب) علماء أهل.
(2) معرفة: في (ب) معنى.
(3) الستر: في (ب) السترة.
(4) كدورة: في (ب) كمودة.
(5) السيارة: في (أ) الثابتة.
(6) وكوكب: في (أ) كوكب بدون الواو.
(7) يحتجب: في (ب) تحجب.
(8) في نورها: في (أ) في نور.

لوازم ذات الباريء تعالى فلا يكون ثبوته واقعاً بقدرة الباري واختياره، ثم إن الخلق مستلزم لوجود المخلوق لأنه لا يتصور في العقل حصول الخالق مع أنه لا يترتب عليه وجود المخلوق أصلاً إذا ثبت هذا فنقول: ذاته تعالى مستلزم للخلق والخلق مستلزم للمخلوق ومستلزم المستلزم مستلزم، فذات الله تعالى مستلزم لوجود المخلوق، فلا يكون وقوع المخلوق باختيار الله تعالى ومشيئته بل يكون ذاته تعالى موجباً لوقوع المخلوقات وحينئذ يكون ذاته موجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار وهو باطل.

الحجة الثالثة: أن المراد من القدرة الصفة المؤثرة والمراد من الإرادة الصفة المرجحة فإذا حصل مجموع القدرة والإرادة فقد حصل تمام المؤثر وأما وقوع المخلوق فهو الأثر ويمتنع أن يحصل بين المؤثر المستقل التام وبين الأثر واسطة فهاهنا مجموع الإرادة والقدرة وهاهنا الأثر الحاصل منهما، وإذا كان الأمر كذلك بطل القول بأن الخلق صفة زائدة على القدرة والإرادة[1] وهو المطلوب.

الحجة الرابعة: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 190] والذي يمكن جعله آيات ودلائل على أنه سبحانه هو خالق[2] هذه المخلوقات لا الصفة القائمة بذات الله تعالى، فعلمنا أن المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو هذه المخلوقات وكيفية تقدرها بالصفات المخصوصة بالأحوال المخصوصة له.

المسألة الثالثة: اعلم أن الاستدلال بالسمٰوات على وجود الصانع ﷻ يقع على وجوه:

الأول: الاستدلال بمقادير هذه الأفلاك فإنها مع اشتراكها في طبيعته الفلكية اختص كل واحد منها بثخن معين وضخامة معيّنة، مع أنه لا يمتنع في العقل وقوعه على أزيد من ذلك المقدار أو أنقص منه بذرّة.

فلمّا اختص كل واحد منها بمقداره الخاص مع أن المقادير بأسرها على السوّية، قضى العقل بافتقار هذا المقدار المعين إلى مخصص ومرجح وذلك هو الله سبحانه.

---

(1) والإرادة ساقط من (أ).
(2) خالق ساقط من (أ).

حصوله في ذلك الموضع الذي حصلت الثغرة فيه وإذا ثبت ذلك ظهر أن الاجتماع والافتراق والاتصال الانفصال جائزان[1] على جميع أجزاء الفلك كل واحد منهما بدلاً عن الآخر.

وإذا كان الأمر كذلك، كان حصول الثغرة في أحد جوانب الفلك وحصول الاتصال في سائر جوانب ذلك الفلك أمراً جائزاً فلا يمكن حصوله إلّا لمرجّح ومخصص ومدبر قادر مختار وذلك هو المطلوب.

النوع الرابع: من الاستدلال بأحوال الأفلاك[2] هو أن كل كرة من كرات الأفلاك فإنها تدور على قطبين معينين، وإذا كان الفلك متشابهة الأجزاء كان جميع النقط المفروضة عليها متساوية وجميع الدوائر المفروضة عليها متساوية، فاختصاص النقطتين المعينتين بالقطب دون سائر النقط مع استوائها في الماهية[3] والحقيقة يكون أمراً جائزاً فيقتضي العقل افتقاره[4] إلى المرجح المريد[5] القادر المختار.

النوع الخامس: من الاستدلال أن الأجرام الفلكية مع تشابهها في الجسمية وقبول الأعراض اختص كل واحد منها بنوع معين من الحركة في البطء[6] والسرعة، فانظر إلى الفلك مع نهاية اتساعه وعظمته تدور في كل يوم وليلة دورة تامّة والفلك الثامن الذي[7] هو أصغر منه لا يدور دورة تامة إلّا في ستة وثلاثين ألف سنة على قول القدماء وفي أربعة وعشرين ألف سنة على قول المتأخرين.

ثم الفلك السابع الذي تحته[8] يدور في ثلاثين سنة دورة تامّة، واختصاص الفلك الأعظم بتلك السرعة الشديدة والفلك الثامن بذلك البطء العظيم أمر على خلاف

---

(1) جائزان: في (أ) جائز.
(2) الأفلاك: في (ب) الكواكب.
(3) في الماهية: في (أ) في جميع الماهية.
(4) فيقتضي العقل افتقاره: في (ب) فيقضي العقل بافتقاره.
(5) المريد: في (ب) المدبّر.
(6) في البطء: في (أ) والبطء.
(7) الذي: في (أ) هو الذي.
(8) الذي تحته: في (أ) الذي يدور تحته.

منها[1]، وحينئذ لا يمكن أن يعلم بهذا الطريق موضع الشمس.

الثاني: هب أن هذه السيارات تكسف الثوابت التي تكون[2] على ممرها لكنها[3] لا تكسف الثوابت التي لا تكون في جانبي القطبين، فلِمَ لا يجوز وجود كرة أخرى تحت كرة القمر تكون هذه الثوابت مركوزة فيها وتكون حركة هذه الكرة مشابهة لحركة كرة الثوابت؟!

وعلى هذا الطريق لا يختلف أوضاع الثوابت ألبتة؛ فلهذه الاعتراضات ظهر ضعف عقولهم في معرفة هذا التّرتيب.

إلاّ أن وجه الاستدلال بها على الصانع المختار على جميع الاحتمالات لا يختلف، وذلك لأن كل فلك فإنه يماس بمحدّبه فلكاً آخر فوقه وبمقعره فلكاً آخر تحته، وذلك الفلك متشابهة الأجزاء متشابهة الجوانب فكل ما يصحُّ على أحد جانبيه وجب أن يصح على الجانب الآخر منه؛ فالفلك الفوقاني الذي لقيه بمحدبه يصح أن يلاقيه بمقعره، والفلك التحتاني الذي لقيه بمقعره يصح أن يلاقيه بمحدّبه، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أنّه يصحّ أن يحصل الفلك الأعلى في الأسفل والأسفل في الأعلى، ومتى كانت كل[4] هذه الاحتمالات جائزة امتنع اختصاص كلّ واحد من الأفلاك بحيزه الذي فيه وبموضعه الذي هو فيه إلاّ بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وتكوين مكون قادر حكيم عالم وهو الله ﷻ.

النوع الثالث: من الاستدلال بأحوال الفلك: أنّ كلّ كوكب حصل في فلك فإنه حصل في ثغرة معيّنة حصلت في جانب معين[5] من ذلك الفلك ثم إن القوم اتفقوا على أن الفلك بسيط غير مركب والجسم البسيط ما هو الذي تكون له طبيعة واحدة متشابهة.

فلمّا أمكن حصول الثغرة[6] في ذلك الجانب من الفلك أمكن[7] حصوله في سائر جوانب ذلك الفلك، وكما أمكن حصول الاتصال في سائر جوانب الفلك أمكن

---

(1) منها: في (أ) منهما.
(2) تكون: ساقط من (أ).
(3) لكنها إلى قوله في جانبي ساقط من (ب).
(4) كلّ: ساقط من (أ).
(5) معين: ساقط من (أ).
(6) الثغرة: في (ب) نقرة وكذا في فيما يأتي.
(7) أمكن: في (أ) يمكن.

الحركة وبين الأزل محال.

ولمّا بطل هذا القسم ثبت أنّه لا حركة في الأزل، سواء قلنا: ذوات الأفلاك كانت موجودة في الأزل ساكنة أو قلنا: بأنّها كانت معدومة في الأزل.

وعلى القولين لا بد من الاعتراف بالقادر المختار الحكيم؛ لأنا إن قلنا بأنها كانت موجودة وكانت ساكنة ثم تحركت فيما لا يزال، فلا بد من قادر حكيم مختار يُحركه بعد أن كان ساكناً.

وإن قلنا إنّه كان معدوماً في الأزل فلا بد أيضاً من قادر حكيم مختار يوجده في لا يزال[1] بعد أن كان معدوماً في الأزل، فثبت أن على كلا القسمين لا بدّ من الاعتراف بإثبات إلٰه للعالم قادر مختار[2]، وهذا المأخذ أحسن المآخذ وأقواها وأجلاها.

النوع التاسع: إن حركات هذه الأفلاك إمّا أن تكون من لوازم جسميّتها أو لا تكون كذلك.

والأول باطل؛ لأن كل ما كان من لوازم الشيء امتنع زواله[3] مع بقاء ذلك الشيء؛ لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم، لكنا نرى أنّ جسميّة كل واحد من الأفلاك قد ينفك عن كل واحد من الأجزاء المفترضة[4] في الحركات؛ فإذاً كلُّ واحد من أجزاء تلك الحركات ليس من لوازم جسميّته، وليس أيضاً من لوازم صورته المعيّنة وطبيعته المعيّنة وإلاّ عاد المحال المذكور؛ لأن تلك الطبيعة والصورة باقية في كل واحد من أجزاء تلك الحركة[5]، وكل واحد من أجزاء تلك الحركة غير باقي فإذاً لكل واحد من الأجزاء المفترضة في تلك الحركات مدبر ومقدر يحرك[6] الأفلاك والثوابت والسيارات وهو[7] الله ﷻ.

(1) لا يزال: في (أ) الأزل.
(2) بإثبات إلى مختار في (ب) بأن للعالم إلٰهاً قادراً مختاراً.
(3) زواله: ساقط من (أ).
(4) المفترضة: في (ب) المفروضة.
(5) في كل إلى تلك الحركة: ساقط من (ب).
(6) يحرك: في (ب) فمحرك.
(7) وهو: في (ب) هو.

العقل فإنه كان[1] ينبغي أن يكون الأوسع أبطأ حركة والأصغر أسرع حركة فوقوعه على[2] هذا الوجه يدل على أنه بسبب تقدير العزيز العليم القادر الحكيم.

النوع السادس: من الاستدلال أن الفلك الذي يسمونه بالممثل[3] إذا انفصل عنه الفلك[4] الخارج، المركز بقي على مذهبهم منه متممان: أحدهما من الخارج والآخر من الداخل، وإنّه جرم متشابهة الطبيعة ثم اختص أحد جوانب هذا الجسم بغاية الثّخن والآخر بغاية الرّقة، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون ذلك الثخن والرقة بالنسبة إلى طبيعة ذلك الجسم على السويّة، فاختصاص أحد الجانبين بالرقة والآخر بالثخن يدل على القادر المختار.

النوع السابع: من الاستدلال أنها مختلفة في جهات الحركات فبعضها من المشرق وبعضها من المغرب وبعضها شمالية وبعضها جنوبيّة مع أن جميع الجهات بالنسبة إليها على السويّة.

فاختصاص كل واحد منها بجهته[5] المعينة لا بد وأن يكون بتخصيص القادر المختار وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

النوع الثامن: من الاستدلال أنّا نشاهد هذه الأفلاك الآن متحركة فإما أن يقال أنها كانت متحركة في الأزل أو ما كانت متحركة[6] في الأزل إمّا لأنها ما كانت موجودة في الأزل أو لأنها وإن كانت موجودة في الأزل إلاّ أنها ما كانت متحركة في الأزل.

والقسم الأول محال لأن ماهية الحركة عبارة عن الانتقال من حالة إلى حالة[7] أخرى؛ فهذا الانتقال لا محالة يكون مسبوقاً بالمنتقل عنه؛ فحقيقة الحركة تقتضي لماهيّتها أن تكون مسبوقة بالغير، وحقيقة الأزل تنافي المسبوقية بالغير؛ فالجمع بين

---

(1) كان: ساقط من (أ).
(2) فوقوعه على: في (أ) فوقوع.
(3) بالممثل: في (ب) الحامل.
(4) الفلك: في (ب) ذلك.
(5) بجهته: في (ب) بالجهة.
(6) فأما أن يقال إلى قوله في الأزل إما لأنها ساقط من (أ).
(7) من حالة إلى حالة: في (أ) من حركة إلى حركة.

ولمّا بطل القسمان علمنا أن حركاتها ليست إلّا لأجل أن المدبّر والمقدر القادر الحكيم العالم بالأسرار والخفيّات، المطلع على الكليات والجزئيات يحركها على وفق مشيئته ومقتضى قدرته، وليس عندنا إلاّ الإيمان بها على سبيل الإجمال على ما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

النوع الحادي عشر: من الاستدلال بأحوال السمٰوات[1] أنا نراها مختلفة الألوان مثل نور القمر وصفرة عطارد وبياض الزهرة وضوء الشمس وحمرة المريخ ودريّة المشتري وكمودة زحل ولمعان الثوابت.

وأيضاً فكل كوكب[2] من الكواكب الثابتة مختص بعظم[3] خاص وضوء خاص وجانب خاص من الفلك.

وأيضاً فهي[4] عند المنجمين مختلفة بالسعادة[5] والنحوسة والذكورة والأنوثة والنهارية والليلية، فنرى أن زحل الذي هو سلطان الكواكب أرفع السيارات نحساً، والمشتري وهو أدون منه سعداً، والشمس وهي سلطان الكواكب سعد في بعض الاتصالات نحس في بعضها، ونراها مختلفة في الثبوت[6] والحدود والوجوه[7] والمثلثات والرجوع والاستقامة والصعود والهبوط مع كونها بأسرها مشتركة في كونها أجساماً فلكية شفافة نورانية مصونة عن الكون والفساد والتغير والانحلال؛ فقضى صريح العقل بافتقارها إلى مدبر يدبّرها، قادر يخصص كل واحد منها بصفته المعينة[8].

النوع الثاني عشر: إن هذه الكواكب إن[9] كان لها تأثير في هذا العالم فهي إمّا

---

(1) السمٰوات: في (ب) السمٰوات والأرض.
(2) كوكب: في (ب) واحد.
(3) بعظم: في (ب) بقطر.
(4) فهي: ساقط من (أ).
(5) بالسعادة: في (أ) السعادة.
(6) الثبوت: في (ب) البيوت.
(7) الوجوه: في (أ) الوجود.
(8) يخصص إلى المعينة: في (ب) يحفظ في حالته المعينة وخاصيته المعينة.
(9) إن: في (ب) لو.

النوع العاشر: أن هذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الأفلاك وائتلاف أجزائها واتساق حركاتها نظم موافق لمصلحة هذا العالم لا يتأتّى بالعبث والاتفاق[1] ولا يتأتى من الطبيعة الجاهلة، بل صرايح الأذهان وبداية الأفكار ناطقة بأن ذلك لا يتأتى إلاّ من القادر الحكيم إما أنّه[2] لا يعقل إسنادها إلى العبث والجزاف؛ فلأن[3] من جوّز في بناء رفيع وقصر مشيد، أن التراب والماء انضم أحدهما إلى الآخر ثم تولد منها لبنات ثم تركبت اللبنات وتولد من تركبها قصر مشيد وبناء عال، وكل ذلك حصل من غير تدبير مدبّر وتقدير مقدر فإنه يقضي على مجوز هذا بالجنون.

ونحن نعلم أن تركيب هذه الأفلاك وما فيها من الكواكب النيّرة والحركات المختلفة وما حصل لها من البقاء والنقاء والصفاء ليس أقلّ من ذلك البناء؛ فثبت أن القول بوقوع هذه السمٰوات والكواكب على وجه العبث والجزاف محال.

ثم عندها[4] لا يخلو إمّا أن يقال: إنّها تتحرك بأنفسها على سبيل الطبيعة أو على سبيل الاختيار أو لأجل أنّ محركاً يحركها.

والأول باطل لأن كل جسم يتحرك بالطبع عن الشيء فإنه لا يتحرك بعين تلك الطبيعة إلى غير ذلك الشيء؛ لأن المهروب بالطبع لا يكون مطلوباً بالطبع والحركة المستديرة، وكل[5] حركة وقعت هرباً عن نقطة فإن عين ذلك الهرب لا يكون عين طلب تلك النقطة؛ فعلمنا أنّ حركات الأفلاك ليست طبيعيّة وهي أيضاً ليست إراديّة، وذلك أن حركاتها إما أن تكون لغرض ممكن حصوله أو ليس كذلك.

فإن كان الأول لزم وقوف هذه الحركات وانتهاؤها إلى السكون لأن كل حركة كانت لطلب مقصود فعند حصول ذلك المقصود وجب انقطاع تلك الحركة.

وإن كانت تلك الحركة لأجل غرض غير ممكن الحصول كانت تلك الحركة عبثاً والعبث لا يكون دائماً ولا أكثرياً.

---

(1) والاتفاق: ساقط من (أ).
(2) أنّه: في (أ) لأنه.
(3) فلأن: في (أ) لان.
(4) عندها: في (ب) عند هذا.
(5) وكل: في (ب) لكل.

فاحتياجه[1] إليه إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه أو حال عدمه.

ويمتنع أن يحتاج إلى الموجد حال بقائه لأن ذلك يقتضي إيجاد الموجود وتحصيل الحاصل وهو محال، فلم يبق إلّا أن تكون الحاجة إما زمن الحدوث أو زمن العدم، وعلى كلا التقديرين كان كل محتاج إلى المؤثر محدثاً؛ فثبت أن الكواكب والسمٰوات بأسرها ممكنة الوجود لذواتها، محتاجة في وجودها إلى المؤثر؛ فحدوثها مسبوق بالعدم[2].

النوع الرابع عشر: في الاستدلال بسرعة هذه الكواكب مع غاية عظمها وذلك لأن أصغر كوكب يرى هو مثل الأرض ثماني مرات[3] و أكبرها ينتهي إلى مائة[4] وعشرين مرة مثل الأرض.

وأمّا **الشمس** فهي مثل الأرض مائة وأربعة وستين مرة، فإنك ترى الكوكب يطلع في لحظة يسيرة، وذلك لأن الزمان من[5] طلوع أول جزء من الكوكب إلى تمامه يسير، وذلك الكوكب مثل الأرض مائة وعشرين مرة، فقد دار الفلك في تلك اللحظة اللطيفة مثل الأرض مائة وعشرين مرة.

وانظر كيف عبّر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبيّ ﷺ: «**هل زالت الشمس؟**» فقال: لا، نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف تقول: لا، نعم؟**» فقال له: من حيث قلت: لا إلى أن قلت: نعم، سارت الشمس مسيرة خمسمائة عام، فانظر إلى عظم جرمها[6] ثم إلى خفّة حركتها ثم انتقل منها إلى قدرة فاطرها وبارئها كيف خلقها على عظم جرمها ثم حركها هذه الحركة الخفيفة السريعة ثم أمسكها في الهواء بغير عمد ترونها.

النوع الخامس عشر: في الاستدلال بهذه الأجسام، اعلم[7] أن الأجسام متساوية

---

(1) فاحتياجه: في (أ) واحتياجه.
(2) فحدوثها مسبوق بالعدم: في (ب) فكانت محدثة مسبوقة بالعدم.
(3) ثماني مرات: في (ب) (16 مرة).
(4) إلى مائة: في (ب) إلى قريب من مائة.
(5) الزمان من: في (أ) بين.
(6) جرمها: في (ب) جسمها.
(7) اعلم في (ب) على.

أن تكون متدافعة[1] أو متعاونة أو لا متدافعة ولا متعاونة.

فإن كانت متدافعة فإما أن يكون بعضها أقوى من البعض أو متساوية في القوة فإن كان بعضها أقوى من البعض كان القوي غالباً أبداً[2] والضعيف يكون مغلوباً أبداً، فوجب أن يستمر أحوال هذا العالم على طبيعة[3] ذلك الكوكب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك. فإن قيل: لم لا يجوز أن يختلف آثار الكواكب بسبب اختلاف طبايع البروج؟

قلنا: لو كانت طبايع البروج مختلفة لكان الفلك جسماً مركباً لا بسيطاً، وقد ثبت عندهم فساد ذلك.

أمّا إن كانت متساوية في القوة مع أنها متدافعة فحينئذ لا يحصل الفعل عن شيء منها أصلاً فتكون الأفعال الظاهرة في هذا العالم مستندة[4] إلى شيء غيرها، فيكون مدبر هذا العالم ذلك الغير لا هذه الكواكب، أمّا إن قيل: هذه الكواكب متعاونة[5] لزم أيضاً بقاء أحوال هذا العالم على نسق واحد من غير تغير أصلاً.

وأمّا إن قيل: إنها تارة متعاونة وتارة متدافعة كان انتقالها من الحبّ إلى البغض ومن الممانعة إلى المعاونة تغيراً يحصل لها في صفاتها، ولا بد لذلك التغير من مغيّر ومدبّر، فتكون الكواكب بأسرها مفتقرة في حصول صفاتها وحدوث أحوالها إلى مدبّر قادر قاهر وذلك هو الله تعالى.

النوع الثالث عشر: أنّ هذه السمٰوات والكواكب أجسام كل جسم مركب عن الأجزاء؛ لأن كل جسم فهو قابل للقسمة الوهمية، وكل ما قبل القسمة الوهمية كانت ذاته مركبة من تلك الأجزاء التي كل واحد منها متميز على الآخر في الإشارة الحسيّة، وكلُّ ما كان مركباً فإنه مفتقر في الحقيقة[6] إلى كل واحد من أجزائه، وكلّ واحد من أجزاء الشيء غيره، فكل مركب مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو مُمكن لذاته، وكل مُمكن لذاته فهو محتاج إلى المؤثر. وكل ما احتاج في وجوده إلى المؤثر

---

(1) متدافعة: في (أ) مدافعة.
(2) أبداً: ساقط من (أ).
(3) طبيعة: في (أ) طبعه.
(4) مستندة: في (أ) مستنداً.
(5) متعاونة: في (ب) متفاوتة.
(6) الحقيقة في (ب) تحقيقه.

الفصل الرابع:
في تعديد[1] صفات السموات والاستدلال
بكل واحد من تلك الصفات على وجود الإله القادر الحكيم.

الصفة الأولى: بقاؤها في جو الهواء معلقة[2]، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: 41] أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ﷻ هو الذي يمسك السموات والأرض عن الزوال والانتقال، فنحتاج أولاً إلى بيان أن السموات والأرض غير زائلة عن موضعها ومقارها، ثم إلى بيان أن ذلك الممسك هو الله تعالى فلنبين ذلك في الأرض ثم في السماء، أما في الأرض فمن الناس من قال أنها هاوية بطبعها أبداً في الخلاء الذي لا نهاية له من جهة السفل، ومنهم من قال الفلك واقف والأرض هي التي تتحرك كل يوم وليلة دورة تامة وسبب طلوع الشمس والقمر والكواكب هو استدارة الأرض والذي يدل على أنها ليست[3] كذلك أنها إن كانت كذلك لكان من طفر من موضع عال إلى الأرض وجب أن لا يصل إليها لأن كل شيئين ينزلان من الأعلى إلى الأسفل وأحدهما أخف من الآخر فإن الأخف لا يدرك الأسفل وإنما قلنا أنها غير مستديرة لأنها لو كانت كذلك مستديرة[4] لكانت حركتها في غاية السرعة فكان[5] يتموّج الهواء المحيط بها تموّجاً شديداً، فكان يجب أن يكون تموج ذلك الهواء مانعاً للإنسان من أن يتحرك إلى خلاف تلك الجهة ومعلوم أن ذلك باطل ولما بطل هذان القسمان ثبت أن الأرض واقفة. وأما السموات فهي أيضاً مستقرة في أحيازها وغير خارجة عنها والدليل عليه

---

(1) تعديد في (أ) تقدير.
(2) معلقة في (أ) متعلقة.
(3) ليست إلخ في (ب) (غير هابطة).
(4) مستديرة ساقط من (ب).
(5) فكان ساقط من (أ).

في الجسمية بدليل أنه يصح تقسيم الجسم إلى الفلكي وإلى[1] العنصري وإلى الكثيف وإلى اللطيف، وإلى الحار وإلى البارد وإلى الرطب وإلى اليابس، ومورد التقسيم مشترك بين كل هذه[2] الأقسام، فالجسمية قدر مشترك بين كل هذه الأقسام والأمور المتماثلة في تمام الماهية تكون متساوية في قبول الصفات والأعراض. فإذا ثبت أن كل ما صح على جسم فهو صحيح على سائر الأجسام فإذاً اختصاص كل جرم على ما هو مختص به في المقدار والوضع والشكل والطبع لا بد أن يكون من الجائزات وذلك يقضي[3] عليها بالافتقار إلى الصانع القديم الحكيم المختار جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره فهذه هي الوجوه التي وصلت عقولنا الضعيفة إليها وهي بأسرها داخلة تحت قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾.

---

(1) وإلى ساقط من (أ).

(2) (هذه) ساقط من (أ).

(3) (يقضي) في (أ) يقتضي.

(القول الثالث): الذين قالوا أن سبب وقوف الأرض جذب الفلك لها من كل جانب[1] فبقيت في الوسط وهذا أيضاً باطل من وجهين:

الأول: أن المدرة[2] التي على وجه الأرض أقرب إلى هذا الجانب من الفلك فوجب أن ينجذب إلى هذا الجانب من الفلك.

الثاني: أن المدرة المقذوفة إلى فوق وجب أن تنجذب إلى الفلك وأن لا يعود.

(القول الرابع): سبب وقوف الأرض دفع الفلك لها من كل جانب[3] كما إذا جعل كف من التراب في قنينة ثم أديرت القنينة على قطبها[4] إدارة سريعة وقف التراب في وسط القنينة لتساوي الدفع من كل الجوانب وهذا باطل أيضاً من وجوه خمسة:

الأول: لو بلغ قوة الدفع إلى هذا الحد فلم لا يحس بها الواحد منّا؟

الثاني: ما بال هذا الدفع لم يجعل[5] حركة السحاب والرياح إلى جهة ما بعينها؟

الثالث: ما بال هذا الدفع لم يجعل انتقالنا[6] إلى الجهة[7] الموافقة لحركة الفلك فإنه أسهل وضد تلك الحركة أصعب.

الرابع: يجب أن يكون الثقل كلما كان أعظم أن تكون حركته أبطأ لأن اندفاع المدفوع الأعظم من اندفاع الأصغر[8]، أبطأ.

الخامس: يجب أن تكون حركة الثقيل النازل من الاندفاع أسرع[9] منها عند الانتهاء لأنها عند الابتداء أبعد من الفلك وأبعد من تأثيره.

(القول الخامس): الأرض تطلب الوسط من الفلك بالطبع وهو قول

---

(1) جانب في (ب) الجوانب.
(2) المدرة في (أ) المقدرة.
(3) جانب في (ب) الجوانب.
(4) قطبها في (أ) قطريها.
(5) يجعل في (أ) يحصل كذا في ما بعده.
(6) انتقالنا في (أ) انتقالها.
(7) الجهة في (أ) جهة.
(8) الأصغر في (أ) الفاسد.
(9) أسرع ساقط من (أ).

أنها لو خرجت عن موضعها فإما أن ينزل أو يصعد فإن نزلت مع أن الأرض واقفة صارت السماء كل يوم أقرب إلينا فكان يجب أن نرى كل يوم تلك الكواكب أعظم، وأن نرى من السماء أقل ما رأيناه بالأمس فإن قلنا أن السماء يصعد لزم ضد ما ذكرناه ولما كان كل ذلك باطلاً علمنا أن السمٰوات والأرضين مستقرة في مواضعها مستمرة في أحيازها. إذا ثبت هذا القول فنقول ممسكها هو الله تعالى: أما الأرض فنقول للناس في سبب سكونها:

(الأول): أن الأرض لا نهاية لها من جانب السفل وإذا كان كذلك لم يكن لها مهبط فلا جرم لا ينزل[1] وهذا فاسد من وجهين: الأول: ثبت بالدلائل[2] أن الأجسام متناهية. الثاني: أن الأرض طبيعتها واحدة فاختصاص أحد وجهيها بالتناهي والوجه الآخر بعدم التناهي لا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وتقدير مقدر قادر.

(القول الثاني): قول من سلم أن الأرض متناهية من جميع الجوانب والقائلون بهذا القول ذكروا في سبب سكون الأرض وجوهاً:

الأول: قالوا الأرض كنصف كرة وحدبتها[3] على الجانب الذي يلينا، وأما سطحها الأسفل فهو سطح مستقيم موضوع على الماء والهواء ومن شأن المنهبط أن لا يغوص في الماء بل يبقى واقفاً عليه **وهذا باطل من وجهين**:

الأول: أن البحث[4] يعود في علة وقوف الماء والهواء تحت الأرض.

الثاني: لِم صار أحد وجهي الأرض منحدباً[5].

والثاني: مستقيماً مع تساوي الماهية بل[6] لا يعقل هذا إلا بسبب الفاعل المختار.

---

(1) لا ينزل في (ب) لم تنزل.
(2) بالدلائل في (ب) بالدليل.
(3) وحدبتها في (أ) وتحديبها.
(4) البحث في (ب) التحت.
(5) منحدباً في (ب) محدباً.
(6) بل لا في (ب) فلا.

بتخصيص المخصص الذي هو القادر المقتدر المختار فصار قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ مؤكداً بهذه البراهين العقلية القطعية، إذا عرفت هذا البرهان فلنرجع إلى البيان الإقناعي الذي يصل إليه كل فهم فنقول: لا شك أنّ السماء فوق الهواء، وهو محسوس[1]، ولا شك أن الأرض فوق الماء بدليل أنك لا تحفر موضعاً إلّا خرج عنه الماء، وألطفُ الأجسام المشاهدة هو الهواء وبعده الماء ثم إن الأرض مع ما فيها من الأجسام الثقيلة كالبحار والجبال موضوعة على الماء.

وأيضاً لا شك أن كل واحد من النجوم أعظم من الأرض بدرجات وأثقل منها بكثير؛ فإذا شاهدنا أن أصغر جزء من الأرض لا يستقر على وجه[2] ثم علمنا أن كل الأرض مستقرة على وجه الماء علمنا أن ذلك لا يكون إلّا بإمساك الله تعالى.

ثم إن الهواء ألطف من الماء، ولا يستقر فيه أصغر الأجزاء الثقيلة[3].

ثم إن السمٰوات والكواكب مع ما فيها من الثقل العظيم والعظمة العظيمة، استقرت في الهواء؛ [فعلمنا][4] أن ذلك لا يكون إلا بإمساك الله ﷻ؛ فظهر[5] أنه ليس استقرار الأرض في حيزها واستقرار السمٰوات في موضعها إلّا بتقدير قادر مقتدر وعلم عالم وحكمة حكيم، قادر قاهر، هو أقدر القادرين وأحكم الحاكمين، تنزّهت عظمته من علائق العقول البشرية، وتقدس جلاله[6] وكبرياؤه عن حوادث الأفكار الإنسانية.

بقي هٰهنا سؤالات[7]:

السؤال الأول: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: 41] وهي كقوله: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣﴾ [فاطر: 23] أي ما أنت إلّا نذير.

---

(1) محسوس: في (أ) المحسوس.
(2) وجه: ساقط من (أ).
(3) الأجزاء: في (أ) أجزاء.
(4) [فعلمنا]: في الأصلين علمنا.
(5) فظهر: في (ب) فعلمنا.
(6) تقدس جلاله: في (ب) تقدست جلالته.
(7) بقي هنا إلى قوله: الصفة الخامسة إلخ ساقط من (ب).

أرسطاطاليس وهو ضعيف لأن الأجسام متساوية فاختصاص بعضها بالصفة التي لأجلها تطلب وسط العالم يكون أمراً جائزاً فيحتاج إلى تخصيص الفاعل المختار.

(القول السادس): الفلك كرة فإذا استدار على ما في حشوه عرض لما هو في غاية القرب من الفلك أن ينسخن فيصير ناراً ولما هو في غاية البعد عن الفلك أن يبقى على البرد والكثافة واليُبس فيكون أرضياً[1] ثم الذي يقرب من النار يكون لا محالة ألطف مما يقرب من الأرض فصار الملاصق للنار هواء والملاصق للأرض ماء، فلهذا السبب حصلت العناصر على هذا الترتيب وهذا أيضاً ضعيف لأن الكلام يعود في أنه لم حصل[2] بعض الأجسام ملاصقاً للفلك وبعضها في غاية البعد عن الفلك حتى صار القريب ناراً والبعيد أرضاً.

(القول السابع): قالت المعتزلة: النصف الأسفل من الأرض فيه اعتمادات صاعدة والنصف الأعلى فيه اعتمادات هابطة، فحصل التدافع بين الاعتمادين[3] المتضادين فلزم الوقوف وهذا أيضاً ضعيف[4] من وجهين لأنا نقول: ولم اختص ذلك الوجه بالاعتماد الصاعد وهذا الوجه بالاعتماد النازل؟ وهذا[5] لا يمكن[6] أن يذكر فيه سبب إلا الفاعل المختار، ولما بطلت هذه الأقاويل لم يبق إلا أن يقال بقاء الأرض والسمٰوات في مواضعها أو مقارها وأحيازها ليس إلا بالله سبحانه فثبت أن ممسك السمٰوات والأرضين[7] هو الله سبحانه.

وتقرير الكلام على الوجه البرهاني يعود إلى ما تقدم من أن الأجسام متساوية في الجسمية فاختصاص[8] كل واحد منها بحيز[9] مخصوص لا يمكن أن يكون لذواتها ولا لشيء من لوازم ذواتها وإلا لزم التشابه[10] بل لا بد أن يكون أمراً جائزاً فيكون

---

(1) أرضياً في (أ) أرضاً.
(2) حصل في (ب) جعل.
(3) الاعتمادين في (ب) الاعتمادات.
(4) ضعيف في (ب) باطل.
(5) (وهذا) ساقط من (ب) ألا يمكن.
(6) في نسخة (ب) لم يمكن.
(7) الأرضين في (ب) الأرض.
(8) فاختصاص في (ب) واختصاص.
(9) بحيز في (ب) بحدّ.
(10) التشابه في (أ) التسلسل.

السؤال الأوّل: أنه تعالى قال: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ وهذا يوهم أن هناك عمداً لا ترونها.

والجواب عنه من وجوه:

الأوّل: لو قال بغير عمد لكان خطأ، بل لذلك عمد وهو إمساك الله ﷻ كما قال: ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾؛ لأن إمساك الله وحفظه عمد لا ترى: فلهذا السبب قال: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

الثاني: قال في صفة العرش: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾، فههنا يحتمل أن تكون للسمٰوات ملائكة يحملونها فإذا كان هذا محتملاً فلا جرم ما نفى العمد مطلقاً بل نفى عمداً مشاهداً يرى.

وإن نسبنا[1] حمل العرش والسمٰوات إلى الملائكة، فمن الذي يحمل الملائكة الحاملين مع هذا الحمل العظيم إلاّ قدرة الأحد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

السؤال الثاني: الرفع يشعر بأنها كانت موضوعة في السفل فنقلها الله تعالى، فهذا الأمر كذلك.

الجواب من لفظ الرفع في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنه عبارة عن الإنشاء على صفة الارتفاع، لا أنها كانت موضوعة فرفعها، نظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمٰن: 10] أي خلقها موضوعة للأنام، لا أنها كانت مرفوعة [ثم جعلها][2] موضوعة.

القول الثاني: أن السمٰوات والأرض كانتا رتقاً، شيئاً واحداً ففتق الله بينهما ورفع السماء على ما شرحناه والله أعلم.

الصفة الثالثة للسماوات: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: 67] ولمّا آل الأمر إلى آدم ﵇ قال لإبليس: ﴿مَا

---

(1) وإن نسبنا: في الأصل (إلا وأن نسبنا).
(2) [ثم جعلها] زيادة يقتضيها السياق.

السؤال الثاني: ما الفائدة في قوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ وهما لا يزولان إلى يوم القيامة.

والجواب من وجوه:

الأول: عدم الوقوع لا ينافي صدق قولنا: لو وقع كيف يكون كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

الثاني: لو زالتا حين حكمت بالزوال يوم القيامة فمن الذي يمسكها عن ذلك الزوال غيري؟

الثالث: لو زالتا بسبب كفرهم وقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: 88] على مقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: 90-91].

السؤال الثالث: ما الحكمة في ختم هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

والجواب يحتمل أن يكون تقدير الآية: ولئن زالتا وحلّ العذاب باستعجاله فمن المانع لولا أن الله حليم غفور.

الصفة الثانية للسماوات الرّفعة: قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2] وتقدير المعنى أن جميع العالمين عاجزون عن رفع شيء ثقيل في الهواء إلّا بأحد طريقين:

إمّا أن يكون تحته شيء يستقر عليه، أو يكون فوقه شيء يكون هو معلقاً به، ولا شكَ أن العالم متناه من فوقه وتحته فليس لجميع الأجسام شيء فوقه حتى يكون شيئاً معلقاً، وليس تحت جميع الأجسام جسم حتى يستقر عليه: فإذا عجز كل الخلائق عن رفع شيء ثقيل إلّا بأحد هذين الطريقين، وثبت أن كل العالم بما فيه من العرش والكرسي والسمٰوات والكواكب والبحار والجبال معلقة من غير علاقة فوقها، ولا قرار تحتها لم يكن بدّ من الإقرار بقادر ممسك أقوى من جميع هذه الأجسام وأقدر منها حتى يمسكها بقدرته ويحفظها بإلٰهيته، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، وفي الآية سؤالات:

وفي لفظ الآية إشكال، قال الكسائي والفراء والزجاج: الكلام تمّ عند قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ابتداء كلام آخر.

وعند غيرهم الوقف على قوله بناها لأنه من صلة السماء، والتقدير: السماء التي بناها، فحذف (التي)، ومثل هذا الحذف جائز كثير في اللغة.

فنقول: الدليل على أن قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة لما قبله، [أنه][1] لو لم يكن صلة لكان صفة ثم قوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ صفة أيضاً، فقد توالت صفتان لا تتعلق إحداهما بالأخرى فكان يجب إدخال العاطف بينهما كما في قوله: ﴿وَأَغْطَشَ﴾، فلمّا لم يكن كذلك علمنا أنّ قوله: ﴿بَنَىٰهَا﴾ صلة للسماء ثم قوله: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ ابتداء بذكر الصفة.

واعلم أن قوله تعالى في السماء أنه بناها نظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [قٓ: 6] وقوله في أول سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: 22].

فإن قيل: إنما سمّى الشيء بناءً إذا كان مستقراً على الأرض والسماء وقد أمسكها الله تعالى، وجعلها[2] معلقة في الجوّ فكيف سمّاها بناء؟

قلنا: هذا مذكور على سبيل التشبيه[3] وذلك لأن أعظم الأجسام إحكاماً في البنية والتركيب[4] هو الذي يكون موضوعاً على الأرض فكأنّه قال: هذا الذي أمسكته[5] في الهواء أكبر إحكاماً وشدّةً مما بنيته على الأرض[6] فلشدة إحكامه سمّاه[7] بناء.

واعلم أنه ﷻ كما بيّن في السماء أنه بناها بيّن بعد ذلك أنه تعالى جعل السماء علة للمكان وعلة للزمان. أما أن السماء سبب[8] للمكان فقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا

(1) [أنه] في الأصل: لأنّه.
(2) وجعلها ساقط من (ب).
(3) التشبيه: في (ب) الشبه.
(4) والتركيب: في (ب) والترتيب.
(5) أمسكته: في (أ) أسكنته.
(6) الأرض في (أ) الأرض والمستقر.
(7) سماه في (ب) سمى.
(8) سبب في (ب) علة.

مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [ص: 75] فالسمٰوات في آخر الأمر تكون في يمين الله سبحانه، وآدم عليه السلام في أول الأمر كان مخلوقاً بيديه، وهذا يشير إلى [أنّ][1] ما هو نهاية حال السمٰوات فهو بداية حال البشر.

الصفة الرابعة: كون هذه السمٰوات مخلوقة بالحق لا بالباطل قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: 191] وقال أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: 27] وقال في حق البشر: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115] ثم بيّن أن الحكمة في خلق السمٰوات والأرض أكبر وأعظم من الحكمة في خلق الناس: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: 57].

واعلم أنه ليس المُراد من هذا الكِبَرُ الكِبَرُ في الجثة، لأن ذلك معلوم لكل أحد بالحسّ والضرورة، ولكن المراد عن ذلك الكبرُ في أسرار الإلٰهية والحكمة الربانية التي لا يعرفها أحد إلاّ هو، ولا يطلع عليه أحد إلاّ هو.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: 27 ـ 29] واعلم أنه[2] سبحانه وتعالى وصف السماء في هذه الآية بصفات كثيرة، إحداها شدة الخلق، ونظيره قوله تعالى في سورة [النبإ]:[3] ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبإ: 12] والشداد جمع [شديدة][4] بمعنى محكمة، قوية الخلق، لا يؤثر فيها مرور الزمان ولا يحصل فيها فطور ولا فروج.

فإن قيل: فالملائكة كيف ينزلون من السمٰوات مع شدّة خلقها؟ وكيف يعرجون فيها؟

قلنا: كما ينزل الأنوار منها مع شدتها، بل نزول الملائكة أولى لأن ذوات الملائكة بالنسبة إلى هذه الأنوار المحسوسة يجري مجرى هذه الأنوار المحسوسة بالنسبة إلى هذه الأجسام.

---

(1) [إنّ] زيادة يقتضيها السياق.
(2) واعلم إلى قوله فإن قيل: إنما سمي الشيء بناء ساقط من (ب).
(3) [النبأ] في الأصل: عم يتساءلون.
(4) [شديدة] في الأصل: شديد.

واعلم أن في الآية فوائد:

أحدهما: أنه ﷻ قدم ذكر الظلمة على ذكر النور وهذا يدل على تقدم الظلمة على النور وهو نظير قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1].

الثانية: أنه أضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما[1] إنّما يحدثان سبب غروب الشمس وطلوعها والغروب والطلوع لا يحصلان إلا بسبب حركة الفلك فلهذا السبب أضاف الليل والنهار إلى السماء.

الثالثة[2]: في هذه الآية أن المقصود منها الاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه والتقدير أن السماء أشد خلقاً من الآدمي وقد أقررتم على أن خالق السماء هو الله سبحانه فكيف أنكرتم أن مدبر أحوالكم غير الله؟

الرابعة: أن إثبات المعاد أيضاً مقصود من هذه الآية وسياق الآية يدل عليه قال الله تعالى فيما قبل هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النازعات: 6 - 7] إلى قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾ [النازعات: 27].

والمعنى أنكم أنكرتم البعث واستبعدتم إعادة خلقكم بعد موتكم والإعادة عندكم أيسر من الابتداء والاختراع وابتداء خلقكم أيسر من ابتداء خلق السماء، فلما أقررتم بأنه تعالى هو الذي خلق السمٰوات فلأن تعرفوا كونه قادراً على الإعادة والبعث أولى.

(الفائدة الخامسة) كأنه قال: السماء مع شدة خلقها وعظمتها وكذلك الأرض بجبالها وبحارها مطيعة لحكمي وأمري فكيف عصيتم حكمي وخالفتم أمري مع أنكم في غاية الضعف، بل نقول: أنتم والسماء مشتركون في أن كل واحد منكم حصل بإيجادي وإبداعي وأنتم إنما فارقتم السماء والأرض بالمعرفة والتمييز والإقرار بحصول الثواب والعقاب فأنتم بسبب هذه المعرفة أولى بالانقياد لطاعتي.

(الفائدة السادسة) أني لما رفعت السماء من الأرض خلقت المكان لأن المكان هو الفرجة الحاصلة بين السماء والأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا

---

(1) إنما ساقط من (أ).

(2) الثالثة من هنا إلى قوله السادسة أني لما رفعت إلخ ساقط من (ب).

فَسَوَّنهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: 28] واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقاً وإن أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سمكاً فالمراد برفع سمكها شدة علوها حتى ذكروا أن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وأما قوله تعالى: ﴿فَسَوَّنهَا﴾ فقيل المراد به تسوية تأليفها[1] وقيل المراد نفي التفاوت عنها كقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: 3] واعلم أن كل هذه الوجوه تدل على كمال العلم والقدرة لمدبرها وخالقها لأن وقوع التفاوت تارة يكون لجهل المدبر وتارة يكون لعجزه، فمن كان عالماً بالكل قادراً على الكل امتنع وقوع التفاوت في مخلوقاته فبهذا الطريق عرفنا أنه صادق في وعده حكيم لا يقع السفه في فعله لأن صدور الكذب والسفه إما للعجز أو للجهل أو للبخل[2] والكل محال عليه تعالى[3] الله عن ذلك ،فامتنع الكذب في وعده والسفه في فعله. وأما أن تخليق السمٰوات سبب لحدوث الزمان فهو المراد من قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: 29] واعلم أن أغطش قد يجيء لازماً يقال: أغطش الليل أي صار مظلماً، ويجيء متعدياً يقال: أغطشه الله إذا جعله مظلماً، والغطش الظلمة والأغطش، أفعل منه[4] مثل الأعمش، وهاهنا سؤال وهو أن الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس فقوله ﷻ: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ يرجع معناه إلى أنه جعل المظلم مظلماً وهذا الكلام بعيد[5]. والجواب معناه أن الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان إنما حصلت بتدبير الله تعالى وبتقديره وأما قوله: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ فالمُراد به[6] النهار إلا أنه سبحانه عبَّر عن النهار بالضحى لأن الضحى أضوأ أوقات النهار ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ [الضحى: 1 ـ 2] وذلك لأن أضوأ أوقات النهار هو الضحى وهو الضوء التام[7] بعد الظلمة التامة مما لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى.

---

(1) تأليفها في (أ) تألفها.
(2) أو للبخل في (ب) والبخل.
(3) تعالى الله عن ذلك ساقط من (ب).
(4) والأغطش أفعل منه مثل الأعمش في (ب) والأغطش شبه الأعمش.
(5) وهذا الكلام بعيد في (ب) وهو الكلام بعينه.
(6) (به) في (ب) هو.
(7) التام في (أ) القائم.

وقال أيضاً: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: 15] ومن الدعوات المشهورة قولهم: يا مسبب الأسباب، ويؤكد ذلك قوله تعالى في صلة الملائكة: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: 5] وفي آية أخرى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ ولا شك أن مسكن الملائكة هو السمٰوات فلهذه الوجوه صارت أحوال السمٰوات أسباب مصالح هذا العالم.

الثاني: أن الأرزاق إنّما تنزل من السماء قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22].

الثالث: أن الملائكة الذين ينزلون بالسلام والرحمة من الله إنما ينزلون من السمٰوات قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: 4].

الرابع: أن الأنوار إنما تنزل من السمٰوات قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5] فلما كان كل مصالح العالم لا يتم إلا من السمٰوات لا جرم كانت الأعين ممتدة إليه والأيدي مرفوعة إليه والقلوب متعلقة به، والله أعلم.

﴿٢٨﴾ ولما حركت جرم السمٰوات أظهرت الزمان وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ فالمكان والمكانيّات ملكي والزمان والزمانيات ملكي ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: 12] وهو إشارة إلى أن المكان والكائنات مِلكه ومُلكه ثم قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 13] وهو إشارة أن الزمان والزمانيات مِلكه ومُلكه فهو ﷻ خالق المكان والمكانيات ومدبر الزمان والزمانيات وذلك يدل على كونه منزهًا عن الزمان والمكان وعلائق الحدود والإمكان[1].

(الصفة السادسة) للسماوات: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: 32] وأيضاً سماها الله بالسقف المرفوع قال تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: 4 ـ 5].

واعلم أن من تأمل في هذا[2] العالم وجده كالبيت الذي أعد فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منصوبة[3] كالمصابيح والإنسان كمالك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيآت لمنافعه، وضروب الحيوانات مصرفة في مصالحه وهذه أحوال واضحة ودلائل باهرة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل وتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية ومما يشبه هذا الوصف أنه تعالى سماها سبعاً طباقاً وسبعاً شداداً.

(الصفة السابعة) أنه تعالى جعلها قبلة الدعاء قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: 144] فقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إشارة إلى تضرعه حال اشتغاله بالدعاء والمجسمة تمسكوا بذلك على أنه ﷻ في جهة فوق وهذا باطل على ما سيجيء برهانه إن شاء الله تعالى بل السبب لذلك وجوه:

الأول: أنه تعالى جعل أحوال الأفلاك أسباباً لمصالح أحوال هذا العالم قال تعالى حكاية عن فرعون﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36 - 37]

---

(1) وعلائق والحدوث والإمكان في (ب) أورد: قبل وذلك يدل.
(2) في ساقط من (ب).
(3) منصوبة في (ب) منضودة.

فالنجّار يتصرف في الخشب، ولكن الخشب باق في حال ذلك التصرف، والصائغ يتصرف في الذهب ولكن الذهب باق في تلك الحالة.

أمّا الحق جلّ جلاله فإنه يتصرّف في المواد ويغيرها في أنفسها، ألا ترى أن الله يقلب الطين غذاء، ويقلب الغذاء نطفة، ويقلب النطفة علقة، والعلقة مضغة، والمضغة عظاماً.

وأيضاً خلق البشر من التراب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] فركّب من التراب لحماً ودماً، وصورة التراب غير باقية في شيء منها. ويخلق الحيوان من الماء كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: 45] وصورة المائيّة غير باقية فيها، وخلق عيسى عليه السلام من نفخ جبريل عليه السلام؛ ولذلك كان عيسى عليه السلام يصور الحيوانات، وينفخ فيها فتصير حيّةً، وصورة الهوائية ما كانت باقية فيها.

وخلق الجان من مارج من نار، وصورة النار غير باقية فيها، وخلق ناقة صالح من الحجارة وصورة الحجريّة غير باقية، وخلق الثعبان من عصى موسى وصورة الخشبيّة غير باقية، وخلق حواء من ضلع آدم عليه السلام وما كانت صورة العظميّة باقيةً.

فثبت أنه تعالى يقلب المواد عن ذواتها من حالة إلى أخرى وسائر الفاعلين ليسوا كذلك فظهر الفرق.

والفرق الثالث: أن كل الفاعلين يفتقرون في فاعليتهم إلى توسط الآلات؛ فالنجار لا بد له من منشار وقدوم، والخياط لا بد له من إبرة ومقراض، والحق تعالى غنيّ عن الآلات والأدوات؛ لأنه فاعل الآلات والأدوات، فلو افتقرت فاعليته إلى الآلة لزم التسلسل.

والفرق الرابع: أنّ سائر الفاعلين لا يمكنهم أن يفعلوا فعلاً إلّا بمماسة وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل، فإن لم تحصل المماسة أصلاً عجز عن الفعل فيه والحق تعالى هو المتصرّف في العرش إلى ما تحت الثرى من غير مماسة ولا مجاورة ولا مقاربة.

والفرق الخامس: أنّ كل من فعل فعلاً فإنه لا يفعله إلّا بمهلة وتدريج، وزمان

الفصل الخامس:
في تفسير كونه تعالى فاطر السموات والأرض[1]

حكى ﷻ عن إبراهيم الخليل ﷺ قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79] وحكى[2] عن يوسف الصديق ﷺ أنه قال: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا﴾ [يوسف: 101] وقال سبحانه في أول الملائكة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] وقال في خلق البشر: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30] واعلم أن الفاطر هو الذي يحدث الشيء ابتداء وتحقيقه أن الفطور هو الشقّ فمن أحدث شيئاً ابتداء فهو الذي شق ظلمة العدم.

واعلم أن فعل الله سبحانه وتكوينه مغاير فعل غيره من وجوه:

الأول: أن الإنسان لا يمكنه أن يفعل إلا في محل مخصوص ومادة معينة، فالحدّاد لا بد له من حديد، والصائغ لا بد له من ذهب، والحائك لا بد له من غزل، والحق سبحانه في فعله غني عن المادة وذلك لأن تلك المادة لما كانت قابلة للأحوال المتغيرة والحوادث المتعاقبة كانت محدثة؛ فلا بدّ لها من محدث؛ فلو افتقر إحداث الله وإيجاده إلى سبق مادة لزم افتقار المادة إلى مادة أخرى إلى ما لا نهاية له وهو في حق الله تعالى محال.

فلمّا كان ﷻ هو القادر الفاعل للمواد والموجد لها [دلّ][3] ذلك على أن [فاعليته غنية][4] عن سبق المواد.

الثاني: أنّ العباد إذا تصرفوا في مادة فهم لا يتصرفون في ذات تلك المادّة؛

---

(1) الفصل إلخ هذا العنوان ساقط من (ب).

(2) وحكى عن يوسف من هنا إلى قوله تعالى كيف تكفرون إلخ ساقط من (ب).

(3) [دلّ]: زيادة يقتضيها السياق.

(4) [فاعليته غنية] في الأصل: فاعله غنى.

ومن عجائب هذا الموضع أن كل ما سوى رب العالمين فإنه يتغير علمه بتغير المعلومات، ويكثر علمه بتكثير المعلومات وهو سبحانه يعلم بعلم واحد ما لا نهاية له من المعلومات ويعلم بعلم باق دائم جميع التغيرات.

الفرق الثامن: أن كل ما سواه من الفاعلين فإنه لا يمكنه أن يجمع بين الأفعال الكثيرة فالكاتب لا يمكنه أن يكتب الكلمات الكثيرة على الجمع بل على التعاقب وبالجملة ما لم يفرغ عن أحد الفعلين لا يمكنه الاشتغال بالآخر، وأما الحق ﷻ هو القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن فهو مدبر العرش والكرسيّ واللوح والقلم والأنوار والظُلم والسمٰوات والأرضين والبحار والجبال والحيوان والنبات دفعة واحدة يخلق ذواتها ويدير صفاتها ويرى حاجاتها ويسمع نداءها ويجيب دعاءها فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

الفرق التاسع: أن كل من فعل فعلاً فإنه يفعل لجرّ نفع أو دفع ضر والحق جل وعلا منزه عن جرّ المنافع ودفع المضار وكل شيء صنعه ولا علة لصِنعه وقد بيَّنا دلائل هذا الفصل في باب دلائل التوحيد في تفسير قوله ﷻ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.

الفرق العاشر: أن كل من فعل فعلاً فإنه يحصل بعضه على وفق مراده وبعضه لا يحصل على وفق مراده، فالكافر يجتهد ليجد الحجة والمعرفة فلا يحصل مراده بل يقع في الشبهة والضلالة وكل أحد فإنما يتحرك ويسعى لطلب الخيرات ثم قد يحصل وقد لا يحصل. وقيل كل أحد يخرج بكرة يومه من داره قدرياً ويعود إليها بالمساء جبرياً يقول: بالبكرة أفعل كذا ليحصل كذا وبالمساء يقول: اجتهدت فما كان التقدير مطابقاً للتدبير. والحق سبحانه لا يقع فعله إلا على وفق مراده ومشيئته فإن كل الممكنات في قبضة قدرته وربقة إرادته لا دافع لما قضى ولا مانع لما أبدع وأبدى قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 111].

الفرق الحادي عشر: كل من سواه من الفاعلين فإنه قد يبقى المفعول بعد فناء الفاعل وموته، والحق سبحانه هو الباقي بعد فناء مخلوقاته كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

الفرق الثاني عشر: أن كل ما سواه مِنَ الفاعلين فإنه لا ينفكّ فِعله عن الخلل

بعد زمان، والحق ﷻ غني عن المهلة والزمان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: 40] وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: 77] والمعنى أني أميتهم عند النفخة الأولى في أقل من لمحة البصر وأحييهم عند النفخة الثانية في أقل من لمح البصر، وأردُّ في هذه اللحظة اللطيفة جميع الأرواح إلى أشباحها الأصليّة من غير غلط ولا خلل، وإنما أمكن ذلك لكونه تعالى قادراً على جميع المقدورات عالماً بجميع المعلومات.

الفرق السادس: أنّ كل من فعل فعلاً فإنه يتعب بسبب ذلك ويشق عليه، والحق ﷻ يدبّر مِن العرش إلى ما تحت الثرى في تخليق ذواتها وإيجاد صفاتها مِن غير تعب ولا نَصب قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: 38] وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: 15].

فإن قيل: أليس إنه تعالى قال في الإعادة: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27][1]، وهذا يقتضي نوعاً من التعب في الخلق الأوّل.

قلنا: هذا إنّما ذكره على حسب المعتاد، فإن في العادة الابتداء أصعب من الإعادة؛ فلمّا سلّموا أنه لا تعب في الابتداء فبأن لا يمتنع له الإعادة أولى.

الفرق السابع: أن كل فاعل فعل فعلاً فإنّه يتغيّر أولاً في نفسه ثم بسبب تغيّره يحصل الفعل خارج ذاته كالكاتب فإنّه ما لم يحرّك أصابعه لا يمكنه أن يكتب.

والحق ﷻ مُنزَّه عن ذلك، ولو توقفت فاعليّته على حدوث تغير في ذاته لكان المحدث لتلك الحالة المتغيّرة هو الله ﷻ فكان[2] يفتقر أحداث تلك الحالة إلى حدوث حالة أخرى ولزم التسلسل وهو تعالى غير مفتقر يُغني ويفقر ويمرض ويبرىء ويميت ويحيي ويُسعد ويشقي ويُطعم ويسقي ويدبر السمٰوات والأرضين من غير معين، فالبحار والجبال والدواب والذوات والصفات تحت تدبيره ومشيئته وهو منزّه في ذاته وصفاته من أنواع التغير والتحول والزوال والحركة والانتقال لا يعلم ما هو إلاّ هو.

(1) ويوجد في الأصل بعد الآية (أي عندكم).
(2) فكان في الأصل فكأنه.

الفصل السادس:
«في شرح كون السموات خالية عن العبث والنقصان والتفاوت»

قال تعالى في سورة الملك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۢ فَٱرْجِعِ﴾ واعلم أن المقصود من هذه الآية لا يظهر إلاّ بعد تفسير هذه السورة من أوّلها إلى آخرها، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

اعلم أنه تعالى جعل لفظ ﴿تَبَارَكَ﴾ مطلعاً لسورتين:

إحداهما: سورة الفرقان، وهي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، والثانية هذه السورة فنقول: أما لفظ ﴿تَبَارَكَ﴾ فقال الزجاج: تبارك، تفاعل من البركة، والبركة كثرة الخير وزيادته، وفيه معنيان:

أحدهما: تزايد خيره وتكاثر برّه وهو المراد لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34].

والثاني: معناه تزايد عن كل موجود وتعالى عن كلّ شيء في ذاته وصفاته وفي أفعاله، وهو المراد من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11] أما تعاليه عن كل شيء في ذاته فيحتمل أن يكون المعنى: جلّ وجوب وجوده ودوام قدمه عن جواز الفقر والغنى، ويحتمل أن يكون المعنى، جلّت فردانيّته ووحدانيّته عن مشابهة الأضداد ومشاكلة الأنداد ومنازعة الأكفاء.

أما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى: جلّ في قدرته وفي علمه عن أن يخرج عنها شيء من المعلومات والمقدورات، ويحتمل أن يكون المعنى، جلّ علمه عن أن يكون ضرورياً واستدلالياً أو تصوريّاً وتصديقيّاً، وجلّت قدرته عن أن يحتاج في فاعليته إلى مادة ومدة وآلة، وجرّ نفعٍ ودفع ضرٍ.

والنقصان والحق ﷻ فعله غني عن الخلل والنقصان قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: 3 - 4].

ولو أنه جعل عقول جميع العقلاء عقلاً واحداً ثم بذلك العقل تفكروا في جناح بعوضة حتى يختاروا تركيباً أحسن منه وأكمل منه لفنيت العقول وانقطعت تلك الأفكار ولا تصير ذرة من ذرات حكمة الله في خلقه تلك البعوضة معلومة على سبيل الكمال والتمام.

فهذا مجمع الفرق بين فاعلية العبد وفاعلية الحق، ولما كانت فاعليته غنية عن المادة والمدة والآلة والعدّة والزمان والمكان وجلب الأغراض وتغير الأحوال والأغراض كان الحق سبحانه هو الفاطر للأشياء.

فلهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1] والله أعلم بحقائق الأشياء.

الفائدة الثانية: أنه ﷻ لما قال في أول [السورة][1]:

تبارك، ومعناه الخير والبركة ثم ذكر عقيبه أمر القرآن دلّ ذلك على أن القرآن منشأ أعظم الخيرات وأكمل البركات، لكن المستفاد من القرآن هو العلم والمعرفة والحكمة؛ فدلّ هذا على أنّ [العلم][2] أشرف المخلوقات وأنفع المحدثات وأكثرها خيراً وبركة.

الفائدة الثالثة: لا نزاع بالإجماع أن المُراد من العبد هٰهنا محمّد ﷺ، وسمعت بعض المشايخ قال: لمّا أسرى بمحمّد ﷺ إلى (قاب قوسين) أوحى الله تعالى إليه وقال: بمَ تريد أن أشرّفك؟ فقال: «**إلٰهي أريد أن تشرّفني بأن تذكرني بكوني عبداً لك**» فأوحى الله ﷻ إليه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1].

فانظر إلى هذه الدقيقة: وصف نفسه في هذه السورة بالتسبيح والتقديس والتنزيه حتى سماه عبداً، وفي سورة الفرقان بكونه مباركاً ومتعالياً حتى سمّاه عبداً، وهذا يدلّ على أن كلّ من كان أشد عرفاناً بعبوديته وذلته وخضوعه وافتقاره كان تجلي أنوار قدس جلال الله في عقله أتمّ وظهور نور كبريائه على وجهه أجلى وأعظم.

الفائدة الرابعة: اختلفوا في المراد بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ومنهم [من قال][3]: المعنى ليكون هذا القرآن نذيراً، وأضاف الإنذار إليه كما أضاف الهداية إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، إلّا أن هذا وإن كان محتملاً لكنّ جعل النذير صفة لمحمد ﷺ أولى من جعله صفة القرآن **ويدل عليه وجهان:**

الأوّل: أن نصّ القرآن دلّ على أن النذير صفة لمحمّد ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: 45].

الثاني: أن جعل النذير صفة لمحمّد ﷺ [حقيق][4] وجعله صفة للقرآن مجاز وحمل الكلام على الحقيقة أولى.

الفائدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ يدل على أن محمداً ﷺ

(1) [السورة] في الأصل سورة.
(2) [العلم] في الأصل العمل.
(3) [من قال] زيادة يقتضيها السياق.
(4) [حقيق] زيادة يقتضيها السياق.

وأما تعاليه فهو الملك الحق مطلقاً أي هو الغني عن كل ما سواه في ذاته وفي صفاته وفي أحواله، وكل ما سواه فهو محتاج إليه في ذواتها وفي صفاتها وفي أحوالها، حالتي حدوثها وبقائها، وتجددها واستمرارها، لا تنقطع الحاجات إليه ولا تزول الافتقارات إليه، وكل موجود فبإيجاده موجود وكلٌ باقٍ فبإبقائه باقٍ، شهدت الحاجات في غيره على تقدسه عن الحاجات، ودلّت التغيرات في غيره على كونه منزهًا عن التغيرات.

وقال آخرون: أصل الكلمة يدل على البقاء وهو مأخوذ من بروك البعير ومن بروك الطائر على الماء، وسميت البِركةُ بِركةً لثبوت الماء فيها.

والمعنى: أنّه ﷻ بَاقٍ في ذاته أزلاً وأبداً، فمنع التغيرات في صفات جلاله ونعوت جماله يمنع التبدُّل.

ولما كان الحق ﷻ هو المعطي لجميع جهات المنافع والمصالح والميسّر لكل المطالب والمناجح وجب وصفه بأنه: تبارك.

إذا عرفت هذا فنقول: أنه تعالى ذكر في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ وقال في سورة الملك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ ونحن نفسر كل واحد منهما بقدر عقولنا القاصرة وأفهامنا الناقصة ونَكِل أسرارها إلى علمه الكامل وحكمه المحيط، **فنقول: في قوله**: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ **فوائد**:

الفائدة الأولى: أن الفرقان هو القرآن، وُصف بذلك من حيث أنّه سبحانه فرّق به بين الحق والباطل والحجة والشبهة في دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد.

أو لأنه فرق في النزول كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]، وهذا التأويل أقرب لأنه تعالى قال: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ولفظ نزل يدل على التفريق.

أو لأنّه فرق بين الشرائع والأحكام والحلال والحرام فخصّ بعضها بالإيجاب وبعضها بالتنزيه فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: 7].

فهذه وجوه ثلاثة في بيان أنّ القرآن لِمَ [سُمّي][1] الفرقان؟

---

(1) [سمى] في الأصل سمّاه.

منك التكليف والأمر والنهي مع أنك منزه عن الضرّ والنفع، والمكلفُ لا ينتفع بهذا التكليف؟

فأجاب الحق تعالى فقال: إنما حسن مني ملك التكليف، لأنه حصل لي ملك التخليق؛ فالكلُّ عبيدي وللمالك أن يتصرف في ملكه ومُلكه كيف شاء أو أراد، ولا اعتراض للعبد على مالكه ألبتّة، فلهذا قال تعالى بعد تلك الآية: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

والوجه الثاني: في بيان النظم أنه تعالى لما وصف نفسه بكونه مرسلاً للرسل وذلك يتوقف على ثبوت ذاته وثبوت صفاته لا جرم أردفه بما يدل على جميع ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فاستدل على وجوده وكمال قدرته وكبريائه وإلٰهيته بملكوت السمٰوات والأرض.

ووجه الاستدلال بملك السمٰوات والأرض على وجود الصّانع وصفات جلاله قد شرحناه فيما قبلُ. ثم في هذه الآية فائدتان:

الأولى: أن الملك إشارة إلى القدرة والمتكلمون بيّنوا أن أولى العلم بالله هو العلم بكونه قادراً فلهذا السبب قدم ذكر هذه الصفة.

الفائدة الثانية: أن قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى احتياج جميع المخلوقات إليه، حالتي حدوثها وبقائها؛ وذلك لأن علة الحاجة هي الإمكان، والإمكان من لوازم هذه الماهيات؛ فهي ممكنة حالتي حدوثها وبقائها فهي محتاجة إلى المؤثر والمدبر حالتي حدوثها وبقائها، في ماهيّاتها وفي وجوداتها وفي صفاتها؛ فلا جرم كان الحق ﷻ مالك الملك لجميع الممكنات على الإطلاق أزلاً وأبداً، وهو المتصرف فيها كيف شاء وأراد، لا رادّ لما حكم ولا ناقض لما أبرم له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

الصفة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: 2].

اعلم أن صفات الله على قسمين: صفات الجلال، وصفات الإكرام.

أمّا صفات الجلال: فهي عبارة عن تنزيه الله عز وجلّ عمّا لا يليق به في ذاته وصفاته وأفعاله.

مبعوث إلى جميع العالمين؛ وذلك لأن لفظ العالم عبارة عن كل موجود سوى الله فيدخل فيه جميع المكلفين من الجنّ والإنس والملائكة، كلنا أجمعنا على أنه عليه أفضل السلام ما كان رسولاً إلى الملائكة فبقي كونه رسولاً إلى الإنس والجنّ جميعاً، وتأكد هذه الآية بآيات أخر:

إحداهما: قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبإ: 28].

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ [الإسراء: 88].

الثالثة: سورة الجن وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾.

الفائدة السادسة: أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فهذه الآية تدل على أنه ﷺ رسول إلى الخَلق إلى يوم القيامة.

وهذه الآية متأكدة بقوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: 40] واعلم أنه تعالى وصف ذاته بعد هذه الآية بأربعة أنواع من صفات الكبرياء والجلال والقدس والعظمة.

أولها: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها من وجهين:

الوجه الأول: أن لله تعالى على العباد نوعين من الملك، أحدهما: ملك التكليف؛ وذلك لأنه تعالى ملك مطاع في المخلوقات لأنه مالكهم وخالقهم ومدبرهم، والمتصرف فيهم والمستولي عليهم، وكان ملكاً مطاعاً، والملك المطاع من له الأمر والنهي.

الثاني: ملك التخليق، فقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ الآية إشارة إلى تقدير ملك التكليف ثم قال بعده: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهو إشارة إلى ملك التخليق؛ فإن ملك [التكليف] معلل بملك [التخليق] فلمّا قال: ﴿نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أثبت بهذه الآية التكليف لنفسه، كأنه قيل: وَلِمَ يحسُنُ

صفات الجلال عبارة عن السلوب ويكفي في تحقيق هذه السلوب الذات المخصوصة من حيث هي هي وأما صفات الإكرام فإنها لا تظهر إلا عند وجود الممكنات وما يكفي فيه ذاته من حيث أنه هو متقدم في المرتبة على ما لا بد معه من غيره. والجواب هاهنا مرتبتان:

الأولى: أن يتوسل بمعرفة غير الله إلى معرفة الله وهذا هو مقام عروج المسافرين إلى الله تعالى والمسافرين إلى حضرة جلال الله.

الثانية: أن يتوسل بمعرفة ذات الله إلى معرفة غير الله وهذا مقام نزول خواص حضرة الله عن تلك الحضرة المقدسة إلى الالتفات إلى غيرها، فإن اعتبرنا المرتبة الأولى كانت معرفة صفات الإكرام مقدمة على معرفة صفات الجلال لأنها في هذه المرتبة يستدل بالمخلوقات على الخالق ثم يستدل بعدم افتقار الخالق إلى خالق آخر على كونه منزهاً عن مشابهة المخلوقات. وأما إن اعتبرنا المرتبة الثانية وهي مرتبة النزول كان تحقق صفات الجلال مقدماً بالمرتبة على تحقق صفات الإكرام، فإن تلك السلوب يكفي في تحققها الذات أما الإضافات فلا يكفي فيها الذات الواحدة بل لا بد في تحققها من حصول المضافين. إذا عرفت هذا فنقول أنه تعالى لما قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: 1] فكأنه قيل كونه مرسلاً للرسل إنما يثبت لو ثبت كونه موجوداً فما الدليل على وجوده وقدرته؟

فيقال الدليل عليه ملك السمٰوات والأرض وهذا هو مرتبة العروج من الخلق إلى الخالق فلا جرم قدم هاهنا صفات الإكرام على صفات الجلال، وأما قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 27] وقوله ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمٰن: 78] فليس المقصود هاهنا ذكر الاستدلال بل المقصود منه الاستخبار عن نعوت قدسه وعظمته وكبريائه فكانت صفات الجلال مقدمة في هذا المقام على صفات الإكرام فسبحان من أودع هذا الكتاب الكريم أسراراً يعجز العقول عن إداركها.

فقد ظهر بما ذكرنا أن الترتيب الصحيح في هذا المقام هو أنه تعالى قدم صفات الإثبات فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم ذكر بعد ذلك صفتين من صفات الجلال:

أولهما: نفي الولد، **والثانية**: نفي الشريك، ثم ذكر بعدهما ما تركب عن صفة

وأما صفات الإكرام: فهي عبارة عن وصف الله بالصفات التي يمكن كونه خالقاً للعالم على نعت الإحكام والإتقان فقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من قسم صفات الإكرام، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ من قسم صفات الجلال.

وأعلم أن تعالى لمّا وصف نفسه بملك السمٰوات والأرض قال بعده:

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وهو إشارة إلى أنه المدبر للعالم، والمعبود للخلق أبداً، ولا يصح أن يصير غيره وارثاً للملك، فيكون نفي الولد كالمؤكد لقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ ولقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنه قيل: المفتقر إلى الولد هو الذي ينقضي ويموت حتى يقام ولده مقامه. فأمّا من كان متباركاً دائم الوجود ممتنع التغير فكيف يليق به الولد؟

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: 2] والمُراد أنّه سبحانه هو المنفرد بهذه الصفات فإنه هو الواجب لذاته وما سواه ممكن لذاته، وهو الموجد للممكنات وما سواه فعن صفة الموجدية الجلالية معزول، فإذا عرف العبد ذلك انقطع رجاؤه وخوفه عن الخلق ولا يبقى مشغول القلب ملتفت الخاطر إلّا به وبفضله وبرحمته وإحسانه جلّ وعزّ، وهذه الآية رد على الثنوية والقائلين بإلٰهية النجوم وعبدة الأوثان.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ففي هذه الآية فوائد:

الأولى: أن قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى صفة من صفات الإكرام ثم قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ إشارة إلى ذكر صفتين من صفات الجلال ثم قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى ما يتركب من صفات الإكرام وصفات الجلال، لأنه إشارة إلى أنه هو الخالق وإلى أن غيره ليس بخالق.

فإن قيل: صفات الجلال أولى بالتقديم من صفات الإكرام.

قلنا: يدل عليه القرآن والبرهان.

أمّا القرآن فهو تعالى ذكر الجلال والإكرام في آيتين فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: 27] وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمٰن: 78] وفي كلّ واحدة من هاتين الآيتين قدم الجلال على الإكرام. وأمّا البرهان فلأن

ذلك بما يقبل التقدير وهو الجسم الذي له حجم وامتداد، والجواب: أما الآيات الدالة على كون العبد خالقاً فنقول هاهنا آيات دلت على أن العبد غير خالق وآيات دلت على أنه خالق ولا بد من التوفيق بينهما فتحمل الآيات الدالة على كون نفي الخالقية على نفي كون العبد موجداً والآيات الدالة على كونه خالقاً على كونه متصوراً متفكراً متقدراً في ذهنه أموراً قوله لا يمكن التمدح بخلق العبث. قلنا لا يمكن التمدح بخلقها من حيث أنها عبث لكن لم لا يجوز التمدح بخلقها من حيث أنها إخراج الشيء من العدم إلى الوجود فقط، قوله لفظ الخلق لا يتناول إلا الأجسام قلنا: لو كان كذلك لكان قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ خطأ لأنه ليس كل شيء جسماً.

(الفائدة الثالثة) من أسرار هذه الآية أن كثيراً من الناس زعموا أن الخلق هو التقدير فقط وأصحابنا زعموا أنه حقيقة في الإيجاد والإبداع وهذه الآية دالة على قولنا إذ لو كان الخلق عبارة عن التقدير لكان قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ مكرراً من غير فائدة ونظير هذه الآية في الدلالة على هذه المسألة قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾ [الأعلى: 1 ـ 2] فلو كان الخلق هو التقدير لكان قوله وخلق وقدر تكريراً.

(الفائدة الرابعة): أنه تعالى قال: فقدره تقديراً، والتقدير في حق الواحد منا يرجع إلى الظن والحساب أما في حقه جل وعلا فما معنى له إلا العلم والإخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة.

إذا عرفت هذا فنقول مذهبنا أن الأمر والإرادة لا يتلازمان وذلك أنه سبحانه وتعالى لما علم في الشيء الفلاني أنه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلاً وانقلاب خبره الصدق كذباً وذلك محال، والمفضي إلى المحال محال فإذا وقع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد ثم أنه مأمور به فثبت أن الأمر والإرادة لا يتلازمان، فظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه.

واعلم أن الأمر والإرادة عندنا لا يتلازمان، والإرادة والعلم يتلازمان، وعند المعتزلة الإرادة والأمر يتلازمان والإرادة والعلم لا يتلازمان. وتحقيقه ما ذكرنا.

فهذا ما يتعلق بهذه الآية أما قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فاعلم أن الفرق بين هذه الآية وبين الآية المتقدمة من وجوه:

الإكرام وصفة الجلال فقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وذلك لأن قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يدل على كونه خالقاً للأشياء وهي صفة الإكرام وعلى أن غيره لا يشاركه في هذه الصفة وهي صفة الجلال ومعلوم أن تقدم المفرد على المركب واجب فهذا هو الإشارة إلى ترتيب الصفات المذكورة في هذه الآية.

(الفائدة الثانية): من أسرار هذه الآية أنها دالة على أنه سبحانه وتعالى خالق أعمال العباد وذلك لأن قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ نظير لقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: 62].

وقد دلّلنا على أن الخلق عبارة عن الإيجاد.

وهاهنا لطيفة تؤكد هذا المقصود وهي أنه تعالى نفى الشريك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111] فكأن قائلاً قال: هاهنا أقوام يعترفون بنفي الشركاء والأنداد ومع ذلك يقولون أنهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله هذه الآية لتكون نصاً صريحاً في الرّد عليهم.

فإن قيل: هذه الآية لا تدل على هذا المطلوب ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه تعالى صرح بكون العبد خالقاً فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: 110] وقال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17] وقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

الثاني: أن يقال ذكر ذلك في معرض المدح ولا يجوز أن يتمدح بكونه فاعلاً لأفعال العباد وما فيها من القبائح [لأنه] تعالى تنزه عن فعل القبائح في سائر الآيات فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: 27].

وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115] وقال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ولا يجوز أن يريد به الحكمة والصواب، ألا ترى أنه تعالى نفى التفاوت عن أفعال نفسه فقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ فقالوا: يثبت بهذه الوجوه أنه لا بد من تأويل لو دلت الآية بظاهرها على قولكم فكيف ولا دلالة فيها على قولكم، لأن الخلق عبارة عن التقدير فيختص

جميع القادرين يفتقرون في الفعل والتكوين إلى تقديم مادة ومدة وزمان ومكان وآلة ورويّة، ثم قد يمتنع عليهم تكوين مقدورهم لأجل أنه يمنعه عنهم مانع ومعارض وكل ذلك على الله محال فلا جرم صدق قولنا أنه قادر على كل شيء وصدق أيضاً في المغالبة هو أنه قادر على كل شيء ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

فاعلم أنه تعالى لما ذكر أولاً أن بيده ملك الموجودات والمعدومات ثم قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ وزمان التصرف في كل الكائنات والممكنات خصص بعده بالذكر ملك الإحياء والإماتة فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28] **وإنما قدّم الموت على الحياة لوجوه:**

الأول: لو قال قائل: لِمَ قدّم الموت على الحياة؟ **قلنا**: يعني بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح فيه.

الثاني: أنه لما ذكر عقب هذه الآية أنه تعالى ابتلى الخلائق بالتكاليف فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والعقلاء من الناس إنما يقدمون محاسن الأعمال لخوف ما بعد الموت فكان أقوى تأثيراً من هذا المقصود فلا جرم قدم ذكر الموت على الحياة.

والثالث: أن المراد بهذا الموت المذكور في هذه الآية، الموت الذي بعده هذه الحياة العاجلة ألبتة وذلك لأن الحياة حياة بعد موتين أحد الموتين من الأزل إلى الآن والموت الثاني من الأزل إلى الأبد فلا جرم أنزل الله تعالى ذكر هذه الحياة لخسّتها وقلتها، وأما الحياة في الدار الآخرة فهي الحياة الأصلية لأنها حياة مؤبدة ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64] ثم قال بعد ذكر الموت والحياة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ والابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي وذلك في حق الله محال، وسيجيء تمام هذه المسألة إن شاء الله تعالى في باب التكليف.

والحاصل هو أن الابتلاء من الله تعالى هو أن يعامل عبده معاملة تشبه عمل المُمتحنين.

واعلم أنا إن فسّرنا الموت والحياة بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة

الأول: أن في سورة (الفرقان) أثبت لنفسه أولاً ملك التكليف والحكم والأمر والنهي ثم أردفه بأن أثبت لنفسه ملك السمٰوات والأرض، وأما في سورة (الملك) فإنه أثبت لنفسه أولاً الملك على الإطلاق فقال: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وهذا يتناول جميع أقسام الملك من ملك التكليف وملك التخليق وملك الإنفاق وملك الإفناء كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26].

الفرق الثاني بين الاثنين: أنه تعالى قال في تلك الآية: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال في سورة الملك: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فذكر لفظ اليد هاهنا والفائدة في ذكر هذه اللفظة أنه تعالى لما أثبت لنفسه أنواع الملك حتى دخل فيه ملك الأجسام من فوق العرش إلى ما تحت الثرى وملك الأرواح المشار إليه بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31] فكأن سائلاً قال: المدبر الواحد كيف يمكنه الوفاء بتدبير كل هذه الممالك التي لا نهاية لأحوالها ولا غاية لكميّتها وكيفيتها؟ فأجاب: بأن كل هذه الممالك في يده وفي قبضته كما قال في آية أخرى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67] وذلك لأن كمال القدرة على الشيء أن يكون ذلك الشيء في يده فجعل كونه في يده مجازاً عن كمال القدرة فلهذا المعنى قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى أن بيده ملك جميع الموجودات وهو قادر على خلق المعدومات التي تكون من الممكنات فقوله (بيده) إشارة إلى ملك تلك الموجودات بالاتفاق من الإيجاد والإعدام وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إشارة إلى ملك المعدومات بالإيجاد والإبداع.

فإن قيل: القدير مبالغة في القادر فلو قال: وهو على كل شيء قادر أفاد ذلك كونه تعالى قادراً على كل واحد من تلك المقدورات التي لا نهاية لها، فإذا كان القدير للمبالغة وجب أن يفيد هذا زيادة على كونه تعالى قادراً على كل واحد من تلك المقدورات لكن الشيء الواحد لا يقبل التفاوت فلا يتطرق الزيادة والنقصان إليه فما معنى هذه المبالغة؟.

قلنا: لو أنه تعالى قال: وهو على كل شيء قادر أفاد ذلك كونه تعالى قادراً على كل المقدورات فلما قال وهو على كل شيء قدير أفاد ذلك زيادة قدرته في كل واحد من المقدورات وتلك الزيادة والمبالغة راجعة إلى ما بيناه في ما تقدم من أن

وإنما قدم ذكر العزيز على الغفور ليظهر به كمال الدرجة لأن الإنسان قد يغفر ذنب عبده إما لأنه لا يقدر على الانتقام في الحال أو لأنه وإن قدر عليه في الحال لكنه تركه لأنه يخاف توابع ذلك الانتقام وعواقبه، فهاهنا ذكر تعالى أنه عزيز قادر قاهر غالب لا يمتنع عليه فعل شيء ولا يخاف عاقبة شيء من الأشياء، ثم إنه مع ذلك غفور يتجاوز عن سيئات عباده ليظهر بذلك كمال كرمه ورحمته. ثم فيه دقيقة أخرى: وهي أن العبد له من الظلم ثلاثة أسماء بعد ذلك وللرب من المغفرة ثلاثة أسماء، أحد أسماء العبد: "الظالم" كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وفي مقابلته للرب ﷻ من المغفرة اسم "الغافر" قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾. الاسم الثاني للعبد: "الظلوم" قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وفي مقابلته للرب من المغفرة اسم "الغفور" كما في هذه الآية وكما في قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾. الاسم الثالث للعبد: الظلام ومقابلة للرب من المغفرة الغفار فقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ وقال في سورة نوح عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ فكأنه قال: لا تخف ولا تيأس فإن كنت ظالماً فأنا غافر، وإن كنت ظلوماً فأنا الغفور، وإن كنت ظلاماً فأنا الغفار.

ثم اعلم أنه تعالى لما ذكر كونه عزيزاً غفوراً، وكونه عزيزاً غفوراً لا يتم إلّا إذا كان قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات، فلعله لا يتمكن من إيصال خيرٍ لكل واحدٍ على سبيل الكمال والإتمام سواء كان عقاباً أو ثواباً، وأما أنه لا بد من العلم بكل المعلومات فلأجل أن يعلم المطيع من هو؟ والعاصي من هو؟ حتى لا يقع الخطأ في إيصال الحق إلى مستحقه فثبت أن كونه عزيزاً غفوراً لا يمكن الإقرار بهما إلّا بعد الإقرار بكونه تعالى عالماً بكل المعلومات قادراً على الممكنات، فلهذا السبب ذكر الله تعالى عقب هذه الآية ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال العلم، ولمّا ثبت في علم الأصول أن أولى العلم بالله هو العلم بكونه قادراً لا جرم قدّم دلائل القدرة على دلائل العلم. أما دليل إثبات القدرة فهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ قال صاحب الكشاف في قوله طباقاً ثلاثة أوجه: أحدها طباقاً أي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النّعل إذا خصفها طبقاً على طبق وهذا وصف المصدر.

الوجه الثاني: أن يكون التقدير طوبقت طباقاً واعلم أن دلالة السمٰوات وطبقاتها على وجود الصانع الجبار الحكيم قد تقدم شرح أقسامها في هذا الكتاب فلا تعاد. وأما دليل إثبات العلم فهو قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ واعلم أن

وبالحياة حياة الدنيا فوجه الابتلاء على هذا التفسير أن يعلم العبد أنه تعالى هو الذي نقله من الموت إلى الحياة، وكما فعل ذلك فلا بد أن يكون قادراً على أن ينقله من الحياة إلى الموت فيحذر مجيء الموت الذي به ينقطع استدراك ما فات فلا يقصّر، وأما إن فسّرنا الموت والحياة بالموت في الدنيا والحياة في القيامة فالابتلاء فيها أتم لأن الخوف من الموت في الدنيا حاصل وأشدّ منه الخوف من الحياة في القيامة.

واعلم أن أول هذه السورة مع أول سورة الفرقان متشابهان في المقصود وذلك لأنه تارةً يذكر الحكم ثم يذكر عقبه سببه وعلّته، وأخرى بالعكس من ذلك وهو أن يذكر السبب والعلة أولاً ثم يذكر الحكم عقبه.

إذا عرفت هذا فنقول: في سورة الفرقان ذكر آية التكليف أولاً بقوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ثم ذكر العلة والسبب بعده فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأما في سورة الملك فإنه ذكر السبب والعلة أيضاً وهو أنه مالك الملك على الإطلاق ومالك الملك في الإحياء والإماتة ثم أنه ذكر الحكم بعده وهو حسن التكليف فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فانظر إلى هذه المناسبات العجيبة والأسرار اللطيفة ثم إن المفسرين ذكروا في تفسير أحسن عملاً وجوهاً:

الأول: قال أبو قتادة: المعنى أيكم يأتي بالأعمال على وجه الإخلاص والصواب لأن العمل إذا كان صواباً غير خالص لم يقبل أيضاً بل المقبول هو أن يكون صواباً وخالصاً لوجه الله والصواب هو أن يكون على وفق أمر الله والخالص هو أن يؤتى به لوجه الله.

الثاني: قال أبو قتادة: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: يقول أيكم أحسن عملاً قال ﷺ: «**أتمكم عقلاً أشدكم خوفاً وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه**» نظراً وإنما جاز تفسير حسن العمل بتمام العقل لأن حسن العمل من نتائج كمال العقل فمن كان أتمّ عقلاً كان أحسن عملاً.

الثالث: قال الحسن: أحسن عملاً أزهد في الدنيا وأشدّ تركاً له.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: وهو الغالب الذي لا يعجزه من أساء في الأعمال، الغفور لمن تاب وآمن وأناب،

[التكوير: 11]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8]، ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ [الطور: 9] ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمٰن: 37].

والكلام في شرح هذه الأحوال سيجيء إن شاء الله تعالى في باب كيفية قيام القيامة.

وبالله التوفيق

تم كتابة الجزء الأول من هذا الكتاب ويليه الجزء الثاني وأوله:

«الفصل السابع في الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع»

حقيقة التفاوت عدم التناسب، كأن بعض الشيء لا يشبه بعضاً ولا يلائمه، يقال: هذا خلق متفاوت ونقيضه متناسب وللمفسّرين فيه وجوه ثلاثة: قال السري: ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت أي من اختلاف وعيب يقول الناظر: لو كان كذا لكان أحسن، وقال آخرون: التفاوت الفطور بدليل قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ وقال القفال: يحتمل أن يكون المعنى: ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها وعلمه وقدرته. واعلم أن وجه الاستدلال بهذا المعنى على كمال علم الله أن نقول أن الحس دلّ على أن هذه السمٰوات وقع تركيبها على وجه عجيب بديع موافق للمصلحة والحسن، وكل فاعل كان فعله كذلك فهو لا بد أن يكون في غاية العلم والحكمة فقوله: ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت إشارة إلى كونها محكمة ومتقنة، والإحكام والإتقان عند المتكلمين يدل على علم الفاعل دلالة ضرورية. ثم قال تعالى بعده:﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ كأنه قال بعده: ولعلك لا تحكم بمقتضى النظر الواحد ولا تعول عليه بسبب أنه قد يقع الغلط في النظرة الواحدة، ولكن ارجع البصر واردد النظر مرة بعد أخرى حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمٰن من تفاوت ولا عيب ولا فطور، والعجب أنه قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ثم بيّن في هذه الآية أنه ليس فيها عيب ولا فطور ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ فليس فيها فطور ولا فروج وليس فيها تفاوت بل هي سبع شداد وسبع طباق وبناء مرفوع وسمك مصنوع، وفيها آيات قاهرة وبراهين باهرة على وحدة صانعها وقدرة مقدرها ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ أمره بتكرير البصر في خلق السمٰوات على سبيل التصفّح هل تجد فيه عيباً وخللاً؟ يعني أنك وإن كررت هذا النظر مراراً وأطواراً لم يرجع إليك بصرك بما تطلبه من وجدان الخلل والعيب، بل يرجع إليك خاسئاً أي مُبعداً وهو مأخوذ من قولك: خسأت الكلب إذا بعّدته قال المبرد: الخاسىء البعيد المصغى قال ابن عباس: (الخاسىء الذي لا يرى ما يهوى والحسير الكليل) والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيباً ولا فطوراً ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وسنذكر تحقيق هذه الآية وأسرارها في باب الاستدلال بأحوال الكواكب على وجود الصانع.

فهذا جملة الكلام في هذه واعلم أنّه بقي من الصفات المذكورة في القرآن للسمٰوات صفاتها عند قيام القيامة كقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: 1] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: 1]،﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات: 9]، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾

أسرار التنزيل وأنوار التأويل

للإمام فخر الدين الرازي

تحقيق

محمود أحمد محمد   بابا الشيخ عمر

صالح محمد عبد الفتاح

الجزء الثاني

ثم إنّه تعالى لمّا شرح أحوال هذه الفرق الثلاث شرع بعد ذلك في تقرير الدلائل، فبدأ بذكر دلائل الصانع وذكر من الأنفس دليلين ومن [الآفاق][1] ثلاثة.

أمّا من الأنفس فقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: 21] وأمّا من الآفاق فقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾. ثم ذكر بعد هذه الدلائل دلائل نبوّة محمد ﷺ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِى رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23].

ثم ذكر بعده صورة الحشر والنشر والقيامة فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] ثم أورد سؤالاً على الدليل الذي ذكره على نبوة محمد عليه أفضل السلام؛ ذلك لأنه استدلّ على نبوّته بعظم حال القرآن وكمال درجته، فطعن الكفار فيه فقالوا: كيف يكون عظيم الدرجة وهو مشتمل على شرح حال الحيوانات الخسيسة كالبعوضة والنمل والذباب والعناكب، فأجاب الله تعالى عن هذا السؤال بقوله جلّ وعزّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡىِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة:26] ثم ساق آخر هذا الجواب [إلى][2] مسألة القضاء والقدر وهو قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26] إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وعند هذا تمّت الدلالة على تقرير هذه الأصول الأربعة، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقدر.

ثم بعد تقرير هذه الأصول بالدلائل القاهرة والبراهين الباهرة شرع في تعديد النعم، ومعلوم أن النعم منها عامة ومنها خاصّة فقدم ذكر النعم العامة على غيرها ومعلوم أن أصل جميع النعم هي الحياة، فإنه لولا الحياة لما كان الانتفاع بشيء من النعم ممكناً فلا جرم [أن][3] أول النعم التي ذكرها الله تعالى في الحياة فقال: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتًا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 28] الآية، **وفي هذه الآية فوائد:**

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ وإن كان في صورة الاستخبار[4] إلّا أن المراد منه التبكيت والتعنيف لأن عظم النعم يقتضي عظم معصية المنعم، بيان

---

(1) الآفاق في المخطوطة الأوفاق.

(2) إلى الظاهر بدون إلى.

(3) [أن] زيادة يقتضيها السياق.

(4) الاستخبار الظاهر الاستفهام.

الفصل السابع:
في الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع

اعلم أنّه ﷻ نبّه على الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع وقدرته وعلمه وحكمته وجلالته في آيات منها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22].

واعلم أنه تعالى ذكر أنواع منافعها على الشرح والتفصيل في كتابه الكريم.

النوع الأول: من منافع الأرض أنه خلق كلَّ ما في الأرض قال في أول سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] وقال في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 65].

واعلم أن الكلام في الآية المذكورة في سورة البقرة لا يتم إلّا بتفسير ما قبلها، واعلم أنه تعالى ذكر في أول هذه السورة خمس آيات في تعظيم المؤمنين وهي إلى قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ثم ذكر بعد ذلك آيتين في ذم الكفار وهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم ذكر ثلاث عشرة آية في ذم المنافقين وهي من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 8] إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

فإن قيل: كفر الكافر المتظاهر بكفره أغلظ من كفر المنافق، فلماذا كان ذم الكافر في آيتين والمنافق في آيات كثيرة؟

قلنا: لأن الكافر وإن كان كافراً إلّا أن طبعه طبع الرّجال؛ فما يُضمِرُه يُظهره، وأمّا المنافق فطبعه طبع المخنثين يضمر شيئاً ويظهر شيئاً؛ فلهذا ورد ذمه أكثر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145].

أردت الكفر مني وهذه الإرادة موجبة، **والثالث**: أنّك خلقت الكفر وأنا لا أقدر على إزالة فعلك، **والرابع**: أنّك أخبرت عن وجود هذا الكفر وأنا لا أقدر على جعل خبرك الصدق كذباً، **والخامس**: أنك خلقت قدرة لا تصلح إلاّ للكفر، **والسادس**: أنّك خلقت إرادة جازمة للكفر، **والسابع**: أنك زيَّنت الكفر، **والثامن**: أنك سلّطت على القلب الرّين والطبع والوقر والغشاوة والختم وكل ذلك أسباب موجبة للكفر ثم لمّا خلقت هذه الأسباب الثمانية الموجبة للكفر سلبت مجموع الأسباب الثمانية المعتبرة في حصول الإيمان فقد حصل لعدم الإيمان ستة عشر سبباً كلُّ واحد مستقل بالمنع من الإيمان، ومع قيام هذه الأسباب الكثيرة كيف يحسن التوبيخ على الكفر والترغيب في الإيمان؟ **والتاسع**: أنه تعالى قال لرسوله: قُل لهؤلاء الكفار: كيف تكفرون بالله الذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة أعني نعمة الحياة، وعلى قول أهل الجبر لا نعمة له تعالى على الكافر وذلك لأن عندهم، كل ما فعله الله تعالى بالكافر فإنما فعله ليستدرجه إلى الكفر ويحرقه بالنار، وعلى هذا التقدير فأي نعمة تكون لله على العبد؟ وهل يكون ذلك إلاّ بمنزلة من قدّم فالوذجاً إلى ضيف مسموماً فإن ظاهره تكرمة وباطنه بخلاف ظاهره فإن ظاهره وإن كان يعدّ نعمة ولكن لمّا كان باطنه مهلكاً فإنّ أحداً لا يعده نعمة، ومعلوم أن العذاب الدائم أشد ضرراً من ذلك السمّ، وعلى هذا التقدير كيف يُعقل أن تكون لله نعمة على الكافر؟ وإذا لم يكن له عليه نعمة فكيف يليق به أن يأمر رسله بأن [يقولوا][1] لهم: (كيف تكفرون بِمَن أنعم عليكم بهذه النّعم العظيمة؟).

والجواب: أن هذه الوجوه عند البحث يرجع حاصلها إلى التمسّك بطريق المدح والذّم والثواب والعقاب. وهذه الطريق معارضة بوجهين:

الأول: أنه تعالى لما كان عالماً من أبي جهل بأنه لا يؤمن والعلم بعدم الإيمان مع وجود الإيمان ضدان متنافيان لذاتيهما فمع قيام أحد الضدّين يكون التكليف بالضد الثاني تكليف ما لا يطاق وحينئذ يلزمكم كل ما أوردتموه علينا.

الثاني: أن قدرة العبد لما كانت صالحة للإيمان والكفر فترجيح أحد الطرفين على الآخر إن لم يتوقف على مرجح لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وهو محال،

---

(1) [يقولوا] في الأصل: يقول.

ذلك أنّ الوالد لمّا عظمت نعمته على الولد بأن ربّاه وعلّمه وكساه وأعطاه الأموال وعرضه للأمور الجسيمة لا جرم كانت معصيته لأبيه أقبح المعاصي؛ فقابل نعم الله عليك بنعم أبيك عليك حتى تعرف عظم معصيته ونهاية قبحها.

ثم أعظم المعاصي هو الشرك والكفر فلمّا كانت هذه المعاصي متناهية إلى الغاية القصوى في القبح لا جرم ذكر الله تعالى نعمة عظيمة عليهم ليصير ذلك تنبيهاً على عظم جرمهم وغاية قبح طريقهم ليصير ذلك زاجراً لهم عنه؛ فذكر أوّلاً منّ الحياة التي هي أصل جميع النعم وذكر ذلك بصيغة كيف على سبيل التعجب تنبيهاً على غاية درجة هذه النعمة وغاية قبح تلك المعصية.

الثانية: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على أن الكفر من العبد لا من الله وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى لو كان هو الخالق للكفر فيهم لما جاز أن يقول: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ على سبيل التوبيخ كما لا يجوز أن يقال لهم: كيف يسوّدُون ويبيضون ويصحّون ويشتمون؟ ولما كان كل ذلك إنما يحصل لأن الله تعالى يخلقه فيهم.

والثاني: أنه تعالى لمّا خلقهم للشقاء والنار وما خلقهم إلا للكفر والضلالة والبقاء في النار فكيف يصح أن يقول: كيف تكفرون؟

والثالث: كيف يليق بالحكيم أن يقول: كيف تكفرون بالله حال ما يخلق الكفر فيهم ويقول: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الإسراء: 94] حال ما منعهم عن الإيمان ويقول: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الانشقاق: 20]، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدثر: 49] وهو يخلق فيهم الإعراض، ويقول: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75] كيف يصرفون ويخلق الصرف والإفك فيهم، ومثل هذا الكلام بأن يعدّ من السخرية أولى من أن يذكر لأجل إلزام الحجة على العباد.

الرابع: أنه تعالى لمّا قال للعباد: كيف تكفرون بالله؟ فهل ذكر هذا الكلام توجيهاً للحجة، أو ليس كذلك فإن لم يكن لتوجيه طلب الحجة كان ذلك عبثاً ولا يكون في إنزال القرآن فائدة أصلاً، وإن كان ذلك لإلزام الحجة فللعبد أن يقول: بناءاً على مذهب الجبر: حصل في حقي أمور كثيرة موجبة للكفر مانعة عن الإيمان: **الأول**: أنك علمت الكفر مني و أنا لا أقدر على أن أقلب علمك جهلاً، **والثاني**: أنك

والجواب: أن الله تعالى ذكر حياة القبر في هذه الآية؛ لأن قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ ليس المراد منه حياة القيامة وإلّا كان هذا هو عين قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [ويحصل][1] التكرار بل قوله: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ إشارة إلى حياة القبر وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إشارة إلى حياة القيامة. وقال الحسن البصري: قوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 28]، يعني به القيامة فأمّا بعض الناس فقد أماتهم الله تعالى ثلاث مرات نحو ما حكى قوله: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259] إلى قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ﴾ [البقرة: 259] وكقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة: 243] وكقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: 55-56] وكقوله: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: 73] وكقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: 21] وكقوله في قصة أيوب عليه السلام: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ [الأنبياء: 84] فإنه جاء في بعض الروايات أنه ردّ عليه أهله بعد أن أماتهم.

وأقول أيضاً: إن ثبت أن الله تعالى أحيا الذريّة في صلب آدم وخاطبهم بقوله: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172] لزم أن يقال: أن هؤلاء الأقوام الذين ذكرناهم قد أماتهم الله تعالى أربع مرات.

الفائدة الخامسة: تمسكت [المجسّمة][2] بهذه الآية وهي قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ على أنه سبحانه في مكان وجهة، وهذا ضعيف، والمراد: إلى حكمه يرجعون، لأن الله تعالى يبعث من في القبور ويجمعهم في المحشر فذاك هو الرجوع، وإنما وصف هذا بأن هذا رجوع إلى الله لأنه رجوع إلى حيث لا يتولى الحكم فيه غير الله كقولهم: رجع الحكم إلى أمير، أي حيث لا يحكم فيه غيره.

الفائدة السادسة: تمسك أهل التناسخ على قدم الأرواح بهذه الآية وذلك لأن الرجوع إلى الله لا يصح إلّا بعد أن يقال: هذه الأرواح كانت قبل تعلقها بالأبدان في حضرة قدس الله وأكدوا هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: 28].

---

(1) [ويحصل] في الأصل: وتحصيل.

(2) [المجسمة] في الأصل: الجسمية.

وإن افتقر إلى مرجح فحدوث ذلك المرجح إن لم يكن بمحدث فقد استغنى الحدوث عن المحدث، وهو نفي الصانع، وإن افتقر إلى محدث فذلك المحدث إن كان هو من العبد لزم التسلسل وإن كان هو من الله فقد لزم الجبر وحينئذ يلزمكم كل ما علينا.

واعلم أن المعتزلي إذا طوّل وعرّض وأبرق وأرعد بأمثال الكلمات التي حكيناها [عنهم][1] فعليك أن تعارضها بهذين الوجهين فإنه لا يمكنه أن يتكلم إذا كان ذكياً فاهماً.

الفائدة الثالثة من هذه الآية: اتفقوا على أن قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28] المراد منه كنتم تراباً ونطفاً، لأن ابتداء خلق آدم من تراب، وخلق سائر المتكلمين من أولاده إلا عيسى عليه السلام من النطف، لكنهم اختلفوا في أن إطلاق اسم الميت على الجماد حقيقة أو مجاز والأكثرون على أنه مجاز لأنه تشبيه الموات بالميت، والأقلون قالوا: هو حقيقة وهو مروي عن قتادة، قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم فأحياهم الله ثمَّ أخرجهم إلى الدُّنيا ثمّ أماتهم الموتة التي لا بدّ منها ثم أحياهم بعد الموت فهما حياتان وموتان.

واحتجوا بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2] والموت مقدم على الحياة [على][2] كونه مواتاً والأقرب هو الأول لأنه يقال في الجماد إنه موات ولا يقال إنه ميّت [و][3] يشبه أن يكون استعمال أحدهما في الآخر على سبيل التشبيه؛ قال القفال: وهو كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الدهر: 1] فبيَّن تعالى أن الإنسان كان لا شيء يذكر ثم جعله حياً وسميعاً وبصيراً، ومجازه من قولهم: فلان ميّت الذكر، وهذا أمر ميّت، وسلعة ميّتة إذا لم يكن لها طالب ولا راغب فكذا معنى الآية: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي: خاملين لا ذكر لكم لأنكم لم تكونوا شيئاً ثم أحياكم وجعل فيكم سمعاً وبصراً.

الفائدة الرابعة: احتج قوم بهذه الآية على بطلان القول بعذاب القبر؛ قالوا: لأنه تعالى بيّن أنّه يحييهم مرة في الدّنيا وأخرى في الآخرة ولم يذكر فيه حياة القبر.

---

(1) [عنهم] في الأصل: عنكم.
(2) [على] في الأصل: وهو.
(3) [و] زيادة يقتضيها السياق.

أما أنه كان ميتاً حين كان نطفة وعلقة ومضغة فإنه لا شك فيه.

وأمّا أنه تعالى أحياه بعد ذلك فهو أيضاً حق فإنّه أحياه وصوره أحسن صورة، وجعله بشراً سويّاً وأكمل عقله وصيّره بصيراً بأنواع المنافع والمضار وملّكه الأموال والأولاد والدور والقصور.

وأمّا أنه تعالى يميته فالأمر ظاهر.

وأمّا إذا أماته فقد أزال عنه كلّ تلك النعم وصيّره بحيث لا يملك شيئاً ولا يبقى في الدنيا عنه خبر ولا أثر ويبقى مدة مديدة في اللحد كما قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ [المؤمنون: 100] ينادى فلا يجيب ويستنطق فلا يتكلم، ثم يصير بحيث لا يزوره الأقربون وينساه الأهل والبنون، قال يحيى بن معاذ الرازيّ:

يمرُّ أقاربي بحذاء قبري كأنّ أقاربي لم يعرفوني

وقال أيضاً:

إلٰهي كأنّي بنفسي وقد اضجعت في حفرتها، وتفرق المشيعون من شيّعتها، وبكى عليها غريب لغربتها، وناداها من شفير القبر ذو مودّتها، ورحمها المعادي عند صرعتها، فلم يخف على الناظرين عجز حيلتها، فما رجائي إلّا أن تقول للملائكة: انظروا إلى فريد قد نأى عنه الأقربون، ووحيد قد جفاه المحبّون، أصبح مني قريباً، وفي اللحد غريباً، وكان لي في الدنيا محبّاً وداعياً، ولإحساني إليه عند وصوله إلى هذا البيت راجياً، فأحسن إليّ هناك يا قديم الإحسان، وحقق رجاي فيك يا واسع الغفران.

وأما أنه لا بد من الرجوع إلى الله فلأنه سبحانه يأمر بأن ينفخ في الصّور فيصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلّا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43] ثم يعرضون على الله كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭ﴾ [الكهف: 48] فيقومون خاشعين خاضعين كما قال جلّ وعزّ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه: 108].

يقول بعضهم: إذا قمنا من ثرى الأجداث مغبرّة رؤوسنا ومن شدة الخوف متغيرة وجوهنا، ومن أهوال القيامة مطرقة رؤوسنا، ومن طول المدة في القيامة جائعة

والجواب: أن الأرواح لمّا كانت من عالم الآخرة لا جرم سميت مفارقتها عن أبدانها بالرجوع إلى الله تعالى.

الفائدة السابعة: هذه الآية دالة على وجود الصانع سبحانه فإن الحياة والموت ليستا من أفعال البشر ولا بدّ من مدبّر، وتمام تقريره ما نذكره في باب الاستدلال[1] على الصانع بتكوين بدن الإنسان.

الفائدة الثامنة: تدل هذه الآية على أنه لا قدرة على الإحياء والإماتة إلا الله تعالى، فبطل قول أهل الطبع: أن المؤثر في الحياة والموت هو الطبايع والكواكب والأركان والمزاج وفيه إبطال قول من حكى الله عنه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: 24].

الفائدة التاسعة: الآية [دالة][2] على صحة الحشر ومنبّهة على الدليل العقلي الدّال على إمكان الحشر والنشر، لأنه تعالى بيّن أنّ هذه الأشياء كانت ميتة فأحياها، فإذا جاز الإحياء بعد الموت في المرة الأولى فلأن يجوز الإحياء في المرة الثانية أولى.

الفائدة العاشرة: الآية دالة على التكليف بالأمر والنهي والترهيب والترغيب والثواب والعقاب.

الفائدة الحادية عشرة: الآية دالة على مسألة الجبر والقدر وتمام القول فيه قد تقدم.

الفائدة الثانية عشرة: الآية دالّة على وجوب الزهد في الدنيا؛ لأنه تعالى قال: ﴿فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: 28] فبيّن أنه لا بد من الموت ثم ذكر أنّه لا بد بعد هذا الموت من سؤالٍ في القبر ثم ذكر بعد ذلك أنه لا بد من الرجوع إلى الله.

[ولنشر][3] إلى بيان هذه المراتب:

---

(1) في الأصل (في باب الاستدلال على وجود الاستدلال على. . إلخ).

(2) [دالة] في الأصل: الدالة.

(3) [ولنشر] في الأصل: ولنشير.

فيها فقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: 14] وذكرها أيضاً [في][1] الصوم قال عليه أفضل السلام حاكياً عن الله تعالى: «**الصوم لي**».

ثم إن الأمّة مجمعة على أنه يجب على المصلّي أن يقول بقلبه: أصلي لله، ولو قال: أصلي لطلب الجنة أو للهرب مِنَ النّار لم تصح صلاته.

ثم كأنّه ﷻ قال: عبدي! إنّك إن وفيت بموجب هذه اللامات ملّكتك الدنيا والآخرة بلام التمليك، أمّا الدنيا فهو [قوله][2]: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ وأمّا الآخرة فقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

والحاصل أنه ﷻ خلقك لخدمته وخلق كل ما سواك لأجلك؛ فإن أنت صرفت نفسك إلى خدمته فهو ﷻ يصرف الدنيا والآخرة إلى جهة غرضك كما قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[طه: 132].

النوع الثاني: من الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع المختار كون الأرض مقرّاً للحيوانات ومسكناً لها، والله ﷻ ذكر هذا المعنى في آي كثيرة، قال في أول سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة:22] . وقال في سورة طه حكايةً عن موسى ﵇ حين استدلّ بها على وجود الصانع: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [طه: 53] وقال في سورة عمّ يتساءلون ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ وقال في سورة النمل [61] ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وقال في سورة الملك [15] ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ وقال في سورة نوح ﵇: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح:19-20]. وقال في سورة المرسلات: [25 ـ 28]: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٨﴾.

واعلم أنه يجب علينا أن نبحث عن هذه الصفات التي ذكرها الله تعالى للأرض:

الصفة الأولى: كون الأرض فراشاً، واعلم أنه يعتبر في كون الأرض فراشاً

(1) [في] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [قوله] زيادة يقتضيها السياق.

بطوننا، وبادية لأهل الموقف سوءاتنا، ومن ثقل الأوزار موقرة ظهورنا، وبقينا متحيّرين في أمورنا، نادمين على ذنوبنا؛ فلا تضعّف المصاعب بإعراضك عنّا، ولا تمنع غفرانك ورحمتك عنّا يا عظيم الرّحمة يا واسع المغفرة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

اعلم أنه لما ذكر الحياة التي هي أصلُ جميع النّعم أتبعه بذكر المنتفع به وهو المنافع المخلوقة في الأرض، وما أحسن هذا الترتيب! فإن الانتفاع بالأرض والسّماء لا يكون إلاّ بعد حصول الحياة، أمّا لفظ الخلق فقد مرّ تفسيره، وأمّا قوله: ﴿لَكُم﴾ فهو يدلّ على أنّ كلّ ما خلقه الله في الأرض إنما خلقه لمنفعة المكلفين: إمّا في الدّنيا وإمّا في الدّين: أما في الدنيا فلأجل مصالح أبداننا وليتقوّى به المكلف على الطاعات، وأما في الدّين فبأن يستدلّ المكلف بهذه الأشياء ويعتبر بها في إثبات الصانع ومعرفة قدرته وحكمته.

وقوله تعالى: ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي كلَّ ما في الأرض ومنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها ما يتصل بضروب الحِرف والصناعات والأمور التي استنبطها العقلاء. فبيّن تعالى: أنّ كلّ ذلك إنما خلقها لينتفع بها المكلف كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: 13] فكأنه ﷻ قال: كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم؟ ثم كيف تكفرون بالله وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؟ يقال: كيف تكفرون بقدرة الله على إعادتكم وقد خلق لكم ما في الأرض جميعاً؟ فكيف يعجز عن إعادتكم؟ فالله سبحانه ذكر تفاصيل هذه المنافع في سور مختلفة كما قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس: 25 - 26]، وسنستقصي الكلام في شرح هذه التفاصيل في باب الاستدلال على وجود الصانع سبحانه بأحوال الحيوان والنبات، **ثم هٰهنا فوائد:**

الفائدة الأولى: اللام في قوله لكم لام الحكمة والغرض، اعلم أنه ﷻ ذكر هذه اللام في مواضع:

أحدها: في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56].

الثاني: أن أشرف العبادات بعد الإيمان بالله الصلاة؛ فذكر الله تعالى هذه اللام

قدرنا أن الأرض كانت مخلوقة من هذه الأشياء فاتت المصالح بأسرها وبطلت المنافع، وبهذا يظهر أنه لا نسبة للتراب في كثرة المنافع والمصالح إلى هذه التي يظن الإنسان كونها في غاية الشرف والنفاسة.

وأيضاً من شرط كون الأرض فراشاً لنا أن لا تكون في غاية الرّخاوة كالماء وسائر الأشياء التي يغوص الإنسان فيها. فثبت أنّ الشرط في كونها فراشاً للإنسان وغيره كونها بهذه الصفة التي خلقها الله عليها.

الشرط الثالث: في كونها فراشاً لنا أن لا تكون في غاية الشفافية واللطافة، فإن الشفاف لا يستقر عليها النور وما كان كذلك لا يقبل السخونة من الشمس والكواكب فيبقى في غاية البرد فلا يصلح لأن يكون مقراً للحيوانات، وأيضاً ما جعلها في غاية الصقالة والبراقة وإلّا كان يحترق من يقرب منها بسبب انعكاس أشعة الشمس عنها كما تحترق القطنة التي تقرب من البلورة المخروطة، أمّا لمّا جعل الأرض كثيفة غبراء استقر النور على وجهها فحصل نوع من السخونة فيها، ولما كانت كثيفة لم تنعكس الأشعة منها فصار متوسطاً في الحرّ والبرد فصلح أن تكون فراشاً للحيوانات.

الشرط الرابع: أن يكون خارجاً من الماء وذلك لأن الإنسان وغيره من الحيوانات البرّية لا يمكن أن يعيش في الماء، فالأرض لا يمكن أن تكون مسكناً للإنسان وسائر الحيوانات إلّا إذا كانت بارزة من الماء.

ثمّ إن طبع الأرض يقتضي أن تكون غائصة في الماء فكان يجب في كلّ الأرض أن تكون البحار محيطة بها، ثم لأنه سبحانه بكمال قدرته ونهاية حكمته وغاية رحمته لعباده قلب طبع الأرض وأخرج بعض جوانبها من الماء كالجزيرة [البارزة][1] حتى صلحت لأن تكون فراشاً لنا [فهذه][2] جملة الشرائط لمن تعتبره في كون الأرض فراشاً لنا.

الصفة الثانية: من الصفات التي ذكرها الله تعالى للأرض كونها مهداً والمراد

(1) [البارزة] في الأصل: الباردة.
(2) [فهذه] في الأصل: فهذا.

للحيوانات شرائط:

الشرط الأول: كونها ساكنة؛ وذلك لأنها لو كانت متحركة إلى السفل والهبوط لكان من دفع رجله عن الأرض فأراد بعد ذلك أن يضعها على الأرض لم يقدر على ذلك ألبتة إلاّ بإرادة الله؛ لأنا بيّنا أنّه إذا تحرك شيئان إلى السفل وأحدهما أخف من الآخر لم يصر الأخف إلى الأثقل فعلى هذا كان مصير [المشي][1] متعذراً للحيوانات على الأرض وإمّا إن كانت متحركة بالاستدارة تعذر المشي أيضاً على الأرض؛ لأنها إذا تحركت بالاستدارة كان الهواء المحيط شديد التموج بسبب حركتها، فعند ذلك يصير الإنسان وغيره من الأجسام الصغيرة متحركة نحو جهة حركة الأرض بالاضطرار وتمتنع الحركة على خلاف تلك الجهة، وعلى هذا التقدير يصير المشي متعذراً ونقل الأقمشة من موضع إلى موضع متعذراً، وأما إذا كانت الأرض واقفة ساكنة لا جرم كان المشي ممكناً ونقل الأقمشة من مكان إلى مكان على حسب المراد والمصلحة مهيئاً، فحينئذ يصلح كون الأرض مسكناً للحيوانات.

ثم إذ قد عرفت أنها ساكنة لا بسبب علاقة فوقها ولا دعامة تحتها وإلاّ لعاد الكلام في تلك العلاقة وتلك الدعامة وللزم التسلسل وهو محال ثبت[2] أن مُمسكها هو الله ﷻ بقدرته وإرادته وقوته وهو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [فاطر: 41] وقد تقدم الاستقصاء في ذلك.

الشرط الثاني: في كون الأرض فراشاً للحيوانات أن لا تكون في غاية الصلابة لأنها لو كانت في الصلابة كالحجر لكان النوم عليها والمشي عليها مما يؤلم البدن، وأيضاً لم ينبت فيها أنواع النبات والأشجار، وأيضاً لكان يتسخن شديداً في الصيف ويبرد في الشتاء فما كان يصلح لسكنى الحيوانات، وأيضاً لكان يتعذر إيجاد الأبنية والمساكن، وكان يتعذر حفرها وتركيبها كما يُراد ويوافق المصلحة؛ فثبت أن الأرض لو كانت صلبة حجرية لما كان يصلح أن تكون فراشاً للإنسان لهذه الوجوه.

ثم تأمّل أنّ أعز الأشياء للإنسان الذهب والفضة والياقوت والزمرّد، ولو أنّا

---

(1) [المشي] في الأصل: الشيء.

(2) جواب إذا في الأصل: (وإذا ثبت أنها ساكنة بلاد عامة ولا علاقة ثبت أن ممسكها) فحذفنا الزيادة تقويماً للتعبير.

الشرط الثالث: أنه تعالى جعل الأرض كفاتاً للأحياء والأموات على ما سنذكر تفسير [الكفات][1] إن شاء الله تعالى ولو لم تكن الأرض كذلك ما صلحت أن تكون قراراً للحيوانات.

المنفعة الثانية: من منافع الأرض التي ذكرها الله سبحانه في هذه الآية قوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾.

واعلم أن أقسام المياه [النابعة][2] عن الأرض أربعة:

الأول: مياه العيون السيالة، وهي نبعت من أبخرة كثيرة المادة قوية الانتفاع تفجر الأرض بقوة ثم لا تزال يستتبع جزءًا جزءًا منها.

الثاني: ماء العين الراكدة، وهي تحدث من أبخرة بلغت قوتها إلى أن اندفعت على وجه الأرض ولم يبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها.

الثالث: مياه القناة والأنهار، وهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة عن أن [ينشر][3] الأرض فإذا أزيل عن وجهها ثقل التراب وصادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة.

الرابع: مياه الآبار وهو بعينها كمياه القنى إلاّ أنها لم يجعل لها ميل إلى موضع يسيل إليه، ونسبة القنى إلى الآبار كنسبة العيون السائلة إلى العيون الراكدة.

وقد ظهر [من][4] مجموع ما شرحنا أنّه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها، ولولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها.

المنفعة الثالثة للأرض: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ والمراد منها الجبال، يقال: أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما يتكوّن من الجبال أو فيها يقرب منها.

أمّا العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة [تفلتت][5] الأبخرة عنها فلا يجتمع

---

(1) [الكفات] في الأصل: الكفاية.

(2) [النابعة] في الأصل: المنبعة.

(3) [ينشر] في الأصل: ينشيء.

(4) [من] زيادة يقتضيها السياق.

(5) [تفلتت] في الأصل: تلفتت.

أنه تعالى جعلها بحيث يسهل على العباد أن يتصرفوا بالقيام والقعود والزراعة وسائر جهات المنفعة وهو قريب من الصفة الأولى، إلّا أن المقصود من تسميتها بالمهد أن الأرض للخلق كالمهد للصبيّ وهو الذي يُمهّد له فينام عليه.

الصفة الثالثة: قوله في عمّ يتساءلون: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ واعلم أن المهاد مصدر ثم فيه وجوه:

الأول: أن يكون المراد في هذه الآية الممهود، والمعنى: ألم نجعل الأرض ممهوداً وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولك: هذا صرف الأمير.

والثاني: أن تكون الأرض وصفت بهذا المصدر كما يقال:

زيد جود وكرم كأنه لكماله في تلك الصفة صار عين تلك الصفة.

والثالث: أن يكون المراد ذات مهاد.

الصفة الرابعة: قوله تعالى في سورة النمل: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

اعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض في هذه الآية أموراً أربعة:

المنفعة الأولى: كونها قراراً وهذا أيضاً قريب من كونها فراشاً والشرائط المذكورة هناك معتبرة ههنا أيضاً ونزيد ههنا شرائط أخرى:

فالشرط الأول: أنه تعالى قال: دحاها وسوّاها للاستقرار قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: 30 ـ 33]. وقال في سورة حم فصّلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصّلت:9-10].

الشرط الثاني: أنه ﷻ جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الفلك الأعظم بحيث تبعد تارة من سمت الرأس وتقرب أخرى، وبسبب هذا القرب والبعد تختلف الفصول الأربعة، وبسبب اختلاف هذه الفصول صلحت البقاع لأن تكون مسكناً للحيوانات على ما بينّا شرح هذا المعنى في ذكر منافع الميل في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30].

بعض الحكماء في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمٰن: 19-20]. قال: عند عدم البغي بين البحرين يخرج اللؤلؤ والمرجان فكذلك عند عدم البغي في القلب يخرج الدين والإيمان.

واعلم أن وجه الاستدلال بهذه الأحوال على إثبات الصانع والحكيم ظاهر؛ وذلك لأنه ﷻ دبّر أجزاء الأرض على هذه الأحوال المحكمة المتقنة الموافقة لمصالح العباد، وذلك لا يمكن إلّا بمشيئة نافذة وقدرة كاملة وحكمة بالغة:

الصفة الخامسة للأرض: قوله تعالى في سورة الملك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

واعلم أن الذّلول من كلّ شيء المنقاد المطيع لك، الذي يذلّ لك، ومصدره الذل وهو الانقياد واللين، ومنه يقال: دابة ذلول، وفي وصف الأرض بالذلول وجوه:

الأول: أنه تعالى لم يجعلها صخرة خشنة يمتنع المشي عليه كما يمتنع المشي على وجوه الصخور الخشنة.

والثاني: أنه جعلها لينة بحيث يمكن حفرها وبناء الأبنية منها كما يراد، ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك.

والثالث: أنك تطرح عليها كلّ قبيح وهو يخرج لك كلّ طعام لذيذ.

والرابع: أنها كفات الأحياء والأموات، وهذه الوجوه قد شرحناها فيما تقدم، ثم قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾.

والمُفسرون ذكروا في مناكب الأرض وجوهاً:

الأول: قال صاحب الكشاف: المشي في مناكبها مثل لفرط التذلّل، لأن المُنكبّين وملتقاهما من المغارب أدق شيء من البعير وأبعده من إمكان المشي عليها فإذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبه فقد صار نهاية في الانقياد والطاعة، فظهر أن قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ كناية عن كونها نهاية في الذلوليّة.

والثاني: هو قول قتادة والضحاك وابن عباس أن مناكب الأرض جبالها

منها قدر يعتدّ به، فإذاً هذه الأبخرة لا تجتمع إلاّ في الأرض الصّلبة، والجبال أصلب من الأرض، فلا جرم كانت أقواها على حبس هذه [الأبخرة][1] حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقراً لجبل مملوًّا من ماء ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعدّ للتفطّر لا تدع شيئاً من البخار يتحلل، ونَفَسُ الأرض التي تحته كالقرع والعيون كالأدباء والبحار كالتوابل ولذلك فإن أكثر العيون إنما تنفجر في الجبال وأقلها في البراري، ولذلك لا يكون إلاّ إذا كانت الأرض صلبة، وأما أن السُحب إنّما يكون في أكثر الأمر في الجبال فلأسباب ثلاثة:

الأول: أن في باطن الجبال من النداوة ما لا يكون في باطن الأرض من الرّخوة.

الثاني: أن الجبال بسبب ارتفاعها تكون أبرد، فلا جرم تبقى على ظواهرها من الأبراد والثلوج ما لا يبقى على سائر الأرضين.

الثالث: أن الأبخرة المتصاعدة من الجبال تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتخلل، وإذا ثبت ذلك ظهر أنّ أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لأن المادة فيها ظاهراً وباطناً أكثر والاحتقان أشدّ، والسبب المخلّل [و][2] هو الحرّ أقل؛ فلذلك كانت السُحب في الجبال أكثر، وأمّا المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة تكون اختلاطها بالأرضية أكثر ويبقى ذلك الاختلاط مدة طويلة يتم النضخ فيها فلا شيء لها في هذا المقصود كالجبال.

المنفعة الرابعة للأرض: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ [النمل: 61].

فاعلم أن المقصود من ذلك الحاجز أحد أمور أربعة:

أحدها: أن لا يفسد العذب بسبب اختلاطه بالمالح.

الثاني: أن ينفع ذلك الحاجز.

الثالث: المؤمن في قلبه بحران: بحر الحكمة والإيمان، وبحر الشهوة والطغيان، والحق ﷻ بتوفيقه جعل بينهما حاجزاً لكيلا يفسد أحدهما الآخر، وقال

---

(1) [الأبخرة] في الأصل: البخار.

(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.

جعلت كأنها تضمّهم.

والثاني: أنها كفات الأحياء بمعنى أنها تكفت ما ينفصل من الأحياء من الأمور المستقذرة.

الثالث: أنها كفات الأحياء بمعنى أنّها جامعة لما يحتاج إليه الإنسان في حياته من مأكل ومشرب لأن كلّ ذلك يخرج من الأرض، وأيضاً المساكن الجامعة للمصالح الدافعة للمضار منها.

الرابع: أن قوله: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات:26]. راجع إلى الأرض، فالحيُّ ما أنبتت والميّت ما لم تنبت.

وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: لِمَ قيل ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ على سبيل التنكير وهي كفات الأحياء والأموات جميعًا؟

والجواب: أن هذا من باب تنكير التفخيم كأنه قيل: تكفت أحياءً لا يُعَدّون وأمواتاً لا يُحصرون.

السؤال الثاني: هل تدل الآية على وجوب قطع [يد][1] النبّاش؟

والجواب: قال القفال: أن ربيعة قالت: دلت الآية على أن الأرض كفات الميّت فيكون حرزاً له والسارق إذا سرق من الحرز وجب عليه القطع.

الصفة الثامنة للأرض: قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: 55] فهي لنا كالأمّ الحاضنة التي تربينا حالتي الحياة والموت.

النوع الثالث: من الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصّانع الحكيم سبحانه وتعالى، اعلم أن هذه الأحوال من وجوه:

الأول: أن الأشياء المتولدة منها من المعادن والنبات والحيوان والآثار العلوية

---

(1) [يد] زيادة يقتضيها السياق.

وآكامها، وسميت الجبال [مناكب][1] [لأن مناكب][2] الإنسان شاخصة والجبال أيضاً شاخصة، والمعنى أنّي سهلت عليكم المشي في مناكب الأرض وهي أبعد أجزائها عن التذلل فكيف الحال في سائر أجزائها؟

والثالث: أن مناكبها هي الطرق والفجاج والجوانب والأطراف وهو قول الحسن ومجاهد.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي مما خلقه الله لكم رزقاً في الأرض: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله، وأكل من يتيقّن أن مصيره إلى الله، والمراد التحذير من الكفر والمعاصي وطول الأمل.

الصفة السادسة للأرض: قوله تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 19-20]. أي طرقاً واسعة، واحدها فج وهو قريب ممّا تقدم.

الصفة السابعة للأرض: قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾، ومعنى الكفت في اللغة الضمّ والجمع، يقال: كفتُّ الشيء أي ضممته، ويقال: جراب كفيت إذا كان لا يضيّع مما يجمع فيه، والكفات اسم ما [يكفتْ][3] كقولهم الضمام والجماع لما يضم ويجمع يقال: هذا الباب جماع الأبواب، وبه[4] انتصب أحياءً وأمواتاً كأنه قيل: كافته أحياء وأمواتاً [أو][5] بفعل مضمر يدل عليه، وهو تكفت، هذا هو اللغة وفي المعنى وجوه:

الأول: أنها تكفت الأحياء على ظهرها والأموات في بطنها والمعنى أن الأحياء يسكنون في بيوتهم والأموات يدفنون في قبورهم ولهذا المعنى كانوا يسمون الأرض أمًّا لأنها في ضمها الناس كالأمّ التي تضم ولدها وتكفله، ولمّا كانوا يُضمون إليها

---

(1) [مناكب] في الأصل: مناكبه.

(2) [لأن مناكب] زيادة يقتضيها السياق.

(3) [يكفت] في الأصل: تكييف.

(4) وبه: أي بقول: كفاتًا.

(5) [أو] في الأصل: و.

التاسع: الزرع والأشجار وما ينبت من الحب والنوى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95] وقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 25].

ثم إن الأرض لها طبع الكرم؛ لأنك تدفع إليها حبة واحدة وهي تردها عليك سبعمائة، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261].

العاشر: حياتها بعد موتها، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ [السجدة: 27]. وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: 33].

الحادي عشر: ما عليها من الدواب المختلفة الألوان والصور والخلق وإليه الإشارة بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [لقمان: 10].

الثاني عشر: ما فيها من النبات المختلفة الألوان وطبائعها وأنواعها [ومنافعها][1] وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [قٓ: 7]، فاختلاف ألوانها دلالة واختلاف طعومها دلالة واختلاف روائحها دلالة واختلاف منافعها دلالة، فمنها قوت البشر ومنها قوت البهائم كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: 54].

ثم إن مطعوم البشر منقسم إلى أقسام فمنها الطعام ومنها الأدم ومنها الفاكهة ومنها الدواء ومنها الأنواع المختلفة؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: 10].

وأيضاً منها كسوة البشر، لأن الكسوة إما نباتية وهي القطن والكتان، وإما حيوانية وهي الشعر والصّوف والإبريسم والجلود، وهي من الحيوانات التي نبتها الله تعالى في الأرض، والملبوس من الأرض والغذاء من الأرض ثم قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفيه إشارة إلى منافع كثيرة لا نعلمها نحن والحق ﷻ هو العالم بها.

---

(1) [ومنافعها] في الأصل: ومانعها.

والسفلية كثيرة لا يعلم تفاصيلها إلا الله تعالى.

الثاني: من منافع الأرض الماء [وهو][1] لرقته ورطوبته لا يقبل الشكل والتصوير وإذا [خلط الماء][2] والتراب حصل في الماء نوع قوام واستمساك وحصل في التراب قبول الأشكال فيكون الطين قابلاً للتشكل والتخطيط كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [صٓ: 71] وقال في حق عيسى ﷺ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: 110].

الثالث: اختلاف بقاع الأرض، فمنها أرض رخوة وصلبة ورملية وسبخة وحرّة[3]، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: 4]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾ [الأعراف: 58].

الرابع: اختلاف ألوانها، فأحمر وأبيض وأسود وأغبر ورماديّ اللون كما قال تعالى: ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 27].

الخامس: انصداعها بالنبات كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: 12].

السادس: كونها خازنة للماء المنزل من السماء، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: 18]. وقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: 30].

السابع: العيون والأنهار العظام والصغار التي في الأرض، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرّعد: 3].

الثامن: ما فيها من المعادن والفلزات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾ [الحجر: 19] ثم بين ذلك تمام البيان فقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21].

---

(1) [وهو] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [خلط الماء] في الأصل: خلطه في الماء.

(3) حرّة: أرض لا رمل فيها.

زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: 3].

النوع الرابع من مباحث الأرض: اختلفوا في أنّ السماء أفضل أم الأرض؟

قال بعضهم: السماء أفضل من وجوه:

الأول: أن السماء متعبد الملائكة وما فيها بقعة عُصي الله فيها؛ حتى إن إبليس لمّا أظهر الكفر أُخرج من السماء وقيل له: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: 34]، وآدم عليه السلام من الزلّة قال تعالى له: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ [البقرة: 38] وقال: لا يسكن في جواري من عصاني.

الحجة الثانية: أنه تعالى وصف السماء بصفات دالة على العظمة ولم يذكر مثلها في الأرض فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبإ: 12]، ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: 3]، ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: 61].

ثم ذكر عاقبة أمرها: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: 9]، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء: 104]، ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: 8].

وأمّا الموضع الذي ذكر فيه حال الأرض فقد ذكر تعالى الأرض بما يدل على عظم حال السماء فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67] ومعلوم أن اليمين أشرف.

الحجة الثالثة: أنه تعالى جعل الأرض موضع السجود، والسمٰوات قبلة الدعاء فالأيدي ترفع إليها، والوجوه تتوجه نحوها والقلوب متعلقة بها.

الحجة الرابعة: أنّها منزل الأنوار ومحل الصفا والأضواء ومصونة عن الخلل والفساد ومحل الطهارة والعصمة والأرض ليست كذلك.

الحجة الخامسة: السمٰوات مؤثرة غير متأثرة والأرضون متأثرة غير مؤثرة والمؤثر أشرف من المتأثر، ومما يدل على أن السمٰوات مؤثرة قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: 15] وقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36-37].

ثم إنه جعل الأرض ساترة لفضائحك بعد موتك، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: 25-26]، ثم إنه ﷻ جمع هذه المنافع العظيمة للسماء والأرض [تسخيرًا][1] للآدمي كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: 13].

الثالث عشر: ما فيها من الأحجار المختلفة، ففي صغارها ما تصلح للزينة فتجعل فصوص الخواتم ومن كبارها ما يتخذ للأبنية والأقبية وانظر إلى الحجر الذي يستخرج به النار مع كثرته وانظر إلى الياقوت مع عزته، ثم [انظر][2] إلى كثرة النفع بذلك الحقير وإلى قلّة النفع بذلك الشريف.

الرابع عشر: ما أودع الله فيها من المعادن الشريفة كالذهب والفضة والملح والنفط.

ثم تأمل فانظر؛ فإنّ البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة، واستخرجوا السمكة من قعر البحر واستنزلوا الطير من أوج الهواء ثم عجزوا عن إيجاد الذهب والفضة.

والسبب فيه أن لا فائدة في وجودهما إلا لقيمتهما، وهذه الفائدة لا تحصل إلا عند العزة، والقدرة على إيجادها تبطل هذه الحالة؛ فلذلك ضرب الله دونهما باباً مسدوداً، إظهاراً لهذه الحكمة وإبقاءً لهذه النعمة، وأما الذي لا مضرة على الخلق في إيجاده فقد أقدرهم الله عليه مثل إيجاد الشبه من النحاس وإيجاد الزجاج من الرمل، فإذا تأمل العاقل في هذه اللطائف والعجائب اضطر إلى افتقار هذه التدابير إلى صانع حكيم مقتدر عليم ﷻ عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

الخامس عشر: كثرة ما يوجد على الأراضي والجبال من الأشجار التي تصلح للبناء والسقف ثم للحطب [لاشتداد][3] الحاجة إليه في الخبز والطبخ.

وقد نبّه الله على دلائل الأرض ومنافعها بألفاظ لا يبلغها البلغاء ولا يقدر عليها الفصحاء فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا

---

(1) [تسخيراً] في الأصل: سخر.
(2) [انظر] في الأصل: النظر.
(3) [لاشتداد] في الأصل: وأما اشتداد.

النوع الخامس من المباحث على تعظيم حال السماء والأرض:

اعلم أنه ﷻ بيّن صفات جلاله ونعوت كبريائه بالإضافة إلى السمٰوات والأرض، وهذه الآيات كثيرة في القرآن العزيز.

أما القسم الأول [من][1] الآيات الدالة على الخلق قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1] ثم بيّن أن خلق السمٰوات والأرض أعظم من خلق الناس فقال جلّ وعلا: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57] وقال في سورة النازعات [27]: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾ وقال في سورة يسٓ [81]: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ ثم بيّن أنه خلقها بالحق فقال في سورة النحل [3]: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ ثم بين في سورة صٓ أنه ما خلقها إلا بالحق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [صٓ: 27] ثم قال في سورة الدخان [38]: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم بيّن أن الكل تحت تدبيره فقال: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 25] ثم بيَّن أن في خلق السمٰوات والأرض أسراراً عجيبة، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقال في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾، ثم بيّن أنّه ما اطلع أحد على أسرار هذا الخلق فقال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51] فهذا ما يتعلق بصفة الخلق.

القسم الثاني: ما يتعلّق بصفة الربوبية، قال موسى عليه السلام في سورة الشعراء: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: 35]، قال بعضهم: الله نور السمٰوات والأرض مزيّن أهل السمٰوات والأرض كما يقال: فلان نور هذا البلد إذا كان سبباً لنظم مصالح أهل البلد، وقال بعضهم: الله هادي أهل السمٰوات والأرض؛ واحتجّ على هذه القراءة بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ ثم بين أنه تعالى غير عاجز عن التدبير في شيء منهما، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) [من] زيادة يقتضيها السياق.

الحجة السادسة: أن السمٰوات مزينة بثمانية أشياء، ثلاثة منها محسوسة وهي الشمس والقمر والنجوم، وخمسة منها غير محسوسة وهي العرش والكرسي واللوح والقلم والجنة، وأمثال هذه الأشياء غير موجودة في الأرض فلا تناسبها ولا تشاكلها.

الحجة السابعة: أنه تعالى ذكر أمر السمٰوات والأرض في كتابه وفي كل المواضع قدّم ذكر السمٰوات على الأرض. وذلك يدلّ على المقصود.

وقال بعضهم بل الأرض أفضل واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أنّه وصف بقاعاً من الأرض بالبركة: أحدها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96] وثانيها قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ [القصص: 30] وثالثها قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: 1]، ورابعها وصف [أرض][1] الشام بالبركة فقال: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: 137] وخامسها وصف جملة الأرض بالبركة فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: 9 - 10].

فإن قيل: وأي بركة في الفلوات الخالية والمفاوز المهلكة؟

قلنا: لأنها مساكن الوحوش ومرعاها، ولولاها لاختلطت السباع بالناس في مساكنهم إذا احتاجوا إليها.

وهذه الحجة ضعيفة لأن الله تعالى أثبت وصف البركة في السماء وهو قوله: ﴿بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: 96].

الحجة الثانية: أنه تعالى خلق الأنبياء المكرمين من الأرض على ما قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: 55] ولم يخلق من السماء نبياً لأنه قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

الحجة الثالثة: أنه تعالى أكرم نبيّه بها فجعل الأرض كلها له ولأمته مسجداً وجعل ترابها طهوراً.

---

(1) [أرض] في الأصل: أهل.

[التغابن: 4] ثم بيّن إحاطة علمه فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 3] ثم بيّن جلالة هذا العلم فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: 4] ثم بيّن أنه لا يخفى عليه شيء ألبتة فقال: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: 5].

القسم السادس: ما يتعلق بكيفية التدبير قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: 5].

القسم السابع: ما يتعلق بالتسبيح والتحميد قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: 24] وقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: 1] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا﴾ [الروم: 18].

القسم الثامن: ما يتعلق بالكبرياء قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 37] وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 27] وقال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255] وقال: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83] وقال للسمٰوات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11] وقال: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: 87] وقال: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: 68] وقال: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] وقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72].

كل ذلك يدل على نهاية الجلال والهيبة والعظمة وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم: 26] ونظيره: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255] وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبإ: 38] وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طٰه: 108] وقال: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: 44] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: 84].

القسم التاسع: ما يتعلق بالإلٰهية [قال تعالى]: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: 3] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

القسم العاشر: ما يتعلق بالنظر والاستدلال قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي

﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [فاطر: 44].

القسم الثالث: ما يتعلق بالمِلك فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [ثم ذكر](1) أنه مالك الخزائن فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: 7] ثم ذكر التفصيل فبيّن أنه ملك الجنود فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الفتح: 4] ثم ذكر أنه المالك لكل العقلاء فقال: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الروم: 26] ثم أكد لنفسه هذه العبودية بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: 15] وقال أيضاً: ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 18] ثم بيّن أنه تعالى يجعل البعض مسخراً للبعض بل يجعل القويّ مسخراً للضعيف قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: 16 ـ 17] ثم بين فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: 13] ثم بيّن أنه لا يعجزه شيء فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [العنكبوت: 22] وقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 35].

القسم الرابع: ما يتعلق بالمُلك وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾.

واعلم أن الفرق بيّن الملك والمُلك موجود على ما هو معلوم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، ثم بيّن أنه كما هو الملك فهو أيضاً مالك المُلك، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ﴾ [آل عمران: 26].

ثم بيّن بقاء المُلك وكثر بركاته، فقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: 85].

القسم الخامس: ما يتعلق بالعلم وهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: 123] ثم بيّن أنه يعلم الغيب والشهادة فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾

---

(1) [ثم ذكر] زيادة يقتضيها السياق.

فتتنزل من صلبه القطرة وتقع في الأرض، فإذا وقعت الحبة في ذلك الطين أثرت نداوة الطين في تلك الحبة وكذلك السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة إلى باطن الحبة، وبسبب تلك السخونة انتفخت الحبة وربت وعظمت فانفلقت فلقةً من فوقها وفلقة من تحتها، فالانفلاق الفوقاني تخرج منه ساق الشجر، والانفلاق التحتاني يخرج منه عروق الشجر.

إذا عرفت هذا فنقول: لو وقعت الحبة في أرض يابسة لم يحصل أصلاً ولو وقعت في الطين ولكن بحيث لا تصل إليها تأثيرات الهواء أو شعاعات الكواكب لا يحصل المقصود أصلاً، ألا ترى أن الأشجار التي تكون في ظل مانع من شروق نور الشمس والقمر عليها فإنها تكون فاسدة ناقصة، والشجرة الواقعة في ظل شجرة كبيرة تكون أيضاً فاسدة.

وإذا تأملت علمت أنّ هذا المقصود لا يحصل إلاّ إذا وجدت كرة الأرض ووجدت كرة الماء وكانا متقاربين بحيث يمتزجان.

ولا بد من وصول الهواء إليه إلاّ أن الهواء جرم خفيف صاعد فلا يغوص بالطبع في عمق الطين؛ فدبر الحكيم الرحيم تدبيراً لهذا وهو أن حرّك الهواء حتى صار ريحاً ثم إن الريح تموّج منه، فإذا تموجت عرض لبعضها في أثناء ذلك التموج أن نفذه في عمق الأرض وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] وإنّما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الأرض والماء والهواء.

ثمّ لما كان ذلك لا يفيد المقصود إلاّ مع حرارة [الطيفة][1] سماوية فعند ذلك لا بد من حرارة الربيع في الإنبات ومن حرارة الصيف في الإنضاج؛ فقد عرفت أنّ المقصود لا يحصل إلاّ عند اجتماع تأثيرات العناصر الأربعة السفلية وتأثيرات الشعاعات الفلكية ثم عند اجتماع هذه الأسباب العلوية والسفلية لا يحصل المقصود إلاّ بقدرته ولا يتكون المطلوب إلاّ بإنفاذ مشيئته؛ وذلك لأن من الأرض الواحد والماء الواحد والهواء الواحد وتأثير الشمس والقمر في الكلّ على السويّة يخرج أنواع من النبات مختلفة في الطبع والطعم واللون والرائحة، فدل ذلك على أن العناصر والأفلاك أسباب ظاهرة والمؤثر في الحقيقة هو القدرة الأزلية والمشيئة السرمدية.

(1) [الطيفة] في الأصل: الطبقة.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: 105] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185] وقال في التنبه على العزة: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: 29].

واعلم أن إكثار الله تعالى من الآيات في ذكر السمٰوات والأرض في القرآن يدل على عظم شأنهما، وعلى أنه له سبحانه فيهما أسراراً عجيبة وحكماً بالغة لا تصل إليها أفهام الخلق ولا عقولهم.

فإن قيل: فما الحكمة في أنّه سبحانه عرّف صفات جلاله وقدسه وعظمته بذكر السمٰوات والأرض؟

قلنا: الحكمة أن ذات الله وصفاته وعزته وعظمته غير مشاهدة للخلق ابتداء، بل لا سبيل إلى معرفتها إلا بالدليل والبرهان، وكلما كانت الآثار أجلّ وأعظم كان ذلك أدلّ على عظمة المؤثرات؛ فلما كان أعظم الموجودات المحسوسة هو السمٰوات والأرض لا جرم عرّف الله سبحانه كمال قدرته ونهاية علمه وحكمته بذكر السمٰوات والأرض، فهذا تمام القول في هذا الموضع.

النوع السادس: من شرح المنافع الحاصلة من مجموع السماء والأرض اعلم أن السماء والأرض مع غاية بعد كل واحد منهما عن الآخر متعاونان على تحصيل مناظم العلم ومصالحهم.

وبيانه من وجوه:

الأول: اعلم أن الفوق هو الذي يلي جهة السماء والتحت هو الذي يلي جهة الأرض، والجهات لا توجد إلا بالفوق والتحت، فالسماء والأرض متعاونان على تحصيل وجود الجهات.

وإذا كان حصول الجهات من توابع حصول السماء والأرض فهما [منزهتان][1] عن الجهات والأحياز.

الثاني: أن السماء والأرض متعاونان على تحصيل النبات، فالسماء كالأب

(1) [منزهتان] في الأصل: منزها.

الباب الثاني:
في وجوه الدلائل المأخوذة من الشمس والقمر والنجوم

وفيه فصول:

الفصل الأول: في تقرير دليل الخليل عليه أفضل الصلاة والتسليم في قوله:

﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76].

قال تعالى حاكياً عنه: ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ [الأنعام: 74].

اعلم أن قبل الخوض في التفسير لا بدّ من مقدمات:

المقدمة الأولى: أنه ﷻ كثيراً ما يحتج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ﵇، وذلك لأنه رجل يعترف بفضله جميع الطوائف والملل؛ فالمشركون كانوا معترفين بفضله، مستبشرين بأنهم من أولاده، فاليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره، فلا جرم ذكر الله تعالى حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين.

واعلم أن هذا المَنصب العظيم ـ وهو اعتراف أكثر الخلق بفضله وعلو مرتبته ـ لم يتفق لأحد كما [اتفق][1] للخليل ﵇.

---

(1) [اتفق] في الأصل: يتفق.

الوجه الثاني: أن النهار عبارة عن مدة ظهور الشمس، والليل عبارة عن مدة اختفاء نور الشمس بسبب ظلّ الأرض، ومنافع الليل كثيرة على ما سنذكرها إن شاء الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك كان السبب القريب لحدوث الليل والنهار هو وجود السماء والأرض، ولهذا السبب فإنه تعالى [أينما][1] ذكر أحوال الليل والنهار ففي الأكثر يكون ذلك مسبوقاً بذكر السماء والأرض تنبيهاً على أن سبب الليل والنهار هو الأرض والسماء، ثم العجب أن السماء والأرض كالمتقابلين المتضادين ثم إنّهما صارا متعاونين على تحصيل أسباب مصالح هذا العالم والمتضادان يوجبان الفساد، فلمّا صار هذان الضدان موجبين لحصول أسباب الصلاح علم أن ذلك بتدبير مدبّر وتقدير مقدّر حكيم عليم حليم سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًا كبيراً، وهذا هو آخر الكلام في الدلائل المأخوذة من السماء والأرض، والله وليّ التوفيق.

---

(1) [أينما] في الأصل: أنما.

واستغاث به؟ ثم ذكرتم أنه في هذه الحالة لم يذكر شيئاً فما الفرق بين الحالين؟

قلنا: الإنسان قبل الوقوع في البلاء لا يكون [طمعه][1] منقطعاً عن النّفس فيشتد عليه البلاء فعند ذلك يشتغل بالدُعاء، أمّا عند الوقوع فيه ينقطع طمعه عن النفس ولا حجاب عن الرّب إلا الاشتغال بالنفس فإذا زال ذلك الحجاب تجلّى في قلبه نور جلال الله فحينئذ يستنكف أن يرجع إلى الله في خلاص النفس.

وفي بعض الروايات أنه لما قال له جبريل عليه السلام: لم لا تستَعين بالرب تعالى؟ فقال: على ماذا؟ قال: على النفس، قال: النفس [مصونة][2] لا خطر لها فلا أسأل من علام الغيوب نجاة الجسم المعيوب، فقال جبريل عليه السلام: استعن على القلب، فقال الخليل: القلب للربّ فليعمل ما شاء بالقلب؛ فقال جبريل عليه السلام: استعن على الروح، فقال الخليل: الروح عارية والعارية مؤداة، فقال جبريل: استعن على النار، قال الخليل: من أوقد النار؟ قال: العدوّ، قال: ومن قضى به؟ قال: الحبيب، قال الخليل: فالحبيب [راضٍ][3] بحكم الحبيب.

فلّما انقطع نظر الخليل عن الوسائط والأسباب فالحق أيضاً دفع الوسائط والأسباب فقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69].

ثم إنه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: 102] فعند هذا كان إبراهيم عليه السلام من الفتيان، وسلّم نفسه للعرفان، ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان، وكمل عهد عبوديته، ثم إنه سأل بعد ذلك ربّه فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: 84]، فوجب في كرم الحق أن يحقق مطلوبه في هذا السؤال فلا جرم أجاب دعاءه وقبل نداءه وجعله مقبول جميع الفرق والطوائف إلى آخر القيامة.

ولمّا كانت العرب معترفين بفضله لا جرم جعل الله تعالى مناظرته مع قومه حجة على مشركي العرب.

المقدمة الثانية: اعلم أنّه ليس في العالم أحد يثبت لله شريكاً يساويه في

---

(1) [طعمه] في الأصل: طبعه.

(2) [مصونة] في الأصل: مغبونة.

(3) [راض] في الأصل: راضي.

والسبب فيه أنّ بين العبد والربّ معاهدة. كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] فإبراهيم عليه السلام أوفى بعهد العبودية والله تعالى شهيد بذلك على سبيل الإجمال تارة وعلى سبيل التفصيل أخرى:

أمّا الإجمال ففي آيتين: إحداها قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: 124] وهذا شهادة من الله عز وجلّ له بأنّه أتمَّ العبودية، الثانية قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: 131].

وأما التفصيل: فهو أنه ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد مع أبيه وهو قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42] وناظر أيضاً في هذه المسألة مع قومه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: 76] إلى آخره، وناظر أيضاً مع ملك زمانه في هذه المسألة أيضاً فقال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258] ثم ناظر أيضاً مع قومه بالفعل وهو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ ثم إن القوم ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: 68].

يروى: أن لما وضع في المنجنيق صيّحت السمٰوات والأرضون وكل المخلوقات سوى الثقلين، وقالوا: ربنا ليس في الأرض من يعبدك ويوحدك غير إبراهيم ثم إنه يحرق بالنار؟ ائذن لنا في نصرته، فأوحى الله تعالى إلى السماء والأرض والجبال والبحار: إذا استغاث بكم فأغيثوه وإن استنصركم فانصروه وإن دعاني فأنا وليه وناصره وكفاني ولياً ونصيراً، فلمّا أن أرادوا إلقاءه في النار قال: يا أحد ويا صمد بك أستغيث وعليه أتوكّل حسبي الله ولا إلٰه إلا هو نعم الوكيل، فجاءه ملك المطر وعرض نفسه عليك فلم يلتفت إليه، وجاء خازن الرّيح وقال: إن شئت أذنت للريح بفرق الناس في شرقها وفي غربها فلم يلتفت، فرمي من المنجنيق، قبل أن يصل إلى النار قال له جبريل عليه السلام: الآن جاء وقتي فعرض نفسه عليه وقال: هل من حاجة؟ وقال: أمّا إليك فلا، فقال له جبريل عليه السلام: أفلا ترفع حاجتك إلى الله تعالى؟ فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

فإن قيل: ألستم رويتم أنهم [لـمّا][1] أرادوا إلقاءه في النار دعا الله تعالى

(1) [لمّا] في الأصل: كما.

لأحوال هذا العالم وحوادثه اتصالات هذه الكواكب وتأثيراتها، ولما اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها.

ثم منهم من اعتقد أنّها واجبة الوجود ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للإلٰه الأكبر إلّا أنهم قالوا: هي مخلوقة للإلٰه الأكبر وخالقة لأحوال هذا العالم، وهؤلاء هم الذين اعتقدوا أنّها وسائط بين الإلٰه الأكبر وبين أصحاب هذا العالم وعلى كلا التقديرين فالقوم مشتغلون بعبادتها وتعظيمها والخضوع لها.

ثم إنّهم لمّا رأوا أن الكواكب قد تستتر عن الأبصار في أكثر الأوقات اتخذوا لكل كوكب صنماً عن الجوهر المنسوب إليه، فاتخذوا صنم الشمس من الذهب وزينوه بالأحجار المنسوبة إلى الشمس وهو الياقوت والألماس، واتخذوا صنم القمر من الفضّة وعلى هذا القياس.

ثم أقبلوا على عبادة هذه الأصنام وغرضهم من هذه العبادة عبادة تلك الكواكب والتقرب إليها؛ فهذه الأصنام عندهم كالقبلة، والمعبود عندهم في الحقيقة تلك الكواكب.

وعند هذا البحث يرجع حاصل دين عبدة الأصنام إلى عبادة الكواكب.

وأمّا الأنبياء صلوات الله عليهم فلهم هٰهنا مقامان:

الأول: إقامة الدلالة على أنّ هذه الكواكب لا تفعل شيئاً.

الثاني: أنّ بتقدير أنّها شيء لكن دلالة الحدوث حاصلة فيها فلا بد من أن تكون مخلوقة لإلٰه قديم أزليّ، والاشتغال بعبادة الأصل أولى من الاشتغال بعبادة الفرع والعبد.

وممّا يدل على صحة ما رويناه عن عبدة الأوثان أنّه تعالى لمّا حكى عن الخليل صلوات الله عليه وسلامه أنه قال: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 74] فإنّه عني بهذا الكلام أنّ عبادة الأصنام جهل وضَلال.

ثم لمّا اشتغل بذكر الليل أقام الدليل على أن الكواكب والشمس والقمر لا

الوجوب والقدرة والعلم والحكمة، لكن الثنوية يثبتون إلهين أحدهما حكيم يفعل الخير، والثاني سفيه يفعل الشرّ.

أما الاشتغال بغير عبادة الله ففي الذاهبين إليه كثرة منهم عبدة الكواكب وهم فرقتان: منهم من يقول: إنّ الله خلق هذه الكواكب وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها، فهذه الكواكب هي المدبرات لهذا العالم، قالوا: فيجب علينا أن نعبد هذه الكواكب، ثم إن هذه الكواكب هي مشتغلة بعبودية الله وطاعته.

ومنهم قوم ينكرون الصانع ﷻ ويقولون: هذه الأفلاك والكواكب أجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم والفناء وهي المدبر لهذا العالم وهؤلاء هم الدهرية الخالصة.

وممن يعبد غير الله النصارى الذين يعبدون المسيح، ومنهم أيضاً عبدة الأوثان والأصنام.

واعلم أن هٰهنا بحثاً مهمّا لا بدّ منه وهو أنّه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان، وذلك لأن أقدم الأنبياء الذين وصل إلينا تأريخهم هو نوح صلوات الله عليه وسلامه، وهو إنّما جاء بالردّ على عبدة الأصنام على ما أخبر الله عنه في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح: 23] فعلمنا أن عبادة الأصنام كانت موجودة قبل نوح ؏، وهي باقية إلى الآن بل أكثر سكان أطراف العالم مستمرون عليه، والمذهب الذي هذا شأنه يمتنع أن يكون معلوم البطلان بضرورة العقل، لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السماء والأرض علم ضروريّ فيستحيل اتفاق كثير من العقلاء عليه، فظهر أنه ليس دين عبدة الأوثان كون الصنم خالقاً للسماء والأرض.

والعلماء ذكروا فيه وجوهاً:

الأوّل: أنّ الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مرتبطة بتغيرات أحوال الكواكب، فإنّ بحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس تحدث الفصول الأربعة، وبسبب حدوث الفصول الأربعة حدثت الأحوال المختلفة في هذا العالم، ثم إنّ الناس يعلمون سائر أحوال الكواكب واعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفية وقوعها في طوالع الناس؛ فلمّا اعتقدوا ذلك غلب على ظنون أكثر الخلق كون المصدر

إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 81]؛ وذلك أنه عليه السلام لمّا طعن في إلٰهية تلك الأصنام وحسن عبادتها [خوّفوه][1] بوصول بلاء إليه من تلك الأصنام، وقال تعالى أيضاً حكاية عن قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: 54].

الوجه الرابع: أنّه كلما مات منهم رجل كبير في اعتقادهم بحيث يعتقدون فيه أنه مجاب الدعوة مقبول الشهادة عند الله تعالى اتخذوا صنماً على صورته يعبدونه على اعتقاد أنّ ذلك الإنسان يصير شفيعاً لهم يوم القيامة على ما حكى الله عنهم هذه المقالة في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18] وقال أيضاً: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

الوجه الخامس: لعلّ القوم اتخذوا هذه الأصنام محاريب لصلواتهم وطاعتهم يسجدون إليها [لا لها][2] كما أنا نسجد إلى القبلة لا للقبلة ثم لمّا دامت هذه الحالة ظنّ الحمقاء من القوم أنّها هي المعبودة.

الوجه السادس: لعلّ القوم كانوا من المجسمة أو من الحلولية: اعتقدوا جواز حلول الله في بعض هذه [الصور][3] والأجسام على هذا التأويل.

فهذه هي الوجوه التي يمكن حمل مذهب عبدة الأصنام عليها وبالله التوفيق.

إذا عرفت هاتين المقدمتين فلنرجع إلى تفسير هذه الآية:

أمّا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: 74] ففيه مسألتان:

الأولى: في آزر قولان:

الأول أنه والد إبراهيم ولهم في ذلك دلائل:

الحجة الأولى: ظاهر لفظ القرآن في هذه الآية يدلّ على ذلك ثم أن ظاهر هذه الآية متأكد بآيات آخر منها قوله تعالى في سورة مريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾

---

(1) [خوفوه] في الأصل: حرقوه.
(2) [لا لها] في الأصل: لأنها.
(3) [الصور] في الأصل: الصورة.

يصلح شيء منها للإلٰهية، وهذا يدل على أن [عبادة][1] الأوثان يرجع حاصله إلي القول بإلٰهية الكواكب والشمس والقمر وإلاّ لم يكن بين قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وبين قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: 76] [تعلق][2] ولا مناسبة.

إذا عرفت هذا ظهر أنه لا طريق إلى إبطال القول بعبادة الأوثان إلاّ بإبطال كون الشمس والقمر والكواكب إلٰهاً [و][3] هو الذي حكى الله عن إبراهيم في هذه الآية.

الوجه الثاني: في شرح حقيقة مذهب من قال بعبادة الأوثان ما ذكره أبو معشر جعفر ابن محمد البلخي المنجّم، قال في بعض مصنفاته أن كثيراً من أهل الصّين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته إلاّ أنهم كانوا يعتقدون أنه تعالى جسم و[ذو][4] صورة كأحسن ما يكون من الصور، وهكذا أيضاً للملائكة صورة حسنة إلاّ أنهم كلهم قد احتجبوا عنا بالسماء فلا جرم اتخذوا صوراً وتماثيل أنيقة النظر حسنة الرواه على الصورة التي كانوا يعتقدونها من صورة الإلٰه والملائكة ثم يعتكفون على عبادتها قاصدين به طلب الزلفى من الله سبحانه ومن ملائكته.

فإن صحّ ما ذكره أبو معشر فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد الجسمية في الله سبحانه وتعالى.

الوجه الثالث: أن أصحاب الأحكام من المنجمين كانوا يعيّنون أوقاتاً في السنين المتطاولة نحو الألف والألفين ويزعمون: أنّ من اتّخذ طلسماً في ذلك الوقت على الوجه الخاص فإنه ينفع في أحوال مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفع الآفات، وكانوا إذا اتخذوا ذلك الطلسم عظّموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به فلمّا بالغوا في ذلك التعظيم صار ذلك كالعادة، ولمّا طالت الأزمنة فالجهال نسوا مبدأ الأمر واشتغلوا بعبادتها.

ومما يدلّ على صحة هذا التأويل قوله تعالى في آخر هذه الآية حكاية عن

---

(1) [عبارة] في الأصل: عبدة.
(2) [تعلق] في الأصل: تعلقاً.
(3) [و] زيادة يقتضيها السياق.
(4) [ذو] في الأصل: ذوا.

فهذه الوجوه الأربعة وإن كانت الآية محتملة لها إلّا أن الوجه الذي ذكرناه أيضاً محتملة له، والروايات وردت بالكلّ ولا منافاة بين هذه الوجوه فوجب حمل هذه الآية على الكل ومتى صحّ ذلك ثبت أن والد إبراهيم ما كان من عَبَدة الأوثان.

ومما يدلّ على أنّ آباء محمد ﷺ ما كانوا من المشركين قوله ﷺ: **«لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»**.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28] فوجب أن لا يكون أحد من أجداده صلوات الله عليه مشركاً.

الحجة الثانية: على أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام؛ لأن هذه الآية دالة على أن إبراهيم عليه السلام شافه آزر بالغلظة ومشافهة الأب بالغلظة لا يجوز، وهذا يدل على أن آزر ما كان والد إبراهيم.

وإنما قلنا: أن إبراهيم شافه آزر في هذه الآية بالغلظة لوجهين:

الأول: إنه قرىء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرُ﴾ [الأنعام: 74] بالضمّ، وهذا يكون محمولاً على النداء ومخاطبة الأب ونداؤه بالاسم من أعظم أنواع الجفاء.

الثاني: أنّه قال لآزر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا من أعظم أنواع الإيذاء.

فثبت أنه عليه السلام شافه آزر بالغلظة، وإنما قلنا: أنّ مشافهة الأب بالغلظة لا يجوز لوجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: 23]، وهذا عام في حق المسلم والكافر، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وهذا أيضاً عام.

الثاني: أنه تعالى لمّا بعث موسى عليه السلام إلى فرعون أمره بالرفق معه فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: 44] والسبب في ذلك أن يصير هذا رعاية لحق تربية فرعون؛ فهاهنا الوالد بالرفق معه أولى.

الثالث: أن الدعوة مع الرّفق أكثر تأثيراً في القلب، وأمّا التغليظ فإنه ينفر

[مريم: 42] وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114] وكل هذه الآيات تدل على أنّ أبا إبراهيم كان كافراً عابداً للوثن.

الحجة الثانية: أنّ العرب سمعوا هذه الآية وكانوا أحرص الناس على تكذيب الرسول وأعظم الناس رغبة في براءة شجرة النسب عن كل عيب، فلو كان آزر لم يكن والد إبراهيم لتسارعوا إلى تكذيبه [ولوجدوا][1] في ذلك غنيمة عظيمة في الطعن فيه.

الحجة الثالثة: أنه تعالى ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه في آيات كثيرة ولم يذكر اسم العمّ في القرآن فيتعذر حمل لفظ الأب على العمّ في هذه الآية.

والقول الثاني: أنّ آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام واحتجوا بوجوه:

الحجة الأولى: أن آباء الأنبياء ما كانوا كفاراً، ويدل عليه وجوه:

منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: 218-219] قيل: معناه: أنه كان ينقل روحه من ساجد إلى ساجد؛ فبهذا التقدير فالآية [دالة][2] على أن جميع آباء محمد ﷺ كانوا مسلمين، وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام ما كان من الكافرين، أقصى ما في الباب أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ على وجوه أخرى: منها: أنه لمّا نسخ فرض قيام الليل طاف الرسول عليه أفضل السلام تلك الليلة على بيوت أصحابه لينظر ماذا يصنعون؟ لشدة حرصه على ما يظهر منه من الطاعات فوجدها كسوق الزنابير لكثرة ما يسمع من دندنهم بذكر الله، فقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ طوفه عليه السلام على الساجدين في تلك الليلة، ومنها المراد: ويراك حين تقوم للصلاة [بالناس][3] جماعة، وتقلبه في الساجدين كونه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده لأنه كان إماماً لهم، ومنها: أنه لا يخفى على الله حالك كلّما قمت وتقلبت مع الساجدين في الاشتغال بأمور الدين، ومنها: المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه، من قوله: أتموا الركوع والسجود فإني أراكم من وراء ظهري.

---

(1) [ولوجدوا] في الأصل: وليجدوا.
(2) [دالة] في الأصل: دلالة.
(3) [بالناس] في الأصل: الناس.

إظهار الخشونة مع الأب فنقول: إن قلنا بما ذكرت سلمت تلك العمومات عن هذا التخصيص إلاّ أنه وجب حمل لفظ الأب على المجاز، وإن أجرينا لفظ الأب على حقيقته لزمنا القول بإدخال التخصيص في تلك العمومات لكن بيّنا في أصول الفقه أنّه مهما وقع التعارض بين المجاز والتخصيص، كان التزام التخصيص أولى فكان الترجيح لجانبنا، والله أعلم.

وإذا عرفت هذه المسألة فنقول: الذين قالوا: إن آزر ما كان والد إبراهيم لهم قولان: منهم من قال: أنه كان عمّ إبراهيم عليه السلام وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: أنّ آزر اسم صنم، فعلى هذا الوجه في الآية أقوال: الأول: أن ذلك الرجل إنما سمي بهذا الاسم لأنه جعل نفسه مختصاً بعبادته؛ ومن بالغ في محبة أحد فقد يجعل المحبوب اسماً للمحبّ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: 71]، الثاني: أن يكون المراد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

المسألة الثانية: قرىء: آزر بالنصب وهو عطف بيان لأبيه [و][1] بالضمّ على النداء وبيّنا أن بعضهم قرأ آزر بهاتين القراءتين.

وأما قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ﴾ [الأعراف: 142] فقد قرىء هارون بالنصب [محمولاً][2] على البدل ،لأن النداء بالاسم استخفاف بالمنادى ،و هو لائق في قصة إبراهيم لأنه كان كافراً مصرّاً على كفره فحسن أن يخاطب بالغلظة زجراً عن ذلك القبح.

أما قصة موسى عليه السلام فقد كان موسى يستخلف هارون على قومه؛ فما كان الاستخفاف لائقاً بهذا الموضع، فلا جرم ما كانت القراءة بالضمّ جائزة.

أمّا قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ فالمعنى ظاهر وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الناس اختلفوا في تفسير لفظ الإله، والأصح أنه هو المعبود، وهذه الآية تدلّ على هذا القول؛ لأنهم ما أثبتوا للأصنام إلّا وصف المعبودية، ولهذا السبب قال إبراهيم: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدل هذا على أن تفسير لفظ الإله هو المعبود.

(1) [وبالضم] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [محمولاً] في الأصل: محمول.

المستمع عن قبول الحق، ولهذا قال تعالى لنبّينا محمد ﷺ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، فكيف تليق بإبراهيم هذه الخشونة مع أبيه وقت الدّعوة؟

الرابع: أنه تعالى حكى عن إبراهيم الرفق الشديد مع هذا المسمى بالأب وهو قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42] ثم إن الإنسان غلّظ معه في القول وهو قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ثم إن إبراهيم ما ترك الرفق الشديد مع هذا المسمّى بالأب بل قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: 47] وإذا كان عادة إبراهيم الرفق والقول الحسن، فكيف يليق له أن يظهر الخشونة والغلظة مع أبيه؟ فثبت بهذه الحجة أن آزر ما كان والد إبراهيم.

الحجة الثالثة: على أن آزر ما كان والد إبراهيم: أنّه جاء في كتب التواريخ أن اسم أب إبراهيم تارخ وأمّا آزر فهو عمّ إبراهيم.

ثم إن القائلين بهذا القول أجابوا عن دليل أصحاب القول الأول فقالوا: القرآن وإن دلّ على تسمية آزر بالأب، إلاّ أن هذا لا يدل على القطع بكونه والداً له؛ وذلك لأن لفظ الأب يطلق على العمّ، قال تعالى حكاية عن أولاد يعقوب: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: 133] فسموا إسماعيل أباً ليعقوب عليه السلام مع أنّ إسماعيل كان عمًّا ليعقوب. وقال رسول الله ﷺ: **«ردوا عليّ أبي»** يعني العباس.

وأيضاً يحتمل أن آزر كان أب أب أم إبراهيم وقد يقال له الأب.

قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنعام: 84] إلى قوله: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ فجعل من ذريّة إبراهيم مع أن إبراهيم عليه السلام كان جدّه من قبل الأمّ، وبهذا ظهر الجواب عن الحجة الثانية؛ وذلك لأنّ تسمية العمّ بالأب مشهور في اللغة العربية، فلهذا السبب ما كذبوه في هذه الآية، هذا تمام الكلام في نصرة هذا القول.

واعلم أنّ القول الأول أولى وذلك لأنّ ظاهر لفظ الأب يدل على الوالد الحقيقي، أمّا التمسك بقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ فهو محمول على سائر الوجوه، وما نحمله على أن روحه كان ينتقل من ساجد إلى ساجد محافظة على ظاهر الآية التي تمسكنا بها وهو قوله: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾.

وأمّا الحجة الثانية: فجوابها أنكم تمسكتم بعمومات دالّة على أنه لا يجوز

﴿وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فلما زال ذلك الحجاب بالكلية لا جرم تجلّى له ملكوت السمٰوات والأرض بالتمام فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75] [إشارة إلى أنه][1] بقدر زوال تلك الظلمات حصلت له هذه الأنوار وظهر أن قوله: وكذلك منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية.

فإن قيل: هذه [الإراءة][2] قد حصلت فيما تقدم من الزمان فكان الأولى أن يقال: وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض، فلم عدل عن هذه اللفظة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ﴾؟. **قلنا**: **الجواب عنه من وجهين**:

الأول: أن يكون تقدير الآية: وكذلك كنا نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض فيكون هذا على سبيل الحكاية عن الماضي والمعنى: أنه تعالى لمّا حكى عنه أنّه شافه أباه بالكلام الخشن تعصباً للدين فكأنه قيل: وكيف استجاز إبراهيم هذا؟ وكيف بلغ هذا المبلغ في قوة الدّين؟ فأجيب: بأنا كنّا نريه ملكوت السمٰوات والأرض من وقت طفولته لأجل أن يصير من الموقنين في زمن بلوغه.

الوجه الثاني: في الجواب ـ وهو أعلى وأشرف مما تقدّم ـ وهو أن نقول: ليس المقصود من [إراءة][3] الله تعالى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض هو مجرد أن يرى إبراهيم هذا الملكوت، بل المقصود أن يراها فيتوصل برؤيتها إلى معرفة جلال الله وقدسه وعلوه وعظمته، ومعلوم أن مخلوقات الله تعالى وإن كانت متباينة في الذوات وفي الصفات إلّا أنها في جهات دلالتها على الذات والصفات غير متناهية، فإن أهل الأصول قالوا: الجوهر الفرد يدل على قدرة الله وحكمته من جهات دلالالتها والصفات غير متناهية؛ وذلك لأنّ ذلك الجوهر يمكن وقوعه في كلّ واحد من الأحياز التي لا نهاية لها بدلاً عن الآخر ويمكن اتصافه بكل واحد من الصفات التي لا نهاية [لها][4] بدلاً عن الأخرى.

---

(1) [إشارة إلى أنه] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [الإراءة] في الأصل: الإرادة.
(3) [إراءة] في الأصل: رؤية.
(4) [لها] زيادة يقتضيها السياق.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن وجوب معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره معلوم بالعقل؛ وذلك لأن إبراهيم عليه السلام حكم عليهم بالضلال، ولولا الوجوب بالعقل لما صحّ ذلك، وهذا الاستدلال ضعيف.

المسألة الثالثة: اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام في هذه الآية على الحجة العقلية على فساد مذهبهم من وجهين:

الأول: أن قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدل على أنهم كانوا يعتقدون كثرة الآلهة، إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل على ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

الثاني: أنه لو كان لها قدرة على الخير والشرّ لكان الصنم الواحد كافياً؛ فلمّا لم يكن الواحد كافياً دلّ على أنّها وإن كثرت فلا منفعة فيها ألبتّة.

وأما قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فالمعنى ظاهر.

أمّا قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75] ففيه مسائل:

الأولى: الكاف في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كاف التشبيه وذلك إشارة إلى غائب جرى ذكره، والذي جرى ههنا ذكره فيما قبل هو أنه عليه السلام استقبح عبادة الأصنام بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 74] فالمعنى: ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السمٰوات والأرض.

وههنا دقيقة عقلية وهو أن نور جلال الله ظاهر لائح غير منقطع ولا [زائل][1] ألبتة والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلّا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلّا الاشتغال بغير الله، وإذا كان الأمر كذلك فبقدر نزول هذا الحجاب يحصل ذلك التجلي؛ فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ إشارة إلى الاشتغال بغير الله، فإنّ كلّ ما سوى الله فهو صنم، ثم إنه عليه السلام استقبح ذلك منهم بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ

(1) [زائل] في الأصل: بزائل.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: 76] فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير لتلك الإراءة، فوجب القول بأنّ تلك الإراءة كانت عبارة عن هذا الاستدلال.

الحجة الثالثة: أنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: 83] والرؤية بالعين لا تصير حجة على قومه، لأنهم كانوا غائبين عنها، وكانوا يكذّبون إبراهيم فيها بل وما كان يحلّ لهم التصديق في تلك الدعوى بلا آية على صدقِ دعواه، وإنما كانت الحجة عليهم استدلاله بالنجوم من الطريق الذي نطق به القرآن؛ فإن تلك الإراءة ثابتة في حقه.

الحجة الرابعة: أن إراءة جميع العالم دفعة واحدة يفيد العلم الضروري بأن للعالم إلٰهاً قادراً على كل الممكنات، ومثلُ هذه الحالة تصلح لإنسان [عنده][1] استحقاق المدح [و][2] التعظيم، ألا ترى أنّ الكفار في الآخرة يعرفون الله تعالى بالضرورة وليس لهم في تلك المعرفة مدح ولا ثواب.

وأما الاستدلال بالمخلوقات على الصانع الحكيم القادر العليم فذلك هو الذي يفيد المدح والتعظيم.

الحجة الخامسة: أنه تعالى كما قال في حق إبراهيم عليه السلام: ﴿﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكذا قال في حق هذه الأمة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53]، وكما كانت هذه الإراءة، بالقلب لا بالبصر؛ لأن الإراءة كانت حاصلة للكفار فكذا في حق إبراهيم يجب أن تكون كذلك.

الحجة السادسة: أنه عليه السلام لما تمّم الاستدلال في النجم والشمس والقمر قال بعده: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79] فحكم على السمٰوات والأرض بكونها مخلوقة لأجل الدليل الذي ذكره في النجم والقمر والشمس، وذلك الدليل لو لم يكن عاماً في جميع السمٰوات والأرضين لكان الحكم العام بناء على الدليل الخاص خطأ، فثبت أن ذلك الدليل كان عاماً وكان ذكر النجوم والقمر والشمس كالمثال لإراءة الملكوت، فوجب أن يكون المراد من إراءة الملكوت تعريف كيفية دلالة تغيرها على حدوثها، ودلالة حدوثها على الافتقار، فتكون هذه الإراءة بالقلب لا بالعين.

---

(1) [عنده] في الأصل: عندها.

(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.

ثم كلّ واحد من هذه الأحوال التقديرية دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، لأن كلها أحوال جائزة محتاجة إلى المرجح.

وإذا كان الجوهر الفرد والجزء الذي [لا يتجزىء كذلك][1] فكيف القول في كلّ ملكوت الله؟ فثبت أنّ دلالة ملكوت الله على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية، وحصول العلوم التي لها دفعة واحدة في العقل البشري محال، فإذاً لا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقب البعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر، وهذا يتعلق بالمستقبل لا بالماضي فلهذا السبب لم يقل (أريناه) بل قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ﴾ وهذا هو المراد من قول المحققين: السفر إلى الله، فإنه لا نهاية له.

المسألة الثانية: الملكوت هو الملك، والتاء للمبالغة كالرغبوت من الرغبة، والرهبوت من الرهبة.

واعلم أنّ في هذه الإراءة قولان:

الأول: أن الله أراه الملكوت بالعين؛ قالوا: إن الله شق له السمٰوات حتى رأى إلى العرش والكرسي وحيث ينتهي إلى فوقية العالم وشق الأرض إلى حيث ينتهي إلى تحتية العالم؛ فرأى ما في السمٰوات من العجائب والبدائع ورأى ما في بطن الأرض من العجائب.

والقول الثاني: أن هذه الإراءة كانت بعين البصيرة والعقول لا بعين البصر.

واحتج القائلون على صحة هذا القول بوجوه:

الحجة الأولى: أن ملكوت السمٰوات عبارة عن ملك السمٰوات والملك عبارة عن القدرة وقدرة الله تعالى لا ترى وإنما تعرف بالعقل، وهذا لازم إلا أن يقال: المراد بملكوت السمٰوات والأرض نفس السمٰوات والأرض إلا أنه يصير على هذا التقدير لفظ الملكوت عديم الفائدة وأنه لا يجوز.

الحجة الثانية: أن يقال: ذكر هذه الإراءة في أول الآية على سبيل الإجمال وهو قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [ثمّ][2] فسّرها بعد ذلك بقوله:

---

(1) [لا يتجزى كذلك] في الأصل: لا يتحرك لذلك.

(2) [ثم] زيادة يقتضيها السياق.

بقوله: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ﴾ [الأنعام: 75] [بدلاً][1] من قوله: (أرينا إبراهيم)، فهذه الحالة لا تحصل إلا للفضلاء[2] من الأنبياء ﷺ كإبراهيم وموسى وعيسى.

المسألة الثالثة: اختلفوا في الواو في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ وذكروا فيها وجوهاً:

الأول: الواو زائدة، والتقدير: نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض ليكون من الموقنين.

والثاني: التقدير: نُري إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض ليستدل بها وليكون من الموقنين.

والثالث: أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً لبيان علة الإراءة والتقدير: ليكون من الموقنين [نريه][3] ذلك.

والرابع: أن الإراءة قد تحصل وتصير سبباً لمزيد الضلال كما في حق فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: 56] وقد تصير سبباً لمزيد الهداية واليقين، فلما احتمل هذين الاحتمالين قال في حق إبراهيم عليه السلام: أريناه هذه الآيات ليراها فيكون من الموقنين لا من الجاحدين.

المسألة الرابعة: اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل، ولهذا السبب لا يوصف علم الله تعالى باليقين، لأن علمه غير مسبوق بالشبهة وغير مستفاد من التفكر.

واعلم أن الإنسان في أول ما يستدل فإنه لا ينفك عن شبهة وشك من بعض الوجوه؛ فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سبب [حصول][4] اليقين وذلك لوجوه:

الأول: أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثير وتقوية فلا تزال القوة

---

(1) [بدلاً] في الأصل: بدل.
(2) للفضلاء: في الهامش كنسخة ثانية: للعظماء.
(3) [نريه] في الأصل: نورية.
(4) [حصول] في الأصل: الحصول.

الحجة السابعة: أن اليقين عبارة عن العلم المستفاد من التأمل إذا كان مسبوقاً بالشك، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ كالعلة لتلك الإراءة؛ فيصير تقدير الآية: يرى إبراهيم ملكوت السمٰوات والأرض لأجل أن يصير من الموقنين، فلمّا كان اليقين هو العلم المستفاد من النظر في الدليل وجب أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال.

الحجة الثامنة: أنّ جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد وهو أنها محدثة ممكنة، وكلّ محدث ممكن فهو محتاج إلى الصانع.

وإذا عرف الإنسان هذا الوجه الواحد كفاه ذلك في الاستدلال على الصانع. وكأنّه بمعرفة هاتين المقدمتين فقد طالع جميع الملكوت بعين عقله، وسمع لشهادتها بالاحتياج والافتقار بسمع عقله، وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة ألبتة.

ثم أنها غير شاغلة عن الله تعالى بل هي شاغلة للقلب والروح بالله، أمّا رؤية العين فالإنسان لا يمكنه أن يرى بالعين أشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال، ألا ترى أن من نظر إلى صفحة مكتوبة فإنه لا يرى من تلك الصفحة رؤية تامة كاملة إلا حرفاً واحداً، فإن حدق بصره إلى حرف آخر وشغل بصره صار محروماً عن إدراك الحرف الأول وعن إبصاره.

فثبت أن رؤية الأشياء الكثيرة دفعة واحدة غير ممكنة، وبتقدير أن يمكن ذلك إلا أنّ هذه الرؤية غير باقية، وبتقدير أن تكون باقية لكنها شاغلة عن الله تعالى، ألا ترى أنّه تعالى مدح محمداً ﷺ في تركها فقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: 17]، فدلّت هذه الدلائل على أنّ حمل هذه الإراءة على رؤية القلب أولى.

فإن قيل: رؤية القلب بهذا التفسير حاصلة لجميع الموحدين فأي فضيلة تحصل لإبراهيم عليه السلام بسببها؟

قلنا: جميع الموحدين والمستدلين يشتركون في معرفة حدوث العالم والاستدلال به على الصانع، فأما الاستغراق في هذا الاستدلال والتأمل في كيفية دلالة كل واحد من الممكنات والمحدثات في عالم الأجسام والأرواح وذرات الأرضين والسمٰوات، ثم نرى هذه الحاصلة في كل حين وأوان ولحظة وزمان على ما هو المراد

تركت، فأخفت حملها لذلك فلمّا جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدَّت الباب بحجر، فجاء جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام ووضع أصبعه في فمه فمصّه فخرج منه رزقه، وكان يتعهده جبريل ﷺ، وكانت أمه تأتيه أحياناً وترضعه، وكان إبراهيم ﷺ في غيبته يمصّ إبهامه فيخرج منه عسل، ويمص المسبحة فيخرج منها لبن، ويمص الثالثة فيخرج منها ماء.

وكان حينئذ [مستغنياً][1] عن الرضاعة؛ فبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف أن له ربّاً، وسأل الأم إذ جاءت إليه فقال لها: من ربّي؟ فقالت: أنا، فقال: ومن ربّك؟ قالت: أبوك، فقال: ومن ربّ أبي؟ فقالت: ملك البلد؛ فعرف إبراهيم ﷺ جهلها بربّها، فنظر من باب ذلك الغار ليرى شيئاً يستدل به على الربّ فرأى النجم الذي كان أضوأ النجوم في السماء فقال: هذا ربيّ إلى آخر القصّة.

ثم القائلون بهذا القول اختلفوا: فمنهم من قال: كان هذا قبل البلوغ وجريان العلم عليه، ومنهم من قال: إن هذا كان بعد البلوغ.

واتفق أكثر المحققين على فساد قول من قال: أنه كان بعد البلوغ واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أن القول بربوبيّة النجم كفر بالإجماع، والكفر غير جائز على الأنبياء ﷺ بالإجماع.

الحجة الثانية: أن إبراهيم قد عرف قبل هذه الواقعة ربّه بالدليل، والدليل على ذلك أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة: ﴿لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:74].

الحجة الثالثة: أنّه تعالى حكى عنه أنّه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالرفق حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾.

وحكى في هذا الموضع: أنه دعاه إلى التوحيد وترك الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش ومن المعلوم أن من دعا غيره إلى الله فإنه يقدم الرفق على العنف

(1) [مستغنياً] في الأصل: مستغن.

تتزايد حتى تنتهي إلى الجزم.

والثاني: أن كثرة الأفعال سبب لحصول [الملكة][1]، وكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد جار مجرى تكرار الدرس الواحد فكما أن كثرة التكرار يفيد الحفظ المتأكد الذي لا يزول عن القلب فكذا ههنا.

والثالث: أن القلب عند الاستدلال الأول كان مظلماً جداً، فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد بالدليل الأول امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة القلب؛ فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة، فإذا حصل الاستدلال الثاني امتزج نوره بالحالة الأولى فيصير الشروق أتم فيه كما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر نورها في أول الأمر، وكما أن نور الشمس لا يزال يتزايد بسبب تزايد قربها من سمت الرأس فإذا وصلت إلى قرب الرأس حصل النور التام، فكذا العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أكثر.

إلا أن الفرق بين شمس المعرفة وبين شمس العالم أن [ارتفاع][2] شمس العالم وتصاعدها [إلى][3] حد معين منقطع، أما شمس المعرفة والتوحيد فلا نهاية لتصاعدها ولا غاية لتزايدها؛ فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 75] إشارة إلى مراتب الدلائل و﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ إشارة إلى درجات أنوار التجلي، وشروق شمس المعرفة والتوحيد.

أما قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ [الأنعام: 76] فالفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ﴾.

واعلم أن كثيراً من المفسرين [ذكروا][4] أن ملك ذلك الزمان كان قد رأى رؤيا عبرها المعبرون بأنه سيولد غلام في ذلك العام وينازعه في ملكه، فأمر ذلك الملك بذبح كلّ غلام يولد في ذلك العام فحبلت أم إبراهيم بإبراهيم، وما أظهرت حبلها للناس لأن الملك رسم على كلّ حامل فإذا وضعت غلاماً ذبح وإن كانت جارية

---

(1) [الملكة] في الأصل: الملكوت.
(2) [ارتفاع] في الأصل: الارتفاع.
(3) [إلى] زيادة يقتضيها السياق.
(4) [ذكروا] في الأصل: ذكر.

الحجة العاشرة: أن هذه الواقعة والقصة بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه؛ والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ولم يقل: على نفسه فعلم أن هذه [المباحثة][1] إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم عليه السلام كان يطلب الدّين والمعرفة لنفسه.

الحجة الحادية عشرة: أن القوم يقولون: إن إبراهيم عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس حال ما كان في الغار، وهذا باطل، لأنه لو كان الأمر كذلك فكيف يقول: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 78] مع أنه ما كان في الغار قوم ولا صنم.

الحجة الثانية عشرة: قوله تعالى: وحاجه قومه قال: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ وكيف يحاجونه وهم بعدُ ما رأوه وهو ما رآهم؟ وهذا يدلّ على أنّه عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في النجم والقمر والشمس بعد أن حاجّه قومه ورآهم يعبدون الأصنام فدعوه إلى عبادتها، فذكر قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ ردّاً عليهم وتنبيهاً لهم على فساد قولهم.

الحجة الثالثة عشرة: أنّه تعالى حكى عنه أنّه قال للقوم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ وهذا يدلّ على أنّ القوم خوّفوه بالأصنام كما حكى عن قوم هود قولهم لنبيهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: 54] ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق بالغار قبل مخالطة القوم.

الحجة الرابعة عشرة: أن تلك الليلة كانت مسبوقة بالنهار، ولا شك أن الشمس كانت طالعة ثم غربت؛ فكان ينبغي أن يستدل بغروبها على أنها لا تصلح للإلٰهية، وإذا بطلت صلاحية الشمس للإلٰهية بطل ذلك في القمر والنجم بطريق الأولى.

هذا إذا قلنا: بأن هذه الواقعة كان المقصود منها تحصيل المعرفة لنفسه، أما إذا قلنا: إن المقصود إلزام القوم الحجة وانمحاقهم فهذا السؤال غير وارد، لأنه إنمّا اتفق مكالمته مع القوم حال طلوع ذلك النجم ثم امتدت المناظرة إلى أن طلع القمر وطلعت الشمس، وعلى هذا التقدير فالسؤال غير وارد؛ فثبت بهذه الدلائل الظاهرة أنه لا يجوز

(1) [المباحثة] في الأصل: المباحث.

التامّ؛ فدلّ على أنّ هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مراراً وأطواراً سرّاً وجهراً.

ولا شك أنه اشتغل بدعوة أبيه بعد الفراغ من فهم نفسه، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن قد عرف الله مدة.

الحجة الرابعة: أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله تعالى ملكوت السمٰوات والأرض، حتى رأى من فوق العرش والكرسي وما تحتهما ومن تحت الثرى، ومن كان منصبه ومنقبته في الدّين كذلك وعناية الله تعالى به إلى هذا الحدّ كيف يليق به أن يقول بربوبية الكواكب؟

الحجة الخامسة: أن دلائل الحدوث ظاهرة في الأفلاك والكواكب من خمسة عشر وجهاً شرحناها في باب كيفية دلالة خلق السمٰوات على الصانع القديم، ومع هذه الوجوه الظاهرة كيف يليق بأقل العقلاء نصاباً من العقل والفهم أن يقول بربوبية الكواكب، فضلاً عن أعقل العقلاء وأعلم العلماء.

الحجة السادسة: أنّه قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ وقوله: ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ عبارة عن المستقبل وهذا يقتضي أنه غير ضال في الحال، والجاهل بالله لا شك أنّه ضال.

الحجة السابعة: أنّه قال في وصف إبراهيم عليه السلام: أن يكون سليماً عن الكفر، قال الله تعالى في حقه: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 84].

الحجة الثامنة: أنه تعالى مدحه، فقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي: آتيناه رشده من قبل، أي: من قبل زمان الفكرة وكنا به عالمين، أي: بصفوته وطهارته كنا عالمين، ونظيره قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

الحجة التاسعة: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75] أي: ليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين، ثم قال بعده: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ والفاء، تقتضي التعقيب فدلت الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ﴾ على أنّ هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم عليه السلام من الموقنين العارفين بربّه.

عرف من تقليدهم لأسلافهم ونفور طباعهم عن قبول الدلائل، أنّه لو صرّح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا منه ولم يلتفتوا إليه، فلّما عرف ذلك منهم مال إلى طريق استدراجهم باستماع الحجة بواسطة الفلك صادراً في الحقيقة عن الله عزّ وجلّ، بخلاف الواحد منا فإنه لا تأثير له في الفلك، فلم يكن الإحياء والإماتة الصادران بواسطة الفلك صادرين من البشر.

فإن قيل: هذا السؤال والجواب اللذين ذكرتم كيف يفهم من الآية.

قلنا: بإظهار ضرب من المساعدة لهم في الظاهر مع طمأنينة قلبه بالإيمان حتى يتمكن بعد ذلك من إبطال ما ذكروا. وإنّما استحلّ ذكر هذه الكلمة لأنه لم يكن له طريق إلى الدعوة غيره فكان ذلك بمنزلة المكره على كلمة الكفر؛ فإن عند الإكراه يجوز إجراء كلمة الكفر على اللسان؛ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: 106]، فإذا جاز ذكر كلمة الكفر على سبيل المصلحة لبقاء شخص واحد فلأن يجوز إظهار كلمة الكفر لتخليص عالم من الناس عن الكفر والعقوبة الأبدية أولى.

وأيضاً المكره على ترك الصلاة لو صلّى حتى قتل استحق الأجر العظيم ثم إذا جاء وقت القتال مع الكفار وعلم أنه لو اشتغل بالصلاة انهزم عسكر الإسلام فههنا يجب عليه ترك الصلاة والاشتغال بالقتال، حتى لو صلّى وترك القتال أثم، ولو ترك الصلاة وقاتل استحق الأجر بل نقول: أن من كان في الصلاة فرأى طفلاً أو أعمى أشرف على غرق أو حرق وجب عليه قطع الصلاة، لاتقاء ذلك الأعمى وكذلك الطفل عن البلاء، وكذلك هاهنا، وإن إبراهيم ﷺ تكلّم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة القوم حتى إذا ورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتمّ، وانتفاعهم باستماعه أكمل.

ومما يؤكد هذا الوجه أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق في موضع آخر [وهو][1] قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: 88-90]؛ وذلك لأنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على معرفة الحوادث المستقبلة، فاستدل إبراهيم ﷺ بالنجوم موافقة لهم ومشياً على قاعدتهم في الظاهر مع أنه كان بريئاً في الباطن، ومقصوده في ذلك أن يفعل بالأصنام ما فعل، فأراد الموافقة

(1) [وهو] زيادة يقتضيها السياق.

أن يقال: إن إبراهيم عليه السلام قال على سبيل الجزم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وإذا بطل هذا بقي احتمالان:

الأول: أن يقال: هذا الكلام قاله إبراهيم عليه السلام بعد البلوغ ولكن ليس الغرض منه إثبات ربوبية الكوكب بل الغرض منه أحد أمور: الأول: أن إبراهيم عليه السلام لم يقل ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على سبيل الإخبار بل الغرض منه أن يناظره عبدة الكواكب، وكان مذهبهم أن الكوكب ربّهم وإلٰههم فذكر إبراهيم عليه السلام هذا القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله، كما أنّ الواحد منّا إذا ناظر من يقول بقدم هذا الجسم فيقول: الجسم قديم وإذا كان كذلك فلم نرَهُ ولمْ نشاهده مركباً.

فهو إنّما قال: الجسم قديم إعادة لكلام الخصم حتى يلزم عليه المحال، فكذا هٰهنا قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ حكاية لكلامهم ثم عقّبه بما يدل على فساده وهو قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾.

وهذا الوجه هو المعتمد عليه في الجواب، والدليل عليه: أنه تعالى مدحه في آخر هذه الآية على هذه المناظرة بقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ معناه في زعمكم واعتقادكم ونظيره أن يقال للمجسّم على سبيل الاستهزاء: أن إلٰهك جسم محدود أي في زعمه واعتقاده، قال تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾ [القصص: 74] وكان عليه السلام يقول: يا إلٰه الآلهة في زعمهم.

الوجه الثالث: المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلاّ أنه أسقط حرف الاستفهام استغناءً عنه لدلالة قرائن الحال عليه.

الوجه الرابع: في الآية اختصار والتقدير: يقولون: هذا ربّي. وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا﴾ [البقرة: 127] والتقدير ويقولون: ربّنا!

الوجه الخامس: أن يكون ذلك على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوماً: (هذا سيّدكم) على سبيل الاستهزاء.

الوجه السادس: أنّه عليه السلام كان يبطل قولهم بربوبيّة الكواكب، إلاّ أنه عليه السلام كان قد

يقال: الأفول عبارة عن الحركة، وكل ما يصحّ عليه الحركة فإنه لا بدّ أن يكون متحركاً أو ساكناً، وكلّ ما كان متحركاً أو ساكناً فهو محدث، إلا أنا نقول: كونه محدثاً لا يمنع من كونه ربّاً لإبراهيم ﷺ، وكذلك أن القوم ما كانوا ينكرون وجود الله تعالى بل كانوا يقولون: أنه تعالى خلق الشمس والقمر والنجوم ثم أنه تعالى فوض تدبير هذا العالم إليها فالبشر عبيد الكواكب [ومخلوق][1] لها ،والكواكب مخلوقة ومحدثة للإلٰه الأكبر فإذا كان كذلك لم يلزم من أفول الكواكب صحة قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ ولا يصحّ أيضاً لأجل أفول الكواكب صحة قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ولا أيضاً صحة قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

والجواب من وجوه:

الأول: أن أفول هذه الأجسام يدل على حدوثها وحدوثها يدل على أنها مخلوقة لموجود قديم أزليّ، ويجب أن تكون قادرية ذلك القادر أزلية وإلاّ لافتقر حدوث قادريته إلى قادر آخر ولزم التسلسل، وإذا كانت قادريّته أزلية، وجب أن تكون متعلقة بجميع الممكنات وإذا كان كذلك امتنع وقوع شيء من الممكنات إلا بقدرته إذ لو وقع شيء من الممكنات لا بقدرته بل بقدرة غيره لكان ذلك الغير سبباً لتعجيزه عن إيجاده للشيء الذي كان مقدوراً له وذلك محال لأنه أقدر من غيره، والأضعف لا يمكنه تعجيز الأقدر.

وإذا ثبت أن حدوث الأجسام يدل بهذه الوسائط على أن جميع المحدثات توجد بقدرته، كان المحدث والموجد للناس والحيوان والنبات والمعادن هو الإلٰه القديم المختار جلّ جلاله، فحينئذ تكون الكواكب معزولة عن ربوبية البشر، وثبت عند ذلك أن أفول الكواكب يدل دلالة قاطعة على صحة قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ وعلى صحة قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 78-79].

واعلم أن هذا الوجه لا يتمشى إلاّ على مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة خلق الأعمال.

---

(1) [ومخلوق] في الأصل: ومخلوقة.

في الظاهر على التمسك بعلم النّجوم لغرض كسر الأصنام فلم لا يجوز إظهار كلمة الكفر باللسان لغرض إبطاله بالدليل القاطع؟

وأيضاً فإن المتكلمين قالوا: لا يقبح من الله تعالى إظهار خوارق العادات على يدّ من يدعي الإلٰهية، لأن صورة هذا المدعي وشكله مكذّب بدعواه، فلا يحصل التلبيس بسبب ظهور تلك الخوارق على يده، لكن لا يجوز إظهارها على يد من يدعي النبوة لأنه يفضي إلى التلبيس فكذا هٰهنا.

وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76] كلام لا يفضي إلى الإضلال، لأن دلائل فساده جلية وفي إظهار هذه الكلمة منفعة.

الوجه السابع: في الجواب أن القوم لما دعوه إلى عبادة النجوم، وكانوا في تلك المناظرة إذا طلع النجم الدريّ قال عليه السلام: «هذا ربي» أي هذا هو الربّ الذي تدعونني إليه، ثم سكت زماناً حتى أفل فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾.

أما الاحتمال الثاني وهو أن يقال: إبراهيم عليه السلام إنما قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قبل البلوغ وهو في الغار، فبتقدير أن الله تعالى قد خصّ إبراهيم عليه السلام بالعقل الكامل والقريحة الوقادة في الإيمان خطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه، ففكر فرأى النجم فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فلّما شاهد كليةِ حركته قال: لا يجوز أن يكون ربًّا وكذا القمر والشمس.

ثم بلغه الله تعالى في إثبات هذا الفكر والاستدلال حدّ التكليف، فقال في الحال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فهذا احتمال لا بأس به، وإن كان الاحتمال [الأول][1] أولى بالقبول لما ذكرنا من الدلائل الكثيرة على أن هذه المناظرة إنما جرت لإبراهيم عليه السلام وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد.

أما قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] ففيه سؤالات:

السؤال الأول: كيف يدلّ الأفول على أنّه لا يصلح للربوبية وأقصى ما في الباب أن

(1) [الأول] زيادة يقتضيها السياق.

وصحَّ أيضاً قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

السؤال الثاني: الأفول إنما يدل على الحدوث من حيث أنه حركة على هذا التقدير فيكون الطلوع أيضاً دليلاً على الحدوث فلمَ ترك إبراهيم الاستدلال على حدوثها بالطلوع وعوّل في ذلك على الأفول؟

والجواب: لا شك أن الطلوع والغروب يشتركان في الدلالة على الحدوث إلّا أن الدليل الذي يتمسك به الأنبياء ﷺ في معرض الدعوة لا بدّ أن يكون ظاهراً جليًّا بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبيّ والفطن والبليد، ودلالة حركة الطلوع وإن كانت دلالة يقينيّة على الحدوث إلّا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأذكياء من الخلق.

أما دلالة الأفول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كلُّ أحد؛ فإن الآفل يزول سلطانه وقت الأفول، فكانت دلالة الأفول على هذا المقصود أتمّ.

وأيضاً قال بعض المحققين: الهويّ في حضرة الإمكان أفول، وأحسن الكلام ما تحصل فيه حصة الخواص وحصة الأوساط وحصة العوام، فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان، وكلُّ ممكن محتاج والمحتاج لا يكون مقطعاً للحاجة؛ فلا بد من الانتهاء إلى ما يكون منزهاً عن الإمكان حتى يقطع الحاجات بسبب وجوده على ما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾.

وأما الأوساط فإنهم يفهمون من الأفول الحركة فكلُّ متحرك محدث وكلّ محدث فهو محتاج إلى القديم القادر فلا يكون المحتاج إلٰهاً بل الإلٰه هو الذي احتاج إليه ذلك الآفل.

وأما العوام فإنهم يفهمون من الأفول الغروب، وهم يشاهدون أنّ كل كوكب يقرب من الأفول والغروب فإنه يزول نوره ويبطل ضوؤه وسلطانه ويكون كالمعزول ومن كان كذلك لم يصلح للإلٰهية؛ فهذه الكلمة الواحدة أعني قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76] كلمة مشتملة على نصيب المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فكانت أكمل الدلائل وأفضل البراهين.

السؤال الثالث: لا شك أن تلك الليلة [مسبوقة][1] بنهار وكانت الشمس أفلت في ذلك النهار السابق بعد أن كانت طالعة، وإذا كان الأفول دليلاً على أنه لا يصلح

(1) [مسبوقة] في الأصل: مسبوق.

الوجه الثاني في الجواب: أن أفول الكواكب يدل على حدوثه، وحدوثه يدل على افتقاره في وجوده إلى القادر المختار، ومن كان قادراً على خلق البشر بدون شيء من الوسائط أولى، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57] وبقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: 81].

وثبت بهذا الطريق كونه قادراً على خلق البشر وكونه قادراً على تدبير هذا العالم السفليّ بدون واسطة الأجرام الفلكية.

أما كون الأفلاك والأنجم قادرة على الخلق والإيجاد عالمة بمصالح أهل هذا العالم ومفاسد [هم][1] فذاك غير معلوم لأنّ كلّ شيء يسنده المنجم إلى الكوكب والفلك فالعقل لا يستبعد إسناده إلى إلٰه الفلك.

وإذا كان كذلك فحكم العقل طرح المجهول والأخذ بالمعلوم، فيستند العقل تدبير هذا العالم السفلي إلى إلٰه الفلك والأنجم فلهذا قال إبراهيم ﷺ: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الوجه الثالث: في الجواب أن الأفول كما دلّ على حدوث الأفلاك والأنجم دلّ على افتقارها إلى إلٰهه القديم القدير الخبير، الذي يكون علمه في غاية الكمال وحكمته في نهاية الجلال.

وإذا كان كذلك كان الاشتغال بخدمته وطاعته أولى من الاشتغال بخدمة الأفلاك والأنجم.

وبتقدير أن يكون مدبر هذا العالم السفلي هو الإلٰه الأكبر كان الاشتغال بطاعته واجباً وبتقدير أن يكون [مدبر][2] هذا العالم هو الأفلاك والأنجم كان الاشتغال بطاعة الإلٰه الأعظم إعراضاً عن الضعيف وتمسكاً بالقويّ، وهذا أحسن في العقول الزاكية، أمّا لو كان مدبر هذا العالم هو الإلٰه الأكبر كان الاشتغال بطاعة الأفلاك والأنجم إعراضاً عن القويّ وتمسكها بالضعيف، وهذا قبيح في العقول؛ فعلمنا أنّ على جميع [التقادير][3] صحّ قول إبراهيم صلوات الرحمٰن عليه وسلامه: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾

---

(1) [هم]في الاصل : ها.
(2) [مدبر] زيادة يقتضيها السياق.
(3) [التقادير] في الأصل: التقدير.

والجواب فيه قولان:

أحدهما: أن [الكوكب][1] كان في الربع الغربيّ من الفلك فسما بوجهه إلى الأفول وهذه الأحوال يمكن[2] حصولها في الليلة الواحدة.

القول الثاني في الجواب: أن طلوع الكوكب وأفوله كان في ليلة، وطلوع القمر وأفوله كان في ليلة أخرى.

واعلم أن القوم كانوا على مذهب المفوضة، ومعنى هذا المذهب أنهم كانوا يقولون: البشر عبيد الكواكب والكواكب عبيد الله سبحانه، والدليل عليه: أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ وكونهم مشركين يدلّ على أنّهم كانوا مقرّين بإثبات الإلٰه، وإنما كانوا مشركين لأنهم أثبتوا للشمس والقمر والنجوم نصيباً من [المعبودية][3] وتدبير العالم، فلمّا أبطل إبراهيم عليه السلام هذا المذهب تبرّأ منه ثمّ أقبل على التوحيد المحض فقال: ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وكأنَّ قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ عبارة عن كلمة: لا إلٰه، وقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ عبارة عن كلمة: إلاّ الله، فصار معنى كلمة: لا إلٰه إلاّ الله مكشوفاً في هذا المقام، وهذا آخر الكلام في هذه الآية.

---

(1) [الكوكب] في الأصل: الكواكب.
(2) يمكن في الأصل: لا يمكن.
(3) [المعبودية] في الأصل: العبودية.

للإلٰهية فلِمَ لم يتمسك إبراهيم ﷺ بأفول الشمس في النهار السابق على تلك الليلة على أنها لا تصلح للإلٰهية؟

ثم إذا خرجت الشمس عن صلاحيّة الإلٰهية مع كبرها وجلال ضوئها فبأن يخرج القمر والنجم عن صلاحية الإلٰهية كان أولى.

لا يقال: أنه ﷺ إنما تربى في ذلك الكهف، وهو أوّل ما نظر من ذلك الكهف إلى الخارج، فكان دليلاً له فرأى الكواكب في تلك الساعة ثم بعده رأى القمر ثم بعده رأى الشمس.

لأنا نقول: أنه من البعيد أن يترقى الشخص العاقل في غار من أوّل طفوليته إلى زمن بلوغه حدَّ كمالِ العقل والتكليف، مع أنه ما نظر من ذلك الغار إلى خارج ذلك الغار في تلك المدة الطويلة وكان يفرق بين الليل والنهار، وما كان يدخل نور الشمس في ذلك الغار من التُرب(1) هذا محال في العرف.

والجواب ـ والله أعلم ـ : أن هذا الإشكال لازم على من يقول: أنه عليه أفضل الصلاة والسلام إنما شرع في هذه الواقعة لطلب معرفة الله تعالى لنفسه، أما على قول من يقول أنه ﷺ إنّما استدل بهذه الوجوه حال اشتغاله بالدعوة إلى التوحيد ومنع القوم عن عبادة الكواكب، فالسؤال زائل لأنه من المحتمل أنه اتفق أن كان هو ﷺ جالساً مع قومه ليلة من الليالي ثم أنه زجرهم عن عبادة الكواكب وبيّن لهم أن ذلك ضلال وجهل، فبينما هم في ذلك الكلام إذ وقع بصرهم على كوكب مضيء فوقعهم في تلك المناظرة ثم لمّا أفل ذلك الكوكب طلع القمر وأعاد عليهم ذلك الكلام وبقوا فيه إلى أن طلعت الشمس فأعاد إبراهيم ﷺ ذلك الكلام.

أمّا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 77 ـ 78] فلا إشكال فيه ألبتة إلّا في موضع واحد، وهو أن يقال: الآية مشعرة بأن في الليلة الواحدة طلع الكوكب ثم أفل ثم بعده طلع القمر ثم أفل وهذا غير ممكن في الليلة الواحدة.

(1) الترب: بضم فسكون بمعنى التراب، ويريد به شقوق الأرض.

أقرب المذكورين إلى هذا الضمير فوجب أن يكون هذا الضمير عائداً إليه.

القول الثاني: وهو قول جمهور المفسرين أنّ الضمير عائد إلى ذلك الإنسان الذي حاج إبراهيم، واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أن قوله: ﴿ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ يحتمل ثلاث تأويلات وكل واحد منها إنما يصح إذا قلنا أن الضمير عائد إلى الملك لا إلى إبراهيم، **فأحد تلك التأويلات**: أن يكون المعنى حاج إبراهيم في ربّه لأجل أن آتاه الله الملك على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتوّ فحاجّ كذلك، ومعلوم أن هذا إنّما يليق بالملك العاتي.

التأويل الثاني: أن يكون المعنى جعل محاجته في ربّه شكراً على أن آتاه الله الملك كما يقال: عاداني فلان لأني أحسنت إليه، يريد أنّه عكس ما يجب عليه من الموالاة لأجل الإحسان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ [الواقعة: 82] وهذا التأويل أيضاً لا يليق إلا بالكافر.

التأويل الثالث: أنّه حاج وقت أن آتاه الله الملك، وهذا غير لائق بالنبي المعصوم فإنه يجب عليه إظهار المحاجة قبل حصول الملك وبعده، أما الملك العاتي فإنه لا يليق به إظهار العتوّ الشديد بعد أن يحصل له الملك العظيم فثبت أنه لا يستقيم لقوله: ﴿أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ معنى وتأويل إلا إذا حملناه على الملك العاتي.

الحجة الثانية: أن المقصود من هذه الآية بيان كمال حال إبراهيم في إظهار الدعوة إلى الدين الحق، ومتى كان الكافر سلطاناً مهيباً حال ما كان إبراهيم ملكاً كان هذا المعنى أتمّ ما إذا كان إبراهيم ملكاً وما كان الكافر كذلك فوجب [الذهاب][1] إلى ما ذكرنا.

الحجة الثالثة: ما ذكره أبو بكر الأصم وهو أن إبراهيم عليه السلام لو كان ملكاً لما قدر الكافر على أن يقتل أحد الرجلين ويستبقي الآخر بل كان إبراهيم عليه السلام يمنعه أشدّ المنع.

(1) [الذهاب] زيادة يقتضيها السياق.

الفصل الثاني:
في شرح مناظرة إبراهيم مع ملك زمانه

وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258] أمّا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فهي كلمة يوقف بها المخاطب على أمر يعجب به.

ولفظه لفظ الاستفهام ونظيره قولهم: ألا ترى إلى فلان كيف يصنع؟ معناه هل رأيت كفلان في صنيعه كذا؟

أما قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ فقال مجاهد: هو نمروذ بن كنعان وهو أوّل من تجبّر وادعى الربوبيّة، والمحاجّة: المغالبة يقال: حاججته فحججته أي غالبته فغلبتُه، والضمير في قوله: ﴿رَبِّهِۦٓ﴾ يحتمل أن يرجع إلى إبراهيم وإن يرجع إلى الطاغي، والأول هو الأظهر بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 80] والمعنى: وحاجه قومه في الله.

أما قوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ ففيه قولان:

أحدهما: أنّ الهاء في ﴿ءَاتَىٰهُ﴾ عائدة إلى إبراهيم والمعنى: أن الله آتى إبراهيم الملك واحتجوا على هذا القول بوجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 54] أي سلطاناً بالنبوة والقيام بدين الله.

[الحجة][1] الثانية: لا يجوز أن يؤتي الله الملك للكفار ومن يدعي الربوبية لنفسه.

الحجة الثالثة: أن [عودة][2] الضمير إلى أقرب المذكورين واجب، وإبراهيم

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.
(2) [عودة] في الأصل: دعوة.

وَيُمِيتُ﴾ وهذه المقدمة جزم لأن الواقعة دلت عليها، ويحتمل أن إبراهيم قد ذهب إليه ودعاه أولاً إلى التوحيد من غير ذكر النبوّة.

المسألة الثانية: اعلم أن دليل إبراهيم عليه السلام كان في غاية الصحة، وذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة الله إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين، والإحياء والإماتة كذلك، لأن الخلق عاجزون عنهما والعلم بذلك بعد الاختبار ضروريّ فلا بد من مؤثر آخر غير هؤلاء القادرين الذين نراهم ونشاهدهم حتى يكون مؤثراً في الإحياء والإماتة، وذلك المؤثر إمّا أن يكون موجباً أو مختاراً، والأول باطل لأنه لا يلزم من دوامه وعدم تغيره دوام الأثر، فكان يجب أن لا يتبدل الموت بالحياة ولا بالعكس وذلك محال.

وأيضاً فإنّا نرى في الحيوانات أعضاءً مختلفة الشكل والطبيعة والخاصية، وتأثير الموجب بالذات لا يكون كذلك فعلمنا أنه لا بد في الإحياء والإماتة من [وجود][1] موجد قادر مختار يؤثرنا بالقدرة والاختيار، وذلك هو الله جل جلاله، وهذا دليل متقن في غاية القوة، وذكره الله تعالى في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12] وسنفرد لتقريره فصلاً مفرداً إن شاء الله.

فإن قيل: أنه تعالى قدم الموت على الحياة في آيات منها قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: 28] وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]، وقال إبراهيم عليه السلام في الثناء على الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: 81] فلم قدم في هذه الآية ذكر الحياة على الموت؟

قلنا: أنه إذا كان المقصود من ذكر الدليل هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل أظهر وأوضح، ولا شك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة هٰهنا في الذكر، وأمّا تلك الآيات فالمقصود منها تعديد الأحوال الماضية فلا جرم وجب فيها تقديم الموت على الحياة.

أمّا قوله تعالى: ﴿أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ فاعلم أن المشهور في كتب التفسير أن إبراهيم عليه السلام لما احتج بهذه الحجة، دعا الكافر شخصين وقتل أحدهما واستبقى الآخر وقال أيضاً: أحيي وأميت.

---

(1) [وجود] في الأصل: مصححاً بالهامش: موجود.

وهذا الاستدلال ضعيف لأن من المحتمل أن يقال: إبراهيم كان ملكاً وسلطاناً في الدين والتمكن من إظهار المعجزات، وذلك الكافر كان قادراً على الظلم فلهذا السبب أمكنه قتل أحد الرجلين.

وأيضاً فيجوز أن يقال: إنما قتل أحد الرّجلين قوداً أو كان الاختيار إليه، واستبقى الآخر إما لأنه لا قتل عليه أو بذل الديّة واستبقاه وأيضاً قوله: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ خبر ووعد ولا دليل في القرآن على أن فعله.

ثم القائلون بهذا القول أجابوا على دلائل القائلين بالقول الأول.

أمّا الحجة الأولى: وهي التمسك بقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فجوابها أن هذه الآية دالّة على حصول الملك لآل إبراهيم وليس فيها دلالة على حصول الملك لإبراهيم.

وأمّا الحجة الثانية: وهي قوله: لا يليق بحكمة الله أن يؤتي الكفار الملك، فجوابها أن المراد من الملك التمكين والقدرة والبسطة في الدنيا، والحسّ يدلّ على أنه تعالى قد يعطي للكافر هذا المعنى.

وأيضاً فلم لا يجوز أن يقال أنه تعالى أعطاه الملك حال ما كان مؤمناً ثم إن بعد ذلك كفر.

وأمّا الحجة الثالثة: وهي قولهم عود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب فجوابها أن هذا معارض بما أنّ الروايات الكثيرة وردت بأنّ الملك هو الذي حاجّ إبراهيم، والله أعلم.

أما قوله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الظاهر أن هذا الكلام جواب عن سؤال سابق غير مذكور؛ وذلك لأن من المعلوم أن الأنبياء ﷺ إنّما بعثوا للدعوة، والظاهر أنه إذا ادعى الرسالة فإن المدعو يطالبه أولاً بإثبات أن للعالم إلٰهاً، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما قال: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: 46] قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فاحتج موسى عليه السلام على إثبات الصانع بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكذا هٰهنا الظاهر أن إبراهيم عليه السلام ادّعى الرسالة فقال نمروذ: من ربّك؟ فقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ

الحجة الثالثة: أن السؤال وإن كان في غاية الركاكة إلّا أنه وقع في أسماع الحاضرين فللسكوت عن الحاضرين يقتضي بقاء تلك الشبهة في القلوب وذلك غير جائز: لأن إزالة الشبهة على من يقدر على إزالتها فرض مضيّق فكيف يجوز الإخلال به؟

وليس لأحد أن يقول: أنه ﷺ إنما ترك ذلك[1] الجواب لأنه كان خائفاً من ذلك الملك، **لأنا نقول**: لما لم يمنع الخوف من الملك عن ذكر الدليل الثاني فبأن لا يمنع من ذكر الفرق الذي هو أوضح وأجلى، كان أولى.

الحجة الرابعة: أنه إنّما يحسن الانتقال من دليل إلى دليل آخر لو كان الدليل الثاني أوضح وأقوى، وهٰهنا ليس الأمر كذلك لأن جنس الحياة لا قدرة للخلق عليه، وأمّا جنس تحريك الأجسام فللخلق قدرة عليه، ولا يبعد في الخلق وجود ملك عظيم الجثة أعظم من السمٰوات والأرض، وأنه يحرك السماء والدليل على أن هذا الاحتمال قائم قوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: 17] والعرش أعظم من السمٰوات بكثير فإذا لم يبعد أن يكون الملك حاملاً للعرش فأيّ بعد في أن يكون محركاً للسمٰوات والشمس والقمر؛ فثبت أن الإحياء لا يصلح إلا من الله تعالى، وأمّا تحريك السمٰوات فإنه يصحّ من غير الله، وإذا كان كذلك كانت دلالة الإحياء والإماتة على وجود الله أظهر من دلالة طلوع الشمس على وجود الله تعالى.

إذا ثبت هذا فإنه لا يليق بالنبيّ المعصوم أن يترك التمسك بالدليل القوي ويلزم العجز والانقطاع ويتمسك بعده بدليل ضعيف لا يقبل التمشية، ويكون الداعي له إلى ذلك سؤال فيه ركاكة في غاية السقوط؛ فإن مثل هذا العمل لا يليق بالأنبياء.

الحجة الخامسة: أن دلالة الإحياء والإماتة على وجود الصانع الحكيم أقوى من دلالة طلوع الشمس على وجود الصانع من وجه آخر وذلك لأنا نشاهد في ذات الإنسان وصفاته [كثيراً][2] من التبدلات واختلاف الحالات وتعاقب الصفات، وكل ذلك ظاهر الدلالة على وجود الصانع الجبّار.

وأمّا الشمس فلا يرى في ذاتها ولا في صفاتها ولا في مجاري حركاتها [شيء][3] من التبدلات بل القائلون بأن المؤثر في وجود العالم علة بالإيجاب لا فاعل

---

(1) ترك ذلك: في الأصل: ترك عن ذلك.
(2) [كثيراً] زيادة يقتضيها السياق.
(3) [شيء] في الأصل: شيئاً.

هذا هو المنقول في الكتب وهو عندي في غاية البعد ويدلّ عليه [وجهان][1]:

الحجة الأولى: أن الظاهر من حاله ﷺ أنه شرح حقيقة الإحياء والإماتة على الوجه الملخص؛ فإن إيراد الكلام المجمل المبهم عندما يكون الغرض هو التفهيم والتعليم والزجر عن الباطل والدعوة إلى الحق لا يليق بأقلّ الناس علماً فضلاً عن أعقل العقلاء وأعلم العلماء، ومتى لخّص الإنسان حقيقة الإحياء والإماتة امتنع أن يشتبه على السامع هذا الإحياء والإماتة التي أوردهما الكافر في معرض المعارضة ويبعد في الجمع العظيم، أن يكونوا في [إفحامه][2] بحيث لا يعرفون هذا الفرق.

الحجة الثانية: أن من بلغ في الجهالة والحماقة إلى هذا الحدّ فأي فضيلة تحصل للإنسان بسبب إلزامه وإفحامه لكنه تعالى جعل إفحامه سبباً للفضيلة العظيمة حيث قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾.

واعلم أن القائلين بهذا القول قالوا: إن الكافر لما أفرد هذا السؤال عدل إبراهيم ﷺ من ذكر الدليل إلى دليل آخر فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ﴾، وهذا أيضاً في غاية البعد، **ويدل عليه وجوه:**

الحجة الأولى: أن الانتقال من الدليل الأول إلى الدليل الثاني يوهم العجز والجهل وذلك يقتضي [صيرورته][3] حقيراً في الأعين بحيث لا يلتفت إلى قوله ولا يبالي بكلامه، والأنبياء يجب عليهم أن يصونوا أنفسهم عن هذه الحالة لأن هذه الحالة تخلّ بما هو المقصود من تبليغهم رسالتهم، ويقتضي أن لا يلتفت القوم إليهم وأن لا يقيموا لهم وزناً، فثبت أنه لا يجوز عليهم الانتقال من دليل إلى دليل.

الحجة الثانية: أن هذا السؤال كان في غاية الركاكة والجواب عنه حاصل بأدنى تنبيه؛ فإن كان القوم قد بلغوا في الحماقة والجهالة إلى حيث لا ينتفعون بذكر الفرق بين هاتين الصورتين لم ينتفعوا أيضاً بذكر هذا الدليل الثاني ألبتة، وإن كانوا بحيث يدركون الفرق بين الصورتين كان التنبيه على الفرق أولى من الانتقال إلى الدليل الثاني.

(1) [وجهان] في الأصل: وجوه.
(2) [إفحامه] في الأصل: إحابه بدون تنقيط الثاني والثالث.
(3) [صيرورته] في الأصل: صرورته.

وأمّا الثاني فلا يدل على المقصود لأن الواحد منا يقدر على الإحياء والإماتة بواسطة الأسباب الأرضية والسماوية، فإن الجماع يفضي إلى الولد الحيّ بواسطة الأسباب الأرضيّة والسماوية، وتناول السم قد يفضي إلى الموت.

فلما ذكرتم ردّ هذا السؤال أجابه إبراهيم ﷺ بأن قال:

هذا الإحياء والإماتة حصلا من الله تعالى بواسطة الاتصالات الفلكية إلاّ أنه لا بد لتلك الاتصالات الفلكية والحركات الكوكبية من فاعل ومدبّر؛ فإذا كان المدبر لتلك الحركات الكوكبية والاتصالات الفلكية هو الله تعالى كان الإحياء والإماتة الحاصلان بواسطة تلك الحركات الفلكية أيضاً من الله تعالى.

وأمّا الإحياء والإماتة الصادران عن البشر بواسطة الأسباب الفلكية فليست كذلك، لأنه لا قدرة للبشر على الأسباب الفلكية، فظهر الفرق.

والحاصل: أنّ الإحياء والإماتة وإن حصلا بواسطة الأسباب الفلكية إلاّ أن مدبّر الفلك هو الله تعالى، وكان الإحياء والإماتة الصادران عن الله تعالى بواسطة الفلك [صادرين][1] في الحقيقة عن الله تعالى، بخلاف الواحد منا؛ فإنه لا تأثير له في الفلك؛ فلم يكن الإحياء والإماتة الصادران بواسطة الفلك صادرين عن البشر.

فإن قيل: هذا السؤال والجواب [اللذان][2] ذكرتم كيف يفهم من الآية؟ وأي مناسبة بينهما وبين ما هو المذكور في الآية؟

قلنا: أن مدار أمر القرآن على الإيجاز والاختصار لا على الإطناب، فقول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ محمول على الإحياء والإماتة الحقيقيين المعتادين، وهما في ظاهر الأمر موقوفان على الأسباب الطبيعية السفلية والاتصالات الفلكية العلوية؛ فقول نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ مثلُ هذا الإحياء والإماتة اللذين أشرت إليهما وهي الإحياء والإماتة [الحاصلان][3] بواسطة الأسباب الفلكية فقال إبراهيم ﷺ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ أي هب أن هذا الإحياء والإماتة

---

(1) [صادرين] في الأصل: صادراً.
(2) [اللذان] في الأصل: اللذين.
(3) [الحاصلان] في الأصل: الحاصلين.

بالاختيار تعظيم شبهتهم في هذه الصورة بأن يقولوا: نرى أحوال الشمس في الطلوع والغروب باقياً على نهج واحد وطريقة واحدة، وذلك يوهم أنّ حركة الشمس والقمر والكوكب بالطبع لا بتحريك القادر المختار.

فثبت أن دلالة الإحياء والإماتة على وجود القادر المختار أقوى من دلالة طلوع الشمس وغروبها عليه؛ فكان الانتقال من الأول إلى الثاني انتقالاً من الأقوى إلى الأضعف، وهذا لا يليق بأحد من الأذكياء فضلاً عن أكمل العقلاء.

الحجة السادسة: أن نمروذ لما بلغ في الحماقة والوقاحة إلى حيث عارض الإحياء والإماتة بذلك السؤال الركيك، فكيف يؤمن منه عند استدلال إبراهيم عليه السلام بطلوع الشمس من المشرق أن يقول: حصل طلوع الشمس من المشرق بفعلي فإن كان لك آلة قادر فقل له حتى يطلعها من المغرب؟

وعند هذا التزم المحققون من المفسرين بأنّه لو أورد هذا السؤال لكان يجب في حكمة الله أن تطلع الشمس من المغرب.

ومعلوم أن إظهار فساد هذا السؤال الركيك أهون من التزام طلوع الشمس من المغرب بكثير.

وأيضاً فعند طلوع الشمس من مغربها يصير الاستدلال بطلوع الشمس من مشرقها ضائعاً أيضاً وحينئذ يصير دليله الثاني ضائعاً كما ضاع دليله الأوّل، ومعلوم أنّ التزام هذه الكلمات لأجل هذا السؤال الركيك غير لائق بالعقلاء.

الحجة السابعة: أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ يدل على أن الكلام متعلق بالكلام الأول، وعلى قول هؤلاء هذا دليل منقطع عن الكلام الأول غير متعلق به والمختار عندي في تفسير هذه الآية أن نقول: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا احتج على وجود الصانع تعالى بالإحياء والإماتة قال المنكر:

أتدَّعي الإحياء والإماتة من الله تعالى ابتداءً من غير واسطة الأسباب الأرضية والسماويّة؟ أو تدَّعي حصول الإحياء والإماتة من الله تعالى بواسطة الأسباب الأرضيّة والسماويّة؟

أمّا الأوّل فلا سبيل إليه.

وشرح هذا الجواب أن يقال: هب أن حدوث الأنواع المختلفة إنما كان لتأثير الكواكب واختلاف الفصول إلاّ أن حركات الكواكب لا بد لها من مدبّر ولا يتسلسل، بل لا بد من الاعتراف بشيء هو مسبب الأسباب ومدبر الكل، فيكون حدوث النبات في الحقيقة واقعاً بتدبير ذلك المدبر والمؤثر الأول.

وعند هذا يتم الاستدلال ولا يبقى للفكر مجال فلا جرم جعل مقطع هذا الآية قوله: «يعقلون» يعني إن كنتم كاملي العقل فاعترفوا بوجود الإله القادر المختار في هذا المقام، فإن الدّليل قد تمّ ولم يبق بعده للفكر والنظر مجال.

وهذا التقرير بعينه هو التقرير المذكور في قصة إبراهيم عليه أفضل السلام، فإن المنكر لمّا أحال الإحياء والإماتة على الأسباب الفلكية من حيث إنه شبّه ذلك بالإحياء الصادر منا فعند هذا قال إبراهيم عليه السلام: فلا بدّ لتلك الأسباب الفلكية من مدبر وهو الله تعالى فلا جرم انقطع ذلك الكافر وسكت حتى قال في صفته: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: 258].

فالحاصل: إن المراد من قوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ هو المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الوجه الثاني من الجواب عن ذلك السؤال قوله: «وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه» وتقرير هذا الجواب هو أن الأرض والماء والهواء والشمس والقمر لكل واحد منها طبيعة واحدة ونسبة هذه الأشياء بأسرها إلى كل واحد نسبة الغصن [إلى][1] أجزاء الشجرة الواحدة، بل إلى كلّ واحدة من أجزاء الورقة الواحدة على غاية صغرها ونهاية دقتها واحدة، فكان ينبغي أن يكون الأثر حاصلاً على السويّة فلمّا رأينا في الشجرة الواحدة اختلافات كثيرة في أجزائها، بل شاهدنا في الورقة الواحدة اختلافاً في لون وجهها [علمنا][2] أن هذه الآثار غير مستندة إلى الطبائع والنجوم.

وإنما جعل هذه الآية بقوله: «يذكرون» لأنه قد تقرر في بداية العقول أن الموجب لا بد أن يكون تأثيره بالسوية، ولأجل هذا قالت الفلاسفة: المقتضى لشكل الجسم طبيعته، وتأثير الطبيعة الواحدة لا بد أن يكون متشابهاً فلا جرم قالوا: يجب أن يكون شكل الجسم البسيط هو الكرة.

---

(1) [إلى] في الأصل: في.
(2) [علمنا] في الأصل: فعلمنا.

إنما يحصل بواسطة الشمس لكن محرك الشمس هو الله تعالى وأمّا أنت فلا قدرة لك على تحريك الشمس بدليل أنّك لا يمكنك تحريكها من المغرب.

فظهر أن المذكور في الآية تنبيه على ما ذكرناه إلا أنّه تعالى إنما ذكره على سبيل الإيجاز والرمز على ما هو عادة القرآن.

واعلم أنه لمّا فسرنا الآية بهذا الوجه زالت تلك المطاعن بأسرها؛ وذلك لأن هذا الكلام لائق بالعقلاء؛ فإنّ كلّ من تمسك بالإحياء والإماتة لا بدّ أن يورد الطبيعيّ والمنجم عليه هذا السؤال، ولا جواب عنه إلا الجواب المذكور في الآية، ولا يكون فيه [انتقال][1] من الدليل الأوّل إلى الدليل الثاني ويكون الكلام الثاني متعلقاً بالكلام الأول، ويبقى للفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ دلالة تعلق في الكلام الثاني بالأوّل، ونظير هذا التقدير قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النحل: 11 ـ 13]، فجعل مقطع الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث بقوله: «يتفكرون» ومقطع الآية الثانية بقوله: «يعقلون» ومقطع الآية الثالثة بقوله: «يذكّرون».

وفي ترتيب هذه المقاطع أسرار عجيبة وذلك أنه تعالى استدلّ في الآية الأولى على وجود الصانع المختار بحدوث الأنواع المختلفة من النبات في الأرض الواحدة والماء الواحد، إلاّ أن هذا الدّليل في هذا المقام غير تامّ وذلك لأن لقائل أن يقول: حدوث الأنواع المختلفة من النبات إنما كان لتأثير الكواكب والشمس والقمر والنجوم، ولمّا كان هذا السؤال مما يذكر على هذا الدليل كان هذا الدليل قبل الجواب عن هذا السؤال غير تام. فكان مجال التفكر والتدبّر باقياً؛ فلهذا السبب جعل مقطع هذه الآية بقوله: «يتفكرون» ثم أنه تعالى أجاب عن هذا السؤال من وجهين:

الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(1) [انتقال] في الأصل: انتقالاً.

الفصل الثالث:
في شرح مناظرة إبراهيم ﷺ مع أبيه في التوحيد

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 41، 42].

اعلم أن الغرض من هذه السورة من أولها إلى آخرها بيان التوحيد والنبوّة والمعاد، والمنكرون للتوحيد هم الذين أثبتوا معبوداً سوى الله تعالى وهم فريقان:

منهم من أثبت معبوداً غير الله حيًّا عاقلاً فاهماً وهم النصارى، ومنهم من أثبت معبوداً غير الله جماداً وهم عبدة الأوثان.

والفريقان وإن اشتركا في الضلال إلاّ أن ضلال الفريق الثاني أعظم؛ فلمّا بيّن الله تعالى في هذه السورة الضلال المبين في الفريق الأوّل وهم النصارى تكلم بعده في شرح الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم:41] والواو في قوله: «واذكر» عطف على قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم:2] كأنّه لما انتهت قصة زكريا وعيسى عليهما السلام قال: يا محمد قد ذكرت لهم حال زكريا وعيسى فاذكر لهم حال إبراهيم.

وإنّما شَرَع في قصة إبراهيم لوجوه:

الوجه الأول: أن إبراهيم كان أباً للعرب وكانوا مقرّين بعلوّ شأنه وطهارة دينه على ما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130]، فكأنه تعالى قال للعرب: إن كنتم من المقلدين لآبائكم على ما هو قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]، فمعلوم أن أجلّ آبائكم قدراً وأعظمهم فخراً وشرفًا هو إبراهيم ﷺ فكونوا مقلدين له في ترك عبادة الأوثان، وإن كنتم من المستدلين فتأملوا في هذه الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه أفضل السلام لتعرفوا فساد عبادة الأصنام، وبالجملة فاتّبعوا ملّة إبراهيم إمّا تقليداً أو استدلالاً.

ثمّ إنا نشاهد الاختلاف العظيم في خلقة النبات والحيوان: أمّا النبات فإنك ترى الأترج قشره حاراً يابساً، وشحمه حاراً رطباً، وحماضه بارداً يابساً، وبذره حاراً يابساً؛ فهذا شيء واحد حصلت فيه الطبائع المختلفة، وترى الرمّان فيه ذلك القشر الغليظ والشحم القابض المعفص ثم ترى الحبَّ فيه ذلك الماء اللطيف العذب وفيه [تلك][1] النواة الغليظة البارد اليابس القابض.

بل تجد الورقة اللطيفة من الورد أحد وجهيها في غاية الصفرة والوجه الآخر في غاية الحمرة، ثم ترى في وسط تلك الورقة اللطيفة عرقاً ممتداً من أصلها إلى طرفها ثم ترى العروق الصغيرة متشعبة من ذلك العرق المتوسط، ثم يتشعب من كل واحد من تلك الشعب شعب أخرى كبقيته أرق من الشعر مرات؛ فإذا شاهدت هذه الاختلافات الكثيرة في التركيب واللون والخاصيّة وكان قد تقرر في عقلك أن الموجب بالذات يكون تأثيره متشابهاً كان بسبب تأثيرات الأنجم والأفلاك؟

فهذا برهان قاطع على أنه لا يمكن استناد الحوادث الأرضيّة إلى الأفلاك والأنجم؛ ولأجل هذا السرّ جعل مقطع هذه الآية قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني أفلا تذكّر ما كان متقرراً في عقلك أن تأثير الموجب بالذات لا يكون مختلفاً مع أنك تشاهد في حسك هذه الاختلافات الكثيرة؟ فتأمل أيها المسكين في هذه الأسرار لتعلم أن القرآن العزيز بحر عميق لا ساحل له، وبالله التوفيق.

واعلم أنا لما شرحنا هذين النوعين من المناظرات لإبراهيم عليه السلام لتعلقهما بالشمس والنجوم والقمر فلنذكر سائر مناظراته في التوحيد وإن لم يكن لها تعلق بالنجوم والشمس والقمر، وبالله التوفيق والإعانة.

---

(1) [تلك] في الأصل: ذلك.

قلنا: معاذ الله أن يكذب إبراهيم ﷺ، وسنجيب عن هذا الكلام في باب عصمة الأنبياء عليهم السلام.

فثبت أن كل نبيّ يجب أن يكون [صديقاً ولا يجب أن يكون][1]، كلُّ صديق نبيّاً، فلهذا السبب وصفه أولاً بكونه صديقاً ثم بعده وصفه بكونه نبياً، وأما النبيّ فسيجيء في باب النبوات.

قوله: «كان صديقاً» قيل: أنه صادق، وقيل: أنه وجد صديقاً نبيًا أي كان من أول وجوده إلى النهاية موصوفاً بالصدق والديانة وهذا يؤكد ما ذكرنا من أن قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في مقام المناظرة [كان][2] إطالاً لهذا القول عليهم وما كان في معرض الأخبار وأما قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوض عن ياء الإضافة ولا يقال: يا أبتي، لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه، وقد يقال: يا أبتا لكون الألف بدلاً من الياء.

اعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم أنه تكلم مع أبيه بأربعة أنواع من الكلام:

النوع الأوّل: قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42]، وصف الأوثان بصفات ثلاث كل منها قادح في [المعبوديّة][3] وبيانه من وجوه:

الأول: أن العبادة غاية التعظيم فلا يليق إلاّ بمن له غاية الإنعام، وهو الذي يكون قادراً على خلق أصول النعم وفروعها كما قررناه في تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28].

الثاني: أن بداهة العقل حاكمة بأنه لا يجوز الاشتغال بشكر من لا نعمة له عليك، وإذا لم يجز الاشتغال بشكره فلأن لا يجوز الاشتغال بطاعته وعبادته كان أولى.

الثالث: أنها إذا لم تسمعْ وتبصرْ لا تميّزُ من يطيعها ممن يعصيها فأيّ فائدة في عبادتها، وهذا يدل على أن الإله يجب أن يكون عالماً بكل المعلومات من الكليات والجزئيات حتى يكون العبد آمناً من وقوع الغلط في الثواب والعقاب.

---

(1) [صديقاً ولا يجب أن يكون] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [كان] زيادة يقتضيها السياق.

(3) [المعبودية] في الأصل: العبودية.

الثاني: أن كثيراً من الكفار في زمن الرسول ﷺ كانوا يقولون: كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا؟ فذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام وبيّن أنه ترك دين أبيه آزر وأبطل قوله بالدليل ورجّح متابعة الدليل على متابعة الأب، ليعرف الكفار أن ترجيح جانب الأب على جانب الدّليل ردّ على الأب الأسنّ الأكبر الذي هو إبراهيم عليه السلام.

الثالث: أن كثيراً من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال على ما قالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53]، فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام التمسك بطريقة الاستدلال تنبيهاً لهؤلاء الجهال على سقوط هذه الطريقة.

ثم إنه تعالى قال في وصفه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41]، وفي الصدّيق قولان:

أحدهما: أنه مبالغة في كونه صادقاً وهو الذي تكون عادته الصدق لأن هذا البناء ينبىء عن ذلك، يقال: رجل خمير وسكيّر للمولع بهذه الأفعال.

والثاني: أن يكون معناه كثير التصديق بالحقّ حتّى يصير مشهوراً به. والأوّل أولى لأن المصدق بالشيء ربما لا يوصف بكونه صديقاً إلا إذا كان صادقاً في ذلك التصديق فيعود ذلك الأمر إلى الأول.

فإن قيل: الدليل على القول الثاني قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: 19].

قلنا: إنّما سمّاهم صديقين لكونهم صادقين في ذلك التصديق، واعلم أن النبيّ يجب أن يكون صادقاً في كلّ ما أخبر به لأن الله تعالى صدقه ومصدِّق الله صادق، وإلا لزم الكذب في خبر الله وهو محال، فيلزم من هذا كون الرسول صادقاً في كل ما يخبر عنه، ولأن الرُّسل شهداء الله على الناس على ما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: 41]، والشهيد إنما يقبل قوله إذا لم يكن كاذباً.

فإن قيل: فما قولك في إبراهيم عليه السلام حين كذب ثلاث كذبات وهو قوله: «بل فعله كبيرهم» وقوله: «إني سقيم» وقوله: «هذه أختي».

ورابعها: بخلقه النبات، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ [النحل: 10].

وخامسها: البحر، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ [النحل: 14].

وسادسها: الأرض والجبال، فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ﴾ [النحل: 15].

ثم ختم ذكر هذه الدلائل بإعادة المقصود وهو نفي الشركاء والأنداد فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: 17].

وكل ذلك إشارة إلى أن [المسوّي][1] بين النافع والضار وبين من لا ينفع ولا يضرّ في العبادة فعبادته سفه.

وسابعها: أن إبراهيم عليه السلام عاب الأصنام من ثلاثة أوجه:

من حيث أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، وكأنّه قال: العبادة لا تليق إلّا لربي وإلٰهي الذي يسمع السر والجهر والنجوى؛ بدليل قوله: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، ويبصر بدليل قوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46]، ويقضي الحوائج [ويكشف][2] الضرّ بدليل قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62].

وثامنها: قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ وقال في سورة لقمان عقيب هذه الآية: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: 25]، فقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معناه الشكر لله على اعترافهم بذلك، و[أمّا][3] قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فمعناه: أنكم لمّا أقررتم بأن المدبر هو الله فكيف تشتغلون بعبادة غير الله؟ فإن الإقدام على هذا العمل مع الإقرار بذلك القول لا يليق بمن له عقل وفهم ومعرفة.

فإن قال قائل: ألستم قد ذكرتم أن عبدة الأوثان معبودهم هو الكواكب في الحقيقة فكيف تتوجه هذه الدلائل عليهم؟

---

(1) [المسوّى] في الأصل: التسوية.
(2) [ويكشف] في الأصل: وكشف.
(3) [أمّا] زيادة يقتضيها السياق.

الرابع: أن الدعاء مخ العبادة، فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي فأيّ منفعة في عبادته؟ وإذا لم يبصر تقرّب من يتقرب إليه، فأيّ فائدة تحصل من ذلك التقرب؟

الخامس: أن السامع المبصر الضار النافع أفضل مما هو عار عن تلك الصفات، والإنسان موصوف بهذه الصفات، والصنم عارٍ عنها، فيكون الإنسان أشرف وأفضل من الصنم، وإقدام الأشرف الأعظم على عبودية الأذلّ الأخسّ لا يليق بالعقلاء.

السادس: أنها إذا كانت لا تضرّ ولا تنفع لم يحصل إليها رغبة ولا منها رهبة فأي فائدة في عبادتها؟

السابع: أنها لا تقدر على حفظ أنفسها عن أضعف الحيوانات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 73 ـ 74]، بل لا تقدر على صيانة أنفسها عن الكسر والإذلال، فإن الله تعالى أخبر عن إبراهيم أنه كسرها وجعلها جذاذاً، فإذا كانت لا تحفظ [أنفسها][1] عن الكسر والإذلال فأيُّ رجاء للغير فيها؟

الثامن: أنّه تعالى نزّه نفسه عن الشرك في أول سورة النحل فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **ثم احتج عليها بوجوه:**

أولها: بخلق السمٰوات فقال جلّ وعزّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل: 3].

وثانيها: بخلقه للإنسان، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: 4].

وثالثها: بخلقه الحيوانات، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل: 5 ـ 8].

---

(1) [أنفسها] في الأصل: نفسها.

وأما العالم الجسماني فيجب أن يكون فيه مدبّر كامل من جميع الوجوه ويكون نافذ القضية في جميع الجسمانيات، ويكون تدبيره إخراج ما بالقوة إلى الفعل في أبناء جنسه، فمدبر العالم الرّوحاني هو الروح الأعظم ومدبّر العالم الجسماني هو الرسول الأعظم، ثم يكون بين الرّوح والرّسول مناسبة علوية وملاقاة عقلية، فيكون الروح الأعظم مصدراً ويكون الرسول الأعظم مظهراً فالروح مبدأ والرسول نهاية وأول الفكر آخر العمل.

وإذا عرفت أنّ الرسول مدبّر الجسمانيات بإخراج ما فيها من الكمالات من القوة إلى الفعل عرفت المراد من قول إبراهيم عليه السلام:

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43]، وههنا أسرار عظيمة وقد نبهنا على مشرعها.

النوع الثالث: قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44]، والمعنى لا تطعه فإنه عاصٍ لله، فنفره بهذا الوصف عن القبول منه لأنه أعظم الخصال المنفرة.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام كان عظيم الدرجة في الإخلاص في طاعة الله تعالى، فلا جرم لم يذكر من خيانات الشيطان إلاّ كونه عاصياً لله ولم يذكر ألبتة كونه عدواً لآدم عليه السلام، كأن النظر في عظم حاله في معصية الله عمّ فكره وأطبق على ذهنه ،وهذا كما أن عيسى عليه السلام أوّل ما تكلّم ذكر ما يدل على تنزيه الله ولم يذكر ما يدل على براءة أمّه، كأنّ اشتغاله بتنزيه الله تعالى شغله عن الالتفات إلى حال الأمّ، وأيضاً إن معصية الله تعالى لا تصدر إلا عن ضعف الرأي ومن كان كذلك لا يلتفت إليه.

فإن قيل: إن هذا القول يتوقف إثباته على أمور:

أحدها: إثبات الصانع.

والثاني: إثبات الشيطان.

والثالث: أنّ الشيطان عاصٍ في الله.

والرابع: أنه لما كان عاصياً لله لم يجز طاعته في شيء من الأشياء.

فالجواب: أنا بيّنا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]: أنّ على كل التقديرات الإعراض عن مدبر الأفلاك والأنجم والاشتغال بعبادة الأفلاك والأنجم أو بعبادة أصنامها وتماثيلها عين الجهل، فإنه لما دلت [الدلائل][1] على افتقار الأفلاك والأنجم إلى الإله الخالق المدبّر وثبت أنّه خالق الأفلاك والأنجم لا بد أن يكون قادراً على خلق الناس، لأن القادر على الأقوى قادر على الأضعف أولى، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، وقال: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: 81].

وإذا كان الأمر كذلك كان الاشتغال بخدمة ربّ الأفلاك والأنجم أولى من الاشتغال بخدمة الأفلاك والأنجم، وقد سبق تقرير هذا المعنى على سبيل الاستقصاء.

النوع الثاني: [من][2] كلام إبراهيم عليه السلام مع أبيه قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43]، واعلم أن هذه الآية فيها إشارة إلى أنّ روح النبيّ ﷺ تتميز عن سائر الأرواح بمزيد الكمال والجلال.

وتقريره أن العالم عالمان: عالم المحسوس وعالم المعقول، والمعقول لا يصير معقولاً حتى يثبت له مثال في المحسوس إلاّ لكان متخيّلاً موهوماً، والمحسوس لا يكون محسوساً حتى يثبت له مثال في المعقول إلاّ لكان سراباً معدوماً.

إذا عرفت هذا فنقول: عالم الروحانيات لا يعرف عددهم وأصنافهم وأنواعهم وأجناسهم إلا الله تعالى، ولا بد فيه من مدبّر مطاع نافذ الأمر والقضية في جميع الروحانيات.

وهياكل الروحانيات هي: العرش والكرسي والأفلاك والكواكب، ولا بد أن يكون ذلك المدبر من جنسهم، ولا بد أن يكون كاملاً بالفعل لأنّ الإخراج من القوة إلى الفعل لا يحصل إلاّ بمن كان مبرأً عن القوة خارجاً إلى الفعل من [كلّ][3] الوجوه.

---

(1) [الدلائل] في الأصل: الدلالة.
(2) زيادة يقتضيها السياق.
(3) [كلّ] زيادة يقتضيها السياق.

[الزخرف: 67]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: 25]، وحكى عن الشيطان أنه يقول لهم: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: 22].

الثاني: أن يحمل العذاب على الخذلان، أي: أخاف أن يمسّك خذلان الله فتصير موالياً فيتبرأ الله منك كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119].

الثالث: ولياً، أي: تالياً للشيطان تليه كما يسمى المطر الذي يأتي تالياً وليًا.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالاً من العذاب فما معنى ذلك؟

الجواب: أن رضوان الله جلّ وعزّ أعظم وأشرف من الثواب، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]، فيجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب وأعظم؛ فهذا هو الإشارة في تفسير هذه الكلمات الأربع التي ذكرها إبراهيم لأبيه.

واعلم أنه صلوات الله وسلامه عليه رتب هذا الكلام في غاية الحسن، لأنه نبه على ما يدل على المنع من عبادة الأصنام ثم أمر باتباعه في النّظر والاستدلال وترك التقليد ثم نبّه على أن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزّاجر عن الاشتغال بما لا ينبغي ثم إنه صلّى الله عليه أورد هذا الكلام الحسن اللطيف مقروناً بالحسن واللّطف، فإن قوله في مقدمة كل كلام: ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ دليل على شدة المحبة والرغبة في صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب وختم الكلام بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدل على شدّة تعلق قلبه بمصالحه.

وإنما فعل ذلك لوجوه:

الأول: قضاء حق الأبوّة، كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [البقرة: 83، النساء: 36، الأنعام: 151، الإسراء: 23]، والإرشاد إلى الدين الحقّ من أعظم أنواع الإحسان، فإذا انضاف إليه راعية الأدب والرفق كان ذلك نورًا على نور.

الثاني: أن الهادي إلى الحق لا بد أن يكون رفيقاً لطيفاً، يورد الكلام لا على سبيل العنف لأن الإيراد على سبيل العنف يصير مانعاً عن الاستماع والقبول.

الخامس: إثبات الاعتقاد الذي كان يعتقده والد إبراهيم مستفاد من طاعة الشيطان.

ومن شأن [الدلائل][1] التي يوردها الإنسان على خصمه كونها مركبة من مقدمات مسلمة معلومة، ولعلّ والد إبراهيم كان منازعاً في كلّ هذه المقدمات فكيف استحسن إبراهيم ﷺ ذكر هذا الكلام؟

قلنا: الحجة المعوّل عليها في إبطال مذهب أبيه هو الذي ذكره أولاً من قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: 42] فأمّا هذا الكلام فيجري مجرى التخويف والتحذير الذي يحمله على النظر والتأمل في تلك [الدلائل][2].

النوع الرابع: قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: 45].

وفي قوله: «أخاف» قولان:

قال الفرّاء: معناه: أعلم، والأكثرون على أنّه محمول على الظاهر، وحمل هذا اللفظ على العلم إنما يجب لو كان إبراهيم عالماً بأن أباه سيموت على الكفر، وذلك لم يثبت فوجب إجراؤه على الظاهر [فإنهم قالوا][3]: يجوز في أبيه أن يؤمن فيكون من أهل الثواب ويجوز أن يموت على الكفر فيكون من أهل العقاب، ومن كان كذلك كان خائفاً لا قاطعاً.

واعلم أن من يظن وصول ضرر إلى غيره فإنه [لا][4] يسمى خائفاً إلاّ إذا كان بحيث يلزمه من ذلك الضرر تألّم قلبه، كما يقال: أنا خائف على ولدي.

أما قوله: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ فذكروا في الوليّ وجوهاً:

الأول: أنه إذا استوجب عذاب الله كان مع الشيطان في النار والولاية سبب للمعية فأطلق اسم السبب على المسبّب مجازاً وإنما لم يجز حمله على [الولاية الحقيقية][5] لقوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

---

(1) [الدلائل] في الأصل: الدلالة.
(2) [الدلائل] في الأصل: الدلالة.
(3) [فإنهم قالوا] في الأصل: فإنه قال.
(4) [لا] زيادة يقتضيها السياق.
(5) [الولاية الحقيقية] في الأصل: ولاية الحقيقة.

الثاني: أنه الرجم باليد وعلى هذا التفسير فيه وجوه:

الأول: لأرجمّنك بإظهار أمرك للناس يرجموك فيقتلوك.

الثاني: لأرجمّنك بالحجارة لتتباعد عنّي.

والثالث: قال المؤرخ: لأرجمنك: لأقتلنك بلغة قريش.

والرابع: قال أبو مسلم: لأرجمنك المراد الرجم بالحجارة لأنه قد يقال ذلك في معنى الطرد والإبعاد على سبيل الاتساع، والدليل على أنه أراد الطرد قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾.

أمّا قوله: «واهجرني» ففيه بحثان:

البحث الأول: عطف «واهجرني» على معطوف عليه محذوف يدلّ عليه «لأرجمنّك» والتقدير: فاحذرني واهجرني.

البحث الثاني: في قوله: «واهجرني» قولان:

أحدهما: المراد في قوله: «واهجرني» القول.

والثاني: واهجرني بالمفارقة من الدار والبلد، وهو كهجرة الرسول ﷺ والمؤمنين، أي تباعد عنّي حتى لا أراك، وهذا الثاني أقرب إلى الظاهر.

وأما قوله: «مليًا» ففيه قولان:

الأول: مليًا أي مدة بعيدة، من قولهم: «أتى على فلان ملاوة من الدّهر» أي: زمان بعيد.

الثاني: مليًا بالذهاب عني قبل أن أحرقك فلا تقدر على أن تذهب، من قوله: «ملي بكذا» إذا كان مطيقاً له قادراً عليه.

ثم إن إبراهيم عليه السلام لمّا سمع من أبيه هذا الجواب أجابه بأمرين:

أحدهما: أنه وعده التباعد عنه، وذلك لأن أباه لمّا أمره بالتباعد أظهر الانقياد

الثالث: ما روى أبو هريرة[1]، قال ﷺ: «**أوحى الله إلى إبراهيم أنك خليلي، حَسّن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار؛ فإنّ كلمتي سبقت لمن حسن خلقه أنّي أظلّه تحت عرشي وأسكنُهُ حظيرة القدسي وأدنيه من جواري**».

قوله تعالى: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم: 46].

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لمّا دعا أباه إلى التوحيد وذكر الدليل على فساد عقول عبدة الأوثان، وأردف ذلك الدليل بالوعظ البليغ وأورد كل ذلك مقروناً باللطف والرفق قابله أبوه بجواب غليظ يضادّ ذلك، مقابل حجته بالتقليد فإنه لم يذكر في مقابلة حجته إلا قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم:46] فأصر على ادعاء [آلهته][2] جهلاً وتقليداً، وقابل وعظه بالسفاهة حيث لم يهدده بالشتم ولا بالضرب بل بالرّجم وقابل رفقه في قوله: «يا أبت» بالعنف حيث لم يقل: يا بنيّ! بل قال: «يا إبراهيم».

وإنما حكى الله ﷻ ذلك لنبينا محمد ﷺ تسلية له وتعزية، ليخفّف على قلبه ما يجد من المشركين مما يصل إليه من الأذى، فيعلم أن الجهال منذ كانوا، على هذه السيرة المذمومة.

واعلم أن قوله: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ إنّه إن كان المراد منه الاستفهام فهو خذلان لأنه قد عرف [ممّا][3] يكون منه من وعظ وتنبيه ووعيد ووعد أنّه راغب عن ذلك؛ فما فائدة هذا القول؟ وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجر لا يضرّ ولا ينفع؟ إنمّا التعجب كله من الإقدام على عبادتها.

أمّا قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: 46]، ففي الرّجم قولان:

الأول: أنه الرجم باللسان، وهو الشتم والذمّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ﴾ [النور: 4]، أي بالشتم، ومنه الرجيم، أي: المرميّ باللّعن قال مجاهد: الرجم كله في القرآن بمعنى الشتم.

---

(1) انظر: تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر طبعة بيروت ج (2/ 155) كذلك كشف الخفا للعجلوني، مكتبة دار التراث ج 1/ 308، 313 والكامل في الضعفاء لابن عدي طبعة دار الفكر، بيروت ج 6/ 2432.

(2) [آلهته] في الأصل: آلهتها.

(3) [ممّا] في الأصل: ما.

الثاني: أن الاستغفار قد يجيء بمعنى الاستبطاء قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، والمعنى: سأسائل ربّي أن لا يعجل عقاب كفرك في الدنيا.

الثالث: أنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار، ولعلّ في شرعه جواز الاستغفار للكافر الذي يرجى منه الإيمان.

والدليل على وقوع الاحتمال قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: 113]، فبيّن أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهمّ من أصحاب الجحيم. ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]، فدلت هذه الآية على أنّه إنما وعد أباه بالاستغفار بشرط أن يؤمن فلمّا لم يؤمن فقد انعدم الشرط فلا جرم لم يوجد المشروط.

فإن قيل: إذا كانت القضية كذلك فلم منعنا من التأسي؟

قلنا: الآية تدل على أنه لا يجوز لنا التأسي به في هذا المعنى، لأن المنع من التأسي به في ذلك لا يدل على أن ذلك كان معصية فإن كثيراً من الأشياء هي من خواص رسول الله ﷺ ولا يجوز لنا التأسي به مع أنه كان ذلك مباحاً لرسول الله ﷺ.

الرابع: لعلّ هذا الاستغفار كان من باب ترك الأفضل لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وأما قوله تعالى حكاية عن إبراهيم قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: 47]، أي: لطيفاً رقيقاً يقال: أحفى فلان في المسألة لفلان، إذا لطف به وبالغ في الرفق، والمراد أنه تعالى لكثرة ألطافه وأنعامه على عبده في الإجابة فإذا استغفرت حصل لك المراد، كأنه تعالى جعل ذلك على [تقدير][1] أنه إن تاب واستغفر غفر له ذلك الذنب.

---

(1) [تقدير] في الأصل: يقين.

وقوله: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ توديع ومباركة كقوله: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: 55]، [وقوله][1]: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: 63]، وهذا دليل على جواز مباركة المبطل إذا ظهر منه اللجاج، وعلى أنه يحسن مقابلة الإساءة بالإحسان، ويجوز أن يكون قد دعا له بالسلامة استمالة له، ألا ترى أنه وعده الاستغفار؟ ثم أنه لما ودّعه بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ ضمّ إليه ما دلّ على أنه وإن بَعُدَ منه إلّا أن شفقته عليه باقية وهو قوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾.

واحتج من طعن في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية.

وتقريره: أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه، وأبوه كان كافراً، والاستغفار للكافر لا يجوز فثبت بمجموع هذه المقدمات أن إبراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز، إنما قلنا: أنه استغفر لأبيه لقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ وقوله أيضاً: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 86].

وأما أن أباه كان كافراً فذلك نصّ القرآن.

وأما الاستغفار للكافر غير جائز فيدل عليه وجهان:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ﴾ [التوبة: 114]، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113].

والثاني: قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: 4]، إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ فأمرنا بالتأسي بإبراهيم عليه السلام إلّا في هذا الفعل فدلّ على أنّ هذا الفعل معصيّة.

والجواب عن قوله: أن الاستغفار للكافر غير جائز فالكلام عليه من وجوه:

الأوّل: إن القطع على الله تعالى بعذاب الكافر لا يعرف إلّا من الشرع، ولعلّ إبراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر فلا جرم استغفر لأبيه.

(1) [وقوله] في الأصل: وقال.

قال بعض العلماء: إن الخليل اعتزل عن الخلق كما قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48]، فلا جرم بارك الله في أولاده فقال: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: 49]، وتبرّأ من أبيه في الله على ما قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]، لا جرم سماه الله جلّ وعزّ أباً للمؤمنين فقال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78]، وتلَّ ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103]، لا جرم فداه الله تعالى كما قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: 107].

وسلّم نفسه لله فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]، فجعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]، وأشفق على هذه الأمة فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة: 129]، فلا جرم أشركه الله في الصلوات بأنهم يقولون في آخر التشهد: (كما صليّت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم). وكان وفيّاً في أداء الطاعات كما قال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: 37]، فلا جرم جعل الله موطىء قدميه مباركاً فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]، وعادى كل الخلائق في الله فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77]، فلا جرم اتخذه الله خليلاً فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]، [وقد فصلنا القول][1] ليعلم صحة ما ذكرنا أنه لا يخسر أحد في الله تعالى، نسأل الله التوفيق والإعانة ونعوذ به من الخذلان فهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(1) [وقد فصلنا القول] زيادة يقتضيها السياق.

الوجه الثاني في الجواب: في قوله تعالى حاكياً عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 48].

والاعتزال للشيء هو التباعد عنه والمعنى: إني أفارقكم في المكان وأفارقكم في طريقتكم أيضاً، وأبعد عنكم وأشتغل بعبادة ربيّ الذي يضرّ وينفع؛ فإنكم بعبادتكم للأصنام سالكون طريق الهلاك، فواجبٌ عليَّ مجانبتكم.

ومعنى قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم:48] أرجو أن لا أكون كذلك وإنما ذكر هذا الكلام على سبيل التواضع كقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: 82].

وقوله: «شقيًا» مع ما فيه من التواضع فيه تعريض لشقاوتهم في دعاء آلهتهم على ما قرره أوّلاً في قوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:42].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: 49 ـ 50].

واعلم أنّ أحداً لا يخسر على طاعة الله تعالى، فإن إبراهيم ﷺ لما اعتزلهم في دينهم وبلدهم واختار الهجرة إلى ربّه ما ضرّه ذلك في الدّين ولا في الدّنيا، بل نفعه فعوّضه الله تعالى أولاداً أنبياء، فلا منصب في الدّين أعظم من أن يجعله الله رسولاً إلى خلقه ويوجب عليهم طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من أعظم المنزلة في الآخرة، فصار أن جعله الله وإيّاهم أنبياء صالحين وذلك من أعظم النعم في الدنيا والآخرة.

ثم بيّن تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي: وهب لهم مع النبوة أشياء أخر أبهم في ذكرها؛ فيدخل فيها المال والجاه والأتباع والنسل الطّاهر والذرية الطيبة.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:50] ولسان الصدق الثناء الحسن وعبّر باللسان عمّا يحصل باللسان، واستجاب الله دعوته في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء:84] فصيرّه قدوة حتى ادعى أهل الأديان أنهم على دينه وملته؛ قال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [البقرة: 135]، وقال: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [آل عمران: 95]، وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [النحل: 123].

واعلم أن لفظ الرُّشد قد جاء في القرآن على خمسة أوجه:

الأول: الحق، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

والثاني: الإسلام، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146].

والثالث: الهداية، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]، وقال في سورة الكهف: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرۡشِدًا﴾ [الكهف: 17]، وقال أيضاً في هذه السورة: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدًا﴾ [الكهف: 66]، وقال في سورة الحجرات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

والرابع: معرفة المصالح في أمور الدّنيا، قال تعالى في سورة النساء: ﴿ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدًا﴾ [النساء: 6].

الخامس: فعل الصواب على سبيل الإطلاق، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا﴾ [الجن: 14]، ويقرب منه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]، فالوجوه الثلاثة الأول مختصّة بالدّين، والوجه الرابع مختصٌّ بالدنيا، والوجه الخامس ما يتعلق بالدين وما يتعلق بالدنيا.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على أن الإيمان يحصل بخلق الله تعالى بهذه الآية؛ لأنّا بينّا أن لفظ الرّشد يتناول الاهتداء إلى كلّ مصالح الدين والدنيا، وأعظم وجوه الاهتداء إلى مصالح الدين هو معرفة الله تعالى، فكانت معرفة الله تعالى أعظم وجوه الرّشد. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، فدلّ على أن إيمان إبراهيم حصل بتخليق الله تعالى وإيجاده.

وأجاب الكعبيّ عن هذه الحجة [بأن][1] مثل هذا الكلام إنما يقال فيمن عرض عليه ما ينفعه فإذا قبله يقال: إنّ فلاناً قد أوتي الرّشد، وهذا كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمّره وردّه، والآخر أخذه ثم ضيّعه، فيقال: فلان أغنى ابنه فيمن ثمّر المال، ولا يقال هذا فيمن ضيّع المال.

---

(1) [بأن] في الأصل: أن.

الفصل الرابع:
في شرح مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه بكسر الأصنام

قال تعالى في سورة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: 51].

اعلم أن الله تعالى قبل الشروع في شرح هذه الواقعة مدح إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الرُّشد قولان:

الأول: النبوّة، واحتج من ذهب إلى هذا القول بقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ قالوا: لأنه تعالى إنما يخصّ بالنبوّة من يعلم من حاله أنه يقوم في المستقبل بحقوقها ويحترز عن كلّ ما لا يليق بها، ويجتنب عمّا ينفّر قومه من قبول تكاليفها، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]، ويتأكد أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124].

والقول الثاني: أن الرشد هو الاهتداء لوجوه:

الأول: هو الصّلاح في الدّين والدنيا قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: 6]، وقال تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: 78]، وقال قوم شعيب له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، ومرادهم أنك لأنت السفيه الضالّ ذكره على سبيل الاستهزاء، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 97]، أي: وما شأن فرعون برشيد.

وفيه قول ثالث: وهو أن تدخل النبوة والاهتداء إلى كلّ المصالح تحت اسم الرُّشد، إذ لا يجوز أن يبعث الله نبياً إلاّ وقد عرّفه ذاته وصفاته وأفعاله ودلّه أيضاً على مصالح نفسه ومصالح قومه وكلّ ذلك من الرشد.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ فالمراد منه أنه[1] سبحانه وتعالى عَلِم اختصاص روحه القدسية بأحوال عجيبة وأسرار بديعة، وهي استغراقه في معرفة الله تعالى ومواظبته على طاعة الله تعالى وإقباله على الدعوة إلى الله، وبالجملة فكانت روحه في الأرواح كالشمس الّتي تنير الظلمات وتزيل الضلالات والجهالات.

ونظير هذا الكلام قولك في رجل كبير: أنا عالم بفلان، فإنّ هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه دلّ [مما][2] إذا شرحت [جلاله و][3] كماله.

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ فقال صاحب الكشّاف: [إذ][4] يتعلق بآتينا [أو][5] برشده أو المحذوف ،أي: أذكر من أوقات رشده في هذا الوقت.

أمّا قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فالتمثال اسم للشيء المصنوع مشبّهاً بخلق من خلق الله وأصله من [مثّل][6] الشيء بالشيء إذا شبّهته [بذلك][7]، وذلك [المثل][8] يسمى بالتمثال.

واعلم أن القوم كانوا يتخذون لكلّ كوكب تمثالاً مخصوصاً على ما هو المشهور من مذهب أصحاب الطلسمات، فجعل إبراهيم عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة حتى يُبطل عليهم، قال صاحب الكشاف: لم يرد [للعاكفين][9] مفعولاً بل أجرى مجرى ما لا يتعدى، كقوله: فاعلين العكوف لها أو واقعون لها، فإن قيل: لمَ لمْ يقل: عليها عاكفون، كقوله: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: 138].

قلنا: لو حصلت التعدية لعدّاه بصلته التي: (على).

---

(1) فالمراد منه أنه: في الأصل: فالمراد منه ما هو المراد منه أنه.
(2) [ممّا] في الأصل: ما.
(3) [جلاله و] في الأصل: جلال.
(4) [إذ] في الأصل: إذا لم.
(5) [أو] في الأصل: و.
(6) [مثل] في الأصل: تمثل.
(7) [بذلك] في الأصل: وذلك.
(8) [المثل] في الأصل: مصححاً بالهامش: التمثل.
(9) [للعاكفين] في الأصل: العاكفين.

والجواب: أنَّ هذا الكلام مشوش ونحن قد بيّنا أن لفظ الرشد يتناول أعظم وجوه الإيمان، والله تعالى نصّ على أنّه آتاه رُشده فكان هذا صريحاً في أن الله آتاه إيمانه وأعطاه معرفته.

أما قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ ففيه وجوه:

الأول: قال ابن عباس وابن جرير الطّبري: آتينا إبراهيم نبوّته من قبل موسى.

والثاني: آتينا إبراهيم رشده في صغره قبل بلوغه حين كان في الغار، وهذا قول من حمل الرشد على الاهتداء إلى وجوه المصالح وإلاّ لزمه أن يحكم بنبوته قبل البلوغ.

والثالث: قال ابن عباس في رواية الضحّاك: المراد حين كان في صلب آدم أخذ الله تعالى ميثاق النبيين.

والرابع: وهو كلام خطر ببالي وهو أنه إشارة إلى العناية الأزلية إلى أن السعيد من سعد في بطن أمه، وإلى قوله ﷺ: «**جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة**»(1) يعني أنّه جرى القضاء الأزليّ والحكم السرمديّ بجعله من السعداء الأبرار، إلاّ أنّه شيء حدث اليوم، وذلك لأنّ مذهب أهل السنة والجماعة أنّه تعالى قضى سعادته في هذا اليوم فحصلت سعادته في هذا اليوم من نتائج ذلك القضاء الأزليّ، والمعتزلة يقولون: إنّه اشتغل بالإيمان فصيرّ اشتغاله بالإيمان موجباً على الله تعالى أن يقضي له بالسعادة وهذا في غاية البعد؛ لأن العقل يقتضي أن تكون صفة الخالق [مؤثرة](2) في صفة المخلوق، ولا يجوز أن تكون صفة المخلوق وفعله متصرفة في صفة الخالق.

ولهذا قال أبو بكر الواسطي: لا أعبد ربًا ترضيه طاعتي وتغضبه معصيتي. والمراد أنّه لا ينبغي أن يجعل طاعة العبيد [توقع](3) في الطاعة وعصيه يوقع في المعصية حتى يكونُ الخالق متصرفاً في المخلوق لا أن يكون المخلوق متصرفاً في الخالق.

---

(1) انظر: المعجم الكبير للطبراني، طبعة العراق ج(11/ 223) كذلك إتحاف السادة، تصوير بيروت ج(9/ 226) وج (10/ 521).

(2) [مؤثرة] زيادة يقتضيها السياق.

(3) [توقع] زيادة يقتضيها السياق.

الفصل الخامس:
في مناظرة أخرى جرت لإبراهيم عليه السلام في تقرير التوحيد

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: 69 - 71].

اعلم أنه تعالى ذكر في أول هذه السورة شدة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه، وهو قوله تعالى حاكياً عنه وزاجراً له عن ذلك: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:3] ثمّ إنه ذكر قصة موسى عليه السلام، ثم ذكر في عقيبها قصة إبراهيم عليه السلام، ليعرف محمّد عليه السلام أنّ حزن إبراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم فقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وكان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة الأصنام، ولكن سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس مَن يستحق العبادة في شيء، كما تقول [للتاجر][1]: ما مالك؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق، ثم تقول: الرقيق جمال لا مال.

ثم إنهم أجابوا إبراهيم بقوله: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: 71]، والعكوف الإقامة على الشيء، وإنما قالوا: نظلّ، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون اللّيل.

واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا: نعبد أصناماً ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهي قولهم: «فنظلّ لها عاكفين» وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهاراً للابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام فقال إبراهيم عليه السلام منبهاً على فساد مذهبهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء: 72، 73]. وهذه هي الحجة التي ذكرها في سورة مريم وشرحناها بالاستقصاء، وعند هذا قال القوم: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: 74]، فأجاب إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: 75، 76]، وكلّ هذا قد تقدم تفسيره في الفصل الذي قبل هذا الفصل.

---

(1) [للتاجر] في الأصل: التاجر.

أما قوله: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 53]، فاعلم أن القوم لم يذكروا في الجواب إلا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد الإنكار عليهم؛ لأنهم إذا كانوا على خطأ من أمرهم لما يعصمهم من الخطأ أن آباءهم سلكوا هذا الطريق.

واعلم أن طريقة الكفار في أكثر الأمر التعويل على طريقة التقليد، نظيره قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104]، فردّ الله عليهم قولهم بقوله جل وعزّ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، وقال في سورة يوسف عليه السلام: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: 105، 106]، وقال في سورة لقمان عليه السلام: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: 21]، فردّ الله عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: 21-22]، وقال في سورة الزّخرف: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: 22 ـ 25]، وقال في سورة صَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [صَ: 5]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾ [صَ: 7]، وقال تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: 42].

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء: 78].

واعلم أنه تعالى لمّا حكى عنه أنه استثنى رب العالمين حكى عنه ما وصفه به بما يستحق العبادة لأجله، وهي أربعة أنواع من الصفات:

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

اعلم أنه تعالى أثنى على ذاته بهذين الوصفين فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1].

واعلم أنّا نفرض مثالاً واحداً ونحقق فيه معنى الخلق والهداية فنقول: الإنسان مخلوق من قالب هو من عالم الخلق، وقلب هو من عالم الأمر، وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق مقدم على إيجاد الروح الذي هو من عالم الأمر، على ما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحجر: 29].

والتسوية إشارة إلى تركيب المزاج وتعديل الأمشاج، ونفخ الرّوح إشارة إلى اللطيفة الربانية النورانية، وتمام هذا التقدير سيجيء في تفسير قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: 12]، وبالجملة فالخلق إشارة إلى تعديل البدن، والهداية إشارة إلى إبداع القوى المدركة و[المحركة][1] فيه، فثبت أن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ كلمة حاوية لجميع المنافع في الدين والدنيا، ثم فيه دقيقة وهو أنه قال: «الذي خلقني» فذكره بلفظ الماضي، وقال: «فهو يهدين» ذكره بلفظ المستقبل، والسبب فيه أن خلق الذات لا يتجدّد ساعة وساعة بل لمّا حصل بقي إلى [الأمد][2] المعلوم ،وأما الهداية فهي أمر يتكرّر كل حين وأوان سواء كانت الهداية في الدّين أو الدّنيا؛ فبيّن تعالى أنّه هو الذي خلقه في الماضي والمستقبل وأنه هو الذي يهديه في المستقبل في كلّ حين وأوان إلى وجوه المصالح بضروب الهدايات.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: 79]. وقد دخل فيه كلّ ما يتصل بمنافع الرّزق، وذلك لأن الله تعالى إذا خلق الطعام وملّكه منه فلو لم يتمكن معه ما يتمكن من أكله والاغتذاء نحو الشّهوة والقوّة والتمييز لم تكمل هذه

(1) [المحركة] في الأصل: الحركة.
(2) [الأمد] في الأصل: الأبد.

ثم قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77] واعلم أنه تعالى ما ذكر الأعداء إلا بهذه الكلمة الواحدة ثم مدح الحق بألفاظ كثيرة، وفيه تنبيه على أن الاشتغال بعيب الأعداء اشتغال بالأعداء وهو مانع من الله، وكان بقليله أولى، إنما الاشتغال يجب أن يكون بالثناء على الله تعالى وفيه أسئلة:

السؤال الأول: كيف يكون الصنم عدوّاً وهو جمادٌ؟

الجواب من وجوه:

الأوّل: قال تعالى في سورة مريم عليها السلام في صفة الأصنام: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم: 82]، قيل في تفسيره: إن الله تعالى يحيي ما عبدوه من الأصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم، وعلى هذا الوجه ستصير هذه الأوثان أعداء لهؤلاء الكفار في الآخرة، فأطلق إبراهيم عليه السلام لفظ [العدو][1] عليهم على هذا التأويل.

الوجه الثاني في الجواب: أنّ الكفار لما عبدوها وعظموها ورجعوا إليها في طلب المنافع ودفع المضار فنزلت منزلة الأحياء العقلاء في اعتقادهم، ثم إنها صارت أسباباً لانقطاع الإنسان عن السعادة ووصوله إلى الشقاوة، فلمّا جرت هذه الأصنام مجرى الأحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة والجالب للمضرّة لا جرم جرت مجرى الأعداء.

الوجه الثالث: في الجواب أن المراد من قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ العابدون دون الأصنام التي هي المعبودة.

السؤال الثاني: لِمَ قال: «فإنّهم عدوّ لي»؟ ولم يقل: فإنّها عدوّ لكم؟

فالجواب: أنّه عليه السلام صوّر المسألة في نفسه على معنى: أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ فاجتنبتها، وأراهم أنّها نصيحة نصح بها نفسه، وإذا تفكروا قالوا: ما نصحنا إلاّ بما نصح نفسه فيكون ذلك أدعى للقبول.

السؤال الثالث: لم لم يقل: «فإنّهم أعداء لي»؟

الجواب: إن لفظ الصديق والعدوّ يقع على الواحد والجماعة قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: 50].

---

(1) [العدو] في الأصل: العداوة.

وفيه سؤال، وهو أنه لِمَ قال: «مرضت» دون «أمرضني»؟

والجواب من وجوه:

الأوّل: أنّ المرض إنمّا يحصل باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي، أمّا الصحة فإنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها، وبقاؤها على اعتدالها إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع، وعودها إلى الصّحة إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتزال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع، فإذاً حدوث المرض إنما كان بسبب طبائع الأخلاط، وحدوث الصّحة إنمّا كان بسبب أن الله تعالى قهرها على الاجتماع والاعتدال.

الثاني: هو أنّ الشفاء من أعظم نعم الله تعالى على الإنسان، والمرض ليس كذلك، ومن عادة الله تعالى [أنّ][1] كلّ ما كان منفعة ولذة فإنه يضيفه إلى نفسه، وكلّ ما كان ألماً فإنّه لا يضيفه إلى نفسه، وذلك رعاية للأدب؛ ألا ترى أنه قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقال: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: 22]، ولمّا آل الأمر إلى المشقة لم يضفها إلى نفسه فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: 216].

فلمّا كانت عادة الله تعالى جارية برعاية هذه الدقيقة لا جرم أن إبراهيم عليه السلام اعتبر هذا المعنى، فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى.

فإن قلتَ: قد نقضه بقوله: «والذي يميتني ثم يحيين».

فاعلم أن الموت سبب لخلاص الرّوح عن زحمة البدن والاتصال بحضرة الله تعالى ورحمته فكيف يعد ذلك من المكاره؟ ولهذا قال عليه السلام:[2] **«من بشرّني بخروج صفر بشرته بالجنة»**، والسبب في ذلك أنه ﷺ كان عالماً بأنّ وفاته تقع في شهر ربيع الأوّل، فكان شديد الاشتياق إليه، وأما المرض فإنه لا يخلّص الرّوح عن البدن بل يبقى في الزحمة.

---

(1) [أنّ] في الأصل: بأنّ.

(2) انظر: كشف الخفا للعجلوني ج (2/ 327)، وتذكرة الموضوعات. ص: 116، والأسرار المرفوعة لعلي القاري، طبعة دار الكتب العلمية، ص: 333.

المعرفة وذكر الطعام والشراب ونبّه على ما عداهما.

وقال بعضهم: يطعمني طعام المعرفة ويسقيني شراب المحبة، وقيل: يطعمني طعام المناجاة ويسقيني شراب الوصول إلى الدرجات، وهٰهنا بحث: وهو أنه روى الإمام محمد بن علي الترمذي رحمه الله في كتاب نوادر الأصول عن عقبة بن عامر: أنه ﷺ قال: **«لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فإن الله يطعمهم ويسقيهم»**.

واعلم أن المرض سبب لانقطاع عشق القلب عن البدن لتواتر الألم والأوجاع والأسقام عليه، وكلّما كان ذلك العشق أقلّ كان حب الدّنيا أقل، ومرض القلب ليس إلّا حب الدنيا فعلى هذا لما كان مرض البدن أتمّ كان عود القلب إلى الصّحة أتمّ، وكلّما ازداد القلب طهارة من درن الذنوب وسقم حبّ الدنيا كان شبع القلب بأغذية المعرفة وريّهُ بشراب المحبة أتمّ، ومما يدلّ على ما قلنا أنّ أقلّ الناس أكلاً الأنبياء عليهم السّلام ثم الأولياء، وكلّما كان العبد أكبر حظاً من اليقين كان أقلّ أكلاً. روي عن عامر بن عبد القيس أنه داوم شهراً لا يأكل شيئاً، وقال إبراهيم التيمي: لقد أتى عليّ شهر وما أكلت طعاماً ولا شراباً إلاّ حبة عنب أكرهوني عليها، وما أنا بصائم وأقضي حوائجي؛ وقال ﷺ:[1] **«المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»** فالمؤمن إيمانه يشبعه، فمعنى قوله ﷺ: **«إن الله يطعمهم ويسقيهم»** أنه يطهر قلوبهم من الذنوب فإذا طهّرهم منّ عليهم باليقين فأشبعهم وأرواهم، وإذا قوي القلب وابتهج بمعرفة ربّه وصار فرحانًا بخدمة ربّه وبالمثول في طاعته ومجالسته الملائكة المقربين[2] صار الجسد بحيث لا يحتاج إلى الغذاء، ألا ترى أن الإنسان إذا ناله فرح شديد صار بحيث ينسى الحاجة إلى الطعام. هذا كله كلام الشيخ محمد بن علي، ثم قال رحمه الله: وللقلوب مع الله تعالى بيان لا يعرفه إلاّ أهل القلوب.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال الجنيد: إذا مرضت بوحشة الخلق سقاني بأنس الحق، وقال الشبلي: إذا مرضت من همّ الاشتياق سقاني بلذّة التّلاق.

(1) رواه البخاري في كتاب الأطعمة ج/ 6/ ص: 191.

(2) البشر مهما كانوا أتقياء وعلماء بالله لا يجالسهم الملائكة ولا يتصلون بهم، فإن الملائكة لا يتصلون إلا بالأنبياء والرسل، وهذه من إغواءات الشيطان مرت على الرازي ولم يتنبه لها، ولا غرو فإنه كما قيل: لكل عالم زلة ولكل جواد كبوة.

والجواب ـ والله أعلم ـ لعلّه ذكر هذا الكلام قبل النبوّة أو هو محمول على ترك الأولى.

السؤال الثالث: لم علّق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وهو تعالى إنّما يغفر في الدنيا؟

والجواب ـ والله أعلم ـ: إن أثر الغفران إنّما يظهر يوم الدّين.

السؤال الرابع: ما فائدة "لي" في قوله تعالى: ﴿أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾.

والجواب من وجوه:

الأول: أن الجود إفادة ما ينبغي لا لغرض وهذا هو صفة الحق جل جلاله فقط أمّا كلُّ ما سواه فله فيه غرض، فإن الأب إذا عفى عن ولده، والسيد إذا عفى عن عبده فذاك إنما يكون لطلب الثواب أو للخوف من العقاب، أو لطلب المدح والثناء أو لدفع رقة الخسيئة عن القلب، وإذا كان كذلك لم يكن المقصود من العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب النفس إمّا لتحصيل ما ينبغي أو لدفع ما لا ينبغي، أمّا الحقُّ جل جلاله فإنه كامل لذاته فيمتنع أن يحصل له صفة كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان، وإذا كان كذلك لم يكن عفوه إلاّ لرعاية جانب المعفو عنه فقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾ يعني هو الذي إذا غفر كان غفرانه لي ولأجلي لا لأجل أمر عائد إليه ألبتة.

الثاني: كأنّه يقول: إلٰهي خلقتني لا لي ولا لأجلي؛ لأنّك حين خلقتني ما كنت موجوداً وإذا لم [أكن][1] موجوداً استحال تحصيل شيء لأجلي ،ثمّ مع هذا فأنت قد خلقتني، أما لو عفوت كان ذلك العفو لأجلي فلمّا خلقتني أولاً مع أنّي ما كنت محتاجاً إلى ذلك الخلق [فلأن][2] تغفر لي ولأجلي مع أني في نهاية الاحتياج إلى العفو كان أليق بفضلك ورحمتك.

الثالث: أن إبراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات إلى الوسائط؛ ولذلك لمّا قال له جبريل عليه السلام: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فلا، فههنا قال: ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى﴾ أي: أريد أن يغفر خطيئتي بمجرّد أني عبدك

---

(1) [أكن] في الأصل: يكن.
(2) [فلأن] في الأصل: فلا.

الثالث: أن غرض الخليل عليه السلام في هذا المقام ـ والله أعلم ـ إظهار لسان الشكر لا إظهار لسان الشكوى، وإضافة المرض إلى الله يكون شكوى، فأضاف المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى ليكون أبلغ في الشكر.

الصفة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ وقد شرحنا [ها][1] في تفسير قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: 2]، وفي تفسير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28].

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ هو إشارة إلى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالنجاة.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام جمع من هذه الألفاظ جميع نِعم الله تعالى، من أول الخلق إلى آخر [الأمد][2] في الدار الآخرة.

وههنا سؤالان:

السؤال الأوّل: لِمَ قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾ والطمع عبارة عن الرجاء، وأنه عليه السلام كان قاطعاً بذلك؟

والجواب من وجوه:

الأوّل: إن هذا الكلام لا يستقيم على مذهبنا حيث قلنا: إنه لا يجب لأحد على الله شيء، وأيضاً[3] لعله عليه السلام قال هذا الكلام قبل النبوّة.

والثالث: لعل غرضه موافقة كلام الله في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48، 116]، فلما علق الله تعالى ذلك الحكم بالمشيئة وافقه الخليل عليه السلام فعلقه بالطمع، وهذا من باب رعاية حسن الأدب.

السؤال الثاني: لِمَ أسند الخطيئة إلى نفسه مع أن الأنبياء منزهون عن [الخطايا][4]؟

---

(1) [ها] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [الأمد] في الأصل: الأبد.
(3) وأيضاً إلخ هذا جواب ثان فلهذا قال بعده: والثالث.
(4) [الخطايا] في الأصل: الخطا.

وهو مانع من الاستغراق، لاسيّما يروى عنه أنه قال: حسبي من سؤالي عِلمه بحالي.

والجواب: أنه كان في هذا المقام مشغولاً بدعوة الخلق إلى الحقّ، بدليل أنه قال هٰهنا: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا جرم ذكر الدعاء أوّلاً ثم ذكر الثناء ثانياً لأجل تعليم الخلق، أمّا لمّا خلا بنفسه اقتصر على الثناء وهو قوله: حسبي من سؤالي عِلمه بحالي.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله تعالى أنواعاً من المطالب:

المطلوب الأول: قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولقد أجابه الله تعالى ألبتة حيث قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: 130].

واعلم أن النفس الإنسانية لها قوتان: نظرية عاقلة، وقوة عملية فاعلة، فالقوة النظرية عبارة عن القوة التي باعتبارها تقوي انجلانا القدسيّة عن عالم الغيب والشهادة، والقوة العملية عبارة عن القوة الّتي باعتبارها تقوى على تدبير هذا البدن وذلك لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ إشارة إلى سعادة القوة النظرية، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إشارة إلى سعادة القوة العملية، وإنما قدّم السعادة النظرية على سعادة القوة العملية لأن القوة النظرية مقدمة على القوّة العملية بالشرف وبالذات، والدليل عليه الوجوه التي ذكرناها في الفصل الأول من هذا الكتاب في بيان أن علم الأصول أشرف من علم الفروع.

وإنما فسرنا [الحكم بمعرفة الأشياء][1] وذلك لأن الإنسان لا يعرف حقائق الأشياء إلا إذا استحضر في ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها إلى بعض بالنفي والإثبات فتلك النسبة هي الحكم، ثم إن كانت تلك النسبة الذهنية مطابقة للنسبة الخارجية كانت النسبة الذهنية ممتنعة التغير وكانت مستحكمة قوّته، فمثل هذا الإدراك يسمى حكمة وحكماً و[هو][2] المراد من قوله صلى الله عليه وسلم: **«أرنا الأشياء كما هي»**.

وأما الصلاح فهو كون القوة العملية متوسطة بين طرفي الإفراط والتفريط، وذلك لأن الإفراط في أحد الجانبين تفريط في الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل إلّا بالاعتدال.

---

(1) [الحكم بمعرفة الأشياء] في الأصل: معرفة الأشياء بالحكم.

(2) [وهو] زيادة يقتضيها السياق.

ومحتاج إليك، وخاضع بين يدي رحمتك، لا أن يغفرها لي بواسطة شفاعة شافع.

واعلم أن الأحوال ثلاثة:

إما الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وقد ذكر الخليل عليه السلام نِعَم الله عليه في هذه الأحوال الثلاثة:

أمّا الماضي فهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.

وأمّا في الحاضر فهو قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾.

وأمّا في المستقبل فهو إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة:

أمّا في الآخرة فهو قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾. فما أحسن هذا الترتيب!!

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: 83].

واعلم أنّ كل ما مضى ثناء على الله تعالى وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا ﴿٨٣﴾﴾ دعاء، وتقديم الثناء على الدعاء واجب بحكم النقل والعقل:

أمّا النقل فكما في هذه، وأيضاً روى النبيّ ﷺ[1] عن ربّ العزّة أنه قال: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي للسائلين»**.

وأمّا العقل فهو أن الداعي إذا قدّم الثناء على الله تعالى استنارت روحه بنور معرفة الله عز وجلّ واتصل قلبه بعالم الإلٰهية، وسرادقات الصمدية، ومقامات الفردانية، وارتفعت الحجب وتلألأت الأنوار الإلٰهية في القلب كالقمر إذا وقع في مقابلة الشمس فيكمل نوره، وإذا كمل نوره قوي تأثيره، وإذا أتبعه بالذكر صارت تلك القوى الحاصلة بسبب الذكر والثناء معيناً على تحصيل المطلوب، ولهذا المعنى وجب تقديم الثناء على الدعاء كما فعله الخليل صلوات الله وسلامه عليه في هذا المقام.

فإن قيل: لِمَ لَم يقتصر إبراهيم عليه السلام على الثناء فإن الدعاء استغنى بطلب الحقية

---

(1) انظر: سنن الترمذي، طبعة مصطفى البابي الحلبي ت/ 2926، كذلك فتح الباري لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الفكر ج (11/ 147) وإتحاف السادة، تصوير بيروت ج (4/ 375) وج (5/ 7).

عجزت عنه الآحاد، وهذا المعنى شاهد في المؤثرات الجسمانية، وإذا ثبت [أنّ][1] هذا الواحد إذا كان بحيث يثني عليه الجمع العظيم ويمدحونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع إليه سبباً لفيضان زيادة كمال عليه من عالم القدس.

الوجه الثاني: إن عوام الخلق ربما كانوا مستعدّين لقبول الأنوار من عالم القدس فإذا اتصلت هذه الأرواح بالأرواح القويّة التي يكون للأنبياء عليهم السّلام، فإذا انجلت هذه الأنوار الإلٰهية في تلك الأرواح القويّة السويّة انعكس أثر من تلك الأنوار إلى هذه الأرواح الضعيفة نوع من السعادة بسبب تلك العلاقة، [ففي الوجه][2] الأوّل من الجواب جعلنا الثناء والمدح [سبباً][3] لحصول مزيد سعادة الممدوح وفي الوجه الثاني جعلنا ذلك الثناء والمدح سبباً لحصول مزيد سعادة [المادح][4].

الثاني من الجواب: وهو كلام أهل الظاهر أن من صار ممدوحاً بين الناس بسبب ما كان[5] من الفضائل، فإنه يصير ذلك المدح داعياً للمادح إلى اكتساب تلك الفضائل.

التأويل الثاني لقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾.

أنه سأل ربّه أن يجعل له من ذريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى وذلك محمد ﷺ؛ فالمُراد من قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ بعثة محمد ﷺ.

والتأويل الثالث: قال بعضهم: المراد اتفاق أهل الأديان على حبّه، ثم إنه أعطاه ذلك لأنّك لا ترى أهل دين إلا وهم يحبّون إبراهيم عليه السلام.

المطلوب الثالث: قوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: 85]، اعلم أنه لمّا فرغ من طلب مراتب السعادات في الدنيا طلب بعده سعادة الآخرين، وهي جنة النعيم وشبّهها بما يورث، وسنذكر السبب في أنه تعالى لم سمّى الجنة ميراثاً.

---

(1) [ان] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [ففي الوجه] في الأصل: فالوجه.
(3) [سببًا] في الأصل: سبب.
(4) [المادح] في الأصل: الممدوح.
(5) كان من الفضائل: أي كان ذلك السبب من الفضائل وخبر أن قوله فإنه يصير إلخ.

ولمّا كان الاعتدال سبباً واحداً لا يقبل القسمة ألبتة و[الأذهان][1] البشرية في هذا العالم قاصرة عن إدراك ذلك الحدّ على سبيل الحقيقة لا جرم لا يقدر البشر ألبتة على الخروج من ذلك الحدّ على سبيل الحقيقة، وإن قلَّ، إلا أن خروج المقربين عنه يكون في القلّة بحيث لا نحس به، وخروج العصاة عنه يكون متفاحشاً جداً؛ فقد ظهر من هذا احتياج كل أحد أن يستعين بتوفيق الله في تحصيل هذا الصلاح سواء كان نبيًّا أو وليًّا؛ فظهر بهذا احتياج إبراهيم عليه السلام إلى أن يقول: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

المطلوب الثاني: في هذا الدعاء قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84].

واعلم أن مراتب السعادات ثلاثة: النفسانية والبدنية والخارجية فالنفسانية قسمان كمال القوة النظرية وهو المراد بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ وكمال القوة العملية وهو المراد بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وأما البدنية فقسمان: الصحة والجمال.

وأما الخارجية فقسمان: المال والجاه، والمال أشد جسمانية لأنه ملك الأعيان، والجاه أشدّ روحانية لأنه ملك الأرواح.

وإن إبراهيم عليه السلام طلب السعادات النفسانية ولم يلتفت إلى السعادات البدنية بقسميها لعلمه أنها غير باقية، وأما السعادات الخارجية فطلب قسماً واحداً منها وهو الجاه والثناء الحسن وهو المراد بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وقد أعطاه الله تعالى ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: 78].

فإن قيل: فأيّ غرض له في أن يمدح ويثنى عليه؟

فالجواب من وجهين:

الجواب الأول: وهو على لسان الحكمة، وبيانه من وجهين:

الوجه الأوّل: إن الأرواح البشرية قد بينّا أنها مؤثرة في الجملة إلّا أن بعضها قد يكون ضعيفاً فيعجز عن التأثير فإذا اجتمع منها طائفة قوى مجموعها على ما

---

(1) [الأذهان] في الأصل: الإمكان.

أمّا قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 89]، فاعلم أن الله تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: 83-84]، وفي تفسير القلب السليم [وجوه][1]:

الأول: المُراد سلامة القلب من الجهل والأخلاق الذميمة، كما أنّ سلامة البدن عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب ومرضه عبارة عن زوال ضدّ تلك الأمور.

الثاني: السليم اللديغ من خشية الله تعالى.

الثالث: السليم الذي سلِم وسلّم وأسلم وسالم واستسلم، وهذه الأحوال كانت حاصلة لإبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]، وقال الشبلي: القلب السليم كقلب الخليل عليه السلام، كان يشير قلبه من جانب التحت إلى الوفاء، ومن الفوق إلى الرّضا، ومن اليمين إلى العطاء، ومن اليسار اليسر إلى ترك الهوى، ومن القدام إلى اللقاء، ومن الخلف إلى البقاء.

(1) [وجوه] في الأصل: وجوهاً.

المطلوب الرابع: قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 86]، والكلام فيه قد تقدم في الفصل الثالث في تفسير قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: 47].

المطلوب الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: 87]، وفيه سؤالان:

السؤال الأول: أنه لمّا قال: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ امتنع الخزي لأنه متى حصلت الجنة فقد زال الخزي فكيف قال بعده: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؟ وأيضاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: 27]، فما كان نصيب الكفار فقط كيف يخاف منه الرسول المعصوم؟

قلنا: كما إن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فكذلك درجات الأبرار دركات المقربين فجزى كلّ أحد على ما يليق به.

السؤال الثاني: قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ضمير عن أيّ شيء؟

الجواب: أنه ضمير العباد لأنه معلوم وإن لم يكن مذكوراً أو ضمير الضالّين.

واعلم أن في الآية وجوهاً من النكت:

الأوّل: قيل: معناه لا تطالبني يوم القيامة بصدق الخلة فلا تقل يا إبراهيم! ادعيت أنك خليل الله فهات صدق الدعوى.

والنكتة أن إبراهيم لما خاف عن هذا المقام أفلا تخاف أيها المذنب أن [يطالب][1] يوم القيامة بحق الإيمان والتوحيد كما قال تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: 8].

الثاني: أنّ الخليل عليه السلام قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:87] [و][2] لم يظهر جوابه في نص القرآن، ثم إنه تعالى أعطى هذا الأمان لأمة محمد ﷺ فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: 8].

---

(1) [يطالب] في الأصل: يطلب.

(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.

الحجة الرابعة: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ بيّن [أنهما مخلوقان][1] لأجل العبادة ثم قال: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، فبيّن أن جميع [ما في][2] الأرض مخلوق لكم ثم إنه تعالى قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، فلما وفيت بعهد العبودية وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وفى الله تعالى بعهد الربوبية وهو المُراد بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

الحجة الخامسة: روي أن عمر رضي الله عنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار فقيل له: ما رأيناك استسقيت فقال: استسقيت بمجاريح السماء التي يستنزل بها القطر[3] المجدح ثلاثة كواكب مخصوصة نوره يكون غزيراً، شبّه عمر الاستغفار بالأنواء الصادقة التي لا تخطىء.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: 11، هود: 52]، يحتمل أن يكون المراد منه: فتح أبواب السماء وأمطار التوفيق والهداية والإرشاد، ويحتمل أن يكون المراد منه إنزال الغيث والمطر على ما هو ظاهر اللفظ [ويدل النقل][4] عليهما جميعاً:

أمّا الأول: روي أن الحسن عليه السلام جاءه رجل وشكى إليه الجرب فقال: استغفر، وشكى آخر من العقر إليه، وآخر من وسع أرضه فأمر الكل بالاستغفار، فقال بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً فأمرت الكلّ بالاستغفار، فتلى هذه الآية.

وأمّا الثاني: فروى عن بكر بن عبد الله: إن أكثر الناس ذنوباً أقلّهم استغفاراً وأكثرهم استغفاراً أقلّهم ذنوباً.

وتحقيقه أن الاستغفار إذا قوى على الدفع بعد الثبوت فلأن يقوى على الدفع والمنع كان أولى.

---

(1) [أنهما مخلوقان] في الأصل: أنّه مخلوق.

(2) [مافي] زيادة يقتضيها السياق.

(3) في الهامش كنسخة ثانية: المجدح عود مع الراعي مشقوق الرأس أثلاثاً يجدح أي: يفتل العود فيزيد اللبن.

(4) [ويدل النقل] زيادة يقتضيها السياق.

الفصل السادس:
في تفسير استدلال نوح عليه السلام

قال ﷻ حكاية عن نوح صلوات الله عليه وسلامه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10]، قال مقاتل: إن قوم نوح عليه السلام لمّا كذّبوه زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح صلوات الله عليه فقال نوح: استغفروا ربكم من الشرك يفتح الله عليكم أبواب النعمة.

واعلم أن الاشتغال بالإيمان وسائر الطاعات سبب لانفتاح أبواب الخيرات ويدلّ عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الكفر سبب لخراب العالم، قال تعالى في صفة كفر النصارى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم:90-91]، فلمّا كان الكفر سبباً لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سبباً لعمارة العالم.

الحجة الثانية: الآيات الدالة على هذا المعنى منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، ومنها: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: 66]، ومنها: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: 16]، وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 - 3]، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: 132].

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية.

والنعمة الخامسة: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾[1].

فبدأ بذكر هذه النّعم بإنزال الماء من السماء وختمها بإخراج الماء من الأرض، والسبب فيه أنّا قد بيّنا أن تولد النعمة في هذا العالم إنما يكون بنزول الماء من السماء إلى الأرض.

واعلم أنه تعالى لمّا أمرهم بالاستغفار ووعد على الاستغفار بهذه المنافع، أكّد ذلك ورغّب فيه فقال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: 13]، وفيه وجوه:

الأول: أن يكون التقدير: ما لكم لا تأملون من الله وقاراً وتعظيماً بفعله في حقكم، كأن القوم لما قيل لهم: إنكم متى استغفرتم الله أعطاكم هذه النعم الكثيرة، والقوم قد استبعدوا ذلك فقالوا: وكيف يعطينا هذه النعم العظيمة لمجرد الاستغفار؟ فأجيبوا بقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ أي ما لكم لا ترجون من الله أن يفعل في حقكم هذا التوقير والتعظيم مع أنه فعل في حقكم ما هو أعظم وأجلُّ منه وهو أنه خلقكم أطواراً؟

الوجه الثاني: إن القوم كانوا يبالغون في الاستخفاف بنوح ﷺ فأمرهم الله تعالى بتوقيره وترك الاستخفاف به، فقيل لهم: إنكم إذا وقّرتم نوحاً كان ذلك لأجل الله ولأجل أمره وطاعته، فإن كل ما يأتي به الإنسان لأجل الله لا بد أن يرجو منه خيراً.

الوجه الثالث: وهو أن يكون المراد من الوقار الحكم وترك التعريض والمعنى: ما لكم لا تأملون أن يترك الله معاملتكم بالعذاب بحلمه ولطفه ويمهلكم لتؤمنوا به، وقوله تعالى: «لله» لبيان من أثبت له الوقار.

الوجه الرابع: إن الوقار هو الثبات، من وقر: إذا ثبت واستقر، فكأنه قال: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ وعند هذا تم الكلام ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا ترجون لله ثباتاً وبقاءً وإنكم لو رجوتم ثباته وبقاءه لحقتموه ولما أقدمتم على الاستخفاف برسله وأوامره، والمراد من قوله: ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ أي: تعتقدون لأن التراجي للشيء يعتقد له.

---

(1) نفس الآية السابقة.

فإن قيل: لِمَ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ ولَم يقل: إنه الآن [غفار][1].

قلنا: المُراد أنه كان غفاراً لكلّ من استغفره كأنه قال: لا تظنوا أنّ غفاريته إنما حدثت الآن بل هو أبداً [و][2] هكذا كان، وكما أن حرفتكم هي الذنب والمعصية فكذلك حرفته هي الغفارية.

قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، اعلم أن الخَلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾ [الصف: 13]، فلا جرم أعلمهم الله تعالى أنّ إيمانهم بالله يجمع مع الحظ الوافر في الآخرة الخصبَ[3] والغنى في الدنيا، والأشياء التي وعدهم من منافع الدنيا خمسة:

أوّلهما: قوله: «يرسل السماء..» وفي السماء وجوه:

الأول: أن المطر ينزل من السماء إلى السّحاب ومن السحاب إلى الأرض.

الثاني: أن المُراد بالسماء السحاب.

الثالث: أن المُراد بالسماء المطر من قوله: (إذا أنزل السماء بأرض قوم)، والمدرار: كثير الدرّ، ومفعال مما يستوي فيه المذكر والمؤنث كقولهم: رجل معطار، وامرأة معطار ومنقال.

والنعمة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 12]، وهذا لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكلّ.

والنعمة الثالثة: [البنون][4]، ولا شك أن كثرة الأولاد [الذكور][5] سبب إبقاء الذكر واشتداد الظهر.

والنعمة الرابعة: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾[6].

---

(1) [غفار] في الأصل: مصمماً بالهامش: غفاراً.
(2) [و] زيادة يقتضيها السياق.
(3) الخصب: في الأصل: والخصب.
(4) [البنون] في الأصل: البنين.
(5) [الذكور] في الأصل: المذكور.
(6) نفس الآية السابقة.

الآية؛ وذلك لما ذكرنا أن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه فلا جرم بدأ بالأقرب لأن الأقرب أعرف، وتارة يبدأ بدلائل الآفاق ثم بدلائل الأنفس، إما لأن دلائل الآفاق أشهر وأعظم، أو لأنها أشرف وأعظم.

واعلم أن لهذا في الحقيقة دلائل ثلاثة:

أوّلها: السمٰوات الطباق وقد تقدم في الباب المتقدم كيفية دلالتها على الصانع المختار.

وثانيها: كون القمر نوراً.

وثالثها: كون الشمس سراجاً والله تعالى وصف الشمس والقمر بأوصاف متعددة:

الصفة الأولى: ذكر كون القمر نوراً والشمس سراجاً في آيات إحداها هذه الآية، وقال في يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: 5]، وقال في الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: 61].

واعلم أن الاستقراء يدل على أن أحوال هذا العالم مختلفة بحسب أنوار الشمس والقمر، فلنبيّن ذلك في الشمس أوّلاً ثم في القمر ثانياً، أمّا تأثيرات أنوار الشمس في هذا العالم فمن وجوه:

الأول: التأثيرات الحاصلة بحسب اليوم والليلة، وذلك لأنّا نرى جميع الحيوانات في الليل كالميتة فإذا طلع نور الصباح ظهرت في أجساد الحيوانات قوة الحياة، وكلّما كان طلوع ذلك النّور أكبر كان ظهور قوة الحياة في أبدان الحيوانات أكمل، ثم لمّا طلع قرص الشمس بالتمام ترى الناس وسائر الحيوانات يبتدؤون بالحركة والقوة والاشتداد، وما دامت الشمس صاعدة إلى وسط سمائهم كانت حركتهم في الزيادة والقوة، فإذا مالت الشمس عن وسط السماء أحدث حركاتهم وقوتهم في الضعف ولا يزال يتزايد ذلك إلى زمن غيبوبة الشمس، وكلّما ازدادت غيبوبة نور الشمس ازداد الضعف والفتور والنقصان في الأبدان الحيوانية وفي [القوى][1] المحركة

(1) [القوى] في الأصل: قوى.

ثم إنه تعالى لما أمر في هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد بوجوه من الدلائل:

الحجة الأولى: حجة مأخوذة من الأنفس وهي قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: 14]، وفيه وجهان:

الأول: قال الليث: الطور التارة حالاً بعد حال، فإنه كان تراباً أولاً ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة.

والثاني: قال ابن الأنباري: الطور الحال والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضهم بعضًا كما قال: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22].

واعلم أنه خلق البشر بحيث لا يشبه بعضهم بعضاً في الصورة، والحكمة فيه: أنه لو حصلت المشابهة لحصل الاختلاف، فما كان يتميز زوج هذه المرأة عمن لم يكن زوجاً لها، ولا عبد هذا الإنسان عن عبد غيره وحينئذ لم يتميز الحلال عن الحرام والمستحق عن غير المستحق، وذلك يفضي إلى زوال المصالح وحصول المفاسد فلهذا السبب اقتضت الحكمة الإلٰهية تخصيص كلّ شيء بصورة مخصوصة.

ثم إنه من أعظم الدلائل على القادر المختار لأن الأب والأمّ واحد، وتأثير الطبائع والنجوم والأفلاك واحد، ثم مع هذا التشابه والتساوي يكون كل واحد منهم مختصاً بصورة مخصوصة معينة، فهذا لا يكون إلا بتأثير القادر المختار.

وروي أن أحداً استعظم أمر الشطرنج عند عمر ﷺ وقال: إنها مختصرة ويقع فيه أنواع غير متناهية من اللعب فقال عمر: رقعة الوجه أصغر من رقعة الشطرنج، ولكل عضو من أعضاء الوجه موضع معين منه لا يتغير منه، فإن العين لها موضع واحد وكذلك الأنف والفم، ثم مع هذا يقع فيه من الاختلافات ما لا نهاية له فإنك لا ترى الشيئين في المشرق والمغرب يتماثل صورتاهما من جميع الوجوه، وهذا يدلّ على كمال قدرة الله وعلمه وحكمته.

الحجة الثانية: على التوحيد: حجة مأخوذة من الآفاق وهي قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: 15، 16].

واعلم أنه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس وبعدها بدلائل الآفاق كما في هذه

أسرع من هذه لما كملت المنافع وما تمّت، فأما إذا كانت هذه الحركة لا في غاية السرعة ولا في غاية البطء حصلت المنافع المذكورة والمصالح المذكورة.

الوجه الخامس: في تأثيرات الشمس بحسب قربها من سمت الرأس وبعدها عنه.

اعلم أن كل موضع تكون الشمس بعيدة جداً عن سمت رؤوس أهله يشتد البرد فيه، وهو مثل الموضعين اللذين تحت القطبين فإنه لا يتكون هناك حيوان ولا ينبت فيها نبات من شدة البرد، ويكون هناك ستة أشهر نهاراً وستة أشهر ليلاً، ويكون هناك رياح عاصفة وثلوج متوالية، ويدل عليه البحر الأرمني فإنها أقرب إلى مدار الشمس من الموضع المذكور بكثير مع أنه تشتد فيه الرياح العواصف وتشتدّ ظلمته حتى إنه لا يمكن ركوبه لشدة برده وظلمته.

ويستدل عليه أيضاً ببحر السلم فإنه إذا حصلت الشمس في أوائل العقرب إلى أن تحصل في أوائل الحوت، ففي هذه الأشهر الأربعة لا يستطيع الناس ركوب هذا البحر.

الوجه السادس: في تأثيرات الشمس في أحوال الحيوانات بحسب قربها من سمت الرؤوس وبعدها عنه.

اعلم أن الاستقراء يدل على أن السبب الظاهر لاختلاف الناس في أجسامهم وألوانهم وأخلاقهم وطبائعهم وسيرهم، اختلاف أحوال الشمس في الحركة وذلك لأن الناس ثلاثة أقسام:

أحدها: الذين يسكنون خط الاستواء محاذاة ممرّ السرطان وهم يسمون باسم: العام[1] السودان؛ لأن الشمس تمرّ على سمت رؤوسهم في السنة إما مرة أو مرتين فتحرقهم وتسوّد أبدانهم وشعورهم، والذين مساكنهم غاية في الغرب من خط الاستواء فهم الزّنج والحبشة، والشمس لقوة تأثيرها في مساكنهم تحرق شعورهم وتسوّدها فتجعلها جعدة كثيفة، وتجعل وجوههم فحلة، وجثثهم عظيمة، وأخلاقهم وحشيّة.

---

(1) العام: في الهامش كنسخة ثانية: العوام.

والمدركة ،فرجعت الحيوانات إلى بيوتها وأحجرتِها كالميتة المعدومة [الحياة][1] فإذا طلعت الشمس عليهم في اليوم التالي رجعوا إلى الحالة الأولى من الحياة [والقوة][2] [والحركة].

الوجه الثاني: في تأثيرات الشمس بحسب [الحركة] [3]اليومية وبيانه: أنه لو كانت واقفة في موضع واحد لاشتدت السخونة في ذلك الموضع واشتد البرد في سائر المواضع، لكنها في أول النهار من المشرق فتقع على ما يحاذيها من جانب الغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى إلى طرف المغرب وتشرق حينئذ على الجوانب الشرقية وحينئذ لا يبقى موضع مكسوف في الشرق والغرب إلا ويأخذ حظًا من شعاع الشمس.

الوجه الثالث: في تأثيرات الشمس بحسب الفصول الأربعة وبيانه: أنه لو لم تكن للشمس حركة في الميل لكان تأثيرها مخصوصاً بمدار واحد ولكان سائر المدارات [يخلو][4] عن المنافع الحاصلة منها، ولكان يبقى كل واحد من المدارات الجنوبية والشمالية على كيفية واحدة، فإذا كانت حارة أفنت الرّطوبات وأحالتها كلها إلى النارية ولم تتكون المتولدات فيكون الموضع المحاذي لممرّ الشمس على كيفية الاحتراق، والبعيد عنه جداً على كيفية البرد الشديد والمتوسط بينهما على كيفية متوسطة؛ فيكون في موضع صيف دائم موجب للاحتراق، وفي موضع شتاء دائم موجب للجمود والتحجر، وفي موضع ربيع دائم وخريف دائم ولا يتم النضج، وأمّا إذا حصلت للشمس ميل تارة إلى الشمال وأخرى إلى الجنوب حصل في كل بقعة من بقاع الأرض هذه الفصول الأربعة التي هي معينة على النشوء والنماء وحصول مصالح الحيوانات والنبات.

الوجه الرابع: في تأثير حركة الشمس من حيث إنها تتم الدورة في سنة واحدة، وذلك لأنّا لو قدرنا أن الشمس تتحرك حركة بطيئة لكان هذا الميل قليل النفع ولكان التأثير شديد الإفراط، ولكان يعرض قريباً فيما لم يكن له ميل، ولو كانت حركتها

(1) [الحياة] زيادة يقتضيها السياق.
(2) [والقوة و] في الأصل: بقوة.
(3) [الحركة] في الأصل: حركة.
(4) [يخلو] في الأصل: يخلوا.

اعلم أن المواضع التي يسامتها حضيض الشمس فهي البراري الجنوبية وهي محترقة نارية لا يتكون فيها حيوان ألبتة. وأما البلاد المقاربة لتلك المواضع فسكانها كلهم سود الألوان على التفصيل الذي ذكرناه، وأما المواضع التي يسامتها أوج الشمس فهي في جانب الشمال وهي غير محترقة بل معتدلة.

واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب [قرب][1] الشمس من الأرض في الحضيض وبعدها عنه في الأوج ليس بكثير بل بقليل، فلا جرم بسبب ذلك التفاوت القليل صار الجنوب محترقاً فعلمنا بهذا أنّ الشمس لو صارت إلى فلك الثوابت لفسدت الطبائع من شدة البرد، ولو أنها انحدرت إلى فلك القمر لاحترق هذا العالم بالكلية، فلهذه الحكمة جعل الباري جلّ ثناؤه الشمس [وسط][2] الكواكب السبعة ليكون بحركتها المعتدلة وقربها المعتدل يبقى الطباع بالمطبوعات في هذا العالم على حد الاعتدال.

وأما أهل الإقليم الأول فلأجل قربهم من حضيض الشمس كانت سخونة هوائهم شديدة فلا جرم هم أكثر سواداً لأن تأثير الشمس فيهم أكبر، وأهل الأقليم الثاني سمر الألوان وأما الإقليم الثالث والرابع فأعدل الأقاليم مزاجاً بسبب اعتدال الهواء.

وأيضاً تغاير ارتفاع الشمس إنما يكون عند كونها في أبعد بعدها عن الأرض فلا جرم صار هذا الإقليم معدناً للأشخاص الفاضلة والصور الجميلة، وأما الإقليم الخامس فسخونة الهواء هناك أقل من الاعتدال بقدر يسير فلا جرم صار في حيّز البرد والثلوج، وصارت طبائع أهلها أقل نضجاً من طبائع أهل الإقليم السادس والسابع فأهلها فحول نبول، ولغلبة البرد والرطوبة عليهم اشتد بياض ألوانهم وزرقة العيون وعظمت وجوههم واستدارت؛ فقد ظهر أن صور الناس وأشكالهم إنما اختلفت بحسب اختلاف أحوال الشمس [فهذه][3] إشارة قليلة إلى كيفية تأثيرات الشمس، أمّا القمر فتأثيراته من وجوه:

الأول: أنا نرى أبدان الحيوانات في وقت زيادة خبوء القمر تكون أقوى وأسخن وبعد الامتلاء تكون أضعف وأبرد ويكون أزيد ويكون الأخلاط التي في بدن

---

(1) [قرب] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [وسط] في الأصل: وسطه.

(3) [فهذه] في الأصل: فهذا.

وأما الذين مساكنهم أقرب إلى محاذاة ممرّ السرطان فالسواد فيهم أقلّ وطبائعهم أعدل وأخلاقهم آنس وأجسامهم أقصف كأهل الهند واليمن وبعض المغاربة وجميع العرب.

القسم الثاني: الذين مساكنهم على ممرّ رأس السرطان إلى قريب من محاذاة بنات نعش الكبرى، وهم يسمون باسم: العام البيضان فهؤلاء لأنّ الشمس لا تسامت رؤوسهم وأيضاً لا تبعد عن مسامتة رؤوسهم بعداً كثيراً، ما يعرض[1] لهم شدة من الحرّ والبرد، فلا جرم صارت ألوانهم متوسطة ومقادير أجسامهم معتدلة وأخلاقهم حسنة، كأهل الصين والترك وخراسان والعراق وفارس والشام.

ثم هؤلاء كل من كان أميل منهم إلى ناحية الجنوب كان أتمّ في الذكاء والفهم لقربه من منطقة البروج وممر الكواكب المتحيزة، وتكون حركاتهم أليق بحركات الكواكب السيارة في السرعة والخفّة ومن كان منهم يميل إلى ناحية المشرق فهم أقوى أنفساً وأشدّ تذكراً؛ لأنّ المشرق يمين الفلك، لأن الكواكب منه تطلع والأنوار من جانبه تظهر، واليمين لا شك أنه أقوى. ومن كان إلى ناحية المغرب فهم ألين نفساً وأشدّ تأثيراً وأكثر كتماناً للأمور.

القسم الثالث: وهم الذين تكون مساكنهم محاذية لبنات نعش الصغرى وهم الصقالبة والروس، فإنهم لكثرة بعدهم عن ممرّ البروج وحرارة الشمس فصار البرد عليهم أغلب والرطوبة العضلية أكثر لأنه ليس هناك من الحرارة ما يتسعها فلذلك صارت ألوانهم بيضاء وشعورهم سبطة شقرة، وأبدانهم عظيمة رحضة، وطباعهم مائلة إلى الرطوبة.

واعلم أنّ كلّ واحد من هذين الطرفين وهما: الإقليم الأول والسابع يقل فيه العمران وينقطع بعضه عن بعض لغلبة الكيفيتين الفاعلتين، ثم لا يزال يزداد في الأقاليم الثاني والسادس والثالث والخامس ويقلّ الخراب فيها، وأمّا الإقليم الرابع فهو متواصل العمارات قليل الخراب وذلك لفضل الوسط على الأطراف باعتدال المزاج.

الوجه السابع: في تأثيرات الشمس بحسب قربها وبعدها من الأرض.

---

(1) ما: نافية وليست نكرة تامة.

إلى قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف:54] وقال في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرعد: 2]، وقال في سورة لقمان: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [لقمان: 29]، وقال في الزمر: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: 5].

اعلم أن هذا التسخير من وجوه:

الأول: أنها مع غاية فعلها تغيب في جوّ السماء، وذلك لا يكون إلا بتسخير الله وحفظها في حق الله.

الثاني: أنها متحركة بالاستدارة على نهج واحد لا يقع في تلك الحركات اختلاف بالبطء والسرعة بالرجوع والاستقامة ولا بالارتفاع والانخفاض، بل لكل واحد منها مسير ومقدار ونهج مقدر وجهة مقدّرة وذلك لا يكون إلا بتسخير مسخر وتقدير مقدِّر سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

واعلم أن العقول قاصرة عن معرفة منافع كل من الكواكب من القرب والبعد والحركة والجهة، ولكنّ العقل لمّا دلّ على بعض المنافع والحكم وجب أن يقاس الباقي عليه فيقطع بأن لله تعالى في كل واحد [منها][1] حكماً مخفية وأسراراً مطوية لا يصل إليها عقول الخلق ولا ينتهي إلى مبادئها أوهام الملائكة المقربين، فضلاً عن إفهام البشر وتكون الغاية القصوى لنا أن نعترف بجلال خالقها وكمال حكمة مدبرها كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

الصفة الثالثة: كون القمر آية الليل وكون الشمس آية النهار، قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾ [الإسراء: 12]، وقال في سورة يس: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨

(1) [منها] في الأصل: منهما.

الإنسان ما دام القمر زائداً في ضوئه فالنار يكون أزيده [ويكون] ظاهر البدن أكثر رطوبة وحساً، فإذا نقص ضوء القمر تناقصت هذه الأحوال.

الثاني: أن التجارب الطبية دلّت على أن أحوال البحرانات مربوطة بأحوال زيادة ضوء القمر ونقصانه.

الثالث: تكثر ألبان الحيوانات في النصف الأوّل من الشهر وتتناقص في النصف الثاني.

الرّابع: أن الإنسان إذا نام في ضوء القمر حدث في بدنه نوع من الاسترخاء والكسل وتهيّج عليه الزكام والصداع، وإذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة تحت ضوء القمر تغيّرت طعومها وروائحها، ولأصحاب التجارب اعتبارات كثيرة من هذا الباب، ويكفينا هذا القدر في بيان منفعة كون الشمس ضياءً والقمر نوراً.

فإن قال قائل: ظاهر كلامكم في هذا الفصل مشعر بأن المؤثر في أحوال هذا العالم هو الشمس والقمر، وكلامكم في الأبواب المتقدمة صريح في أنّ المؤثر هو قدرة الله تعالى فكيف الجمع بين القولين؟

فالجواب: أليس أنّا نقول: الخبز مشبع والماء [مرو][1]، وإن كنا نعتقد أن خالق الشبع والريّ هو الله تعالى، فكذلك هٰهنا أليس أنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: 2]، ثمّ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، فحصول الموت والوفاة منسوب إلى الله تعالى بالتخليق والإيجاد ومنسوب إلى ملك الموت بالأمر بقبض الأرواح، ومنسوب إلى أتباع ملك الموت لأجل أنّهم يباشرون أعمالاً أجرى الله عادة بخلق الموت عقيبها، فكذا هٰهنا الله تعالى أجرى في عادته بخلق الحوادث المختلفة بحسب قرب الشمس وبعدها فتلك الحوادث منسوبة إلى قدرة الله تعالى بالتخليق والإيجاد ومنسوبة إلى الشمس على سبيل إجراء العادة.

الصفة الثانية: من صفات الشمس والقمر [كونهما مسخرتين][2]، قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: 54]،

---

(1) [مرو] في الأصل: مروى.
(2) [كونهما مسخرتين] في الأصل: كونها مسخرة.

بل قال: أنبتكم نباتاً والمعنى أنبتكم من الأرض فنبتم نباتاً. وفيه دقيقة لطيفة وتلك لأنه تعالى إنما ذكر هذا ليستدل به على إثبات الصانع والإثبات صفة الله تعالى وتخليقه، وصفة الله غير محسوسة فلا يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع، فكان العدول من لفظ الإنبات إلى لفظ النبات لهذه الدقيقة.

الحجة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: 19، 20]، واعلم أن شرح صفات الأرض قد تقدم فلا نعيده.

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 38 ـ 40]، فهذه الآيات دالة على أن سيرها وحركتها لحكم بالغة، وعلى أن هذه الحركات تنتهي بالآخرة إلى الانقطاع والسكون؛ فغاية كلّ متحرك سكون، ونهاية كل متكون أن لا يكون؛ فهذا الذي حكم بأن الشمس والقمر لا يدرك كل[1] واحد منهما صاحبه إنمّا يكون الآن فأمّا عند انتهائهما إلى الانقطاع فهناك يُجمعان كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ [القيامة: 9، 10]، فتأملّ الآن في ضوء هذه الكواكب ثم [اعرف] زوال الضوء عنها في العاقبة كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: 1، 2]، وتأمّل الآن حركاتها العجيبة ثم اعرف انتهاء حركاتها إلى السكون كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: 5]، فهذه جملة الكلام في صفة الشمس والقمر.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 17، 18]، واعلم أنه تعالى رجع هٰهنا إلى دلائل الأنفس وهو كالتفسير لقوله: «خلقكم أطواراً» فإنه تعالى بيّن أنه خلقهم من الأرض ثم يردهم إليها ثم يخرجهم منها مرة أخرى.

واعلم أن كيفية خلق الإنسان من التراب سيأتي شرحها في باب خلقة الإنسان إن شاء الله تعالى.

واعلم أن في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ بحثان:

الأول: في معنى هذه الآية وجهان: الأول: معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: أنبت الأب الأول لكم من الأرض وهو آدم ﷺ.

الثاني: أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلق البشر من النطفة، والنطفة متولدة من الأغذية والأغذية متولدة من النبات المتولدة من الأرض.

البحث الثاني: كان ينبغي أن يقال: أنبتكم من الأرض إنباتاً ولكن لم يقل ذلك

(1) [كل]: في الأصل: وكل.

الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لما كان يليق بحكمة الله تعالى إرسال الرسول إليهم ولا إنزال الكتب عليهم، فقال ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبيّ حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق، وعن النائم حتى يستيقظ**».

الثاني: وهو أن مناظرات فرعون مع موسى عليه السلام تدل على أنه كان في غاية الخبث والمكر والدهاء وذلك لا يليق بالمجانين.

الثالث: أن ضبط تلك الممالك وتسخير أولئك الأقوام الكثيرين ينافي الجنون.

الحجة الثانية: أن ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام، والدليل عليه: لما هرب موسى عليه السلام منه إلى مدين قال له شعيب: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: 25]، ويقال أنه ما كان بين مصر وبين مدين إلا ثمانية أيام، ومع هذا القصور في ملك الدنيا كيف يجد العاقل من نفسه أن يدعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين فثبت ما ذكرناه من فساد هذا الكلام، فإن احتجّ القائلون بذلك القول بأنه تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، وحكى عنه في سورة القصص أنه قال فرعون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]، فادعى الربوبية في الآية الأولى والإلٰهية في الثانية وذلك يدل على ما قلناه.

والجواب: أنا بينا بالدلالة القاطعة أن مثل هذا الإنسان إذا كان عاقلاً فإنه لا يجوز أن يدعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين فلا بد من تأويل لفظ الرب ولفظ الإلٰه فتقول: الرجل لعله كان دهرياً يظهر القول بإنكار الصانع، وكان يقول: الأفلاك والكواكب واجبة الوجود لذواتها وهي المؤثرة في حوادث العالم وإذا كان كذلك فلا أمر ولا نهي ولا ثواب ولا عقاب ولا رسول ولا تكليف.

ثم يجب على ملك البلدان أن يقوم بمصالح الرعية ويجب على الرعية أن تنقاد، والآمر ذلك الملك فإذا كان الملك هو الذي يقوم بمصالحهم ويهتم بتدبيرهم ويعتني بشأنهم، كان ربًا ومربياً لهم وإذا كان هو مربياً لهم ومنعمًا عليهم وجب عليهم أن يكونوا منقادين لأوامره وتكاليفه، معترفين بعبوديته وعبادته، وإذا كانوا كذلك كان هو معبوداً، والإلٰه هو المعبود وكان مراده من ادعاء الربوبية والإلٰهية هذا المعنى.

ويحتمل أيضاً أن يقال: إنه كان من الصابئة، وهم الذين يقولون: البشر عبيد الكواكب، والكواكب عبيد الإلٰه الأكبر للعالم، فيجب على البشر عبادة الكواكب،

الفصل السابع: في شرح مناظرة موسى ﷺ مع فرعون في إثبات الصانع المختار ﷻ

واعلم أنا قبل الخوض في شرح تلك المناظرة نقدم مقدمات:

المقدمة الأولى: أن كتب القصص ناطقة بأن فرعون كان يدعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين والنبات والحيوان، حتى ذكروا أنّ إبليس ذهب إلى دار فرعون وهو في المستراح فقرع الباب فقال: من أنت؟ فقال إبليس: فهل يخفى على ربّ الخلق ما وراء الباب؟

فلمّا دخل عليه إبليس قال له فرعون: من شرّنا؟ قال إبليس: أنت، قال: لِمَ؟ قال: لأني أطوف الشرق والغرب وكان منتهى أمري في آدم أنّي قلت: أنا خير منه، وأنت مع نقصك وقصرك تقول: أنا ربكم الأعلى ـ وكان فرعون قصيراً جداً حتى قيل أن قميصه كان طوله ثلاثة أشبار ـ فكيف أكون شرّا منك؟ ثم خاف إبليس أن يرجع فرعون عن طريقته بسبب هذه المناظرة فقال: وهل تعرف شرًّا مِنا؟ قال: لا. فقال إبليس: الذي يستعمل عمل الآخرة في كسب الدنيا. وأمثال هذه الحكاية في كتب التذكير كثيرة.

واعلم أنه يبعد عندي أن يقال: أنه كان يدّعي أنه خالق السمٰوات والأرض والجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان، **ويدل عليه وجهان:**

الحجة الأولى: أن فرعون وقومه إما أن يقال: إنهم كانوا عقلاء أو مجانين، فإن كانوا عقلاء امتنع منه ادعاء كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين لأن العلم بفساد ذلك ضروريّ وما كان كذلك امتنع وقوع الخلاف فيه بين العقلاء، وأما إن قلنا: إنهم كانوا مجانين فهذا باطل لوجوه:

وفرّعوا على هذه الحكاية وجوهاً كثيرة من الكلمات.

واعلم أن مثل هذا العمل لا يليق بالعقلاء ويدلّ عليه وجوه:

الحجة الأولى: أنّ فرعون وقومه لمّا كانوا من العقلاء فلا شك أن كثيراً ما يكونون على جبل يكون من أعلاه إلى أسفله فرسخ [أو][1] فرسخان ،ثم أن كلّ واحد يرى السماء من أعلى ذلك ومن أسفله على قدر واحد من غير تفاوت ألبتة، ومن المعلوم أن من وضع بناءً يكون مقدار ارتفاعه في الهواء فرسخين كالمتعذر وبتقدير أن يحصل ذلك فإنه لا يتفاوت قدر السماء في الحسّ بسبب الصعود على أعلاه، ومتى كان كذلك فالعاقل العارف بهذا الأمر كيف يليق به أن يبني الصرح حتى يصعد منه إلى السماء؟

الحجة الثانية: إنّ الذي يقال: أنّه رمى السهم إلى السماء فرجع ملطخاً بالدم فقال: قتلت إلٰه موسى، هذا أيضاً من سخف الرأي الذي لا يليق بالعقلاء؛ فكيف يليق بالعاقل أن يحاول إيصال السهم إلى السماء؟! وبتقدير أن يفعل ذلك فكيف يمكنه أن يقتل إلٰه السماء بهذا القدر من العمل؟! فلعلّ إلٰه السماء يكون مستتراً بحجاب داخل السماء لا يصل إليه السهم، تعالى الله عن هذه الأوهام الفاسدة علواً كبيراً.

أمّا هذه الكلمات فليست من أحاديث العقلاء في شيء وإنّما هو من سخف أرباب الطامات الذين غرضهم تشويش قلوب الأغيار من المستمعين، وكلام الله تعالى منزه عنه وعن أمثاله، ويصير أمثال هذه الترهات مشرعاً قوياً لمن أراد الطعن في القرآن، بل الصواب عندنا في تفسير هذه الآية أنّ هذا الكلام من تتمة قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾؛ وذلك لأن الرّجل كان دهرياً فقال لموسى عليه السلام: هذا الإلٰه الذي تدعي وجوده غير مشاهد ولا محسوس، ولا دليل أيضاً على وجوده؛ فإنّه يكفي لحدوث الحوادث الأرضية حركات الأجرام الفلكية، وإذا كان غير معلوم بالضرورة ولا بالدليل فكيف يمكن إثباته؟ فهذا هو مراده من قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ ثم قال عند هذا الكلام على سبيل السخرية: ﴿يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ ومثل هذا الكلام لا يقال على سبيل التحقيق بل على سبيل

(1) [أو] في الأصل: و.

والقائلون بهذا القول يسمون بالمفوضة وأصحاب الوسائط، وهذا القول أقرب.

والدليل عليه قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127]، فأثبتوا له آلهة وهي: إما الكواكب وإما الأصنام، وعلى هذا التقدير فقوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24] معناه: أنتم عبيدي وتحت أمري، وأنا عبد الشمس والقمر، وهما عبد الإله الأكبر وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أنّ إلٰهكم وإلٰهي هو الشمس والقمر وإله الشمس والقمر هو الإله الأكبر؛ فيرجع حاصل الكلام إلى أن فرعون كان إما من الدّهرية وإما من الصابئة، أمّا أن يقال: إنه كان يدَّعي كونه خالقاً للسمٰوات والأرضين فهذا لا يليق بأحد من العقلاء لأنّه لا يصدّق على ذلك ولا يسلّم له.

المقدمة الثانية: أنه تعالى حكى في سورة القصص أنه قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: 38]، وقال في سورة المؤمن: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: 36-37].

واعلم أن كثيراً من أهل الأثر روى أنه ـ لعنه الله ـ لمّا أمر ببناء الصرح جمع هامانُ العمال حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجرَ الخشب وضرب المسامير، فشيدوا وبنوا ذلك الصّرح حتى بلغ مبلغاً لم تبلغه [منارة][1] أحد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس وضرب بجناحيه فقطعه ثلاث قطع، قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، وقطعة وقعت في البحر وقطعة بقيت منهدمة ولم يبق أحد من عماله إلّا وقد هلك.

ويروى في هذه القصة: أن فرعون ارتقى على ذلك الصّرح ورمى نشابة إلى السماء؛ فأراد الله تعالى أن يفتنهم فردّ النشابة إليهم ملطخة بالدّم، فقال فرعون عند ذلك: قتلت إلٰه موسى، فعند ذلك بعث الله جبريل عليه السلام حتى خرّب ذلك القصر،

---

(1) [منارة] الكلمة غير واضحة في الأصل، وتشبه كلمة: بنيان أيضاً.

الماهية.

الحجة الخامسة: إنّه لما قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 49]، أجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50]، وقال أهل اللغة كلمة: "الذي" تقتضي وصف المعارف بجمل معلومة وهذا يدل على أنه كان ثبت عند فرعون أن الخلق والهداية لابد لهما من [فاعل قادر][1] مختار.

الحجة السادسة: قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ [الأعراف: 134]. . . الآية ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾ [الأعراف: 135]، فالقوم لما قالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الرجز، دل على أنهم كانوا معترفين بوجود الإله سبحانه.

الحجة السابعة: إنّا دللنا على أن فرعون كان عاقلاً وإلا لما حسن بعثة الرّسول إليه وتوجيه التكليف عليه، ولمّا كان من العقلاء [شهد][2] تغير أحواله في نفسه وبدنه وفي آبائه وأجداده بافتقاره إلى صانع حكيم مدبر عليم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25، والزمر: 38]، فهذا ما قيل في هذا الباب، وبالجملة فقد كان كافراً عظيم الكفر سواء كان كفره بسبب الجهل أو بسبب العناد.

ولمّا قد فرغنا من هذه المقدمات فلنرجع إلى المقصود فنقول: إنّ سؤال فرعون عن موسى عليه السلام في باب إثبات الصانع كان على وجهين:

أحدهما سأله عن الصانع بكلمة "ما"، والثاني أنه سأله عنه بكلمة "من".

وأما السؤال بكلمة "من" فهو في سورة طه قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩﴾ [طه: 49].

وأما السؤال بكلمة "ما" فهو قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ [الشعراء: 23]، وقبل الخوض في التفسير لا بد من بيان الفرق بين

(1) [فاعل قادر] في الأصل: قادر فاعل.
(2) [شهد] في الأصل: شهدت.

الاستبعاد وبيان أنه لا سبيل له، نظير قوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: 35]. . . .

وليس المقصود بيان أنه يجب عليه أن يفعل ذلك حتى يأتيهم بآية، بل الغرض بيان أنه لا سبيل إلى ذلك فكذا في هذه الآية، فهذا ما عندي في تفسيرها والله أعلم بمراده.

المقدمة الثانية: إن فرعون وإن كان من المنكرين لوجود الصانع باللسان، ولكن من الناس من قال: إنه كان عارفاً بقلبه بربّه، إلاّ أنه كان يظهر الإنكار تكبراً وتجبّراً وعناداً، واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: 102]، فمن نصب التاء في «علمت» كان هذا [عنده][1] خطاباً لموسى مع فرعون، وهذا يدل على أن فرعون كان عارفاً بربّه.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14]، وهذا صريح في المطلوب.

الحجة الثالثة: قوله تعالى في القصص في صفة فرعون وقومه:

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 39]، وهذا يوهم أنّهم كانوا يعترفون بالمبدأ منكرين المعاد.

الحجة الرابعة: لما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 23]، قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24]، قال فرعون للملأ من قومه وهم حوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]، يعني أنا أطلب الماهية وهو يذكر ما يدلّ على الصفة الخارجة عن الماهية؛ فإن الخالقية صفة خارجة عن الماهية، فهذا يدل على إن فرعون ما نازعه في وجود الصانع بل كان يطلب

(1) [عنده] زيادة حسنة في السياق.

السؤال الثاني: **إن فرعون طول المناظرة في سؤال "ما" ولم يطول في سؤال "من" فما الفرق؟**

الجواب: الفرق ما ذكرنا أن المطلوب في سؤال "من" معرفة الصفات وهذا مقام واضح ليس فيه شيء من الشبهات كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25 ،الزمر: 38]، فلا جرم ترك فرعون فيه التطويل، وأما المطلوب بسؤال "ما" فهو كنه الماهية وذلك مقام صعب كما قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91 ،الحج: 74، الزمر: 67]، فلهذا السبب طول المناظرة.

السؤال الثالث: **أن فرعون قال بعد هذا الكلام: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾** [طه: 51]، **وأيّ تعلق لهذا الكلام بما قبله؟**

فأجاب موسى بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52]، ثم عاد مرة أخرى إلى ذكر دلائل إثبات الصانع وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53]، فكيف وقع ذلك الكلام الأجنبي في البين؟

الجواب: أنا قد بينا الدلائل الدالة على إثبات الصانع وقدرته وعلمه وحكمته في غاية القوة والظهور ولا يمكن إلقاء شيء من الشكوك والشبهات فيه فلمّا طالبه بسؤال "من" كان جواب موسى في غاية الظهور، وعجز فرعون عن إلقاء الشكوك والشبهات فيه فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام ويشغله بكلام أجنبي عنه لئلا تظهر قوة كلامه فسأله عن تواريخ المتقدمين فعرف موسى عليه السلام أن غرضه تشويش هذا الكلام عليه فلم يلتفت إليه بل دفعه بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ يعني لا فائدة لنا في هذا السؤال وهذا الجواب، ثم رجع إلى تقرير كلامه الأول فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتأمل هٰهنا في سعي المبطلين في إخفاء الحق وانظر إلى قوة قلوب المحقين وعدم التفاتهم إلى لغوهم وجهلهم، ومن أنصف علم أن كل آية من هذا الكتاب الكريم معجز ظاهر فضلاً عن كل هذا الكتاب.

السؤال الرابع: **ما وجه دلالة قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾** [طه: 50]، **على وجود الصانع؟**

الجواب ـ والله أعلم ـ: أن هذا الدليل الذي حكاه لمحمد عليه أفضل السلام عن إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء: 78]، هو الذي ذكره

السؤالين فنقول: المطلوب بسؤال "من" التعين الحاصل بسبب الصفات العرضية تقول من هذا الرّجل؟ فنقول في جوابه: فقيه عربي، وما يجري مجرى هذه الصفة.

وأما المطلوب بسؤال "ما" فهو التعين الحاصل بسبب الماهية و[مقومات][1] الحقيقة، تقول ما هذا الشيء؟ فيكون جوابه جوهر أو جسم أو غير ذلك.

إذا عرفت هذا فنقول: عَلِمْنا بصفات الله من علمه وقدرته وعمله وإرادته متقدم على علمنا بحقيقة ذاته المخصوصة وكنه ماهيته، وذلك لأن العلم بكنه الحقيقة إمّا أن لا يحصل للبشر وإن أمكن حصوله للبشر إلا أن هذه المرتبة تكون متأخرة عن العلم بقدرته، وعلمه بلا كنه حقيقته المخصوصة متقدم بالرتبة على الصفة، إلا أن المحكى عنه في القرآن هو كيفية [التوصل][2] بالدلائل إلى معرفة الله تعالى، وإذا كان كذلك كان السؤال بما؛ فلا جرم راعى الله تعالى هذا الترتيب فذكر السؤال بمن في سورة طه وذكر السؤال بما في سورة الشعراء، وهذا سرّ عجيب، **ولنذكر البحث عن هذين الموضعين:**

الموضع الأول: قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 49] وفيه سؤالات:

الأول: **لم قال: «فمن ربكما» ولم يقل: فمن إلٰهكما؟**

الجواب: لأنه أثبت نفسه ربًا لموسى وهو قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 18]، فذكر ذلك على سبيل التعجب، كان يقول: أنا ربك فلم تدعي ربًا آخر غيري.

وهذا الكلام يشبه بكلام نمروذ لإبراهيم عليه السلام لما قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، فقال نمروذ: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، ولم يكن الإحياء الذي ذكره شبيهاً بالإحياء الذي تمسك به إبراهيم عليه السلام إلا في اللفظ، فكذا هٰهنا لما ادعى موسى عليه السلام ربوبية الله ﷻ ذكر فرعون كونه ربًا لموسى، وما كان بين الربوبية التي ذكرها موسى وبين الربوبية التي ذكرها فرعون مشابهة إلا في اللفظ.

(1) [مقومات] في الأصل: مقدمات.
(2) [التوصل] في الأصل: التوسل.

خلقة الإنسان والحيوان والنبات والشمس والقمر والسمٰوات والأرض، وفي الأبواب الآتية المشتملة على عجائب خلقه.

البحث الثاني: وهو السؤال عما ذكره الله تعالى في سورة الشعراء ففيه أسرار عجيبة.

واعلم أن هذا البحث لا يمكن إلا بتقديم مقدمة عقلية وهي أنه إذا كانت حقيقة من الحقائق مجهولة فتعريفها إمّا أن يكون بنفسها أو بما يكون داخلاً فيها ومقوماً لها، أو بما يكون خارجاً عنها ولاحقاً لها أو بما يتركب من القسمين، أعني الأمور الداخلة والأمور الخارجة، أمّا تعريفها بنفسها [فمحال][1] لأن المعرَّف معلوم قبل المعرَّف فتعريف الشيء بنفسه يقتضي تقدم الشيء على نفسه وهو محال.

وأما تعريف تلك الحقيقة بالأمور الداخلة في قوام الماهية فهذا في حق واجب الوجود محال لوجهين:

الأول: إن هذا إنما يتأتى في الحقيقة التي تكون مركبة من [الأجزاء المقومة][2] فذلك في حق واجب الوجود محال، لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيرُه، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته فما ليس [ممكناً][3] لذاته فهو غير مركب من الأجزاء وإذا لم يكن مركباً من الأجزاء فإنه يمتنع تعريفه بأجزائه.

والثاني: إن بتقدير أن يكون واجب الوجود مركباً من الأجزاء إلا أن أجزاء ماهيته غير معلومة فيمتنع تعريفه بأجزائه.

ولمّا ثبت فساد هذين القسمين ثبت أنه لا يمكن تعريف[4] واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره ثم إن تلك اللوازم والآثار قد تكون خفية وقد تكون جلية، ولا يجوز تعريف الواجب باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية وأظهر آثار الواجب

---

(1) [فمحال] في الأصل: محال.
(2) [الأجزاء المقومة] في الأصل: أجزاء القوم.
(3) [ممكناً] في الأصل: ممكن.
(4) لا يمكن تعريف: في الأصل: لا يمكن غير معلومة في تعريف.

الله تعالى لمحمد ﷺ بقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 1 - 3].

وتقرير هذا الدليل على سبيل التفصيل أن الخلق عبارة عن تركيب القوالب والأبدان، والهداية عبارة عن إبداع القوى المدركة والمحركة في تلك الأبدان، وخلق جواهر الأبدان مقدم على إبداع القوى فيها ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29]، فالتسوية للقالب ونفخ الروح عبارة عن إبداع القوى فيه؛ قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 12 ـ 14]؛ فظهر أن الخلق مقدم على الهداية فلهذا المعنى قدم الله تعالى الخلق في الذكر على الهداية.

ثم اعلم أن الشروع في شرح عجائب حكمة الله في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له، ومن أراد تصنيفاً مشتملاً على جميع تلك الوجوه فذلك التصنيف هو جميع عالم الأجسام والأرواح.

أما عالم الأجسام فخذ من أعلى سطح العرش إلى أسفل [ما][1] تحت الثرى، وخض بفكرك في كل ذرة من ذراتها فإنك تجد تلك الذرة في دلالته على كمال قدرة الله وحكمته بحراً لا ساحل له، فمن الذي يمكنه أن يعرف تمام حكمة الله في خلقه جناح بعوضة وتركيب أعضائه وتأليف أبعاضه وتأليف الأعظم والعروق والأعصاب ونفخ الروح فيه وإبداع الحواس الخمس والذهن والتمييز فيه؟ فإذا عجز عقلك عن معرفة البعوضة فأين أنت من معرفة حكمة الخالق والخلق والهداية في آخر السمٰوات والأرض وقد قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]؟

فعند هذا تشاهد عجزك وقصورك عن معرفة أقل الأشياء وعن الإحاطة بأقلّ شاهد من شواهد جلال الله ودلائل قدسه وعزته، وهذا آخر مقام الصديقين كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 27].

وإن أردت أمثلة هذا المعنى فتأمل الأبواب المتقدمة المشتملة على عجائب

(1) [ما] زيادة يقتضيها السياق.

فثبت أن قوله: «رب السمٰوات والأرض» لا يصلح جواباً عن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعند هذا أجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26]، فكأنه عدل عن تعريف تلك الحقيقة بخالقية السماء والأرض إلى تعريفه بكونه خالقاً لنا ولآبائنا؛ وذلك لأنّه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السمٰوات والأرض واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق الموجد إلى أن يظهر فساد هذا الاعتقاد بالبرهان.

أمّا [إنه][1] لا يمكن أن يعتقد في نفسه وفي آبائه وفي أجداده كونهم [واجبي][2] الوجود [لذواتهم][3] لما أن المشاهدة دلّت على أنهم وجدوا بعد العدم وعدموا بعد الوجود، وما كان [كذلك][4] [كان][5] ممكناً محدثاً فيظهر [وجوب افتقارهم][6] إلى المرجح والموجد؛ فلهذا السبب عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول إلى هذا الكلام؛ فعند هذا قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: 27]، والمعنى أني سألته عن الماهية فأجاب بذكر الصفة فلمّا أنكرت عليه هذا الجواب ذكر جواباً مثل الجواب الأول، فإن المذكور في الجوابين هو صفة الخالقية وذكر الصفة لا يصلح جواباً لسؤال الطلب للماهيّة، فهذا مجنون حيث لا يفهم السؤال بعد التكرير عليه مرة أخرى، فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 28]، فعدل إلى طريق آخر أوضح مما تقدم وذلك لأن الجواب الأوّل إشارة إلى دلائل الآفاق، والجواب الثاني إشارة إلى دلائل الأنفس، وهذا الجواب الثالث مركب من دلائل [الآفاق و][7] الأنفس معاً؛ لأن قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إشارة إلى دلائل [الآفاق وقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إشارة إلى دلائل][8] الأنفس.

فإذا تأمّلت فيه علمت أن موسى عليه السلام لم يترك في عالم المحسوسات شيئاً يدل

---

(1) [إنّه] زيادة يقتضيها السياق.

(2) [واجبي] في الأصل: واجبة.

(3) [لذواتهم] في الأصل: لذواتها.

(4) [كذلك] في الأصل: ذلك.

(5) [كان] زيادة يقتضيها السياق.

(6) [وجوب افتقارهم] في الأصل: أحد افتقاره.

(7) [الآفاق] زيادة يقتضيها السياق.

(8) [الآفاق وقوله: «وما بينهما إن كنتم تعقلون» إشارة إلى دلائل] زيادة يقتضيها السياق.

ونتائج قدرته وحكمته هو هذا العالم المحسوس، وهو السمٰوات والأرض وما بينهما.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إن فرعون لعنه الله لما سأل موسى ﷺ بسؤال «من» في قوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فوجد كلام موسى في غاية القوة، عدل عن ذلك السؤال إلى سؤال آخر وهو السؤال بـ «ما» لأن الجواب عن هذا السؤال في غاية الصعوبة ويمكن إلقاء الشبهات فيه فقال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 23]، فقال موسى ﷺ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: 24]، والمعنى أنه لمّا سأل جاء في الجواب عن السؤال الأول وهو السؤال بلفظة من وجوب انتهاء هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود لذاته، فثبت أنّ واجب الوجود مطلق منزه عن الكثرة في حقيقته إلاّ بذكر لوازمه وآثاره الظاهرة الجلية، وثبت أنّ أظهر آثار [واجب][1] الوجود لذاته هو هذا العالم المحسوس وثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته وذاته المخصوصة إلا بذكر أنه خالق لهذه السمٰوات والأرض؛ فقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ معناه: إن كنتم موقنين بحقيقة هذه المقدمات فاعلموا أنّه لا جواب عن سؤالكم إلا هذا الذّي ذكرت.

ولمّا ذكر موسى ﷺ هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: 25]، أظهر التعجب من كلام موسى ﷺ، يعني أنا طالب للجواب الدال على الماهية وهو يذكر الجواب الدال على الصفة، وهذا الجواب هو جواب السؤال بـ «من»، [وأنا أطلب][2] جواب السؤال بـ «ما» فأين أحدهما من الآخر؟

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد معرفة نفس تلك الماهية؛ لأنّا إذا قلنا في تعريف شيء: أنه الذي يلزمه اللازم الفلاني فهذا يتوجه عليه سؤال، وهو: أن تلك الحقيقة هل هي معلومة أم لا؟ فإن كانت معلومة فلا حاجة إلى تعريفها بذكر هذا اللازم وإن لم تكن معلومة فكيف يعلم أنها يلزمها هذا اللازم لأن قولنا: يلزمها ذلك اللازم تصديق والتصديق مسبوق بالتصور فلو كان المتصور مستفاداً من هذا التصديق لزم الدور.

---

(1) [واجب] في الأصل: وجوب.
(2) [وأنا أطلب] في الأصل: وأما طلب.

الفصل الثامن:
في شرح كيفية دلالة الشروق والغروب على وجود الصانع الحكيم

اعلم أنه تعالى ذكر كيفية الشروق والغروب في آيات: إحداها أنه ذكره بلفظ الوحدان فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28]، ثانيها أنه ذكر بلفظ التثنية فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمٰن: 17]، ثالثها ذكر بلفظ الجمع فقال: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:40]، ومنها أنه تعالى عبّر عن الشروق والغروب بعبارة أخرى فقال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:17-18] ، وقال في سورة الفلق: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: 1]، وهو إشارة إلى زمان الطلوع ثم قال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وهو إشارة إلى زمن الغروب. ومنها أنه تعالى خصّ أول زمن الطلوع بالذكر فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96]، وخص زمن الغروب بالذكر فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: 1]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام: 76].

وهاهنا مباحث:

البحث الأول: وهو أن الطلوع والغروب حالتان عجيبتان تدلان على الافتقار إلى الخالق المدبّر الحكيم، وذلك لأنا إذا نظرنا إلى الكواكب أول طلوعه من أفق المشرق فإنه يطلع مستنيراً متلالأً مثل النار، لا في نوره كدورة ولا غبرة ولا ظلمة، وإذا نظرنا إليه وهو في أفق الغرب تراه قد ذهب نوره ورونقه حتى أن الشمس مع عظم جرمها وكمال نورها إذا قربت من الغروب فإنه يذهب نورها، وإذا اعتبرنا هذه الأحوال علمنا أن أول طلوع الشمس يشبه ولادة الصبي ولذلك فإن أهل النجوم جعلوا الدرجة الطالعة من الفلك دليل الحياة قالوا: كما إن الولد ظهر في هذا العالم بعد أن كان غير ظاهر كذلك ظهرت هذه الدرجة في تلك الساعة بعد أن كانت غير ظاهرة،

على الله تعالى إلّا وقد ذكره لأن دلالة عالم المحسوسات على الله تعالى إما من الآفاق أو من الأنفس أو منهما معاً.

واعلم أن موسى عليه السلام أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار، وبالمغرب غروب الشمس وظهور الليل، والأمر ظاهر في أن هذا التدبير المحكم العجيب لا يحصل إلّا بتدبير مدبّر قاهر حكيم جل جلاله، وهذا بعينه طريقة إبراهيم عليه السلام مع نمروذ فإنه قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، وهو الذي قاله موسى في قوله: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 26].

ثم لمّا طالب نمروذ بتمام الدلالة قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 258]، وهو عين قول موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ [الشعراء: 28].

واعلم أن موسى عليه السلام إنما قال هٰهنا: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ لأنه لما ثبت بالبرهان القاهر أنه لا يمكن تعريف الحقيقة بنفسها، ولا يمكن تعريف حقيقة واجب الوجود بأجزائها، ولما ثبت أنه فرد صمد منزه عن التركب ولا يمكن أيضاً تعريفه بما يتركب عن الداخل والخارج لأنه يقتضي كون تلك الماهية متركبة.

ولما بطلت هذه الأقسام الثلاثة لم يبق طريق إلى تعريف تلك الحقيقة إلا بلوازمها وآثارها الظاهرة، فكأنه عليه السلام قال: إن كنتَ من العقلاء وتفهم الكلام وتميز بين الحق والباطل فاعلم أنه لا سبيل إلى تعريف حقيقته إلا بهذا الطريق الذي ذكرت، وهذا آخر هذه المناظرة وهي في غاية الشرف والجلالة.

واعلم أن من فوائد هذه المناظرة أنها تدل على أنه تعالى ليس بجسم ولا بمتحيز ولا بشكل، لأنه لو كان كذلك لكان الجواب الكاشف عن الماهية ممكناً فحينئذ يكون جواب موسى عليه السلام باطلاً وسؤال فرعون حقاً.

ولما كان القول بذلك باطلاً علمنا أنه منزه عن الجسمية والجوهرية والحيز، وبالله التوفيق.

ولما كان ختم هذه المناظرة على التمسك بشروق الكواكب وغروبها فلنذكر هٰهنا كيفية هذه الدلالة.

واعلم أنه متى تأملت في جميع الأجرام العلوية والسفلية والإبداعية والعنصرية ظهر لكل عاقل أنها عند الشروق والتصاعد آخذة في الكمال بعد أن كانت ناقصة، وعند الانحدار من وسط السماء إلى نهاية الغروب أخذت في النقصان بعد أن كانت كاملة، وتوارد هذه النقصانات بعد الكمالات والكمالات بعد النقصانات على سبيل الدوام والاستمرار يدل على أنه لا كمالاتها لها بذواتها من أنفسها بل هي تحت تسخير مسخّر وتدبير مدبّر قاهر يتصرف فيها بقدرته ويجريها على حسب إرادته ومشيئته له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

البحث الثاني: في الشروق والغروب وهو أن حال ما يأخذ ذلك الكوكب في الغروب ترى كوكباً آخر في مقابلته وترى كوكباً آخر فيطلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكباً آخر قد وصل إلى وسط السماء، وكوكباً آخر قد وقع في الربع الغربي وقرب من الغروب، فإذا اعتبرت هذه الأحوال تراها متشابهة لأحوال الخلق في هذا العالم فإنسان يموت وإنسان يولد وثالث في تلك الساعة يكون طفلاً ورابع شاب وخامس كهل وسادس شيخ، وكما أن كواكب السماء مختلفة الأحوال فبعضها سعد وبعضها نحس، وبعضها قويّ النور وبعضها أضعف وبعضها قريب من وسط الفلك وبعضها واقع في أطراف الفلك، وبعضها في الشرق وبعضها في الوبال والهبوط والخلو عن الحظوظ، فكذلك نرى أشخاص هذا العالم بعضهم في السعادة وبعضهم في النحوسة، وبعضهم في الغنى وبعضهم في الفقر، وكذا القول في الدولة والعلو والذل والسقوط، وكما أن مدبّر العالم العلوي دبَّر نظام تلك الكواكب مع اختلافها في الطلوع والغروب والنورانية والضعف من غير أن يختلّ شيء من أحوالها فكذلك تدبَّر أحوال أشخاص العالم السفلي مع اختلافهم في السعادة والشقاوة والغنى والفقر، وعند هذا تلوح لك شمة من أسرار قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: 29][1]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: 5].

وتمام الكلام في هذه المباحث العميقة ما إليه الإشارة في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:

(1) في الأصل: يوجد بعده وقوله «لا يشغله شأن عن شأن».

فلمّا حصلت المشابهة بينهما من هذا الوجه جعل تلك الدرجة دليلاً على حياته. ثم إن الكوكب بعد طلوعه يزداد كل لحظة فصاعداً قوة[1] ونوراً واستعلاء وكمالاً ولا يزال كذلك إلى أن يقترب من وسط السماء، وإلى هذا الوقت يشبه حاله حال الآدمي في زمان النشوء والنماء، ثم إذا قربت الشمس في وسط السماء فهنالك يبقى زماناً على حالة واحدة لا يشاهد فيها أثر الارتفاع ولا أثر الانخفاض، وهذه الحالة من الشمس وسائر الكواكب تشبه حال الإنسان في زمن الشباب ومدة الوقوف وهي المدة التي لا تظهر فيها زيادة ولا نقصان، ثم إن الشمس والكواكب بعد ذلك يقع في الربع الغربي من الفلك ولا تزال يأخذ به الانحطاط قليلاً إلا أنه لا يظهر بسبب ذلك الانحطاط نقصان في نورها وقوتها وحرارتها، وهذه الحالة من الكوكب تشبه الإنسان في سن الكهولة، وآخر هذا الوقت هو أول وقت صلاة العصر ثم من بعد صلاة العصر تأخذ قوة الشمس في النقصان الظاهر والانحطاط البين فينقص نوره ويقل ضوؤه ويعظم امتداد ظله ولا يزال تتزايد هذه النقصانات إلى أن يصل الكوكب إلى أفق الغرب وهذه الحالة في الشمس والكوكب تشبه حال الإنسان في سنّ الشيخوخة، وأما غروبها في أفق المغرب فلا يكون إلا بعد ذهاب نورها واصفرار لونها ونقصان قوتها وارتعاش ذاتها وسقوطها في النظر على وجه الأرض، ثم أنها تغرب فتصير فكأنها فنيت وبطلت وهذ الحالة تشبه حال الإنسان عند الموت فإنه أولاً يذهب نور وجهه ويبطل حسن صورته ويصفر لونه وتضعف قواه ويأخذ بالارتعاش[2] والضعف ثم يسقط على وجه الفراش بحيث إنه لا يمكنه أن يرفع رأسه ثم يموت بعد ذلك، فهذه الأحوال الأربعة للشمس والقمر وسائر الكواكب تشبه الأحوال الأربعة لكل حيوان ونبات نعني من النموّ وسنّ الوقوف وسنّ الكهولة وسنّ الشيخوخة ثم يحصل الموت بعد ذلك، ثم إن الشمس إذا غربت بقيت آثارها في أفق المغرب وهو الشفق، ثم بعد ذلك يزول ذلك الشفق ولا يبقى في هذا العالم من آثار الشمس شيء ألبتة. وهذا يشبه أن الإنسان إذا مات بقي بعد الموت ذكره وآثاره أياماً قليلة ثم إنه يبطل ذلك الذكر وتلك الآثار ولا يبقى في الدنيا منه أثر ولا خبر، فهذه الأحوال الخمسة للإنسان. فلهذا السبب أوجب الشارع الحكيم الصلوات الخمس في هذه الأوقات الخمسة وما أحسن هذا الترتيب وما أشدّ مطابقة الحكمة الشرعيّة النبوية على الحكمة العرشية الروحانية.

---

(1) في الأصل: وقوة.
(2) في الأصل: الارتعاش.

وقوع العقل[1] في هذا البحر الذي لا ساحل له ولا قعر[2]. وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ إشارة إلى منع العقل من طلب هذه التفاصيل فيجب أن نقتصر على الثناء المجمل والتعظيم المبجّل، وقولنا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إشارة إلى الاشتغال بالدعاء والتضرع عقيب حصول هذه الحالة.

البحث الثالث: في الاستدلال بكيفية الطلوع والغروب على وجود الخالق المدبّر.

اعلم أن التعبير عن المشرق والمغرب بلفظ الواحد إشارة إلى مشرق الشمس ومغربها، وأما قوله جلّ وعزّ: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ فالمراد طلوع الشمس والقمر وغروبهما. وأما قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ ففيه قولان:

الأول: المراد منه طلوع الشمس والقمر والنجوم.

والثاني: المراد منه مطالع الشمس ومغاربها وذلك لأن الشمس من أول اليوم الذي تكون في النقطة الأولى من السرطان وهو اليوم الأول من الصيف، إلى أن تحصل في النقطة الأولى من الجدي وهو اليوم الأول من الشتاء، ومجموعه ستة أشهر تطلع في كل يوم من مطلع آخر وذلك مئة وثمانون مطلعاً ثم إنها من أول الشتاء إلى أول الصيف وهو أيضاً ستة أشهر ترجع فتطلع من تلك المطالع بأعيانها، ولما كان للشمس مئة وثمانون مشرقاً ومئة وثمانون مغرباً كان المراد من قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ هذه المشارق وهذه المغارب.

وإذا عرفت هذا فنقول: الاستدلال بأحوال المشارق والمغارب على الخالق المدبر الحكيم في غاية الظهور وذلك لأن هذه الأجسام الفلكية والأجرام الكوكبية لا يمكن أن تكون حركاتها لنفس طبائعها، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أن الأجسام متساوية في الجسمية وتمام الماهية، وحكم الأشياء المتساوية في الذات وتمام الماهية التساوي في اللوازم والأحكام، وإذا كان كذلك فكلّ ما صحّ على واحد منها صح على الباقي، وإذا كان كذلك كان اختصاص كل فلك

---

(1) في الأصل: الفعل.
(2) ولا قعر، لا يوجد في (ب).

54، 55]، فقوله[1] تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا من كيفية التسخير والتدبير وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فيه سرٌّ عجيب وحكمة بالغة[2] وهي أنك إذا شاهدت في أجزاء السمٰوات والكواكب والأرض آثار التسخير والتدبير يقع في قلبك أن تعرف وجه الحكمة في كل واحد منها على سبيل التفصيل فحينئذٍ يقال لك: قِف في درجتك ولا تتعدّ طورك، ولا تلق عقلك في بحرٍ لا ساحل له ولا تتكلّف[3] صعود جبل لا نهاية له، ولا تطمع في الوصول إلى ما هو فوق فهمك ووهمك وعقلك وروحك فإنك لست من رجال هذه الأنوار، ولكن اعترف لنفسك بالعجز والذلة والقصور، واعترف لخالق[4] هذه الموجودات على سبيل الإجمال بغاية الجلال ونهاية الكبرياء وقل: ألا له الخلق والأمر والحكمة والعز[5] والعلو والسلطان والكبرياء تبارك الله رب العالمين ومدبر الأجساد والأرواح والعلويات والسفليات أجمع، ثم إذا تركت الخوض في ذلك التفصيل واعترفت بهذا التعظيم على سبيل الإجمال، فعند هذه الحالة[6] ارجع إلى نفسك واعتبر حال عجزك وقصورك واشتغل بالدعاء والتضرع فها هنا غاية درجات الصديقين ونهاية خطرات أفكار العارفين وليس وراءه للعقول مسرى ولا مطار ولا للأفكار مجالٍ ولا مخطىء، وإليه الإشارة بقوله تعالى في آخر هذه الآية: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فما أجمل هذه التلويحات التي اشتمل عليها القرآن العظيم، وما أشرف هذه الرموز الحاصلة في مطاوي آيات الذكر الحكيم، فوالله الذي لا إلٰه إلا هو إنه لا يخطر ببال هذا المسكين الكاتب لهذا الكتاب ولا يدور في خياله طريق أحسن ولا أنفع ولا أجذب للأرواح البشرية والعقول الإنسانية إلى حضرة القدس الأحد الصمد من هذه البيانات الإلٰهيّة والأسرار العلوية، ونظير هذه الآية في قوله تعالى في آخر آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 190 ـ 191]، فقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى

---

(1) في (أ) قوله.
(2) في (أ) عالية.
(3) في (ب) ولا تكلف نفسك.
(4) في (ب) بخالق هذه الأنوار.
(5) في (ب) القوة.
(6) في (أ) الحال.

إذا عرفت هذا فنقول: المعتبرون من المفسّرين ذكروا في الخنوس والكنوس وجهين:

الأول: أن ذلك إشارة إلى رجوع الكواكب واستقامتها فرجوعها [هو الخنوس واستقامتها عكس الرجوع][1] واختفاؤها تحت ضوء الشمس، ولا شكّ أن هذه حالة عجيبة وفيها أسرار عجيبة باهرة فلهذا [المعنى][2] أقسم الله بها.

الوجه الثاني: ما روي عن علي ﷺ واختاره مقاتِل وقتادة: أنها هي جميع الكواكب وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار، وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل. وعندي فيه قول ثالث: وهو أن هذه الكواكب السبعة السيّارة تختلف مطالعها ومغاربها على ما فسّرناه وشرحناه، ولا شكَّ أن لها مطلعاً واحداً ومغرباً واحداً هما أقرب المشارق والمغارب إلى سمت رؤوسنا، ثم أنها تأخذ في التباعد من ذلك المطلع قليلاً قليلاً إلى سائر المطالع حتى تصل إلى غاية بعدها عن سمت رؤوسنا، فخنوسها عبارة عن تباعدها عن هذا المطلع الذي هو أقرب المطالع إلى الرأس، وكنوسها عبارة عن عودتها إليه، فعلى التفسير الأول يكون القسم واقعاً بالخمسة المتميزة، وعلى القول الذي ذكره أمير المؤمنين علي ﷺ يكون القسم واقعاً بجميع الكواكب سواء كانت من السيارات أو من الثوابت.

اعلم أنه ﷻ لما أقسم بهذا دل ذلك على اختصاصها بأسرار عجيبة وأحوال شريفة لا تصل العقول البشرية إليها على ما حققنا الكلام فيه في تفسير قوله تعالى في آخر سورة آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وممّا نزيده[3] هاهنا أنه تعالى ابتدأ من أعمال الصديقين بالذكر فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ ثم أنهم يصلون من الذكر إلى الفكر وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

وهاهنا إشكال وهو أنه تعالى قال في الذاكرين: ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ فجعل الذكر المعتبر اللائق بهذا المقام ذكر الله لا ذكر غيره، ثم جعل نهاية هذا الذكر الفكر ويجب

---

(1) زيادة من (ب).
(2) زيادة من (ب).
(3) في (أ) يؤيده.

وكوكب بطبعه وحيزه وشكله وحركته لا بد أن يكون لأجل القادر المختار.

الحجة الثانية: إن الشيء الذي يكون مهروباً عنه بحكم الطبيعة يمتنع أن يكون مطلوباً بمقتضى نفس تلك الطبيعة، وهاهنا الأجرام الفلكية متحركة بالاستدارة، فإن كل نقطة يفرض كونها مهروباً عنها فإن الهرب عنها هو نفس طلبها ونفس التوجه إليها فثبت أن هذه الحركات ليست بالطبيعة.

الحجة الثالثة: لو كانت هذه الحركات طبيعية لوجب أن يكون شروقها وغروبها على نهج واحد وطريقة واحدة، لأن ما يكون من توابع الطبيعة وجب بقاؤها وعدم تغييرها، لكنّا بيّنا أن الشمس تطلع كل يوم من مشرق آخر وتغرب من مغرب آخر، فثبت بهذه الدلائل أن حركات هذه الأفلاك ليست لها من ذواتها وطبائعها فلا بد أن تكون بتدبير مدبر وتقدير مقدّر وقهر قاهر يحركها حسب مشيئته ومقتضى إرادته فتبارك الله رب العالمين.

فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يقال: أن حركاتها بسبب أنها أحياء مختارة؟

قلنا: هَب أن الأمر كذلك إلا أن على هذا التقدير يكون كل واحد منها مخصوصاً باختيار خاص وإرادة خاصة فيعود طلب العلّة لذلك الاختصاص، ولا تنقطع الطلبات ولا تزول الحاجات إلا عند الانتهاء إلى القضاء الإلٰهيّ والتقدير الأزلي السرمدي سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

ومن الآيات الواردة في [هذا][1] في الجنس من الكلام قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: 15-18]، واعلم أن الخنس جمع خانس، والخنوس الانقباض والاستخفاء، يقال: خنس من بين القوم، وفي الحديث: «إن الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خنس ـ أي انقبض منه ـ ولذلك سمي الخنّاس». والكنس جمع كانس وكانسة يقال: كنس إذا دخل الكناس وهو مقرّ الوحش يقال: كنست الظباء في كنسها وتكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، وتشبه الظّبي إذا دخل الكناس.

(1) زيادة من (ب).

«سبيل»(1) المجاز.

الثاني: أنه شبّه الليل المظلم بالمحزون المكروب الذي جلس بحيث لا يتحرك واجتمع الحزن في قلبه، فإذا تنفّس وجد راحة، فهاهنا لمّا طلع الصبح فكأنه تخلّص من ذلك الحزن فعبّر لذلك عنه بالتنفس.

واعلم أن في طلوع الشمس وغروبها أحوالاً عجيبة:

الأولى: إن طلوع الشمس شبيه بتكون العالم وتخليقه في أول وقت «كن»، وغروبها شبيه بتخريب العالم عند قيام القيامة وتقدير هذا التشبيه: إن الظلمة صفة عدميّة فهي شديدة المناسبة للعدم الأصلي المستمر من الأزل إلى وقت حدوث العالم، فكما أن في الليل تكون الظلمة مستقرة في جميع أقطار السمٰوات وأكناف الأرض، فكذلك كانت ظلمة العدم مستقرة مستمرة من الأزل إلى الأبد، فما كان هناك لوح ولا قلم ولا ظلمة ولا أنوار ولا سماء ولا أرض ولا طول ولا عرض ولا ذات ولا صفات، بل كان الله ولم يكن معه شيء، وكما أن في آخر الليل ينفلق بحر الظلمات بنهر من النور ويكون ذلك النور محفوظاً بالظلمات التي لا حدّ لها فكذلك ظهر في آخر الأزل نهر من نور إيجاد الله وتكوينه، وهذه المخلوقات متناهية والممكنات الباقية على العدم غير متناهية، والمتناهي بالنسبة إلى غير المتناهي قليل من كثير فهذه(2) الحالة شبيهة بنور الصبح في بحار ظلمات الليل.

إذا عرفت هذا ظهر أن طلوع النور مسبوق بتراكم ظلمات العدم وظهر أيضاً أن الأنوار الساطعة على الممكنات من الوجود أقل من الممكنات الباقية في ظلمات العدم، لا جرم قدّم الله تعالى ذكر الظلمات على النور وعبّر عن الظلمات بلفظ الجمع وعن النور بلفظ الفرد فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، فتأمّل في هذه الأسرار فهذا حال تشبيه طلوع الصبح بطلوع صبح الإيجاد والتكوين من مشرق إحسان الله تعالى وفضله وعنايته.

الحالة الثانية: إن غروب الشمس في آخر النهار شديد الشبه بإماتة جميع

---

(1) زيادة من(ب).
(2) في (أ) هذه.

أن يكون هذا الفكر هو الفكر في الله لكنه لم يقل ذلك، بل جعل الفكر اللائق بهذا المقام الفكر في خلق السمٰوات والأرض وهذا اشتغال بغير الله، فكيف يعقل أن يجعل ذكر الله أولاً ومبدأ والفكر في غير الله غاية وكمالاً؟ والجواب أنا قد بيّنا في مناظرة موسى عليه السلام مع فرعون إن الفكر في الله ممتنع وأنه لا يمكن التوصل إلى جلال الله تعالى وعظمته إلا بالنظر في مخلوقاته ومبدعاته، وهذا متأيّد بقوله ﷺ: «**تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق**» ولما كان أشرف مخلوقاته المحسوسة هو عجائب السمٰوات والأرض كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ لا جرم جعل الغاية القصوى لسير أفكار المقربين والنهاية العظمى لغاية أنظارهم أن يتفكروا في عجائب خلق السمٰوات والأرض، ثم أنّا قد بينا فيما قبل أن الخاطر إذا وقع في هذا الموضوع كان الأولى ردعه عنها ومنعه عن الخوض فيها والاقتصار على الثناء المبهم والتعظيم المجمل كما في قوله في سورة الأعراف: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ثم قال بعده: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا هو الثناء ثم قال بعده: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وهذا هو الدعاء، وقال في آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال بعده: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ وهذا هو الثناء ثم قال: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الدعاء، فهذه الدّرة التي وجدناها في قعر بحر القرآن هي أشرف المطالب وأعظم الرغائب، وما ذاك إلا بتوفيقه وهدايته وما هو إلاّ من فضل ربّي ليبلوني أأشكر أم أكفر يا رب [السمٰوات والأرض وإلٰه العالمين] زدنا من فضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ فقال أهل اللغة:

عسعس من الأضداد، يقال: عسعس الليل إذا أدبر، وعسعس إذا أقبل، ثم منهم من قال: المراد هاهنا أقبل الليل لأن على هذا التقدير يكون القسم واقعاً بإقبال الليل وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وبإدباره ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ ومنهم من يقول: المراد بقوله عسعس: أدبر، ثم قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إشارة إلى تكامل ضوء الصبح ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدّثر: 33-34].

أما قوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: إذا أسفر، وهو كقوله: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ وفي كيفية التشبيه قولان:

أحدهما: أنه إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على

مسخّرون تحت سرادقات العزة وعتبات الإلٰهيّة.

وأما معرفة المعاد فهو قياس عالم الأرواح على عالم الأجسام فكما أن كواكب السماء مختلفة بالعظم والصغر والكبر والكمال والضعف، فكان الشمس كالسلطان لها بأسرها وهي مع وحدتها مستولية على جميع الكواكب والكل مقهورون تحت صولته مختفون تحت شروق نوره كذلك يجب أن يكون في عالم الأرواح شيء يكون كالسلطان لجميع الأرواح ويكون الكل تحت رايته ومقهورون تحت جلالته وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: 38]، وهو المسمّى بيمين رب العزة في قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67]، ثم قد شهدت الفطرة السليمة أن الأرواح كالمبدأ والأجسام كالمظهر وكل واحد من الأرواح والأجسام مفتقر بعضها إلى البعض ومحتاج بعضها إلى البعض، واحتياج بعضها إلى البعض من أصدق الشواهد وأظهر الدلائل على افتقار الأرواح والأجساد والأنوار والظلمات بسبب زوجيتها إلى الفرد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وإليه الإشارة بقوله جلّ وعز: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: 49]، فثبت بما ذكرنا أن التأمل[1] في كيفية طلوع الشمس وغروبها مفتاح عظيم لانفتاح أنوار عالم القدس وتجلّي أضواء سرادقات الجلال، وبالله التوفيق.

---

(1) في (أ) التأويل.

الإحياء وقت قيام القيامة وبقاء الخالق ونفاد الخلق الخامدين ليس بهم حسّ ولا حركة والليل يشبه بقاء الخلق فيما بين النفختين على العدم المحض ثم انتباه الخلق في وقت الصبح يشبه قيام الخلق عند البعث والنشر.

وتقرير هذا الكلام: هو أن النفخ في الصور يحصل ثلاث مرّات: نفخة الفزع قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: 87]، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة الإحياء قال تعالى: في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزمر: 68]، فهذه الأحوال الثلاثة بعينها موجودة في الشمس وذلك لأن غروبها في الغرب يشبه نفخة الفزع، فإن الشمس إذا غربت في مغربها استولى الفزع والخوف على الحيوانات وتوجه كل منها إلى مأواه[1] ومسكنه، ثم إذا غرب الشفق بالكلية فذلك يشبه نفخة الصعق، وهناك يسكن كل حيوان وينام ويصير الكل خامداً جامداً كأنه صار ميتاً أو معدوماً إلا من شاء الله من الحيوانات التي لا تنام، وهذا الاستثناء المذكور في الآية حاصل هاهنا أيضاً، وأما طلوع الصبح فهو يشبه نفخة البعث والإحياء وذلك لأن الشمس إذا قربت من مشرقها فكأنها ينفخ[2] روح النور في أموات عالم الظلمات وهكذا أيضاً حال النفخة الثالثة لإسرافيل عليه السلام فإنه يصل من قوة تلك النفخة أثر الحياة إلى جميع الأموات.

واعلم أن مشاهدة هذه الأحوال الثلاثة في يوم البعث وزمن القيامة وذلك لأن الأرواح أعظم وأقوى من الأجسام، فإذاً لم يبعد أن يكون في عالم الأجسام من مخلوقات الله تعالى جسم بهذه التأثيرات الثلاثة، فأيّ بُعدٍ في أن يكون في عالم الأرواح من مخلوقات الله تعالى ما[3] يكون له هذه التأثيرات الثلاثة؟ وعند هذه التأثيرات الثلاثة وعند هذه الاعتبارات يظهر صدق أقاويل الأنبياء صلوات الله عليهم وسلّم فيما أخبروا عنه من معرفة المبدأ ومعرفة المعاد أما معرفة المبدأ[4] فهو أن عالم الأجسام مع فلكها وهو الشمس، وعالم الأرواح مع ملكها وهو إسرافيل كلهم

---

(1) في (أ) ما وراء.
(2) في الأصل: ينفخ فيها.
(3) في (أ) ملك.
(4) في (أ) المعاد وهو من الناسخ.

لأن ذلك مشعر بالمكان ثم وقع الانتقال منها إلى ذكر الليل والنهار فإنه مشعر بالزمان، ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: 12]، فهذا إشارة إلى المكان وكل ما في المكان ملكه ثم قال: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: 13]، وهو إشارة إلى الزمان وكل ما في الزمان ملكه، فالمكان والمكانيّات والزمان والزمانيات شاهدة معترفة دالة على كونه ﷻ منزَّهاً عن علائق المكان ولَوَاحق الزمان ومناسبات الحدوث والإمكان ومشابهات الأفلاك والأركان، ومن نظائره أيضاً قوله تعالى في صفة السماء: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: 28] وهو إشارة إلى المكان ثم قال: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: 29]، وهو إشارة إلى الزمان.

النوع الثاني: من لطائف هذه الآية أنه تعالى جعل هذه الدلائل في سورة البقرة آيات لقوم يعقلون، وجعلها في سورة آل عمران آيات لأولي الألباب، وفي سورة الأعراف انتقل من الغيبة إلى الحضور فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ والسبب في هذا الترتيب على ما يخطر بالبال ـ والله أعلم بأسرار كلامه ـ إن درجات[1] المحققين ثلاثة:

الأولى: الذين يستدلون بأحوال السمٰوات والأرض على وجود الصانع القادر المختار وإليه الإشارة في سورة البقرة بقوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ثانيها: الذين صاروا مكاشفين بكيفية دلائل كل واحد من أجزاء الأرضين والسمٰوات على وجود الصانع وحكمته وعدله وعلمه، وذلك لأنا بيّنا أن لكل واحد من أجزاء الأرضين والسمٰوات دلالة لا نهاية لها على كمال قدرة الله وحكمته، فإذا صار الإنسان مكاشفاً بأحوال تلك الدلالات حتى يصير عقله غرقاً في بحار تلك الدلائل، فهذا الإنسان قد ترقى من ظاهر عالم العقل إلى أوج عالم الأسرار والألباب وإليه الإشارة في سورة آل عمران بقوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ثالثها: أن الإنسان في المقام الأول والثاني كان مشغولاً بمطالعة الدلائل وبقدر اشتغال العقل بمطالعة الدلائل يحصل الحرمان عن الاستغراق في نور جلال الله، فإذا كملت درجة الإنسان في مقام الاستدلال نودي من حضرة الصمدية وسرادقات الجلال

(1) في (أ) جهات.

الفصل التاسع:
في كيفية الاستدلال باختلاف أحوال الليل[1] والنهار على وجود الصانع الحكيم

اعلم أن الآيات الدالة على هذا النوع من البحث نوعان:

أحدهما: الآيات الدالة على تعظيم أحوال الليل والنهار.

الثاني: الآيات المشتملة على حكمة خلق الليل والنهار.

أما النوع الأول فهو كثير في القرآن:

فأولها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال في آخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والمقصود من هذا الكلام في السورتين واحد وقال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾.

واعلم أن في نظم هذه الآيات الثلاث أسراراً عجيبة:

فالأول: أنه تعالى ابتدأ في هذه الآيات الثلاث بذكر السمٰوات والأرض ثم ذكر عقيبها أحوال الليل والنهار، والسبب في هذا الترتيب أن بتخليق السطح المقعّر من الفلك الأعظم ظهر المكان، وبتحريك السطح المحدّب منه ظهر الزمان، والمكان أقرب إلينا من الزمان. وقد عرفت أن التعليم المفيد هو الذي يبتدىء فيه من الأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى ولما كان المقصود من هذه الآيات ذكر الدلائل الدالة على جلال الله تعالى وقدسه لا جرم وقع الابتداء فيها بذكر السمٰوات والأرض

(1) في (أ) بأحوال اختلاف الليل.

وكل شيء يجيء بعد شيء آخر فهو خلفه وبهذا فسّر قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان: 62].

والثاني: المراد اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر والزيادة والنقصان، وعندي فيه وجه ثالث وهو أن الليل والنهار كما يختلفان بالطول والقصر في الأزمنة فهما يختلفان أيضاً في الأمكنة، فإن الأصح أن الأرض كرة وإذا كان كذلك فهذه الساعة التي أشير إليها هي هاهنا وقت الصبح وفي موضع آخر وقت طلوع الشمس، وفي وقت آخر وقت الظهر، وفي وقت آخر وقت العصر وفي موضع وقت المغرب، وفي موضع آخر نصف الليل، وعلى هذا القياس جميع الأحوال المختلفة في الليل والنهار حاصل في هذه الساعة الواحدة بحسب كل واحد من بقاع الأرض. هذا إذا اعتبرنا البلاد المختلفة في الطول، أما البلاد المختلفة في العرض فكل بلد يكون عرضه الشمالي أكثر كانت الأيام الصيفية أطول ولياليه الصيفية أقصر وأيامه ولياليه الشتوية بالضد، فهذه هي الأحوال المختلفة في الأيام والليالي بحسب اختلاف أطوال البلدان وعروضها[1] وهذا أيضاً هو المراد من تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل.

الوجه الثاني: من وجوه دلالة الليل والنهار على وجود الصانع الحكيم قوله تعالى في القصص: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 70]، وأما كلمة هو [الله] فسيجيء تفسيرها في باب أسماء الله تعالى الحسنى، وأما كلمة لا إلٰه إلاّ هو فقد تقدّم تفسيرها، ثم أنه أردف ذلك بصفات ثلاثة:

الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ففيه أبحاث ثلاثة:

أحدها: بيان حقيقة الحمد والفرق بينه وبين المدح والشكر.

ثانيها: أن قوله: له الحمد دالّ على أن غيره لا يستحق الحمد.

ثالثها: إن أهل الآخرة مشتغلون بالحمد كما في هذه الآية وكما في

---

(1) في (أ) أطول البلدان وعرضها.

والكمال والكبرياء ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾ [طه: 12]، فإن كل دليل فهو مركب من مقدمتين لا محالة لا يزيد ولا ينقص، وهاتان المقدمتان كالنعلين في قدمي العقل بهما يتمكن العقل من السير من الخلق إلى الخالق ومن الممكن إلى الواجب فإذا وصل إلى بيداء الصمدية وبساط جلال الإلٰهيّة يؤمر بخلع هذين النعلين، فإذا قال العبد: ولِمَ أخلعهما؟ قيل له: لأنك بالوادي المقدس طوى، فمن وصل إلى الوحدة كيف يلتفت إلى الكثرة؟ ومن وجد المدلول كيف يبقى مشغولاً بالدليل؟ وحينئذ يرتقي من مقام الغيبة إلى الحضور والشهود فيصير مخاطباً من الحق بالحق فيسمع من غير واسطة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وسمعت بعض المحققين يقول: إن أُولى الدرجات أن يقول العبد: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده وفي وسط السير يقول: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه، وفي آخر الدرجة يقول: ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله، وذلك لأنه في المقام الأول مستدل بغير الله على الله، وفي المقام الثاني مستدل بالله على الله، وفي المقام الآخر مستدل بالله على غير الله وهذه المراتب الثلاث مطابقة لهذه الآيات الثلاث.

واعلم أن دلالة الليل والنهار على وجود الصانع الحكيم من وجوه:

الأول: كون الليل والنهار مختلفين كما في هذه الآيات وقال في سورة يونس: ﴿إِنَّ فِى ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 6].

وقال في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: 61]، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: 62]، وقال في الزمر: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: 5]، قال المفسرون: هذا الاختلاف يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه افتعال من قولهم: خلفه يخلفه إذا ذهب الأول وجاء الثاني، فاختلاف الليل والنهار عبارة عن تعاقبهما في المجيء والذهاب ومن فلان يختلف إلى فلان إذا كان ذاهباً إليه ويجيء من عنده فذهابه يخلف مجيئه ومجيئه [يخلف][1] ذهابه

---

(1) لا يوجد في (أ).

ذلك لا يتهيأ إلا بالسعي والجد في التحصيل، وذلك لا يمكن إلا في ضوء النهار، وأما أنه لا بد من السكون فلأن الإنسان إذا سعى وتحرك تعب فاحتاج إلى النوم والراحة من التعب ليزول ذلك الإعياء والتعب.

الوجه الثاني: في كيفية الاستدلال أن بتقدير أن يسكن الله الشمس في موضع معين في الفلك ويوقف الفلك عن الحركة فحينئذ يدوم النهار في ذلك الجانب من الأرض وتعظم السخونة فيه، ويدوم الليل في الجانب الآخر من الأرض وتعظم البرودة فيه وحينئذ يخرج كل واحد من جوانب الأرض عن صلاحية العمارة وسكنى الحيوانات.

الوجه الثالث: أن بتقدير تعاقب الليل والنهار فلو كان الليل أطول مما هو الآن أو كان النهار أطول مما هو الآن لبطلت المنافع أيضاً، ألا ترى أن تحت القطبين يكون نصف السنة نهاراً ونصفها ليلاً فلا جرم هناك لا يصلح لتولد الحيوانات ولا لتولد النبات، فظهر أن المنافع لا تحصل إلا بتعاقب الليل والنهار ومع التعاقب لا بد أن لا يكون الليل في غاية الطول وأن لا يكون النهار في غاية الطول، ومتى حصل التعاقب بين الليل والنهار وكان لكل واحد منهما مدة معتدلة ومقدار معتدل حصلت المنافع وصلحت الأمكنة والأزمنة لسكنى الحيوانات.

الوجه الرابع: أن كل واحد من الليل والنهار يصير بمجيء الآخر مغلوباً، فلولا قهر قاهر وتدبير مدبّر لامتنع أن يصير الغالب مغلوباً والمغلوب غالباً وهذا يدل على أن لهما محدثاً واحداً، وفيه أيضاً دلالة على البعث والنشور لأن الليل يأتي على النهار فيتغلب حتى لا يبقى من أثر النهار شيء ثم النهار يأتي على الليل فينقله حتى لا يبقى من أثر الليل شيء، ثم إنها بقيا على هذا التعاقب دائمًا، فلما قدر المدبر سبحانه على إعادة الذي ذهب وبطل دل ذلك على أنه قادر على إعادة من أماته وأفناه وإن لم يبق له أثر.

الوجه الخامس: قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ دليل على فساد قول «الثنوية» أن فاعل الخير غير فاعل الشرّ لأن الأمر لو كان كما ذكر لما كان الإلٰه الآتي بالنور هو الإلٰه الآتي بالظلمة، فإذا غلب إلٰه النور إلٰه الظلمة فالغالب لا يصير مغلوباً فوجب أن لا يزول النهار ولا يحصل الليل، فلما لم يكن كذلك علمنا أن الليل والنهار والظلام والنور بتدبير مدبّر واحد وبتقدير مقدر واحد وهو الله رب العالم.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34]، والحمد لله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر:35] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وتحقيق الكلام في هذه المباحث سيجيء إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الفاتحة.

الصفة الثانية: قوله جل وعزّ: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ والمعنى أنه لا حكم في الدنيا والآخرة إلاّ له، أما في الدنيا فلأن حكم أحد سواه لا ينفذ على الغير إلاّ بواسطة حكمه فلولا أمر الله وحكمه لما نفذ على العبد حكم سيده وعلى الزوجة حكم زوجها وعلى الولد حكم والده وعلى الرعية حكم السلطان وعلى الأمة حكم الرسول ﷺ ونظيره قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: 62]، وإذا تأملت كما ينبغي علمت أن الحق هو الحاكم في الحقيقة في الآخرة فلا شك أنه تعالى له الحكم وله القضاء كما قال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: 19].

الصفة الثالثة: قوله عز وجل: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني مرجع كل أحد إلى حكمه وقضائه لا تصرُّف لأحد في ذلك اليوم كما قال تعالى: ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ إلى آخره.

واعلم أنه تعالى لما بيّن أنه المستحق للحمد أتبع هذا الكلام ببعض ما به يستحق الحمد وهو إيجاد الليل والنهار فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؟ وقال في الآية الثانية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: 71 ـ 72].

فاعلم أن وجه الاستدلال بهذا المعنى على الصانع من وجوه:

الأول: المراد أنه لا بد من النهار ليحصل فيه الضوء فتتيسّر الحركة عند الإبصار لطلب المعاش وسواه، ولا بد من الليل لتحصل الظلمة فيه فيحصل السكون بعد ذلك الانتشار لطلب المعاش ليزول التعب. وأما أنه لا بد من الحركة فلأن الإنسان محتاج إلى تحصيل المطعوم والملبوس وإعداد المسكن وسائر المصالح وكل

ثلاثة ليسكنوا في الليل وليبتغوا من فضل الله في النهار [و] ليشتغلوا بالشكر على هاتين المنفعتين.

النوع الرابع: من وجوه دلالة الليل والنهار على الصانع الحكيم قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: 47]، وقال في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبإ: 9 ـ 10].

أما قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فقد طعن فيه بعض الملحدة ـ لعنهم الله ـ فقال: السبات هو النوم فيصير التقدير: وجعلنا نومكم نوماً، والجواب عنه أن السبت في أصل اللغة هو القطع يقال: سبت الرجل رأسه يسبته سباتًا[1]، وعند هذا يحتمل الآية وجهين:

الأول: أن يكون المعنى: وجعلنا نومكم منقطعاً لا دائماً فإن النوم بمقدار الحاجة من أنفع الأشياء وأما دوامه فهو من أضرّ الأشياء، فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا جرم ذكره الله في معرض الإنعام.

الثاني: أن الإنسان إذا تعب ثم نام زال عنه التعب بالنوم فسُميت تلك الإزالة سبتاً وقطعاً هذا هو المراد من قول ابن قتيبة: «وجعلنا نومكم سباتاً» أي راحةً، وليس غرضه منه أن السبات اسم للراحة بل المقصود أن النوم يقطع التعب ويزيله فحينئذ تحصل الراحة.

الثالث: قال المبرد: وجعلنا نومكم سباتاً، أي: جعلناه نوماً خفيفاً يمكنكم دفعه وقطعه، تقول العرب: رجل مسبوت إذا كان النوم يغالبه وهو يغالب النوم، كأنه قيل: وجعلنا نومكم نوماً لطيفاً يمكنكم دفعه وما جعلناه غشياً مستولياً عليكم فإن ذلك من الأمراض الشديدة، أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ فقال القفّال: أصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه الإنسان ويتغطى به فيكون ذلك مغطياً له فلما كان الليل يغشى الناس بظلمته وتغطيهم جعل لباساً لهم والمراد كون الليل ساتراً لهم. وأما وجه النعمة في ذلك فهو أن ظلمة الليل تستر الإنسان عن العيون إذا أراد هرباً من عدو أو

---

(1) في (أ) سبتا.

بقي في الآية سؤالات:

السؤال الأول: ما معنى السرمد في اللغة؟

الجواب: أن السرمد هو الدائم المتصل مأخوذ من السرد وهو المتابعة[1]، ومنه قوله ﷺ في الأشهر الحرم: «**ثلاثة سرد وواحد فرد**».

السؤال الثاني: هلاّ قال: «يأتيكم بنهار تبصرون» كما قال: «بليل تسكنون فيه»؟

الجواب: لأن منافع الليل هي السكون والنوم والراحة أما منافع النهار فكثيرة يطول تعدادها.

السؤال الثالث: لِمَ قال في الليل: «أفلا تسمعون» وفي النهار: «أفلا تبصرون»؟

الجواب: لأن الليل عبارة عن الظلمة وهي غير مرئية لا جرم قال في بقائها: أفلا تسمعون؟ والنهار عبارة عن الضوء وهو مرئيّ فلهذا قال: أفلا تبصرون. وقال الكلبي: قوله: أفلا تسمعون معناه: أفلا تطيعون من يفعل ذلك؟ وقوله: أفلا تبصرون معناه: أفلا تبصرون[2] ما أنتم عليه من الخطأ والضلال؟

النوع الثالث: من وجوه دلالة الليل والنهار على الصانع الحكيم القادر في آخر هذه الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: 72]، اعلم أن تقرير هذا الوجه أن الليل والنهار ضدان والضدان يكون كل واحد منهما مبطلاً للآخر ولمنفعته، وأما الليل والنهار فإنه لا يحصل الانتفاع بهما إلا عند حصول الآخر فقلب طبيعة الضدين من المقاومة إلى المعاونة ممّا لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى: وإنما قلنا لا تحصل المنفعة إلا بتعاقبهما وذلك لأنه لو دامت الظلمة دام النوم وتعذرت الحركات فتهلك الحيوانات، ولو دام الضوء دامت السخونة ولم يحصل النوم ويستولي الإعياء والتعب على الحيوانات فيموت الكل، فيظهر أن الانتفاع بأحدهما لا يمكن إلا عند تعاقبهما، ومن المعلوم أن قلب طبيعة الضدين من المعارضة إلى المعاونة لا يقدر عليه إلا الله ثم أنه تعالى بيّن في هذه الآية أن الازدواج بين الليل والنهار لأغراض

(1) في (أ) المبالغة.
(2) في (أ) تتفكرون.

الفصل العاشر:
في مباحث متفرقة في هذا الباب

النوع الأول في المباحث المتفرعة على كون القمر هلالاً:

اعلم أن الله ﷻ فرّع على كون القمر هلالاً أبحاثاً تتعلق بعلم الأصول والتوحيد وأبحاثاً تتعلق بعلم الفروع والتكليف:

أما ما يتعلق بعلم الأصول فهو قوله تعالى في سورة يّس: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: 40]، ونظيره قوله تعالى في سورة الانشقاق: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 16-18]، فقوله: ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي إذا اجتمع، فاعلم أن أصل الاتساق الاجتماع يقال: وسقته فاتّسق كما يقال: وصلته فاتّصل، أي جمعته فاجتمع ويقال: أمور فلان متسقة: أي مجتمعة وتكامل على الصلاح كما يقال: منتظمة، قال ابن عباس: إذا اتسق أي اجتمع واستوى وتكامل وتمَّ واستدار وذلك ليلة ثلاث عشرة.

وأما ما يتعلق بعلم الفروع فهو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، فلنتكلم في شرح هذين الأصلين:

أما الآية الأولى فاعلم أنه ﷻ جعل الزمان مقدراً من أربعة أوجه: السنة ـ والشهر ـ واليوم ـ والساعة.

أما السَّنة فهي عبارة عن الزمان الحاصل من حركة الشمس من نقطة معينة من الفلك بحركتها الخاصة على خلاف الحركة اليومية إلى أن تعود إلى تلك النقطة بعينها، والقوم اصطلحوا على جعل تلك[1] النقطة هي نقطة الاعتدال الربيعي وهي أول الحمل.

(1) زيادة من (ب).

بياتاً [أو] إخفاء ما لا يحب الإنسان اطلاع أحد عليه، قال المتنبي:

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبّر أنّ المانويّة تكذبُ[1]

وأيضاً وكما أن الإنسان بسبب اللباس يزداد جمالاً وتتكامل قوته، فبسبب النوم يندفع عنه أذى الحرّ والبرد ويندفع عنه أذى التعب الجسماني وأذى الأفكار الموحشة والنفسانية فلهذا السبب فإن المريض إذا نام في الليل وجد الخفة العظيمة. أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فاعلم أن في المعاش وجهين:

أحدهما: أنه مصدر يقال: عاش يعيش عيشاً ومعاشاً ومعيشة وعيشة، وعلى هذا التقدير لا بد فيه من إضمار والمعنى: وجعلنا النهار وقت معاش.

الثاني: أن يكون المعاش مفعلاً وظرفاً للتعايش وعلى هذا لا حاجة إلى الإضمار ومعنى كون النهار معاشاً أن الخلق إنما يمكنهم التقلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار لا في الليل.

النوع الخامس: من وجوه دلالة الليل والنهار على وجود الصانع قوله تعالى في [يس]: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: 37]، واعلم أن قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ إشارة إلى الليل وقوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ إشارة إلى النهار، وفي قوله: «تجري لمستقر لها» عدة أقوال: أصحها تجري وتتحرك لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا، أي لا تزال تجري حتى تنتهي إلى الوقت الذي تنقضي الدنيا فيه وفي ذلك الوقت تقف وتستقر وتترك الحركة.

ولنذكر ها هنا أن النهار أفضل أم الليل وفي ترجيح كل واحد من الطرفين وجوه أما الذين فضّلوا النور على الظلمة فقد تمسّكوا بوجوه[2].

---

(1) من قصيدة له يمدح كافوراً، وكان قد حمل إليه ستمئة دينار. المانوية: قوم ينسبون إلى «ماني» وهو رجل يقول: الخير من النهار والشر من الليل وانتحل هذا المذهب، فرد عليه المتنبي فقال: كم نعمة للظلمة عندي، تبين أن هؤلاء المانوية الذين نسبوا إلى الظلمة الشر كاذبون وليس الأمر على ما قالوه» التبيان في شرح الديوان ج 1/ 179.

(2) وجدنا بهامش الأصل ما يلي: «لعل الناسخ ترك هذه الوجوه أو ذكر في نسخة أخرى»، وجاء في هامش (ب) قول الناسخ: «هذا البياض هكذا في الأصل» وقد ترك ناسخ هذه النسخة صفحة خالية هنا.

الحرّ في النقصان والبرد في الزيادة، ولا يزال يزداد البرد إلى أن تصل الشمس إلى أول الجدي وحينئذٍ يشتد البرد وما دامت في الجدي والدلو فالبرد يكون في غاية الشدة، إلى أن ينتهي إلى أول الحمل فحينئذ يطيب الهواء ويعتدل وعادت الشمس إلى مبدأ حركتها وقت أول[1] السنة وحصلت الفصول الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء ومنافع الأربعة مشهورة في الكتب.

وأما الشهر فهو عبارة عن دورة القمر في فلكه الخاص، فرغم أن نوره مستفاد من الشمس وأبداً يكون أحد نصفيه مضيئاً بالتمام إلا أنه عند الاجتماع يكون نصفه المضيء هو النصف الفوقاني فلا جرم نحن لا نرى في تلك الحالة من نوره شيئاً، وعند الاستقبال يكون نصفه المضيء مواجهاً لنا فلا جرم نراه مستنيراً بالتمام، وكلما كان القمر أقرب إلى الشمس كان المرئي من نصفه المضيء أقل وكلما كان أبعد كان المرئي من نصفه المضيء أكثر، ثم إنه من وقت الاجتماع إلى وقت الاستقبال يكون كل ليلة أقرب إلى الشمس، فلا جرم نرى كل ليلة ضوءه أقل ولا يزال يقلّ حتى يعود كالعرجون القديم، فهذا ما قاله أصحاب النجوم.

وأما الأصوليون فيقولون: القمر جسم والشمس جسم والأجسام كلها متماثلة في الجسمية، والأشياء المتساوية في تمام الماهية يمتنع اختلافها في اللوازم، فإذاً حصول الضوء في جرم الشمس والقمر أمر جائز الوجود لا يمتنع حصوله ولا يمتنع عدمه، وما كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه إلا بترجيح الفاعل المختار، وكلما كان فعلاً للفاعل المختار فإن ذلك الفاعل يكون قادراً على إيجاده وعلى إعدامه وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى إسناد هذه الاختلافات الحاصلة في نور القمر إلى قربها وبعدها عن الشمس، بل الحق أن حصول النور في جرم الشمس إنما كان بسبب إيجاد القادر المختار، وإذا كان كذلك كان الأمر له فهو قادر على إزالة النور عن جرمه، فحينئذ تكون صيرورة الشمس مظلمة في ذاتها أمراً جائزاً وحينئذ ينفتح باب عظيم في الدين وهو الإيمان بصحة كل ما جاء في صفات الأفلاك والكواكب يوم القيامة نحو قوله جل وعز: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 1-2] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: 1-2] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1] ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: 11].

(1) زيادة من (ب).

وأما الشهر فهو عبارة عن حركة القمر عن نقطة معينة من فلكه الخاص به إلى أن يعود إلى تلك النقطة، ولما كان أشهر أحوال القمر وضعه[1] مع الشمس وأشهر أوضاعه من الشمس هو الهلال الغربي مع أن القمر في هذا الوقت يشبه الموجود بعد العدم والمولود الخارج من الظلم لا جرم جعلوا هذا الوقت مبدأ للشهر. وأما اليوم بليلته فهو عبارة عن مفارقة نقطة من دائرة معتدل النهار نقطة من دائرة الأفق ونقطة من دائرة نصف النهار وعودها إليه فالزمان المقدر بهذا المقدار عبارة عن اليوم بليلته.

ثم إن المنجمين اصطلحوا على تعيين دائرة نصف النهار مبدأ ليوم بليلته وأما أكثر الأمم فإنهم جعلوا مبادىء الأيام بلياليها من مفارقة الشمس أفق المشرق وعودها إليه من الغداة. واحتج من نصر مذهبهم بأن الشمس عند طلوعها كالموجود بعد العدم فجعله أولاً أولى وعلى هذا القول[2] فزمان الليل عبارة عن مدة كون الشمس فوق الأرض وفي شريعة الإسلام يفتتحون النهار من وقت طلوع الفجر في وجوب الصلاة والصوم وغيرهما من الأحكام، وعند المنجمين مدة الصوم في الشرع هي زمان النهار كله مع زيادة في زمان الليل معلومة المقدار محدودة المبدأ.

أما الساعة فهي على قسمين: مستوية ومعوجّة:

فالمستوية: جزء من أربعة وعشرين جزء من يوم وليلة.

والمعوجة: جزء من اثني عشر جزء من يوم وليلة. فهذا هو الكلام المختصر في تعريف السنة والشهر واليوم والساعة.

إذا عرفت هذا فنقول: أما السنة والشهر واليوم والساعة فهي عبارة عن مدة دورة[3] الشمس فيحدث بسببها الفصول الأربعة، وذلك لأن الشمس إذا حصلت في الحمل فإذا تحركت من هذا الموضع إلى جانب الشمال أخذ الهواء في جانب الشمال شيئاً من السخونة لقربها من مسامتة الرؤوس ويتواتر الأسخان إلى أن تصل إلى أول السرطان وحينئذ يشتد الحرّ ما دام في السرطان، والأسد لقربها من سمت الرؤوس ثم ينكسر قليلاً قليلاً إلى أن يصل إلى الميزان، وحينئذ يطيب الهواء ويعتدل ثم يأخذ

(1) في الأصل: وصفية.
(2) في (أ) التقدير.
(3) في الأصل: مدة.

قالوا: كل شيء صنيعه ولا علة لصنعه ولا يجوز تعليل أفعال الله ﷻ وأحكامه ألبتة فلا يسأل عم يفعل وهم يُسألون.

الجواب الثاني: قول من يقول: لا بد من أفعال الله تعالى وأحكامه من رعاية المصالح والحكم، والقائلون بهذا القول سلموا أن العقول البشرية قاصرة في أكثر الأمر عن الوصول إلى أسرار حكمة الله في ملكه وملكوته إلا أن الله تعالى أخبر عن الحكمة في اختلاف ضوء القمر في آيات منها:

قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 189].

ومنها قوله في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5].

ومنها قوله: في سورة بني إسرائيل: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]، وقال في سورة يس: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وشرح هذا المعنى أن نقول: أن تقدير الزمان بالشهور فيه منافع بعضها يتصل بالدين وبعضها يتصل بالدنيا، أما ما يتصل منها: بالدين فكثيرة منها الصوم، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: 185]، ومنها: الحج، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: 197]، ومنها عدة المتوفي عنها زوجها. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]، ومنها مدة الحمل والرضاع قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15]، ومنها النذور التي تتعلق بالأوقات كفضائل الصوم في أيام لا سبيل إلى معرفتها إلّا بالأهلّة.

وأما ما تتصل منها بالدنيا فهي كالمداينات والإيجارات ومدة الحمل والرضاع وغيرها وكل ذلك لا يسهل ضبط أوقاتها إلا عند وقوع الاختلاف في ضوء القمر.

وتحقيق الكلام فيه أن المصنّف الذي يراعي الترتيب يقسم كتابه إلى أنواع ثم

وإذا عرفت هذا ظهر دلالة اختلاف أحوال القمر في الضوء والنور على الفاعل المختار الحكيم ﷻ، وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾؟

الجواب ـ والله أعلم ـ أن معناه: والقمر قدرنا[1] مسيره منازل ،أو له منازل على حذف الجار، أو ذا منازل على حذف المضاف.

السؤال الثاني: ما العُرجون؟

الجواب ـ وبالله التوفيق ـ: أن العرجون أصل العزق، قال الزجاج: هو مقلوب من الانعراج وهو الانعطاف فإذا قَدِمَ عزق وانحنى واصفر يُشبَّه الهلال به لدقته وانحنائه وتقوّسه فهذا ما يتعلق بعلم الأصول من مباحث الهلال.

أما ما يتعلق بعلم الفروع فهو أن لقائل **يقول**: خالق العالم ومدبّره لِمَ خصّص جرم القمر بهذا الاختلاف؟

فنقول: لعلماء الإسلام في هذا المقام جوابان:

أحدهما أن يقال: أن فاعلية الله لا يمكن تعليلها بغرض ومصلحة ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه إن فعل فعلاً لغرض فإن قدر على تحصيل ذلك الغرض دون تلك الواسطة كان فعل تلك الواسطة عبثاً وإن لم يقدر فهو عاجز.

الثاني: أن كل[2] من فعل فعلاً لغرض فإن كان وجود ذلك الغرض أولى لذلك الفاعل[3] من لا وجوده كان ذلك الفاعل ناقصاً بذاته مستكملاً لغيره وهو في حق الله تعالى محال وإن لم يكن أولى لم يكن غرضاً.

الثالث: أنه لو كان فعله معللاً بغرض فذلك الغرض إن كان محدثاً افتقر إحداثه إلى غرض آخر، وإن كان قديماً لزم من قِدمه قِدم الفعل وذلك محال فلا جرم

(1) في (أ) قدرناه.
(2) زيادة من (ب).
(3) في (أ) الفعل.

والكلام في المباحث المتعلقة بالبروج والمنازل طويل إلّا أنّا نذكر هاهنا من تلك طرفاً، فنقول: أما البروج ففيها مباحث:

الأول: وهو أننا بيّنا أن مصالح هذا العالم لا ينتظم إلا بالفصول الأربعة المتعاقبة والحق ﷻ قسّم الفُلك بأربعة أقسام:

الربع الأول: الذي متى كانت الشمس فيه كان الزمان ربيعاً.

الربع الثاني: الذي متى حصلت الشمس فيه كان الزمان صيفاً.

الربع الثالث: الذي متى حصلت الشمس فيه كان الزمان خريفاً.

الربع الرابع: الذي متى حصلت الشمس فيه كان الزمان شتاءً.

فقسّم الفُلك إلى هذه الأرباع الأربعة لتحدث الفصول الأربعة في الأرض، ثم إنه ﷻ قسم كل فصل إلى ثلاثة أقسام: ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، والحكمة فيه أن الانتقال من أحد الضدين إلى الضد الآخر يوجب الأمراض والأسقام الشديدة، فلما كان الشتاء بارداً جداً جعل أول الربيع ضعيفاً في الحرارة حتى ينتقل الإنسان من البرد الشديد إلى الحر الضعيف فلا تصير الطبيعة مقهورة، ثم إن ذلك الحر لا يزال يتزايد ويقوى حتى يبلغ إلى كمال الحر اللائق بالربيع فحينئذ يقع الانتقال منه إلى الحر الشديد الذي هو في الصيف فلا تصير طبائع الأمزجة والأبدان مقهورة، فأول الربيع ضعيف الحر فإنه مجاور للشتاء وآخر الربيع قوي الحر لأنه مجاور للصيف وبهذا التدبير يحصل الانتقال من ضد فلا تحصل الأمراض والآلام بسبب ذلك فلهذا المعنى اقتضت الحكمة الإلٰهية أن يقسم كل ربع من أرباع الفلك بثلاثة أقسام: أحدها أن يكون مبدءاً لذلك الفصل، والثاني يكون وسطاً له، والثالث يكون كمالاً له فصار لأجل هذا الترتيب الفلك مقسوماً باثني عشر بُرجاً ثم إنه تعالى سيَّر الشمس في هذه البروج كما شاء فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: 61] فلا جرم صيَّر السنة اثني عشر شهراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: 36].

الوجه الثاني: من عجائب البروج: اعلم أن الله تعالى خلق العالم ثلاثة: العالم الأصغر وهو بدن الإنسان، والعالم الأوسط وهو العالم السفلي بما فيه من العناصر الأربعة، والعالم العلوي وهو عالم السمٰوات والكواكب.

كل نوع منه إلى أبواب، ثم كل باب منه إلى فصول حتى يكون الاطلاع على مضمون ذلك الكتاب أسهل وأيسر، وجملة هذا العالم تصنيف الله تعالى وهو سبحانه يراعي التسهيل على المكلفين فقسم جملة الزمان إلى السنين ثم قسم كل سنة إلى اثني عشر شهراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: 36] ثم قسم كل شهر إلى أيام، ثم قسم كل يوم إلى الساعات ثم قسم كل ساعة إلى الأنفاس ثم قسَّم كل نفس إلى لمحات كما قال تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: 40]، ثم قسم كل لمحة إلى الأجزاء التي لا تتجزأ والأوقات التي لا تنقسم ولما ظهر أن اختلاف أحوال القمر معونة عظيمة في تعيين الأوقات وتحديدها من الوجوه التي ذكرناها لا جرم نبّه على هذه النعمة بقوله:

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:189] لأن تقدير جميع تلك المنافع يفضي إلى الإطناب والاقتصار على البعض دون البعض إهمال للبعض فلم يبق طريق إلا التنبيه على الكل بطريق الإيجاز.

ومن منافع اختلاف ضوء القمر أنه لو لم يحصل هذا الاختلاف لتأكدت شبهة الفلاسفة في قولهم: إن الأجرام الفلكية لا يمكن تطرق التغيير إلى أحوالها فهو ﷻ بحكمته القاهرة أبقى الشمس على حالة واحدة، وأظهر الاختلاف في أحوال القمر من وجهين.

أحدهما: المحو الذي في وجهه فإن بعض أجزائه مخالف للبعض في كيفية النور.

الثاني: أن مقدار ضوئه يختلف في كل يوم ثم جعل هذين النوعين من الاختلاف دليلاً على كون هذه الأجرام قابلة للاختلاف والتغيّر، حتى يدل ذلك على افتقار الشمس والقمر والنجوم والأفلاك والعناصر إلى مقدر قاهر حكيم ﷻ.

النوع الثاني في المباحث المتعلقة بالبروج:

قال سبحانه وتعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الحجر: 16]، وقال في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: 61]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: 1]، اعلم أنه ﷻ كما ذكر البروج ذكر المنازل أيضاً فقال في سورة يونس: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ وقال في يٓس: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾.

رطب والحمل حارّ يابس وهما متجاوران، وكذلك الثور والجوزاء متضادان لأن الثور بارد يابس والجوزاء حار رطب وهما متجاوران، وكذا السرطان والأسد وكذا السنبلة والميزان وكذا العقرب والقوس وكذا الجدي والدلو، كل واحد من هذين البرجين متضادان لكلتي الكيفيتين ثم هما متجاوران وهذا من أقوى الدلائل على أن هذه البروج ليس لأجل مشاكلة طبائعها ومجانسة ذواتها بل ذلك لإيجاد القادر المختار والصانع الحكيم جل جلاله وتقدست أسماؤه.

الوجه الرابع: أن الشمس في غاية السخونة ومذهبكم أن الحمل برج حار يابس ناري والسرطان برج بارد رطب مائي فلو كانت هذه التأثيرات حاصلة بسبب الطبيعة لكان إذا حصلت الشمس في الحمل فقد حصل كوكب [حار جداً][1] في برج حار جداً فوجب أن تقوى السخونة جداً، وإذا حصلت الشمس في السرطان فقد حصل كوكب حار جداً في برج بارد جداً فوجب أن تنكسر حره ويضعف، لكن ليس الأمر كذلك فإنه حين تحصل الشمس في الحمل يكون الحر ضعيفاً وحين تحصل في السرطان يكون الحر قوياً فعلمنا أن قوة الحر ليس لتأثير الأنجم والبروج بل لتقدير المقدر وتدبير المدبر الصانع الحكيم، فإن قيل: وإذا حصلت الشمسُ في السرطان فها هنا وإن حصل الشمس في البرج البارد الرطب إلا أنها على سمت الرأس فلا جرم قوي الحر بهذا السبب، قلنا: هذا باطل بكونها في الأسد لأن الشمس حال كونها في الأسد تباعدت عن سمت الرأس مع أن الحر عند كون الشمس في الأسد أشد وأقوى، وهذه الاعتبارات دالة على أن تغيّر أحوال العالم بسبب تقدير الصانع الحكيم المختار لا بسبب أحوال الأنجم والأفلاك.

الوجه الخامس: أن القوم لما سلموا أن هذه البروج مُختلفة في الطبائع والماهيات فإن واحداً منها يقتضي السخونة واليبوسة والآخر يقتضي البرودة والرطوبة فلولا اختلافها في الماهيات لما اختلفت[2] آثارها، وإذا كانت هذه البروج مختلفة الطبائع والماهيات كان الفلك مركباً من أجزاء مختلفة الطبائع والحقيقة كما أن الإنسان مركب من أعضاء مختلفة وأجزاء غير متساوية في الحقيقة والماهية، وكل مركب فإنه ينتهي لا محالة إلى الانحلال والاختلاف ومباينة كل واحد من تلك الأجزاء المتنافرة

(1) زيادة من (ب).
(2) في الأصلين: (وإلا لما اختلفت).

أما العالم الأوسط فخلق فيها أجراماً أربعة: الأرض والماء والهواء والنار، وأثقل الأجسام هو الأرض فلا جرم جعل الأرض تحت جميع الطبائع الأربعة والماء أقل ثقلاً منه فجعل الماء محيطاً بالأرض، ثم الهواء خفيف فجعل الهواء محيطاً بالماء، ثم النار أخف الأجسام العنصرية فجعل النار محيطة بجميع العناصر الأربعة فهذا الترتيب المحكم والوصف المتقن، ثم إنه ﷻ قلب هذا الترتيب في تخليق العالم الأصغر وجعل الأرض فوق الكل والنار من تحت الكل، والدليل عليه أن يافوخ الإنسان فوق جميع أعضائه وهو عظم والعظم بارد يابس وطبعه طبع الأرض فجعل الأرض فوق جميع الأجزاء والأعضاء ثم جعل الهواء تحت الأرض فإن النفس هواء ومنفذ النفس هو الأنف وهو تحت اليافوخ، ثم جعل الماء تحت الهواء لأن معدن الماء هو الفم والفم تحت الأنف، ثم جعل النار تحت الهواء لأن معدن النار الحرارة والغريزية وهو القلب والقلب تحت تلك الأعضاء، ففي العالم الأوسط جعل الأرض تحت الكل والنار فوق الكل، وفي العالم الأصغر قلب هذا الترتيب فجعل الأرض فوق الكل والنار تحت الكل ليظهر للعقلاء أن السبب في حصول هذا الترتيب تخليق القادر المختار وتكوينه لا تأثير الطبيعة والخاصية، وأما في العالم الأكبر فقد رتّب هذه الطبائع على خلاف ما وقع عليه ترتيبها في العالم الأصغر وفي العالم الأوسط وذلك لأن الحمل برج ناري ثم يجاوره الثور وهو أرضي ثم يجاوره الجوزاء وهو هوائي ثم يجاوره السرطان وهو مائي، فوقع الابتداء بالنارية والانتهاء بالمائية، واعلم أن الحكمة في وقوع هذه الطبائع الأربع في كل واحد من هذه العوالم الثلاث على ترتيب آخر مخالف لترتيب غيره ليكون ذلك شاهداً بأن الطبائع معزولة والخواص باطلة لا تأثير إلا لقدرة الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكُن له كفواً أحد.

الوجه الثالث: أن ترتيب العناصر الأربعة في العالم الأسفل وقع بحيث يكون كل متجاورين منها فإنهما تتشاركان في كيفية وتتباينان بأخرى مثل الأرض والماء يشتركان في البرد ويختلفان في الرطوبة، والهواء والنار يشتركان في الحرارة ويختلفان في الرطوبة واليبوسة قالوا: والسبب فيه أن لا يتجاور[1] ضدان من كل الوجوه، ثم أن هذه الدقيقة صارت متروكة في ترتيب الطبائع في العالم الأكبر وذلك لأن هناك قد تجاورت البروج المتضادة ألا ترى أن الحوت والحمل متضادان، لأن الحوت بارد

(1) في (أ) يتجاور.

الطرفين[1]، فلما كان وقت صلاة الصبح بطلوع البياض وجب أن يكون وقت صلاة العشاء بغروب البياض، أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ فقال أهل اللغة: وسق أي: جمع ومنه الوسق وهو الطعام المجتمع الذي يكال ويوزن، ثم صار اسماً للجمل واستوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت، فقال القفال: مجموع أقاويل المفسرين يدل على أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ على جميع ما تجمعه الليل من النجوم ورجوع الحيوان عن الانتشار وتحرك ما تحرك فيه من الهوام، ثم هذا يحتمل أن يكون إشارة إلى الأشياء كلها يشتمل عليها الليل فكأنه تعالى أقسم بجميع المخلوقات كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38-39] وقال سعيد بن جبير: المراد من قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ الأعمال التي عملت في الليل، قال القفال: يحتمل أن يكون ذلك تهجد العباد فقد مدح الله تعالى المستغفرين بالأسحار فجاز أيضاً أن يحلف بهم، وإنما قلنا: إن الليل جمع هذه الأشياء كلها لأن ظلمته كأنها تجلل الجبال والبحار والشجر والحيوانات فلا جرم صح أن يقال: وسق الليل: جمع هذه الأشياء.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ فاعلم أن أصل الكلمة من الاجتماع يقال: وسقته فاتسق كما يقال وصلته فاتصل، قال ابن عباس: والقمر إذا اتسق أي: استوى واجتمع وتكامل واستدار وذلك اليلة الرابعة عشرة ثم قال: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ وفيه مسائل:

الأولى: قُرىء "لتركبن" بضم الباء على خلاف الجنس لأن النداء في قوله على خطاب الإنسان: «إنك كادح» للجنس ولتركبن بكسر الباء على خطاب النفس وليركبن بالياء على معنى ليركبن الإنسان المسلة.

الثانية: الطبق ما يطابق غيره يقال: ما هذا بطبق كذا أي: لا يطابقه، ومنه قيل للغطاء: طبق وأطباق الثرى ما تطابق منه ثم قيل: للحال المطابقة بغيرها طبق ومنه قوله تعالى: «طبقاً عن طبق» أي: حالاً بعد حال كل واحد متطابقة لأخيها.

ولنذكر وجوه المفسرين فنقول: أما القراءة برفع الباء وهي خطاب للجمع

---

(1) في (أ) على الطرفين في الليل.

المتعاندة[1] عن صاحبه وهذا يقتضي أن السمٰوات تنشق وتخرُب ولا يبقى تركيبها وهو مطابق للقرآن العظيم، ولنكتف بهذا القدر من الكلام في البروج والمنازل، وبالله التوفيق.

النوع الثالث في المباحث المتعلقة بالشفق:

قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ [الانشقاق: 16- 19]، واعلم أن تركيب لفظ الشفق في أصل اللغة لرقّة الشيء ومنه يقال: شيء شفق إذا كان رديئاً لضعفه ورقة وجوده، وأشفق عليه إذا رقّ قلبه عليه والشفقة رقة القلب، ثم اتفق العلماء على أنه اسم الأثر الباقي من الشمس في الأفق بعد غروبها ثم اختلفوا فيه فذهب عامة العلماء إلى أنه هو الحمرة وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل، ومن أهل اللغة قول الليث والفراء والزجاج وعن أبي حنيفة في إحدى الروايتين أنه البياض، وروى أسيد بن عمرو أنه رجع عنه، واحتج الأولون على قولهم بوجوه:

الحجة الأولى: قال الفراء سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان ذلك الثوب أحمر فدل ذلك على أن الشفق هو الحمرة.

الحجة الثانية: أن الأمة مجتمعة على أن زوال الشفق هو وقت العشاء الأخير فوجب أن يكون المعتبر هو الحمرة لا البياض لأن البياض يمتد وقته ويطول لبثه، والحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس عن الأفق ذهبت الحمرة.

الحجة الثالثة: أن اشتقاق الشفق لما كان من الرقة ولا شك أن ضوءه يأخذ في الرقة والضعف من بعد غيبوبة الشمس فتكون الحمرة شفقاً، أما من قال أنه البياض فقد احتج بوجوه:

الحجة الأولى: أنّا بينّا أن اشتقاق هذا اللفظ يدل على الضعف والبياض الباقي أثر ضعيف بقي من الشمس فوجب أن يكون مسمى باسم الشفق.

الحجة الثانية: أن صلاة الصبح وصلاة العشاء صلاتان واقعتان على

---

(1) في (أ) المتعامدة.

الاحتمال الثاني: أن يكون المعنى أن الله تعالى يبدله بالمشركين أنصاراً للمسلمين ويكون مجاز ذلك من قولهم: طبقات الناس.

والقول الثاني: أن يكون ذلك بشارة لمحمد ﷺ بصعوده إلى السماء ليشاهد ملكوتها ويشاهد أحوال الملائكة والمعنى: لتركبن يا محمد السمٰوات طبقاً عن طبق وقال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ وقد فعله الله ذلك له ليلة الإسراء وهذا القول مروي عن ابن عباس وابن مسعود.

القول الثالث: لتركبن يا محمد درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله تعالى.

القول الرابع: في هذه القراءة هذه الآية واردة في شرح أحوال السمٰوات والمعنى: لتركبن السماء يوم القيامة حالة بعد حالة وذلك لأنها أولاً تنشق كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ ثم تنفطر كما قال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ ثم يصير وردة كالدهان وكالمهل على ما ذكر الله تعالى هذه الأشياء في آيات من القرآن، وكأنه لما ذكر في أول السورة أنها تنشق أقسم في آخرها [بأنه][1] ينتقل من أحوال إلى أحوال وهذا الوجه مروي عن ابن مسعود رَحِمَهُ اللَّهُ والله أعلم بما يكون.

النوع الرابع في المباحث المتعلقة بالظلال:

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: 15]، وقال في سورة النحل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل: 48]، وقال في الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: 45].

هذا ولنشرع في تفسير هذه الآيات المذكورة في سورة الفرقان فنقول: إنه تعالى استدل بحال الظل في زيادته ونقصانه وتنقله من حال إلى حال. وذلك دلالة على وجود الصانع الحكيم. أما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ففيه وجهان:

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

فيحتمل وجوهاً:

الأول: أن يكون المعنى أيها الناس لتركبن أموراً وأحوالاً صعبة حالاً بعد حال وأمراً بعد أمر ومنزلاً بعد منزل إلى أن يستقر الأمر على ما يقضي به على الإنسان من جنة أو نار فحينئذ يحصل الدوام والخلود إما في الثواب أو في العقاب، ويدخل في هذه الجملة الناس ويكون أحوال الإنسان من حيث يكون نطفة إلى أن يصير شيخاً ثم يموت فيكون في [الضريح] ثم يحشر ثم ينقل إما إلى الجنة وإما إلى النار.

الثاني: أن يكون معنى الآية أن الناس يلقون يوم القيامة أحوالاً وشدائد حالاً بعد حال وشدة بعد شدة، كأنهم لما أنكروا البعث أقسم الله ﷻ أن البعث كائن والناس يلقون فيه الشدائد والأهوال إلى أن يفرغ الله من حسابهم فيصير كل واحد إلى ما أعدّ له من جنة أو نار نسأل الله العافية وهو قوله جل وعز: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: 7]، وقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: 42]، وقوله: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: 17].

الثالث: أن يكون المعنى أن الناس ينتقل أحوالهم فمن منعم يشقى ومن شقي ينعم وهو كقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: 3]، وهذا التأويل مناسب لما قبل هذه الآية لأنه تعالى لما ذكر حال من يؤتى كتابه من وراء ظهره أنه كان في أهله مسروراً وكان يظن أن لن يحور أخرى، فالله تعالى أخبر أنه يحور ثم أقسم إن الناس يركبون في الآخرة طبقاً عن طبق أي حالاً بعد حال.

الرابع: أن يكون المعنى لتركبن شبه أولاء ممن كان قبلكم في التكذيب [بيوم] القيامة. وأما القراءة بنصب الباء في[1] قوله لتركبن ففيه أقوال:

الأول: أن يكون بشارة للنبي ﷺ بالظفر والغلبة على المشركين المكذبين بالبعث كأنه قال: أقسم يا محمد لتركبن حالاً بعد حال حتى يختم لك بحميد العاقبة فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم في كفرهم ويتفرع على هذا القول احتمالان:

أحدهما: أن يكون المعنى أنه يُركب حال ظفر وغلبة بعد حال خوف وشدة.

---

(1) في الأصل: إلى.

كيفية الظل الذي هو منشأ المنافع الكثيرة ثم قبضناه أي: أزلنا الظل لا دفعة واحدة بل يسيرًا يسيرًا فإنه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب، ولما كانت الحركات الكائنة لا توجد دفعة بل يسيرًا يسيرًا فكذا زوال الأظلال لا يكون دفعة واحدة بل يسيرًا يسيرًا، وأيضاً فقبض الأظلال لو حصل دفعة لاختلت المصالح لكن قبضها يسيرًا يسيرًا يفيد رعاية مصالح العالم والمراد بالقبض الإزالة والإعدام وهذا أحد التأويلين.

التأويل الثاني: أنه ﷻ لمّا خلق السماء والأرض ما خلق الشمس ولا القمر والكواكب فوقع ظل السماء على الأرض فحصلت ظلمة شديدة متكاثفة في الأرض، ثم إنه خلق الشمس دليلاً عليه وذلك لأن بحسب حركات الأضواء تتحرك الأظلال فإنهما متعاقبان ومتلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر، كما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل يلازمه فكذلك الأظلال كأنها مقتدية وملازمة للأضواء فهذا هو المراد من جعل الشمس دليلاً عليها.

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فإما أن يكون المراد منه انتهاء الأظلال يسيرًا يسيرًا إلى غاية نقصانها فسمى إزالة الأظلال قبضاً لها، أو يكون المراد من قبضتها يسيراً يسيراً قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهي الأجرام التي تلقي الأظلال وقوله: «يسيرًا» كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ فهذا هو التأويل المخلص[1].

إذا عرفت هذا فنقول: الاستدلال به على وجود الصانع المحسن الرحيم ظاهر وذلك لأن حصول الظل أمر نافع للأحياء والعقلاء وأما حصول الضوء الخالص والظلمة الخالصة فهو موجب المضار لا للمنافع، وذلك لأن التركيب الإنساني تركيب ضعيف والحواس الإنسانية لا تطيق إدراك الكيفيات القوية واعتبر أن النظر إلى الضوء القوي يعمي البصر وسماع الأصوات القوية يورث الصمم وملامسة الحر القوي أو البرد القوي يورث الموت بل لا بد من الاعتدال في المدركات والمحسوسات والظل كيفية معتدلة كأنها كيفية متولدة من امتزاج النور والظلمة فثبت أن كيفية الظل من المنافع العظيمة.

---

(1) في (أ) الملخص.

أحدهما: أنه من رؤية العين. **والثاني**: من رؤية القلب. هو العلم فإن حملناه على رؤية العين فالمعنى: ألم تر إلى الظل كيف مده ربك وإن حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى: ألم تعلم وهذا أولى وذلك لأن الظل إذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله في تمديده غير مرئي بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث أن كل متقلب ممكن فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من حمله على هذا الوجه.

واعلم أن المخاطب بهذا الخطاب وإن كان هو الرسول ﷺ بحسب ظاهر اللفظ إلا أن الخطاب عام في هذا المعنى، لأن المقصود بالآية بيان أنعام الله تعالى بخلق الظل، وجميع المكلفين مستوجبون[1] في أنه يجب كونهم معترفين منتبهين لهذه النعمة واستدلالهم بها على وجود الصانع الحكيم ﷻ، والكلام الملخص يرجع إلى وجهين:

الأول: أن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأبنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها المزاج، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية العارضة من الشمس فهو لقوتها تبهر حسن النظر وتعيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذاً أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة فقال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾.

إذا ثبت هذا فنقول: أنه تعالى بيّن أن هذا الظل من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئاً سوى الجسم وسوى اللون، ولا يعرف أن الظل أمر ثالث به يكمل الانتفاع بمحسوسات هذا العالم فإذا طلعت الشمس ووقع ضوئها على أجسام هذا العالم زال ذلك الظل، فلولا وقوع ضوء الشمس على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً وحقيقة لأن الأشياء إنما يعرف بأضدادها ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه ﷻ لما أطلع الشمس على الأرض زال الظل فحينئذ ظهر للعقول أن للظل كيفية زائدة على الجسم واللون. فلهذا قال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: جعلنا الظلال بما فيها من المنافع والخيرات[2]، ثم هدينا العقول إلى معرفة وجودها بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلاً على وجود

---

(1) في (ب) مشتركون.

(2) في (أ) أي خلقنا الأظلال ما فيها.

ولنتكلم في شرح هاتين المنفعتين:

أما المنفعة الأولى: وهي كون هذه النجوم زينة للسماء الدنيا ومصابيح فيها فاعلم أن هذا مشتمل على بحثين:

الأول: كونها زينة ومصابيح كما قال في سورة الملك، وذلك لأن المصابيح هي السُرج والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح فكأنه قيل: ولقد زينا سقف الدار التي أسكنتم فيها بمصابيح أي بمصابيح لا تساويها مصابيحكم في الإضاءة.

والبحث الثاني: أن ظاهر هذه الآية يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في سماء الدنيا لكن أصحاب الهيئة والنجوم اتفقوا على أن هذه الثوابت مركوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق أكبر السيارات، واحتجوا عليه بأن بعض هذه الثوابت في الفلك الثامن وذلك لأن الثوابت التي تكون قريبة من المنطقة واقعة في ممر السيارات تنكسف بهذه السيارات والمكسوف لا بد أن يكون فوق الكاسف، فهذه الثوابت فوق أكبر السيارات الكاسفة وإنما قلنا أنه لما كان بعض الثوابت في الكرة الثامنة وجب أن يكون كلها في الكرة الثامنة لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة تقطع في كل مئة سنة درجة واحدة وإذا كانت هذه الثوابت متشابهة في الحركة وجب أن يكون كلها مركوزة في كرة واحدة.

واعلم أن هذه الحجة ضعيفة فإنه لا يلزم من تشابه الثوابت كلها في الحركات كونها بأسرها مركوزة في كرة واحدة لأنه لا يمتنع في العقل وجود كرة تحت كرة القمر وتكون متشابهة في البطء للكرة الثوابت وتكون الكواكب التي لا تنكسف بهذه السيارات مركوزة في هذه الكرة السفلية التي هي سماء الدنيا، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة ألا ترى أن ممثلات جميع السيارات سوى الشمس متحركة حركة بطيئة متشابهة لحركة فلك الثوابت وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن يكون أكثر هذه المصابيح مركوزة في سماء الدنيا.

فإن قيل: هب أن ما ذكرتم يحتمل إلا أنكم سلمتم أن هذه الكواكب الثابتة في ممرّ السيارات المنكسفة بها مركوزة فوق أكبر هذه السيارات السبعة وحينئذ يعود الإشكال في تلك الكواكب فالجواب من وجهين:

الأول: أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:5] يقتضي أن

إذا ثبت هذا فنقول: هذه الكيفية إما أن تكون من الواجبات أو من الجائزات والأول باطل وإلا لما تطرقت التغييرات إليه فهو إذن من الجائزات فلا بد لوجوده بعد العدم ولعدمه بعد الوجود من صانع قادر رحيم محسن يقدر هذه الأظلال في قوتها وضعفها[1] بالمقدار النافع، ويقدر بقائها وانتقالاتها بالمقادير النافعة وما ذلك إلا أنه سبحانه خصص الشمس والقمر والنجوم كل واحد منها بمقدار خاص من الضوء وبمقدار خاص من قوة الإضاءة ومقدار خاص من الحركة في الجهة والبطء والسرعة وما ذاك إلا من المحسن الرحيم الحليم. فهذا هو الكلام في الاستدلال بوجود هذه الأظلال على الصانع الحكيم.

واعلم أن للأظلال أنواعاً من الخواص العجيبة:

الخاصية الأولى: أن الأظلال في أنفسها متحركة إلا أن الحس لا يشاهد حركتها ألبتة وأما أنّ العقل قاطع بكونها متحركة وذلك لأن الحس شاهد بانتقال الظل من مكان إلى آخر ولولا حركتها إلى مكان آخر لما حصل هذا الانتقال، وأما أن الحواس لا يشاهد حركاتها فالأمر ظاهر فيه.

النوع الخامس في المباحث المتعلقة بالنجوم:

اعلم أنه تعالى ذكر في القرآن أنواعاً من منافعها:

الأول: كونها زينة للسماء.

الثاني: كونها رجوماً للشياطين والله سبحانه ذكر هاتين المنفعتين معًا في آيتين:

أحدهما قوله تعالى في الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات: 6 - 9].

والثانية: قال في سورة الملك: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 5]، وذكر تعالى في سورة الجن هذه المنفعة الثانية وهي كون هذه الكواكب رجوماً للشياطين فقال حكاية عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8].

---

(1) في (أ) من فوقها وجعلها.

مِن فُرُوجٍ﴾ [قٓ:6] ووصفها بالشدة: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبإ:12] وإن لم يقدروا على خرق اتصال السمٰوات فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة مع هذا البعد العظيم؟ ثم إن عقل أنهم سمعوا أسرار الملائكة من هذا البعد العظيم فلم لا يسمعون تلك الأسرار من الأرض أيضاً؟ وحينئذ لا تبقى فائدة في تبعيدهم عن السماء.

الحجة الرابعة: أن الملائكة عليهم السلام إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلية إما لأنهم طالعوها من اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقوها من وحي الله ﷻ إليهم وعلى التقديرين فلِم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الشياطين من الوقوف عليها لاسيما وقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فإذا لم يأذن الله لهم في ذلك لا يذكرونه وإذا لم يذكروه عجز الشياطين عن الوقوف عليه.

الحجة الخامسة: أن القرآن دل على أنّ الشياطين مخلوقون من النار، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ والنار لا يحرق النار بل يقويها فكيف يعقل أن يقال إن الشياطين دُحروا عن استراق السمع بهذه الشهب؟

الحجة السادسة: أنّا قلنا إن هذا القذف كان لصون المعجزات عن شبهات الكهنة فلِم دام ذلك بعد وفاة الرسول ﷺ؟

الحجة السابعة: أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:5] دلّ هذا على أنه تعالى خلق الكواكب لهاتين المنفعتين فإذا كان إحدى المنفعتين وهي التزيين كانت موجودة قبل مبعث النبي محمد ﷺ وجب أن تكون المنفعة الثانية أيضاً كانت موجودة قبل المبعث.

الحجة الثامنة: أن وصف هذا الانقضاض جاء في شعر الجاهلية، قال بشر بن أبي حازم:

والعير يرهقها الغبار وجحشها ... ينقض خالفها انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر:

وانقض كالدُريّ يتبعه ... نقع يثور تخاله ظبياً

وقال عون بن الجزع:

يردّ علينا العير من دون ألفة ... أو الثور كالدريّ يتبعه الدم

يكون سماء الدنيا مزينة بمصابيح وليس فيها دلالة على أن كل الكواكب في هذه السماء، أما قوله في سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ فصيغة الجمع وإن كانت تفيد الاستغراق إلا أن إطلاق لفظ العموم لإرادة الأكثر مجاز مشهور في القرآن.

الوجه الثاني: في الجواب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ لا يقتضي كون الكواكب موجودة فيها وذلك لأن السمٰوات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سمٰوات أخرى فوقها فهي لا بد أن تظهر في سماء الدنيا متزينة بهذه المصابيح.

المنفعة الثانية للكواكب كونها رجوماً للشياطين:

روي أن الجن كانوا يصعدون إلى السمٰوات ويسمعون الأخبار ويرجعون إلى الأرض ويلقونها على الناس فكان يصير سبباً لتمكن الكهنة من الإخبار عن المغيبات، فلما بعث الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منهم مسترقاً للسمع رمي من هذه الكواكب بشهاب فأحرقه فهذا هو السبب في انقضاض الشهب وهو المراد من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، ومن الناس من طعن فيه واحتج بوجوه:

الحجة الأولى: أن انقضاض الكواكب أمر مذكور في كتب الفلاسفة قالوا: إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس فإذا بلغ كرة النار احترق بها فتلك الشعلة هي الشهاب، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال: السبب فيه رمي الجن بالشعلة من النار؟

الحجة الثانية: أن هؤلاء الجن كيف يعقل أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم كلما استرقوا السمع احترقوا ثم إنهم يعودون مع ذلك إلى مثل صنيعهم، فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة واحدة أو ألف مرة امتنع أن يعود إليه من غير فائدة؟

الحجة الثالثة: أنه روي في الأخبار أن ثخن كل واحد من السمٰوات مسيرة خمسمئة عام فهؤلاء الجن إن قدروا على خرق هذه السمٰوات مع عظمها فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾؟ وقال: ﴿وَمَا لَهَا

المنفعة الثالثة: في تخليق الكواكب في أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: 16].

المنفعة الرابعة: أن يستدل بحركاتها التسخيرية على وجود الصانع الحكيم كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: 54]، فهذه هي المنافع المذكورة في القرآن العزيز وأهل التجارب ذكروا وجوهاً أخرى:

منها أن يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء وذلك أنه إذا تكاثف السحاب في الليل عظمت ظلمة الليل وذلك بسبب أن السحاب تحجب أنوارها ولا يبعد إدخال هذه المنفعة تحت قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:16] فإن ذلك القدر من الإضاءة إذا حصل ترتب عليه الاهتداء.

ومنها أنه يحصل بسببها تفاوت في الفصول الأربعة وذلك لأنها أجسام عظيمة نورانية فإذا قاربت الشمس كوكبا دُرياً مسخناً صار الضعيف أقوى حراً وهو مثل نار يضم إلى أخرى فلا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى.

ومنها أنه يستدل ببعض الكواكب على معرفة القبلة ولا شك أنها من المهمات. واعلم أنه ﷻ بيَّن أن له في تخليق البعوضة حِكماً عظيمة فقال جل من قائل: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]، فإذا كانت خلقة البعوضة لا تنفك عن حِكم باهرة ودلائل قاهرة فكيف يجوز انفكاك خلقة هذه النجوم السريعة والكواكب النورانية الدرية المنيفة عن حكم شريفة وأسرار قدسية، فجميع أجزاء العالم بسماواته وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حِكم كبيرة باهرة عرفناها أو لم نعرفها، فسبحانه هو الله العزيز الحكيم القادر على كل شيء. هذا ما ظهر لي والله أعلم بما خلق.

الحجة التاسعة: روي عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال: «بينا رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال عليه أفضل السلام: **«ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟»** فقالوا: كنّا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال ﷺ: **«إنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته»**. قالوا فثبت بهذه الوجوه أن هذه الشهب لا يجوز ألا يكون المعنى فيها ما ذكرتم.

والجواب عن الشبهة الأولى: أنّا لا ننكر إن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي محمد ﷺ لمنافع أخرى، إلاّ أن ذلك لا ينافي أنها بعد المبعث قد حصلت بسبب وهو دفع الجن وزجرهم. يروى أنه قيل للزهري: أكان يرمي في الجاهلية؟ قال: نعم أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 9]، قال: غلّظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ.

والجواب عن الشبهة الثانية: أنه إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منهم الاختلاف لطغيانها وضلالها أوقع في قلوبها من الدعاوى المطمعة في ذلك المقصود ما عندها يقدم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار.

والجواب عن الشبهة الثالثة: أنّا نسلم أن البعد بين كل سماء مسيرة خمسمئة عام وأما ثخن كل فلك فلعله لا يكون عظيماً.

والجواب عن الشبهة الرابعة: ما روى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس وذكر قصة الرمي بالنجوم فقال ﷺ: **«أنها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته»** ولكن ربنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبَّحت حملة العرش ثم سبَّح أهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح إلى سماء الدنيا ثم يستخبر: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم لإنزال ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى سماء الدنيا فيتخطفه الجن فيرمون.

والجواب عن الشبهة الخامسة: إن النار قد تكون أقوى من نار أخرى والأقوى يبطل الأضعف.

والجواب عن الشبهة السادسة: ما بينا من أن الشهب كانت موجودة لسائر المنافع إلا أنها زمان النبي محمد ﷺ شدّت وغلظت لهذا المقصود الآخر، فعند زوال بعض المقاصد لا يجب زوال الشهب. وهذا هو الجواب عن بقية الشبهات في حكم الشهب وبالله التوفيق.

الباب الثالث:
في الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى

وفيه فصول:

الفصل الأول:
في الحكمة في خلق الإنسان

اعلم أن هذه المناظرة التي شرحها الله تعالى في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30] . . إلى آخر الآية. واعلم أنه تعالى لم يذكر في هذه الآية وجه الحكمة على التفصيل في تخليق الإنسان ولم يزد عليهم قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، **وللعلماء في هذا المقام طريقان:**

الأول: الطريقة الإجمالية التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية وتقريرها إنه جل وعز قادر على جميع المقدورات منزه عن جميع الحاجات عالم كل المعلومات، وإذا كان الأمر كذلك كان لا محالة عالماً بأنه ما الذي ينبغي فعله وما الذي ينبغي تركه فكان عالماً لا محالة بكونه غنياً عن كل شيء ومن كان غنياً مما ينبغي وما لا ينبغي كان عالماً بكونها غنياً، وإذا كان الأمر كذلك امتنع إقدامه على ما لا ينبغي وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن كل ما يفعله الله ﷻ حكمة وصواب وأنه منزه عن فعل العبث كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: 115]، ومنزه عن فعل اللعب كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: 38-39]، ومُنزّه عن فِعل الباطل كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[ص: 27]، بل كل ما فعله إنما فعله بالحق وللحق كما قال: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: 39]، وله المُلك والملك بالحق كما قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى

يبقى هذا القسم محروماً عن أثر الجود وأما كمال حكمتي فلأنه وإن كان الفساد والقتل يحصلان كثيراً أن الأكثر عدمهما وحصول العبودية والتذلل وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كبير وهو غير لائق بحكمتي. وأما كمال حالتهم ودرجاتهم فهو أن العمل بمقتضى العقل عند عدم الشهوة ليس في غاية الكمال إنما الكمال العمل بمقتضى العقل مع قيام منازع الشهوة كما في حق البشر، ويحتمل في ظنوننا أن المُراد بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هو هذا المعنى والله أعلم بأسرار كلامه.

القسم الثاني للمخلوقات: اعلم أن مخلوقات الله تعالى بحسب التقسيم العقلي على ثلاثة أقسام فإنها إما أن تكون أرواحاً قدسية نورانية ربانية بلا جسد، وإما أن تكون أجساداً بلا أرواح وإما أن تكون مركبة من الأرواح والأجساد، أما القسم الأول فهم الملائكة عليهم السلام.

ولهذا السر سمّاهم الله في القرآن روحاً. قال في سورة البقرة في صفة عيسى ابن مريم: ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: 87]، و﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193] وقال في سورة مريم عليها السلام: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: 17]، وقال في سورة النبإ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ [النبإ: 38]، سمى آثارهم في أرواح البشر روحاً فقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ [النحل: 2]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: 52].

وأما القسم الثاني التي تكون أجساداً بلا روح فهي الحيوانات والنبات والمعادن، فإن قيل: للحيوان روح فلِمَ أدخلتها تحت قسم الأجساد؟ قلنا: مرادنا من الروح الأرواح اللطيفة التي تقوى على إدراك المعقولات والمجردات وليس لسائر الحيوانات هذا الروح، ولمّا دخل في الوجود هذان القسمان ففي القسم الثالث وهو الموجود الذي يحصل من الازدواج بين الأرواح العلوية والأجسام السفلية والازدواج بين النورانية الربانية اللطيفة والأجسام الظلمانية الشهوانية الكثيفة فحصل من ذلك الازدواج الإنسان فجسده من عالم الخلق وروحه من عالم الأمر فلا جرم قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، وحصل جسده بالتسوية وروحه بالنفخ فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، وكان جسده من فطرة هذا العالم وروحه من فطرة العالم الأعلى فقال في فطرة جسده: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون: 12]، إلى تمام المراتب الستة، ثم قال في فطرة روحه في المرتبة

ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 62]، ومتى علمنا أنّ الأمر كذلك علمنا أنّ في تخليق البشر حكماً بالغة وقدرة نافذة وأسراراً عجيبة شريفة لا يعلم أكثرها إلا هو ولكنه تعالى لم يكشف تفاصيلها للبشر كما قال: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51]، فوجب الإيمان بتلك الحكم على الإجمال وترك الخوض في تفاصيلها.

الطريق الثاني: بيان حكمة خلق الإنسان على التفصيل وفيه وجوه:

الأول: إن المخلوقات على أربعة أقسام:

أحدها: الذي له عقل ولا شهوة له وهم الملائكة، قال تعالى في حقهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: 6]، وقال أيضاً: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: 50].

الثاني: له شهوة ولا عقل له وهو كل حيوانات سوى الإنسان.

الثالث: الذي له شهوة وعقل وهو الإنسان، فإن رجح شهوته عقله التحق بالبهائم بل كان أضلّ كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:179]، وإن رجح عقله شهوته التحق بالملائكة بل أفضل لأن الملائكة عليهم السلام معصومون والإنسان مبتلى بالشهوات ولا حول ولا قوة إلا بعصمة الله كما قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

الرابع: الذي لا عقل له ولا شهوة وهي الجمادات.

ثم إنه ﷻ كان في العهد الأقدم والزمان الأسبق خلق الأقسام الثلاثة وبقي القسم الرابع وهو الذي يحصل فيه العقل والشهوة معاً فاقتضت قدرته التامة ومشيئته الكاملة خلق هذا القسم الرابع كي لا يبقى شيء من الأقسام الممكنة محروماً عن جود إيجاده ونعمة إبداعه فعند هذا قال للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالت الملائكة: إنك إذا جمعت بين الشهوة والغضب والعقل والحلم جاءت المنازعة فتولد الفساد من الشهوة ويولد سفك الدماء من الغضب فقال مدبر العالم المحيط علمه بجميع الكائنات والمجريات: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيحتمل والله أعلم بمراده أن يحصل من تخليقهم وتكوينهم كمال حكمتي ورحمتي وقدرتي ويحصل منه أيضاً كمال حالهم ودرجتهم، أما كمال قدرتي فلأن لا

الوجه الأول فلأن ذلك أنما يمكن إذا أدرك ثم غاب ويمتنع في حق الملائكة أن يغيبوا عن شيء عرفوه فكل ما عرفوه فذلك العرفان حاصل لهم أبداً لا يتبدل ذلك العرفان بالغفلة ولا ذلك الحضور بالغيبة وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 20].

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ [الصافات: 164]، وبقوله ﷺ: «**إن من الملائكة صافّين لا يركعون وراكعين لا يسجدون وساجدين لا يرفعون**» وبالجملة فأحوالهم باقية ومعارفهم دائمة وهم مصونون عن تغيّر الأحوال وتبدلات المعارف، فإن حصل لهم شوق فذاك يكون من القسم الثاني، أما الإنسان فإن هذين القسمين يمكن وقوعهما له بالنسبة إلى معرفة الله تعالى بل هما لازمان لكل العارفين ضرورة، وأما القسم الأول فإن الذي تجلّى للعارفين من الأمور الإلٰهية وإن كان في غاية الوضوح والتجلي إلا أنه يكون مسبوقاً بشوائب التخيّلات فإن الخيالات لا يقصر في هذا العالم من المحاكيات والتمثيلات وهي مكدرات للمعارف وإنما تمام التجلي في الآخرة حيث تزول الخيالات وتبطل التمثيلات فهذا آخر نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتضح.

القسم الثاني: إن الأمور الإلٰهية لا نهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ويكون الحاضر متناهياً والغائب غير متناهٍ، ولو أن العارفين خلق في أول وقت حدوث العالم ثم سار بأسرع سير في درجات المعارف الإلٰهية بل طار حول عرش الجلال أشد طيراناً إلى آخر وقت يتخيله الخيال ويستحضره العقل من أواخر أوقات أهل الجنة وأهل النار كان الحاصل من طيرانه وسيره متناهياً، ويكون ما لم يصل هو إليه غير متناهٍ وإذا كان الأمر كذلك ظهر أن القسم الأول من الشوق يزول في الآخرة.

وأما القسم الثاني من الشوق إلى الله تعالى فإنه لا يزول ألبتة بل كلما كان السير أشد وأكثر كان الشوق أكمل وأعظم.

إذا عرفت هذه القاعدة فنقول: كل من بقي على حالة واحدة فإن كانت تلك الحالة موجبة للذة ثم تغيب فعند بقائها واستمرارها لا يبقى لذيذاً وكذا إن كان مؤلماً فعند استمراره لا يبقى مؤلماً بل اللذة والألم لا يحصلان إلا عند الانتقال من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر، ولنضرب لها مثالاً من المحسوس فأحوال الخلق بالنسبة إلى الأغذية الطيبة والأطعمة اللذيذة ثلاثة:

السابعة: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:14]، وذكر أن جسده من هذا العالم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، وإن روحه متوجه إلى ذلك العالم وهو قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وبيّن أن طاعة الجسد هو الاشتغال بالعبادات، وأن طاعة الروح هو التوكل على رب الأرضين والسمٰوات فقال في آخر سورة هود: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]، واعلم أن دلائل كمال القدرة وجلال الحكمة في تخليق هذا النوع أتمّ وأكمل وبيانه من وجوه:

الحجة الأولى: أن الروح علوي والبدن سفلي، والعلو والسفل ضدّان والروح نوراني والبدن ظلماني والنور والظلمة ضدان، والروح لطيف والبدن كثيف واللطافة والكثافة ضدان والروح سمائي والبدن أرضي والسماء والأرض ضدان، والروح رحماني بدليل أنه لا يرغب إلا في معرفة الله ولا يفرح إلاّ بخدمة الله ولا يميل إلاّ إلى محبة الله ولا يبتهج إلاّ بمطالعة أنوار جلال الله ولا يطمئن إلاّ بذكر الله ولا يستقر إلاّ على عتبة قدس كبرياء الله، وأما البدن فإنه شيطاني شهواني لأنه لا يغتذى إلا بدردي العالم الجسماني ولا يفرح ولا يقوى إلاّ بالانغماس في الشهوانيات والظلمانيات، وإذا كان الأمر على هذه الجملة حصل بين الروح والجسد منافاة عظيمة ومباينة تامة فالجمع بينهما يدل على قدرة كاملة وحكمة عالية ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

الحجة الثانية: أن الشوق إلى الله تعالى مقام شريف وفيه لذة عجيبة وهذا المقام غير حاصل إلا للبشر واعلم أن هذا الكلام لا يتخلص إلا بتقديم حقيقة الشوق فنقول: إن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر، أمّا الذي لم يدرك بوجه من الوجوه أصلاً فلا يُشتاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لم يتصور أن يشتاق إليه وما أدرك بكماله وتمامه لا يشتاق إليه لأن الشوق طلب وطلب الحاضر محال، ثم إن الشوق إلى المحبوب يقع على وجهين:

الأول: أنه إذا رآه ثم غاب عنه بقي في خياله أثر تلك الصورة المحسوسة واشتاق الروح إلى أن ينقل ذلك الأثر من عالم الخيال إلى عالم الحس.

الوجه الثاني: أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره ولا سائر محاسنه فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط.

وإذا عرفت هذا فنقول: هذان الوجهان غير متصورين في حق الملائكة أما

القدس في روح الإنسان وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إشارة إلى طوفان ظلمات النفس الجسمانية والموانع الشهوانية النفسانية.

الحجة الثالثة: أن بتخليق الملائكة ظهرت القدرة والحكمة وذلك لأن كمال قوتهم يدل على كمال قدرة خالقهم، وكمال عصمتهم يدل على كمال قدس خالقهم، أما بتخليق البشر ظهر كمال الجود وكمال الرحمة، أما كمال الجود فلأنه لا مناسبة بين التراب وبين جلال رب الأرباب، ثم إنه برحمته وكرمه جعله مركز المحبة ومعدن المعرفة كما قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وأما كمال الرحمة فلأنه مع كثرة معاصيه أظهر فيه أنواعه من العجائب فأودع في قلبه نور عرفان جلاله وأجرى على لسانه ذكر توحيده وجعل عينيه محلاً لأبصار دلائله وأذنه محلاً لسماع كلامه، فالملائكة عليهم السلام [ظهرت بهم القدرة والحكمة][1] والبشر بهم ظهر الجود والرحمة.

الوجه الرابع: أن الملائكة عليهم السلام خلقوا من الأنوار أما آثار التركيب في البشر أكثر وذلك لأنه تعالى خلق الإنسان من جوهرين: الروح والبدن وأظهره من اثنين الأم والأب وركبه من شيئين من المني والدم، وجعل له مطيتين الليل والنهار، وغذاه بغذاءين الطعام والشراب، وأعد له دارين الجنة والنار كل ذلك ليتحقق صدق قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: 49].

الوجه الخامس: أن العبد يعلم ربه بالقدس والعظمة وصفات الجلال والإكرام مع أنه أبعد الأشياء مشابهة له ومشاكلة ثم إنه لا يعلم روحه ونفسه مع أنه هو هو كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، ليعلم العبد أن كل ذلك بسبب مدد التوفيق والإرشاد لا بسبب الجد والاجتهاد.

القسم الثالث: للموجودات بحسب القسمة أربعة:

أحدها: موجود لا أول له ولا آخر وهو الحق ﷻ.

الثاني: موجود له أول وآخر وهو الدنيا.

الثالث: موجود له أول ولا آخر له وهو العبد في الآخرة.

---

(1) في الأصل: ظهرت القدرة بهم الحكمة.

الأول: حال الملوك المتنعمين المتوسعين في أكل الأشياء اللذيذة الطيبة ولا يلتذون بها وذلك لأنه لما واظبوا على أكلها اعتادوها فلا يلتذون بها.

القسم الثاني: الفقراء الذين لا يأكلون إلا الأطعمة الخشنة الخبيثة البشعة ولم يتفق لهم ألبتة تناول الأطعمة الطيبة.

القسم الثالث: الذين يأكلون في أكثر الأمر الأطعمة الخشنة البشعة وقد يتفق لهم في بعض الأحوال الأطعمة اللذيذة فهؤلاء إذا وجدوا طعاماً فيه أدنى طيب ولذة يستلذونها في الغاية.

وإذا عرفت هذا فنقول: الملائكة المقربون وإن كانت درجاتهم في العرفان عالية إلا أن تلك الدرجات باقية مستمرة فهم كالملوك المتنعمين، وإن كانوا مواظبين على الاقتداء بأنوار الجلال والاستنشاق من نسيم روح الله إلا أنه لم يتفق لهم فترة في هذه الحالة ولا انتقال عن هذه الدرجة وما وقعوا في ظلمة المعصية وانكسار ظلمات الذنوب.

وأما الحيوانات فحالهم يشبه حال الفقراء المواظبين على الفقر والضر والبؤس والمسكنة والجوع والعري ولم يتفق لهم انتقال من هذه الحال إلى حال طيبة فلا جرم لا يكون لهم ألم من الحالة التي هم فيها.

وأما الإنسان فتارة يقع في ظلمات عالم الأجسام وتارة يتخلص منها إلى أنوار عالم القدس وسبحات سرادقات الجلال فينتقلون تارة من الشدة إلى الرخاء، والأخرى من الرخاء إلى الشدة، فإذا انتقلوا من الشدة إلى الرخاء ومن الابتلاء إلى النعماء بأعظم التذاذهم فلا جرم يحصل هناك من اللذات والسعادات ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإذا كانت أسباب هذه الغيبة بعد الحضور والحضور بعد الغيبة متعاقبة على الأرواح البشرية في دار الدنيا حصلت هناك آلام ولذات متعاقبة على الأرواح البشرية في دار الدنيا، واللذة إذا حصلت بحيث يكون قبلها فقدان وبعدها توقع الحرمان كان الالتذاذ بها أشد وأكمل، فهذا النوع من السعادة والبهجة الحاصلة للإنسان غير حاصلة للملائكة المقربين ولا لسائر الحيوانات فيمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ هذه الحالة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب:72]، فقوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ أي: تجلّى أنوار عالم

ذلك المال من غير حمد ولا أجر ولا يبقى عليه إلاّ الخسار والذي ينفقه في سبيل الله يبقى كل ذلك في خزانة رحمة الله كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل: 96].

القسم الرابع للمخلوقات: اعلم أنها على ثلاثة أقسام:

إما كاملة لا يتطرق إليها النقصانات وهم أصحاب العالم العلوي أجسادهم السمٰوات وأرواحهم الملائكة.

وإما ناقصة لا يتطرق إليها الكمال وهي الحيوانات والنباتات والمعادن. وبقي في التقسيم قسم يليهما[1] وهم الذين يكونون تارة كاملين وتارة يصيرون ناقصين وإذا صاروا في حد الكمال كانوا فوق العرش جالسين مع الملائكة المقربين في حضرة رب العالمين معتكفين على عتبة عز الله مواظبين على ذكر جلال الله متفكرين في معارج آلاء الله متوكلين على رحمة الله مشتغلين بخدمة الله مستغرقين في محبّة الله محترقين في تنور عظمة الله. وتارة ينزلون إلى حد النقصان ومقام الشهوة والغضب، أما في مقام الشهوة فتارة يكونون كالخنزير [إذا][2] منع ثم أرسل على النجاسات وتارة كالذباب الذي كلما ذُبّ آبَ إلى قاذورات. وأما في الغضب فتارة يكونون كالكلب العقور وتارة كالجمل الصؤول وثالثاً كالنار المحرقة والسيول المغرقة والبحار المغرقة فهو مع كونه شخصاً واحداً يصدق عليه أنه ملك نوراني وشيطان ظلماني وخنزير حريص وحمار صبور وكلب نابح وثعلب رواغ وفاسق خبيث وملك كريم ولا شك أن تركيب شخص واحد يظهر منه هذه الآثار المتناقضة والأحوال المباينة أدلّ على كمال القدرة وأظهر في إظهار الحكمة فلهذا السبب ـ والله أعلم ـ قال ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

واعلم أن الإنسان الموصوف بهذه الصفات بعث إلى هذه الدنيا ليكون مسافراً، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: «الناس سفر والدنيا دار ممرّ لا دار مقر» وبطن أمه مبدأ سفره والآخرة مقصده وزمن حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاه إلى أجله ويُسار به السفينة براكبها فقد

---

(1) في الأصل: يليه.
(2) [إذا منع] في الأصل: كالخنزير أمنع.

وأما القسم الرابع: وهو الذي لا أول له وله آخر وهذا محال لما ثبت في علم الأصول أنّ ما ثبت قدمه استحال عليه [العدم][1]، إذا عرفت هذا فنقول: أيها العبد لك أول ولا آخر لك وكذلك الآخرة لها أول ولا آخر[2] لها فانظر أنك كفؤ للدنيا وكفو للآخرة، فإذا نظرت لا يخفى عليك أنك كفؤ الآخرة فلما كان الأمر كذلك فالحق ﷻ خلق الملائكة للبقاء أبد الآباد في الآخرة وخلقك أيضاً للبقاء كذلك أبد الآباد في الآخرة، إلا أن إظهار القدرة والرحمة في خلقك للبقاء أتم من إظهارها بسبب خلق الملائكة وذلك لأنها ذوات نورانية مُبرّاة عن الإسقام والإعلال والأمراض، فلعله يخطر ببال أحد أن بقاءها إنما كان لكونها صافية نورانية ثم إنه تعالى أزال هذه الخيالات بأن خلقك من أكثف الأشياء وأشد[ها][3] ظلمة وهو التراب وجعلك محلاً للإسقام والإعلال ومنزل الآفات والأمراض ثم جعلك في البقاء الأبدي كفؤاً للملائكة المقرّبين ليظهر للخلق أن البقاء لا يحصل إلا بإيجاده وإبداعه.

واعلم أنك قد عرفت أن الدنيا لها أول وآخر وأنها تنقضي ولا تبقى ألبتة، وكما أن من صفتها أنها لا تبقى ألبتة فكذلك من صفتها أن الإنسان كلما كان أشد قبضاً للدنيا وإمساكاً كان فوات الدنيا عنه أكبر، والدليل عليه أنه تعالى شبه الدنيا بالماء فقال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: 24]، والماء إذا اغترفت منه بقي في يدك فأما إذا قبضت يدك على الماء لم يبق[4] شيء، فكلّما كان ذلك القبض أشد كان بقاء الماء[5] في الكفّ أقل وكذلك الدنيا مهما أخذتها بالحرص فربما حصلت، فأما إذا قبضت عليها بمخالب حرصك فأتت وخرجت عن يدك.

فإن قيل: أفترى[6] أن البخيل الذي يمسك المال يكثر ماله والسخي الذي ينفق المال يقل ماله؟

قلنا: هذا خطأ لأن الذي يظن أنه بقي عليه ماله ليس كذلك لأنه يموت فيؤخذ

---

(1) زيادة على الأصل: يقتضيها السياق.
(2) في الأصل: ولا آخرة.
(3) زيادة يقتضيها السياق.
(4) زيادة يقتضيها السياق.
(5) في الأصل: كان عدم بقاء الماء.
(6) في الأصل: افترى.

الفصل الثاني:
في شرح فضيلة الإنسان

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

اعلم أن هذه الآية مشتملة على أربعة أنواع من التشريفات:

النوع الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: اعلم أنه ﷻ بنى أمرك على الأول والوسط والنهاية على الكرم واعترف العدوّ بذلك ثم بيّن الحق كرامتك ثم شبهك في ذلك بالملائكة المقربين:

أما أنه بنى أول أمرك على الكرم فهو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ فهذه الآية أول آية أنزلها الله تعالى على الرسول ﷺ وقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ إشارة إلى أول وجودك فثبت أن أول آية أنزلها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ إنما أنزلها لبيان كرمه وجوده في أول أحوال خلقتك وإيجادك، وفيه دقيقة وهي أن أول أمرك غير مبني على كونك كريماً بل على كونك أكرم الموجودات لأنه قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

وتأكد هذا الكلام الذي ذكرناه بما يروى أن آدم عليه السلام لما عطس قالت الملائكة له: قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله تعالى. [فقال][1] تعالى: يرحمك الله، ولذلك خلقتك.

وأما أنه بنى وسط أمرك على الكرم فهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾. وأما أنه بنى خاتمة أمرك على الكرم فهو قوله تعالى يوم القيامة عند عجزك وشدة

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

دعي إلى دار السلام كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، ثم إن دار السلام أشرف البقاع وأعز المواضع قال تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: 25]، وقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]، لكن الطريق إلى دار السلام مظلم جداً فهو برحمته يهدي إليه وبفضله يرشد إليه وبإحسانه يدعو إليه وبكرمه يسهل المشي إليه وبجوده يعفو عن الذنوب ويتجاوز عن السيئات فلهذا المعنى قال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فهذا تمام الكلام في حكمة خلق الإنسان، وبالله التوفيق.

ومنها: أنه يمطر على الشاكرين مطر الزيادة قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

ومنها: أنه يمطر على المتذكرين مطر الهداية والبصيرة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، والاستقصاء في هذا الباب خارج عن وسع البر وكل داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

البحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾.

اعلم أن عطية الله تعالى لها أسماء كثيرة في القرآن:

أحدها: الفضل، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]، أي: ينبغي أن يكون فرحكم بفضل الله. عليكم بالإيمان لا بأعمالكم وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون: العبد وإن أطاع ربه بأعظم الطاعات من أول خلق العالم إلى قيام الساعة فإنه لا يدخل الجنة إلا بفضل الله ورحمته، ولا يكون للعبد على ربه دين ولا حق ومما يدل على صحة هذا المعنى وجوه:

الأول: أن هذا العبد وإن أطاع فربما وجد من صحبه عبداً كان أذكى منه وأكثر صدقاً وعلماً منه، ومع أنه وقع في الكفر فإذا كان كذلك فكل أحد من هذين العبدين، أعني المطيع والعاصي والمؤمن والكافر والمقر والمنكر، يصح أن يصدر من كل واحد منهما كل واحد من هذين العملين فهذا المطيع اختار الطاعة مع أنه يجوز منه أن يختار المعصية بدلاً عن الطاعة فإما أن يقال: حصل هذا الرجحان من غير المرجح وهو [إمّا][1] أن يفضي إلى نفي الصانع أو يوقف على مرجح وذلك المرجح إن كان من العبد عاد الطلب الأول ويفضي إلى التسلسل وإن كان من الله فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة من الله تعالى في حقه نعمة وإذا كان صدور الطاعة من العبد عين نعمة الله على العبد فكيف يستحق العبد بنعمة الله عليه في الدنيا نعمة أخرى منه في العقبى فهذا برهان أوضح من ضوء الشمس على أن (كل ما)[2] يحصل فإنه إنما يحصل بفضل الله وبرحمته فلهذا قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

(2) (كل ما) في الأصل: (كلاً).

خوفك وعدم قدرتك على تمهيد الاعتذار. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]، قال بعض المفسرين: هذا تلقين للجواب والمقصود أن العبد يقول: يا رب غرني بك غاية كرمك وحلمك. فلما كان أول هذا الأمر وأوسطه وآخره مبنياً على الكرم ظهر أن العبد لا يضيع في بحار كرمه ولا يخيب مع كثرة نعمه، وأما أنه حيث اعترف العدو بذلك فلأن إبليس وهو أعدى الأعداء قد اعترف بذلك حيث قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: 62].

أما أنه تعالى بيّن نهاية كرامتك فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، وأما أنه شبّهك بالملائكة في هذه الصفة فلأنه تعالى وصف الملائكة بالكرم فقال في صفة جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: 40]، وقال في صفة يوسف عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، وقال في صفة الملائكة عليهم السلام الذين كانوا ضيف إبراهيم عليه السلام فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24] وقال تعالى في صفة جميع الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26].

ثمّ هاهنا حقيقة وهي أنه تعالى قال في بيان صفة الملائكة: (أنهم مكرمون) من غير التشديد وقال في حق البشر: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، ذكره مع التشديد والمقصود من هذا التشديد بيان تكثير الكرامات في حق التشديد، وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: إن أنواع كرامات الله في حق البشر غير متناهية ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34]، فهذا على سبيل الإجمال وأما على سبيل التفصيل فمن وجوه:

الأول: أنه يمطر كل ساعة على المتوكلين مطر الكفاية دليله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]، وكل مؤمن فهو متوكل على الله بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: 129]، وقال عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173]، قال تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ [آل عمران: 174]، ومنها أنه يمطر كل ساعة على المطيعين مطر المودة، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96].

ومنها: أنه يمطر على المجتهدين مطر الهداية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69].

69]، وفي هذه الدلائل كثرة ومقصودنا هاهنا إقامة هذه الدلائل القاطعة على صحة قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾.

الاسم الثاني: من أسماء عطية الله تعالى: المنة، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: 17]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]، ومن الأسماء الواردة في الحديث: "الحنّان المنّان".

فإن قيل: أليس أنه تعالى نهى رسوله عن المنة فقال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: 6]، ونهى الله تعالى المتصدق عن المنة، فقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وبيّن أن المنة توجب الرياء فقال: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264]، وإذا بيّن أن هذه الخصلة مذمومة فكيف ارتضاها لنفسه؟

الجواب: أنه تعالى إذا أنعم على العبد ثم منّ عليه بتلك النعمة صار العبد مشغولاً بالمنة وصار غافلاً عن النعمة، والمنة صفة الحق والنعمة من جنس الخلق والاشتغال بصفة الحق أولى من الاشتغال بالخلق.

الاسم الثالث: من أسماء عطية الله تعالى: [الإحسان] قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:60] وقال يوسف ﷺ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: 100]، وقال موسى ﷺ لقارون: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77].

الاسم الرابع: اللطيف. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19]، ومن لطفه أنه نوّر قلبك بالهدى وجنبك عن الردى والهوى، وجعلك من أمة المصطفى ﷺ ووعد أن يصونك عن العذاب تحت الثرى، ويحشرك في زمرة أرباب التقى، ويقيك من عذاب السعير واللظى، ويدخلك جنة المأوى ويعطيك الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

الاسم الخامس: الهبة. قال الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: 49].

الاسم السادس: الفتح. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: 2]، وقال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89].

الحجة الثانية: وهو أن العبد إلى أن يصير بحيث يقدر على أن يأتي بالطاعة ويحترز عن المعصية فقد سبق من الله عليه نعمة كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، فهو الذي خلقه بعد أن كان معدوماً محضاً كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9]، ثم خلقه من التراب كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ثم ردده في أطوار الخلقة وأكوان الفطرة ثم نفخ فيه الروح وخلق فيه الحياة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ ثم أعطاه القدرة كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54]، ثم أعطاه العقل والعلم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: 78]، ثم أعطاه الصورة الحسنة كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، ثم أعطاه الأغذية والأرزاق كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: 40]، ثم إنه تعالى بعد هذه النعمة العظيمة الدنيوية أنعم عليه بالنعمة العظيمة الدينية وهو بعث الرسل صلوات الله عليهم وإنزال الكتب وإزالة الختم والرق والرين والقساوة من قلبه وأعطاه التوفيق والهداية والعصمة، ثم إن هذا العبد بعد هذه النعم العظيمة أتى بطاعات قليلة مزجاة غير صافية كما يليق بقدرته القاصرة وعقله الناقص المختصر بحكم العقل بوقوع هذه الطاعات اليسيرة المخلّطة قضاءً لحق تلك النعمة العظيمة المتقدمة، وإذا وقعت هذه الطاعات قضاء لتلك النعم السابقة امتنع صيرورتها موجبة لنعمة أخرى وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن دخول الجنة يكون بمحض فضله ورحمته.

الحجة الثالثة: أنه يمكن أن يصير فعل العبد علة لاستحقاق الثواب على الله تعالى، إلا أن فرح العبد بما يعطيه الله بفضله وإحسانه يجب أن يكون أعظم من فرحه بما يجده من كسبه واجتهاده. ومثاله أن وجد بكسبه ديناراً ووجد من تشريف الملك العظيم خلقة نفيسة على سبيل الإعزاز فإن فرح كل عاقل بما حصل من تشريف الملك يكون أتم وأكمل من ذلك القليل الذي حصله بكسبه، فإذا كان الأمر كذلك في السلطان المجازي والملك المختصر فما ظنّك بتشريف سلطان السلاطين على سبيل الحقيقة في إعطاء الملك الأبدي فلهذا قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

الحجة الرابعة: أنه تعالى جعل اشتغال العبد بالطاعة مبدأ الخيرات وجعل إعانة الله له على تلك الطاعات غاية السعادات، ألا ترى أنه قال أولاً: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ثم قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وقال أولاً: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:

الثالث: أن المراد منه دين الله ثم ذكروا في أنه: لِم سمي دين الله بصبغة الله وجوهاً:

أحدها: أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونهم العمودية ويقولون: هو تطهير لهم فإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً، فقال الله تعالى: اطلبوا صبغة الله وهي الدين والإسلام لا صبغتهم وقيل: السبب في إطلاق الصبغة على الدين طريقة المشاكلة، نظيره قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194]، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 14-15]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: 142]، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 54]، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38].

الثاني: أن اليهود يصبغ أبناءها يهودًا والنصارى يصبغ أولادها نصارى يعني يلقنونهم فيصبغونهم بذلك ثم يشربون قلوب أولادهم هذه الأديان، قال ابن الأنباري: يقال: فلان يصبغ فلاناً في الشر أي: يدخله فيه ويلزمه إياه كما يجعل الصبغ لازماً للثوب، وأنشد ثعلب:

دع الشر وأنزل بالنجاة تحرزا إذا أنت لم يصبغك في الشر صابغ

الثالث: أنه سمي الدين صبغة لأن هيئته تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغيرهما، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]، والركوع، قال القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني: صبغة الله معلق بقوله: «آمنا بالله ـ إلى قوله: ونحن له مسلمون» فوصف هذا الإيمان الصادر منهم بأنه صبغة الله لتبين أن المباينة بين هذا الدين [الذي] اختاره وبين الدين الذي اختاره المبطل ظاهرة جلية كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لدى الحس السليم.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: 4]، اعلم أن التقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل يقال: قوّمه تقويمًا فاستقام وتقوّم، ثم ذكروا وجوهاً في هذا التقويم:

منها: ما نقل عن يحيى بن أكثم وجماعة أنه حسن الصورة، يحكى: أن ملكاً من ملوك زمانه خلى بامرأته في ليلة مقمرة فقال لها: إن لم تكوني أحسن من القمر

الاسم السابع: الإكرام والتكريم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، والتكريم هو جعل الشيء كريماً ولا شك [أن] صيرورة الشيء كريماً إنما يكون بحصول صفات الكمال فيه وحصول تلك الصفات لا يكون إلا بإيجاد الحق وتكوينه فظهر أن التكريم لا يحصل إلا بإكرامه والحسنى لا يحصل إلا من جوده وإحسانه.

البحث الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

اعلم قد اختلف المفسرون في المراد بهذا التكريم وذكروا فيه أقوالاً كثيرة وطريق ضبط القول فيها أن نقول: هذا التكريم إما أن يكون المراد منه أحوالاً موجودة في جسد الإنسان أو أحوالاً موجودة في روحه أو مجموعهما، أما الأحوال الجسدانية فيمكن حمل هذا التكريم على أمور:

النوع الأول: أن يكون المراد [من] ولقد كرمنا بني آدم الصور الحسنة والذي يدل على أن الصورة الحسنة من جملة نعم الله تعالى على العبد [وهي من] وجوه:

الحجة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾. [غافر: 64]

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: 138].

اعلم أن الصبغة ما يُصبغ [بها] الثياب يقال: صبغ الثوب يصبغه بفتح الباء وضمها وكسرها ثلاث لغات، صَبغاً وصِبغاً بفتح الصاد وكسرها لغتان، والصبغة فعلة من الصبغ كالجلسة من جلس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ وذكروا في المراد بصبغة الله وجوهاً:

الأول: المراد به تركيبه وصورته وخلقته وفطرته وعلى هذا القول فالآية تدل على كمال حسن صورة الإنسان من وجهين:

أحدهما: أنه تعالى لما أضاف هذه الصبغة إلى نفسه دل ذلك على كمالها كما في قوله تعالى: «بيت الله» و«ناقة الله».

والثاني: أنه قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:138] وهذا يدل على كمال هذه الصبغة.

وثانيها: أنه وقع بسبب الحسن في أسر الرق قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20].

وثالثها: أنه وقع بسبب الحسن في زحمة مراودة المرأة قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: 23].

ورابعها: أنه وقع في الهم كما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 24].

وخامسها: أنه وقع في الخوف من زوج تلك المرأة وقال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: 25].

وسادسها: أنهم جعلوه في السجن بسبب هذه الواقعة وبقي هناك مدة طويلة قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]، فهذه هي الآفات الحاصلة بسبب حسن الصورة. **أما الخيرات الحاصلة بسبب حسن السيرة فوجوه:**

أحدها: أنه لما كان عالماً بعلم التعبير خاطبوه خطاب التعظيم واستفتوا منه تعبير تلك الرؤيا، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: 46].

وثانيها: أن الملك لما وجد عنده هذا العلم طلبه وأخرجه من السجن قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ [يوسف: 50].

وثالثها: أنه زالت التهمة عنه في ذلك الوقت ببركة العلم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54].

ورابعها: أن الملك اصطفاه لنفسه عند ذلك قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾.

وخامسها: أن يوسف عليه السلام توسل إلى ذلك الملك بحسن السيرة لا بحسن الصورة فقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55].

فأنت طالق، فأفتى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكثم فإنه قال: لا يقع الطلاق فقيل له: خالفت شيوخك، فقال: الفتوى بالعلم وقد أفتى من هو أعلم منّا وهو الله ﷻ حيث قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4] وكان بعض الصالحين يقول: إلٰهنا أعطيتنا في الأول أحسن الأشكال فأعطنا في الآخرة أحسن الأفعال وهو العفو عن الذنوب والتجاوز عن العيوب.

الحجة الرابعة: أن كل شخص فله حكمان أحدهما من جهة جسمه وهو منظره والآخر من قبل نفسه وهو مخبره، وكثيراً ما يتلازمان ولذلك فرّع أصحاب الفراسة من معرفة أحوال النفس أدلّة إلى الهيئة البدنية حتى قال بعض الحكماء: قلّما توجد صورة حسنة تدبرها نفس رديئة فنقش الخواتيم مفرد من الكنز وطالعة الوجه عنوان باقي النفس قال ﷺ: «**اطلبوا الخير من حسان الوجوه**»، وقال عمر ﵁: (إذا بعثتم رسولاً فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم). وحكي أن المأمون استعرض جيشاً فمرّ به رجل قبيح الوجه فاستنطقه فوجده ألكن فأمر إسقاطه وقال: إن الروح إذا وقع أثرها في الظاهر كانت صباحة، وإذا وقع أثرها في الباطن كانت فصاحة وهذا الرجل لا ظاهر له ولا باطن.

الحجة الخامسة: في أن كمال الجسم من الفضائل قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]، واعلم أن حسن الصورة وإن كان مرغوباً فيه إلا أن حسن السيرة أفضل منه، **ويدل عليه وجوه:**

الحجة الأولى: إن حسن الصورة من مطالب الشهوة، وحسن السيرة من مطالب الحكمة ولا شك أن الحكمة أفضل من الشهوة، وكان حسن السيرة أفضل حالة من حسن الصورة.

الحجة الثانية: أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه اجتمع له حسن الصورة وحسن السيرة ثم إنه بسبب حسن الصورة وقع في أنواع من البلاء:

منها: أن أباه كان يحبه أكثر كما أخبر الله تعالى عن إخوته قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: 8]، فلهذا قصدوا قتله كما أخبر الله تعالى حكاية عنهم قولهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 9].

على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191]، فمن أتى بركعة واحدة فقد حصلت في تلك الركعة الواحدة الهيئات الأربع وهي: القيام والركوع والسجود والقعود، فحينئذ يحصل له ثواب هذه الأصناف الأربعة فإقدار الله تعالى الإنسان على جميع هذه الهيئات هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70].

الوجه الرابع: في هذا التكريم هو أنه تعالى خلق آدم من جوهر التراب وللتراب أنواع من الفضائل:

أحدها: الوصلة، وذلك لأنه تعالى خلق إبليس من النار كما قال تعالى حاكياً عنه: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، والنار سبب القطيعة والتراب سبب الوصلة.

والثاني: أن التراب فيه أمانة، قال تعالى: ﴿فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261]، وفيه لطيفة، وهي أنه خلقك من شيء فيه أمانة فاجتهد حتى لا تبدل الأمانة بالخيانة ولأجل كون التراب أميناً قَبِلَ آدم الأمانة وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ. . .﴾، إلى قوله: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72].

والثالث: أن التراب طاهر وطهور، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 42]، ثم قال: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: 26]، فلأجل هذا السر اصطفى الله تعالى آدم فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 33]، ثم اصطفى أبناءه فقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، ثم كرمهم فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾.

والرابع: التواضع والدليل عليه أن آدم عليه السلام لما أتى بالزلة قال في الحال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، ولما أتى إبليس بالمعصية قال له ربه: لِم فعلت؟ قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فتكبر على الله وردّ أمره.

والخامس: الطهارة قال عليه السلام: **«التراب طهور والمؤمن والماء أيضاً طهور»**(*)

(*) 1ـ رواه أحمد (5/ 180) وأبو داود (332) والترمذي (124) والنسائي (1/ 17) وابن حبان (301) والحاكم (1/ 176ـ177) من حديث أبي ذر وهو حديث صحيح. ولفظه «وإن الصعيد الطيب طهور [وضوء] المسلم. . .» الحديث.

فثبت بما قلنا أنه وقع في ستة أنواع من البلاء بسبب حسن الصورة ووصل إلى ستة أنواع من الخيرات بسبب حسن السيرة، وذلك يدل على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة.

الحجة الثالثة: أن النسوة لما رأين يوسف ﷺ قلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، حاش لله شبّهن يوسف بالملك وذلك التشبيه كان في حسن السيرة لا في حسن الصورة لأنه ﷺ دخل مطرقاً رأسه ولم ينظر إلى واحدة منهن مع أنه كان في أول زمن الشباب، حتى أن النسوة مع غاية شهوتهن لم يذكرن منه الصورة بل ذكرن منه السيرة فدلّ على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة.

الحجة الثالثة: أن حسن الصورة لا يبقى إلا أياماً قلائل أما حسن السيرة فإنه لا يزول أثره ولا تبطل نتيجته فدل هذا على أن حسن السيرة أفضل من حسن الصورة، فهذا جملة الكلام في شرح قول من قال: المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ حسن الصورة وحسن السيرة.

الوجه الثاني: أن المراد من هذا التكريم امتداد القامة وذلك لأن الشيء كلما كان أكثر ارتفاعاً وامتداداً كان أعلى في جنسه، فالشجر كلما كان أكثر ارتفاعاً وامتداداً كان أشرف فلهذا السبب سمى كل من جاوز آحاد جنسه بصفات الشرف فإنه العالي والفائق.

الوجه الثالث: المراد بهذا التكريم: أكرم الإنسان حيث مكنه من القيام والقعود والاستلقاء والانضجاع. واعلم أنه تعالى خلق الخلق على أربعة أصناف في التركيب:

- **منها ما يشبه القائمين**: وهي الأشجار والنبات، ومنها ما يشبه الراكعين وهي البهائم.

- **ومنها ما يشبه الساجدين**: وهي الحشرات التي تدب على بطونها ووجوهها.

- **ومنها ما يشبه القاعدين**: وهي الجبال والتلال.

ثم إنه تعالى أقدر الإنسان على جميع هذه الهيئات ومكنه من أن يذكر الله ﷻ

خلقاً أكرم عليّ منك، بك آخذ وبك أعطي وبك أعاقب»(*)، وقال ﷺ: «**لادين لمن لا عقل له**»(**). وقال: «**لا يعجبنكم إسلام امرىء حتى تعرفوا كنه عقله**»(***)، وقالت الحكماء في تفسير هذا الخبر: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه. وأيضاً بالعقل قدر الإنسان على القيام بأمر الله في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: 9]، وقدر على تحصيل حرث الآخرة في قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ قالوا: ثمرة حرث الآخرة على التفصيل سبعة أشياء: بقاء بلا نفاذ وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا حاجة وأمن بلا خوف وراحة بلا شغل وعز بلا ذل.

وأيضاً أكثر المفسرين على أن معنى قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، الله هادي أهل السمٰوات والأرض، ومعلوم أن كمال تلك الهداية إنما يحصل بالعقل، وأيضاً العقل نوعان:

غريزيّ وهو القوة المتهيئة للعلوم الكلية القدسية، فوجود هذه القوة في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحب.

ومستفاد وهو كمال حال هذه القوة ثم هذا المستفاد ضربان: ضرب يحصل للإنسان حالاً فحالاً بلا اختيار منه ولا يعرف كيف حصل ومن أين حصل.

وضرب يحصل باختياره فيعرف كيف حصل ومن أين حصل، ولما انقسم العقل إلى غريزي ومستفاد قال أمير المؤمنين رضوان الله عليه: العقل عقلان مطبوع

(*) قال ابن القيم في المنار المنيف (ص: 66) تبعاً لشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: أحاديث العقل كلها كذب، ثم ذكر هذا الحديث.

والحديث موضوع بدون شك، انظر الموضوعات (27) للصمغاني، والمقاصد الحسنة (ص: 118) للسخاوي والأسرار المرفوعة (107) لملا علي القاري والفوائد المجموعة (ص: 478 - 477) للشوكاني.

(**)رواه النسائي في الكنى وعنه الدولابي في الكنى (2/ 104) وقال النسائي: باطل منكر. وفي إسناده بشر بن غالب وهو مجهول، وهو آفته كما قال الأزدي وأقره الذهبي في الميزان. ورواه الحارث في مسنده (1/ 327) من حديث جابر.

قال الحافظ: في المطالب العالية (3/ 13) أودع الحارث بن أبي أسامة لداود بن المحبر في مسنده من كتاب العقل له، وهي موضوعة كلها، لا يثبت منها شيء. وانظر سلسلة الضعيفة (1/ 13) وتنزيه الشريعة (1/ 213).

(***)رواه ابن عدي في الكامل (1/ 322-323) والعقيلي في الضعفاء (1/ 103) من حديث ابن عمر، وفيه إسحاق ابن أبي فروة وهو متروك.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48]، ثم عجن التراب بالماء طاهراً بطاهر وطهوراً بطهور.

واعلم أن النار لا تنطفىء إلا بأحد السببين: التراب والماء فجعل هذا الطين سبباً لانطفاء نار الوسوسة في الدنيا وانطفاء نار جهنم في الآخرة، والله أعلم.

الوجه الخامس: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قال ابن عباس: كرمناهم بالأكل بالأصابع بخلاف البهائم فإنها تأكل بالفم، واعلم أن وجه التكريم في هذا المعنى من وجوه:

الأول: أن الرأس محل للعقل والفكر والذهن والأكل غذاء الشهوة والبطن ولا يليق بالحكمة أن يسجد الرأس الذي هو معدن العقل والفكر لأجل الغذاء الذي هو نصيب النفس بل جُعِلَت اليد خادمة حتى أن اليد ترفع اللقمة إلى الفم حتى يخدم العبد سيده، وفيه لطيفة وهي: أنه تعالى أغناك عن أن يخضع رأسك ويسجد لطلب الطعام فلا تختر بجهلك سجدة لمخلوق لطلب الطعام.

الوجه الثاني في شرح هذه النعمة: أن البهيمة تأخذ علفها بفمها ملطخة ملوثة أما الإنسان فإنه ينظف طعامه بأصابعه ويميز جيده عن رديئه، وهاهنا دقيقة وهي أنه ﷻ علق رعاية مصالح البهائم بطبائعها حتى أنها لطبعها تميز بين مصالحها ومفاسدها، فيحترز وقت تناولها العلف عمّا يؤذيها ويجذب ما ينفعها وهكذا تكون كل الطيور والبهائم والحشرات من أول الأمر، أما الإنسان فإنه علق رشده بعقله لا بطبعه حتى أن الإنسان قبل ظهور نور العقل فيه لا يميز بين النافع والضار، أما إذا حملنا هذا التكريم على الأرواح الروحانية ففيه وجوه:

الأول: ولقد كرمنا بني آدم بالعقل والفهم.

واعلم أنه ﷻ أقر العقل في كتابه من وجوه:

الأول: بكثرة أسمائه وسيجيء بعد ونذكر هاهنا بعضها:

فالاسم الأول: العقل قال موسى عليه السلام في مناظرته مع فرعون: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ...﴾، إلى قوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: 28]، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إذا رأيت عاقلاً فكن له خادماً، وقال عليه أفضل السلام: «**أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل ثم قال: أدبر فأدبر فقال تعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت**

نفسه عن فعل ما لا ينبغي قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾ [الفجر: 5].

الاسم الخامس: الحجي من حجاه الشيء إذا قطعه ومنه الأحجية، فكأنه سمى العقل بهذا الاسم لكونه قاطعاً بين الإنسان وبين الأفعال القبيحة.

الاسم السادس: أن العلم ثمرة العقل، ثم إنه تعالى سمى العلم نورًا والجهل ظلمة فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، وسماه أيضاً روحاً في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]، وسماه أيضاً حياة والجهل موتاً فقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ﴾ [الأنعام: 122]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: 22]، وأيضاً سماه ماء في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17]، وإذا كان العلم نتيجة للعقل وحال النتيجة في العلو والشرف كذلك فاعرف أن الأصل كيف يكون؟

النوع الثاني: في بيان فضائل العقل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [قَ: 37]، أي: لمن كان له عقل، فجعل من لا عقل له كأنه لا قلب له ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88 - 89]، وقال: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [قَ: 33]، والمراد بالقلب في كل هذه الآيات العقل، وأيضاً فقد أثبت الله تعالى للعقل أبصاراً ورؤية أما الأبصار ففي قوله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، وأما الرؤية ففي قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: 11]، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45]، وسمى عدم إدراك العقل عمى في آيات:

- منها قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 18].

- ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوع كما لا ينفع الشمس وضوء العين ممنوع، وإلى القسم الأول أشار النبي ﷺ بقوله: «**ما خلق الله تعالى خلقاً أكرم عليه من العقل**»(*) وإلى الثاني أشار بقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**إذا تقرب الناس إلى خالقهم بأثواب البر فتقرب أنت بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة**»(**).

واعلم أن لفظ العقل في اللغة اسم لما يقيد به البعير به لئلا يندّ، ويسمى هذا المعنى به تشبيهاً على عادتهم في تسمية المعقولات باسم المحسوسات تنبيهاً على أنه هو الذي يمنع الإنسان ويكون قيداً له عن الإقدام على ما لا ينبغي من الأفعال.

الاسم الثاني: اللب، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 179]، وقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 197]، وقال في سورة الطلاق: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الطلاق: 10]، وقال في سورة آل عمران: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: 190]، واعلم أن اللب من كل شيء هو المقصود الخالص منه وهذا الاسم يدل على أن المقصود من الإنسان إنما هو العقل وكيف لا يكون كذلك وأشرف الأمور الصادرة عن الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، ثم من الظاهر أن معرفة الحق أشرف من عمل الخير ومعرفة الحق لا يمكن إلا بالعقل فدل على أن لب الإنسان هو العقل.

الاسم الثالث: النهي، ويحتمل أن يكون جمع نهية وأن يكون اسماً مفرداً وجعل اسماً للعقل والذي ينتهي عن الاشتغال بالمحسوسات وتوجه إلى عالم المعقولات، فلهذا المعنى أجبل أربابه على تدبر معاني أرباب المحسوسات إلى معرفة ما فيه من المعقولات كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا. . .﴾ [طه: 128]، وقال: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: 128].

الاسم الرابع: الحِجْر، وأصله من الحجر أي: المنع وهو أن يحجر الإنسان

(*) قال العراقي في تخريج حديث الإحياء (1/ 119) أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف. وفي إسناده جعفر بن الزبير وهو متروك الحديث.

(**)ذكره الغزالي في الإحياء (1/ 119) بهذا اللفظ، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديثه: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي «**إذا اكتسب الناس من أنواع البر. .**»الحديث وإسناده ضعيف.

لنا فقال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22]، و-جعل الشمس ضياء لنا ومؤذناً لصلاتنا فقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: 17-18]، وجعل القمر معرفاً لأوقات صيامنا وحجّنا ومواقيت لقضاء ديوننا فقال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]، وزيّن السماء بالكواكب لأجلنا فقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: 6]، وجعل الكواكب علامات نهتدي بها في أسفارنا فقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ وجعل الشمس متحركة حتى نحن بحركتها نجد القبلة في النهار، وجعل القطب ساكناً حتى نحن بسكونه نجد القبلة في الليل، وخلق الأنعام لغذائك وثيابك فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: 5]، وسخر لنا الخيل والبغال والحمير فقال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8]، ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعددت لكم من المنافع بفضلي ما لا تعلمون، ثم ذكر الرسول ﷺ عن الله تعالى مثله في الجنة فقال تعالى: **«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»**(*)، ثم خلق النبات لأجلنا فقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ ثم قال لنا: أعطيناكم هذه الأشياء قبل السؤال بالفضل منا، قبل الطاعة كرماً منا فقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34]، ثم جمع جميع النعم فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 18]، وهذه الخاتمة أعظم مما تقدم من النعم وهي أعظمها وأجلها وذلك لأن الإنسان لما لم يشتغل بالشكر لم يشتغل بتعديد نعم الله عليه مهّد برحمته عذره في ترك ذلك الشكر فقال: إنها كثيرة وعقلك لا يقدر على استحضارها على التفصيل وكان هذا الترك للعجز فكنت معذوراً فيه وهو المراد من قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني غفور يستر عيبك في الدنيا ورحيم يتجاوز عن تقصيرك في الآخرة، وقال في سورة إبراهيم: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، وهذا إشارة إلى أن القدر الذي تقدر عليه من الشكر فإنه لا تفعله وتتغافل عنه.

(*) رواه البخاري: (3244 و4779 و4780 و7498) ومسلم (2824) والترمذي (3195) وابن ماجه (4328) من حديث أبي هريرة وهو حديث قدسي.

- ومنها: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 101]، فلولا أن المراد من العين هاهنا البصيرة لا البصر [لما][1] قال: عن ذكري لأن الذكر لا يدرك بحاسة البصر، وكيف لا يكون فقد البصيرة أعظم ضرراً من فقد البصر وقد عرفت أن البدن بمنزلة الفرس والنفس بمنزلة الراكب وضرر عمى الراكب نفسه أشد عليه من عمى فرسه وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: 22]، وقال أيضاً: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

فإن قيل: إن كان للعقل هذه الفضائل الكثيرة فلم قال: **«أكثر أهل الجنة البُلْه»**[*]؟ فالجواب من وجوه:

الأول: المراد بالبله الجاهلون بأمر الدنيا والعالمون بأمور الآخرة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

الثاني: أن من عبد الله للجنة فهو أبله في جنب من يعبده لكونه إلٰهاً رباً ملكاً.

الثالث: قال الحسن: أكثر أهل الجنة البله أي: هم حشو الجنة كالعامي في البلد.

الرابع: أكثر أهل الجنة البله أي: هم العصاة الذين عفى الله عنهم وأما العقلاء المطيعون فهم أهل الدرجات العلىٰ.

الوجه الثاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أنه ﷻ خلق كل ما سواه لأجلك فقال في الأرضيات: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، وقال في السمٰوات: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الجاثية: 13]، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة:22]، فالأرض فراشاً لنا والسماء سقفاً لنا فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32]، وجعل كل ما في الأرض رزقاً

---

(1) [لما]في الاصل [كما].

(*)رواه البزار وابن عدي في الكامل (3/ 1160) من حديث أنس وفي إسناده سلامة بن روح وهو ضعيف لسوء حفظه، وانظر تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية (ص: 5754573) للشيخ محمد ناصر الدين الألباني. وكذلك رواه الطحاوي في مشكل الآثار (4/ 121) وغيره.

فقال فيه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: 69]، وكذا الزبد والسكر ثم إنه تعالى أباح لنا الأكل فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]، ثم من كرمه أنه أعطى هذه الأغذية اللطيفة ثم أوقع في القلب إيثارها على الغير عند الحاجة إليها كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، حتى يجدونها في القيامة أحسن وأكمل كما قال: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96]، وعصمنا من حال من قال في صفته: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[الأحقاف: 20].

الوجه التاسع: أكرمنا بالأمر والنهي وتشريف التكليف ألا ترى أنه لما كان ولد الإنسان عليه أعز من عبده لا جرم تكون تكاليفه على ولده أكثر مما على عبده.

الوجه العاشر: قال علي بن أبي طالب ﷺ: ولقد كرمنا بني آدم أي: بالدعوة إلى الجنة قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: 25]، فأكرمكم بالدعوة إلى الدار ووعد لنا الملك الجبار كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

الوجه الحادي عشر: أنه تعالى خلق الخلق أصنافاً مختلفة ثم خصَّ الحيوان بمزيد الفضل والشرف وذلك لأنه لو خلق العرش والسمٰوات والشمس والقمر ولم يخلق حيواناً ألبتة لكان الكل عبثاً، لأنه سبحانه منزه عن النفع والضر وليس هناك حيوان ينتفع به ألبتة وكان خلق هذه الأشياء خالياً عن الحكمة، أما لو خلق العرش وخلق بعوضة وقال: خلقت العرش لتنتفع به هذه البعوضة خرج التخليق عن أن يكون عبثاً ودخل في أن يكون حكمة فثبت بهذا أن العرش يمكن جعله تبعاً للبعوضة ولا يمكن جعل البعوضة تبعاً للعرش فلهذا المعنى قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28]، ثم فضل الآدميين على كل الحيوانات كما قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، ثم فضَّل الذكور على النساء فقال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34]، ثم فضَّل المؤمن على الكافر فقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 47]، ثم فضَّل العلماء والمجاهدين، أما العلماء فقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، وقال في المجاهدين: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95]، ثم فضَّل الأنبياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، ثم فضَّل أولي العزم من الرسل فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا

الوجه الثالث: في تفسير قوله: ﴿كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، أنه اتخذ قلبه لمعرفته ومحبته ولسانه لشهادته، وبدنه لخدمته ثم في القيامة يعطيه كل ما يتمنى ويزيد إلى أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: 74].

الوجه الرابع: جعل أبانا آدم رسولاً إلى الملائكة حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ ثم جعلهم سجوداً له حيث قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ ثم لعن إبليس لأجل مخالفته فقال له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: 34-35]، ثم أباح لهم جميع ما في الجنة إلا شجرة واحدة فقال تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]، ثم لمّا وقع في الزلة تاب عليه فتاب قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122]، فالحمد لله رب العالمين عدد نعمه وعدد كل شيء حمداً لا ينفد ولا ينقطع أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ثم أكرمه بالاصطفاء فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ ثم خصَّه بالاجتباء من بعد العصيان فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 121-122]، ومعلوم أن إكرام الأب سبب لإكرام الابن.

الوجه الخامس: أنه جعل فيهم الأنبياء والرسل والأبرار، كما قال موسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: 20].

الوجه السادس: أنه تعالى أكرمنا بالخط الحسن فقال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ وقيل: بالصوت الحسن وقيل بالخلق الحسن فقال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: 1].

الوجه السابع: أنه تعالى أكرمنا بالفصاحة والبلاغة فقال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22]، وقال عليه السلام: «**إن من البيان لسحراً**»(*) وقال الحكماء: المرؤ بأصغريه قلبه ولسانه.

الوجه الثامن: أنه تعالى أكرمنا بالأطعمة الصافية اللذيذة كالسمن والعسل، أما السمن فقال فيه: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: 66]، وأما العسل

(*) ـ رواه البخاري: في الأدب المفرد (873) وأبو داود (5011) وأحمد (1/ 269 و273 و309 و313 و327 و332) من حديث ابن عباس وهو حديث صحيح.

الوجه الرابع: في الجواب: أنه تعالى عم المؤمن والكافر في تسعة أشياء: الخلق والرزق والأقدار وإرسال الرسل وإنزال الكتب والأمر والنهي والترغيب والترهيب، ثم خص المؤمن بسبعة أشياء:

إحداها: الهداية قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: 56].

وثانيها: المحبة والزينة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7].

وثالثها: التيسير ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: 7].

ورابعها: التوفيق ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، وقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

وخامسها: كراهة الكفر ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: 7].

وسادسها: القبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

وسابعها: المغفرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]، فهذا جملة الكلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فالحمد لله كثيراً.

النوع الثاني: من التشريفات المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والمعنى: أعطيناهم المراكب، أما في البر فهي الخيل والبغال والحمير لأجل ركوبنا والجمال لأجل ركوبنا وحمل أمتعتنا كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: 7]، وأما في البحر فهي السفن والزوارق، وفيه نكتة وهي أن الدنيا سجن المؤمن ودار البلاء ثم إنه في الدنيا أعطى أنواع المركبات والآخرة دار الرحمة والإحسان فكيف يترك العبد في القيامة بغير مركوب فلهذا قال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85]، أي: راكبين على الجنائب والنجائب، وقال الصادق: البر هو النفس والبحر هو القلب فمن حمله في النفس فقد أكرم بنور التدبير ومن حمله في القلب فقد أكرمه بنور التأييد، وقال

صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، ثم فضّل الله منهم أربعة على الباقين وهم الخليل والكليم وعيسى الروح والحبيب محمداً ﷺ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: 55]، ثم فضّل محمداً ﷺ على الكل فقال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113]، فتكريمك أن جعلك مؤمناً برًّا تقياً عارفاً بربك مجاهداً في طاعة ربك ثم جعلك على ملة إبراهيم ودين محمد عليهما الصلاة والسلام.

الوجه الثاني: في تفسير هذا التكريم أنه أكرمنا بالتقوى فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13] وكان الرسول ﷺ أتقى البشر بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: 3]، ثم أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه كان أتقى الأمة قال تعالى في حقه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: 17، 21]، رضي الله عنه. والجنة للمتقين معدّة قال تعالى في صفة الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فالحمد لله الذي جعلنا من أمة أتقى الأنبياء وهو محمّد ﷺ ومن محبي أكرم الأتقياء وهو أبو بكر ﷺ.

البحث الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ فإن قال قائل أنكم فسرتم هذا التكريم بهذه الوجوه، إلّا أن فيه أشكالاً وهو أن بني آدم فيهم المؤمنون وفيهم الكافرون فكيف تليق هذه التشريفات بالكافرين؟ والجواب من وجوه:

الأول: فيه تنبيه على دقيقة لطيفة وهو أن من ليس بمؤمن فكأنه ليس من الأحياء بل ليس من الموجودات.

الثاني: ولقد كرّمنا بني آدم معناه ولقد كرّمنا من بني آدم كقوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: 155].

الثالث: أن تفسير التكريم بالأحوال التي يشترك فيها المؤمن والكافر وهي الصورة الحسنة والقدّ المستقيم والأغذية اللطيفة وكون جميع المخلوقات مخلوقة لنا، وتخص خواص أهل الإيمان بهم وعند هذا نقول: التكريم عام في حق الكل والاصطفاء خاص ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 33]، وقال الله: ﴿يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75]، وقال في حق موسى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: 144]، وقال في حق الأمة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32].

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ثم قال في المرتبة الثانية: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وفيه إشارة [إلى إعلاء درجاته وتعظيم مقاماته][1] والتحقيق فيه هو أن الإنسان كأنه جالس على الحد المشترك الذي هو آخر مراتب العالم الأرضي وأول مراتب عالم السمٰوات فنسبته إلى الأرضيات بالفعل والترتيب ونسبته إلى السمٰوات بالانفعال والقبول (فقوله تعالى)[2]: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إشارة إلى كونه متصرفاً في السفليات وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إشارة إلى فيضان نور السمٰوات عليه ثم قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ﴾ إشارة إلى التربية الواصلة إليه من عالم الغيب إما إلى نفسه وروحه فبالعلم والحكمة والعصمة والتسديد، وإما إلى جسده وقالبه فبالأغذية الموافقة وأما قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فهو إشارة إلى دقيقة عجيبة وذلك أن الملائكة أرواح عقلية محضة مطهرة عن علائق الحس والخيال والشهوة والغضب والحيوانات أجساد محضة لا جزء لها من عالم المعقول وعتبات العصمة، وأما الإنسان فهو مستجمع للمنزلتين ومستحضر للدرجتين فهو مع الملائكة ملك ومع السباع سبع ومع البهائم بهيمة ومع الشياطين شيطان فكونه مستجمعاً لكل هذه الأحوال يصلح أن يكون مراداً من قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ والله تعالى أعلم بأسرار كلامه.

---

(1) (إلى أعلاء درجاته) في الأصل: إلى أعلى درجاته.

(2) (فقوله تعالى) في الأصل: «كقوله تعالى».

بعضهم: وحملناهم في البر والبحر أي: تكفلنا تحصيل مصالحهم في جميع الأحوال.

النوع الثالث: من التشريفات في هذه الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: أطعمناهم الأطعمة اللذيذة كالسمن والعسل والزبد والسكر وما رزقناهم شيئاً من الخبيث والأذى ولم يكلفهم ما لا يطيقونه، وذلك لأن الجن يأكلون العظام ودوابهم يأكلون الروث والبهائم يعلفن التبن والعشب، والطيور تلتقط الحب، والسباع تأكل الجيف أما أغذية بني آدم فهي لطيفة نقية. أيها المسكين إنه ما أطعمك إلا الطيبات فلا تتناول لسوء اختيارك الخمر ولحم الميتة كما قال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: 12]، وقال بعضهم: ورزقناهم من الطيبات أي تارة مطبوخاً وتارة غير مطبوخ، وأما سائر الحيوانات فغير مطبوخ أصلاً وقيل: رزقناهم من الطيبات: المعرفة والمناجاة، كما قال ﷺ: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»(*).

النوع الرابع: من التشريفات في هذه الآية. قال: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70]، والكلام على هذه الآية يتعلق بمسألة تفضيل الملك على البشر، وسيجيء هذه المسألة بالاستقصاء إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق.

قال كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخلق ثلاثة أصناف: الملائكة ولهم عقول بلا شهوة، والبهائم ولها شهوة بلا عقل، وبنو آدم ولهم كلاهما فمن كانت شهوته راجحة على عقله فهو أخسّ من البهائم كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، فعلى هذا القياس من كان عقله راجحاً على شهوته وجب أن يكون أفضل من الملائكة وأيضاً فهذه المراتب الأربع بمجموعها غير مذكورة لأحد غير بني آدم وهذا يدل على أنهم أفضل.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ فيه تشريف عظيم وذلك لأن التكريم عبارة عن جعل الشيء كريماً والكريم هو الذي يكون منشأ الكرم، وهذا تنبيه على أنه تعالى جعل بني آدم مدبراً للحيوانات ومصلحاً لأحوالها وضابطاً لأمورها على الوجه الأصلح الأليق فيصير معناه كونه خليفة الله تعالى في الأرض كما قال جلّ وعز:

(*) رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر. ومن حديث أنس بن مالك وأبي هريرة وروياه من حديث عائشة ورواه البخاري وأبو داود من حديث أبي سعيد، وانظر جامع الأصول (6/ 379ـ382) بألفاظ مختلفة.

أما الملائكة فقد روي في الأخبار: إن الله تعالى خلقهم من الريح وهذا الخبر متأكد بوجوه عقلية:

أحدها: أنهم قدروا على الطيران على أسرع الوجوه.

ثانيها: أنهم قدروا على حمل العرش وذلك لأن الريح صاعدة بالطبع يستقل بحمل الأشياء.

ثالثها: أنهم سمّوا روحانيين واشتقاق الروحاني من الريح، وروي في بعض الأخبار أنهم خلقوا من النور، ثم هذه الرواية تأكدت بوجوه عقلية:

أحدها: أنها صفت من الكدورات وأخلصت في طاعة رب الأرض والسمٰوات.

ثانيها: أنها توغلت بقوة نورانيتها في بحار عرفان جلال الله.

ثالثها: أنهم بسبب تلك النورانية تبرؤوا عن المعاصي والذنوب، وعند هذا قال بعض العلماء: الأولى أن نجمع بين الروايتين فنقول: أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهؤلاء هم سكان عالم السمٰوات.

أما الشياطين فهم كفرة، وأما إبليس فكفره ظاهر لأنه تعالى قال: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121]، ثم إنهم بأسرهم أعداء للبشر بدليل قوله تعالى في صفة إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، أما الجن فمنهم كافر ومنهم مسلم بدليل قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾ [الجن: 14]، فهذا هو الكلام في تفصيل أحوال هذه الأجناس الثلاثة، أما الجنس الرابع وهو الإنسان والبشر فلا شك أن منهم مؤمن ومنهم كافر، وأما أصلهم فمن شخص واحد وهو أول الآباء والذي يدل على وجوب انتهاء هذه الأشخاص البشرية إلى شخص واحد هو أول الآباء وجوه:

الفصل الثالث:
في بيان أول الآباء هو آدم عليه السلام

اعلم ان أول المخلوقات على قسمين:

منهم من كان من جملة المكلفين ومنهم من لم يكن كذلك.

وأجمع العقلاء على أن المكلف أفضل ممّن لا يكون مكلفاً وكيف لا يكون كذلك وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، وهذا نصٌّ صريح في أن المقصود من الخلق، إنما هو التكليف وإذا كان كذلك فكلما بقي من الخلق من يكون قائماً بعهدة التكليف بقي عالم الخلق فإذا لم يبق أحد يقوم بأداء التكليف صار عالم المخلوقات عبثاً والحكيم لا يرضى بالعبث وحينئذ تخرب السمٰوات والأرضون وتقوم القيامة. فإذا تأملت هذا علمت أن قيام السمٰوات والأرضين والجبال والبحار ودوران الشمس والقمر والنجوم كلها كالكفيل على قيام ذلك الشخص الأشعث الأغبر الذي ترده الخلق ولا يقبله أحد من الناس وهو قائم بأداء تكليفات الله فهو قائم بأداء التكليف ومشتغل بأداء العبودية والسمٰوات والشمس والقمر والنجوم والعناصر والمواليد باقية تبعاً لبقائه. فجملة ملوك الأرض إنما يأكلون من فتات سفرته وإنما يشربون من بقية ماء في زكوته وهذا هو المراد من قوله ﷺ: **«إن لله عباداً في العالم هم السبب الأصلي في مصالح أهل العالم فبهم يمطرون وبهم يرزقون وفي كل جنس واحد هو أكملهم وأجلهم ولهم أصحاب يقربون منه فذلك الأكمل الأقوى في القيام بعهدة أوامر الله وهو المسمى بقطب الأرض والذين يقربون منه ولكنهم بعدما وصلوا إليه فهم أصحابه»**(*).

إذا عرفت هذا فنقول: أصناف المكلفين أربعة: الملائكة والجن والإنس والشياطين:

(*) لم نره في المراجع التي بحوزتنا وعلامة الوضع عليه ظاهرة.

الحجة الثامنة: كل عدد موجود فهو إما شفع أو وتر وعلى التقديرين فهو متناه، وكل عدد موجود فهو متناه فثبت بهذه البراهين وجوب انتهاء الآباء إلى الأب الأول.

فإن قيل: أنّا لم نشاهد إنساناً تكون إلا من نطفة الأب في رحم الأم وهذا يقتضي أن يكون كل إنسان مسبوقاً بإنسان آخر.

الجواب ـ وبالله التوفيق ـ: أن المحققين من الفلاسفة اتفقوا على أنه يمكن حدوث الإنسان بالتولد كما يمكن حدوثه بالتوالد واحتجوا عليه بوجوه:

الحجة الأولى: أن بدن الإنسان إنما يتولد من اجتماع العناصر الأربعة وإذا كان كذلك وجب أن يكون المحدث لبدن الإنسان هو الله تعالى، أما المقدمة الأولى فالدليل على صحتها أن هذه الأعضاء الحيوانية لو أحرقت لتحصل عنها ماء ورماد وتصاعدت أبخرة كثيرة عنها وذلك يدل على أن هذه الأبدان الحيوانية مؤتلفة من هذه العناصر، وإنما قلنا أنه لما كان الأمر كذلك كان محدثها هو الله ﷻ وذلك لأن لهذه العناصر الأربعة طبائع متضادة متنافرة موجبة للتباين مانعة من الاجتماع، وإذا كان كذلك فهي مع كونها متسارعة إلى التباين لما اجتمعت افتقر اجتماعها إلى جامع وذلك الجامع إما أن يكون (قوة) حالة منها أو شيئاً خارجاً عنها، والأول محال لأن القوة الحالة فيها إما أن يكون حالة في بسائطها أو في الجسم المركب المتولد من امتزاجها والأول باطل لأنا بينّا أن الطبائع الحالة في ذلك البسائط موجبة للتباين والتنافر فلا تكون موجبة لاجتماعها وامتزاجها. والقسم الثاني أيضاً باطل لأن القوة الحاصلة للجسم المتولد عن امتزاجها متقدم عليه تقع لتلك الامتزاجات فتقدم عليها، والمتأخر لا يكون نفس المتقدم فثبت أن الجامع لهذه العناصر لا قوة حالة في بسائطها ولا قوة حالة في الجسم المتولد من امتزاجها، فإذاً ذلك الجامع شيء مباين عنها وهو الله تعالى فثبت أن المحدث لهذه الأبدان الحيوانية هو الله ﷻ، وإذا كان كذلك كان قادراً على إحداثها كيف شاء وأراد فيكون قادراً على إحداثها من غير أب وأم وهو المطلوب.

الحجة الثانية: أن الكيفية المزاجية الحاصلة في أبدان الحيوانات إنما تحدث بإيجاد الله تعالى لا لامتزاج هذه العناصر، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن يكون الله تعالى قادراً على إيجاد هذه الكيفية الملائمة كيف شاء وأراد من غير واسطة الأب والأم.

الحجة الأولى: أنه لو وجد إنسان في الأزل فذلك الإنسان إما أن يقال: أنه كان مسبوقاً بإنسان آخر قبله أو لم يكن مسبوقاً بإنسان آخر، فإن كان مسبوقاً فالأزلي مسبوق بغيره وهذا محال لأن الأزل عبارة عن نفي المسبوقية والجمع بين المسبوقية واللامسبوقية محال، وإن لم يكن مسبوقاً بإنسان آخر فذلك الإنسان هو الإنسان الأول فالآباء منتهية إلى الأب وهو المطلوب.

الحجة الثانية: أن الإنسان لا ينفك عن تغير الحالات وتبدل الصفات وتنقل الصفات لكن تغير الحالات في الأزل محال، وهذا يقتضي أنه لم يوجد أحد من البشر في الأزل وإذا كان كذلك وجب القول بانتهاء الناس إلى الإنسان الأول.

الحجة الثالثة: لو لم يكن للآباء مبدأ (لتوقف)[1] حصول الواحد منا على انقضاء آباء لا نهاية لهم، لكن انقضاء ما لا نهاية له محال والموقوف على المحال محال فكان ينبغي أن لا يوجد هذا الولد وحيث وجد الذين انقضوا لهم مبدأ وأول.

الحجة الرابعة: لو حصل شيء من الناس في الأزل لما فني لأن الأزلي لا يقبل العدم.

الحجة الخامسة: إن الذين وجدوا فيما قبل لو لم يكن لهم مبدأ لكانت أعدادهم غير متناهية، ولو كان كذلك لامتنع الانقضاء عليها لأن انقضاء ما لا نهاية له محال.

الحجة السادسة: إن كل عدد داخل في الوجود فهو قابل للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك فهو متناهٍ وكل ما دخل في الوجود فهو متناه.

الحجة السابعة: مجموع الآباء الذين لا نهاية لهم من الإنسان والآباء الذين لا نهاية لهم من هذه النشأة أكثر عدداً من كل واحد من هاتين الجملتين وحدها، فيكون كل واحد من الجملتين وحده أقل من هاتين الجملتين وحدها فيكون كل واحد من الجملتين وحده أقل من المجموع وأقل من غيره متناهٍ، والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهياً.

---

(1) (لتوقف) في الأصل: (التوقف).

ممكناً إذ لوجب أن لا يقع الانقطاع الذي لا عود له.

الحجة الخامسة: أنّا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات بالتولد فقد يحدث حيّات من الشعير وعقارب من التبن.

والفار متولد من المدر والضفادع متولد من المطر، وجميع هذه الأشياء كما تحدث بالتوالد فهي أيضاً تحدث بالتولد، وليس إذا انقطع هذا التولد فلم يشاهد في سنين كثيرة وجب أن لا يكون له وجود في القدرة عند تشكل قادر يحصل في الفلك لا تتكرر إلى حين.

الحجة السادسة: إن أكثر الناس يتعجبون من تولد الحيوانات من الطين ولا يعجبون من تولدها في الرحم من الماء المهين، وهذا أعجب في الحقيقة وذلك لأن الناس يقدرون على تصوير الحيوانات من الطين ومن الخشب ومن الحديد كما هو موجود ولا يمكنهم أن يصوروا حيواناً من الماء لأن الماء جسم سيّال لا تتماسك فيه الصور، فكون هذه الحيوانات في الأرحام من الماء المهين أعجب[1] في الحكمة وأعظم في القدرة من تكونها في الطين.

وإن قال قائل: إذا كان الصانع المختار قادراً على خلق الولد من دون الأبوين فلِم لم يخلق هذا لتكون الدلالة أقوى.

فالجواب أن الحكمة فيه من وجوه:

الأول: لو خلق البشر من غير هذا الوجه لبطل التعارف بالأنساب وفي بطلانه سقوط المصالح الكثيرة بين الناس في المعاملات وقد نبه الله تعالى عليه فقال جلّ وعز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13].

الثاني: لو لم يحصل التوالد لبطلت صلة الرحم وزال تعطف القرابات وبطل تلذذ الآباء بالأبناء وتعزز الأبناء بالآباء، ومنه تزول مصالح كثيرة من العالم، وقد نبه الله تعالى عليه فقال جلّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54]، فكان معناه ـ والله أعلم ـ جعله نسباً لما فيه من المصالح

---

(1) أعجب في الأصل: له عجب.

وإنما قلنا: أن حدوث هذه الكيفية ليس لامتزاج هذه العناصر وذلك لأن الحار والبارد فإما أن يكون تأثير كل واحد منهما في كسر الآخر معاً أو على التعاقب والأول باطل لأن العلة موجودة مع المعلول وعلة انكسار كل واحد منهما هي قوة الآخر، فلو حصل الانكسار لوجب أن يكون كل واحد منهما قوياً حال كون كل واحد منهما منكسراً وذلك محال والثاني أيضاً محال لأن أحدهما انكسر بالثاني فامتنع أن يصير المغلوب بعد صيرورته مغلوباً غالباً فعلى هذا التقدير لا يكون هذا مزاجاً بل يكون كوناً وفساداً، ولما بطل هذان القسمان ثبت أن حصول هذه الكيفية الملائمة للحياة ليس لأجل امتزاج الطبائع والعناصر بل هي كيفية يخلقها الله تعالى ويحدثها ابتداء وإذا كان الأمر كذلك كان الله قادراً على خلقها كيف شاء وأراد فيكون قادراً على إحداثها في الجسم من غير سبق الأب والأم وهو المطلوب.

الحجة الثالثة: هب أن حدوث تلك الكيفية إنما يكون بسبب امتزاج العناصر واجتماع الطبائع لكنا نقول: إن ذلك المزاج إنما حدث لأنها أجزاء مخصوصة مقدرة اجتمعت واختلطت، فلزم من اجتماعها واختلاطها تأثر بعضها عن البعض ولزم من ذلك التأثير حصول المزاج المخصوص للإنسان ولزم من حصول ذلك المزاج المخصوص حدوث[1] النفس الإنسانية، فإذاً مهما حصلت تلك الأجزاء المخصوصة بذلك التصوير المخصوص وحصل اختلاط بعضها بالبعض حدث الإنسان بالتولد لكن حدث في تلك الأجزاء المخصوصة بذلك التصوير المخصوص وحصول اختلاط بعض تلك الأجزاء بالبعض أمر ممكن والمعلق بالممكن ممكن، فحدوث الإنسان (عن)[2] سبيل التولد أمر ممكن، فهذه نكتة موجهة جداً على أصول الفلاسفة.

الحجة الرابعة: إن انقطاع النوع أمر ممكن وإذا كان كذلك وجب أن يكون الحدوث على سبيل التولد ممكناً، أما قولنا: أن انقطاع النوع ممكن فلأنه ليس بواجب أن يكون عن كل إنسان إنسان،[3] وإذا كان هذا الاحتمال قائماً في الكل فثبت أن انقطاع النوع أمر ممكن وإذا ثبت هذا وجب أن يكون الحدوث على سبيل التولد أمراً

(1) المخصوص حدوث في الأصل: ورد بعد المخصوص هذه العبارة [من ذلك التأثير حصول المزاج] وهي زائدة لا حاجة إليها.
(2) [عن] زيادة يقتضيها السياق.
(3) إنسان في الأصل: إنساناً.

تعالى: (سبقت رحمتي غضبي)، فلا جرم قدم سورة الإيجاد على سورة الإفناء.

اللطيفة الثالثة: أنه تعالى قال هناك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ولم يقل في سورة الحج: ربكم الذي أقام زلزلة الساعة، نظيره قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]، و﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183].

فإن قيل: اسم الربوبية منشأ اللطف والرحمة والكرم فكيف يليق بهذه الكلمة التخويف الشديد الحاصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾؟.

قلنا: من تربية المؤدب الرحيم المشفق أن يضرب ولده وأن يهدده حتى يزداد سعيه في طلب المكارم والمعالي، وهذا هو الجواب عن سؤال من سأل عن قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 31-32]، فإنه يقال: إن قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ غاية التهديد وقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إشارة إلى تعديد الآلاء والنعماء فكيف يليق هذا بذلك؟ لأنا نقول: التهديد من الأب المشفق الرحيم في حق الولد الكسلان المغفل يكون من أعظم النعم.

الوجه الثاني: في الجواب أن المرأة ترضع ولدها أولاً سنتين، ثم أنها تلطخ حلمة ثديها بالصبر والأشياء المرة ثم تضعها في فم الصبي كأنها تقول: إني لا أفطمك بهذه المرارة شحاً عليك وإنما ذلك لغرض آخر وهو أنه خلق لك في الدنيا نعيم لا يحصى ولا يتناهى ولا يتأتى لها إلا بفعل ذلك ولا تنالها إلا بهده المصّة الواحدة، فتجرّع هذه المرارة لتصل بعدها إلى الخيرات الجمة الكثيرة، فكذا الرب الرحيم سبحانه وتعالى أشفق بعبده منها بابنها أعد لك في الجنان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لكنك لا تصل إليها إلا بتجرع كأس الصبر عن المحرمات ثم تجرع كأس الموت في هذه الدار ثم يطول حبسك في القبر ما شاء الله ثم ينقلك إلى محفل القيامة ثم ينقلك إلى الجنة فكان الموت وتخريب هذا العالم من أعظم النعم في حقك فلهذا المعنى قال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن الآيات الدالة على أن أول الآباء هو آدم عليه السلام قوله تعالى في سورة

اللطيفة وكان قادراً أن يوجده ابتداء.

الثالث: أن العاقل قد أمر بالتواضع والاجتناب عن الكبرياء، ثم إن العاقل إذا علم أنه خلق من نطفة قذرة وسار في مخرج البول مرة بعد مرة ونشأ في نجاسة يغتذي منها ونبت لحمه وعظمه منها كان كاسر النخوة، وقد نبه الله تعالى على هذا فقال: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 23]، فمن علم أن من كان كذلك لم يكن له أن ينكر بل الواجب عليه أن يذل لخالقه ويخضع لربه والله أعلم فثبت بهذا أن أصول الفلسفة شاهد بإمكان هذا المعنى. وأما شهادة الأصول الإسلامية على صحتها فلا شبهة فيها فعلمنا أن الطعن فيه باطل.

إذا ثبت ما ذكرنا فنقول: أن القرآن دل على أن ذلك الأب الأول هو آدم عليه السلام قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1].

واعلم أن في هذه الآية أسراراً عجيبة وذلك لأنه تعالى افتتح سورتين من كتابه العزيز بهذا اللفظ:

أحدها: أول سورة النساء فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء:1].

والثانية: سورة الحج فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:1] أما السورة الأولى فهي الرابعة من سور النصف الأول من القرآن فإن أولها الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم النساء، وأما سورة الحج فهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني فإن أولها سورة مريم عليها السلام، ثم طه، ثم الأنبياء عليهم السلام، ثم الحج، وفي كيفية ترتيب هاتين السورتين عجائب:

أحدها: أن السورة الأولى إشارة إلى حال المبدأ في كيفية التكوين والإيجاد فإنه قال: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

والثاني: إشارة إلى حال المعاد في كيفية الإعدام والإفناء فإنه قال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ثم لا شك أن الإيجاد مقدم على الإفناء ولهذا قدمه الله تعالى في الذكر فقال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]، فقدم ذكر الإبقاء على ذكر النزع فلهذا السبب قدم سورة النساء على سورة الحج.

اللطيفة الثانية: أن الإيجاد يشبه الرحمة والإعدام يشبه الغضب، وقد قال

الفصل الرابع
في كيفية تخليق آدم عليه السلام

اعلم أنه تعالى ذكر في كيفية تخليق آدم عليه السلام آيات :

إحداهما: أنه مخلوق من التراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: 20]، وقال في حق أولاد آدم: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: 55]، وقال في سورة النجم: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: 32]، وقال في سورة نوح عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: 17 - 18]، واعلم أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:59] ثم قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أشكالاً وهو أن ظاهر الآية يقتضي أن قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ متأخر عن تخليق آدم وهو محال لأنه لا بد أن يكون قوله كن فيكون متقدماً على وجود آدم في الوجود، والجواب من وجهين:

أحدهما: أن يحمل خلق آدم على خلق بدنه ويحمل قوله: كن فيكون على خلق روحه.

الوجه الثاني: أن يحمل الخلق على التقدير. وعند هذا يزول الإشكال لأنه يحصل التقدير في علم المقدّر[1] أولاً ثم يحصل التخليق والتكوين مفرعاً على ذلك التقدير، والله أعلم.

والآية الثانية: ذكر فيها أنه مخلوق من الماء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: 54]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾

---

(1) المقدر في الأصل: المقدار.

الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، إلا أن فيه أشكالاً وهو أن آخر هذه الآية دل على أن هذه النفس الواحدة أقدمت على الشرك حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: 190]، ومعلوم أن الشرك ـ نعوذ بالله منه ـ لا يليق بآدم عليه السلام فلا جرم قال المحققون: المراد من هذه النفس الواحدة قصي بن كلاب بن مرة، والشرك الصادر منه هو أنه سمى أولاده بعبد مناف وعبد قصي وعبد الدار، والله أعلم.

الحجة الأولى: أن التراب في غاية التواضع والنار في غاية التكبر، فلما خلق آدم من التراب ظهر منه التواضع والتضرع فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، ولما خلق إبليس من النار ظهر منه التكبر فقال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:12] وقال: نعوذ بالله منه ـ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: 62].

الحجة الثانية: أن التراب وإن كان مظلماً إلا أنه ستار للعيوب، والنار وإن كانت مضيئة إلا أنها تدل على العيوب وتظهر الفضائح.

الحجة الثالثة: أن التراب يطفىء النار فلهذا السبب كان وجود آدم عليه السلام سبباً لانطفاء رونق إبليس، وأيضاً فالشهوة والغضب والحرص مخلوقة من النار ألا ترى أن الشهوة لا تعمل في الغذاء إلا بواسطة الحرارة، وأما الغضب فنار ظاهر وأما الحرص فمن النار كذلك[1] وذلك لأن خاصية الحرص أن الإنسان كلما وجد من الدنيا أكثر صار حرصه أعظم كالنار كلما ألقيت فيها الخشب كان اشتعالها أعظم واحتياجه إلى الحطب الكثير أشد فثبت أن الشهوة والغضب والحرص كلها مخلوقة من النار، ثم إن الله تعالى أودع هذه الصفات في ذاتك فلا جرم خلقك من الطين وهو تراب وماء وكل واحد منهما سبب لانطفاء النار فكان المقصود من خلق الإنسان من التراب أن تنطفىء هذه النيران ويبقى الإنسان مصوناً في الدنيا من الخذلان وفي الآخرة عن دركات النيران.

الحجة الرابعة: أنه سبحانه إنما خلق الإنسان لخلافة الأرض كما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فخلقك من الأرض فإن خليفة الأرض إذا كان مخلوقاً من الأرض كان أرحم بأهل الأرض.

الحجة الخامسة: أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي في غاية الإشراق والضوء ثم ابتلاهم بظلمات الجهالات والضلالات، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف وأعطاهم كمال القوة والقدرة، وخلق السمٰوات من أمواج مياه البحر وأبقاها معلقة في الهواء موصوفة بكمال الشدة كما قال في صفتها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: 32] وقال: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [قٓ: 6]، وقال: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: 12]، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأشياء وأشدها ظلمة وأعطاها الطاعة

---

(1) كذلك في الأصل: فكذلك.

[النور: 45]، وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: 20]، والآية الثالثة ذكر فيها أنه مخلوق من الطين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: 7 - 8]، وقال عز وجل أيضاً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [صٓ: 71 - 72]، والآية الرابعة ذكر فيها أنه خلقه من سلالة من طين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12].

الآية الخامسة: أنه مخلوق من لازب، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ [الصافات: 11].

الآية السادسة: أنه مخلوق من صلصال، قال تعالى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: 14].

الآية السابعة: أنه مخلوق من صلصال من حمأ مسنون قال تعالى: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 28].

الآية الثامنة: أنه مخلوق من العجل، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: 37].

الآية التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: 1 - 4].

الآية العاشرة: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54].

فهذا مجموع هذه المراتب ولنشرح كل واحدة منها فنقول:

أما المرتبة الأولى: فهي أنه مخلوق من التراب والطين، فاعلم أن إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ طعن فيه بسبب كونه مخلوقاً من التراب وفضّل نفسه عليه بسبب كونه مخلوقاً من النار والنار قوية تأكل التراب فلهذا قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فكيف يليق أن يسجد القوي للضعيف وقد ذكر العلماء في تفضيل التراب على النار وجوهاً:

إذا عرفت هذا فنقول: التراب أعظم المخلوقات انكساراً وتذللاً وتواضعاً لأنه تحت جميع الأجسام، والخلق يضعون أقدامهم عليه ويمشون عليه ولما كان أعظم الأشياء نقصاً وحقارة هو التراب لا جرم صار محلاً ومنزلاً لمحبة رب العالمين قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وأما النار فإنها تدعي العلو والرفعة والنورانية فكانت صفة النار صفة لفرعون كما أخبر الله في صفته: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص: 4].

وكانت صفة التراب صفة موسى عليه السلام قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: 83]، فلا جرم صار التراب أعز الأشياء والنار أذلها.

الحجة العاشرة: النار يعلوها الدخان المظلم فنوره تحتاني وظلمته فوقاني، وأما التراب فظلمته تحتاني ونوره فوقاني: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، وأيضاً النار حسنة المنظر قبيحة المخبر فهي كالمنافق وكالمرأة الفاجرة، والأرض قبيحة المنظر حسنة المخبر وأيضاً النار ظاهرها يسرّ وباطنها لا يسر، والأرض على الضد من ذلك فالحاصل أن باطن الأرض كله منفعة وباطن النار كله مضرة، ونظرة الخالق تعالى على الباطن والأسرار لا على الظواهر. فلا جرم عامل آدم بحسب باطنه وإبليس أيضاً على وفق باطنه.

الحجة الحادية عشرة: إن نهاية السفل هي الأرض ونهاية العلو هي العرش فالأرض أحد أركان عالم الأجسام وأما النار فليست كذلك لأنها ليست في غاية العلو فإن السمٰوات والكرسي والعرش فوقها ولا غاية في السفل فإن الهواء والماء والأرض تحتها فما كانت النار كاملة في مقام من المقامات.

الحجة الثانية عشرة: إن النار سريعة الاشتعال سريعة الانطفاء كبيرة الاحتياج إلى الغذاء قليلة مدة البقاء، أما الأرض فإنها تغذي ولا تتغذى وتبقى ولا تفنى فثبت فضل التراب على النار.

الحجة الثالثة عشرة: من الكلمات المشهورة قولهم: كل شيء يرجع إلى أصله، فكأنه قيل: يا إبليس: «خلقتك من النار فيكون مردّك إلى النار» وأما آدم فهو مخلوق من الطين والطين خاصيته التواضع والتواضع سبب القرب من رحمة رب

والمحبة والمعرفة، التي هي أنور الأشياء وأضوؤها والمقصود من جميع ذلك إظهار الضد ليكون ذلك برهاناً باهراً وبياناً ظاهراً على أنه هو الخالق من غير احتياج إلى أحد والمقدر والمدبر فلا مزاج ولا علاج.

الحجة السادسة: أن التراب سبب الوصلة دليله قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: 261]، والنار سبب القطيعة ولما كان الأمر كذلك لا جرم حصل لآدم عليه السلام شرف الوصلة ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وحصل لإبليس صفة القطيعة ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾.

الحجة السابعة: التراب فيه أمانة والنار فيها خيانة، أما الأول فلأنك إذا بذرت فيها كفاً من الحنطة ردت عليك جراباً من الحنطة قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: 58] الآية، وأما أن في النار خيانة فلأنها تحرق الأشياء وتفنيها، وأيضاً لما كان من التراب لا جرم قبل الأمانة كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾ وحفظها على أحسن الوجوه ولما كان في النار خيانة لا جرم أن إبليس عبد ربه سنين ثم خان في تلك العبادة كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [ص: 74].

الحجة الثامنة: أن التراب طاهر وطهور قال ﷺ: **«التراب طهور المسلم..»** والماء أيضاً طاهر وطهور قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ وجناب الحق سبحانه وتعالى طيب طاهر قال ﷺ: **«إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب»**[1] فلما كان التراب والماء طاهرين طيبين لا جرم كان آدم عليه السلام لكونه مخلوقاً منهما طاهراً طيباً ولما كان كذلك مخصوصاً من رحمة الله بالمزيد كما قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النور: 26].

الحجة التاسعة: رُوي أن نبينا محمداً ﷺ لما دخل المدينة طمع الأغنياء أن ينزل معهم في دورهم وكانوا يأخذون بزمام الناقة ليجذبوها إلى بيوتهم فقال ﷺ: **«دعوها فإنها مأمورة»** فتركوها فسارت حتى وصلت إلى دار أبي أيوب رضي الله عنه فبركت هناك وما كان سبب ذلك إلا غاية فقر أبي أيوب وشدة انكساره وهذا أيضاً متأيد بقوله ﷺ: حاكياً عن ربه جل جلاله: **«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»**[2].

---

(1) رواه مسلم (1015) وغيره من حديث أبي هريرة.

(2) رواه البيهقي في دلائل النبوة 2/ 509 من حديث عبد الله بن زيد.

فلأن تكون خلقة أصل الأعضاء من الماء دافعاً لتمكن الذنوب كان أولى.

المرتبة الثالثة: في تخليق آدم عليه السلام كونه مخلوقاً من سلالة من طين والسلالة هي فعالة بمعنى المسلولة لأنها هي التي تسل من الطين، والحكمة فيه أن يمتزج الكثيف واللطيف والمتحرك والساكن والكدر والصافي فيكون ذلك دليلاً على فردانية الصانع القادر كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ وفيه فائدة أخرى وهي أن من مشى على الطين أو انزلق رجله سقط وتلوث ثيابه ولكنه لا يهلك ولا تنكسر أعضاؤه، فلما كان الإنسان موصوفاً بهذه الشهوة التي هي منبع الفساد وبالغضب الذي هو منشأ سفك الدماء علم الحق جل جلاله أنه لا بد أن ينزلق رجله في سلوك طريق طاعة الله فإذا كان طيناً تلوث بالمعصية لكنه لا يهلك ولا ينكسر شيء من أعضائه بل يقوم سليماً كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

المرتبة الرابعة: في تخليق آدم عليه السلام كونه مخلوقاً من سلالة من طين والسلالة فعالة وهي بمعنى المسلول لأنها هي التي تسل من اللطف أجزاء الأرض فاعلم أنه روي في الخبر أنه قال ﷺ: «**إن الله خمر طينة[1] آدم بيده أربعين صباحاً**» فهذه اللطافة إنما حصلت لذلك الطين بسبب هذا التشريف فقال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صَ: 75]، وهذا كمال التشريف في حق آدم عليه السلام.

فإن قيل: فقد قال تعالى في صفة تخليق الحيوانات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: 71]، فبين أنه تعالى إنما خلق الأنعام بالأيدي وذكر أنه إنما خلق آدم باليدين وهذا يقتضي فضل الأنعام على الإنسان.

فالجواب ـ وبالله التوفيق ـ أنه تعالى ذكر دقيقة تزيل هذه الشبهة فإنه قال: ﴿خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: 71] فبين أنه تعالى إنما خلق الأنعام بالأيدي لأجل مصالح الناس ورعاية لمهماتهم، فكان هذا التشريف عائداً إلى البشر أيضاً وفيه تنبيه على دقيقة كأنه قال: هيأت ذلك باليدين وهيأت ما تحتاج إليه بعد الحياة من المأكول والمشروب والملبوس والمركوب بالأيدي وذلك ليعلم أن

---

(1) قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الأحياء (4/ 344) رواه أبو منصور الديلمي من مسند الفردوسي من حديث ابن مسعود وسلمان الفارسي بإسناد ضعيف جداً وهو باطل.

العالمين فلا جرم كانت عاقبة آدم هو [رحمة][1] رب العالمين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

الحجة الرابعة عشرة: أن الأرض في نفسها ليست بحسنة ولا طيبة الرائحة إلا أنها تخرج جميع الأشياء التي لها حسن الوجه وطيب الرائحة، والنار حسنة الوجه إلا أنها سبب لحدوث الأشياء القبيحة وهي الاحتراق والدخان والفساد وقد ثبت أن العبرة بالسيرة لا بالصورة كما حققناه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾.

الحجة الخامسة عشرة: أن التراب والماء لا يحصل الانتفاع بهما إلا عند فقدان الريح فإنه إذا وصل الريح إلى التراب صار غباراً مؤذياً وإذا وصل الريح إلى الماء تموج وخرج عن حد النفع وإذا وصل إلى النار أطفأ النار، فكأنه قيل لآدم: كان في قلب إبليس ريح التكبر فانطفأ ناره بتلك الريح فإياك ثم إياك احترز عن ريح التكبر لئلا يصير التراب الذي خلقت منه غباراً والماء الذي خلقت منه موجاً مهلكاً، فثبت من هذه الوجوه فضل التراب على النار.

وأما المرتبة الثانية: في خلقة آدم ﷺ كونه مخلوقاً من الماء قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ وقال جل وعز: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: 37]، وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن تكون صافية تتجلى فيها نور جلال الله تعالى.

الثانية: أن يكون سياراً برأسه فيكون أبداً عابداً لله تعالى على قمة رأسه قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: 49].

الثالثة: أن يكون طاهراً في ذاته، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وقال ﷺ: «**من توضأ تحاتت ذنوبه من جسده كما تتحاتت الورق من الشجر زمن الخريف**»[2].

الرابعة: فيه أنه إذا كان استعمال الماء في ظاهر الأعضاء يوجب زوال الذنوب

---

(1) [رحمة] زيادة يقتضيها السياق.

(2) رواه أحمد: 5/ 437 و439 والدارمي (725) والطبراني في الكبير (6150، 6151، 6152) من حديث سلمان.

وأما المرتبة السابعة: وهي كونه صلصالاً كالفخار، فاعلم أن الصلصال قبل أن يصير فخاراً يصلح لأمر من الأمور فإذا جعل فخاراً حصل لأن يجعل فيه الماء، وذلك الماء إذا استقر فيه صار صافياً عذباً زلالاً فيكون ذلك إشارة إلى صيرورته صالحاً لحفظ معنى العبودية وزلال المعرفية.

أما المرتبة الثامنة: وهي قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

فأشهر الأقوال فيه أن المراد منه هو آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي والكلبي، قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شيء في آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال: يا رب استعجل تمام خلقتي قبل غروب الشمس، قال مجاهد: فذاك قوله: خلق الإنسان من عجل.

وعن السدي قال: لما نفخ فيه الروح وتمكن الروح في رأسه عطس فقالت له الملائكة عليهم السلام: قل الحمد لله، فلما قال ذلك قال الله سبحانه: يرحمك ربك، فلذلك خلقتك؛ فلما دخل الروح في عينه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل الروح جوفه اشتهى الطعام فوثب إلى ثمار الجنة قبل أن يبلغ الروح إلى رجليه، فهذا هو الذي أورث أولاده العجلة، **ثم للمفسرين أقوال في العجل:**

الأول: وهو قول المحققين خلق الإنسان من عجل أي: خلق عجولاً وذلك يدل على المبالغة كما يقال للرجل الذكي: هو نار يشتعل. والعرب قد تسمي الرجل بما يكثر منه فيقولون: ما أنت إلا أكل ونوم، وما هو إلا إقبال وإدبار هذا الوجه يتأكد بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء:11] قال المبرد: خلق الإنسان من عجل أي: من شأنه العجلة كقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: ضعيفاً.

الثاني: قال أبو عبيدة هو الطين بلغة حمير وأنشد:

«والنخل ينبت بين الماء والعجل» أي: بين الماء والطين.

الثالث: قال الأخفش: من عجل أي: من تعجيل من الأمر، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

الرابع: من العجل أي: من الضعف وهو قول الحسن.

عنايته بك بعد حياتك أشد من عنايته بك قبل وجودك.

ومن النكت اللطيفة هاهنا ما سمعت أنه كان بنيسابور امرأة من عقلاء المجانين كان يقال لها: نازلين فكانت تقول: مسكين ابن آدم جسده في يد الحق كما قال: «**خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً**» وقلبه في إصبع الحق كما قال الخبر: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن**»[1] الخبر ثم إنه مع ذلك لا يملك أمر جسده ولا أمر روحه صار التكاليف متوجهة عليه والأوامر الإلٰهية لازمة عليه.

المرتبة الخامسة: كونه مخلوقاً من طين لازب، واللازب هو اللازم وإنما سمي لازباً ولازماً لأن اللازم واللازب هو الملتصق بالغير، والإنسان أكثر الأشياء خلقة فلا جرم كان أكثر الأشياء تمسكاً بذيل رحمة الله تعالى وأشد الأشياء التصاقاً بجناب فضله وإحسانه.

المرتبة السادسة: كونه صلصالاً وهو الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي تسمع له صلصلة من داخله.

والصفة الثانية: كونه حمأ وهو الذي استقر في الماء وتغير لونه إلى السواد.

والصفة الثالثة: المسنون وهو الذي تغيرت رائحته ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ﴾ [البقرة: 259]، أي: لم يتغير، وأصله يتسنن. قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد: 15]، أي: غير متغير. واعلم أن كونه صلصالاً إشارة إلى غاية ضعفه وقلة بقائه فإن الطين الذي يصير صلصالاً ينكسر ويتفرق بأدنى سبب، وكونه من حمأ إشارة إلى الأخلاق الظلمانية البهيمية التي منشؤها قوة الشهوة، وكونه مسوناً وهو الرائحة المؤذية إلى الأخلاق السبعية التي منشؤها الغضب، ونظيرة قول الملائكة عليهم السلام: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]، والفساد منشؤه من الشهوة، وسفك الدماء منشؤه من الغضب.

---

(1) 17 ـ رواه مسلم (2654) من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «**إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمٰن..**» الحديث. ورواه الترمذي: (1241) من حديث أنس بلفظ: «**إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله...**» الحديث.

أي: هو في طول عمره في مكابدة الآلام ومقاساة التعب والمؤذيات، وعند هذا الحرف يظهر أنه لا بد في حكمة الحكيم المدبّر لهذا العالم من الحشر والنشر والبعث يوم القيامة لأن الحكيم الذي دبّر خلق الإنسان إن كان مطلوبه أن يؤلم الإنسان فهذا لا يليق بالرحمة، وإن كان مطلوبه أن لا يتألم ولا يلتذ ففي تركه للعدم حصول لهذا المطلوب وإن كان مطلوبه إيصال اللذة والنفع إليه فقد بيَّنا أنه ليس في هذه الحياة لذة وأنه تعالى خلق الإنسان في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذاً لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى لتكون تلك الدار دار السعادات والكرامات والخيرات.

وأما على الوجه الثاني: وهو أن يفسر الكبد بالاستواء فقال ابن عباس: في كبد أي: قائماً منتصباً وسائر الحيوان تمشي منكسة فهذا امتنان على الإنسان بهذه الخلقة.

وأما المرتبة العاشرة: من مراتب خلقة الإنسان فهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فاعلم أن آثار ضعف الإنسان لائحة كما قال بعضهم: تميته[1] الغرقة وتؤذيه البقة وتقتله الشرقة.

قال هارون الرشيد لابن السماك: عِظني فقال: إن عطشت ولم تجد شربة من الماء إلا بكل ما تملك ماذا تعمل؟ قال: أعطي وآخذ، قال: فإن احتبس ذلك الماء ولم يخرج إلا ببذل كل ما تملك ماذا تعمل؟ قال: أعطي حتى يخرج، قال: فإذا الشربة الواحدة من الماء قيمة ما تملك مرتين فما تساوي ملكك شربة ولا بولة.

وأيضاً فإن البقة أصغر الحيوانات جثة وأضعفها بنية ثم إنها قتلت نمروذ أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم[2] سلطانًا ،ويروى: أن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حضر عند الملوك العظماء فكان يجيئه النوم وكان الذباب يقع على وجهه فيوقظه ويؤذيه ثم أنه كان يلطم وجهه وخده عند طرد الذباب فقال في أثناء هذه الحالة للشافعي: ما الحكمة في خلق الذباب؟ فقال الشافعي ﷺ في الحال: ليذل به عظماء الملوك ويظهر عجزهم عن دفعه، وقيل: ناظر واحد من الناس مع الحشرات والهوام في القوة والقدرة فقالت نحلة في أثناء الكلام[3]: أليس إذا أخذ الآذي سلاحه وسيفه ورمحه بيده فجاء واحد منا يلسعه بإبرته ويشغله ذلك عن كل ما هو فيه ويثور جلده ويتألم أعضاؤه حتى لا

---

(1) تميته في الأصل: تنبته.
(2) أعظمهم في الأصل: أعظم.
(3) أليس: في الأصل: قال الدينوري أليس.

المرتبة التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ قيل في الكبد وجهان: قال صاحب الكشاف: أصله من قوله: كبد الرجل كبداً فهو أكبد إذا مرض كبده وانتفخ، ثم اتسعت في هذا اللفظ حتى استعمل في كبد أي: تعب ومشقة ومنه اشتقت المكابدة، وقال آخرون: الكبد شدة الأمر ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد كأنه دم تغلظ واشتد، والفرق بين هذين القولين أن الأول جعل اسم التكبد موضوعاً للكبد ثم اشتق منه الشدة وفي الثاني اللفظ موضوع للشدة والغلظ ثم اشتق منه اسم هذا العضو المخصوص.

الوجه الثاني: أن الكبد هو الاستواء والاستقامة.

الوجه الثالث: أن الكبد شدة الخلق والقوة.

إذا عرفت هذا فنقول: أما على الوجه الأول فيحتمل أن يكون المراد منه شدائد الدنيا فقط، ويحتمل أن يكون المراد شدائد التكاليف فقط، وأن يكون شدائد الآخرة فقط وأن يكون المراد كل هذه الوجوه. أما إذا حملنا على شدائد الدنيا فيكون قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد:4]: أي خلقناه في أطوار كلها شدة ومشقة تارة في بطن الأم، ثم زمن الإرضاع، ثم بعد البلوغ تحصيل وجوه المعاش ودفع ضرر الأعداء، ثم دفع ضرر الآلام والأسقام والتصون من الآفات النازلة من السماء والخارجة من الأرض. أما الثاني وهو حمله على شدائد الدين وهو توجه التكاليف الشاقة عليه، قال الحسن: تكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء وتكابد المحن في أداء العبادات والرضى بقضاء الله تعالى عند نزول الآفات والبليات. وأما الثالث وهو حمله على مشاق الآخرة فالموت ومسائلة الملكين وظلمة القبر ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة أو في النار ـ ونعوذ بالله منها ـ.

وأما الرابع: وهو أن يكون اللفظ محمولاً على الكل فهو الحق وعندي وجه آخر وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة ألبتة بل ذاك الذي يظن أنه لذة فهو خلاص عن الألم، فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو خلاص عن ألم الجوع وما يتخيل من اللذة عند اللبس فهو خلاص عن ألم البرد والحر، فإذا تفكرت علمت أنه ليس للإنسان إلا الألم والخلاص منه فهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾

الفصل الخامس:
في عجائب تكوين الأجنّة

اعلم أنه ﷻ خلق الخلق من أشياء مختلفة فخلق السماء من دخان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]، وخلق الأرض من زبد البحر على ما نقل عنه صلوات الله عليه وسلامه أنه قال: **«خلق الله تعالى جوهرة لطيفة ونظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم سلط على الماء حرارة فارتفع منه زبد فخلق منه الأرض وخلق الجنة من رحمته والنار من غضبه»**، قال ﷻ: سبقت رحمتي غضبي. وخلق الملائكة من النور كما قال ﷺ: **«إن الله خلق الملائكة من النور وخلق الجنّ من النار»** قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمٰن: 15]، وقال: إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [صَ:76] وخلق آدم من التراب قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ وخلق حواء من بعض أعضاء آدم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:1] وخلق عيسى من الريح، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ وخلق أولاد آدم من النطفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:12-13] وخلق سائر الحيوانات من الماء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ وخلق ناقة صالح من الصخرة فقال: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: 73]، ثم كل هذه الأشياء مخلوقة من هذه المواد وهذه المواد يمتنع كونها مخلوقة من مواد أخرى وإلا لزم التسلسل، ويمتنع أن تكون هذه المواد قديمة لأنها محل الحوادث وكل ما كان محلاً للحوادث فهو حادث، فهذه المواد محدثة فهي مخلوقة لله تعالى والله خلقها على العدم المحض والنفي الصرّف فثبت أنه تعالى تارة يحدث الأشياء عن العدم المحض والسلب الصرف وتارة يحدث عن بعض الأشياء، ثم هاهنا يجب أن يتأمل الإنسان وهو أن كل قادر سوى الله فإنه لا يمكنه التصرف إلا في نوع واحد فالخياط يتصرف في الثياب والحداد يتصرف في الحديد، وأما الحق ﷻ فهو المتصرف في المعدومات والموجودات على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة فمن

يمكنه أن يقبض على سيفه؟ وقالت ذبابة: أليس أن أعظمهم سلطاناً وأشدهم هيبة إذا قعد على سرير ملكه مع الهيبة والعظمة فإنه يجيء أحدنا من المطبخ أو من الخلاء ملوث اليدين والجناحين فيقعد على وجهه وثيابه ويلطخه ولا يقدرون على الاحتراز منا؟ وقالت الهوام والحشرات: إذا قعد أحد في مجلسه وسريره ويجيء أحدنا فيدخل في ثيابه فيفزعه ويزعجه وإذا أراد أن يبطش بنا يصفع نفسه بيده ويلطم خده بكفه؟ وكل ذلك دليل على عجز الإنسان وتمام البيان فيه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: 73]. . . إلى قوله ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ هذا هو الكلام في مراتب خلقة الإنسان عند وجوده، وقيل: هذه المراتب كلها العدم المحض كما قال تعالى لزكريا ﵇: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 8]، وقال تعالى في أول سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، فهذه الحياة الدنياوية كانت معدومة من الأزل إلى الآن وستصير معدومة من الأزل إلى الأبد فانظر إلى طول مدة الأزل وطول مدة الأبد ثم انظر إلى هذه الحياة المحفوفة بهذين الطرفين حتى تعرف حقارة هذه الحياة وصغرها وقلتها بلى إن صرفها إلى الطاعات استوجب بها الثواب الأبدي [والسعادة السرمدية][1] فحينئذ يكون هذا الحقير عظيماً وهذا الصغير كبيراً وبالله التوفيق.

---

(1) السعادة السرمدية: في الأصل: سعادة السرمدي.

أولهما: الإيمان، وهو قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ والكلام في حقيقة الإيمان سيأتي في باب منفرد إن شاء الله تعالى.

ثانيها: الصلوات، وهي قوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:2] واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من قال: هو عبارة عن مجموع الأمرين وهو الأولى فالخاشع في صلاته لا بد أن يحصل له من قسم أفعال القلوب نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التذلل أن لا يكون مشتغل القلب بشيء سوى تعظيم خالقه، ومن قسم أفعال الجوارح أن يكون ساكناً مطرقاً ينظر إلى موضع سجوده ومن الترك أن لا يلتفت يميناً وشمالاً فالخشوع عبارة عن مجموع هذه الأشياء إلا أن الخشوع يُرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح فإن الذي يتعلق بالقلب لا يرى وتمام هذا الكلام في هذا المعنى سيأتي إن شاء الله تعالى في كتاب الصلاة.

وثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون:3] وفي اللغو أقوال:

الأول: أن يدخل فيه كل ما كان حراماً أو مكروهاً أو مباحاً ولكن لا يكون للإنسان ضرورة ولا حاجة إليه.

الثاني: أنه عبارة عن كل ما كان حراماً وهذا التفسير أخص من الأول.

الثالث: أنه عبارة عن المعصية في القول وهذا أخص من الثاني.

الرابع: أنه المباح الذي لا حاجة إليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225]، فكيف يحمل اللغو على المعاصي مع أن المؤاخذة فيها غير حاصلة، واحتج الأولون بأن اللغو إنما سمي لغواً لأنه يلغى، فكأنه ما يقتضي الدين إلغاءه كان يسمى باللغو ثم اللغو قد يكون كفراً كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: 26]، وقد يكون كذباً لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: 11]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: 25].

إذا عرفت اللغو فنقول: أنه ﷻ مدحهم بأنهم مُعرِضون عن اللّغو والإعراض

هاهنا يظهر كمال قدرة الله تعالى، ثم هاهنا دقيقة أخرى وهي أنه تعالى إذا خلق شيئاً من شيء جعل مرجعه إليه ألا ترى أن الملائكة لما كان أصلهم من النور فهم لما طعنوا في البشر حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30] لكنهم ما بقوا مستمرين على ذلك الطعن بل رجعوا إلى مقتضى أصلهم وهو النورانية وعادوا إلى الصلح والاستغفار فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر: 7]، وعيسى عليه السلام لما كان أصله نفخة جبريل صلوات الله عليه لا جرم عاد في الآخرة إلى عالم الأفلاك فقال تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: 55]، وقال: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158]، وكذا البشر لما كان أصلهم من التراب لا جرم في الآخرة يرجعون إلى التراب ويصيرون تراباً كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:55] وإذا علم العبد أن مصيره إلى التراب والفناء زالت محبة الدنيا عن قلبه وأعرض عنها وعلم أنه يجب عليه الاهتمام بعمارة الآخرة والإقبال على طاعة الله ﷻ:

وإذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إن الله تعالى ذكر في القرآن كيفية الخلق فقال في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: 5 - 6]، وقال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [القيامة: 37 -38 -39]، وقال في المرسلات: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: 20 - 23]، إلا أن أكثرهما شرفاً وتفضيلاً هو المذكور في أول سورة قد أفلح وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، فاعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية سبع مراتب في تخليق الأجنة، وقبل هذه الآية افتتح السورة بذكر سبعة أنواع من الخصال الخيّرات والطاعات.

حصول الفلاح.

وسابعها: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ واعلم أنه فرق بين الخشوع والمحافظة، فإن الخشوع صفة القلب على ما ذكرنا والمحافظة عبارة عن تحصيل شروطها في رعاية الوقت والطهارة والتشمّر لأدائها وترك التواني فيها فهذه أمور سبعة قدَّم الله ﷻ ذكرها ثم قال بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 10 - 11]، وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: لم سمى الجنة بالميراث مع أنه ﷻ حكم بأن الجنة حقهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111].

والجواب من وجوه:

الأول: أنه روي عن الرسول ﷺ أنه قال: **«لا مكلف إلا وقد أعد الله له في النار ما يستحقه إن عصى وفي الجنة ما يستحقه إن أطاع»**(1) وجعل لذلك علامة فإذا آمن البعض ولم يؤمن البعض صارت منازل من لم يؤمن منقولة إلى الذين آمنوا فلما كان حرمانهم عن تلك الدرجات ودخولهم في النار شبيهاً بالموت سمي ذلك ميراثاً لهذا الوجه وقد قال الفقهاء: إنه كما يورث عن الميت ما كان مملوكاً له كذلك يورث عنه ما كان يقدر فيه أنه كان مملوكاً له إن فعل وإن لم يدخل في ملكه، كالدية فإنها موروثة مع أنها لم تدخل في ملك المقتول ألبتة.

الثاني: أنه لما حصلت الجنة لهم مع أنهم ما كانوا عارفين في الدنيا بكمية منافعها أشبه ذلك الانتقال إلى الوارث.

الثالث: إن الجنة مسكن أبينا آدم فإذا انتقلت إلى أولاده كان ذلك شبيهاً بالميراث.

السؤال الثاني: كيف حكم على المؤمنين [المتصفين](2) بالصفات السبع بالفلاح مع أنه تعالى ما تممّ ذكر الواجبات كالصوم والحج؟

---

(1) لم نره فيما لدينا من المراجع.
(2) المتصفين: زيادة يقتضيها السياق.

هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يقدم عليه قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72]، واعلم أنه ﷻ وصفهم بالخشوع في الصلاة وأتبعه بوصفهم بالإعراض عن اللغو حتى يحصل لهم الفعل والترك فالفعل هو الصلاة والترك هو الإعراض عن اللغو.

ورابعها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ والقول في تفسير اسم الزكاة وفي منافعه سيأتي في باب الزكاة.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ والكلام فيه سيأتي إن شاء الله تعالى في باب النكاح.

وسادسها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8].

اعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، وقال تعالى: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27]، وإنما تؤدي الأمانة الأجسام لا المعاني وإنما تقع الخيانة في المؤتمن عليه لا في نفس الأمانة والعهد ما عقده الإنسان على نفسه فيما يقرّبه إلى ربه وتقع أيضاً هذه اللفظة على ما أمر الله به كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: 183]، والراعي هو القائم على الشيء بالحفظ والإصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية واعلم أن الأمانة والخيانة متقابلان قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾ فكل ما خرج عن أحدهما دخل في الآخر وكل العبادات دخل في الأمانة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72]، وتمام الكشف فيه أن العبادات قد تكون مخفية كالصوم وغسل الجنابة واستيفاء الوضوء وغسل الثياب، وقد تكون بحيث يخفى كيفية الإتيان بها قال ﷺ: **«أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته»**[1] وجملة ذلك ما يلتزمه الإنسان بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بها، ومن ذلك الأقوال التي يحرم بها النساء ويحرم بها التصرف في العبد لأنه مؤتمن في كل ذلك وأما العهد فإنه يدخل فيه العقود والأيمان والنذور فبيّن الله ﷻ أن مراعاة هذه الأمور والقيام بها معتبرة في

(1) لم نره بهذا اللفظ فيما لدينا من المراجع.

يستقيم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ فإنهم ليسوا مخلوقين من الطين؟

والجواب ـ والله أعلم ـ من وجوه:

الأول: أن لفظ الإنسان شامل لآدم عليه السلام وأولاده ثم قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ منصرف إلى آدم وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ منصرف إلى أولاده.

الثاني: أن المراد من الإنسان في هذه الآية أولاد آدم والطين هاهنا اسم آدم والسلالة هي الأجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه وهي التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منيًا وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:7-8].

الثالث: هو الذي ذكرت فقلت: المراد من الإنسان هاهنا أولاد آدم [وذلك][1] لأن المقصود من ذكر هذه الآية التنبيه على ما يدل على وجود الصانع، وهذا لا يحصل إلا بالأمر المشاهد وهو تولد أولاد آدم لا تولد ذات آدم فثبت أن المراد من الإنسان أولاد آدم، بقي أن يقال: فما المراد من قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ مع أن أولاد آدم عليه السلام ليسوا كذلك؟

وجوابه: أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهي إنما تتولد من الأغذية والأغذية إما حيوانية وإما نباتية والحيوانية تنتهي إلى النباتية والنبات إنما يتولد من صفو الطين، والإنسان بالحقيقة إنما يكون متولداً من سلالة من طين أقصى ما في الباب أن تلك السلالة من الطين تواردت عليه أطواراً بخلقه كما أنه يولد من المني بعد تعاقب الأطوار والأدوار عليه ولم يكن ذلك قادحاً في كونه متولداً من المني وهذا التأويل الذي ذكرته مطابق باللفظ ولا يحتاج معه إلى شيء من التكلفات والله أعلم بمراده.

المرتبة الثانية: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ واعلم أن الأطباء يقولون: أن الإنسان إذا أكل طعاماً فإنه ينطبخ ذلك الطعام في معدته لا بحرارة المعدة وحدها بل بحرارة ما [يحيط][2] بها :أما من اليمين فمن الكبد ،وأما من الشمال

---

(1) وذلك، في الأصل: وكذلك.
(2) يحيط، في الأصل: يطيف.

الجواب: أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ يأتي على كل الواجبات من الأفعال والتروك.

السؤال الثالث: هذه الآية تدل على أن هؤلاء هم الوارثون فأما من لم يأت بالطاعات وأتى بالمعصية ثم تاب ومات عقب التوبة من غير فعل شيء من الطاعات وجب أن لا يدخل الجنة وهو خلاف الآيات الدالة على أن التائب من أهل الجنة.

الجواب: ـ والله أعلم ـ: إن ظاهر الآية وإن كان يفيد الحصر إلا أنه يجب حمل الظاهر على أن الكاملين من أهل الجنة هم الموصوفون بهذه الصفات بدليل أن المجانين والصبيان يدخلونها وكذا الفساق من أهل الصلاة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ ونظير حمل هذا الحصر على حالة الكمال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، ومن الناس من قال: الفردوس عبارة عن أشرف موضع في الجنة وعلى هذا التقدير يزول السؤال، قال ﷺ: «**الفردوس مقصورة الرحمٰن**»[1] وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «**سلوا الله الفردوس فإنها سرة الجنة**»[2] واعلم أنه تعالى لما شرح في أول السورة هذه المراتب السبعة في العبادات أردفها بما يدل على وجود الصانع وقدرته وعلمه وحكمته وهو ذكر المراتب السبع في خلق الإنسان أولها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ وثانيها قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ وثالثها قوله: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ ورابعها قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ وخامسها قوله: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ وسادسها [قوله][3] ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ وسابعها قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14].

فلنشرح أحوال هذه المراتب السبعة بعون الله وفضله:

أما المرتبة الأولى: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ففيه سؤال مشكل وهو أن المراد من الإنسان إن كان هو آدم عليه السلام فكيف يستقيم قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ فإن آدم عليه السلام ما كان كذلك وإن كان أولاد آدم فكيف

---

(1) لم نره في المراجع التي بحوزتنا.
(2) رواه الطبراني في الكبير (7966)، والحاكم في المستدرك: 2/ 37 من حديث أبي أمامة الباهلي.
(3) [قوله]: زيادة يقتضيها السياق.

الحافظة فاقتضت الحكمة الإلٰهية أن يحصل من خواص الدماغ الذي هو أشرف أعضاء بدن الإنسان في تلك الرغوة أثر وكيفية، ثم إنه تعالى خلط بتلك الأجزاء أشياء كثيرة من أجزاء الدماغ ولذلك فإن من باشر كثيراً ظهر أثره على العينين في الفتور والكلال والانكساء، ثم إنه ﷻ ينزل تلك الأجزاء من الدماغ إلى صلب الرجل وترائب المرأة ثم عند الوقاع ينزل من الصلب والترائب إلى مستقر الرحم فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

واعلم أنّا قد ذكرنا أن هذه النطفة تجري مجرى رغوة تنتقل من الأعضاء بسبب ذوبان يعترض لها عند استيلاء حرارة الشهوة فيكون بعض تلك الأجزاء من ذوبان العظم وبعضها من ذوبان اللحم وبعضها من ذوبان العصب وبعضها من ذوبان العروق، ولما كان البدن الإنساني مخلوقاً من الطبائع الأربعة كان ذوبانها أيضاً كذلك فيكون المني جسماً مركباً من أرضية ومائية وهوائية ونارية، فالهوائية والنارية عالية عليها الحرارة ويدل عليه أن بياض الرطوبة إنما يكون بسبب اختلاط الهوائية بها كما يكون في الزبد والأجزاء الكثيفة التي في المني هو مواد الأعضاء والأجزاء اللطيفة هو أن فيه مواد الأرواح وتلك الأجزاء اللطيفة والكثيفة مختلط بعضها إلى بعض، ولما كان اللطيف سريع التخلل والتلاشي اقتضت الرحمة الإلٰهية جعل الأجزاء اللطيفة في الوسط وجعل الأجزاء الكثيفة كالصوان لها فيصير الكل كالكرة المستديرة فيكون باطنها مملوّا من الأجزاء الروحانية اللطيفة وظاهرها من الأجسام الكثيفة، وذلك الموضع الذي هو مجمع الأجزاء اللطيفة هو الموضع الذي استحكم وكمل كان قلباً فلهذا المعنى قال العلماء: أول الأعضاء الإنسانية تكونًا هو القلب وآخرها موتاً هو القلب. وعند هذا يظهر أن قطرة النطفة تصير كالكرة ويكون مجمع الأرواح في باطن تلك الكرة هو القلب وحينئذ يحصل هاهنا أحوال عجيبة:

الأول: أن العالم الأصغر الذي هو الإنسان كرة كما أن العالم الأكبر أيضاً كرة.

الثاني: أن كرة العالم الأصغر يبقى معلقة في جوّ الرحم يحفظه الخالق العظيم كما أن كرة العالم الأكبر يبقى معلقة في الخلاء الذي لا نهاية له يحفظه الخالق الحكيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

فبالطحال، وأما من قدام فبالثوب الشحمي القابل للحرارة سريعًا، وأما من فوق فالقلب يتوسط تسخينه للحجاب، فما يكون منه صافياً يدخل في عروق صلاب دقاق في الكبد والذي كالثقل ينزل في الأمعاء ثم ينطبخ ذلك المصفى مرة أخرى في الكبد ويحصل عند ذلك الانطباخ رغوة وهي الصفراء وتذهب إلى المرارة. وترسب وهو السوداء، ويذهب إلى الطحال وينفصل المائية الفضلية وتذهب إلى الكليتين ومنها إلى المثانة ومنها إلى الإحليل وتخرج. ثم إنه تعالى خلق مجرى بين الطحال وبين فم المعدة ومجرى آخر بين المرارة والأمعاء ثم إن تلك السوداء ينصبّ شيء منها على فم المعدة فتحصل في المعدة دغدغة الجوع ولو انسدَّ هذا المجرى لم يحصل للإنسان شعور بالحاجة إلى الطعام. وينصب شيء من تلك الصفراء على الأمعاء فتحصل في الأمعاء داعية إخراج الفضلة فلو انسد ذلك المجرى لم تنصب تلك الصفراء على الأمعاء ولم يحصل للإنسان شعور بالحاجة إلى إخراج الثقل فيبقى الثقل فيها ويتولد القولنج ثم إنه يحصل بين هذين الطبخين طبخ ثالث وهو أن ذلك الدم الصافي يخرج من الكبد ويتوزع في العروق وينطبخ مرة ثالثة في العروق، ثم يحصل طبخ رابع وهو أن تلك الدماء المتوزعة في العروق تنصب على جواهر الأعضاء وتتكيف بكيفية طبائع تلك الأعضاء فبعضها يصير متكيفاً بكيفية العظم وبعضها بكيفية اللحم وبعضها بكيفية العصب. فهذه أربع مراتب في الطبخ، إذا عرفت هذا فنقول: أنه إذا صارت الشهوة مستولية على الإنسان تولدت من تلك الشهوة سخونة منتشرة في جميع الأخلاط والأعضاء بسبب تلك السخونة قد بقي ببخار لطيف ورغوة من جميع الأعضاء والأخلاط إنما يرتفع فما حصل عند الهضم الرابع فيتولد من الهضم جوهر سببه بالطبع في العظم ومن اللحم والعروق والأعصاب كذلك، ثم إنه كما حصل في تلك الرغوة قوى وطبائع مشابهة لتلك الأعضاء البسيطة فكذلك يحصل فيها قوى وطبائع مشابهة لقوى الأعضاء المركبة فيحصل فيها أجزاء من الدماغ وأجزاء من العين وأجزاء من اليد وأجزاء من الرجل، ولهذا المعنى لما سأل اليهود رسول الله ﷺ عن سبب مشابهة الولد تارة أباه وأخرى أمه فقال: «**إن كان الغالب هو ماء الرجل حصلت المشابهة بالأب وإن كان الغالب هو ماء المرأة حصلت المشابهة للأم**»[1]، ثم إن هذه الرغوة المختلسة من جميع الأعضاء والأبعاض تصعد في العرقين السياسين بأمر الحكيم الخبير إلى الدماغ وذلك لأن الدماغ أشرف الأعضاء للإنسان وهو مسكن القوة المذكرة

(1) هو عند البخاري: (3938) ومسلم (311) من حديث أنس وعند مسلم (314) من حديث عائشة بمعناه.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: 58 - 59]، وقال في الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الدهر: 2]، وقال في عبس: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: 17 - 22].

وأمثال هذه الآيات كثيرة، واعلم أنه تعالى ذكر في القرآن للمني صفات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: 5 - 7]. **وهذه الآية مشتملة على ذكر الصفتين:**

الصفة الأولى: كونه ماءً دافقاً ولنذكر تفسير الدافق بحسب اللغة وما يتعلق بكونه دافقاً من وجه المصلحة، أما اللغة فاعلم:

أن الدفق صب الماء يقال: دفقت الماء أي: صببته وهو مدفوق أي: مصبوب، ولما كان هذا الماء مدفوقاً فاختلفوا في أنه لِم وصف بأنه دافق؟ وذكروا فيه وجوهاً:

الأول: قال الزجاج: معناه ذو اندفاق كما يقال: دارع وفارس ونابل وتامر أي: أي ذو درع وفرس ونبل وتمر.

الثاني: قال الفراء: أنهم يسمون المفعول باسم الفاعل كقولهم: شر كاتم وهم ناصب وليل نائم، قال تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: مرضية.

الثالث: قال الخليل في كتاب العين: دفق الماء دفقاً ودفوقاً إذا انصب بمرة.

الرابع: أن الدافق صاحب الماء فأطلق هذا الوصف على الماء على سبيل المجاز.

وأما وجه الحكمة في كون الماء مندفقاً فاعلم أن وجه الحكمة فيه التنبيه على أنه ليس المقصود من المباشرة تحصيل اللذة بل تحصيل الولد وذلك لأن كون الماء مندفقاً يمنع من دوام اللذة، وذلك لأن السيلان المستمر أقوى في إيجاد اللذة وأكثر دواماً لها بل الحكمة في الدفق بالقوة أن يكون للمني قوة في الوصول إلى قعر الرحم الذي سماه الله تعالى قراراً مكيناً.

الصفة الثانية: كون المني خارجاً من بين الصلب والترائب، وترائب المرأة عظام صدرها حيث تكون القلادة وكل واحدة من تلك العظام فهي تريبة وقد اختلف

الثالث: أن كرة العالم الأصغر الكثيف محيط وهو اللحم والبشرة والمحاط به اللطيف وهو السمٰوات والمحاط به الكثيف وهو الأرض(1).

الرابع: أنه تعالى قال في خلق السمٰوات والأرض: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأما في العالم الأصغر فقال أهل التجارب: أن هذه الكرة المتولدة من هذه النطفة تبقى ستة أيام على حالتها الأولى لا تتغير منها صفة ولا تزول منها حالة.

الخامس: روي أنه تعالى لما أراد خلق آدم عليه السلام أمر الملائكة عليهم السلام أن يأخذوا من كل ناحية من نواحي الأرض قبضة فبعض تلك القبضة أحمر وبعضها أسود وبعضها أبيض، وبعضها حرة وبعضها سبخة وبعضها عذبة وبعضها مرة فلا جرم جاء أولاد آدم عليه السلام على صفات مختلفة بعضهم أحمر وبعضهم أسود وبعضهم حر كريم وبعضهم نذل سفيه، فكذا هاهنا لما أراد الله تعالى تخليق ولد آدم أمر الملائكة عليهم السلام الموكلين بأبدان البشر حتى أخذوا من كل طرفٍ من أطراف أبدان الأب والأم جزء على خاصية أخرى: فأخذوا من سواد الحدقة والشعر جزء أسود، ومن بياض الملتحمة والسن والجلد جزء أبيض ومن الدم جزء أحمر، ومن الدماغ الأجزاء الباردة ومن القلب الأجزاء الحارة، ومن الكبد الأجزاء الرطبة ومن العظام الأجزاء اليابسة، وبالجملة أخذوا من طرف من أبدان الأبوين جزءًا مناسباً له في الطبيعة مشاكلة له في الخاصية. ثم إنه تعالى كما أخبر عن طينة آدم أنه خمرها بيده أربعين صباحاً فكذا هاهنا خمر هذه الأعضاء بعضها ببعض أربعين صباحاً، وكما أنه تعالى بحكمته رعى في تخمير طينة آدم عليه السلام دقائق لا تصل إليها العقول والأفكار فكذا في تخمير هذه الأجزاء بعضها ببعض راعى أسراراً لا تطلع عليها أفهام الخلق، فيقدر لكل شخص من ذلك التخمّر نسبة خاصة في المقدار والكيفية ومناسبة قدره في الحسن والقبح والسعادة والشقاوة والغنى والفقر والعلم والجهل لا يعرفها أحد إلا هو ولا يقف على كنه أسرارها أحد إلا هو جلّ وعز له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، واعلم أنه تعالى ذكر في آيات كثيرة تولد الإنسان عن النطفة فقال في أول سورة النحل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل: 4]، وقال في آخر يٓس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يسٓ: 77]، وقال في الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ

(1) لا يخفى ما في هذه الفقرة ـ الثالث ـ من ركاكة ويبدو أن بها سقطًا.

﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ولو كان نجساً لما حسن هذا الامتنان فإن ألزمونا العلقة والمضغة فنجيب عنه من وجهين:

الأول: أنا لا ندري ما حالها حينما تكون في الرحم.

الثاني: أن المني إنما يصير علقة ومضغة بسبب أنه يمتزج به دم الطمث والدم نجس فلهذا العارض حكمنا بالنجاسة، إلا أن أصل الامتنان بالتخليق منه يقتضي كونه طاهراً.

الحجة الثانية: أنه تعالى منَّ علينا بأن جعل اللبن طاهراً لأجل أنه غذاء ومن المعلوم أن الحاجة إلى طهارة الذات أعظم من الحاجة إلى طهارة الغذاء، فلما منّ علينا بجعل اللبن الذي هو الغذاء طاهراً فبأن يمنّ عينا بطهارة المني الذي هو الأصل أولى. واعلم أنا وإن حكمنا بطهارته إلا أن العلماء لما اختلفوا في طهارته ونجاسته كان دليلاً على غاية حقارته ونهاية مهانته.

الثاني: إن مهانته لأجل كونه مستقذراً.

الثالث: مهانته لأجل مروره على ممر النجاسة.

الصفة الخامسة: أنه تعالى أخبر عن الرحم الذي هو موضعه (قرار مكين) وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾. **وفيه فوائد:**

الفائدة الأولى: إن من ملأ كوزًا من الماء ثم قلبه انصب ذلك الماء ثم إنه أودع النطفة في قعر الرحم ثم خلق الرحم منكساً ثم حفظ فيه تلك النطفة بقدرته وحكمته وهذا وإن كان عجيباً بالنظر إلى قدرتنا إلا أنه غير عجيب بالنظر إلى قدرته، وذلك أن أجرام السمٰوات والأرضين والجبال والبحار أثقل بكثير من تلك القطرة كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [المؤمن: 57]، فالذي أمسك السماء والأرض بقدرته من غير علاقة فوقها ولا دعامة تحتها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: 41]، فبأن يقدر على إمساك النطفة في قعر الرحم بقدرته كان أولى وأحرى.

الفائدة الثانية: أنه تعالى سمى الرحم قراراً مكيناً ومعلوم أن النطفة في الرحم ليست مستقرة بل بقيت معلقة في الهواء فكيف يجوز تسمية الرحم بالقرار المكين؟ وجوابه كأنه قيل: أنا أمسك النطفة في هواء الرحم بقدرتي كما يمسك الواحد منكم

المفسرون فمنهم من قال: إنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائبه، ومنهم من قال: أنه مخلوق من الماء الذي يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، واحتج الأولون بأنه تعالى بيَّن أن الإنسان مخلوق من ماء دافق والذي يوصف بهذا الوصف هو ماء الرجل ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج من بين الصلب والترائب وذلك يقتضي كون هذه الصفة صفة لماء الرجل وإذا كان كذلك ثبت أن الولد مخلوق من ماء الرجل وحده.

واحتج أصحاب القول الثاني بقوله ﷺ: «**إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً ويعود شبهه إلى الأب وإلى أقاربه وإذا غلب ماء المرأة فبالضد**» وهذا صريح في أن الولد مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة والله أعلم بحقائق مخلوقاته.

الصفة الثالثة: قوله تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 45 - 46]، وقال في سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: 37 - 38]، ولقائل أن يقول: ما الفائدة في قوله: من مني يمنى مع إن كل مني يمنى؟

والجواب ـ والله أعلم ـ: إن فيه تنبيهاً على حقارة حال المني والتقدير أنه مخلوق من المني الذي جرى على مخرج النجاسة فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد على طاعة الله تعالى إلا أنه ﷻ عبّر عن هذا المقصود على سبيل الرمز والكناية، نظيره قوله تعالى في عيسى ابن مريم وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: 78]، والمراد بذلك قضاء الحاجة التي يحتاج الإنسان إلى خروجها منه، إلا أنه تعالى عبر عن هذا المعنى بقوله: (كانا يأكلان الطعام) وكان الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كيف يليق التكبر والتبختر ممن مرّ على مجرى البول مرتين؟

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وأيضاً قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ والمراد بكونه مهينًا وجوه ثلاثة:

الأول: قال مالك: أنه نجس رطبًا ويابساً، وقال الشافعي: أنه طاهر رطبًا ويابساً، وقال أبو حنيفة: أنه نجس رطبًا طاهر يابساً. حجة الشافعي ﷺ من وجهين: الحجة الأولى أنه تعالى منّ بخلقنا منها قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ

من الأمهات الأربع والتقدير من نطفة ذات أمشاج وهذا دل على قدرة الله تعالى لأن الطبائع المتنافرة لا تجتمع إلا بقهر قاهر قادر، ثم إن كل واحد من تلك الطبائع منافية للحياة فبناء أمر الحياة عليها يكون إظهاراً للضد من الضد فتكون أدلّ على كمال القدرة ونظيره قوله تعالى في سورة يسٓ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ ويحتمل أيضاً أن يكون المراد ما ذكرنا من كون النطفة متولدة بعد الهضم من الأربع، فبعضها فيه خاصية العظم وبعضها فيه خاصية اللحم وخاصية العرق وتلك الأجزاء مختلطة بعضها ببعض فيكون أمشاجاً بهذا التأويل.

المرتبة الثالثة: من مراتب خلق الإنسان صيرورته علقة، وزعم أصحاب التجارب أن المني في أول الأمر يصير كرة مستديرة ويبقى على كونه الأبيض في الرحم ستة أيام كما شرحناه ثم إنه يظهر بعد ذلك في الباطن أعلى مركز هذه الكرة مركز دموي وذلك الموضوع هو الذي ذكرنا أنه مجمع الأرواح وهو الذي إذا تمت خلقته كان قلباً فلهذا المعنى قالوا: إن أول عضو يتكون من البدن هو القلب، ثم يحصل بعد ذلك أيضاً نقطتان دمويتان إحداهما فوق، النقطة الأولى: وهي التي إذا استكملت خلقته كان دماغاً. النقطة الثانية: تحصل عن يمين النقطة الأولى وهي التي إذا استكملت خلقتها كانت كبداً، ثم إن هذه النقط الثلاثة تمتد في الصفات امتداداً وهذه الأحوال تحصل بعد ثلاثة أيام ثم بعد ستة أيام أخرى فتكون تسعة أيام من الابتداء، وقد يتقدم يوماً ويتأخر يوماً ثم بعد ستة أيام أخرى وهو الخامس عشر من العلوق بعد الدموية في الجميع فيصير علقة وربما تقدم يوماً أو يومين أو تأخر يوماً أو يومين فهذا شرح حال العلقة، ثم إن هاهنا أسراراً وفوائد:

الحكمة الأولى: أن من نقش نقشاً على شيء فإنه يحتاج إلى أمور:

الأول: أن يكون محل النقش جسماً صلباً كثيفاً وهاهنا الحق ﷻ وضع نقشه على الماء المهين.

الثاني: يجب أن يكون المكان الذي ينقش فيه واسعاً.

الثالث: أن يكون الموضع مضيئاً وهاهنا الحق ﷻ ينقش هذا النقش العجيب في الرحم وهو موضع ضيق فقال جلّ وعز: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ واستدل بهذا على إلٰهيته ووحدانيته فقال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ

الشيء الثقيل في مستقر الأرض، والمراد منه إظهار كمال القدرة ونظيره أنه تعالى سمى تخليق السماء بناء فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة:22] والشيء المعلق في الهواء لا يسمى بناء إنما الشيء المستقر على القرار هو الذي يسمى بناء. إلا أن الجواب عنه كأنه قيل:

أني لما أمسكت بقدرتي السماء في جو الهواء كان ذلك السكون جارياً مجرى الذي يكون مستقراً على الأرض ويبنى عليه البناء، والمقصود منه التنبيه على كمال قدرة الصانع ﷻ فكذا ها هنا سمى الرحم بالقرار المكين لتقرير هذا المعنى.

الفائدة الثالثة: وهو أن استقرار النطفة في الرحم إنما كان بسبب أنه ﷻ بقدرته وحكمته يحفظها، فلما كان المستقر هو القدرة الأزلية ولا شك أن القدرة الأزلية مبراة عن الخلل والعجز والزلل والنقصان لا جرم سمى السماء بناء والرحم قراراً، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، يعني لها عمد غير مرئية وهي قدرة الله جل وعز وحفظه وحكمته والله أعلم.

الصفة السادسة: النطفة قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2].

المشج في اللغة: الخلط، والأمشاج الأخلاط. قال صاحب الكشاف: الأمشاج لفظ مفرد وليس بجمع بدليل أنه وقع صفة للمفرد وهي قوله: نطفة أمشاج ويقال أيضاً: نطفة مشج ولا يصح أن يكون أمشاج جمعاً للمشج بل هما مثلان في الإفراد نظيره برمة إعسار أي: قطع منكسرة وثوب أخلاق وأرض سباسب، واختلفوا في معنى كون النطفة مختلطة على وجوه:

الأول: أنه اختلاط نطفة الرجل بماء المرأة قال ابن عباس: ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فيختلطان ويخلق الولد منهما، فما كان من عصب وعروق وعظم فمن نطفة الرجل وما كان من لحم ودم فمن ماء المرأة، وقال الحسن: من نطفة مشجت بالدم وهو دم الحيض فإن المرأة إذا حصل ماء الرجل في رحمها وصلبها أمسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم، وقال قتادة: الأمشاج هو أن يختلط الماء والدم أولاً ثم يصير علقة ومضغة وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة إلى صفة وحال إلى حال. وقال آخرون: الأمشاج عبارة عن كون النطفة مختلطة

النفخة سبباً لتخليق الحيوانات فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110]، وخلق الجان من النار فقال جل وعز: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: 27]، وذلك يدل على أن ما يفعله لا يشبه فعل أحد من الفاعلين.

الحكمة الرابعة: أنه ﷻ خلق القلب أولاً وذلك لأنه سرير الأرواح ومدرسة المعرفة وخانقات الصفوة ومنزل المحبة والنور الفائض من خطاب ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:19] لا يتجلى إلا فيه والكرامة الحاصلة من تشريف ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] لا تظهر إلا فيه والاستقرار المتولد من وعد ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28] لا يحصل إلا فيه فلما كان هو المقصود في الثواب والعقاب والوعد والوعيد والترغيب والترهيب والتحذير، لا جرم كان هو المخلوق الأول ثم إنه خلق الدماغ فوقه والكبد تحته لأن الدماغ منشأ الفكر الذي هو الواسطة بين القلب وبين العالم العلوي والكبد منشأ الغذاء وهي الواسطة بين القلب وبين العالم السفلي فجعل العلوي في العلو والسفلي في السفل تنبيهاً على هذه الدرجات.

الحكمة الخامسة: أن القلب سلطان البدن وليست سلطنته بسبب كبر الجثة وإلا لوجب أن يكون الفخذ أولى بهذه السلطنة، ولا بسبب الحدة وإلا لكانت المرارة أولى بها، ولا بسبب القوة وإلا لكانت العظام أولى بها، ولا بسبب كثرة الذخيرة وإلا لكانت المعدة أولى بها ولما تطلب جميع هذه الوجوه ولم تبق للقلب خاصية سوى كونه معدناً للعلم والحكمة والفهم والإدراك علمنا أنه إنما كان سلطان البدن لكونه موصوفاً بالعلم والحكمة وكانت سلطته بالعلم والحكمة والفهم والإدراك فعلمنا أنه من كان عالماً حكيماً كان سلطاناً بالحق ونائباً للحق بالخلق، وكل من كان محروماً عن العلم والحكمة كانت سلطنته في التلبيس بمثابة إبليس.

الحكمة السادسة: أن الروح سلطان الجسد، وسرير الروح هو القلب، لا جرم كان القلب هو أول الأعضاء الحادثة في البدن، فنقول: لما كان الروح سلطاناً محتاجاً إلى سرير جسماني كان ذلك السرير أولى الأعضاء المكونة في البدن، فالحق ﷻ سلطان الموجودات فلو كان محتاجاً إلى سرير جسماني وهو العرش[1] أول المحدثات وأول المكونات لكنه ليس الأمر كذلك بنص القرآن والخبر أما نص القرآن فهو قوله

---

(1) لوجب على هذا القياس أن يكون العرش.

ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18] وأيضاً نقش هذا النقش في ظلمات الأرحام فقال في سورة الـزمـر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6] فما أعظم درجة الإنسان وما أعجب خلقته وذلك لأنه لما ذكر حالاً من أحوال تخليقه ذكر عقيبه إما التهليل كما في الآيتين، وإما التعظيم والتقديس كما في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

الحكمة الثانية: إن كل نقاش وكاتب أراد أن يكتب شيئاً على جسم فإنه يكتب ذلك النقش على ظاهر ذلك الجسم ثم إنه يصل الأثر من الظاهر إلى الباطن، وهاهنا الحق ﷻ أظهر آثار كتابته ونقشه وتصويره في الباطن وهو ظهور النقط الثلاث الدموية في الباطن أولاً ثم سريانها من الباطن إلى الظاهر، وهذا ليعلم أنه كما أن ذاته وصفاته لا تشبه الذوات والصفات فكذلك أفعاله لا تشبه أفعال سائر الفاعلين وإن اشتبه عليك هذا في مبدأ الخلقة والفطرة فله مثال حاضر في الحال وذلك لأن الأعضاء الظاهرة لا تتحرك ولا تسكن إلا إذا حدثت في القلب داعية وإرادة لذلك الفعل، ومبعث ذلك الدواعي والإرادات في القلوب هو الله ﷻ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجادلة: 22] وبقوله عليه السلام: «**قلوب العباد بيد الله**»، وبقوله ﷺ: «**قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن**» فالحق ﷻ يكتب في القلب تلك الدواعي والإرادات ثم يتولد منها فنون الأفعال والحركات في ظاهر البدن، فظهر أن تأثير قدرة الله يظهر الآن في القلوب والضمائر أولاً ثم تسري تلك التأثيرات من البواطن والضمائر إلى الظواهر. ولما عرفت هذا المعنى في الحال فاعرف مثله في تخليق البدن في الابتداء.

الحكمة الثالثة: إن كل نقاش أبدع نقشاً حسناً لطيفاً فإنه يبالغ [في][1] صون نقشه عن أربعة أشياء: عن التراب فإن الغبار يبطل رونق النقش ويزيل طراوته، وعن الماء فإنه يغسله ويزيله، وعن الرياح فإنها تكدر النفوس ويبطلها، وعن النار فإنها تحرق وتفنى ثم أنه ﷻ عكس هذه القضية فأظهر نقش خلقة البشر من التراب فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] وأظهر نقش خلقة الدواب في الماء فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ وأظهر خلقة عيسى عليه السلام من الهواء فقال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، وأيضاً جعل

---

(1) [في] الزيادة على الأصل.

تلك الحرارة القائمة برحم المرأة وبسائر أعضائها في تجفيف تلك الأعضاء فإن تأثير تلك الحرارة في محلها أولى من تأثيرها في الجسم الأجنبي عنها المباين لها، فلما لم تؤثر تلك الحرارة في تجفيف تلك الأعضاء للأم وأثرت في تجفيف جوهر النطفة علمنا أن تأثيرها في أحد المحلين وعدم تأثيرها في المحل الثاني بتدبير مدبر المخلوقات وتقدير مقدر الكائنات فالطبائع معزولة والخواص باطلة والأفلاك معطلة والكواكب مسخرة ولا تأثير إلا للقدرة الأزلية ولا نفاذ إلا للمشيئة السرمدية سبحانه وتعالى عن قول الظالمين علواً كبيراً.

وأما المرتبة الرابعة: فهي صيرورة العلقة مضغة فالمعنى أنه ينقلب ذلك الدم الجامد مضغة أي: قطعة لحم كأنها بمقدار ما يمضغ كالغرفة لما يغترف واعلم أننا بيَّنا أنه يصير علقة في مدة خمسة عشر يوماً، ثم إنه بعد ذلك باثني عشر يوماً يصير مضغة وتتميز الأعضاء الثلاثة بعضها عن بعض وتمتد رطوبة النخاع وربما تقدم ذلك أو تأخر بيومين أو ثلاثة، ثم بعد تسعة أيام ينفصل الرأس عن المنكبين والأطراف عن الضلوع والنظر يميز بحسه في البعض ويخفى في البعض ويحس ذلك بعد تمام الأربعين في الأكثر وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: وهو أن المضغة اسم للقطعة من اللحم فقوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا﴾ [المؤمنون:14] يقتضي تقديم اللحم الذي هو المضغة على تخليق العظام وقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون:14] يقتضي تقديم العظام على اللحم وذلك متناقض.

والجواب ـ وبالله التوفيق ـ: إن المضغة اسم للقطعة الممضوغة من اللحم فهذا الجسم المسمى بالمضغة لا يكون لحماً ألبتة ولا يكون أملس السطح وذلك لأنه مركب من أجسام مختلفة الصورة، فبعضها يكون إذا استحكمت خلقته عظاماً وبعضها إذا استحكمت خلقته يكون عصباً وبعضها إذا استحكمت خلقته يكون عروقاً، ثم إن هذه الأجسام بعدما استحكمت خلقتها لم يتميز بعضها عن بعض تمام التمييز ولم تظهر فيها صلابة وكثافة بل هي باقية على الرخاوة وهي من حيث كونها لينة رخوة تشبه اللحم ومن حيث إنه لم تبق على كرتها وملاستها بل صارت أجساماً مختلفة الطبائع كان كاللحم الممضوغ ولهذا المعنى سمى الله تعالى هذا الجسم بمضغة في هذا الوقت.

تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، فبين تعالى أن الاستواء على العرش متأخر عن تخليق السمٰوات والأرض، وأما الخبر فإنه روي: أنه عليه أفضل السلام قال: «**أول ما خلق الله القلم**» وفي رواية ثانية: «**أول ما خلق الله العقل**» وفي رواية ثالثة: «**أول ما خلق الله نوري**» وفي رواية رابعة: «**أول ما خلق الله جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء**»(1) وجميع هذه الروايات متطابقة على أن العرش ليس هو المخلوق أولاً وذلك يدل على كونه منزهاً عن العرش والكرسي والمكان والجهة.

الحكمة السابعة: أن القلب سلطان الجسد فكان أشرف أعضاء الجسد هو القلب، ثم إن المجسمة يقولون: كل موجود هو أشرف من غيره فوجب أن يكون أعلى من غيره فلما كان الحق أشرف الموجودات وجب أن يكون في مكان أعلى من جميع الموجودات، فها هنا القلب سلطان البدن وأشرف الأعضاء مع أنه ليس في أعلى موضع من مملكة البدن بل هو مستقر في الوسط فظهر بهذا فساد قول المجسمة أن الأشرف يكون في أعلى المكان والجهة بل هاهنا دقيقة أخرى وهي أن أخسّ الأعضاء للبدن إنما هو الشعر والجلد والعظم وأعلى شيء في البدن هو هذه الثلاثة فعلمنا أن العلو لا يقتضي الشرف والسفل لا يقتضي الخسة.

الحكمة الثامنة: إن كل طباخ وضع اللحم الأحمر في قدر وطبخه فإنه تزول تلك الحمرة ويحدث البياض، وهاهنا الحق ﷻ وضع المني الأبيض في قدر الرحم وطبخه بنار الطبيعة فانقلب الأبيض أحمر، وأيضاً كل أحد يسلط الحرارة على جسم لطيف فإن بسبب تلك الحرارة تزداد الرقة والرخاوة فالحق ﷻ قلب هذه القضية فسلط الحرارة على النطفة الرطبة فيُصيرها منعقدة كثيفة قوية.

فإن قيل: إنما حصلت الكثافة والانعقاد لأن الحرارة لما عملت(2) في تلك الرطوبة بحركتها فبقي الباقي صلباً يابساً، فنقول: إن كان(3) الأمر كذلك وجب أن تؤثر

---

(1) رواه أبو يعلى: (2329) والبيهقي في السنن: 9/ 3 وفي الأسماء والصفات ص 378 والطبري في التفسير: 29/ 14 من حديث ابن عباس وهو حديث صحيح ورواه أحمد: 5/ 317 وأبو داود (4700) والترمذي (2156) من حديث عبادة بن الصامت.

(2) عملت في الأصل: علمت.

(3) [كان] زيادة يقتضيها السياق.

خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يكمل ذلك فيه بل فيه ما يقره الله في الرحم وفيه ما لا يقره، وإن كان قد أظهر فيه خلقة الإنسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط.

أما قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ فيه وجهان:

الأول: لنبيّن لكم أن انقسام المضغة إلى المخلقة وغير المخلقة يدل على أن المتولي لهذا التدبير ليس هو الطبع بل هو الصانع المختار.

الثاني: إن أول هذه الآية هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: 5]، فيكون المعنى: إنا أخبرناكم أنّا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب في أمر بعثكم فإن القادر على هذه الأشياء كيف يعجز عن الإعادة؟ وأما قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: 5]، والمراد منه أن من أقسام هذه المضغة من يبلغه الله تعالى حد الولادة والأجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر أو تسعة أشهر أو أربع سنين أو كما شاء الله وقدره[1] كما كتب ذلك الوقت المعين في اللوح المحفوظ صار ذلك أصلاً.

البحث الثالث: من مباحث هذا الموضع أنا قد ذكرنا أن أصحاب التجارب زعموا أن في أربعين يوماً يصير الحال بحيث يتميز بعض الأعضاء عن البعض وفيه إشكال وذلك لأنه روي في الصحيح عن الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق: «**إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله ملكاً ينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالله الذي لا إله إلا غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[2]. فهذا الحديث يدل على أنها تبقى أربعين يوماً نطفة ثم تبقى أربعين

---

(1) وقدره في الأصل: وقدراته.

(2) رواه البخاري: (3208، 3332، 6594، 7454) ومسلم (2643).

البحث الثاني: أنه ﷻ وصف المُضغة في سورة الحج فقال: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾. والمُخلّقة: المسواة المنشأة الملساء من النقصان والعيب يقال: خلق السواك والعود إذا سواه وملّسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء، ثم للمفسرين في المعنى أقوال:

الأول: أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم، كأنه ﷻ خلق المضغة إلى قسمين: أحدهما تامة الصورة والحواس والتخاطيط، والثاني: الناقصة في هذه الأمور فبيَّن تعالى أنه بعدما صيّره مضغة منها ما يخلقه إنساناً تاماً بلا نقص ومنها ما ليس كذلك، وهذا قول قتادة والضحاك فكأنه تعالى يخلق المُضغ متفاوتة منها ما هو تام خال عن العيوب ومنها ما تكون معيوبة ويتبع هذا التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم.

والقول الثاني: المخلقة الولد الذي يخرج حياً وغير المخلقة أي: غير المصورة وهو الذي يبقى لحماً من غير تخطيط وشكل، واحتج أصحاب هذا القول بما روي عن علقمة عن عبد الله قال: «**إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال الملك: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قال: مخلقة قال: يا رب ما صفتها؟ أذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ شقي أم سعيد؟ فيقول الله ﷻ: انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة، فينطلق الملك بذلك فيستنسخها ولا تزال النسخة معه حتى يأتي على آخر صفتها**».

والقول الثالث: قال القفال: التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الخلق بعد الخلق حتى يتم فهو [المخلق][1] وما لم يتم فهو غير المخلق لأنه لم تتوارد عليه التخليقات، واعلم أن القول الأول أقرب لأنه تعالى قال في أول الآية: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ [الحج:5] وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد في السقط لأنه قد يكون سقطًا ولم تتكامل في الخلقة.

فإن قيل: هلاّ حملتم ذلك على السقط لأجل قوله: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط، قلنا: أن هذا لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لأنه تعالى بعد أن تمّم

---

(1) الملحق في الأصل: المخلوق.

لتحريك الأعضاء فإنه خلق مصمتاً وما كان منها يحتاج إلى الحركة يقدر في مقدار تجويفه وجعل تجويفه في الوسط واحداً ليكون جرمه صلباً ولا يصير رخواً بسبب كثرة المنافذ ثم جعل المخ في وسطه ليرطبه ويمنعه التيبس المعفنة وفائدة زيادة التجويف أن يكون أخف وفائدة توحيد التجويف أن يبقى جرمه أصلب وفائدة صلابة جرمه لئلا ينكسر عند الحركات العنيفة.

القسم الثاني: للعظام إنما بحسب تجاورها على أقسام:

فأحدها: ما يتجاور مفصل سلس وهو الذي لأجل عظمته أن يتحرك حركاته سهلاً من غير أن يتحرك منه العظم الآخر كعظام الأصابع مع الكف ومفصل الرسغ مع الساعد.

وثانيها: ما يتجاور تجاور مفصل عسر غير موثق وهو كعظام فقرات الظهر في النصف الأعلى من الظهر ولولا ذلك لما قدر الإنسان تارة على أن ينتصب انتصاباً وتارة يصير منحنياً كما في وقت الركوع فأما النصف الأسفل من الظهر فأصل عظامه موثقة محكمة.

وثالثها: أن يكون المفصل موثقاً ليس لأحد عظميه أن يتحرك وحده ألبتة مثل مفصل عظام السن.

ورابعها[1]: المركوز وهو ما توجد لأحد العظمين زيادة والثاني ثغرة يركز فيها تلك الزيادة ارتكازاً لا يتحرك فيها بميل الإنسان.

وخامسها: المدرور وهو الذي يكون لكل واحد من العظمين أسنان كما للمنشار وتكون أسنان كل واحد منهما مهندمة في تحاريز الآخر كما يركب الصفارون صفائح النحاس كمفاصل القحف.

وسادسها: أن تكون العظام متلاصقة فمنها ما هي متلاصقة طولاً مثل مفصل ما بين عظمي الساعد، ومنها ما هو ملصق عرضاً مثل مفصل الفقرات السفلى من فقار الصلب.

---

(1) في الأصل: وثالثها وهو سهو من الناسخ.

يوماً علقة ثم تبقى أربعين يوماً مضغة وذلك على خلاف ما حكيتم عن أهل التجارب.

والجواب: أنه وإن انخلقت الأعضاء في مدة الأربعين إلا أن صورة العلقة والمضغة إنما تتم عند انقضاء الأربعينيات الثلاث فلا منافاة بين التجربة وبين كلام صاحب الشرع.

أما المرتبة الخامسة: وهي صيرورة المضغة عظاماً واعلم أن بدن الإنسان مركب من الأعضاء والأعضاء تنقسم إلى قسمين إلى أعضاء بسيطة ومركبة[1]، فالأعضاء المركبة هو الذي لا يكون جزؤه المحسوس مساوياً لكله في الاسم والحقيقة كاليد فإن كل جزء من أجزاء البدن لا يكون مساوياً لكل اليد في الاسم والحقيقة، وأما البسيطة فهي كالعظم فإن كل جزء من أجزائه المحسوسة يكون مساوياً لكله في الاسم والحقيقة.

واعلم أن الأعضاء المركبة إنما تتركب من الأعضاء البسيطة فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى في هذا المقام شيئاً من الأعضاء المركبة.

وأما الأعضاء البسيطة فهي عشرة: العظام والأعصاب والرباطات والأوتار والأوردة والشرايين والأغشية واللحم والشحم والجلد إلا أن أصل البدن وأساسه هو العظام فلهذا السبب خصّ الله تعالى العظام بالذكر في هذا الموضع.

واعلم أن العظام يمكن تقسيمها على وجهين:

الأول: أن العظام يحسب منافعها على أقسام:

أحدها: ما قياسه من البدن قياس الأساس وعليه منشؤه مثل فقار الصلب فإنه أساس البدن يبنى كما تبنى السفينة على الخشبة التي تنصب فيها أولاً.

وثانيها: ما قياسه من البدن قياس المجن والوقاية كعظم اليافوخ.

وثالثها: قياسه قياس الآلات التي تتم بها الأعمال. وهي عظام أصابع اليدين والرجلين ثم ما كان من هذه العظام إنما يحتاج إليه للدعامة أو للوقاية ولا يحتاج إليه

---

(1) في الأصل: مركب.

صلبة والعصب لطيف فأنبت الخالق بحكمته من العظام شيئاً شبيهاً بالعصب يسمى رباطاً فجمعه مع العصب وشبكه به كشيء واحد، إلا أن هذا الجرم الملتئم من العصب ومن الرباط كان دقيقاً أيضاً فدبر الخالق في ذلك بأن جعل ذلك الجرم متقوساً وملأ خلله لحماً وغشاه غشاءً دقيقاً صلباً، وجعل في وسطه شيئاً كالمحور من جملة العصب فهذا العضو هو العضلة، **وفيه فوائد كثيرة**:

إحداها: أنه لما فيه من اللحم منشأ لمنافع كثيرة منها أن يكون حشواً يخلل الفُرج الحاصلة بين العظام، ومنها أن اللحم متولدة من الدم الذي هو حار رطب فيكون اللحم سبباً لزيادة السخونة في الأعضاء مثل حشو الجبة. ومنها أن يكون حائلاً بين عظام البدن وبعضها مع بعض. ومنها أن يكون حائلاً بين عظام البدن وبين الأجسام الصلبة الخارجة عن البدن ويكون ذلك اللحم شبيهاً بالمغربة[1] اللينة التي يجلس الإنسان عليها فلا يتألم بسبب المصّاكة الحاصلة بين عظام البدن وبين الأجسام الصلبة الموجودة من الخارج.

والفائدة الثانية: أن هذه العضلات [بسبب ما فيها][2] من شظايا العصبة يجري قوة الحس والحركة فيتمكن الإنسان بسببها من الحركات الإرادية والأفعال الاختيارية.

والفائدة الثالثة: أن هذه العضلات بسبب ما فيها من شظايا الرباط وبسبب كونها مجللة بهذه الأغشية الصلبة تكون صلبة قوية لا تعرض لها الانهتاك[3] والانقطاع سريعاً فهذه إشارة مختصرة إلى منافع هذه العضلات.

وأما المرتبة السادسة: فاللحم، قال الله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فإن قيل أنه تعالى ذكر في جميع المراتب لفظ الخلق فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: 12-14].

وفي هذه المرتبة لم يذكر لفظ الخلق بل قال: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ فما السبب؟!

---

(1) المغربة كساء ذو طاقين بينهما قطن.
(2) زيادة من (ب).
(3) الانهتاك في (ب) الانفكاك.

واعلم أن عظام البدن جملتها مئتان وثمانية وأربعون عظماً، فأما عظام الرأس فخمسة وخمسون سبعة هي عظام اليافوخ وأربعة عشر عظام اللحى الأعلى واثنان هي اللحيان السفليان واثنان وثلاثون سناً فالمجموع خمسة وخمسون، وأما حرزات الظهر فتسعة وعشرون سبعة للعنق وأحد عشر تتصل بها الأضلاع وخمسة هي العطن وثلاثة العجز وثلاثة العصعص، وأما الأضلاع فأربعة وعشرون من كل جانب اثنا عشر والعص، مؤلف من عظام سبعة الترقويان عظمان موضوعان على كل واحد من جانبي العص واليدان معلومتان وكل واحد من اليدين مؤلف من واحد وثلاثين عظماً العضد وطرفه والساعد وهما عظمان ملتصقان بالطول والكف وهي اثنا عشر والرسغ وهو صفان في كل صف أربعة والمشط أربعة أخرى والأصابع خمسة عشر فالمجموع واحد وثلاثون ومجموع عظام اليدين اثنان وستون، وعند العانة عظمان وفخذان وطرفاهما والرصفتان، وعظام القدم سبعة وعشرون فهذا مجموع عظام البدن والكلام فيها وفي منافعها طويل، والنكتة الظاهرة في كيفية الاستدلال بهذه الحالة على الصانع تعالى أن العظام أجسام صلبة قوية فكيف تولدت من النطفة السخيفة الرقيقة؟ وأيضاً فهذه العظام مختلفة فمنها صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق فاللائق بكل موضع من مواضع البدن عظم مخصوص لو حصل في ذلك المكان عظم آخر لاختلت المصالح فالطبيعة التي لا شعور لها ولا إدراك كيف يمكن إسناد تخليق هذه الأعضاء إليها؟ وكيف يعقل أن يقال: أن هذه الطبيعة رتبت هذه الأعضاء بهذا الترتيب الموافق للمصلحة وأن هذا مما لا يعقله العقل بل الفطر السليمة والطباع المستقيمة تشهد بأن تخليق هذه الأعضاء لم يصدر إلا عن الصانع الحكيم المدبر العليم.

أما المرتبة السادسة: وهي قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾.

اعلم أن أهل التشريح ذكروا أن جميع عضل البدن خمسمائة وتسع[1] وعشرون عضلة.

واعلم أن الخالق ﷻ لما اقتضت حكمته أن يجعل منبع قوة الحس والحركة هو الدماغ وتكون الآلة الحاصلة بين القوتين من الدماغ هو العصب ثم كانت العصب لا يحسن اتصالها بالعظام [التي هي بالحقيقة أصول الأعضاء المتحركة][2] لأن العظام

---

(1) في المخطوط وتسعة وهو سهو الناسخ.

(2) زيادة من (ب).

الحجة الثالثة: أنه تعالى ميّز بين عالم الأرواح وعالم الأجسام فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:54] فجعل التباين بين هذين النوعين ثم أنه تعالى حكم بأن الروح من عالم الأمر فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ثم بين أنه لا سبيل للبشر إلى معرفته فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولو كانت من جملة الأجسام لما صحت هذه الأحوال.

الحجة الرابعة: أنه تعالى أضاف الأفعال إلى النفس فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف:53] وقال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر:27-28] ومعلوم أن جميع الأجزاء البدنية ليس مبدءًا للأفعال فعلمنا أن النفس يدبر البدن وهو غير البدن.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ وهذا [صريح][1] في أن النفس شيء مغاير للبدن تارة تدخل البدن وتارة تخرج منه.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ وكل أحد لا ينسى هذا الهيكل الذي يشاهده بحواسه فدل على أن تلك النفس التي ينساها الإنسان عند فرط جهله شيء آخر غير هذا البدن.

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:7-8] وهذا صريح في أنّ هنا نفساً هي محل الإلهامات ومحل الفجور والتقوى، ومعلوم أن كل واحد من أجزاء البدن وأبعاضه ليس كذلك فهذه النفس شيء مغاير لهذه الأعضاء.

الحجة الثامنة: القرآن دال على أن الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان المخصوص باقٍ[2] بعد الموت قال تعالى في صفة الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وقال في صفة المعذبين: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وقال تعالى: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:25] وقال ﷺ: **«أنبياء الله لا يموتون ولكنهم ينقلون من دار إلى دار»** فثبت أن الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان باقٍ بعد الموت للبدن حتى يدرك الآلام واللذات. وأما أن هذا البدن المشار إليه ليس

---

(1) (صريح) زيادة يقتضيها السياق.
(2) باق في الأصل (باقي).

قلنا: السبب فيه أن العظام والأعصاب والعروق أعضاء أصلية متولدة من النطفة ولذلك إذا بطل لا تعود، وأما اللحم فإنه ليس من الأعضاء الأصلية ولذلك فإنه إذا ذهب بالهزال عاد بالسمن مرة أخرى، وهو إنما يتولد من دم الطمث لا من المني فلما كان الأمر كذلك لا جرم جعل اللحم كالكسوة للأعضاء الأصلية. وأيضاً فقد ذكرنا أن فائدة اللحم أفادت السخونة للأعضاء وأن تكون كالمغربة اللينة التي إذا جلس الإنسان عليها لم يتألم بسبب المصّاكة الحاصلة بين عظامه وبين الأجسام الصلبة الخارجية وهذه المنافع والفوائد شبيهة[1] بالفوائد المطلوبة من الثياب الملبوسة، فلهذا السبب ذكر في هذه المرتبة لفظ الكسوة فسبحان من له تحت [كل][2] كلمة من كلمات هذا الكتاب الكريم سر شريف ونكتة روحانية.

أما المرتبة السابعة: وهو قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فاعلم أن المراد بالخلق الآخر قولان:

الأول: المراد نفخ الروح وزعموا أن الروح ليس من جنس البدن فلهذا المعنى جعل هذه المرتبة نوعاً آخر من الخلق مغايراً للمراتب المتقدمة واحتجوا عليه بوجوه من المعقول:

الحجة الأولى: أن المراتب المذكورة لا يكمل الانتفاع بها إلا بنفخ الروح فوجب في الحكمة ذكر الروح عقب تلك المراتب والمذكور عقب تلك المنافع هو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ فدل على أن المراد نفخ الروح فلما عبّر عن نفخ الروح بأنه خلق آخر علم أن الروح ليس من جنس البدن.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء ونفخ الروح فيه إشارة إلى تعلق الروح بالبدن. ثم إنه تعالى لما أضاف الروح إلى نفسه دلّ على أنه متميز في ذاته بمزيد شرف لا يحصل مثله للأجسام.

---

(1) شبيهة: في الأصل شبيه.

(2) زيادة يقتضيها السياق.

الثانية: قال بعضهم: الله تعالى خلق الأرواح من النور والطيب والنقاء والعلوم والعلو والحياة، أما النور فلأنه ما دام الروح في الجسد نورانياً فالعينان تبصران والأذنان تسمعان واللسان يتكلم والقلب يفهم والدماغ يتفكر، فهذا يدل على (أن)[1] الروح من عالم الأنوار والدليل على أنه من جوهر الطيب أنه ما دام الروح في الجسد يكون الجسد مصوناً عن الفساد والتفرق والانحلال، والدليل على أنه من جوهر العلو أنه ما دام الروح في البدن يكون البدن مرتفعاً عن الأرض غير ملتصق بها وكلما ازداد الروح قوة ازداد الارتفاع ألا ترى أن الإنسان عند استيلاء أنوار عالم الروحانيات على روحه يأخذ في الرقص. والسبب فيه أنه قوة روحانية فصارت تلك القوة الروحانية جاذبة من الأرض إلى عالم السمٰوات والأنبياء عليهم السلام لما كملت هذه الأحوال منهم صعدوا إلى السمٰوات فقال تعالى: في حق إدريس ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وقال في حق عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55] وقال في حق محمد ﷺ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ والدليل على أنه من جوهر العلم أن محل العلم هو الروح وذلك لأن العلوم نفوس علوية غيبية طاهرة مقدسة فلا يكون محلها إلا الجوهر القدسي العلوي. والدليل على أنه من جوهر الحياة أنه متى انقطع أثره عن جزء من أجزاء البدن صار ذلك الجزء ميتاً كما في المفلوج، وإن تعلق بجميع البدن صار كله حياً وبالجملة فالروح كالشمس والحياة كالنور الفائضة عن الشمس وذلك (كما أن)[2] كل جسم وصل إليه نور الشمس انقلبت أحواله من الظلمة إلى الضياء كذلك كل عضو يصل إليه نور الروح انقلبت حاله من الموت إلى الحياة.

النكتة الثانية: دلالة ارتباط تدبير هذا البدن بالروح على افتقار كل العالم إلى الصانع في غاية الظهور وذلك لأن هذا البدن مملكة صغيرة جداً وإذا كانت هذه المملكة الصغيرة لا يعقل استغناؤها عن ملك مطاع فيه فكل العالم الذي هو المملكة الكبرى كيف يمكن استغناؤها عن مدبر يدبرها ومتصرف يتصرف فيها. وكما أن المدبر في هذه المملكة الكبرى يجب أن يكون واحداً فكذلك في عالم الصغرى.

والنكتة الثالثة: أن المؤمن بذاته علوي وبصفاته علوي: أما ذاته فكقوله تعالى:

---

(1) (أن) زيادة يقتضيها السياق.
(2) زيادة يقتضيها السياق.

حياً بعد الموت فهو معلوم بالضرورة فلو جوّزنا كونه حياً لجاز مثله في جميع الجمادات وهو سفسطة وإذا لاحت المقدمتان علمنا أن المشار إليه بقولنا هذا الإنسان ليس هو هذا البدن.

الحجة التاسعة: قوله ﷺ: **«من عرف نفسه فقد عرف ربه»**[1] وكان في كتب الله المنزلة: «اعرف نفسك تعرف ربك» ولو كان المراد من النفس هو هذا الجسد المشاهد لما أمرنا بمعرفته لأن معرفته حاصلة بالضرورة والحاصل لا يمكن تحصيله.

الحجة العاشرة: أنا نجد من أنفسنا أنا نضيف كل واحد من هذه الأعضاء إلى أنفسنا فنقول: يدي ورجلي وقلبي ودماغي. والمضاف غير المضاف إليه فعلمنا أن النفس غير هذه الأعضاء. فإن قالوا: فقد يقولون نفسي وذاتي وهذا يقتضي أن تكون نفس الشيء مغايرة لنفسه وهو محال: وجوابه أنا إذا أضفنا النفس والذات إلينا كان المراد من النفس والذات هو البدن وهو مغاير لذلك الشيء المشار إليه بأنه هو الإنسان. فهذه استدلالات سمعية على إثبات النفس، ولمن أنكر النفس أن يجيب عن الكل بجواب واحد وهو أنه لا نزاع أن النفس شيء مغاير لهذا البدن المحسوس. وكيف لا نقول ذلك والإنسان قد يمرض فيذبل غاية الذبول ثم يبرأ فيسمن بعذ ذلك غاية السمن والإنسان واحد في الحالتين مع أن أجزاء البدن متبدلة. لكنه لم لا يجوز أن يقال البدن منقسم إلى قسمين: أحدهما أجزاء أصلية باقية من أول الخلقة إلى آخرها، والثاني أجزاء متبدلة عرضية يطرأ ويزول فالإنسان عبارة عن تلك الأجزاء الأصلية فهذا ما في هذا البحث.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا حملنا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ على الروح فها هنا لطائف:

الأولى: قال بعضهم: أنه خلق الأرواح من أنوار عالم الجمال والجلال [فالقوة النظرية مع ما فيها من بهجة المعرفة والمحبة من عالم الجمال][2] والقوة العملية المدبرة للبدن من عالم الجلال ولولا أن أنوار الأرواح مستورة بظلمات الأجساد وإلاّ لسجد لها كل كافر.

---

(1) لا أصل له من كلام رسول الله، انظر المقاصد الحسنة وغيرها. بل هو موضوع كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال النووي: ليس بثابت، وانظر كشف الخفاء (2/ 262).

(2) زيادة من (ب).

ذكرنا في علم التشريح في الطب الكبير، ولنذكر ها هنا نكتاً قليلة من المنافع الظاهرة الجلية التي يصل إليها فهم كل أحد فنقول: انظر إلى النطفة وهي قطرة قذرة من الماء لو تركت ساعة لتضربها الهواء بطلت وفسدت كيف أخرجها ربّ الأرباب من بين الصلب والترائب، وذلك لأنه سبحانه أوقع الألفة والمحبة في قلوبهم ثم قادهم بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع ثم استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع واستخرج دم الحيض من أعماق العروق وجمعها في الرحم ثم خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض حتى نما وربا، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم جعلها مضغة ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم في داخل الرحم في الظلمات الثلاث، ولو انكشف الغطاء والغشاء لكنت ترى التخطيط والتصوير يظهر في النطفة شيئاً فشيئاً ولا ترى المصور ولا قلمه ولا آلته، فهل رأيت مصوراً وفاعلاً لا يمشي إليه مصوره ولا يلاقيه؟! فسبحانه ما أعظم شأنه. ولنُشِر هاهنا إلى قليل من تشريح الأعضاء، أما الرأس فتأمل أنه ﷻ دوّرها وشقّ سمعها وبصرها وأنفها وفمها وأنه تعالى ركّب كرة الرأس في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً وخلق تلك العظام على كيفية مختلفة فكيف تولدت العظام الصلبة من النطفة السخيفة الرقيقة؟ ثم إنه سبحانه قدر كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص ومقدار مخصوص ووضع مخصوص، ولو وقع بخلاف ذلك لبطلت المنفعة وفات الغرض ثم ركب بعضاً مع بعض بحيث يحصل من مجموعهما كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة.

واعلم أنه تعالى إنما يظهر الاحتياط في عظم الرأس لأجل أن الدماغ أشرف أعضاء الإنسان فإنه محل الفكر والعقل ولما كان في غاية الشرف فإنه [صانه بسبعة][1] أنواع من الصوانات وذلك لأن الدماغ يحيط[2] به غشاء رقيق يقال له غشاء السمن وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر صلب وهو ملتصق بمقعر عظم اليافوخ، ثم فوقهما عظم اليافوخ ثم خلق خارج العظم غشاءً آخر يقال له السحماق وفوق هذا[3] الغشاء طبقة لحمية وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد وفوق الجلد الشعر فتأمل أنه تعالى خلق فوق دماغك سبع طبقات جارية مجرى السمٰوات السبع.

---

(1) (صانه بسبعة) في (أ) (صنع).
(2) يحيط في (أ) محيط.
(3) هذا في (أ) هذه.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 11] وأيضاً أفعاله وأقواله علوية قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10] وكتابه علوي: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: 18] ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: 40] وأما الكافر فكلمته سفلية[1] قال الله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات:98] وأفعاله سفلية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف:40]، وكتابه سفلي: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطفّفين:7] فيا أيها المؤمن العلوي لا تجعل روحك سفلياً بالمعصية، ويا أيها النوراني لا تجعل نفسك ظلمانية بالإعراض عن الله، ثم أنه تعالى بيَّن من خلقتك أن العلوي أشرف من السفلي والروحاني أفضل من الجسماني وذلك لأنه خلق فيك أعضاءً علوية وأعضاءً سفلية: أما العلوية فالقلب والعين واللسان، وأما السفلية فالبطن والمخرجان، فمن استعمل العين في العبرة واللسان في الحكمة والقلب في المعرفة صار علوياً شريفاً، ومن استعمل البطن في أكل الحرام والفرج في الزنا والحرام صار سفلياً خسيساً، ثم أكد هذه الدلالة بأن جعل الرئة التي هي معدن النفس الصاعد فوقانياً والمعدة التي هي معدن الهابط سفلياً ليعلم أن كل من كان علوياً سماوياً فهو الشريف وما كان أرضياً سفلياً فهو الخسيس.

والنكتة الرابعة: الروح محل العلم ويجب أن يعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام: موجود لا يجوز أن لا يعلم وهو الله ﷻ، وموجود لا يجوز أن يعلم وهو الجماد، وموجود يجوز أن يعلم ويجوز أن لا يعلم وهو أنت، فإن صرت أن تعلم شيئاً فقد تخلقت بأخلاق الله وإن صرت لا تعلم شيئاً فقد صرت مشابهاً للجمادات فامتيازك عن الجمادات والتحاقك بزمرة الملائكة المقربين وملازمتك لجنة[2] رب العالمين إنما حصل بسبب إيصال الروح بالبدن وعند هذا يظهر منقبة الروح وفضيلته.

القول الثاني: أن المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ تخليق الأعضاء الجسمانية.

واعلم أن تمام الكلام في شرح قدرة الله تعالى وحكمته في خلق الإنسان قد

---

(1) (سفلية) في الأصل (سفلي).
(2) لجنة رب العالمين في (ب) لعتبة رب العالمين.

آخر عجيب لا يعرفه إلا الله سبحانه وذلك لأن هذه الصور الذي نتخيلها ونشاهدها حال ما نشاهدها وحال ما نستحضرها إما أنه يقال أنها موجودة أو يقال أنها معدومة، والقول بكونها معدومة باطل لأنا نميز بين كل واحد منها وبين غيرها بل كأنّا نشاهدها وننظر إليها حاضراً[1] في خيالنا فإنّا إذا نظرنا إلى قرص الشمس ثم غمضنا العين فإنا نشاهد قرص الشمس حاضراً في خيالنا كأنا ننظر إليه فثبت أنها موجودة. ثم قال قوم أن محل هذه الصورة الخيالية بمقدم دماغنا، وقال آخرون بل مقدم الدماغ آلة في هذا العمل ومحل هذه الصورة جوهر الروح والروح ليس بجسم ولا جسماني وكل واحد من القولين عجيب جداً.

أما الأول: فهو أن مقدم الدماغ [جسم][2] صغير جداً فكيف ارتسم في ذلك الجسم الصغير صور السمٰوات والأرضين والشمس والقمر وصور البلدان المسالك والممالك؟!، والإنسان أيضاً ربما يحفظ كتباً كثيرة، فكيف اتسع ذلك الجسم الصغير لهذه الصور العظيمة؟ وقد يحفظ الكلمات التي سمعها من أول عمره مع كثرتها فكيف ارتسمت هذه الصور الكثيرة في هذا الجسم الصغير من غير أن يختلط شيء من هذه (الصور)[3] بعضها ببعض؟ ولا شك أنها من العجائب التي لا يعرفها إلا المدبّر الخالق.

والقول الثاني: وهو أن محل هذه الصور جوهر الروح وهو ليس بجسم ولا جسماني فهذا أعجب لأن هذه الصور لها أطوال وعروض وامتداد في الجهات والأحياز فكيف يعقل حلولها في شيء وليس لها طول ولا عرض ولا امتداد في الجهات وبالجملة فنحن نعلم بالضرورة أنا نحفظ صور هذه المحسوسات، وإذا أردنا أن نعلم أنا كيف نحفظها عجزنا عن ذلك فسبحان الخالق الحكيم، ومن جملة نعم الله ﷻ علينا في كيفية هذا الحفظ أنه جعل الحافظ بصور المحسوسات الخمسة شيئاً واحداً والفائدة فيه أنا إذا سمعنا صوتاً علمنا ذلك الشخص لأن القوة الحافظة تعلم أن الذي له هذا الصوت ذلك الشخص فحينئذٍ تفيد السمع فائدة البصر ويقوم كل واحد من الحواس الخمس مقام الآخر.

---

(1) (حاضراً) في الأصل (حاك).
(2) (جسم) في الأصل (في جسم).
(3) (الصور) في الأصل (النفوس).

والمقصود من تخليقها الاحتياط في صون دماغك عن الآفات. والمقصود من تخليق دماغك أن تكون من المتفكرين في دلائل الله المتأملين في مخلوقاته لتستدل بها على جلالة خالقها وحكمة بارئها. ولنذكر الآن بعض صفات الدماغ فنقول أنه تعالى قسمه في طوله إلى ثلاثة أقسام وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن المتوسط محل التأمل والتفكر وجعل البطن المؤخر محل الاسترجاع والتذكر، وكل واحد من هذه الأحوال الثلاثة أمور مهمة للإنسان لا يحصل الانتفاع بالإنسانية إلا معها. **أما الحفظ والتخيل فأمر لا بد منه في الإنسانية ويدل عليه وجوه:**

الأول: إن الإنسان محتاج إلى التفهم، والتفهم بالكلام، والكلام مركب من الحروف وهذه الحروف لا توجد مجتمعة ألبتة بل متعاقبة فلو لم يكن الإنسان حافظاً لصور المحسوسات بعد غيبوبتها لكان الإنسان إذا سمع حرفاً ثم انقضى ذلك الحرف الأول ووجد الحرف الثاني فعند حصول الحرف الثاني لا يكون الحرف الأول موجوداً في الخارج ولا يكون أثره أيضاً باقياً في الحفظ فحينئذٍ لا يكون المسموع أبداً إلا حرفاً واحداً والحرف الواحد لا يفيد المعنى ألبتة فثبت أنه لولا الحفظ ما كان يحصل التفهيم والتفهم بالكلام فكانت هذه المصلحة تختل وتبطل.

الثاني: إن الإنسان إذا رأى شيئاً ثم غاب عنه ثم رآه مرة أخرى عرف أن هذا الذي يراه الآن هو الذي رآه قبل ذلك، وذلك لأنه لما رآه في المرة الأولى ثم غاب عنه بقيت صورته في الحفظ فلما رآه مرة ثانية صارت هذه الصورة المحسوسة ثانياً منطبقة على تلك الصورة المحفوظة في الخيال فيحصل الشعور بأن هذا الذي يراه الآن هو الذي رآه قبل ذلك فلولا القوة الحافظة لما حصل هذا المعنى ولو لم يحصل هذا المعنى لاختل نظام العالم فما كان يعرف الزوج زوجته ولا السيد عبده واحتاج كل أحد إلى أن يعرف حال كل شخص في كل أمر يراه.

الثالث: أن خاصية الإنسان أن يتوسل بالفكر إلى أن يصير المجهول معلوماً، والفكر عبارة عن تركيب الأشياء الحاضرة في الذهن ليتوصل بتركيبها حضور مجهول لمعلوم ولا معنى لحضور الأشياء في الأذهان إلا حضور مثلها وأشباهها في القوة الحافظة، فالقوة الحافظة في دماغك جارية مجرى اللوح المحفوظ في عالم السمٰوات وبقاء صور المحسوسات في خيالك نسبة بقاء كتبة أحوال المخلوقات في اللوح المحفوظ فثبت بما ذكرنا أن القوة الحافظة من أعظم نعم الله على الإنسان. ثم فيه أمر

المطلوب إذا كان صورة ما لا هذه الصورة، فلم حصلت هذه الصورة بعينها دون سائر الصور؟ وإذا حصلت هذه الصورة بعينها حكم العقل بأن مطلوبي كان هو هذه الصورة فهذا إشكال عظيم وبالجملة فكل أحد يجد من نفسه بالضرورة أنه يحفظ الأشياء ويتفكر فيها ويستعيدها بعد غيبتها. ثم إن العقول متحيرة في معرفة حقيقة هذا الحفظ والفكر والذكر، فسبحانه ما أعظم شأنه وأبهر برهانه في أصناف ملكه وملكوته فهذا هو الإشارة المختصرة إلى خلقة الدماغ. ثم تأمل أحوال العين فإنها مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات، وبالحقيقة فهي مركبة من عشر طبقات وثلاث رطوبات فالطبقة السفلانية هي الطبقة الصلبة وفوقها المشيمة وفوقها الشبكة وفي الطبقة (الشبكية)[1] الرطوبة الزجاجية وفوقها الرطوبة البيضية وفوقها الطبقة العينية والطبقة القرنية بعدها الظاهر طبقة واحدة لكنها في الحقيقة أربع طبقات، ثم يحيط بهذا المجموع الطبقة الملتحمة فإذا عرفت هذا علمت أن طبقات العين ثلاث عشرة طبقة على عدد طبقات العالم الأكبر، فإن أعلى الطبقات للعالم الأكبر العرش وتحته الكرسي وتحته السمٰوات السبع وتحتها الطبقات الأربعة للعناصر فمجموع طبقات العالم الأكبر ثلاث عشرة ومجموع طبقات العين ثلاث عشرة[2]، ثم إنه تعالى خص كل واحدة من هذه الطبقات والرطوبات بشكل مخصوص ومقدار مخصوص وترتيب مخصوص. لو لم يوجد على ذلك الوجه بل على وجه آخر لاختلت المصالح، **ثم تأمل في أحوال العين من وجوه:**

الأول: أنه ﷻ جعل في موضع الإبصار مقدار عدسة واحدة ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والعالم مع اتساع أطرافها وتباعد أكنافها.

الثاني: أن البياض مناسب للنور والسواد مناسب للظلمة فجعل البياض سبباً للعمى والسواد معدناً للقوة الباصرة ليعلم أن سبب حصول هذه النعمة فضل الله وكرمه لا الطبع والخاصية.

الثالث: أنه ﷻ جعل الحدقة مصونة بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذار عنها.

---

(1) (الشبكية) في الأصل (الشبكة).

(2) (ثلاث عشرة) في الأصل في الموضعين (ثلاثة عشر).

وأما البطن الأوسط من الدماغ: فهو محل الفكر ومعنى الفكر أن تركب القوة المفكرة شيئين من الأشياء الحاضرة عند قوة الحافظة فيصير ذلك التركيب سبباً لاستجلاب صورة جديدة عند العقل. وجميع التركيبات التي أحدثها أهل الدنيا في بناء المساكن واستخراج الحرف والصناعات فهو من أعمال القوة المفكرة فالقوة المفكرة تستخرج تلك الصور بهذا الطريق، ثم إن القوة العملية تنقل تلك الصور من الأفكار إلى الخارج ومن المعلوم أنه لولا الفكر لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع الآفات وهما أعظم النعم بخلق القوة المفكرة ومن أراد أن يعرف قدر هذه النعمة فلينظر إلى البهائم والمجانين. واعلم أن (القوة)[1] المفكرة كالعلم والقوة الحافظة كاللوح فإن القوة المفكرة إذا استنبطت صورة جديدة ارتسمت تلك الصورة في لوح الخيال فكان المثبت هو الفكرة والقابل هو الخيال فكانت المفكرة قلماً والحافظة لوحاً.

واعلم أنا وإن كنا نعلم بالضرورة أنا نتفكر إلا أننا إذا أردنا أن نعلم هذا الفكر ما هو صعب علينا ذلك، فإن هذا الذي طلبناه هل نعلمه أم لا فإن علمنا فكيف نطلب العلم به وإن لم نعلمه فكيف يمكننا طلب شيء لم يخطر ذلك الشيء ببالنا.

وأما البطن الآخر من الدماغ: فهو التذكر ومعنى التذكر أن من حضر في ذهنه أمر من الأمور ثم غاب عنه فإنه يستوحيه بعد غيبوبته، وهذه الحالة حاصلة للإنسان فإنه ليس كل ما رآه الإنسان وسمعه في مدة عمره فإنه يكون حاضراً في خياله بل أكثر هذه الصور في أكثر الأحوال غير حاضرة في الذهن لكنها وإن كانت غائبة إلا أن الإنسان متى أراد استحضارها قدر عليه فهذا الاستحضار هو التفكر، ولا شك أن خلق هذه القوة نعمة عظيمة من الله على الإنسان.

واعلم أيضاً أن هاهنا حالة عجيبة تعجز العقول البشرية عن معرفة كيفيتها وذلك لأن هذه الصورة إذا كانت غير حاضرة فتذكرها عبارة عن طلب رجوعها، فهذا الطلب إما أن يكون طلباً لتلك الصورة بعينها أو يكون طلباً لصورة ما مبهمة أية صورة كانت، فإن كان الأول فهو محال لأنها غير معلومة بعينها إذ لو كانت معلومة بعينها لكانت حاضرة فما كان الإنسان يحتاج إلى طلبها وامتنع طلبها بعينها، والثاني أيضاً محال لأن

---

(1) (القوة المفكرة) في الأصل (قوة المفكرة).

معيناً على إدراك السمع وليمنع الهوام عن الدخول في الأذن ثم راعى فيه أنواعاً من المصالح.

الأول: أنه تعالى حوطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فيردها إلى الصماخ.

الثاني: أنه تعالى جعل في ثقبة الأذن انحرافات وانعراجات حتى تصير المسافة لهذا السبب طويلة، فلو دخل الثقبة شيء من الهوام والحشرات فحينئذٍ تكثر حركاتها بسبب طول المسافة فينتبه الإنسان ويسعى في إخراجه عن الأذن.

الثالث: أنه تعالى جعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين تدركان الأجسام والأعراض وهي أدلة وجود الصانع والأذنان يسمعان الكلام. والدلائل العقلية مقدمة على الدلائل السمعية فلا جرم قدم البصر على السمع.

الرابع: خلق العينين مع الغطاء والأذنين بلا غطاء لأن متعلق العينين أجسام وأعراض باقية فلولا الغطاء فيهما فكانا على خطر، ومتعلق الأذنين الصوت فلو كان لهما الغطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فلا يحصل الانتفاع بالسمع.

الخامس: روى كعب الأحبار قال: دخلت عليَّ عائشة فقلت: «الإنسان عيناه (هاديتان)[1] وأذناه قمع ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك وإذا طاب الملك طاب جنوده»، فقالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ[2].

واما الأنف: فإنه سبحانه رفعه من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيهما حاسة الشم وفيه منافع.

الأول: أنه يستدل باستنشاق الروائح على الأغذية والمطاعم المستورة.

الثاني: لنستنشق بمنفذ المنخرين الهواء البارد والطيب فنستغني بالمنخرين عن فتح الفم أبداً.

الثالث: أنه جعل تجويفه واسعاً حتى ينحصر فيه هواء كثير فينكسر برده قبل النفوذ إلى الدماغ فإن الهواء المستنشق وإن كان ينفذ إلى الرئة أكثر فإن شطراً صالحاً

---

(1) (هاديتان) في الأصل «هادياً».

(2) لم نره في المراجع الموجودة لدينا.

الرابع: أنه ﷻ جعل الأجفان سوداً ليكون سوادها سبباً لاجتماع النور الذي يعين على الإبصار ويكون مانعاً عن تفرق ذلك النور.

الخامس: أنه خلق لتحريك الحدقة أربعاً وعشرين[1] عضلة لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين.

السادس: أن العين تشبه المرآة ومعلوم أن المرآة إنما يُنتفع بها إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء، فلما كانت العين لا يُنتفع بها إلا حال كونها في غاية الصقالة والصفاء لا جرم أن الحق ﷻ خلق هذه الأجفان متحركة إلى الانطباق أبداً من غير اختيار لإنسان حتى تبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات.

وأما الذبابة فلِمَ لَم يخلق لعينها الأجفان لا جرم ألهمها حتى أنها [ببدنها تقي][2] عينيها عن الغبار والكدورات.

السابع: أنه تعالى جعل العين هادياً لصاحبها إلى إدراك الأشياء وسبباً لاطلاع غيره بواسطته على ما في قلب صاحبه، وذلك لأن القلب في داخل البدن والعينان كالزجاجتين الموضوعتين على جدار البيت فكيف ما كان الشمع في داخل البيت وقع ضوءه على الزجاجتين فكذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب في الرضى والغضب والرغبة والنفرة، فسبحانه من جعل العين هادياً لصاحب العين إلى معرفة العين والعين على معرفة أحوال قلب صاحب العين.

الثامن: هو أن ألطف أعضاء البدن هو العين ثم إن جميع الأعضاء تتأثر من الحر والبرد فوق ما تتأثر منهما العين، وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلاف ذلك لأن الألطف أسرع تأثراً، لكنا نرى أن الرِّجل على صلابة جلدها تتأثر من الحر والبرد فوق ما تتأثر العين منهما وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلاف ذلك لأن الألطف أسرع تأثراً وما ذاك إلا ليعلم أن حصول هذه المصالح ليس بالطبع والخاصية بل بحفظ العليم الرحيم.

وأما أحوال الأذن: فاعلم أنه تعالى شق الأذنين وأودعهما ماء مرًّا ليكون ذلك

(1) أربعاً في الأصل (أربعة).
(2) (ببدنها تقي) في الأصل (ببدنها).

الأصلي من النفس هو إيصال النسيم البارد إلى القلب فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة. ثم إنه ﷻ صرف هذا المعنى إلى رعاية مصلحة أخرى وهو أنه جعلها مادة الحروف والأصوات والكلام ثم إنه ﷻ خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والخشونة والملاسة حتى اختلفت الأصوات لأجل اختلاف هذه الأحوال فكما لا تتشابه صورتان ألبتة فكذلك لا يتشابه صوتان ألبتة، وكما يحصل الامتياز بين الأشخاص بالقوة الباصرة فكذلك يحصل الامتياز بينهم بسبب القوة السامعة فيحصل في الظلمة هذا التميز ويحصل للأعمى هذا التمييز. وأما ما يتعلق بتحصيل مصالح البدن فهو أن أعظم الأشياء المحتاج إليها في مصلحة البدن هو الأكل وهو ﷻ أعد في الفم أسباب الأكل وهو من وجوه:

النوع[1] الأول: أنه تعالى خلق في الفم الأسنان ولها منافع:

الأول: منها ما ذكرنا من أنه مقاطع الأصوات فتحدث الحروف المختلفة بسببها.

والثاني: أنها تكون آلة القطع والكسر والطحن، ثم انظر إلى الحكمة وذلك أن الإنسان في أول ما يتناول الغذاء يحتاج إلى القطع فجعل الأسنان المقدمة حادة عريضة الرؤوس جارية مجرى السكين وجعل الأنياب مستديرة حادة الرؤوس للكسر وجعل الأضراس مسطحة الرؤوس خشنة كالرحى لأجل الطحن، ولو قدرنا كون الأضراس مقدمة وكون الرباعيات مؤخرة لبطلت المصالح والمنافع بأسرها.

والثالث: تكون زينة للوجه وذلك أنه ﷻ زين الفم بالأسنان فبيّض ألوانها ورتب صفوفها وجعلها متناسبة متناسقة كأنها الدر المنظوم، ثم إنه خلق الشفتين وحسّن لونهما وشكلهما [لينطبقا ويسدا منفذه][2] ولتتمَّ بهما مخارج الحروف. ومن لطيف الحكمة أنه تعالى جعل الأذن بلا حجاب ولا باب وخلق وراء اللسان بابين أحدهما الأسنان والثاني الشفتان وفيه تنبيه على أنه يجب أن يكون استماع الكلام أكثر من الاشتغال بالكلام، فإن استماع الكلام يجري مجرى الدواء والاشتغال بالكلام كالداء.

---

(1) النوع زيادة يقتضيها السياق.
(2) [لينطبقا ويسدا منفذه] في الأصل (لينطيقها ويبدأ منفذهما).

لمقدار ينفذ أيضاً إلى الدماغ فلذلك فإن المزكوم يضره استنشاق الهواء البارد.

الرابع: أن تجويفه الواسع يجذب إلى نفسه هواءً كثيراً حتى يحصل أمام آلة الشم فيكون إدراك الشم أسهل ولذلك فإن من بالغ في التشمم جذب الهواء بخيشومه أكثر.

الخامس: أنه يعينه على تقطيع الحروف وتسهيل إخراجها فلذلك إن من قبض على أنفه عسر عليه التكلم بأكثر الحروف.

السادس: أن يكون للفضول المندفعة من الرأس ستر ووقاية عن الإبصار. واعلم أن النَّفَسَ عظيمة فلو انقطع عن الإنسان لحظة واحدة لمات. ثم تأمل أن الهواء المستنشق يدخل أولاً من المنخرين فينكسر برده هناك ثم يصل إلى الحلقوم فيعتدل مزاجه هناك ثم يصل إلى الرئة ويتصفى فيها ثم يصل إلى القلب فيروح عن الحرارة الغريزية وينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ويبلغ إلى أقصى أطراف البدن، ثم إذا تسخن جداً وخرج عن حد الانتفاع عاد من تلك الأقاصي إلى القلب ثم إلى الرئة ثم إلى الحلقوم ثم إلى المنخرين ثم يخرج ويعود مثله فمجموع هذه الأفعال وهو المسمى بالنفس الواحد، ويقال أن الإنسان يتنفس في كل يوم أربعة وعشرين ألف نفس فاعرف مقدار النَّفَسَ الواحد في المنفعة فإنه لو انقطع لحصل الموت. ثم انظر إلى كثرة الأنفاس لتعرف عظيم نعمة الله عليك كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: 18].

وأما الفم: فإنه ﷻ جعله آلة لتحصيل مصالح الروح ولتحصيل مصالح البدن أما مصالح الروح فلأنه أودع فيه اللسان الناطق المعرب لما في القلب.

واعلم أنه ﷻ خلق القلب أميراً للبدن ومعدناً للحرارة الغريزية فاحتاج القلب إلى تعديل تلك الحرارة القوية بالنسيم البارد المعتدل، فإذا استدخل الهواء البارد ووصل إلى القلب واعتدلت حرارة القلب به وبقي ذاك هناك ساعة تسخن واحترق فاحتاج القلب إلى إخراج تلك النفس فجعل المدبر الحكيم الفاطر العليم إخراج ذلك النفس سبباً لحدوث الصوت، ثم جعل في الحنجرة وفي اللسان وفي الحنك وفي الشفتين مقاطع ومخارج لحروف مختلفة فحصلت الحروف بهذا الطريق، ثم جعل تلك الحروف عند تأليفها وتركيبها مؤدية للمعاني فانظر إلى كمال الحكمة فإن المقصود

اللعب، فقال عمرﷺ: بل ها هنا ما هو أعجب منه وأغرب وذلك لأن رقعة الوجه أصغر بكثير من رقعة الشطرنج ثم إن كل عضو من أعضاء الوجه لا يتغير عن مكانه، فالعينان أبداً يكونان في ذلك الموضع المعين وكذلك الأنف والأذن والفم. ثم مع ذلك فإنه يحصل فيه التفاوت فإنك لا ترى شخصين في الشرق والغرب يتشابهان من كل الوجوه، فسبحانه ما أعظم شأنه.

واعلم أن التفاوت في الصورة ظاهر قوي فيما بين الآدميين بعدةٍ. فالتفاوت حاصل بين صور الحيوانات الأهلية، إلا أن التفاوت في ما بين الآدميين أكثر.

وأما الحيوانات البرية فالتفاوت فيما بين صورها قليل جداً والسبب فيه أنا ذكرنا أنه لولا اختلاف صور الناس لما ميّز الزوج عن الأجنبي والسيد عن غير السيد ومالك المتاع والدار عن غيره، فكان ذلك يفضي إلى الفساد العظيم فلهذا المعنى اقتضت الحكمة الإلٰهية إظهار التفاوت في صور الآدميين.

وأما الحيوانات الأهلية فقد يتعلق بعض الأعراض بأعيانها من بعض الوجوه إلا أن اشتداد الحاجة إلى معرفتها بأعيانها وأشخاصها ليس كالحاجة إلى معرفة الناس وأعيانها. فلا جرم أظهر الله المخالفة بينها في الصورة إلا أن تلك المخالفة أقلّ من المخالفة بين أشخاص الناس. وأما الحيوانات البرية فلا تتعلق مصلحة ألبتة بمعرفة أعيانها وأشخاصها فلا جرم لم تظهر المخالفة بين صورها وأشكالها إلا في القليل، فسبحان من له في كل شيء حكمة مرعية وأسرار مخفية.

الثالث: قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمٰن: 19-20] فإن تعجبت من هذه الحالة فانظر إلى وجهك مع صغره فإنه ﷻ وضع فيه أربعة من البحار مختلفة الطبائع والصفات فجعل بحر الأذن مملوأً من الماء المرّ[1]، وبحر العينين مملوأً من الماء المالح، وبحر الفم مملوأً من الماء العذب، وبحر الأنف مملوأً من الماء العفن المتغير، وجعل بين كل واحد من هذه البحار حاجزاً مانعاً وأبقى كل واحد منها على صفته وخاصيته لحكمة بالغة. أما مرارة ماء الأذن فلئلا يدخلها شيء من الحشرات، وأما ملوحة ماء العين فلئلا تتطرق العفونة إلى ذلك الشحم، وأما

(1) في المخطوط: (مراً).

والنوع الثاني: مما حصل في الفم من أسباب الأكل وذلك أنه تعالى جعل معدناً للرطوبة الغدية اللعابية فالإنسان إذا وضع الطعام في الفم وطحنه بأسنانه امتزج ذلك المطحون باللعاب الذي في الفم فوصلت آثار تلك الطعوم اللذيذة في الحال كما أنه يصير سبباً لقوة البدن في الاستقبال، ثم هاهنا أنواع من العجائب:

الأول: أن كل من أراد إدارة الرحى بسبب انصباب الماء إليه وضع الرحى في موضع يكون أسفل من مجرى الماء حتى إذا انصب الماء من الأعلى إلى الأسفل حينئذٍ يقوى على إدارة الرحى، والله ﷻ أدار رحى الفم الذي يصعد الماء من أسفل المعدة ليعلم الخلق أن ذلك بسبب الحكمة والقدرة لا بسبب الطبع والخاصية.

والثاني: أن الإنسان قبل أن يضع الطعام في الفم اجتمعت [لديه][1] من تلك الرطوبات بقدر ما يبتل به ذلك الطعام ولو لم تجتمع تلك الرطوبات في هذا الوقت لتعذر على الإنسان مضغ ذلك الطعام وتعسر عليه ابتلاعه، فانظر إلى كمال الحكمة الإلٰهية في الوقتين.

والثالث: أن الإنسان لما احتاج إلى طحن الطعام بالأضراس ومضغه فقد يتقلب أجزاء الطعام مما بين تلك الأضراس فجعل اللسان متحركاً في ذلك الوقت، حتى إن اللسان بحركاته المختلفة يجمع الطعام إلى ما بين الأضراس حتى يتطحن على سبيل الكمال والتمام فسبحان من له الحكمة القاهرة والدلائل الباهرة فهذه إشارة مختصرة إلى أحوال الناس وشرح أحوال هذه الحواس.

ثم هاهنا أنواع آخر من الحكمة والفوائد في الرأس:

الأول: تأمل في وضع الحواس وقوة الحفظ والفكر والذكر في الرأس وذلك لأنها جعلت في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن الإنسان بسبب ارتفاع هذه الحواس من إدراك الأشياء البعيدة: فما أحسن قول الحكماء: الرأس صومعة الحواس.

الثاني: كان بعضهم يقول عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: ما أعجب أمر الشطرنج فإن تلك الرقعة على غاية صغرها تشتمل على أنواع لا نهاية لها من

---

(1) زيادة يقتضيها السياق.

جعل سواد الحاجبين مرة أخرى محيطاً بذلك البياض ثم جعل بياض الجبهة محيطاً بسواد الحاجبين ثم جعل سواد الشعر مرة أخرى محيطاً بذلك البياض، فتأمل في هذه الصُنع العجيبة والتركيبات البديعة ليشهد عقلك وحسك وروحك وفكرك وذكرك وجميع أجزائك وأبعاضك على جلال قدرة الخالق وكمال حكمته سبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

السادس: قال صلوات الله وسلامه عليه: «**اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه**»[1] فجعل حسن الصورة الظاهرة دليلاً على حسن السريرة في الأعم الأكثر، منهم من ذكر فيه وجوهاً أخرى:

الأول: كأنه قال ﷺ: «**من حسّن الله خلقه وجب عليه أن يجعل شكر هذه النعمة حسن الفعل**».

الثاني: أنه أراد بحسن الوجه الدين وذلك لأن العبد إنما يتوجه إلى ربه بدينه والدين عند الله الإسلام، فإذا رفع المحتاج حاجته إلى من حسن دينه لم يرض من دينه أن يرده غير مقضي الحاجة إلا إذا كان عاجزاً عن قضائها.

والثالث: أنه أراد بحسن الوجه المتهجد بالليل بدليل قوله ﷺ: «**من كثُرت صلاته بالليل حسُن وجهه بالنهار**»[2].

السابع: روي أنه صلوات الله عليه كان يقول في سجدته: «**سجدت وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره**»[3] وأيضاً قد يعبر بالوجه عن الذات قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وقال ﷺ: «**وجه دينكم الصلاة**» ويقال للعربي: يا وجه العرب، ويقال للطريق المفضي إلى حصول المطلوب: هذا وجه هذا الأمر. وقال الخليل ﷺ: وجهت وجهي للذي فطر السمٰوات والأرض. وكل هذه الاستعلامات يدل على أنهم يجعلون الوجه اسماً لكل ذلك الشيء وتارة

---

(1) هو حديث باطل أورده ابن الجوزي في الموضوعات (2/ 109 ـ 111) وانظر التعليق على مسند الشهاب (1/ 252 ـ 258).

(2) هو حديث باطل أورده ابن الجوزي في الموضوعات (2/ 109-111).

(3) في (أ) خلقني وشق سمعي وبصري والحديث رواه مسلم (771) من حديث علي والنسائي (2/ 226) من حديث جابر.

عذوبة بحر الفم فلأجل أن يجد المطعوم على غاية اللذاذة، وأما عفونة بحر الأنف فلأجل أنه جعل مصباً لفضلات الدماغ فسبحانه ما أعظم شأنه.

الرابع: قال الباقر: كل ما خلق الله في العالم الأكبر إلا وخلق نظيره في العالم الأصغر فلهذا قال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ يعني: إن عجزت عن مطالعة العالم الأكبر فانظر في العالم الأصغر وذلك لأني خلقت في العالم الأكبر شمساً وقمراً ونجوماً، وخلقت في العالم الأصغر مثلها فشمس العالم الأصغر الروح لأن الروح تضيء جسدك كما أن الشمس تضيء العالم وإذا خرجت الروح من جسدك صار جسدك مظلماً كما أن الشمس إذا غربت صار العالم مظلماً. والعقل كالقمر فكما أن القمر يستمد النور من الشمس فكذلك العقل يستمد النور من الروح، وكما أن القمر يزيد ضوؤه تارة وينتقص أخرى فكذلك العقل يزداد قوته تارة وينتقص أخرى، وأمّا النجوم الخمسة السيارة الباقية فنظيرها في البدن الحواس الخمس ونظير الجبال عظامك، ونظير البحار العروق الكبار في البدن ونظير الأودية والأنهار العروق الصغار المتشعبة من تلك العروق الكبار، وكما أنه يحصل في البحار حيتان مضربة فكذلك ترى في بحر فمك لسانك مضطرباً بذكر الحكمة وفي بحر مقلتك ترى حدقتك مضطربة مطالعة العزة، وكما أنك ترى في بعض أجزاء الأرض فيه نباتاً وفي بعضها ليس كذلك فكذلك ترى في بعض أجزاء بدنك شعوراً وفي بعضها ليس كذلك وبالجملة فاختصاص كل عضو بصفة خاصة وخلقة خاصة لا بد وأن يكون بقدرة العزيز العليم.

الخامس: أنه تعالى جمع أكثر المحاسن في الوجه: فجعل أربعة أشياء من أعضاء الوجه ملوناً بلون السواد، جعل موضع النور من الحدقة ملوناً بلون السواد وجعل الأهداب سوداً والحاجبين والشعور سوداً، وجعل أربعة منه أبيض جعل الملتحمة من الحدقة ملوناً بلون البياض وجعل الأسنان بيضاً وجعل الجبهة كالسطح المتخذ من الفضة النقية، وجعل الذقن كالكرة المتخذة من الفضة ثم جعل الخدين على لون حمرة الورد والشفتين على لون حمرة الياقوت، ثم جعل الوجه دائرة تامة على شكل القمر والجبهة نصف دائرة والحاجبين خطين مقوسين وامتداد الأنف كالخط المستقيم، فتأمل في رقعة الوجه وانظر إلى هذه الأنصاف المختلفة وتركيب الحدقة من السواد والبياض فهما لونان في غاية المضادة والمنافرة فجعل النور في وسط الحدقة ثم جعل السواد محيطاً بالنور ثم جعل بياض الأجفان مرة أخرى محيطة بتلك السواد ثم

اللطيفة الثانية: قالوا فرّغ خاطرك عن طلب الرزق وتيقن أنه تعالى إذا سدّ عليك طريقاً فتح لك طريقاً آخر أجود من الأول، انظر إلى الجنين أنه كان يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحد وهو السّرّة فلما خرج من بطن الأم وانقطع ذلك الطريق انفتح له طريقان آخران وهما الثديان فخرج منهما غذاء طاهر نظيف لطيف يخرج من بين فرث ودم ليتعلم أنه مهما انسد طريق واحد فتح الله تعالى له طريقين أحسن وأنفع من الأول، ثم إذا تم الحولان وتمت مدة الرضاع انقطع هذان الطريقان ولكن تنفتح طرق أربع طعامان وشرابان: أما الطعامان فالنبات والحيوان وأما الشرابان فالمياه والألبان، ثم إذا مات الإنسان انقطعت هذه الطرق الأربعة ولكنه تعالى بفضله ورحمته يفتح عليك الأبواب الثمانية من الجنة لتدخل الجنة من أيها شئت بفضله ورحمته.

الوجه الثاني: في بيان الحكمة أنه ﷻ خلقك في أحسن تقويم وذلك أنه سبحانه خلق المخلوقات في عالم الأجسام على أربعة أصناف: قوائم كالأشجار وراكع كالبهائم وساجد كالحيات والحيتان وجالس كالجبال، ثم إنه تعالى خلق الآدمي بحيث يكون تارة قائماً وتارة راكعاً وتارة ساجداً وتارة قاعداً ثم إنه يذكر الله تعالى على جميع هذه الأحوال كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ثم إنه انضم إلى هذا الذكر [التفكر][1] فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فما أعظم هذه الحالة وأجلّ هذه الدرجة، وقد تذكر الحكمة على وجه آخر فيقال: النبات رؤوسها في عمق الأرض وأرجلها صاعدة في السماء منكبشة كأنها وضعت قمة رأسها على الأرض، وأمّا الإنسان فإنه على العكس من ذلك فإن رجلاه على الأرض ورأسه في السماء، والحيوانات متوسطة في هاتين الحالتين لا منكوسة كالنبات ولا منتصبة كالإنسان والسبب فيه عند أهل الطبائع أن النبات جسماني محض فلا جرم كانت رؤوسها نحو الأرض والإنسان روحاني محض بالنسبة إلى سكان الأرض فلا جرم كانت رؤوسها تلي: عالم الروحانيات وهو عالم السمٰوات ومساكن الملائكة، وأما الحيوانات فهي متوسطة في هاتين الحالتين في الجسمانية والروحانية فلا جرم كانت متوسطة بين الانتصاب والنكس.

واعلم أن هذا الكلام يوهم أن السبب لهذه الأحوال إنما هو الطبع والخاصية

---

(1) (التفكر) زيادة يقتضيها السياق.

لأشرف أجزائه وهذا يدل على أن أشرف أجزاء بدن الإنسان إنما هو الوجه، والأمر في الحقيقة كذلك وذلك لأن العين المبصرة للاعتبار فيه والأذن السامعة للأسرار فيه واللسان الناطقة بذكر الملك الجبار (فيه)[1] فلهذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: سبحان من بصّر بشحم وأسمع بعظم وأنطق بلحم، ولا شك أن مصالح هذا العالم لا تتم إلا بهذه الحواس أما مصالح العالم الروحاني والعتبات القدسية لا تتم إلا بالفكر والذكر وهما لا تتمان إلا بالدماغ، واللوح والقلم هناك والأنوار والظلمة هناك فلهذا السبب كان رسول الله ﷺ لا يأكل الثوم لأنه كان مضراً بالدماغ وكان يحب الطيب لأنه يقوي الدماغ، وكل المناصب العالية والدرجات الشريفة كان مبيناً على مصالح الدماغ. ولنكتف بهذا القدر من آثار حكمة الله تعالى في خلق الدماغ والرأس والحواس، وأما ما يتعلق بالقلب فإنّا نُفرد له فصلاً.

النوع الثاني: **في شرح آثار حكمة الله في خلق الإنسان وفيه وجوه:**

[الوجه][2] الأول: أن تقول تفكّر في خلق الجنين في الرحم فإنه لا حيلة له في طلب الغذاء فصرف الله تعالى إليه من دم أمه ما يكفيه ثم لا يزال ذلك غذاء له إلى أن يستحكم بدنه ويقوى جلده على مباشرة الهواء وحينئذٍ يهيج الطلق بالأم وينفصل الولد عن الأم، فبعد ذلك يصرف الله ذلك الدم إلى ثدي الأم ويحصل ضرب[3] آخر من الغذاء أوفق له مما كان وهو اللبن الخالص، **ثم هاهنا لطيفتان:**

اللطيفة الأولى: أنه ﷻ لما غذاك حين كنت في بطن أمك بالدم فلا جرم ما أوصل إليك هذا الغذاء من طريق الفم بل من طريق السرة، والحكمة فيه أن الفم موضع الذكر والتسبيح والتهليل والدم نجس ولا يليق بالحكمة تلطيخ الفم الذي هو موضع الذكر والتسبيح والتهليل بالدم النجس، والإشارة فيه أن الذي لم يصر بعد محل الذكر بل ليس إلا مجرد صلاحيته أن يصير محل الذكر فالله تعالى نزّهه عن التلطيخ بالدم، فأن ننزه وقد صار هذا الفم محل التسبيح والتهليل منذ خمسين سنة كان أولى فلا يجوز أن يلطخه بأكل الميتة وهي الغيبة والنميمة وأكل الحرام.

---

(1) فيه زيادة من (ب).
(2) زيادة يقتضيها السياق.
(3) (ضرب) في الأصل (حزب).

لا تسري إلا من الكبد مع الدم في العروق.

وثانيها: القوة العصبية ومسكنها القلب وهي تجري في العروق المتحركة إلى جميع أطراف البدن.

وثالثها: القوة النفسانية المدبرة ومسكنها الدماغ، وهي تجري في الأعصاب إلى جميع أطراف البدن. وهؤلاء الرؤساء الثلاثة ليسوا أشياء متباينة مستقلة بأنفسها بل هي الفروع المتفرعة من أصل واحد وكالأغصان النابتة من شجرة واحدة وكالمنبع الذي تنشق منه ثلاثة أنهار وكالأب الذي يتولد منه أولاد ثلاثة وكرجل يعمل أعمالاً ثلاثة فتسمى بثلاثة أسماء الحداد والصانع والبناء مثلاً، فهؤلاء الثلاثة كملوك الأصراف الذين ولاّهم الملك الأعظم فالشهوة تشبه أفعالها أفعال النساء والصبيان والحمقى من الناس إذا لم يؤدبهم آباؤهم وأزواجهم، والغضب تشبه أفعاله أفعال العيارين والقتالين إذا لم يؤدبهم الملوك، والقوة المدبرة تشبه أفعالها أفعال الحكماء والفقهاء وأهل الخير والصلاح.

الوجه الرابع: كأنه ﷻ يقول: عبدي أردت أن أخرجك إلى الدنيا وأعرضك على والديك وعلى أهل الدنيا فلما أردت ذلك زينتك كما تزين الأم المشفقة ولدها حين تريد عرضه على الناس، فجعلت جبهتك كالسطح المتخذ من الفضة النقية لتكون محل السجود وأظهرت في رقعة وجهك أنواع النقوش العجيبة وأعطيتك الحاجب المقوس والعين الملوزة والخد المورد وجعلت وجهك كالقمر ثم جعلت العينين للاهتداء والأذنين للإصغاء والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد للإتمام والعروق لتكون كالأنهار والمنافذ لدفع الفضول واليدين للأعمال والرجلين للمشي، وإنما فعلت بك كل هذه الأعمال لتكون عند خروجك إلى الدنيا مبرءاً من النقصان فإذا برأتك عن النقصان عندما أخرجتك إلى الدنيا مع أنها سجن ودار محنة وموضع ممر لا مسكن مقر فاعرف كيف تكون عنايتي بك وبتحسين أحوالك إذا أخرجتك من القبر إلى محفل القيامة.

الوجه الخامس: أنه ﷻ خلق اليدين آلة للطلب والرجلين آلة للهرب، ثم إنه تعالى خلق اليد مركبة من أربع مفاصل محسوسة العضد والساعد والكف والأصابع فإن أراد الإنسان جعل هذه العظام الأربعة بمنزلة العظم الواحد قدر عليه فيمد اليد ويجعلها كالرمح وإن أراد أن يأخذ جسماً مستديراً تحت إبطه جعل اليد كالدائرة المحيطة لذلك

إلا أنه سبحانه وتعالى أبطل هذا الوهم وأزال هذا الخيال فيقال: أيها الإنسان ما دام رأسك منتصباً كنت في مقام التكبر وفي متابعة إبليس حيث قال تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإذا وضعت رأسك على الأرض فهناك تقرب من الحضرة الصمدية كما قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ لتعرف أن هذا ليس بالطبع بل بفضل الله وبرحمته.

الوجه الثالث: أن بدنك يشبه الدار الكاملة التي بنيت وأكملت بيوتها وخزانتها وفتحت أبوابها وأعد فيها كل ما يحتاج إليه صاحب المنزل، فالرأس كالغرفة في أعلى الدار والثقب التي في الرأس كالروزن في كل غرفة الدار، ووسط دماغه كالأبواب في الدار والفم كباب الدار والأنف كالطاق التي فوق باب الدار والشفتان كمصراعي الباب والأسنان كالبوابين واللسان كالحاجب والظهر كالجدار القوي الذي هو حصن الدار والوجه كصدر الدار والرئة التي هي الحاوية للنفس البارد كالنبت الصيفي، وجريان النفس فيها كالهواء الذي يجري في البيت الصيفي، والقلب مع حرارته الغريزية كالبيت الشتوي والكبد كالبيت للشراب، والعروق التي يجري فيها الدم كمسالك الدار والطحال بما فيه من السواد كالحواني التي بقي فيها الدرديات والمثانة بما فيها من البول كبيت الستر والسبيلان في أسفل البدن كالمواضع التي يخرج منها القاذورات من الدار والرجلان كالمركوب المطيع والعظام التي بناء الجسد عليها كالخشب التي عليها بناء الدار، واللحم في خلال العظم كالطين والعصب الذي يربط بعض العظام ببعض كالرسن الذي يربط بعض الأشياء ببعض، والتجويفات في جوف العظام كالصناديق في الدار والمخ فيها كالجواهر والأمتعة المخزونة في الصناديق، فسبحان من هيأ في بيوت هذه الدار، ثم إن الروح في هذه الدار كالملك المتصرف فيبصر بالعينين ويسمع بالأذنين ويشم بالمنخرين ويذوق باللسان وينطق باللسان، ويمس باليدين ويعمل الصنائع بالأصابع ويمشي بالرجلين ويبرك على الركبتين ويقعد على الإليتين وينام على الجنبين ويستند بالظهر ويحمل الأثقال على الكتفين ويتخيل بمقدم الدماغ ويتفكر بوسط الدماغ ويتذكر بمؤخر الدماغ ويصوّت بالحنجرة ويستنشق الهواء بالخيشوم ويمضغ بالأسنان ويبتلع بالمري، والمقصود من جميع هذه الأحوال أن يكون في حضرة الربوبية مشتغلاً بالعبودية كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] ثم إنه تعالى فوض تدبير هذه المملكة إلى ثلاثة من الرؤساء:

أولها: الشهوة ومسكنها في الكبد وجريانها مع الدم في العروق الساكتة ولهذا المعنى قال: «**إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم**» وذلك لأن القوة الشهوانية

أبلغ في النجش من المخالب كالخنجر وما هو أشد رضًا من الحافر (كالطوب)[1] والأحجار ،فإذا تأملت علمت أن اليد مع الرمح قرن ومع السيف ناب ومع الإبرة [جمة][2] ومع الخنجر مخلب ،وأما التحرز فإما أن يكون بالهرب أو بالتحصن، أما الهرب فإنه يذلل النفس بيديه فيعلوه حتى يصير سرعة ركض الفرس له فتدرك به إذا طلب ويعجز طالبه إذا هرب وأما التحصن فإن يعمل بيده ما هو أفضل مما حصلت للحيوانات من الجلود الغليظة والأظلاف والأصداف وذلك مثل الترس والدروع وأنواع السلاح ويتخذ بيديه القلاع والحصون أحسن مما لسائر الحيوانات وكل هذه الأعمال إنما يتأتى باليدين، ثم إنهما يخدمان جميع البدن خدمة عظيمة فتبعد أنواع الآفات والقاذورات من كل البدن ويجران جميع المنافع إليها ولو خاضت العقول أدواراً وأعصاراً في معرفة آثار حكمة الله تعالى في خلق اليدين لاعترفت بعد التوغل التام بالعجز والقصور. واعلم أن الاستقصاء في بيان آثار حكمة الله في خلق الإنسان مما لا يمكن شرحه في هذا الكتاب. ونِعمَ ما قال الشيخ أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء، فقال: والعجب كل العجب ممن يرى صورة إنسان على حائط فيستحسنه ويصرف جميع همته إلى النقاش [في أنه][3] كيف نقشه وكيف قدر عليه مع أنه يعلم أن ذلك النقش إنما تم وكمل بالصنع بالقلم والحائط واليدين والقدرة والعلم والإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا من خلقه بل كل ذلك من خلق الله تعالى وإنما غاية فعل هذا النقاش الجمع بين الصنع بالقلم وبين الحائط على ترتيب مخصوص فإذا كان هذا القدر من العمل سبباً للاعتراف لذلك النقاش بالعلم والحكمة فبأن نستدل بظهور تركيب الإنسان وتخليقه على جلالة علم الخالق ونهاية قدرته وحكمته كان أولى.

الوجه السادس: انظر مع كمال قدرته إلى تمام حكمته وذلك لأن الجنين حينما يكون في الرحم يكون بعض أعضائه مضموماً إلى البعض ويكون مجموعه كالكرة الموضوعة في كيس الرحم، وذلك لأنه قد يكون ضمَّ فخذيه إلى صدره ووضع راحتيه إلى ركبتيه ووضع رأسه على ركبتيه فتكون عيناه على ظهر كفيه ويكون أنفه بين الركبتين ويكون جالساً على رجليه ومعتمداً على عقيبيه كالشخص المتفكر المغموم المهموم المنتظر لورود الأمر عليه ويكون وجهه إلى ظهر أمه حماية للقلب، وهذه

---

(1) (كالطوب) في الأصل (كالثوب).

(2) (جمة) كذا في المخطوط.

(3) في المخطوط (فإنه).

الشيء لأجل أنه حصل في اليد هذه المفاصل، ثم إنه ﷻ جعل الأصابع خمساً وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربع في جانب والإبهام في جانب آخر وبهذا الترتيب صلحت اليد للأعمال الكثيرة فإن بسطها كان كالطبق يضع عليها ما يريد، وإن جمعها كانت آلة للضرب وإن ضمّها ضمّاً غير تام كانت مقرفة له، وإن ضمّ أحدهما إلى الآخر صار المجموع كالقدح الكبير، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعماداً لها من ورائها حتى تمكنه أن يلتقط بالأصابع الأشياء الدقيقة ولتمكنه أيضاً أن يحك بدنه عند الحاجة. ثم تأمل في هذا المقام فإن الظفر الذي هو أخس الأعضاء لو لم يحصل للإنسان لصار أعجز الخلق عند الحاجة إلى الحك فإن أحداً لا يقوم مقامه في حك كل بدنه، ثم من عجائب هذا الباب أنه إذا احتاج موضع معين من بدنه فإنه لا يخطىء فيه ألبتة ولو في وقت النوم والغفلة ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد نعت طويل.

ولنذكر منافع اليدين من وجه آخر فنقول: من المعلوم أن مصالح الإنسان تنقسم إلى قسمين: إلى روحانية وإلى جسمانية، أما المصالح الروحانية فلليد فيها أعظم أنواع المعونة وذلك لأن عقل الإنسان الواحد لا يستقل باستنباط جميع العلوم المحتاج إليها إذ لا بد من استعانة بعض العقول بالبعض وذلك لا يتم إلا بأن يكتب المتقدم ما حصله من العلوم، والكتابة لا تحصل إلاّ باليد وأما [المصالح][1] الجسمانية فهي جلب المنافع ودفع المضار، أما جلب النفع فلليد فيه أعظم أنواع المعونة وذلك لأن الإنسان يتخذ بيديه آلات يعيد بها ما في البر والبحر والهواء من الحيوان ويعمل السفن فيقطع بها البحار والمسافة البعيدة ويتخذ آلات يخرج منها أصوات لذيذة نافعة للبدن وللروح، ويبني بيديه المساكن الحسنة وتنسج الثياب الحسنة ويتخذ الأطعمة الطيبة اللذيذة. ومعلوم أن كل هذه الأعمال لا تتهيأ إلا باليدين وتارة تنسج الثياب المنقوشة بعجائب النفوس وفنون الألوان والأصباغ فيصير لونه أحسن من لون الطاووس وتارة يجعل لنفسه من الذوئب ما يشبه بذوات الأعراف، وتارة يتخذ لنفسه من أصناف الحلي ما يصير أحسن من ذوات الأطواق. وأما دفع الضرر فهو على قسمين: تارة بالجهاد وأخرى بالتحرز، أما الجهاد فإنما يكون بالسلاح فهو يمسك بيديه ما هو أعظم وأبلغ من القرون كالرمح وما هو أقطع من الأنياب كالسيف وما هو

(1) المصالح في الأصل مصالح.

كيف دبَّر له في حلب اللبن اللطيف، ثم خلق الثديين وجمع فيهما اللبن اللطيف وأنبت على رأس الثديين حلمتين على قدر ما تنطبق عليه فم الصبي، ثم جعل في تلك الحلمة ثقباً ضيقة جداً حتى لا يخرج منه اللبن إلا بعد المص، فإن الطفل لا يقدر على الابتلاع أن لو خرج من الثدي لبناً كثيراً في فمه بالمص، ثم انظر إلى عناية لطف الله تعالى كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع على الرفق ثم إنه سبحانه وتعالى أخَّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يغتذي إلا باللبن وهو مستغن عن السنّ وإذا صار كبيراً ولم يوافقه اللبن واحتاج إلى الطعام الغليظ فيحتاج إلى المضغ والطحن حينئذ فلا جرم ينبت له الأسنان عند حدوث الحاجة لا قبلها ولا بعدها، فتبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ورب الخلائق أجمعين.

الجلسة أيضاً أوفق للانقلاب ثم إذا صار الجنين كبيراً وضاق عليه الموضع فإنه ﷻ يلهمه إلى كيفية الخروج فينتكس ويعين على الانقلاب ثقل الأعالي في الجنين. ثم في ذلك الوقت ينفتح الرحم الانفتاح الذي لا يمكن أن يتخيل في مثله مثله، ولا بد من انفصال بعض المفاصل العظيمة وذلك مدد وعناية من الله تعالى في ذلك الوقت يعجز عن معرفة كيفيتها العقول البشرية ثم ها هنا أحوال عجيبة:

الأول: أن الجنين كان في البطن أيده الحق ﷻ بالإلهام حتى عرف أن مصلحته عند الخروج في أن ينقلب وينتكس، ثم بعد الانفصال من البطن والخروج إلى الدنيا لا يهتدي ألبتة إلى شيء من مصالحه، وذلك لأن عند كونه في البطن ليس هناك من يعينه على شيء من مصالحه ولما خرج إلى الدنيا فها هنا له من يعينه على رعاية مصالحه فلا جرم انقطعت تلك الهداية وهذا يدل على أن الإنسان كلما كان أشد عجزاً وقصوراً كانت عناية الله به أتم، ولا شك أن عجز الخلق في موقف القيامة أشد وأكمل فنرجو من الله تعالى أن تكون عنايته بهم في ذلك الوقت أتم.

الثاني: البيضة إذا انفصلت عن الدجاجة خرج الفرخ عنها وغذت والتقطت من الحب ما ينفعها واحترزت عما يؤذيها وفرقت بين أمها المشغفة بها وبين الهرة الطالبة لإيذائها، أما الإنسان فإنه حال انفصاله عن الأم لا يميز بين النافع والضار والصديق والعدو فكان في هذا الوقت أكثر جهالة من الفرخ عند خروجه عن قشر البيضة، ثم إن الأمر لو كان مستمراً على قانون الطبيعة والخاصية وجب أن يكون الفرخ لمّا كان أذكى وأكثر تمييزاً في مبدأ الأمر أن يكون الإنسان[1] في مبدأ الأمر أكثر تمييزاً من الفرخ أو أن يكون الفرخ أذكى وأكثر تمييزاً من الإنسان عند المنتهى والكمال، لكنه تعالى قلب هذه القضية فجعل من كان كثير التمييز في أول الأمر قليل التمييز عند الكمال والغاية، وجعل الإنسان الذي هو أقل الحيوانات تمييزاً في أول الأمر أكثر معرفة وهداية وعقلاً ليعرف أن كمال ذلك بحسب القدرة والحكمة والعناية لا بحسب الطبع والعلة والخاصية.

الثالث: أن الصبي بعد الخروج من بطن الأم لما احتاج إلى الغذاء فانظر كيف هداه الله تعالى إلى التقام الثدي، ولما كان بدنه نحيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة انظر

---

(1) أن يكون الإنسان في الأصل: أن يكون أكثر تميزاً من الإنسان.

وذلك لأن القوى العقلية قسمان: منها ما يكون في غاية الكمال والصفاء ويكون مخالفاً لسائر العقول بالكمية والكيفية، أما الكمية فلأن تركب تلك المقدمات البدهية والحسية والتجريبية لها أكثر وأما بالكيفية فلأن تركب تلك المقدمات على وجه مساق إلى النتائج الخفية ومثل هذه القوة العقلية يستغنى في معرفة حقائق الأشياء عن التعلم والاستعانة بالغير إلا أن مثل هذا يكون في غاية الندرة.

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يكون كذلك فهو يحتاج في اكتساب العلوم النظرية إلى التعلم والاستعانة بالغير والتمسك بالقانون الصناعي الذي يعصمه عن الخلل والزلل. إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ إشارة إلى القسم الأول وإنما ذكر القلب بلفظ التنكير ليدل ذلك على [الكمال][1] التام بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [أي على حياة][2] عظيمة طويلة المدة فكذا ها هنا قوله لمن كان قلب كامل في قوة الإدراك عظيم الدرجة في الاستعداد بمعرفة الحقائق وأما قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فهو إشارة إلى القسم الثاني الذي يفتقر إلى الكشف والاستعانة بالغير وهذا من الأسرار الذي عليها بناء أصل العلم المنطقي وقد لاح بتوفيق الله في هذه الآية. فلما كان القسم الأول نادراً جداً وكان الغالب هو القسم الثاني لا جرم أمر الكل في أكثر الآيات بالطلب والاكتساب فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: 46] فإن قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حثّ على الطلب والجهد في الكسب وقال صاحب المنطق أن القسم الأول وإن كان غنياً عن الاستعانة بالمنطق إلا أنه نادر جداً والغلبة للقسم الثاني وكلهم محتاجون إلى المنطق فانظر إلى هذه الأسرار العميقة كيف تجدها مدرجة في ألفاظ القرآن.

الحجة الثالثة: الآيات الدالة على أن استحقاق الجزاء ليس إلّا على ما في القلب من المساعي فقال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: 37] ثم بيّن تعالى في آية أخرى أن التقوى بالقلب فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ

(1) في المخطوط «كمال».
(2) [أي على حياة] زيادة من (ب).

الفصل السادس:[1]
في شرح أحوال الإنسان
من وقت ولادته إلى وقت موته من العجائب

ذهب أكثر العقلاء إلى أن أشرف أعضاء البدن هو القلب وهو الرئيس المطلق لسائر الأعضاء وهو المخاطب في الحقيقة وهو موضع التمييز والاختيار، أما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والخبر والمعقول.

الحجة الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فدلت هاتان الآيتان بصريحهما على أن التنزيل والوحي كان على القلب، فوجب أن يكون المخاطب والمكلف هو القلب.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ والآية دالة بصريحها على أن الذكرى والفهم إنما يحصل بالقلب وتأويل إلقاء السمع الجدّ في الاستماع حتى يصير سمعه كالنَّبي الذي ألقى إليه الكلام[2] بلا إضراب فيه. ومن الناس من قال أن [أو][3] في الآية بمعنى الواو وذلك لأن الذكر لا بد فيه من مجموع الأمرين ولا بد فيه من حضور القلب ولا بد فيه من إلقاء السمع، لأن القلب عبارة عن محل إدراك الحقائق. وإلقاء السمع عبارة عن الجد والاجتهاد في تحصيل تلك الإدراكات ومن المعلوم أنه لا بدّ من الأمرين معاً فكان أو ها هنا بمعنى الواو.

والجواب: أن ما ذكرتم محتمل ولكن يمكن أيضاً إجراء الآية على ظاهرها

(1) السادس. في الأصل الخامس وهو سهو من الناسخ.
(2) (كالنبي) في الأصل (كالشيء) (إليه الكلام) في الأصل (إلا الكلام).
(3) [أو] زيادة من (ب).

الحجة التاسعة: إن محل العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان المكلف هو القلب. إنما قلنا أن محل العقل هو القلب لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:46] وقوله: ﴿قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي عقل أطلق على العقل اسم القلب لأن القلب محل العقل. وأيضاً إنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفل هو القلب فوجب أيضاً أن يكون موضع العقل والفهم هو القلب.

وأما الخبر: فما روى النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[1]. وهذا تصريح بأن الفاعل هو القلب وباقي الأعضاء تبع له. وروي أن أسامة لما قتل الكافر الذي قال: لا إله إلا الله فقال ﷺ: «**لم قتلته**» فقال: لأنه قال هذه الكلمة عن الخوف فقال ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه**»[2]. وهذا يدل على أن محل المعرفة هو القلب وكان ﷺ يقول: «**يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك**»[3] وهذا يدل على المقصود.

وأما المعقول: فاعلم أن هذه المسألة مما عظم اختلاف الفلاسفة فيها فزعم أرسطوطاليس أن النفس واحدة ولها أفعال ثلاثة: الفكر والغضب والشهوة فهذه صفات ثلاثة لجوهر واحد وهو النفس، والمتعلق الأول للنفس هو القلب ومنها تتعدى القوى النفسانية إلى سائر الأعضاء، وزعم بقراط وأفلاطون وجالينوس أنها نفوس ثلاثة كل واحدة منها مستقل بنفسه وكل واحدة منها عضو على حدة فمعدن النفس المفكرة هو الدماغ ومعدن النفس الغضبية هو القلب ومعدن النفس الشهوانية هو الكبد.

---

(1) هو جزء من حديث النعمان بن بشير عند البخاري «52 و2051» ومسلم «1599» وغيرهما.

(2) رواه مسلم (96) وغيره من حديث أسامة بن زيد.

(3) رواه ابن ماجه «199» وابن حيان (2419 موارد) والحاكم (258) من حديث النواس بن سمعان وهو حديث صحيح.

لِلتَّقْوَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

الحجة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وستعرف أن العقل في القلب وأن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً، ومعلوم أن السمع والبصر لا فائدة فيهما إلا ما يؤديانه إلى القلب فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ ومعلوم أن خيانة الأعين لا تكون إلا بما يضمره القلب عند التحديق والنظر.

الحجة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فخصّ هذه الثلاثة بإلزام الحجة بسببها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا أنه لا طائل في السمع والإبصار إلا بما يؤديانه إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والحاكم عليه.

الحجة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر.

الحجة السابعة: قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ فجعل العذاب لازماً لهذه الثلاثة ونظيره قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ وجه الاستدلال بهذه الآية أن المقصود من هذه الآية بيان أنه لا علم لهم أصلاً، ولو ثبت العلم في غير القلب كثباته في القلب لم يتم الغرض.

الحجة الثامنة: أنه تعالى ذكر الإيمان في القرآن إضافة إلى القلب فقال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وقال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فثبت أن محل هذه المعارف لهم القلب فإذا كان كذلك كان محل الإرادات هو القلب لأن الإرادة مشروطة بالعلم، وإذا كان محل العلم والإرادة هو القلب كان الفاعل هو القلب.

الحجة الثانية: أنا [لو][1] فرضنا مبدأين يكون كل واحد منهما مستقلاً بفعله الخاص امتنع أن يكون اشتغال أحدهما بفعله الخاص به مانعاً للآخر من الاشتغال من فعله الخاص بذلك الآخر وإذا ثبت هذا فلو كانت القوة المفكرة مبدءًا مستقلاً بنفسها وكذا القوة الشهوانية والغضبيّة، وجب أن لا يكون اشتغال القوة بفعلها مانعاً للقوة الشهوانية من الاشتغال بفعلها ولا بالعكس[2] لكن هذا باطل فإن اشتغال الإنسان بالشهوانية والصبابة إليها يمنعه من الاشتغال من الغضب والانصباب إليه فعلمنا أن هذه الأمور الثالثة ليس مبادئ مستقلة بأنفسها بل هي صفات لجوهر واحد فلا جرم كان اشتغال ذلك الجوهر بأحد هذه الأفعال مانعاً عن الاشتغال بالفعل الآخر.

الحجة الثالثة: أنا إذا أدركنا شيئاً فقد يكون الإدراك سبباً لحصول الشهوة وقد يكون سبباً لحصول الغضب، فلو كان الجوهر المدرك مغايراً للجوهر الذي يغضب وللجوهر الذي يشتهي فحين ما أدرك صاحب الإدراك لم يكن لهذا الإدراك أثر ولا خبر عند صاحب الشهوة والغضب فوجب أن لا يترتب على ذلك الإدراك لا حصول الغضب ولا حصول الشهوة، وحيث حصل هذا الترتيب علمنا أن صاحب الإدراك بعينه هو صاحب الشهوة وهو صاحب الغضب هذا جملة ما يحتج به، واحتج[3] من قالوا بالنفوس الثلاثة بأن قالوا: إنّا رأينا النفس الشهواني حاصل في النبات بدون النفس الغضبية ورأينا النفس الغضبية حاصل في الحيوان بدون النفس الناطقة، ثم رأينا هذه الآثار الثلاثة حاصلة في الإنسان علمنا أن كل واحدة من هذه الثلاثة جوهر مستقل بنفسه متفرد بذاته. والجواب ثبت في أصل المعقولات أن الماهيات المختلفة يجوز اشتراكها في آثار متساوية وإذا ثبت هذا فنقول: من الجائز أن يكون النفس الإنسانية متساوية للنفس النباتية في أفعال التغذي والنمو، وإن كانتا مختلفتين في الماهية ومن الجائز أن يكون النفس الإنسانية متساوية للنفس البهيمية في فعل الغضب وإن كانتا مختلفتين في الماهية وعلى هذا يكون جوهر النفس الإنسانية واحدة بالذات إلا أنها مبدأ لأفعال ثلاثة.

أحدها: النطق ولا يشاركها فيه سائر النفوس.

---

(1) (لو) زيادة يقتضيها السياق.
(2) ولا بالعكس في المخطوط لا فالعكس.
(3) (واحتج) في الأصل (واحتجوا).

واعلم أن القرآن والأحاديث يطابقان[1] لقول أرسطاطاليس ونحن نورد في هذا المقام هذه المسألة على سبيل الاستقصاء، فنقول: إثبات صحة ما ذهب إليه أرسطاطاليس يتوقف على إثبات «أمرين»[2] أحدهما: بيان أن النفس واحدة، والثاني: بيان أن العضو الرئيس على الإطلاق واحد وهو القلب.

أما المقام الأول وهو بيان أن النفس واحدة فنحن ها هنا بين مقام إما أن ندعي البداهة وإما أن ندعي الاستدلال، أما دعوى البداهة فهو أن المراد من النفس ما إليه يشير كل أحد إلى ذاته الخاصة بقوله: أنا، وكل يعلم بالضرورة أنه إذا أشار إلى ذاته الخاصة بقوله: أنا فإن ذلك المشار أحد غير متعدد، فإن قيل لم لا يجوز أن لا يكون المشار إليه بقوله: أنا، وإن كان واحداً إلا أن ذلك الواحد يكون مركباً من ثلاثة أشياء وهي: القوة المفكرة والغضبيّة والشهوانية؟ والجواب هذا باطل لأن بداهة عقلي حاكمة بأني اشتهيت وتفكرت وبداهة عقلي حاكمة بأني إذا قلت أنا اشتهيت أنا أتفكر أنا أغضب، فموضوع هذه القضايا الثلاثة شيء واحد والتعدد إنما وقع في المحمول كما إني إذا قلت هذا الجسم حار أسود يابس فالموضوع واحد والتعدد في الحمولات وإذا كان هذا معلوماً بالضرورة علمنا أن الجوهر واحد في الذات متعدد بالصفات، **وأما طريق الاستدلال: فيدل على قولنا وجوه:**

الحجة الأولى: أن الغضب حالة نفسانية يحدث عند دفع المنافي، والشهوة حالة نفسانية تتولد عند طلب الملائم، ودفع المنافي وطلب الملائم مشروط بالشعور بكون الشيء ملائماً ومنافياً، فالقوة الغضبية التي هي قوة دافعة للمنافي إن لم يكن لها شعور بكونه منافياً امتنع كونها دافعة للمنافي على سبيل الاختيار والقصد لأن القصد إلى الدفع والحدث مشروط لا محالة بالشعور بالشيء، والشيء المحكوم عليه بكونه دافعاً للمنافي على سبيل الاختيار لا بد وأن يكون له شعور بكونه منافياً، فالإدراك والغضب صفتان من صفات شيء واحد وكذلك القول في الشهوة فثبت بهذا البرهان القاطع أن التفكر والغضب والشهوة صفات ثلاثة لذات واحدة [لا أنّها][3] صفات متباينة.

---

(1) يطابقان في (ب) مطابقان.

(2) «أمرين» زيادة يقتضيها السياق.

(3) [لا أنها] (في الأصل) لأنها.

الإرادية أولى من جعل الدماغ مبدءًا لهما.

الحجة الرابعة: كل أحد إذا قال «**أنا**» فإنه يشير بقوله أنا إلى صدره وناحية قلبه، وأيضاً إذا قال الرجل العاقل أنا أفعل كذا، وأنا أقول كذا يضع يده على صدره، وهذا يدل على أن كل أحد يعلم بالضرورة أن المشار إليه بقوله أنا موجود في القلب لا في الدماغ.

الحجة الخامسة: أظهر آثار النفس الناطقة النطق فوجب أن يكون معدن النفس الناطقة هو الموضع الذي منه ينبعث النطق لكن النطق والكلام إنما ينبعث من القلب لا من الدماغ و[كذا] الصوت لأن الصوت إنما يتولد من إخراج النفس وإدخال النفس وإخراجه فعل القلب وذلك لأن من إدخال النفس ترويح حرارة القلب والمقصود من إخراجه دفع الفضلة المحترقة وإذا كان إدخال النفس وإخراجه مقصوداً للقلب بالذات فكان إسناد هذا الفعل إلى القلب أولى من إسناده إلى الدماغ الذي لا حاجة به ألبتة إلى النفس، فثبت أن إخراج النفس فعل القلب، والصوت إنما يحدث من إخراج النفس فثبت أن فاعل الصوت هو القلب، **قال جالينوس: الصوت لا ينبعث من القلب بل من الدماغ ويدل عليه وجوه:**

الأول: أن الآلة الأولى للصوت هي الحنجرة بدليل أنك إذا خرقت قصبة الرئة أسفل من الحنجرة لم تسمع لذلك الحيوان بعد هذه الحالة صوتاً فثبت أنّ آلة الصوت هي الحنجرة والحنجرة مؤلفة من ثلاثة غضاريف والغضاريف يتحرك بعضلات كبيرة وقيل العضلات إنما يتحرك بالأعصاب والأعصاب نابتة من الدماغ فثبت أن فاعل الصوت هو الدماغ.

الثاني: أنا نرى عضل الدماغ يتمدد عند التصويت بالصوت العنيف وأما القلب فإنّه لا يناله التعب عند التصويت.

الثالث: أن القلب إذا كشف عنه ثم قبض عليه لم يبطل من الحيوان صوته وإن انكشف من الدماغ ثم ضغط بطل في الحال صوت ذلك الحيوان. فثبت أن مبدأ الصوت هو الدماغ لا القلب، الجواب أنا بيّنا بالحجة القوية أن مبدأ الصوت هو القلب أقصى ما في الباب إن الدماغ يعين عليه إلا أن هذا لا يقدح في قولنا.

وثانيها: الغضب ويشاركها فيه البهيمة فقط.

وثالثها: التغذي ويشاركها فيه النبات والبهيمة، فإن قالوا: فالنفس الواحدة كيف تكون مصدراً للأفعال المختلفة؟. قلنا: لِمَ لا يجوز ذلك لا سيّما عند حصول الآلات المختلفة، فهذا هو البيان الملخص في وحدة النفس وهو أقوى (ممّا)[1] كتب جالينوس فيه المجلدات.

فأما المقام الثاني في بيان أن العضو الرئيس على الإطلاق هو القلب فنقول أنا قد بينا فيما تقدم أن المني إذا وقع في الرحم صار كالكرة ويجمع الأجزاء النارية والهوائية ويصير مادة للأرواح، ويجمع الأجزاء المائية والأرضية ويحيط بتلك الأرواح ليكون صواناً لها ومانعاً لها من التحلل والتفني وذلك الموضع المتوسط الذي اجتمعت فيه تلك الأجزاء اللطيفة هو الموضع الذي إذا نمت خلقته كان قلباً، فبهذا الطريق عرفنا أن أول عضو يكون هوالقلب فإذا كانت النفس واحدة كان تعلقها الأول بالقلب وبواسطة القلب يسري أثره إلى سائر الأعضاء فثبت أن العضو الرئيس على الإطلاق هو القلب هذا هو الكلام المعول عليه في إثبات هذا المطلوب، **وهاهنا وجوه إقناعية ونحن نذكرها**:

الحجة الأولى: أن العقلاء يجدون الفهم والإدراك والعلم في ناحية القلب فعلمنا أن القلب محل العلم.

قال جالينوس: نسلم أن القلب محل الغضب فأما أنه محل العلم فممنوع وجوابه أن الغضب دفع المنافي، ودفع المنافي له شعور بكونه منافياً فوجب أن يكون القلب محل العلم والشعور.

الحجة الثانية: أن النفس هي الحساسة المتحركة بالإرادة فإذا تعلقت النفس بالقلب فلا بدّ وأن يكون تفيد الحس والحركة الإرادية فيكون القلب منبعاً للحس والحركة الإرادية.

الحجة الثالثة: أن الحس والحركة الإرادية إنما يحصلان بالحرارة، أما البرودة فعائقة عنهما والقلب منبع للحرارة والدماغ للبرودة فجعل القلب مبدءًا للحس والحركة

(1) (مما) زيادة من (ب).

الأول: أن هذه المقدمة الواحدة غير منتجة للمقصود بل لا بد من ضم مقدمة أخرى إليها وهي أن القوة والكثرة إنما تكونان عند المبدأ والضعف والقلة عند غير المبدأ إلا أن هذه المقدمة غير برهانية بل هي منقوضة من وجوه:

الأول: إن العصبة المحرّفة تكون دقيقة عند المنبت فإذا دخل الموضع الذي تتكون الحدقة فتغلظ تلك العصبة وتتسع وهذا نقض على هذه المقدمة.

الثاني: إن الحبّة التي منها يتولد ساق الشجرة تكون أصغر من ساق الشجرة فلم لا يجوز أن تكون العصبة الصغيرة التي في القلب تكون كالحبّة التي منها اتسعت الأعصاب الكثيرة في الدماغ.

الثالث: لو صح دليل جالينوس لوجب أن يقال أن سيد العروق والضوارب هي [بلنجة][1] الشبيهة بالشبكة التي في الدماغ لا القلب لأن في تلك العروق من العروق الضوارب عدداً لا يحصى وهو في غاية الشبهة بعروق الشجرة.

الرابع: من الجواب سلمنا أن الكثرة والقوة لا تحصلان إلا عند المبدأ لكنه لا نزاع أن القلب منبت الشرايين ثم إن أجرام الشرايين من جنس أجرام الأعصاب فيمكن أن لا تنبت الأعصاب منها، إنما قلنا أن العروق متساوية في هذه الصفات والأحوال، فعلمنا أن العروق والأعصاب من جنس الأعصاب وذلك لأن أجرام العروق تنفش وتنقسم إلى الشظايا الليفية لا حسّ لها وهي أبيض لديه عديمة الدم صلبة غير حساسة في نفسها لأنك إذا سددت العصبة برباط سداً قوياً صار مما هو أسفل من موضع السّد عديم الحس، وذلك يدل على أن العصب غير حساس في نصيبه وإنما يجري إليه الحس من موضع آخر فثبت أن العروق والأعصاب متشاركة في هذه الصفات والأحوال فعلمنا أن العروق والأعصاب من جوهر واحد، وإذا ثبت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يقال أن هذه العروق والضوارب لما تقسمت وتشعبت ودقت وصغرت ونفذت في الدماغ التفّت بعضها ببعض وانضمت أجزاؤهما واتصلت فصارت على شكل الأعصاب. وتحقيق القول فيه أن هذه الشرايين حين ما انفصلت عن القلب كان يحتاج إليها لتكون حاملة للدم والروح إلى جوهر الدماغ فلما صغرت ونفذت في جوهر الدماغ وحصل هذا المطلوب حصل الاستغناء عنها فلا جرم صرفت إلى غرض

(1) (بلنجة) كذا في المخطوط.

الحجة السادسة: أن القلب موضوع في موضع يقرب أن يكون وسطاً من البدن والعضو الرئيس يليق به ذلك حتى يكون ما ينبعث من القوى يصل إلى جميع أطراف البدن على القسمة العادلة والدماغ موضوع في أعلى البدن وذلك ينافي في هذا المقصود.

الحجة السابعة: أن الناس يصفون القلب بالذكاء فيقولون قلب ذكي وقلب بليد، قال جالينوس: الناس إذا وصفوا إنساناً بأنه له قلباً قوياً فمرادهم منه الشجاعة وإذا قالوا فلان لا قلب له فالمراد منه الجبن، والجواب أن هذا يدل على أن القلب موضع الغضب وهو لا ينافي في أن يكون القلب أيضاً موضع الفهم والعلم. **واحتج جالينوس على أن معدن الإدراك هو الدماغ [بوجوه]**[1]:

الحجة الأولى: هي أن الدماغ منبت العصب والعصب آلة الإدراك وما كان منبتاً لآلة الإدراك فوجب أن يكون معدناً لقوة الإدراك فهذه مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: وهو أن الدماغ منبت العصب فالدليل عليه أن الأعصاب الكبيرة إنما يوجد في الدماغ وأما القلب فلا يوجد فيه إلا عصبة صغيرة وإذا كان كذلك وجب أن يكون الدماغ منبتاً للأعصاب.

أما المقدمة الثانية: وهي أن الأعصاب آلات الحس والحركة، والدليل عليه أنك إذا كشفت عن عصبة وشددتها وجدت ما كان أسفل من موضع الشدّ فإنه يبطل عنه قوة الحس والحركة وهذا يدل على (أنه)[2] آلة الحس والحركة والغضب.

أما المقدمة الثالثة: وهي أنه لما كان الدماغ منبتاً للحس والحركة وجب أن يكون معدناً لهما فالدليل عليه أنه إذا كان قوة الحس والحركة إنما يحصلان من الدماغ إلى جميع أطراف البدن بواسطة هذه الأعصاب النابتة من الدماغ ثبت أن المعدن والمنبع لهذه القوة هو الدماغ.

واعلم أن أصحاب أرسطاطاليس أجابوا عن هذه الحجة من وجهين:

الأول: قالوا لا نسلم أن الدماغ منبت العصب أما دليل جالينوس على ذلك هو أن الأعصاب عند الدماغ كثيرة وليس في القلب إلا عصبة صغيرة فقد أجابوا عنه من وجهين:

---

(1) في المخطوط (وجوه).

(2) على أنه في المخطوط (على أن).

نفوذها في جوهر الدماغ لم قلتم أن هذه الصفات تبقى؟ والذي يدل عليه أن الروح الدماغي لا شك أنه كان متولداً في القلب ثم إنه تصاعد من القلب وبقي في النسيجة المتولدة تحت الدماغ مرة ثم إنه ينفذ في الدماغ فتحدث له حال كونه في الدماغ أحوال في صفات ما كانت حاصلة في القلب. فلم لا يجوز أن يكون الحال في الشرايين كذلك وهو أن الصفات المذكورة كانت حاصلة لها قبل هذه في جرم الدماغ وتقسمها وتصغرها في الغاية أثر فيهما جرم الدماغ وقلبها على طباعها، فصارت في الصورة والخلقة شيئاً آخر فهذا الاحتمال لا يبطل بما ذكره جالينوس.

وأمّا جوابه الثاني فهو أيضاً ضعيف لأن الروح القلبي كما صعد إلى الرأس في الشرايين الصغيرة [نزل] إلى أسفل البدن في الشرايين الصغيرة، ثم إن الجزء الصاعد إلى الرأس تغيّر عن حالته بسبب اختلاطه بجرم الدماغ والجزء النازل، فهذا تمام الكلام على حجة جالينوس على أن الدماغ منبت العصب.

واحتج أرسطاطاليس على أن منبت العصب هو القلب فقال: الحركة الإرادية لا بد وأن يكون بآلة صلبة قوية والدماغ ليس لجرمه شيء من الصلابة والقوة، وأما القلب ففيه أنواع من الصلابة منها: أن لحمه قوي وحركته، ولا بد وأن يكون أقوى جرماً وإذا كان كذلك كان جعل القلب منبتاً للأعصاب التي هي الآلات للحركات القوية أولى من جعل الدماغ منبتاً لها.

أجاب جالينوس عنه من وجهين:

الأول: بنى كلامه على المقدمة القياسية، والحس دلّ على أن المنبت هو الدماغ والقياس المعارض للحس لا تلتفت إليه.

والثاني: أن المتولي لتحريك الأعضاء ليس هو العصب فقط بل العضلات مركبة من الأعصاب والرباطات والأغشية واللحوم، وهي مستندة إلى الأعصاب والأعصاب يفيدها الحس والقوة على الحركة وأما ما يختلط بها من الرباطات والأغشية فيفيدها القوة والشدة والأمن من الانقطاع وعلى هذا التقدير لا يمنع كون الدماغ منبتاً للأعصاب.

آخر وهو أن أزيل عنه وصف التجويف وانضمت تلك الشظايا بعضها إلى بعض وصارت على أشكال الأعصاب فبهذا الطريق صارت العروق أعصاباً، ولما كان منبت العروق هو القلب لا جرم كان منبت الأعصاب أيضاً هو القلب. **بهذا الطريق أجاب جالينوس عن هذا الكلام من وجهين:**

الأول: قال الدليل على أن الأعصاب ليست من جنس العروق وجوه:

الأول: أن الشرايين ناقصة والأعصاب ليست بناقصة.

الثاني: أن الشرايين مجوفة والأعصاب ليست مجوفة إلا القليل.

الثالث: أن الشرايين محتوية على الدم بدليل أنها إذا نفثت حكمت ذلك القدر على صاحبه من انفجار الدم أمراً صعباً والعصب كله لا دم له.

الرابع: أن الشرايين مؤلفة من طبعين أحدهما تنحل إلى أجزاء ذاهبة في العرض على الاستدارة، والأخرى تنحل إلى أجزاء تذهب على الاستقامة في الطول، وأما العصبة فهي تنحل إلى ليف أبيض عديم الدم ذاهب على الاستقامة في الطول.

الخامس: إنك إذا سددت العصبة حصل عدم الحسّ والحركة الإرادية ولا يبطل منه حركة النبض، فإن سددت الشريان بطل النبض ولم تبطل الحس والحركة.

السادس: إن العصب (يتوقف عن)[1] فعله كثيراً والشريان فعله دائم فثبت بهذه الوجوه أن الشرايين ليست من جنس العصبات.

والوجه الثاني: من الجواب عن هذا الكلام، قال: إن أصل الشريان المتولد من القلب ينقسم إلى قسمين: قسم يصعد إلى جانب الرأس وقسم ينزل إلى أسفل البدن، والقسم النازل إلى السفل لا شك أنه ينقسم ويتفرق إلى العروق الدقاق ثم إنها بعد دقتها لم تصر أعصاباً فوجب أن يكون الحال كذلك في الشرايين الداخلة في الدماغ.

أجاب أصحاب أرسطاطاليس فقالوا: أما الجواب الأول فهو ضعيف لأن الصفات المذكورة للشرايين إنما تكون باقية قبل نفوذها في جوهر الدماغ أما بعد

---

(1) (يتوقف عن فعله) زيادة يقتضيها السياق.

الحس والحركة من جسم لطيف نافذ في الأعضاء هو الروح، وإذا كان كذلك فالدماغ لكونه مبدءًا لهذا الروح أولى من القلب وذلك لأنا نجد في الدماغ مواضع خالية. وأمّا القلب فليس كذلك فإن التجويف الأيمن منه مملوء دماً أما [شبهه] في التجويف الأيسر فإنه يعتقد فيه أنه مملوء من الروح. قال جالينوس: وليس الأمر كذلك لأن القلب إذا كشف عنه وأبرز من غير أن ينفث ويخرق أغشيته لم يمت الحيوان بسبب ذلك حتى إنه يمكنك أن تلبث مدة طويلة تلمسه بيدك وتنظر إليه بعينيك وهو مكشوف فتعرف كيف ينبض وتعلم أن نبضه عند ذلك كما لم يزل ينبض قبل أن تكشف عنه ولكن بشرط أن يقع هذا التشريح في موضع لا يكون هواه بارداً لئلا يبرد القلب فإنه لو برد القلب صار النبض حينئذٍ ضعيفاً بطيئاً متقارباً إذا عرفت هذا فنقول: إذا ثقبنا التجويف الأيسر في هذه سال في الحال دم ولو كان التجويف مملوءاً روحاً لوجب أن لا يسيل منه ألبتة دم ولو كان التجويف هذا في بعضه روح وفي بعضه دم لوجب أن يخرج الروح أولاً ثم يسيل الدم بعده، وكان يجب أن لا يسيل الدم في الحال على هذا التقدير فلما سال الدم في الحال علمنا أن التجويف الأيسر مملوء من الدم وأيضاً الحيوان الذي مات تجد في التجويف الأيسر من تجويفي قلبه علق الدم، وأما الدماغ فإن جرمه مزرد فلا يمتنع أن يحصل في تلك الغضون أجزاء الروح.

والجواب: هذه الحجة في غاية الضعف وذلك لأن هذا الكلام إن صحّ فهو يقتضي أن لا يكون في القلب روح أصلاً، وجالينوس لا ينازع في كون القلب معدناً للأرواح الحيوانية ويسلم أن الروح الحيواني يصعد من القلب إلى الدماغ ويصير هناك روحاً نفسانياً.

الحجة الثالثة لجالينوس: أن العقل أشرف القوى فيكون مكانه أشرف وأشرف الأمكنة أعلاها، فوجب أن يكون مكان العقل هو الدماغ وهو بمنزلة الملك العظيم الذي يسكن القصر العالي وأيضاً الحواس محيطة بالرأس كأنها خدم الدماغ واقفة حوله على مراتبها. وأيضاً محل الرأس من البدن محل السماء من العالم وكما أن السماء منزل الروحانيات فكذا الدماغ وجب أن يكون مسكناً للعقل.

والجواب: إنّ ما ذكرناه من البراهين لا تعارضه هذه الإقناعات فهذا آخر الكلام المنقح في هذه المسألة وكنت قد طالعت كتاب أداي بقراط وأفلاطون وهو كتاب نفيس والمقصود منه هذه المسألة فتعبت في انتخابه وضممت إليه أشياء كثيرة من

أجاب أصحاب أرسطاطاليس عن الأول بأن الحس والحركة لم لا [تدلان][1] على كثرة الأعصاب وقوتها عند الدماغ، وقد بينا أن هذا القدر لا يدل على كون الدماغ منبتاً للأعصاب، وأما الثاني فضعيف أيضاً لأن جالينوس استدل بغلظة العصب وكثرته على تولده منه وأرسطاطاليس عارض هذا فقال: إن كان هذا الوجه يدل على قولكم كون الدماغ لينا والعصب قوياً يمنع من تولده منه بل يكون العصب قوياً صلباً مع كون القلب قوياً صلباً يدل على كون العصب نابتاً من القلب فسقط كلام جالينوس بالكلية، والله أعلم.

النوع الثاني: من الجواب عن شبهة جالينوس:

سلمنا أن الدماغ منبت العصب الذي هو آلة الحس والحركة، لكن لم قلتم أنه يلزم من هذا كون الدماغ معدناً لقوة الحس والحركة بيانه أنه لا يبعد أن تكون قوة الحس من القلب إلا أن الدماغ معدن القوة يرسل إلى القلب آلة نابتة منه لتستفيد بتلك الآلة قوة الحس والحركة من القلب فإذا كان هذا الاحتمال قائماً سقط كلام جالينوس، والله أعلم.

الحجة الثانية لجالينوس: على أن معدن القوة المدركة هو القلب: وهذه الحجة أحسن دلائله أنه لو كان قوة الحس والحركة ينفذ من القلب إلى الدماغ لكنا إذا شددنا على العصبة بخيط شداً قوياً وجب أن يبقى الحس والحركة في الجانب الذي يلي القلب وأن يبطلا من الجانب الذي يلي الرأس، لكن الأمر بالضد فعلمنا أن قوة الحس والحركة يجري من الدماغ إلى القلب ولا يجري من القلب إلى الدماغ وهذه الحجة لا يحتاج فيها إلى المقدمات الكثيرة المذكورة في الحجة الأولى.

والجواب لم لا يجوز أن يقال الروح والقلب يكونان في غاية الحرارة فإذا كان بينه وبين الدماغ منفذ مفتوح وصل تبريد الدماغ إليه فاعتدل واستعدّ بقبول قوة الحس والحركة فأما إذا انسد المنفذ انقطع عنه تبريد الدماغ فلا جرم لم يبق مستعداً لقبول الحس والحركة، فتبطل هذه القوة من الجانب الذي يلي القلب وإنما لم يبطل من الجانب الذي يلي الرأس لأن الشرايين في الدماغ كثيرة جداً وكلها مؤدية إليه قوة

---

(1) تدلان: في المخطوط [تدلا].

إذا عرفت هذا فنقول: القلب له في القرآن اسمان: أحدهما القلب والثاني الفؤاد، قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وقال: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ وقال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾.

ثم نقول: أنه يحتمل أن يكون الفؤاد اسماً لجميع هذه المضغة والقلب يكون اسماً لجزء مميز محسوس منه يسلك فيه إلى كل هذه المضغة كنسبة العين إلى الهيكل الظاهر كنسبة النقطة الناظرة إلى العين وتلك النقطة هي المسماة بسويداء القلب، فهذه السويداء بالنسبة إلى العين الباطنة كسواد العين بالنسبة إلى العين الظاهرة والسبب في أن الأبصار الظاهرة يحصل بالسواد والبصيرة الباطنة يحصل بالسويداء وجهان:

الأول: أن الإبصار يجري مجرى النور والسواد من جنس الظلمة فالسواد والإبصار متضادان وإظهار أحد الضدين من الآخر دل على القدرة والحكمة.

الثاني: لأن يكون الانتهاء على وفق الابتداء أو كما أن في الابتداء أظهر نور الوجود من ظلمات العدم بإيجاد الحق ﷻ فكذلك في الانتهاء ظهر نور البصر والبصيرة من ظلمات سواد العين وسويداء القلب ليكون المبدأ والغاية آيتين بقرائن الأحوال وشواهد المقال على تحقيق قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ وعند هذا ظهر ترتيب عجيب، أما الظاهر فالعين ثم النقطة الناظرة ثم النور الباصر الموجود في النقطة الظاهرة. وأما الباطن فالفؤاد وهو اسم لتمام هذه المضغة ثم القلب ثم النقطة الناظرة وهو سويداء القلب ثم نور البصيرة. **إذا عرفت هذا فنقول**: أن الإبصار في عالم الظاهر يتوقف على شرائط وعلل هي نفسها معتبرة في إدارك البصيرة.

الشرط الأول للإبصار: أن لا يكون المبصر في غاية الخفاء أما الذي في غاية الجلاء فكالشمس فإن العين تتحير فيها فلا تقدر على إبصارها على التمام والكمال، وإما الذي في غاية الخفاء فكالذرة فكذا للعقل مدركات هي في غاية الجلالة والعظمة ومدركات هي في غاية الخفاء والصغر، وأما الأشياء التي هي في غاية الجلال والإشراق فهي جلال الله وكبرياؤه ومنه عظمة الأرواح العالية المقدسة فنور سويداء القلب يحترق في هذه الحضرة فلا تصل إليها وإليه الإشارة بقول من قال: سبحان من احتجب عن العقل لشدة ظهوره واختفى عنها بكمال نوره.

المعقولات ثم خفت من أن يضيع ذلك فكتبت في هذا المكان لئلا يضيع، وبالله التوفيق.

المسألة الثانية: في شرح أحوال القلب والذي يدل على شرف القلب وجوه:

الأول: أن المقصود من خلق الإنسان اشتغاله بمعرفة الله تعالى وخدمته وذلك لأنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ فبيَّن أن المقصود من الخلق هو العبادة، ثم قال في آية أخرى: المقصود من العبادة هو المعرفة إذ قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ وقال في آية أخرى المقصود من العبادة الإخلاص قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فظهر أن لب اللب ومقصود المقصود إنما هو معرفة الله تعالى، ثم إنك قد عرفت أن محل هذه المعرفة والإخلاص هو القلب فحينئذٍ ظهر أن المقصود من خلق العالم هو القلب.

الحجة الثانية: أنه ثبت أن أول ما خلق الله تعالى جوهرة ثم نظر إليها بعين الهيبة فصارت ماءً ثم سلط الحرارة عليها فارتفع منها زبد وعلاه دخان فخلق الأرض من الزبد والسمٰوات من الدخان، فنقول: أنه تعالى خلق تلك الجوهرة شيئاً واحداً وسله من العدم إلى الوجود فكل واحد من المخلوقات فهو سلالة المعدومات ثم سلّ من هذا المخلوق الأرض لأنه قال تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ وهذا هو السلالة الثانية، ثم سلّ من الأرض قبضة آدم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ وهذا هو السلالة الثالثة. ثم جعل القلب سريراً لمعرفته فظهرت تلك الحكمة المطلوبة في رابع السلالات ليعلم أنه الشيء المعظم من جميع المخلوقات، وعند هذا ظهر أن جسم الإنسان منقسم إلى قسمين: إلى الهيكل الظاهر وإلى المقنعة الباطنة وهي القلب الذي هو سرير معرفة الله تعالى، فالقلب تبع للهيكل في الصورة، والهيكل الظاهر تبع للقلب في المعنى ولما جعل الهيكل الظاهر تبعاً للمضغة الباطنة علم أنك ما خلقت لأجل هذا الظاهر بل لأجل أن يطلب من هذا الظاهر باطناً، ومن هذا الشاهد غائباً ومن هذا المحسوس معقولاً فظهر بما قلنا أن المقصود الأصلي هو القلب وحصنه هو كل البدن وحصن البدن هو كل الأرض وحصن الأرض هو كل السمٰوات وحصن السمٰوات هو عالم الممكنات والكل مسخر في قبضة قدرته ونفاذ إلٰهيته. والشيء يكون اسماً للشيء الذي نسبته إلى غير هذه المضغة.

والمرتبة الثانية: أنوار الأرواح العلوية الروحانية والكروبية كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وأكابر الأنبياء والصديقين هم الذين يطيقون مطالعة هذه الأنوار، قال تعالى في واقعة موسى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ وقال في واقعة الخليل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ وهذه المرتبة منزلة القمر، وكما أن القمر تارة يكون بدراً يضيء العالم إضاءة كاملة وتارة يكون هلالاً دقيقاً يظهر قليلاً قليلاً ثم يختفي فكذا الأرواح العلوية قد تكون عظيمة الإضاءة والإنارة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتارة يكون كالهلال الضعيف وهو قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾.

والمرتبة الثالثة: أنوار الأرواح السفلية وهم الصديقون الملازمون لغيبة جلال الله المعتكفون في حضائر قدس الله تعالى استنارت أرواحهم فأناروا أرواح غيرهم، وهذه المرتبة بمنزلة الكواكب فكما أن الكواكب قد تكون في العظم الأول درّية متلألئة كما قال تعالى: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وقد تكون ضعيفة جداً كالسها وأمثاله فكذا الأرواح السفلية منها ما يكون قوية ومراتبها أربعة:

أولها: الذين يكونون في العُظم الأول وهو روح الكليم والخليل والحبيب فإن أرواح الخلق يهتدى بأنوار هذه الأرواح السفلية لأنها أرواح قدسية قريبة الدرجة من الأرواح العلوية ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ وكما أن الفائدة في الكواكب هي قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فكذا دعوة الأنبياء عليهم السلام أعلام يهتدى بها في ظلمات بر السمٰوات وبحر الصغريات والشبهات قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وثانيها: الذين يكونون في العظم الثاني وهي أرواح أولي العزم كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وثالثها: أرواح المرسلين وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وهؤلاء هم الذين يكون في العظم الثالث من الكواكب.

ورابعها: أرواح جملة الأنبياء وهم كما يقال ألف وأربعة وعشرون ألفاً. وهؤلاء هم الذين يكون في مرتبة العظم الرابع من الكواكب، ثم بعد هذا مراتب المؤمنين وهي ثلاث: السابقون والمقتصدون والظالمون كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ

وأما الذي في غاية الخفاء فكتفاصيل الأحوال وقوله: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن النطفة من حين ما تقع في الرحم إلى أن ينفصل الجنين لها في كل لمحة حالة وفي كل لحظة صفة إلا أن التفاوت بين كل لحظتين مما لا يصل إليه عقول البشر.

وأما جريان المحدثات فهو أنه تعالى لما ذكر من الحيوانات الأنعام قال: ﴿وَالْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ثم قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والمعنى: أنه لا يمكنكم أن تحيطوا علماً بتفاصيل أحوال جميع الحيوانات لكثرتها واختلاف أحوالها بالجملة، فالعقول قاصرة عن معرفة الأوائل والأواخر ونظيره أن العقول متحيرة في مبدأ الخلق والإيجاد وفي منتهى الإعدام وإلا فتأمل العقول لا سبيل لها إلى معرفة الأزل والأبد، فإن كلّ ما سيحضره في ذهنه يكون متوسطاً بين الأزل والأبد ولو أنه بقي إلى قيام الساعة يتقدم إلى ما قبل ويتأخر إلى ما بعد لم ير نفسه إلا في المتوسط بين الأزل والأبد منزهة عن لواحق الأنظار في غلائق الأفكار، وتمام الكلام سيأتي في باب الصفات في تفسير العدم والبقاء وشرح كونه أولاً وآخراً إن شاء الله.

الشرط الثاني: أن المبصر إذا كان حاضراً بحيث لم يحرك الإنسان حدقته من جانب إلى جانب تحريكات كثيرة فإنه لا يرى المبصر، فكذا الفؤاد ما لم يحرك عينه من معقول إلى معقول لا يتمكن من إبصار المطلوب وتلك التحريكات هي المسماة بالفكر والروية والنظر وكما أن نظر العين عبارة عن تقليب الحدقة من جهة إلى جهة طلباً لرؤية المرئي فكذا نظر القلب عبارة عن تقليب حدقة القلب من جانب إلى جانب طلباً لإدراك المعقول.

الشرط الثالث: إن القوة الباصرة لا يمكنها إدراك المبصرات إلا عند صيرورة الهواء مضيئاً بسبب طلوع الأشياء النيرة وكذا العقل لا يقدر على الإبصار إلا عند طلوع الأشياء النيرة، ثم نيّرات العالم الجسماني أربعة: الشمس والقمر والكواكب والنار، وأعظمها الشمس ثم القمر ثم الكوكب ثم النار، فكذلك نيرات العالم الروحاني أربعة:

أولها: نور جلال الله كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهي بمنزلة الشمس وكما لا تستطيع أبصار الخفافيش مطالعة قرص الشمس فكذلك لا تستطيع الأرواح البشرية مطالعة نور الجلال وهذه المرتبة منزلة الشمس.

فإذا كان حاله في ميدان الأرواح لا يظهر نوره فاعرف كيف يكون حاله في صحراء جلال الأنوار الصمدية وفضاء كمال الأسرار الإلٰهية تقدست عن أن يكون لها بداية ونهاية أو مقطع وغاية.

والخامس: ظهور نور السراج مشروط بأن يكون بينه وبين قرص الشمس حائل أما لو وضع في مقابلة قرص الشمس انطفأ، فكذا العقل إنما يضيء فيما وراء حجاب الغيب وعالم أنوار الصمدية فأما إذا أزيل الحجاب وتجلت الأنوار انطفأ نور العقل، ولهذا قال لموسى عليه السلام: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ فقوله: اخلع نعليك إشارة إلى تلاشي قوة العقل واضمحلالها وقوله: إنك بالوادي المقدس طوى إشارة إلى تجلي لمعان أنوار العظمة والكبرياء.

السادس: نور السراج وإن طال بقاؤه ولكنه بالآخر ينطفئ وإن استمر، لكنه إذا تطلع الشمس فتبطل ضوؤه لا محالة فكذا نور سراج العقل إما أن ينطفئ لطريان الغفلات والشهوات أو أن يبقى إلى آخر الأمر لكنه إذا انقضى ليل الحياة الدنيوية فتجلى نهار عالم الآخرة وانكشفت السرائر وتجلت الضمائر لم يبق لسراج العقل نور ولا قوة ألبتة فهذا هو سراج نيرات عالم الروحانيات.

الشرط الرابع: كما أن انتفاع البصر بنيرات عالم الجسميات يتوقف على أمور فكذلك انتفاع البصيرة بنيرات عالم الروحانيات يتوقف على مثل تلك الأمور.

ولا بدّ أن إبصار الأشياء ورؤيتها تختلف بالكمال والنقصان فتارة يرى الإنسان شيئاً رؤية تامة وتارة يراه رؤية ناقصة وسبب هذا التفاوت إما أن يكون عائداً إلى ذات القوة الباصرة أو إلى أمور خارجة عنها، فكذا إدراكات البصيرة قد يختلف بالكمال والنقصان وذلك التفاوت قد يكون بسبب عائد إلى ذات البصيرة وقد يكون بسبب أمور خارجة عنها، أما العائد إلى ذات البصيرة فهو على وجهين:

الأول: اختلاف جواهر الأرواح قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا يدل على أنّ أنوار هذه السبعة من معشر البشر وجنس الأنس مخصوص بمزيد القوة والجلال والرفعة فتارة تظهر آثار تلك القوة بالنبوة وتارة بالخلافة، قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وقال في صفة محمد ﷺ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ ثم يرقى من تعليم الملَك إلى تعليم الملِك

ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فالسابقون هم الأولياء كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمقتصدون هم العلماء قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ والظالمون هم العوام ولكل واحد من هذه الأرواح أثر ونور اتصلت كالمرايا المتحاذية وتنعكس أنوار بعضها إلى البعض فيصير كل واحد منهما مكملة للآخر من وجه ومستكملة به من وجه ولهذا السبب كان أحد مقامات الصديقين الحب في الله.

المرتبة الرابعة: من نيّرات العالم الروحاني العقل ومرتبته مرتبة النار في عالم الجسميات فاعلم أن نور العقل له عيوب كثيرة كما أن نور النار له عيوب كثيرة.

فالأول: أن نور النار ممزوج بدخان كثيرة يسوّد الثوب ويجفف الدماغ وكذا نور الدماغ ممزوج بدخان الشبهات وذلك الدخان تارة يسوّد ثوب العبودية تلطخه التشبيه والتعطيل وأخرى يجفف الدماغ البشرية فيلقى صاحبه في وهم الحلول والاتحاد.

والثاني: أن نور السراج فيه إشراق وفيه إحراق وكذا نور العقل فيه إشراق وفيه إحراق أمّا إشراقه فهو التفكر في الخلق وأما إحراقه فهو التفكر في جلال الله تعالى فلهذا السبب قال ﷺ: «**تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق**».

الثالث: إن نور السراج ينطفئ بأدنى ريح وكذا نور سراج التعقل ينطفئ بأدنى شبهة فلهذا السبب قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ وقال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ وقال يوسف الصديق: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقال الكليم: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ وقال عيسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وتلك المائدة مائدة الهداية والمعرفة.

الرابع: إن السراج إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت صغير، فأما إذا وضع في صحراء واسعة فإنه يقلّ ضوءه، وكذا سراج العقل إنما يظهر نوره إذا وضع في بيت البدن كما قال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فإن هذا البيت صغير مختصر ألا ترى أن سراج العقل لما وضع في ميدان الأرواح انطفأ ولم يظهر له لمعان وشروق كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

اطلاع على شيء من الروحانيات فذلك إنما يكون بغير استحكام الألف بالدنيا فمع هذه الأسباب القوية كيف ينفك قلب الإنسان من محبة الدنيا إلى أنه ﷺ قال: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**»[1] فانظر إلى الدنيا كم انتفعنا بطعامها وشرابها وأنهارها وأسحارها ولذاتها وطيباتها وإذا كان كذلك فلا محالة نكون مجبولين على حبها، فإذا عرفت هذا فنقول: كل من أحب شيئاً نظر إليه بكل عينيه ومن نظر إلى شيء بكلّ عينيه لم ير غيره، وأيضاً إذا كنت محباً لشيء عميت عن دونه معايبه وصرت مشتغلاً برؤية محاسنه وفضائله وأيضاً إذا استحكمت تلك المحبة امتلأ القلب منها والطرف إذا امتلأ من شيء لم يتسع لغيره فهذه قلوب لا يدخل فيها محبة الله تعالى وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ وقال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأنه كانت قلوبهم مملوءة من حب الدنيا فما كانوا ينتفعون بما يرون ويسمعون ويتكلمون ثم إن هذه الحالة كلما كان دوامها أكثر كان استحكامها أشد وهو مرض القلب كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ والمرض ما لم يكن مستحكماً فإنه يرجى علاجه فإذا استحكم وصار بحيث لا يقبل العلاج قرب من الموت وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وبقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وعند هذا يظهر أن الكل منه وأن الخير بيده والشر بتقديره وقضائه وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: إذا استحكم مرض الجسم بحيث لا يرجى علاجه سقط الخطاب وإذا استحكم مرض القلب فلم لا يسقط الخطاب؟

الجواب: عدم سقوط الخطاب في هذه الحالة إنما كان حتى يعلم الإنسان قبل انتهائه إلى هذه الحالة أنه لو لم يشتغل بالعلاج قبل الانتهاء إلى هذه الحالة فإنه سيفضي إلى هذه الحالة، وعند انتهائه إلى هذه الحالة لا يمكنه العلاج عنه ولا يسقط عنه الخطاب أيضاً فلا جرم لأجل الخوف من هذه الحالة يشتغل بالتوبة وبالعلاج قبل الانتهاء إلى هذه الحالة، ثم إن هذه المرتبة لما لم يكن ممدودة كان هذا الخوف

---

(1) موضوع رواه أبو موسى المديني في جزء من إدراكه الحلال من أصحاب ابن فندة (150 ـ 151) وابن الأعرابي في المعجم (2/ 21 ـ 22) وابن عدي في الكامل (2/ 701) وأبو الشيخ في الأمثال (160) وأبو نعيم في الحلية (4/ 121) والخطيب في تاريخ بغداد (7/ 346 ـ 347) وابن الجوزي في العلل (2/ 29) والقضاعي في مدن الشهاب (600) والآفة من إسماعيل الخياط وهو من حديث عبد الله بن مسعود.

فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ثم انتقل من خطاب الغيبة إلى خطاب الحضور: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ وقال تعالى في حق جميع الأنبياء عليهم السلام على العموم: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ وقال ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة**»[1] وقال ﷺ: «**الأئمة من قريش**»[2] وهو إشارة إلى اختصاص هذه الشيعة بمزيد قوة نفسانية روحانية فلما لم تظهر أثر تلك القوة بالنبوة بعد محمد ﷺ فلا بدّ من ظهور أثرها بقوة الخلافة والرئاسة وكل ذلك يدل على اختلاف الأرواح في ماهيتها فمنها ما يكون في غاية الجلالة والقوة ومنها ما يكون في غاية الضعف وهذا الاستعداد الذاتي لا سبيل إلى تبديله ألبتة.

الثاني: اختلاف جواهر الأرواح بسبب الصفات العرضية التي تقبل العلاج ومثاله في عالم الجسمانيات أنه قد يكون بصرٌ أضعف من بصر لا لأجل الخلقة الأصلية بل بسبب (مرض) قد عرض له فأورث ضعفه أو بسبب أنه استعمل كحلاً قوياً فأفاده ذلك الكحل في تلك الساعة زيادة قوة، فكذا الأرواح ربما تعرض لها عارض فيحصل فيه نوع من الكلال بسبب المعارض وإليه الإشارة. بقوله ﷺ: «**وإنه ليغان على قلبي**». وهذا النوع من التفاوت قد يطرأ وقد يزول، وأما التفاوت الحاصل بسبب الأمور الخارجية فهو أنواع:

السبب الأول: الاشتغال بغير الله ومثاله في عالم المحسوسات إن من شغل حدقته بالنظر إلى شيء كان نظره إليه مانعاً له من إبصار غيره ثم كلما كان التحديق إلى الأول أشد وأكمل كان الحرمان عن إبصار الثاني أشد وأكمل، فكذا عالم الروحانيات على هذا القياس كلما كان اشتغال القلب بغير الله أشد وأكمل كان حرمانه عن الاطلاع على أنوار جلال الله أشد وأكمل ولهذا المعنى حكم تعالى بوقوع المنافاة بين الأمرين فقال: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقال ﷺ: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**» ثم إذا اتفقنا علمنا أنا كالمعذورين في حب الدنيا وكيف لا نحبها ونحن ما خلقنا إلا منها وإنما ارتضعنا من طعامها وإنما تربينا على ظهرها وإنما ألفنا وشاهدنا أحوالها ولو اتفق لبعض الخلق على سبيل القدرة

(1) رواه البخاري (3336) من حديث عائشة ومسلم (2638) من حديث أبي هريرة.

(2) رواه أحمد (3/ 129 و183) وأبو داود الطيالسي (596).

السبب الثالث: الأمكنة والأزمنة، أما الأمكنة فقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ وقال: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾. والأزمنة قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ وهذا يدل على أنها إذا كانت أيام رحمة كانت متصفة بالسعود أي يسعد فيها كل من يقدم فيها على عمل من الأعمال، وفي كلام أهل التصوف: الوقت سيف قاطع ولأرباب القلوب في هذه الكلمة كلمات، والذي يميل إليه قلبي أنه تعالى عين كل وقت لحادث فصار ذلك الوقت مربوطاً بذلك الحادث ترابط المشيئة الأزلية الذي لا يمكن دفعه وإبطاله، فإذا جاء ذلك الوقت جاء معه ذلك الحادث فكما أن السيف قاطع فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه غالب وإذا كان الوقت الذي فيه يفتح الله رحمته متأخراً فلا تنفع الجد والجهد في الزمان المتقدم. . . وسمعت بعض المشايخ قال: بعث الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير رحمة الله عليه واحداً إلى النهر ليجيئه بماء يتوضأ به وكان ينتظر في الرجوع، فقال الشيخ: ذلك الماء الذي يمكننا أن نتوضأ به بعدُ ما خرج من النهر.

السبب الرابع: وهو أقوى الأسباب العلوية والهداية الإلٰهية ولا يتم جميع الأسباب إلا بهذا المعنى قال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فهذه الأحوال إشارة إلى مبدأ هذه الدرجة وأما وسطها فقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ونهايتها قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ وأيضاً الإشارة إلى أوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ والإشارة إلى وسطه: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾ والإشارة إلى آخره: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا﴾ ثم إذا وصل القلب إلى هذه الدرجة يكون في عالم القلوب كالشمس في عالم الأفلاك فعند هذا يبقى مسخراً في أنوار عالم الجلال كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ثم صارت هذه الروح ينبوعاً لفيض الأنوار على أسرار الأرواح. وبعد هذا درجة أصحاب اليمين كما قال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ وبعد هذا درجات لا يصل إليها الخيال ولا يعبّر عنها المقال ومن أرادها فليكن من الواصلين إلى العين لا من السامعين إلى الأثر.

الشرط الخامس للإبصار: اعلم أن الجنين حين ما يكون في رحم الأم في أول ما يخلق الله عينيه تكون الجفنان ملتصقتين ثم بعد زمان يفصل الله برفع أحد الجفنين

حاصلاً عند الإقدام على كل ما كان ذنباً وكانت التوبة حاصلة عند جميع الذنوب.

السؤال الثاني: إنكم ذكرتم أنا مجبولون على حب الدنيا وذكرتم أن حب الدنيا يورث الإعراض عن الآخرة ثم إنا مع ذلك أمرنا ببغض الدنيا وبحبّ الآخرة فكيف يجتمع هذا مع قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ والجواب ـ والله وأعلم ـ أنه يظهر منه أن العبد لا قدرة له على الوفاء بهذه الطاعة إلا بفضل المولى وكرمه وإعانته. بأن يجذبه من التوغل في حب الدنيا إلى حب المولى فلهذا السبب أمره الله تعالى أن يقول كل يوم مرات: إيّاك نعبد وإياك نستعين، وجاء في الأخبار المتواترة فضل عظيم في قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

السؤال الثالث: أليس أن الدنيا أم حاضنة فما السبب في أن أوجب الله تعالى بغضها؟!. الجواب: أن حبها مانع عن حب الله تعالى وهذا لأنه فرض بغض الأبوين الكافرين وعصيانهما عند دعوتهما الولد إلى الشرك، فقال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ﴾.

السؤال الرابع: ما علامة رجحان حب المولى على حب الدنيا؟. الجواب: ترجيح المحبة على المحبة إنما يظهر بأحد أمرين:

أحدهما: قدر الحزن عند الفوات والثاني قدر السرور عند الوجدان.. واعلم أنه ما لم يترجح حب الآخرة على حب الدنيا فلا إيمان، وإذا حصل الرجحان فلا يطيب الإيمان إلا عند زوال المعارض من جميع الوجوه وعلامة ذلك أن لا تخطر الدنيا بباله إلا عند الحاجة إليها كأنها شربة ماء قذرة استنجى بها.

السبب الثاني: لحصول التفاوت في هذه الأنوار الروحانية طيب الغذاء وخبثه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ والسبب فيه أن الغذاء يصير جزءاً للبدن وللقلب ولا شك أن الشيء الذي يصير جزءاً للشيء يختلف حال ذلك الشيء بسبب اختلاف حال هذا الذي يصير جزءاً له، فالبيت إن طيّنته بالطين الكدر جاء كدراً وإن طيّنته بالجص الأبيض جاء صافياً نورانياً، وإذا اختلف حال البدن باختلاف أحوال الأغذية لا جرم يختلف أحوال تلك الأنوار بسبب اختلاف حال البدن ألا ترى أن الماء الصافي يكون لونه لون الظرف والقارورة فثبت أن طيب الغذاء وخبثه سبب لاختلاف أحوال الأنوار الروحانية.

الباب الرابع:
في الاستدلال بأحوال الحيوانات على قدرة الصانع الحكيم ﷻ

وفيه فصول:

الفصل الأول:
في الاستدلال الكلي بأحوال الحيوانات

وقبل الخوض في المقصود لا بد من إشارة إلى تقسيم الحيوانات فنقول: الحيوانات التي تطير في الهواء قسمان أحدهما: الطيور، والثاني: الحشرات، والفرق بين القسمين أن كل حيوان صغير الجثة ليس له عظم ولا ريش فهو من الحشرات وما كان له عظم وريش فهو من الطيور، إذا عرفت هذا فنقول أقسام الحيوانات الخمسة: قسمان منها من حيوانات الهواء، والقسم الثالث حيوانات الماء، والقسم الرابع حيوانات وجه الأرض كالبهائم والسباع، والقسم الخامس حيوانات تحت الأرض وهي الحشرات كالحيات والخنافس والديدان وأشباهها. فاعلم أن حيوانات الماء أعظم الحيوانات وهي أيضاً أصغرها والمراد منه أنه يوجد في حيوانات الماء ما يكون أصغر من جميع الحيوانات، وأمّا حيوانات وجه الأرض فهي دون حيوانات الماء في العظم وبعد حيوانات جوّ الأرض وآخر المراتب في الصغر الحيوانات المتولدة في داخل الأرض فهذا هو ضبط الأقسام، ثم نقول اعلم أن الله تعالى استدل بخلقة الحيوانات على وجود الصانع الحكيم تارة مجملاً وتارة مفصلاً، أما المفصل فسيأتي شرحه في الفصول الآتية إن شاء الله تعالى.

وأما المجمل فقال في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ

عن الآخر، إلّا أن الجفنين تكونان منطبقتين فإذا انفصل عن بطن الأم يفتح العينين في بعض الأوقات إلا أنه في أكثر الأوقات يغمضها ويكون نائماً وعند فتح العينين يكون جاهلاً بأمه والأم مع ذلك تراعي مصالحه لعلمها بأنه ما حان أوان قدرته على التمييز بين المحسن والمسيىء، ثم لا يزال الطفل ينظر إليها إلى أن يميز بين الأم وغيرها ثم إذا واظب على النظر ألف النظر والإبصار حتى يصير بحيث لا يمكنه أن لا ينظر إلى شيء. إذا عرفت هذه المراتب في العين الظاهرة عرفت مثلها في العين الباطنة ففي أول الأمر يكون عين القلب منطبقاً ثم ينفتح ولكنه لا يقدر على أن يميز بين الخير والشر ثم لا يزال ينظر بعين عقله إلى أن يصير بحيث يدرك الفرق بين المحسن والمسيىء فيعرف أن المحسن هو الحق وأن ما سواه فهو سبب الضرر، ثم إذا واظب على هذا النظر صار بحيث لا يمكنه أن يصبر عن نظر العقل، وكما أن الأم تعذر الطفل في أول عمره عن التمييز بينها وبين غيرها، فكذا الحق هاهنا يُعذر الإنسان في أول عمره أن لا يعرف ربه وذلك سن ما قبل البلوغ، ثم إذا واظب على النظر في أفعال الله وآثار حكمته في مخلوقاته حصل له عشق ومحبة مع هذا النظر فلا يرى شيئاً بعقله إلا وتنتقل منه إلى مبدئه وغايته، أما المبدأ فهو قدرة الحق وأما الغاية فهي حكمة الحق فيصير بحيث لا يرى شيئاً إلا ويرى الله بعده وحينئذٍ يستنير السر كما يستنير القمر بمقابلة الشمس، والقلب في هذا المقام قد استلذّ بالنظر وألفه فلا جرم [أن] يقلب الفؤاد والقلب حدقه من منظور إلى منظور وقد كان للقلب قبل ذلك عين واحدة وأما الآن فقد صارت كل ذرة من ذرات المبدعات والكائنات عيناً للقلب وذلك لأن العالم كله يصير مرآة للقلب والمرآة للعين بمنزلة بصر زائد فإنه يرى بها ما لا يراه بدونها فعند ذلك يصير كل ذرة من ذرات الممكنات عيناً له، والعين ينبوع النور فيصير كل العالم ينبوع النور في حقه، وإذا اتصلت أنوار العالم صار كله نوراً قال تعالى في هؤلاء: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ وفي الحديث: **«إنّ أهل الجنة يرون أهل العليّين كما يرون الكوكب الدري في السماء وإنّ أبا بكر وعمر منهم»**[1] وبالله التوفيق.

---

(1) رواه البخاري (3256) ومسلم (2831) من حديث ابن سعيد.

والمصوت ما هو طيب الصوت كالعندليب ومنه ما هو قبيح الصوت كالحمار قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

ورابعها: قد يكون صغير الجثة عظيم العين كالبوم وقد يكون كبير الجثة صغير العين كالعقاب، وقد يكون عينه سريع التغير من الضوء كالخفاش وقد لا يكون كذلك كالخطّاف.

وخامسها: منها ما يمشي على بطنه ومنها ما له رجل أما الرجلان فكالطير والآدمي وأما الأربع كالبهائم والسباع وأما أرجل كثيرة ستة أو ثمانية، وكل طائر ذو جناح فإنه يمشي برجليه، ومن جملة ذلك ما يكون المشي عليه صعباً كالخطاف الكبير الأسود والخفاش وأما الذي يكون جناحه جلداً قد يكون عديم الرجل كضرب من الحيّات بالجثة تطير (كذا).

وسادسها: ثدي الفيل والإنسان تكون عند الصدر وثدي البقر والغنم عند السرة.

وسابعها: إذن الفيل صالح للذبّ مع كونه آلة للسمع، وأنفه آلة للقبض مع كونه آلة للشم فهذه اختلاف أحوال الحيوانات في الخلقة الظاهرة.

النوع الثاني: اختلاف أحوالها في المسكن والمأوى:

فمنها مائية ومنها أرضية ومنها ما يكون مائياً وأرضياً معاً، أما الحيوانات المائية فمنها ما يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائياً وله بدل النفس النسيمي تنشيق مائي ينقل الماء إلى باطنه ثم يرده ولا يعيش إذا فارقه والسمك كله كذلك، ومنها ما يكون مكانه وغذاؤه مائياً ولا يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف ولا يظهر ألبتة للهواء ولا يستدخل الماء إلى باطنها وأيضاً الحيوانات المائية بعضها ما للأنهار الجارية وبعضها مائية البطائح مثل الضفادع وبعضها مائية البحار، وأيضاً الحيوان المتنقل في الماء منه ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على أجنحته كالسمك ومنها ما يعتمد في السباحة على أرجله كالضفدع ومنها ما يمشي في قعر الماء كالسرطان ومنها ما يزحف مثل ضرب من السمك لا جناح له أو كالدود. وأما الحيوانات البرية فمنها ما يتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم، ومنه ما لا يتنفس على هذا الوجه بل من مسامه مثل الزنبور والنحل، وأيضاً الحيوانات الأرضية منها ما له مأوىً معلوم ومنها ما مأواه كيف

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ثم ذكر عقيبه ما يدل على وجود الصانع الحكيم ثمانية أنواع من الدلائل فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهما دليلان، ثم قال: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو الدليل الثالث، ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ وهو الدليل الرابع، ثم قال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو الدليل الخامس، ثم قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وهو الدليل السادس ثم قال:

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ وهو الدليل السابع، ثم قال: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو الدليل الثامن.

ثم لما ذكر هذه الدلائل الثمانية مدح المتفكرين والمتأملين فقال: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والمقصود أنه ﷻ احتج بخلقه الحيوانات المختلفة على وجود الصانع الحكيم وهو قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ولما كان الأمر كذلك وجب علينا أن نبحث عن وجود دلالة هذا الدليل.

فنقول: **الاختلاف في أبدان الحيوانات وفي صفاتها ظاهر ونحن نشير إلى بعضها ثم نستدل بها على وجود الصانع الحكيم.**

فاعلم أن الاختلاف في الحيوانات حاصل من وجوه لا يحيط بها علم البشر، إلا أننا نشير إلى بعض تلك الوجوه:

فالأول: الاختلاف الحاصل في صورها وأشكالها:

فأحدها: الاختلاف الحاصل في الجلدة الظاهرة وذلك لأن بعضها كالسلحفاة يحيط به صدف وبعضها كالسمك على جلده فلوس وبعضها على جلده شوك كالقنفذُ وبعضها على ظاهرها ريش وجناح كالطير وبعضها على ظاهره شعور ووبر وصوف كالبهائم والأنعام والسباع وبعضها يكون عارياً عن كل ذلك كالإنسان.

وثانيها: الاختلاف في الألوان والأشكال فمنها ما يكون ملوناً بلون واحد وهو الإنسان ومنها ما يكون ملوناً بلونين كالفرس الأبلق ومنها ما يكون ملوناً بألوان كثيرة عجيبة حسنة كالطاووس.

وثالثها: الاختلاف في الأصوات فمنه ما يكون مصوتاً ومنه ما لا صوت له

يكون على رؤوس الأشجار في الجبال فإنها إذا شبعت من الرعي أيام الربيع وسمنت أخذت تنسج على نفسها من لعابها شبه النعش والكفن ثم تنام فيها أياماً معلومة وإذا انتهت طرحت بيضاً في داخل الكفن الذي نسجت على نفسها ثم ينفثها ويخرج منها وسدّت ذلك الثقب ثم يخرج لها أجنحة فتطير فيأكلها الطير أو ماتت من الحر والبرد والريح والمطر وبقي ذلك البيض في ذلك الأكفان محرزة أيام الصيف والخريف والشتاء إلى أن يحول الحول ويجيء أيام الربيع فتنشأ من ذلك البيض ديدان صغار تخرج من تلك الثقب وتدبّ على ورق الأشجار أياماً معلومة، فإذا شبعت وقويت أخذت تنسج على نفسها من لعابها كما في العام الأول وهذا دأبها وعادتها بتقدير الحكيم العليم، فسبحان من هدى كل واحد من هذه الحيوانات إلى هذه الأعمال.

واعلم أن الاستدلال بأحوال هذه الحيوانات من وجهين:

الأول: أنه سبحانه خلق هذه الحيوانات مختلفة الصورة متقنة الأشكال وبعضها كبيرة كثيرة الآلات فلما أعطى الفيل الجثة العظيمة القوية الشديدة حتى يدفع عن نفسه المكاره بأنيابها الطوال الصلاب ويتناول بخرطومه الطويل أنواع المنافع، وكذلك أعطى البقة على صغر جثتها جناحين لطيفين حتى قدرت بهما على سرعة الطيران وتناول الغذاء بخرطومه فصار الصغير والكبير في هذه المراتب متساوية في جذب المنافع والاحتراز عن المضار متشاكلة. بل ها هنا لطيفة عجيبة وهي أنك ترى ما كان منها أصغر جثة وأقل حيلة كان أكثر راحة وأطيب عيشاً وأقل اضطراباً في جر المنافع ودفع المضار مما هو أعظم جثة وأقوى قوة، بيانه منها أن ما كان قوي القوة كامل البنية يدفع عن نفسه المكاره بالقهر والغلبة كالأسد والفيل ومنها ما يدفع عن نفسه المكاره بالفرار وسرعة العدو كالأرانب والغزلان، ومنها ما يدفع المكاره بالطيران في الجو كالطيور ومنها بالغوص في الماء ومنها بالاختفاء في الثقب والجحرة كالفأر والنمل كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وأما طلبها للمنافع فتارة بقوة البصر وتارة بشدة الطيران كالنسر والعقاب وتارة بقوة الشم كالنمل والجعل وتارة بقوة السمع كالنسر. وأما هذه الحيوانات الصغار الجثة الضعاف البنية التي ليس لها شيء من الآلات والأدوات ولا شيء من الإدراكات والإحساسات كالديدان الصغار وأشباهها فإنها خلقت في أماكن كثيفة ومواضع حريزة.

اتفق إلا أن تلد فتقيم للحضانة. واللواتي لها مأوىً معلوم فبعضها مأواه شق وبعضها مأواه حفرة وبعضها مأواه قلة رابية وبعضها مأواه وجه الأرض وأيضاً الطير مختلف فبعضها يتعاشق معاً كالكركي وبعضها يختار التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التي تنازع على المأكول ينفرد لأجل احتياجها إلى الاحتيال في الصيد ومنافستها، ومنها ما يتعاشق ردحاً وتكونان معاً كالقطا ومنها ما يجتمع تارة وينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية وتكون مستأنسة والإنسان من بين الحيوانات هو الذي لا يمكنه أن يعيش وحده فإن أسباب حياته لا يتم إلا بالمشاركة المدنية، والنحل والنمل وبعض الغرابين شارك الإنسان في ذلك لكن النحل والكراكي يطيع رئيساً واحداً والنمل له اجتماع لكن لا رئيس له، وأما الحيوان الذي يكون تارة مائياً وأخرى يكون أرضياً فيقال أنه حيوان يكون في البحر ويعيش فيها ثم إنه يبرد في البر ويعود إلى البحر ويبقى فيه.

النوع الثالث: اختلاف أحوالها بحسب الأخلاق:

اعلم أن الحيوان منه ما هو إنسي بالطبع كالإنسان ومنه ما هو إنسي بالمولد كالهرة والفرس ومنه ما هو إنسي بالقهر كالفهد ومنه ما لا يأنس كالنمر، والذي يستأنس بالقهر منه ما يحصل استئناسه سريعاً ثم يبقى مستأنساً كالفيل ومنه ما يكون ذلك بطيئاً كالأسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف إنسي وصنف وحشي، وأيضاً بعضها يكون ساكن الطبع قليل الغضب كالبقر وبعضها ردية الحركات كالحية وبعضها شجاعاً كريم النفس كبير الطبع كالأسد «وبعضها» قوي وحشي محتال كالذئب ومنها مكّار رديء الحركات كالثعلب ومنها غضوب شديد الغضب سفيه إلا أنه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الذكاء كالفيل والقرد والفرس وبعضها حسود تباهى بجماله كالطاوس وبعضها شديد الحيط كالجمل والحمار. وأيضاً أحوالها في التناسل مختلفة وبعضها تلد أشباه دود كالنحل والعنكبوت والجراد ثم إن تلك الدود تستكمل أعضاؤها بعد ذلك ويقال أنه إذا ظهرت السخونة وقت الربيع طلب الجراد أرضاً طيبة التربة رخوة الجسم وطرحت في الأرض بيضها ثم طارت بعد ذلك وعاشت أياماً وماتت وأكلها الطيور، وإذا دار الحول وجاء الربيع مرة أخرى وطاب الهواء خرجت من تلك البيضة المدفونة في تلك الأرض أمثال الديدان الصغار ودبت على وجه الأرض وأكلت العشب والكلأ وأخرجت لها أجنحة وطارت وأكلت من ورق الشجرة وسمنت ثم باضت كما في العالم الأول، وهذه عادتها بتقدير العزيز العليم. وأما دود القز التي

والمحدث لا يوجد إلا عند الانتهاء إلى قدرة الله الواجب وجوده الأزلي ثم إن حدوث هذه الحيوانات دال على قدرة الصانع ووقوع حدوثها على جهة الإحكام والإتقان دال على عظم الصانع وحكمته فكان حدوث هذه الحيوانات من أدل الدلائل على كونه ﷻ ملكاً بالحق مالكاً بالصدق فلهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ دال على أن المعاد حق وإن البعث والنشر والحشر حق حتى يظهر في ذلك اليوم نتائج أفعال هذا اليوم.

الثانية: أنه تعالى لما شرح أحوال بعض هذه الحيوانات على سبيل التفصيل وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ ثم ذكر بعد هذا التفصيل هذا الكلام المجمل وهو قوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كان ذكر هذا بعد ذلك التفصيل تنبيهاً على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى الوقوف على تمام تلك التفاصيل.

ثالثها: قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك لأنه تعالى ذكر انقسام الحيوانات إلى هذه الأقسام وهذا كلام تفصيلي. ثم إنه تعالى أردفه الكلام المجمل وهو قوله يخلق الله ما يشاء والمقصود التنبيه أنه لا سبيل للبشر إلى معرفة تمام هذه التفاصيل وقد ذكرنا في الفصول المقدمات أنه في شرح أحوال الأفلاك جرى على هذا المنهاج فقال في آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يطلبون معرفة الحكمة في كل واحد منها، ثم عدل إلى التعظيم الإجمالي وهو قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ وقال في الأعراف: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ ثم عدل منه إلى التعظيم المجمل فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والمقصود من كل هذه الآيات التنبيه على أنه ليس للعقول البشرية اطلاع على تمام الحكمة الإلٰهية في تدبير العالم العلوي والسفلي بل الواجب تفويض أسرارها إلى علمه المحيط بالغيوب المقدس عن النقصانات والعيوب كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وها هنا سؤالان الأول: قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾. **فظاهر هذه الآية يوجب مذهب التناسخ من وجوه:**

الأول: قوله تعالى ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يقتضي حصول المماثلة بينهما في الروح والعقل والإدراك والتكليف.

وأما في أجواف الحيوانات في جميع أجزاء أبدانها قوى حادثة يمتص الرطوبات المغذية لأبدانها ولم يحوجها إلى الطلب ولا إلى الهرب فسبحان الخالق العظيم الذي أعطى كل شيء مصلحته؟! وروي أن الليلة التي أوحى فيها إلى موسى عليه السلام كان قلب موسى متعلقاً بأحوال زوجته فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك على تلك الحجرة فضرب فخرج منها حجر آخر ثم ضرب العصا عليه فخرج منه حجر آخر فضرب العصا عليه فخرج منه دودة في غاية الصغر وفي فمها مقدار ذرة من ورق الشجر فرفع الله الحجاب عن موسى فكان يقول: (سبحان من يراني ويسمع كلامي ويذكرني ولا ينساني في بعد مكاني).

الوجه الثاني: في الاستدلال بهذه الحيوانات أن نقول هذه الحيوانات كثيرة جداً ويقال: أن حيوانات البحر ستمائةً نوع وحيوانات البرّ خمسمائة نوع، واحد منها هو البشر وإذا كان كذلك فكيف يمكن الاطلاع على أحوالها وعجائب صفاتها إلا أن وجه الاستدلال بها على الصانع الحكيم ظاهر وذلك لأنه لو كان السبب لوجودها هو تركيب الطبائع وتأثير الأفلاك والكواكب فذلك بالنسبة إلى الكل على السوية بل صريح العقل يشهد بأن اختصاص كل واحد منها بماله من الأعضاء والقوى والصفات والأشكال لا بدّ وأن يكون لتدبيرها مدبر قادر حكيم يخلق الأشياء بقدرته وتدبرها بحكمته.

واعلم أنه تعالى قد نبّه في القرآن على عجز البشر عن معرفة أحوال الحيوانات في آيات إحداها: أنه تعالى لما شرح أحوال الحيوانات في سورة النحل في قوله: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ﴾ قال بعد ذلك ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ والمعنى أنا شرحنا لكم أحوال بعض الحيوانات فأما شرح أحوال الكل فذاك مما لا يليق بعقولكم بل يجب تفويض معرفتها إلى خالقها. فهذا ختم الكلام في شرح أحوال الحيوانات بقوله: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وثانيها قال في سورة النور: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٤١﴾ ثم قال بعده: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤٢﴾ وفيه فائدتان:

الأولى: أنه مع حادثيته دال على تمام معرفة المبدأ والمعاد فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تنبيه على أن الكل منه لأن كل ما سواه ممكن ومحدث

والذئب والأسد.

الجواب: والله أعلم المعتمد عندنا في الجواب أنه تعالى مالك الملك وللمالك أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد إلا أنا نذكر ها هنا وجوهاً أخرى:

فالأول: أنه تعالى رغّب المكلّفين في الطاعات بأن وعد عليها بالثواب ووبّخهم عن المعاصي بأن توعّدهم عليها بالعقاب فلا بد وأن يشاهد في الحال شيئاً يشبه الثواب وشيئاً يشبه العقاب حتى يتكامل رغبتهم في طلب الثواب وتقويهم على الهرب عن العقاب فلا جرم أظهر في الدنيا أنواع اللذات وأنواع المحن والآفات ليكون ذلك كالمعد لأحوال الثواب والعقاب. وقد نبه الله تعالى على ذلك في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي جعلنا النار سبباً للمنافع في الدنيا وجعلناها أيضًا مذكرة للعذاب في الآخرة.

والثاني: أنه تعالى خلق الذئب حتى يفترس الغنم ثم إن الإنسان يبالغ في صون غنمه عن الذئب فإذا بالغ في هذا الحفظ مع أن هذه المضرة قليلة فلأن يبالغ في صون طاعاته عن الشبهات والشهوات مع أن نتائج تلك المضرة عظيمة فكان ذلك أولى.

الثالث: إذا احترز الإنسان عن سمّ الحية والأفعى فلأن يحترز عن سم الكفر والبدعة والفواحش والذنوب مع شدة الآلام الحاصلة منها وطول مدتها كان ذلك أولى، والله اعلم.

الثاني: أنه ثبت بهذه الآية أن كل نوع من أنواع الحيوانات أمة وإذا ثبت هذا وجب أن يحصل في كل واحد منها رسول ونذير: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ والإنذار لا يتحقق إلا في حق العقلاء المكلفين وهذا يقتضي كون هذه الحيوانات عارفة بربها مكلفة بالطاعات.

الثالث: ما روي عن أبي الدرداء أنه قال: أبهمت عقول البهائم عن كل شيء إلا عن أربعة أشياء: معرفة الرب والسعي في طلب الرزق ومعرفة الذكر والأنثى واهتمام كل واحد منها بأمر صاحبه.

والجواب: أن لفظ المثل لا يقتضي حصول المثلية في كل الأمور فإذا حملنا الآية على ثبوت المثلية ولو في شيء واحد فقد وفينا بمقتضى اللفظ. **ثم اختلف المفسرون في معنى المثلية على وجوه:**

الأول: أنها أمثالكم في كونها أمماً وجماعات، وكأن المراد من هذا أنواعاً مختلفة وأقساماً متباينة في الخلق والخُلق والطبيعة والشكل.

الثاني: المراد أنها أمثالنا في كونها مخلوقة لله تعالى وفي أنه سبحانه يكفل بأرزاقها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

الثالث: أنها أمثالنا في أن مقادير أعمالها معلومة لله تعالى مع أنها خالية عن التكليف وخوف العقاب، فاحذروا أيها البشر المكلفون!! فإنكم بإحصاء الله أعمالكم أولى.

الرابع: أنها أمثالنا في أنها محشورة يوم القيامة والله يقضي لهم بالحق كما يقضي للإنسان. دليله ما روي في الحديث أنه يقتص للجماء من القرناء.

الخامس: لا يبعد حمل الآية على جميع ما ذكرنا من الوجوه لأنه لا مخصص، ولأن على هذا التقدير تكون الفائدة أكثر، وأما التمسك بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فالجواب أنه مخصوص بالأمة الموصوفة بالعقل بالدلائل العقلية وبإجماع الأمة، والله أعلم.

السؤال الثاني: ما الحكمة في خلق الحيوانات المؤذية كالحيات والعقارب

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية من دلائل المعرفة والتوحيد أمرين:

الأول: كون الطير مسخرة، **والثاني**: أنه ما يمسكهن إلا الله. والمراد من كونها مسخرة أنها في أنفسها أجرام ثقيلة والجرم الثقيل يكون هاوياً بالطبع، إلا أن قدرة الله تعالى غالبة على جميع الطبائع والخواص فهو بقدرته يرفع الثقيل إلى فوق وينزل الخفيف إلى تحت من غير أن يشق عليه ذلك الفعل ومن غير أن يتعب بسببه، والسمٰوات السبع مع ما فيها من البحار والجبال والحيوان والنبات هو تعالى يمسكها بقدرته ويسكنها بحكمته كما قال: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ فإذا قدر على إمساك هذه الأجسام العظيمة من غير تعب ولا مشقة فكيف لا يقدر على إمساك أجرام الطيور بقدرته في الهواء أليس أنه تعالى قلع الجبل في وقت موسى عليه السلام وأوقفه في الهواء كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ فها هنا قدرته على إمساك الطير في الهواء أولى. إذا عرفت هذا فنقول: كون هذه الأجرام منقادة لقدرته ولهيبته من غير منازعة ولا مدافعة هو المراد بكونها مسخرة في جو الهواء من كونها واقفة بإمساكه ويسكنه فهذا هو الكلام في هذه الآية.

وأما الآية المذكورة في سورة النور: وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فظاهر لفظ قوله: ألم تر خطاب مع الرسول ﷺ فلا جرم اشتملت هذه الآية على فوائد زائدة على ما في الآية الأولى:

أولها: قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وفي هذا التسبيح ثلاثة أقوال وذلك لأن التسبيح المذكور ها هنا إما أن يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح، وإما أن يكون المراد حصول هذه الدلالة في حق البعض وحصول هذا النطق في حق الباقين. والقسم الأول أقرب وأما القسم الثاني ففيه إشكال لأن بعض من في الأرض ليسوا مكلفين وهم الأطفال والمجانين وهؤلاء باللسان وأما المكلفون ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ففيهم من لا يسبح بهذا التفسير وهم الكفار، وأما تفسير التسبيح بكون هذه الأشياء دلالة على السبوحية والعظمة فهذا عام في حق الممكنات وهو المراد أيضاً من قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ فإن قيل: التسبيح بهذا المعنى حاصل في كل المحدثات والممكنات فما وجه تخصيصه في هذه الآية بالعقلاء؟ قلنا: لأن خلقه العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه لأن العجائب والغرائب في خلقتهم أكثر وهي العقل والنطق والفهم مع حصول الشهوة وحصول الغضب وحصول الشيطانية.

الفصل الثاني:
في الاستدلال بأحوال الطيور

على وجود الصانع الحكيم، اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بوقوف الطير في الهواء على وجود الصانع المختار في مواضع من القرآن العظيم. **أحدها**: قال في النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ **ثانيها**: قال في النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. **وثالثها**: قال في الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾.

أما الآية الأولى فنقول: قرأ عامر وحمزة والكسائي ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره. حجة من قرأها على المخاطبة أن ما قبل هذه الآية مخاطبة وما بعدها مخاطبة فوجب أن تكون هذه الآية أيضاً مخاطبة أما أن قبلها مخاطبة وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وأما ما بعدها مخاطبة فهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ﴾ وإذا ثبت أن ما قبل هذه الآية وما بعدها على سبيل المخاطبة حتى يكون النسق واحداً في الكل. حجة القراءة الثانية أن الغرض من ذكر هذه الآية الإرشاد إلى الدليل، والإرشاد إلى الدليل إنما يحتاج إليه الجاهل لا العالم، فوجب أن يحمل هذا على لفظ المغايبة صرفاً إلى الكفار والمتكبرين. قلنا: نحن لا ننكر احتمال ما ذكرتم إلا أن ما قلناه أيضاً محتمل لأن الدليل كما يذكر للمنكر حتى يصير مقراً فكذلك قد يذكر للمقر حتى يزداد إيمان على إيمان وغفران على غفران وهذه السورة مشتملة على الدلائل الكثيرة ولا شك أن المقصود منها هو التأكيد بسبب تكثير الدلائل.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ معناه ألم يعلموا.

ويبين ما ذكرنا وجوه:

الأول: أن الفأرة تدخل ذنبها في قارورة الدهن ثم تلحسه وهذا الفعل لا يصدر عنها إلا لعلمها بقياس مركب من مقدمات وهي أنها محتاجة إلى الدهن إن كان رأسها ضيقاً لا تقدر على إدخال رأسها فيها ويحصل مقصوده بهذا الطريق وهذا يدل على عقلها.

الثاني: أن النحل تبني البيوت المسدسة وهي لم تفعل ذلك إلا لعلمها بأنها محتاجة بأن يبنى بيوتها من أشكال مرصوفة، وهذا يدل على عقلها بصفتين إحداهما: أن لا يكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً، والثاني: أن تكون تلك البيوت مشكلة بشكل متى انضم بعضها إلى بعض امتلأت العرضة منها ولا يبقى شيء منها ضايعاً، ثم إنّها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط وذلك لأن المثلثات والمربعات وإن كان يمكن أن يمتلي الفرجة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال فإن زواياها وإن كانت واسعة إلا أنها لا يمتلئ الفرجة منها بل يبقى فيما بينها فرج خالية ضائعة وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فإقدام النحل على تسديس بيوتها منبئ عن علمها بأنه لا بد وأن تكون موصوفة بهاتين الصفتين وعلى علمها بأن المسدس موصوف بهاتين الصفتين فلا جرم علمت أن البيت الموافق له هو المسدس. ثم إنه تعالى أعطاه من الذكاء ما أقدره به على بناء تلك البيوت مسدسة من غير مسطرة ولا آلة ولا شك أن البشر لا يقدرون على بناء البيت المسدس إلا عند الاستعانة بآلات كثيرة فظهر أن علم النحل بهذه الحقائق وقدرته على بناء هذا البيت أزيد من عقل البشر وعن قدرته.

الثالث: أن النمل يسعى في تحصيل الذخيرة وإن ذلك لعلمها بأنها تحتاج في الأزمنة المستقبلة إلى الغذاء ولا يكون قادرًا على تحصيله في تلك الأوقات فوجب السعي في تحصيله في هذا الوقت الذي حصلت فيه القدرة على الادخار.

الرابع: أن العنكبوت تبني بيوتاً على وجه عجيب وما نسجت الشبكة التي هي يصيد بها إلا بعد أن تفكرت كيف يمكنها اصطياد الذباب، فهذه أفعال فكرية ليست بأقل من الأفعال الفكرية الإنسانية فوجب الإقرار بثبوت العقل لها.

والخامس: أن الجمل والحمار إذا ذهبا طريقاً في ليلة ظلماء ففي المرة الثانية

وثانيها: قوله تعالى ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ﴾ فلقائل أن يقول: ما وجه اتصال هذا بما قبله؟ والجواب: أنه سبحانه لما ذكر أن أهل السمٰوات والأرض يسبحون [أفاد] أن الأشياء التي مقرها فيما بين السماء والأرض وهي الطيور فهي مسبحة أيضاً لله تعالى وذلك لأن أبدان هذه الطيور أجرام ثقيلة. ثم إنه سبحانه أعطاها قوىً تقوى بها على الوقوف في جو السماء صافة باسطة أجنحتها وذلك من أعظم الدلائل على كمال قدرة الله ونهاية علمه وحكمته. واعلم أن هذا الوصف قد وصف الله تعالى به الملائكة فقال: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ والملائكة أيضاً وصفوا أنفسهم بهذا الوصف فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ وبالجملة فهذا يشعر بكون الصافين واقفين في موقف الهيبة ومقام العظمة مشتغلين بتسبيح جلال الله وتعظيم كبريائه على وجه الخشوع والخضوع.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ ففيه ثلاثة أوجه.

أحدها: أن يكون المعنى كل من الطير قد علم صلاته وتسبيحه وهذا قول جماعة من أصحاب الأخبار وقال أبو ثابت: كنت جالساً عند أبي جعفر الباقر فقال لي: ما تدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها؟ فقلت: لا، فقال: إنها تقدس ربها وتسأله قوت يومها.

وثانيها: أن يكون معنى الآية كل مسبح قد علم صلاته وتسبيحه. ويدل على صحة هذا التأويل قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وثالثها: أن تكون الهاء راجعة إلى الله. تقدير الآية: كل مسبح ومصل قد علم صلاة الله التي كلفه إياها، فهذا تأويل لفظ الآية والكلام الذي لا بد من البحث عنه في هذا المقام أنه هل يجوز أن تكون الطيور والبهائم عارفة بربها أم لا؟ فأكثر أرباب أهل الآثار والأخبار جوزوا ذلك واحتجوا عليه بأن كون هذه الطيور عارفة بربها مشتغلة بتسبيح ربها أمر جائز في العقول، والنصوص وردت بوقوعها فوجب الاعتراف بذلك. أما الجواز العقلي فيدل عليه وجهان أحدهما: الإجمال والثاني: التفصيل، أما الإجمال فهو أن حصول الفهم والعلم في ذوات هذه الحيوانات من جملة الممكنات والله تعالى قادر على كل الممكنات فإذا لاحت المقدمات وجب القطع بهذا الجواز. أما التفصيل فهو أنا نشاهد من هذه الحيوانات أفعالاً لا تصدر إلّا مِنْ أفاضل العقلاء وذلك يدل على كونها عاقلة ومتى كان الأمر كذلك ثبت جواز كونها عارفة بربها،

داوت تلك الجراحات بالصعتر الجبلي، فانظر من أين حصل لهذه الحيوانات هذا الطب وهذا العلاج.

والثامن: إن القنافذ قد تحس بريح الشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل إلى حجرتها. يروى أنه كان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب أنه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بإنذاره وكان السبب فيه قنفذاً في داره يفعل الفعل.

والتاسع: أن الخطاف صانع حسن في اتخاذ العش لنفسه من الطين وقلع الخشب فإن أعوزه الطين ابتل وتمرغ ليحمل جناحاه قدراً من الطين وإذا فرخ بالغ في تعهد الفراخ بأخذ ذرقها بمنقاره ويرميه من العش ثم يعلمها إلقاء الذرق نحو طرف العش.

العاشر: إذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه يطعمه لأجل أن يتبعها ثم يذهب إلى جانب آخر سوى جانب فراخها.

الحادي عشر: ناقر الخشب لا يجلس على الأرجل بل يجلس على الشجرة وينقر الموضع الذي يعلم أنه فيه دوداً.

والثاني عشر: العراس فيصعد في الجو جلداً عند الطيران فإن حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها صوتاً خفيفاً مسموعاً يلزم بسبب ذلك الصوت بعضها بعضها وإذا نامت على فرد رجل قد اصطنعت الرؤوس إلا القلائل فإنه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه وإذا سمع صوتاً أو أحس بآفة صاح.

والثالث عشر: أن النعامة إذا جمعت لها من بيضها عشرين أو ثلاثين قسمها ثلاثة أثلاث: ثلثاً تدفنه في التراب وثلثاً تتركها في الشمس وثلثاً تحضنه، فإذا خرج فراريخها كسرت ما كان في الشمس وشتت فراريخها ما فيها من تلك الرطوبات التي دفنتها في الشمس ودفعتها فإذا اشتدت فراريخها وقويت أخرجت المدفون منها من الأرض وفتحت لها ثقباً وقد اجتمعت فيها النمل والديدان والذباب والحشرات ثم تطعم فراريخها فإذا تناولت ذلك قويت وقدرت على الرعي واللعب، فقل لي أيها العاقل أي امرأة تهتدي في تربية أولادها إلى مثل هذه الحيلة.

واعلم أن الاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوانات وهذا

يقدر على سلوك ذلك الطريق من غير إرشاد مرشد، حتى أن الناس إذا ضلوا في ذلك الطريق المستقيم اقتدوا بهما عند متابعتهما الطريق قدموا الحمار أو الجمل وتبعوا فوجدوا المطلوب وأيضاً أن الإنسان لا يمكنه المشي إلا عند الاستدلال بعلامة مخصوصة وهكذا القطا يطير في الهواء من بلد إلى بلد مشياً سوياً من غير غلط ولا خطأ، وكذلك الكركي ينتقل من طرف من أطراف العالم إلى طرف آخر يطلب الهواء الموافق من غير أن تضلّ ألبتة فهذا فعل يعجز عنه العقل البشري وهي قادرة عليه.

والسادس: أن الدبّ إذا أراد أن يفترس الثور لا يمكنه أن يقصده ظاهراً فيقال أنه يستلقي على قفاه في ممر ذلك الثور فإذا قرب منه الثور وأراد نطحه جعل قرنيه فيما بين ذراعيه ولا يزال ينهش فيما بين ذراعيه حتى يثخنه. وأيضاً أنه يأخذ العصا ويضرب الإنسان حتى يتوهم أنه مات ويتركه وربما عاد يشمّه ويتحسس نفسه وأيضاً يصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضاً بالواحدة وصفها بالأخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويأكل لبّه.

السابع: قيل من خواص الفرس أن كل واحد منها تعرف صوت الفرس الذي قابله، والكلاب يتعالج باللحسة المعروفة لها، والفهد إذا سقي الدواء المعروف بخفانق الفهد طلب وبل الإنسان.

والتماسيح تفتح أفواهها لطائر يقع عليها كالعقعق حتى ينظف ذلك الطائر ما بين أسنانها وعلى رأس ذلك الطير شيء كالشوك فإذا همَّ التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك ففتح فاه فيخرج الطائر. والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعتراً جبلياً ثم تعود وقد شوهد ذلك.

حكى بعض الثقات من المحبين للصيد أنه شاهد الحبارى يقاتل الأفعى وينهزم عنه إلى بقلة يتناول منها ثم يعود فلا يزال ذلك فعله، وذلك الشيخ قاعد في كوخه كما يفعله الصيادون وكانت البقلة قريبة من ذلك الموضع فلما اشتغل الحبارى بالأفعى قلع الرجل البقلة فعادت الحبارى إلى منبتها فأخذت تدور حول منبتها دوراناً كثيراً حتى خرّت ميتة فعلم الرجل أنه كان يعالج بأكلها من لسعة الأفعى وتلك البقلة هي الخس البري. وأما ابن عرس فيستظهر في قتال الحية بأكل الشذّاب فإن النكهة الشذابية يفر عنها الأفعى، والكلاب إذا تدور بطنها أكل من سنبل الحنطة فإذا جرح اللفائف بعضها

ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾ فثبت بما ذكرنا من التجارب إمكان كونها عارفة بربها وثبت بهذه النصوص كونها عارفة بربها عاقلة فوجب الاعتراف بذلك هذا تمام حجة القائلين بأنها عارفة بربها، واحتج من أنكر كونها عارفة عاقلة بأنها لو كانت عاقلة لكان آثار العقل ظاهرة في حقها لأن إيجاد العقل لها مع أنه لا يظهر أثر في حقها عبث وذلك لا يليق بحكمة الحكيم ولكنا لا نرى آثار العقل حاصلة في حق شيء منها وذلك لأنها لا يحترز عن الأفعال القبيحة ولا يميز بين ما ينفعها وبين ما يضرها فوجب القطع بأنها غير عاقلة.

أجاب الأولون بأن المتكلمين لما استدلوا بدليل الإحكام والإتقان على كونه تعالى عالماً أو ردّوا على تفسيرهم سؤالاً وجواباً وقالوا: نحن نرى في العالم أفعالاً خالية عن إحكام وإتقان فوجب أن يدل ذلك على جهل الفاعل وأجابوا بأن الإحكام والإتقان يدل على علم الفاعل أما عدم الإحكام والإتقان فلا يدل على الجهل لأن الجاهل لا يمكنه الفعل المحكم وأما العالم فيمكنه الفعل الخالي عن الإحكام فلذلك نشاهد صدور الأفعال المحكمة عن هذه الحيوانات ونشاهد أيضاً صدور أفعال غير مجدية عنها فتكون أفعالها المحكمة دالة على عقلها وأما أحوالها التي ليست بمحكمة فلا يدل على عدم عقلها فهذا تمام الكلام في هذا الموضع.

والآية الثالثة في هذا الباب: قوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ فقوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: باسطات أجنحتها في الجو عند طيرانها ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ أي: وتضمها إذا ضربت جنوبها. وها هنا سؤالان:

السؤال الأول: لم قال ويقبضن ولم يقل قابضات حتى يكون مطابقاً لقوله صافات؟ الجواب: لأن الطيران في الهواء يشبه السباحة في الماء والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، أما القبض فطارئ على البسط بالاستظهار به على الحركة والاسم يدل على الثبات والاستقرار والفعل يدل على التجدد فعبّر عن البسط بقوله: صافات ليدل لفظ الاسم على أن هذا هو الأصل، وعبر عن القبض بلفظ الفعل ليدل على أن هذا القبض تبع وعلى أنه يصدر القبض من الطير تارة بعد تارة كما يكون من السابح. نظيره ما يقال فلان رجل مناظر ويشعر فهذا يدل على أن حرفته هي المناظرة ثم أنه قد يشعر في بعض الأوقات فكذا ها هنا. ثم قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾

القدر يدل على أن هذه الحيوانات قد تأتي بأفعال يعجز عنها أكبر الأذكياء والعقلاء، ولولا كونها عاقلاً ما صح منها شيء من ذلك وإذا ثبت كونها مهتدية عارفة بهذه الدقائق فإنها تعد في كونها عارفة بربها مسبحة لمالكها فثبت مجموع ما ذكرنا أن الإمكان حاصل، **وأما النصوص الدالة على حصول هذه المعرفة فكثيرة.**

الحجة الأولى: قوله تعالى حكاية عن سليمان ﷺ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾.

الحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾. وهــــذا التهديد والوعيد لا يحسن إلا مع الفاهم العاقل.

الحجة الرابعة: قوله تعالى حكاية عن الهدهد: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وهذا الترتيب في إيراد الكلام لا يتأتى إلاّ من العاقل الذي يكون في غاية الذكاء وذلك لأن أشد الأشياء أخذاً بقلوب الرجال من النساء ولهذا السبب بدأ الله تعالى بذكر النساء في قوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ ولما لم يلتفت سليمان ﷺ إلى ذكر المرأة ثنّى الهدهد بذكر المال بقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ فلما لم يلتفت سليمان أيضاً ثلّث بذكر الجاه والملك العظيم فقال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ فلما فلم يلتفت سليمان ألبتة إلى شيء من أمور الدنيا ربّع الهدهد بما يتعلق بالدين فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومعلوم أن مثل هذا الترتيب لا يتأتى إلاّ مع الذكاء العظيم.

الحجة الخامسة: ظاهر هذه الآية التي نحن فيها في تفسيرها وهو قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾.

الحجة السادسة: قوله تعالى في قصة داود ﷺ: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ والتكليف لا يتوجه إلاّ على العاقل.

الحجة السابعة: قصة قابيل وهابيل وهي قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى

الفصل الثالث:
في البعوض

قال تعالى في أول سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: ذكروا في تفسير نزول الآية [أقوالاً]:

الأول: قال ابن عباس لما نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ وطعن في الأصنام ثم شبه عبادتها ببيت العنكبوت. قالت اليهود: أي قدر للذباب والعنكبوت حتى يضرب الله المثل بهما؟ فنزلت هذه الآية.

والقول الثاني: أن المنافقين طعنوا في ضرب المثل بالنار والظلمات والرعد والبرق في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾.

والقول الثالث: أن هذا الطعن كان من المشركين، قال القفال رحمه الله: والأقوال الثلاثة كلها محتملة ها هنا، أما اليهود فلأنه تعالى قال في آخر الآية: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ وهذا صفة اليهود لأنه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وأما الكفار والمنافقون فقد ذكرهم الله تعالى في سورة المدثر:

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ فأما الذين في قلوبهم مرض فهم المنافقون، وأما الذين كفروا فيحتمل أن يكون هم المشركون لأن السورة مكية فثبت أن الكل محتمل.

وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها وضعف أدمغتها وقلة اهتدائها إلى الفرق بين المصلحة والمفسدة لا يمكنها البقاء في جو الهواء إلا بإمساك الله تعالى.

والسؤال الثاني: أنه تعالى قال في سورة النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا جرم كان إمساكها ها هنا محض الإلٰهية وذكرها هنا أنها صافات قابضات فكان لا يكون إلهامها إلا هذا التصفيف والقبض على الوجه المطابق للمصلحة والمنفعة من كمال رحمته ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ والمراد بالبصيرة كونه تعالى عالماً بالأشياء الدقيقة، وحاصل الأمر أن إمساكها في جو السماء فعل على خلاف الطبائع وهو موافق للمصلحة فدلّ كونها على خلاف الطبيعة على وجود مدبر قادر قاهر قلب الطبائع وأبطل الخواص، ودلّ كون هذا الفعل محكماً متقناً مطابقاً للمصلحة على كون ذلك المدبر القادر عالماً بجميع المعلومات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرضين والسمٰوات فهذا ما يتعلق بهذا البحث.

روي أن الشبلي رأى طوطيًا في القفص ويقول: سبحان من صورني وفي الهواء طيرني وفي القفص صيرني سيكون ما قضى، سخط العبد أم رضى. فاشتراه الشبلي بثمن كثير وأخرجه من القفص وخلصه وقال: أستحي أن أترك من يسبح الله مسجوناً.

إلٰهنا! إن الشبلي خلَّص ذلك الطير لأنه سبّح الله مرة فنحن المساكين نسبحك من أول عمرنا من صميم قلوبنا فخلصنا من أليم عقابك إنّك أرحم الراحمين.

المبدأ بل المراد منه ترك الفعل الذي هو الغاية، وكذلك الغضب له مقدمة وهو غليان دم القلب وشهوة الانتقام وله غاية وهو إنزال العقاب بالمغضوب عليه فإذا وصفنا الله تعالى بالغضب فليس المراد ذلك الذي هو غليان دم القلب بل المراد تلك النهاية وهو إنزال العقاب فهذا هو القانون الكلي في هذا الباب.

والوجه الثاني: أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة فيقولون: أما يستحي رب محمد أن يضرب المثل بالذباب والعنكبوت؟ فجاهد الكلام على سبيل الطباق. والجواب على لفظ السؤال وهذا فن مشهور من الكلام.

البحث الثالث: هو أن شبهة هؤلاء الكفار إما أن يقال أنها وقعت من حيث أنهم استبعدوا من الله ضرب المثل بالذباب والعنكبوت والبعوض وأمثالها. أما الأول فباطل لأن ضرب الأمثال لتعريف المعاني أمر مستحسن في العرف، ولأن أمثال العرف كثيرة مشهورة بالأشياء الحقيرة وأيضاً كتاب كليلة ودمنة أكثره أمثال. وأما في الشرع فلأنه ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء الحقيرة، قال: يشبه ملكوت السماء برجل أخذ حبة الخردل وهي أصغر الحبوب فزرعها في قريته فلما نبتت عظمت وصارت كأعظم شجرة من البقول وجاء طير السماء فعشعش في فروعها، فكذلك الهدى من دعا إليه ضاعف الله له أجره وعظمه وفيه نجاة من اهتدى. وقال أيضاً: لا يكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة، كذلك أنتم تخرج الحكمة من أفواهكم وتبقون الغلّ في صدوركم: وأيضاً قال: قلوبكم كالحصاة التي لا ينضجها النار ولا ينبتها الماء، وقال لا تدخروا ذخائركم حيث السوس والأرضة فتفسدها ولا في البرية حيث السموم فتحرقها السموم وتسرقها اللصوص ولكن ادّخروا ذخائركم عند الله، وقال أيضاً: الأرض مسجد ودار عليها لناسها، وهناك رزقها وهذا مما لا يُعد ولا يحصى ومنه ما هو في جوف الحجر الأمم أو جوف العود من يأتيهن بلباسهن وأرزاقهن إلا الله أفلا تعقلون، وقال: لا تذئروا الزنابير فلتدغنكم كذلك لا تخالطوا السفهاء.

فثبت أن الله تعالى ضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة، وأما أن ضرب الأمثال مستحسن في العقول فلأن من طبع الخيال حب المحاكاة والتشبيه فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل وليس معه منازعة الخيال. ولا شك أن الثاني يكون أجمل وأيضاً فنحن نرى أن الإنسان يذكر معنى ولا يلوح كما يحب فإذا ذكر المثال لاتّضح وصار

البحث الثاني: الحياء تغير وانكسار يحصل في مزاج الإنسان من خوف ما يعاتب به ويذم، ألا ترى أنه يقال: هلك فلان حياءً ومات حياءً وذاب حياءً رأيت الهلال في وجهه من شدة الحياء. إذا ثبت هذا كان الحياء من صفات الأجسام والله تعالى ليس بجسم فكان الحياء محالاً في حقه إلا أنه ورد في الأخبار والقرآن. أما في القرآن: ففي هذه الآية وذلك لأن ما لا يجوز ثبوته في حق الله تعالى لا يجوز إطلاقه في حقه أيضاً على طريق النفي إنما الواجب أن يقال أنه تعالى لا يوصف به فأما أن يقال: لا يستحي فغير جائز أنه توهم بقي ما يجوز وما ذكره تعالى في كتابه من قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ و﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فهذا وإن كان في صورة النفي إلا أنه ليس ينفي في الحقيقة وكذا قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ وكذا قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وليس كلما ورد في القرآن إطلاقه جاز أن يطلقه الواحد منا ولا يجوز إطلاق هذه الألفاظ إلا مع بيان أن ذلك محال، ولقائل أن يقول هذه الصفات لما كانت منفية عن الله تعالى مع وجوب كونها منتفية كان الإخبار عن انتفائها صدقاً فوجب أن يجوز إطلاق. بقي أن يقال الإخبار عن انتفائها توهم صحتها فنقول هذه الدلالة ممنوعة لفظاً لأن تخصيص هذا النفي بالذكر لا تدل على ثبوت صحته بل لو قرئ باللفظ ما يدل على انتفاء الصحة كان ذلك أحسن من حيث أن يكون مبالغة في البيان وليس إذا كان غيره أحسن لزم أن يكون تركه قبيحاً.

وأما الخبر: مما روى سلمان عن رسول الله ﷺ: «**أن الله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفراً حتى يضع فيهما جزاءً**» وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إن الله حيي كريم يكني القبيح بالحسن وإن مما كنى أن يقال: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ واعلم أنه لما ثبت بالدليل أنه لا يمكن إجراء لفظ الحياء في حق الله تعالى على ظاهره وجب تأويله، **وفيه وجهان**:

الأول: وهو القانون في أمثال هذه الألفاظ أن كل صفة تثبت للعبد مما يختص بالأجسام فإذا وصف الله تعالى به فذلك محمول على نهايات الأغراض لا على بدايات الأغراض.

مثاله: أن الحياء يحصل للإنسان بسبب انكسار وتغير في المزاج فهذه الحالة مبدأ وغاية أما المبدأ فهو ذلك التغير المزاجي، وأما الغاية فهو أن يترك الإنسان ذلك الفعل فإذا ورد الحياء في حق الله تعالى فليس المراد منه ذلك الانكسار الذي هو

المبتدأ كما حذف في قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾.

الثاني: أن تكون استفهامية فإنه لمّا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ كأنه قال: بعوضة فما فوقها حتى لا يضرب المثل به، بل له تعالى أن يتمثل بما هو أقل من البعوضة وهو كما يقال: فلان لا يبالي بما وهب دينار أو ديناران، أي: يهب ما هو أكبر منه، وأما لفظ البعوض ففي اشتقاقه قولان الأول أن البعوض من البعض وهو القطع بالبضع والعضب يقال: بعضه البعوض ومنه بعض الشيء لأنه قطع والبعوض في أصله صفة على فعول كالفظوع فعيلة.

والقول الثاني: أن اشتقاقه من بعض الشيء سمي به لقلة جرمه وصغره لأن بعض الشيء قليل بالقياس إلى كله. أما قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ ففيه قولان:

الأول: فما هو أعظم منها في الجثة كالذباب والعنكبوت والكلب والحمار وذلك لأن القوم استبعدوا تمثيل الله تعالى بكل هذه.

والقول الثاني: وهو اختيار المحققين أن المراد فما فوقها في الصغر، أي: بما هو أصغر منه. **واحتجوا على هذا القول بوجوه:**

الحجة الأولى: أن المقصود من هذا التمثيل تحقير الأوثان كلما كان المشبه به أشد حقارة كان المقصود في هذا الباب أكمل.

الحجة الثانية: أن المقصود من هذا الكلام بيان أن الله تعالى لا يترك التمثيل بالشيء الحقير وإذا كان الأمر كذلك كان المذكور ثابتاً أن يكون أشد حقارة من الأول يقال: إن فلاناً يتحمل الذل في اكتساب الدينار بل في اكتساب ما فوقه من القلة.

الحجة الثالثة: أن الشيء كلما كان أصغر كان الاطلاع على أسراره أصعب فإذا كان في نهاية الصغر لم يحط به إلا علم الله تعالى، فكان التمثيل أقوى وأكمل في الدلالة على العلم والحكمة من التمثيل بالشيء الكثير.

البحث الرابع: في شرح عجائب حكمة الله في خلقه البعوض وبيانه من وجوه:

الأول: أن أكثر الناس يتعجبون من خلقة الفيل ثم الفيل مع كبر جثته وليس له إلا أربعة أرجل وخرطوم وذنب والبعوضة لها هذه الأعضاء مع أربعة أجنحة، ثم إنها

مبيناً مكشوفاً وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح كان ذكره مفيداً نافعاً، وأما إن قيل أن موضع الشبهة للقوم هو أنّهم استبعدوا أن يضرب الله بهذه الأشياء الحقيرة فاعلم أن هذا جهل لأنه تعالى هو الذي خلق الكبير والصغير وحكمته في كل ما خلق وبرأ عام، لأنه قد أحكم كل شيء وليس الصغير أسهل عليه من العظيم ولا العظيم أصعب عليه من الصغير وإذا كان الكل بمنزلة واحدة كان ضرب المثل بالكل جائزاً حسناً بل المعتبر ما يليق بالقصة.

فإذا كان اللائق بها ضرب المثل بالبعوض والذباب كان ضرب المثل فيها بالفيل والجمل غير جائز وها هنا المقصود بقبح عبادة الأصنام فكان ضرب المثل فيه بالذباب والعنكبوت أولى، **وتدل عليه وجوه:**

الأول: أنه تعالى خلق عباده ضعفاء فقال: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فلا جرم ضرب لهم المثل بالأشياء الضعيفة لأن الجنس أقرب إلى الجنس. قال ﷺ: «**أمرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم**».

والثاني: فإن الله تعالى لم يستحي[1] من خلقها ورزقها فالأولى أن لا يستحي من ذكرها فضرب المثل وكيف يستحي من ذكر شيء لو اجتمع الخلائق على أن يخلقوا مثله لم يقدروا عليه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟﴾.

الثالث: أن البعوضة تحن إذا جاعت فإذا مصت الدم كثيراً انشقت وماتت فهذا أشبه الإنسان على أنه إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالاً إذا أقبل تم.

واعلم أن المفسرين اختلفوا في لفظ "ما" في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا﴾ قال بعضهم: إنها صلة زائدة كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وقال أبو مسلم: معاذ الله أن يكون في القرآن زيادة ولغو إن الله وصف القرآن بكونه هديًا وثباتًا وكونه لغوًا ينافي ذلك. وفي بعوضة قرائتان إحداهما النصب وعلى هذه القراءة فلفظ ما إبهامية والمعنى مثلاً أي مثل ما كان، وأما القراءة بالرفع ففيه وجهان:

الأول: أنها موصولة صلتها الجملة والتقدير الذي هو بعوضة إلّا أنه حذف

(1) [يستحي] في المخطوط: يستجبي.

جلس على عضو من أعضاء الإنسان فإنه لا يزال يدير خرطومه من جانب إلى جانب حتى يجد الموضع المثقب من بدن الإنسان لأن جلد الإنسان فيه مسام كثيرة يخرج منها النفس والعرق فهو برأس خرطومه يطلب تلك الثقبة فإذا وجدها غوّص خرطومه فيها فمن الذي هداه لمقصوده من جذب الدم ومن الذي عرفه أن بدن الإنسان فيه منافذ ومسام وإن إدخال الخرطوم في تلك المنافذ الموجودة أسهل من إحداث منفذ في الجلد وأما حس السمع فلأن البعوض في الليلة الظلماء إذا وقعت على عضو الإنسان فإذا حاول الإنسان تقريب اليد منها ليضربها أحست بحركة اليد وطارت ولو بالغ في إخفاء حركة اليد فإنها لا بدّ وأن تحس بتلك الحركة فمن الذي أعطاه هذه القوة السامعة بهذا الكمال.

ثم هاهنا شيء آخر وهو أنها علمت أن مص الدم من جلد الإنسان جناية عليه وإيذاء له فالبعوضة لعلمها بهذا المعنى بقيت مستعدة للفرار والحذر فانظر إلى أنه ﷻ كيف هداه إلى تحصيل الغذاء الموافق له ثم أودع في خياله أنه لا بدّ من الحذر فكلما فكر العاقل اللبيب علم أن مثل هذا التدبير لا يتأتى إلا من الإله الذي خلق فسوى والحكيم الذي قدر فهدى.

الخامس: تأمل في صغر جثة البعوضة ولا شك أن خرطومه أصغر من خرطوم الفيل بكثير ثم إن ذلك الخرطوم مع غاية صغره مجوّف ولولا ذلك التجويف لما قدر على امتصاص الدم فانظر إلى ذلك الخرطوم مع كونه مجوفاً كيف يكون غاية دقته ثم تأمل أنها مع غاية دقتها كيف قوتها وشدتها، فإنها تغوص ذلك الخرطوم في جلدة الجاموس والفيل على شدته وثخانته ويستخرج الدم منه كما يضرب الرجل إصبعه في الخبيص.

السادس: أنه ﷻ خلق في خرطوم البعوض غصوناً كثيرة كما في خرطوم الفيل فتارة يمدها ويطولها وذلك عندما يغوص الخرطوم في الجلد تارة وتارة يقبضه إلى نفسه وذلك عند الإخراج، فتأمل في كل واحد من تلك الغصون وذلك لأنه على قياس خرطوم الفيل لا بد وأن يكون أصله غليظاً ويكون رأسه مستدقاً ولا بدّ وأن يتدرج من الغلظ إلى الدقة على تناسب مخصوص ولا بد وأن يكون قد اختص كل واحد من تلك الأجزاء بشكل مخصوص وصفة مخصوصة لا يقدر على ذلك التشكيل والتصوير إلا القادر على جميع الممكنات العالم بجميع المعلومات.

تماثل الفيل في الفم والحلقوم والجوف وأعضاء أخرى لا يدركها أبصار الخلق ولا يحيط بها إلا علم الخالق.

الثاني: أن هذا البعوض مع غاية صغره مسلط على الفيل والأسد.................. [1] على البعوض وهذا يدل على أن الاستيلاء على الغير ليس بالقوة وكثرة العدد بل بنصرة الله تعالى وإعانته كما قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أليس أن نمرود كان أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم سلطاناً وأشدهم[2] صولة ثم إن بعوضة طارت إلى دماغه فدخلت في أنفه حتى وصلت دماغه فكانت تؤذيه ويوقع الدغدغة في دماغه، وكان أكثر الناس محبة له وذو شفقة عليه من يضرب على دماغه مائة صفعة بالشدة والقوة أو أكثر حتى تسكن تلك الدغدغة بل إن كنت لم تشاهد نمرود ولا أحواله فاعتبر نفسك فإنه إذا وقعت بعوضة على رأسك أو وجهك فربما صفعت رأسك ولطمت خدك [تريد][3] أن تصيبها ثم إنها تطير ولا تصيبها منك آفة ألبتة ويبقى ضرب اللطم والصفع على خدك ورأسك.

الثالث: أن الصانع البشري يقدر أن يصور فيلاً من الخشب أو من الحديد ولا يقدر أحد من الصناع أن يصور بعوضة من الخشب ولا من الحديد فعلى هذا تكوين البعوضة أشرف من الفيل من هذا الوجه، وذلك لأن الفيل والبعوضة يشتركان في دلالة أجزاء كل واحد منهما على قدرة الصانع وحكمته ثم إن كل ما حصل في الفيل من وجوه الدلائل حاصل في البعوض وقد حصلت وجوه من الدلائل في البعوض لم يكن حاصلاً في الفيل من هذا الوجه وتأمل أنك إذا اعتبرت الأعضاء الظاهرة فالبعوض أزيد فيها من الفيل وإن اعتبرت الاستيلاء والقدرة فالبعوض مستول على الفيل والفيل لا قدرة له على البعوض، وإن اعتبرت الدلالة على قدرة الله تعالى وحكمته فالبعوض أزيد من الفيل بالوجه الذي ذكرنا ولنعلم أنه لا عبرة بالصور والظواهر وإنما العبرة بإعانة الله تعالى وتأييده.

الرابع: البعوضة وكمال معرفتها بمصالحها أمّا حس البصر فلأن البعوض إذا

---

(1) فراغ في أصل المخطوط.
(2) [وأشدهم] فراغ في المخطوط.
(3) [تريد] غير واضحة في المخطوط.

وتجعله مضطرباً متجزئاً. ثم إنه تعالى ما أودع تلك القوة الشديدة في سم البعوضة إلا ليعينها على إصلاح غذائها ونظم معيشتها وكل من له عقل سليم وطبع مستقيم يشهد بأن هذا لا يكون إلا من تدبير مدبر عالم بجميع الكليات والجزئيات قادر على جميع الكائنات والممكنات.

الثامن: تأمل في حال البعوضة فإذا وقعت على عضو الإنسان اعتمدت على ما لها من الأيدي والأرجل وغوصت خرطومها في الجلد فإذا أحست لمجيء اليد أخرجت ذلك الخرطوم في ذلك على أسهل الوجوه وطارت قبل وصول اليد إليها، ولو أن الإنسان جعل إبرة أو مسلة في جرم غليظ فإنه لا يمكنه أن يخرجها منه إلا بعد تعب شديد.

التاسع: تأمل أيضاً حالها فإن إذا وجدت الفرصة والمهلة مصّت دماً كثيرًا إلى أن ينشق ويموت وربما مصت إلى حيث يعجز عن الطيران فإذا حاول الإنسان ضرب يده عليها وعجزت عن الطيران بسبب ثقلها فبقيت هناك وتصل اليد إليها وتموت وهذا فيه تنبيه عظيم للإنسان على أحوال دنياه وأُخراه، أما الدنيا فلأن الاستكثار من اللذات والشهوات سبب للوقوع في المحن والآفات. وأما الآخرة فلأن الإنسان إذا كان خفيفاً قليل العلائق فإذا وصل إليه نداء قوله: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ طار من وكر مكر الدنيا إلى عش الآخرة أما إذا كان ثقيلاً من حب الدنيا عجز عن الطيران فبقي في هاوية الجسمانيات وظلمات الخيالات كما قال في صفتهم: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾.

العاشر: تأمل في رأس البعوضة ووجهها فإنها مع غاية صغرها قد جعله الله تعالى منقسماً إلى أقسام كثيرة، وأودع في كل من تلك الأقسام خاصة معينة وقوة معينة وذلك لأنه تعالى خلق في رأس البعوضة عينين وأودع فيهما قوة باصرة أكمل ممّا للإنسان ويدل عليه وجهان:

الأول: أنها تبصر في الظلمة الشديدة الموضع الذي منه يمكنها مص الدم.

الثاني: أنها تبصر مسام جلد الإنسان ولذلك فإنها إذا وجد بها غوصت خرطومها فيها والإنسان لا يرى ذلك ألبتة. وأيضاً أنه تعالى خلق في رأسها أذنين وأودع فيها قوة سامعة أقوى مما للإنسان ولذلك فإنها تسمع في الظلمة حفيف اليد مع أن الإنسان ألبتة لا يسمعها.

السابع: تأمل في جسد البعوض فإنه في غاية الصغر وخرطومه أصغر منه بكثير ورأس خرطومه أصغر من ذلك الخرطوم بكثير. إنه تعالى أودع في رأس خرطومه سماً وفيه فائدتان:

الأولى: إن ذلك السمّ إذا انصب على ذلك الموضع من الجلد أفسد مزاج ذلك الموضع وبسبب فساد مزاجه يحدث فيه نوع من اللين والرخاوة فحينئذ يسهل على البعوضة تغويص خرطومها في ذلك الموضع.

الثانية: إن تلك الحرارة السمية تعين البعوض على هضم ذلك الدم المخصوص. وقال أهل العلم: أن الحكمة في خلق السمّ فيما بين فكّي الحية أنه ليس لها أضراس تقوى بها على مضغ الأغذية فلهذا خلق الله تعالى فيما بين فكيها سماً قوياً حاداً منضجاً قاطعًا فالحية إذا قبضت على جثث الحيوانات وجعلتها بين فكيها أقبل ذلك السم على ذلك الجسم فتهرقها من ساعتها فحينئذ يبلعها وتسمن بها ولو لم يخلق ذلك السم بين فكيها لما تمكنت من الأكل لأنه ليس لها أسنان ماضغة طاحنة وكانت تموت من الجوع.

إذا عرفت هذا فنقول: بنية البعوضة صغيرة وحرارة بدنها قليلة وليس لها شيء من الأسنان فخلق الله تعالى في رأس خرطومها ذلك السم ليعينها على هضم الغذاء.

واعلم أن لسم البعوضة قوة شديدة في الكيفية ولذلك أنه إذا كثر اجتماع البعوض على بدن الإنسان اسود لون البدن وربما أدى إلى الموت. ثم ها هنا حالة أخرى أعجب من كل ما تقدم وهو أن جثة البعوضة في حالة الصغر وخرطومها أصغر منها ورأس الخرطوم أصغر من ذلك الخرطوم والسم الذي في رأس ذلك الخرطوم أصغر لا محالة من رأس ذلك الخرطوم، ثم إن البعوضة إذا وضعت رأس خرطومها على موضع من بدن الإنسان فإنه لا ينصب جميع ما معها من السمّ فإذا غضت موضعاً آخر حصل فيه مثل ذلك الألم فعلمنا أنه لا ينصب من السمّ الذي في رأس خرطوم البعوضة إلا القليل وأما الأكثر فيبقى فتأمل أن ذلك الذي تنصب منه على بدن الإنسان كم [تقل][1] وتصغر فلعله جوهر فرد وجزء لا يتجزئ في علم الله تعالى، ثم إنه سبحانه قد أودع في ذلك الجزء والقليل من الخاصية والقوة ما تزعج الفيل وتقلقه

---

(1) [تقل] في مكانها فراغ من المخطوط.

الفصل الرابع:
في الذباب

قال الله تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 73-74] وفي الآية أبحاث:

البحث الأول: اعلم أن هذه الآية من جملة الآيات التي أقر بفصاحتها الصديق والزنديق والموافق والمخالف، يحكى على أنه اجتمع أربع من الزنادقة بمكة: ابن المقفع وابن أبي العرجاء وأبو شاكر الريضابي وعبد الملك البصري فقالوا: تعالوا نُعارض القرآن كل واحد منا ربع، وتواعدوا وتقدموا على أن يجتمعوا في السنة المستقبلة فلمّا رجعوا قال ابن المقفع: إني عجزت عن معارضة قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾.

وقال ابن العرجاء عجزت عن معارضة قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وقال عبد الملك البصري: إني عجزت عن معارضة قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ فهؤلاء الزنادقة كانوا فصحاء العالم وقد عجزوا عن معارضة هذه الآيات وذلك لجزالة ألفاظها وقوة معانيها وعذوبة سياقها.

وفي هذه القصة نكتة أخرى عجيبة وذلك لأن الأعداء لما طعنوا في فصاحة القرآن وقالوا: كيف يليق بالله ذكر الذباب والعنكبوت؟ فأجاب الله تعالى عنه بأن حقارة هذه الحيوانات لا يقدح في فصاحة القرآن إذ كان بذكرها التنبيه على الحكم البالغة والمعاني الدقيقة الشريفة ثم أشد الزنادقة عداوة وأكثرهم علماً بوجوه الفصاحة والبلاغة اعترفوا بالعجز عن معارضة هذه الآيات المشتملة على ذكر الذباب، وكان ذلك جارياً مجرى معجزة أخرى لمحمد ﷺ **وفي الآية سؤالان:**

الثالث: أنه خلق في رأسها قوة الشمّ ولذلك فإنها تحسّ بوقوع الجيفة من المكان البعيد ولولا ذلك لما عرفت ذلك.

الرابع: خلق في رأسها الفم وأودع فيها القوة الذائفة ولذلك فإن البعوض ترغب في بعض الطعوم دون البعض ولولا القوة الذائقة لما كان الأمر كذلك.

الخامس: أنه تعالى أودع في بدنها القوة اللامسة ولذلك فإنها تهرب من الحر الشديد والبرد الشديد.

السادس: أنه تعالى خلق في رأسها قوة الحفظ ولولاها لما ميزت بين ما ينفعها وبين ما يضرها، وخلق أيضاً فيها قوة الفكر ولولاها لما عرفت وجوب الفرار عند مجيء اليد، وخلق فيها قوة الذكر ولولاها لما ميزت بين المعاني النافعة والضارة، فانظر الآن إلى رأس البعوضة كم يكون مقدار ذلك الجرم. ثم إنه سبحانه قسم ذلك الجرم الصغير إلى أجزاء كثيرة وأودع في كل واحد من تلك الأقسام خاصية معينة فهذا عيناه وهذا أنفه وهذا أذناه وهذا دماغه الذي فيه قوة الحفظ وهذا وسط دماغه الذي فيه الفكر وهذا مؤخر دماغه الذي فيه قوة الذكر. ثم لا شك أنه تعالى خلق له منفذ الغذاء ومخرج الفضلة ومتى كان الأمر كذلك فقد خلق له جوفاً وأمعاءً وعروقاً وعظاماً فيخطر ببال العاقل السليم العقل أن يسند هذه التأثيرات العجيبة والتصرفات البديعة إلى الطبيعة مع أنها قوة لا شعور لها بشيء من الأشياء ولا تمييز لها في حال من الأحوال، هذا مما لا يقوله عاقل بل شواهد الفطر وصرائح الأفكار ينادي بأعلى صوتها على أنها إنما حدثت بتدبير من لا يعزب عن علمه وقدرته وحكمته ذرة من الأرضين والسمٰوات له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

يا من يرى مدّ البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نباطه في نحره ... والمخ في تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ... ما كان منه في الزمان الأول

الأول: المراد منه الصّنم والذباب فالصّنم كالطالب من حيث لو طلب أن يخلقه أو يستنقذ منه ما سلب منه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب.

الثاني: أن الطالب عابد الوثن والمطلوب نفس الصّنم وهذا أقرب لأن كون الصنم طالباً ليس على سبيل الحقيقة بل على سبيل التقدير أمّا ها هنا فعلى سبيل التحقيق.

الثالث: أن يكون معنى ضعف لا من حيث القوة لكن لظهور قبح هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه. أما قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ فالمعنى: ما عظّموا الله حق تعظيمه، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة لخالق السمٰوات والأرض في العبودية.

واعلم أن منشأ جميع الشبهات هو القول بالتشبيه فالتشبيه بالذات باطل كما تقول المجسمة، والتشبيه بالصفات باطل كما تقول الكلابيّة، والتشبيه في الأفعال باطل كما تقول المعتزلة.

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله: إنه سبحانه جبّار النعت عزيز الوصف فالأفهام لا تصوره والأحكام لا تقدره والعقول لا تمثله والأزمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده. صمدي الذات سرمدي الصفات.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فاعلم أنه تعالى ذم [الأصنام][1] بأشياء ثم أثنى على نفسه بأضدادها، **فالأول**: أنه تعالى لما قال في هذه الآية في حق الأصنام: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ فوصفها بالضعف ووصف نفسه بالقوة فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

والثاني: قال في حقها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فقال لنفسه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾.

والثالث: أنه تعالى قال لها: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ وقال لنفسه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

(1) [الأصنام] في المخطوط الأصناف.

الأول: الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية ليس بمثل فكيف سماه مثلاً الجواب لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلاً.

السؤال الثاني: قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ يفيد أن هذا الكلام المذكور ليس كلام الله تعالى بل هو كلام لبعض المتقدمين وذلك يجر إلى القرآن العظيم أعظم وجوه الطعن. الجواب: لما كان الكلام المذكور في هذه الآية في غاية القوة والبعد عن الشبهة كان ذلك الأمر المعلوم من قبلُ لا جرم كان ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم. أما قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ أي تدبروا حق التدبر لأن نفس السماع لا ينفع إنما النافع هو التدبر والتأمل، ثم إنه تعالى احتج بأمر الذباب على إبطال مذهب عبدة الأوثان. فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ والمعنى: أن هذه الأصنام لو اجتمعت بأسرها وأجمعها لما قدرت على خلق الذبابة مع ضعفها فكيف يليق بالعاقل الاشتغال بالعبادة لمثل هذا الشيء وقوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ نصب على الحال كأنه قال تعالى: يستحيل أن يخلقوا ذباباً حالٍ اجتماعهم فكيف حال انفرادهم، ثم قال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ فالمعنى كأنه سبحانه قال: اترك حديث الخلق والإيجاد واذكر ما هو أسهل منه فإن الذباب إن سلب منها شيئاً لا يقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب.

واعلم أن المقصود من هذا الاستدلال يظهر من وجوه:

الحجة الأولى: أن فعل العاقل لا بدّ أن يشتمل على فائدة، وتعظيم هذه الأصنام لا فائدة منه لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع والاشتغال بالعبث محظور عند أولى العقول.

الحجة الثانية: أن العبادة غاية التعظيم. والإنسان أشرف من الجماد وإقدام الإشراف على غاية التواضع لها محض خلاف العقل.

الحجة الثالثة: إنهم لما عظموا الأوثان غاية التعظيم لم يقدروا على أن يعظموا الخالق تعظيماً أزيد من ذلك فحينئذٍ يلزم حصول التوبة في التعظيم بين مدبر السمٰوات والأرض وبين مدبر تلك الأحجار والجمادات وذلك غاية السفاهة أما قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ ففيه أقوال:

ورابعها: فهو أن الذباب يدل على طهارة الصحابة، روي أن المنافقين لما طعنوا في عائشة ونسبوها إلى الفاحشة حصل الغم العظيم في قلب رسول الله ﷺ فدخل عمر ابن الخطاب على رسول الله ﷺ فقال له: **«يا عمر ما قولك في هذه الواقعة»** فقال: يا رسول الله أنا قاطع بكذب المنافقين، فقال ﷺ: **«وما الدليل عليه»** فقال عمر: الدليل عليه أن الله عصمك عن وقوع الذباب عن جلدك فلما تفكرت علمت أن السبب أنها تجلس على النجاسات فتلطخ أرجلها فالله سبحانه عصم جلدك عن ذلك القدر من القاذورات فكيف لا يعصمك عن كل ما يكون متلطخاً بالفواحش والسيئات؟ فاستحسن رسول الله ﷺ ذلك. ثم دخل عثمان فسأله عن هذه الواقعة فقطع بكذب المنافقين فطلبه بالدليل فقال عثمان: الدليل عليه أن الله تعالى ما أوقع ظلك على الأرض ثم تفكرت فعلمت أن السبب فيه أنه لو وقع ظلك على الأرض فربما وضع إنسان قدمه على ذلك الظل فالله سبحانه لم يمكّن أحداً من وضع القدم على ظلك فكيف يمكّن الأجنبي من تلويث عرض زوجتك؟ ثم دخل علي فسأله عن الواقعة فقطع بكذب المنافقين فطالبه بالدليل فقال: الدليل عليه أنا كنا نصلي خلفك فنزعت في أثناء الصلاة رجلك عن نعلك فنزعنا أيضاً أرجلنا عن نعالنا فلما تممت الصلاة قلت لنا: **«لِم نزعتم أرجلكم عن نعالكم»** قلنا: فعلت ذلك فوافقنا فقلت: **«إنما فعلت ذلك لأن جبريل عليه السلام أخبرني أن عليه قذراً»** فلما أمرك الله بإخراج ذلك النعلِ عن رجلك بسبب ما التصق به من القذارة فكيف يليق بهذه العناية أن لا يأمرك بإخراجها بتقدير أن يكون ملطخة بشيء من الفواحش؟ فطاب قلب الرسول ﷺ عند سماع هذه الدلائل. ثم أنزل الله تعالى الآيات الدالة على طهارتها وبراءتها عن الفواحش، والمقصود من رواية هذا الخبر أن الذبابة وإن كانت ملطخة ملوثة إلا أنها دلت على براءة عائشة عن كل لوث وهذا يقتضي كون الذبابة أشرف وأعلى وأرفع درجة من أولئك المنافقين، فصارت الذبابة دالة على قدرة الله وحكمته ووحدانيته ودالة على طهارة عائشة فصارت على حقارتها مستجمعة للدلالة على صحة أصول الإسلام.

الوجه الثاني: أنه تعالى أظهر بخلق الذبابة قبائح الكفار لأنه إذا وضعت مضغة من المرقة الحارة تبادرت الذبابة إليها والإنسان يذبّها عن تلك المرقة وتموت فيها، وهذا يشبه طريقة الكفار فإن الأنبياء عليهم السلام يذبّونهم عن نار جهنم، بأقصى ما يقدرون ثم إنهم يلقون أنفسهم في نار جهنم إلا أن عاقبة الذباب أحسن من عاقبة

والرابع: قال في حقها: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ وقال لنفسه: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

والخامس: قال في حقها: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. وقال لنفسه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

والسادس: قال في حقها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وقال لنفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

البحث الثاني: في آثار حكمة الله تعالى في خلق الذباب. اعلم أن أكثر الأحوال المذكورة في البعوض عائد في الذباب ثم أنا نخصه بمزيد وجوه:

الأول: إن في الذباب ثلاثة أنواع من المنافع الدينية:

أحدها: ما يدل على التوحيد من وجهين: الأول من جملة من يسبح الله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ فهو يسبح الله بحالته ولا تعصيه بعمله ألبتة، وأما الكافر فهو إن كان يسبح الله بدلائل خلقته ولكنه ينكره بلسانه وتعصيه بأعماله فكان الذباب مع غاية حقارته خيراً من الكافر.

الثاني: إنه تعالى جعل الذباب حجة على بطلان مذهب عبدة الأوثان فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ فمعبوداتكم لا يقدرون على خلق الذباب ولا على ذبّهم عن أنفسهم ولا على استرجاع ما سلبها الذباب عنهم ومن كان في الضعف والعجز هكذا فكيف يستحق أن يعبد.

وثالثها: فهو أن الذباب يدل على النبوة فلأنه صح في الأخبار أنه ما كان يقع البعوض ولا الذباب على جسد رسول الله ﷺ. فإنه كان أعزّ على الله من أن يكون جسده مركباً للبعوض والذباب أو دمه مشربًا لهما فكون[1] هذين الحيوانين مسلطين على كل الخلائق مع كونهما ممنوعين عنه على التعيين من أقوى البينات وأظهر المعجزات.

---

(1) [فكون] في المخطوط فيكون.

الذباب، قلنا: هذا السؤال غير مختص بالذباب فإذا قلنا أنه سبحانه خلق الخبز والماء والفواكه لنلتذ بأكلها فنقول للسائل خالق اللذات هو الله سبحانه فكان ينبغي أن لا يخلقها ابتداءً حتى لا نحتاج إلى الماء والخبز ولما كان هذا رداً على كل القرآن علمنا سقوطه. ثم التحقيق أن الدنيا دار الأسباب فربط الله كل شيء بشيء حتى إنه كما يظهر قدرته بإيجاد الأشياء فكذلك يظهر حكمته بجعل الأشياء أسباباً لسائر الأشياء.

الوجه الخامس: في أمثال العرب: أجرأ من الذباب وأشبه من الذباب، أما شدة جرأته فظاهر لأن الإنسان كلما دفعه عاد إليه وقيل إنما سمي الذباب ذباباً لأنه كلما ذبّ آب. والحكمة في وصفه بالجرأة أنه لما كان المقصود من خلقته إفناء العفونات تارة باغتذائها وتارة بتحرك الهواء بسبب الطيران وجب كونها موصوفة بالجرأة حتى إنها متى ذُبت لا تمتنع عن الحركة فتحصل هذا المقصود، وكذا طينتها ولجاجتها من الأمور المعينة على هذا المقصود وأما كون بعضها شبيهاً بالبعض ففيه حكمة عجيبة وذلك لأنا بينا أنه لو حصلت المشابهة بين الأشخاص الإنسانية اختلت مصالح العالم فإنّ على هذا التقدير ما كان يميز زوج هذه المرأة عن غيره وما كان يميز مالك هذا الدار عن غيره في الشكل وذلك يفضي إلى وقوع المفاسد العظيمة في العالم فلأجل رعاية هذه المصالح ميز الله تعالى كل إنسان عن غيره في الشكل والصورة والصوت.

وأما الحيوانات الأهلية فهي غير مكلفة فما كانت مصالحها يختل عند حصول هذه المشابهة في الصورة والخلقة، إلا أن الإنسان ربما ينتفع بفرد معين منها ولم ينتفع بفرد آخر منها: مثل إن كان هذا الفرس أشدّ ركضاً وأشد عدواً من سائر الأفراس فلأجل هذا المعنى أظهر الله تعالى المخالفة بين صور الحيوان، إلا أن المخالفة ها هنا أقل من المخالفة التي بين صور الإنسان وأما الحيوانات البرية فإن حاجة الإنسان إليها قليلة وانتفاعه بواحد معين منها دون غيره نادر جداً فلا جرم كانت المخالفة بين باقي الصور والأشكال أقل مخالفة بين صور الحيوانات الأهلية.

وأما هذه الحيوانات الخسيسة التي لا تتعلق حاجة الإنسان بها ألبتة فلم تحصل المخالفة بين صورها ألبتة فصارت المشابهة بحيث لا يمكن تمييز بعضها عن البعض. وهذا الترتيب الذي ذكرناه في تخليق أبدان الحيوانات يدل على أنها بأسرها مخلوقة لمنفعة الإنسان حتى إنها صارت مخلوقة على وفق مصلحة الإنسان، وإذا عرفت هذا فنقول إن امتياز الإنسان عن سائر الحيوانات ليس إلا لكونه عارفاً بالله مشتغلاً بطاعة

الكفار لأن الذبابة لما ماتت تخلصت من الآلام والكافر لما مات بقي في العذاب أبد الآباد قال تعالى: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾.

وأما فضائح الفساق فلأن في الذبابة خساسة عظيمة ولا يميز بين الطيب والخبيث فتارة تقع على السكر وأخرى على القاذورات، فكذا الفاسق قد وضعت له مائدة الجنة وأغدق له جميع النعم الطيبة فهو تارة يقدم على تلك المائدة الطيبة وهي الطاعات والعبادات وأخرى يجلس على مائدة المعاصي والمنكرات وهي من جنس القاذورات والنجاسات، فمن أراد أن يصون نفسه عن خساسة الذباب وجب أن لا يدور حول الخبائث والمنكرات.

الوجه الثالث: أنه تعالى أظهر بخلق الذباب عجز الجبابرة، حكي عن سعيد بن جبير أنه توارى عن الحَجَّاج وكان مع ذلك لا يترك الجماعة فقيل له: إيّاك الخروج من الدار فإن عليك من الحجاج عيوناً، قال: فكيف يخلف عن الجماعة والمؤذن ينادي بحي على الفلاح، ثم خرج فأخذه أعوان الحجاج في طريق المسجد وأبوابه إلى الحجاج فقال: يا ابن جبير ما الحكمة في خلق الذباب؟ وكان يتأذى لكثرة ما كان يذبّ عنه وهو يعاوده، فقال: إنما خلق الله الذباب ليذلّ به الجبابرة وذلك أنه يقع على النجاسات ثم يقع على وجوه الجبابرة فيظهر بذلك ذلّهم حيث عجزوا عن دفع أضعف المخلوقات وأحقرها عن أنفسهم.

الوجه الرابع: قال أهل الحكمة أن في الذباب منفعة عظيمة من ثلاثة أوجه وذلك لأن الذباب لا يظهر إلا في مواضع العفونة والأماكن المستقذرة، ثم إنه سبحانه يخلق من بعض أجزاء تلك العفونات ذات الذباب وجعل بقية تلك العفونات غذاءً لها ثم إنها لكثرة طيرانها تحرك الهواء وتحريك الهواء سبب لإزالة العفونات عن الهواء، من هذه الأوجه الثلاثة فالذباب إذا طارت وجلست على وجه الإنسان وأذنه فذلك في الحقيقة نعم عظيمة في حق الإنسان فلولا وجود طيرانه لاستولت العفونات على الهواء وتأدّى إلى حصول المضار العظيمة فكما أن الصبي يتأذى من الفصد والحجامة والعاقل يعلم أنه من أعظم وجوه الإنعام في حق ذلك الصبي، فكذا وقوع الذبابة على وجه الإنسان وإن تأذى منه الجاهل إلا أن العاقل يعلم أنه من النعم العظيمة في حقه من حيث أنه سبب لإزالة العفونات عن الهواء الذي هو مادة الحياة. فإن قيل: خالق العفونات هو الله سبحانه فكان ينبغي أن لا يخلقه حتى لا يحتاج في دفعها إلى خلق

الفصل الخامس:
في الكلام في بقية الحيوانات المذكورة في القرآن

أما **العنكبوت** فقال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 41] وفي تشبيه عبادة الأصنام ببيت العنكبوت وجوه:

الأول: أن بيت العنكبوت لا يصون عن الحر والبرد فكذا عبادة الأصنام لا يجلب النفع ولا يدفع الضرر.

الثاني: أن بيت العنكبوت ينهدم بأدنى سبب فكذا مذهب عبدة الأصنام يبطل بأدنى حجة.

الثالث: أن الشيء إنما يعرف بضده فلما كان الاشتغال بغير الله تعالى كبيت العنكبوت في الضعف لزم أن يكون الاشتغال بطاعة الله تعالى وبعبوديته أعظم وأقوى من السمٰوات السبع. ثم في الآية لطائف دالة على شرف المؤمن:

الأولى: أنه قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ سمي الأصنام أولياء للكافرين ثم وصف نفسه بكونه ولياً للمؤمنين.

الثانية: أنه تعالى خلق البعوضة والعنكبوت فجعل البعوضة سبباً لهلاك أشد الخلق طغياناً وكفراً وهو نمرود وذلك لأن البعوضة التي أهلكت نمرود قالوا كان لها نصف البدن وأما النصف الثاني فكان مفلوجاً فاسداً. وأما العنكبوت فإنه تعالى جعله سبباً لنجاة محمد ﷺ عن شر الكفار وذلك لأنه ﷺ لما دخل الغار نسج العنكبوت على باب الغار، والحكمة في ذلك أنه تعالى خلق الأشياء الصغيرة الحقيرة ثم جعلها أسباباً للأمور العظيمة ليعلم الخلق أن الأمر بيد الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الله، فدل هذا على أن كل الحيوان مخلوقة لهذه الحكمة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ودلّ أيضاً أن خالق هذه الحيوانات ليس هو الطبيعة ولا العلة ولا الخاصية بل المؤثر فيها هو قدرة الصانع المختار حتى إنه ﷻ حيث تعلقت المصلحة بإظهار المخالفة بين الصور والأشكال أظهرها، وحيث لم تتعلق المصلحة بإظهار هذه المخالفة لم يظهرها فسبحان من لم يخل ذرة من ذرات الأرض والسماء عن دلائل ظاهرة وبراهين باهرة على كمال قدرته وغاية حكمته.

الوجه السادس: في عجائب خلقة الذباب أنا بيّنا أن كثرة طيرانها من الأمور المطلوبة في الحكمة من حيث أن طيرانها سبب لزوال العفونة عن الهواء فنقول أن كثرة طيرانها في العفونات تصير سبباً لوقوع تلك العفونات عن أجنحتها، ومتى اجتمعت تلك العفونات على أجنحتها ثقلت وعجزت عن الطيران فدبّر الخالق الحكيم المدبر الرحيم أن أقدر الذبابة على أن تنظف جناحيها برجليها عن كلّ ما التصق بها من العفونات ثم كما أنها تنظف جناحيها برجليها فكذا في مقدمة بدنها تنظف بهما عينيها وذلك لأن العين لا يكمل الانتفاع بها إلا إذا كانت صافية صقيلة الأجفان، والحيوانات الكبيرة كذلك تنظف سطح الحدقة في كل أوان عن أنواع البخار والغبار فتبقى صافية أبداً، فسبحان من خلق كل شيء على أحسن الوجوه وهدى كل شيء إلى رعاية مصلحته إلى أقصى الوجوه.

الوجه السابع: في عجائب خلقة الذباب قوله ﷺ: **«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فأمقلوه ثم انقلوه فإنّ في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء»**[1]. واعلم أنها خاصية اطلع عليها الرسول ﷺ بنور النبوة والرسالة، وهذا أيضاً من عجائب الخلقة وإن كون أحد الجناحين داء والآخر دواء مخصوص بالذباب ولا يوجد في غيره.

الوجه الثامن: أنه تعالى جعل حالتي الذباب بحسب الصيف والشتاء دليلاً على اختلاف حالتي الإنسان بحسب الموت والبعث، فكما أن الذباب يغيب في الشتاء ثم يظهر في الصيف فكذا الإنسان يغيب في اللحد بالموت ويظهر في القيامة بالبعث، وبالله التوفيق.

---

(1) رواه البخاري (3320 و5782) من حديث أبي هريرة.

وأما قوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ ففيه وجهان:

الأول: التقدير مساكنكم كي لايحطمنكم، على طريقة لا أرينَّك، وفي هذه الآية تنبيه على أمور:

أحدها: أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز وإنما يلزم لمن في الطريق التحرز.

وثانيها: أن النملة قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فتلك النملة كانت أكثر عقلاً من الحشوية الذين يجوِّزون المعصية على الأنبياء، ومن الروافض الذين يطعنون في أصحاب محمد ﷺ. فإن النملة ما طعنت في صحابة سليمان عليه السلام وهؤلاء الروافض يطعنون في صحابة محمد ﷺ.

وثالثها: ما رأيت في بعض الكتب أن تلك النملة إنما أمرت رعيّتها بالدخول في مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع في كفران النعم، وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محظورة. يروى أن سليمان قال لملك النمل: لم قلت للنمل ادخلوا مساكنكم أخفت مني عليها ظلماً؟ قال: لا ولكني خشيت أن يفتتنوا بما يرون من محملك ورتبتك فيشغلهم ذلك عن طاعة ربهم.

قال بعض أهل التذكير أن النملة تكلمت في هذه الآية بعشرة أجناس من الكلام: نادت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وعذرت.

أما النداء ف «يا» وأما التنبيه فقولها: ها، وأما التسمية فقولها: النمل، وأما الأمر فقولها: ادخلوا، وأما النص فقولها: مساكنكم، وأما التحذير: لايحطمنكم، وأما التخصيص فقولها: سليمان، وأما التعميم فقولها: وجنوده، وأما الإشارة فقولها: وهم، وأما العذر فقولها: لا يشعرون، وأيضاً فهذه النملة قامت بأداء خمسة من الحقوق.

الأول: حق الله تعالى، فإنه تعالى جعلها ملكة النمل فاحتاطت في رعاية الرعية.

الثاني: حق سليمان عليه السلام نبّهته على الاحتراز من قتل البريء عن المجرم.

ومن عجائب أحوال العنكبوت أنه إذا أراد أن يبني بيتاً طلب زاوية يحيط بها ضلعان ثم يبتدئ فيلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يعدو إلى الجانب الآخر فيلتصق بالطرف الآخر من الخيط ثم لا يزال يذهب ويجيء ثانياً وثالثاً على تناسب مخصوص ثم إذا أحكم الخيط كالسدى اشتغل باللحمة ويضيف البعض إلى البعض على مناسبة هندسية ثم يهيء شبكة يقع فيها البق والذباب، ثم يقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد فيها بادر إلى أخذه فإن عجز عن الصيد بهذا الطريق طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه بخيط آخر. وبقي منتكساً في الهواء ينتظر ذبابة فإذا طارت الذبابة رمى نفسه إليها فأخذها وربط خيطه على رجليها وأحكمها. ثم ما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من هذه العجائب ما لا يحصى، أفترى أنه يعلم الصنعة من قبل نفسه أو بتعليم آدمي؟ بل هذا من الإلهامات الربانية والهدايات الرحمانية.

وأما **النمل**، فقال الله تعالى في حقها في سورة النمل في قصة سليمان عليه السلام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: 18].

قال المفسرون: وادي النمل وادٍ بالسلم كثير النمل فإن قيل: لم عدّى أتوا بـ «على»؟ قلنا لوجهين: **الأول**: أن أبياتهم كانت من فوق فأتى بحرف الاستعلاء. **الثاني**: أنه يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا بلغ آخره، كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند مقطع الوادي. أما قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ فالمعنى أنه تكلمت بتلك وهذا غير مستبعد فإن حصول العلم والنطق لها ممكن في نفسه والله تعالى قادر على كل الممكنات. وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتفت الناس إليه فقال: سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة حاضراً وهو غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أو أنثى؟ فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل له: كيف عرفت ذلك؟ فقال: من كتاب الله وهو قوله: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ ولو كان ذكراً لقال: قال نملة، وذلك لأن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ثم يميز بينهما بعلامة كقولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي.

أما قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل لا جرم خوطبت بما يخاطب به العقلاء فلهذا قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾.

الرابع: أن النملة تحمل أضعاف قوتها وقدرتها فكذا العبد يجب عليه أن يتحمل أضعاف قوته [من] المشقة في طاعة الله تعالى.

الخامس: من عجائب أحوالها أنها تتخذ تحت الأرض منازل وتملأها الحبوب والذخائر قوتاً للشتاء ثم تجعل بيوتها متعوجاً عن البعض لئلا يجري إليها ماء المطر فربما اتخذت بيتاً فوق بيت لئلا يسيل إليها ماء المطر ثم إنها تقطع الحبة بنصفين خوفاً من أن يصل إليها الماء فتنبت فكذا نفس الشعير والباقلاء والعدس والكزبرة تكسرها أرباعاً خوفاً من أن ينبت وإذا ابتل من تلك الحبوب شيء أخرجته إلى الشمس أيام الصحو ليجف لأجل أن لا ينبت، وإذا أخرجت من جحرها تذهب يمنة يوماً ويوماً آخر يسرة ثم إنها في الذهاب والمجيء كأنها قوافل لا ينحرف عن الطريق ثم إذا ذهبت واحدة منها شيئاً لا تقدر حملها أخذت منها قدراً ورجعت وأخبرت الباقين بذلك، وربما اجتمع على الشيء الواحد منها عدد منها يحملونه ويقلبونه ويذهبون به إلى الجحرة ويتحملون العناء والشدة فيه وإذا علمت بأن واحدة توانت في الحمل وتكاسلت في الإعانة اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها.

قال أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب ﷺ انظر إلى النملة في صغر جسمها ولطافة هيئتها كيف دبّت على أرضها وضنت على رزقها وتنقل الحبة إلى جحرها وبعد في مستقرها تجمع في حرها لبردها وردؤها لصورها[1] مكفول برزقها من رزقة لوقتها لا يحرمها المنان ولا يغفلها الديان وتولى الصفاء اليابس والحجر الطامس.

وأما **الأرضة** فقد قال في سورة سبإ في قصة سليمان ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبإ: 14] فقيل أنه ﷺ قال: (اللّهم أبهم على الجن موتي ليعلم الإنس أنهم لا يعلمون الغيب). ودخل محرابه وقام متكأ على عصاه فمات وبقي سنة قائماً حتى تم بناء بيت المقدس ثم سلط الأرضة على منسأته فخرّ فعرف الجن موته وكانوا يحسبونه حياً لكثرة ما شاء الله من طول قيامه.

قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير منساته بغير همزٍ، وقرأ ابن عامر بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مفتوحة وكلها لغات صحيحة وأصله الهمز لأنه من نسأت الشيء، أي:

---

(1) كذا في المخطوط.

الثالث: حق النمل فإنها نصحت النمل حتى وصلت مساكنها فتخلصت من البلاء.

الرابع: حق جنود سليمان فإنها حذَّرتهم عن الإقدام على إيذاء الحيوانات من غير فائدة.

الخامس: حق جميع الخلق فإنها بهذا الكلام علَّمت جميع الخلائق الاجتهاد في إيصال الإحسان إلى الخلق والمبالغة في كف الأذى عن الخلق وعن الرعية كما قال ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**[1] فهذا ما يتعلق بهذه الآية على سبيل الاختصار.

وأما الحكمة في خلقة النمل وعجائب أحوالها فمن وجوه:

الأول: أنه تعالى أشار بخلق النمل في الدنيا إلى كيفية حال المتكبرين في القيامة من الذلّ والحقارة وقال ﷺ: **«يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرِّ يطأهم الناس بأقدامهم»**[2].

الثاني: أن النمل يجمع في الصيف للشتاء وفي وقت الوجدان لوقت الفقدان فينبغي أن يكون العبد كذلك يشتغل بالطاعة في الدنيا ليجد الثواب في العقبى قال ﷺ في خطبة له: **«فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشباب قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة والنار»**[3].

الثالث: إن النمل قد يتكلف نوى التمر ويتحمل العناء والمشقة العظيمة في ذلك ثم إنها لا تنتفع بتلك النواة إلا أن ينظر إليها ولا تنتفع بها قط، فيكون نصيبها من تلك النواة محض المحنة والمشقة فكذا الحريص يتحمل المشقة في جمع الدنيا ثم يموت ولا ينتفع بها ولا يكون له فيها حظ إلا التعب.

---

(1) رواه أحمد (4495، 5167، 5786، 5901) والبخاري (893، 2409، 2554، 2558، 2751، 5188، 5200و 7138) ومسلم (1829) وغيرهم من حديث ابن عمر.

(2) رواه أحمد (2/ 179) والترمذي 2494 والبغوي في شرح السنة (3590) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(3) لم نره فيما لدينا من المراجع.

وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة قال الفراء:

الجراد يركب بعضه بعضاً وبالجملة فالله سبحانه شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر وبالفراش المبثوث لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش المبثوث.

ويتأكد ما ذكرناه بقوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ وقوله: ﴿يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله في قصة يأجوج ومأجوج: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ وقيل أن الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار فكيف شبه الواحد بالصغير والكبير؟ قلنا: شبّه بينهما لوصفين متغايرين أما التشبيه بالفراش فلأجل ذهاب كل واحد إلى غير جهة الآخر، وأما الجراد فلأجل الكثرة والتتابع بالفراش، **وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهاً أخرى.**

الأول: ما روي عنه ﷺ أنه قال: «**الناس عالم ومتعلم وسائر الناس همج ورعاع**»(1) فجعلهم الله في الآخرة ذلك اليوم أذلّ من الفراش لأن الفراش لا يعذب وهؤلاء يعذبون فنظيره قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

الثاني: أن الفراش كلما منع أن يلقى نفسه في النار فإنه يعود، فكذلك الكفار كانوا يمنعون عن نار جهنم وهم كانوا يلقون بأنفسهم فيها.

الصفة الثانية: من صفات ذلك اليوم قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ والعهن الصوف ذوات الألوان، والنفش هو جعل الصوف ينتفش بعضه عن بعض ويميز بعضه عن بعض.

واعلم أنه تعالى أخبر أن الجبال مختلفة ألوانها وغرابيب سود، ثم إنه سبحانه وتعالى يفرق بين أجزائها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابهاً للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً، وإنما ضمّ تعالى بين حال الناس وبين حال الجبال كأنه تعالى قال: إن تأثير تلك في الجبال هو أنها تصير كالعهن المنفوش فكيف تكون حال الإنسان عند سماعها؟ فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم يتداركه رحمة ربه.

(1) لم نره بهذا اللفظ وإنما هناك حديث موضوع بلفظ: (الناس عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما) من حديث ابن مسعود.

طردته. أما قوله: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾. **ففيه قولان:**

أحدهما: تبينت حال الجن للإنس أن الجن لا يعلمون الغيب.

الثاني: عرف عامة الجن أن رؤساءهم لا يعلمون الغيب. والعذاب المهين هو تكليفهم الأعمال الشاقة في البناء وسواه.

ومن عجائب أحوال هذا الحيوان أمور ثلاثة:

الأول: أن الله تعالى أعطاها شفرتين تشبه السواطر تقرض بهما الخشب ونوى التمر تثقب الآجر والحجارة، وهذا من العجائب فإن ذلك الحيوان مع صغر جرمه ورخاوة بدنه كيف حصل لمشفريه هذه القوة العظيمة.

الثاني: إذا ثقبت الخشبة من الداخل بنت هناك لنفسها بيتاً من الطين الصرف تشبه الأراج والأدامة. فمن أين وجدت التراب هناك والماء حتى جعلتها طيناً وبنت لنفسها من ذلك الطين بيتاً؟.

الثالث: أن الطير المسمى بناقر الخشب لا ينقر إلا على الموضع الذي يكون تحته هذا الحيوان فتأمل هذا الطير بأي علامة عرف أن تحت ذلك الموضع هذه الأرضة، وكيف تميز ذلك عنده هذا الموضع من الشجرة عن سائر المواضع، ومن أنصف علم أن علوم الخلق لا تصل إلى هذه الأسرار وأقر بجلالة الخالق وكمال قدرته وحكمته.

وأما **الفراش** فقال تعالى في سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ واعلم أنه تعالى وصف يوم القيامة بأمرين:

الأول: كون الناس كالفراش المبثوث. قال الزجّاج: الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار، وسمّي فراشاً لتفرشه وانتشاره، ثم إنه تعالى شبه الخلق وقت البعث في هذه الآية بالفراش وفي الآية الأخرى بالجراد المنتشر.

أما وجه التشبيه فلأن الفراش إذا طار لم يتجه إلى جهة واحدة بل كل منها يذهب إلى غير جهة الآخر وهذا يدل على أن الخلق إذا بعثوا فزعوا واختلفوا في المشي إلى جهات مختلفة غير مضبوطة، والمبثوث المتفرق، يقال: بثه إذا فرقه.

الفصل السادس:
في حيوانات الماء

والله تعالى خالق كلّ دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء، ذكروا أنه حصل في الربع المعمور أربعة عشر بحراً كباراً منها: بحر الروم وبحر القلزم وبحر الفارس وبحر الهند وبحر الصين وبحر يأجوج ومأجوج وبحر الحبشة وبحر الأرمن وبحر الشرق وبحر الغرب وبحر الشمال وبحر الجنوب وبحر طبرستان، وثمانية أنهار طوال كمثل: جيحون وسيحون والدجلة والفرات ونيل مصر ونهر الكر والرس وهبرمند، طول كل واحد مائة فرسخ إلى ألف فرسخ وقريباً من خمسمائة أنهار صغار، وأما الآجام والغدران والأنهار الصغار فلا يعدّ ولا يحصى فهذا مجموع ما في الربع المعمور.

أما الأرباع الثلاثة من الأرض فإنها مغمورة في البحر. إذا عرفت هذا فتأمل في الحيوانات الموجودة في بحار الربع المسكون وأوديتها وآجامها ثم تأمل فيما حصل من البحر المحيط حتى تعلم أن حيوانات البحر لا نسبة لها في الكثرة.

وعجائب الخلقة عليه غير خافية من أمورها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين.

ذكروا أن ملك حيوانات البحر لشدته وقوته وعظم صولته إذا تحرك تموج البحر من شدة سباحته، براق العينين واسع الفم والجوف كثير الأسنان يبتلع في كل يوم من حيوانات البحر عدداً لا يحصى فإذا امتلأ جوفه وأتخم تقوى والتوى واعتمد على رأسه وذنبه ورفع وسطه خارجاً من الماء مرتفعاً في الهواء مثل قوس قزح، ومقصوده أن تؤثر فيه حرّ الشمس فيستمرئ ما في جوفه وربما عرض له في تلك الحالة ما يشبه الغشي والسكر فيبقى كذلك أياماً، ثم ينعقد السحاب من تحته ثم يرفعه الرياح الشديدة ويرمي به إلى البر فيموت وتأكل من جيفته السباع مدة أو يُرمى إلى يأجوج ومأجوج ما

ويحتمل أن يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش لأن التكرير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير.

واعلم أن حال هذا الحيوان عجيب فإنه كما يقال أنه يحب النور ويبغض الظلمة جداً فإذا أحسّ بالسراج ظنّ أنه منفذ إلى عالم النور فيلقي نفسه على السراج لطلب أن يتخلص من عالم الظلمة إلى عالم الأنوار. ومنهم من قال أنه يحب شكل النار وصورتها فلفرط حبه للنار جعلت نفسه فداء للنار، وعلى التقديرين فهو إما أن يكون محباً للنار أو للنور، وكيف كان فإنه جعل نفسه فداء لمحبوبه وإذا كان الأمر كذلك فالإنسان أولى بأن يجعل نفسه فداءً لنور معرفة الله تعالى ولنار محبته بل أهل الهند يحرقون أنفسهم على حب الله تعالى. فالمؤمن أولى بأن يحرق قلبه في حب الله.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ثم إن الهنود يحرقون أنفسهم والمؤمن لا يفعل ذلك، **فالجواب من وجوه:**

الأول: أن معبود الكافر لا رحمة له عليهم ومعبود المؤمن رحيم بهم، وكذلك معبود الكافر لا علم له بعبوديته ومعبود المؤمن عليم. فعابد الصنم إذا أحرق نفسه لأجله فالصنم ما علمه ولا رحمه. وأما الحق تعالى فإنه عليم بأحوال عبيده رحيم بهم فلهذا منعهم عن ذلك العمل.

الثاني: إن الكافر يحرق نفسه وهو يرى معبوده بنفسه والمؤمن يعرض نفسه للقتل ولا يرى معبوده فكان هذا أعظم.

الثالث: إن قليل الحقيقة خير من كثير المجاز وفعل المؤمن حقيقة وفعل الكافر مجاز.

الرابع: قال الجُنيد: أهل الهند يحرقون أنفسهم لأجل الصنم فإذا كان يوم القيامة حشروا مع أصنامهم إلى باب جهنم فيقال لهم: أدخلوا النار مع أصنامكم كما دخلتم النار في الدنيا فيأبون، ويقول الله للمؤمنين: ادخلوا النار، فيقولون: سمعنا وأطعنا، ويتسارعون إلى النار فذلك هو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

الفصل السابع:
في أحوال الأنعام

اعلم أنه استدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته بأحوال البهائم، وذكرها في الكتاب كثيرة وأجمعها ما ذكر في سورة النحل فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ اعلم أن هذه الحيوانات مخلوقة لمصلحة المكلفين وكل حيوان كان انتفاع المكلف به أكثر كان أشرف، ومعلوم أن انتفاع المكلفين بالأنعام أكثر من انتفاعهم بغيرها وذلك لأن الأنعام ينتفع بها في الأكل وذلك بأكل لحومها وفي الشرب بشرب ألبانها [وباللباس] وذلك باتخاذ الملابس من أصوافها وأوبارها، وبالركوب وذلك لركوبها وبالحمل وذلك بأن يحمل أمتعتهم في الأسفار، وفي كثرة المال وذلك بسبب درها ونسلها، وفي التجمل بها وذلك لأنها أموال طاهرة فيحصل التجمل بها ولما كان انتفاع الناس بالأنعام أكثر من انتفاعهم بسائر الحيوانات لا جرم كانت الأنعام أشرف أنواع الحيوانات فلهذا السبب قدمها الله تعالى في الذكر على سائر الحيوانات، قال تعالى:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ ثم إنه تعالى فصل القول في بيان منفعتها.

فالمنفعة الأولى: قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ والمراد من الدفء هو اللباس وذلك لأن اللباس سبب الدفء فسمّي اللباس باسم الدفء، وتحقيق الكلام أن الروح الإنسانية أشرف الأرواح السفلية بل هي سلطان الأرواح السفلية والسبب في هذا الشرف العظيم كونها مشرفة بتشريف الإضافة المذكورة في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ولما كانت الروح الإنسانية أشرف الأرواح السفلية وجب أن يكون البدن الإنساني أشرف الأبدان السفلية وأشدها اعتدالاً وأبعدها عن الكثافة والصلابة ولما كان بدنه في غاية الاعتدال لا جرم لم ينبت على جلده الشعور الكثيرة فبقي عارياً عن

وراء السّدّ فيصير غذاءً لها، ثم إن هذا الحيوان على عظمته لا يتأذى من شيء إلا من حيوان صغير في البحر يلسعه وهو لا يقدر عليه فيدبّ سمه في جسم هذا الثعبان فيموت ويصير غذاء الحيوانات في البحر وهكذا لكل الحيوانات، وكذلك أن الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها غذءً للعصافير والخطاطيف ثم هذه العصافير والخطاطيف غذءً للبواشق والشاهين، ثم هذه الحيوانات أغذية للنسور والعقاب ثم إنها إذا ماتت أكلها الحيوانات من النمل والذباب والدود وهكذا حال بني آدم أكلتهم في القبور الديدان والحشرات فتارة تأكل صغار الحيوانات كبارها وتارة تأكل كبارها صغارها ليجعل العدل فإن بالعدل قامت السمٰوات والأرض.

ومن **عجائب البحار** الدر وصدفه ويقال أن لها وقتاً معيناً في السنة تصعد من قعر البحر إلى ظاهر سطح الماء في يوم المطر فتضم أذنين لها شبه السفطين ضماً شديداً حتى لا يقع فيه شيء من الماء المالح الذي في البحر ثم تنزل برفق إلى قعر البحر وتلبث هناك منضمة على الصدفين إلى أن ينعقد فيها الدر والله أعلم، وبالله التوفيق.

الفصل السابع:
في أحوال الأنعام

اعلم أنه استدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته بأحوال البهائم، وذكرها في الكتاب كثيرة وأجمعها ما ذكر في سورة النحل فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ اعلم أن هذه الحيوانات مخلوقة لمصلحة المكلفين وكل حيوان كان انتفاع المكلف به أكثر كان أشرف، ومعلوم أن انتفاع المكلفين بالأنعام أكثر من انتفاعهم بغيرها وذلك لأن الأنعام ينتفع بها في الأكل وذلك بأكل لحومها وفي الشرب بشرب ألبانها [وباللباس] وذلك باتخاذ الملابس من أصوافها وأوبارها، وبالركوب وذلك لركوبها وبالحمل وذلك بأن يحمل أمتعتهم في الأسفار، وفي كثرة المال وذلك بسبب درها ونسلها، وفي التجمل بها وذلك لأنها أموال طاهرة فيحصل التجمل بها ولما كان انتفاع الناس بالأنعام أكثر من انتفاعهم بسائر الحيوانات لا جرم كانت الأنعام أشرف أنواع الحيوانات فلهذا السبب قدمها الله تعالى في الذكر على سائر الحيوانات، قال تعالى:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ ثم إنه تعالى فصل القول في بيان منفعتها.

فالمنفعة الأولى: قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ والمراد من الدفء هو اللباس وذلك لأن اللباس سبب الدفء فسمّي اللباس باسم الدفء، وتحقيق الكلام أن الروح الإنسانية أشرف الأرواح السفلية بل هي سلطان الأرواح السفلية والسبب في هذا الشرف العظيم كونها مشرفة بتشريف الإضافة المذكورة في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ ولما كانت الروح الإنسانية أشرف الأرواح السفلية وجب أن يكون البدن الإنساني أشرف الأبدان السفلية وأشدها اعتدالاً وأبعدها عن الكثافة والصلابة ولما كان بدنه في غاية الاعتدال لا جرم لم ينبت على جلده الشعور الكثيرة فبقي عارياً عن

وراء السّدّ فيصير غذاءً لها، ثم إن هذا الحيوان على عظمته لا يتأذى من شيء إلا من حيوان صغير في البحر يلسعه وهو لا يقدر عليه فيدبّ سمه في جسم هذا الثعبان فيموت ويصير غذاء الحيوانات في البحر وهكذا لكل الحيوانات، وكذلك أن الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها غذاءً للعصافير والخطاطيف ثم هذه العصافير والخطاطيف غذاءً للبواشق والشاهين، ثم هذه الحيوانات أغذية للنسور والعقاب ثم إنها إذا ماتت أكلها الحيوانات من النمل والذباب والدود وهكذا حال بني آدم أكلتهم في القبور الديدان والحشرات فتارة تأكل صغار الحيوانات كبارها وتارة تأكل كبارها صغارها ليجعل العدل فإن بالعدل قامت السمٰوات والأرض.

ومن **عجائب البحار** الدر وصدفه ويقال أن لها وقتاً معيناً في السنة تصعد من قعر البحر إلى ظاهر سطح الماء في يوم المطر فتضم أذنين لها شبه السفطين ضماً شديداً حتى لا يقع فيه شيء من الماء المالح الذي في البحر ثم تنزل برفق إلى قعر البحر وتلبث هناك منضمة على الصدفين إلى أن ينعقد فيها الدر والله أعلم، وبالله التوفيق.

بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ أي: مسكناً تسكنون فيه، وهو إما أن يتخذ من الحجر والمدر وكل ذلك مخلوق لله تعالى ولكنه تعالى جعلها بحيث يمكن للمقيمين اتخاذ الأبنية ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ يعني الخيام والقباب والفساطيط المتخذة من النطاع والجلود للسفر والحضر ثم قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فالأثاث ما يحتاج إليه في البيوت والمتاع ما يتنعم به ويتجمل ثم قال: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى الموت والمعنى أن الانتفاع بالدنيا يكون إلى مدة ولا تدوم فينبغي للعاقل أن يختار الآخرة، والاحتمال الثاني وهو أن يحمل المنافع المذكورة في الآية على المشروب. فاعلم أنه تعالى جعل من ألبانها مشروباً طيباً طاهراً لنا فذكر هذه النعمة في آيات كثيرة قال تعالى في هذه السورة: أعني سورة النحل ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾ الآية.

وثانيها: قال في سورة المؤمنين: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

المنفعة الثالثة: من المنافع المطلوبة في الأنعام قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

فاعلم أنه تعالى ذكر منفعة الأكل في المرتبة الثالثة وها هنا أبحاث:

البحث الأول: في سبب احتياج الناس إلى أكل اللحم فاعلم أن السبب فيه أن الإنسان مركب من اللحم والعظم ومن شأن الغذاء أن يكون شبيهاً بالمغتذي فلهذا السبب كان أكمل الأغذية للإنسان اللحم.

البحث الثاني: أن قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يفيد الحصر، والمعنى: ومنها تأكلون لا من غيرها وظاهر هذه الآية يقتضي حرمة أكل غيرها إلا ما خصه الدليل، فلما قال بعده: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ذكر هذه الحيوانات وخصها بأنها مخلوقة للركوب مع أن الآية المتقدمة دالة على حصر منفعة الأكل في جنس الأنعام، فكان مجموعها دالاً على حرمة لحم الخيل كما يقول أبو حنيفة.

المنفعة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الإراحة رد الماشية بالعشي من مراعيها إلى مباركها، وسرح الماشية إطلاقها وإنما قدم في الذكر مع أنها متأخرة في الوجود لأن وقت الإراحة يكون وقت شبعها وامتلاء أثدائها من اللبن بخلاف وقت التسريح ولا شك أن التجمل في ذلك الوقت أكمل.

الوطاء والدثار الذي هو حاصل لسائر الحيوانات وإذا كان كذلك فلطافة مزاجه تحوجه إلى التصون عن الحر والبرد وكهباب الأهوية ورطوبات الأمطار فهذا هو السبب في احتياج الإنسان إلى الملبوس.

والمنفعة الثانية: قوله تعالى في هذه الآية ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ اعلم أن ما قبل هذه الكلمة هو ذكر الدفء وما بعدها هو ذكر الأكل ولفظة بالمنافع مبهمة مجملة فلما قدم ذكر الدفء احتمل أن يكون المراد من هذه الآية بالمنافع هو المسكن.

ولما ذكر بعد هذه الكلمة الأكل احتمل أن يكون المراد من هذه المنافع المشروب. أما الاحتمال الأول فنقول: الإنسان كما هو محتاج إلى الملبس فكذلك محتاج إلى المسكن وسبب الاحتياج من وجوه:

الأول: إن كل أحد من الناس قد يقدم على ما يستحيي من اطلاع الغير عليه فلا جرم يحتاج إلى مسكن منفرد.

الثاني: إن الإنسان لا يمكنه الجلوس في الحر الشديد للشمس وفي الهواء البارد جداً ولا يمكنه أن يجلس في الرياح الشديدة والأمطار القوية فلا جرم يحتاج إلى المسكن.

الثالث: إن الإنسان يحتاج إلى ادخار الأموال والمطعومات والملبوسات ولا يمكن حفظها إلا بالدار.

الرابع: إن الإنسان يحتاج أن يحترز عن ضرر الأعداء من الناس والسباع وذلك لا يمكن إلا بالدار، فلأجل هذه الوجوه يحتاج الإنسان إلى التفرد بالمسكن.

واعلم أن المسكن يجري مجرى الثوب في كونه ساتراً للبدن ومانعاً من حصول المؤذيات من الحر والبرد والرياح إليه، ولما ذكر الله تعالى أمر الملبوس قال بعده: ومنافع أي ومنافع من جنس منفعة الملبوس وهي منفعة المسكن. واعلم أنه تعالى شرح أمر هذه المنفعة في هذه السورة في آية أخرى فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: 80] فقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ

فهرس المحتويات

أسرار التنزيل وأنوار التأويل 5
صور المخطوط 6
أ ـ تعريف بالمؤلف: 9
ب ـ تعريف كامل بالمخطوط: 10
نسبة الكتاب إلى الرازي: 14
ترجمة الإمام العالم سلطان العلماء فخر الدين 17
فكرة تحقيق الكتاب والجهود المبذولة في هذا المجال 22

النوع الأول: في علم الأصول

الباب الأول: في معرفة الذات 27
الفصل الأول: في أسرار كلمة لا إله إلا الله 27
الفصل الثاني: في فوائد لا إله إلا الله 46
تفسير كلمة لا إله إلا الله 56
الفصل الثالث: في أسماء كلمة التوحيد 63
الفصل الرابع: في الأشياء التي شبه الله تعالى كلمة التوحيد بها 83
الفصل الخامس: في شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله 97
البحث الأول: 97
البحث الثاني: 98
البحث الثالث: 98
البحث الرابع: 99
البحث الخامس: 101

المنفعة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ الشق المشقة والتحقيق أن الشق نصف الشيء، والمعنى: لم تكونوا بالغيه إلا بذهاب بعض قواكم.

واعلم أنه تعالى ذكر هذه المنفعة في آيات كثرة منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾. ومنها قوله تعالى في سورة يسٓ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة غافر [79 ـ 81]: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ ومنها في الزخرف [12 ـ 14] ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ والنكتة فيه أن الخيل أقوى من سابقيه وكذا الجمل والفيل، وذلك الانقياد لا يكون إلا بتسخير الله تعالى كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. وما الغرض منه إلا التنبيه كأنه تعالى يقول: أنا الذي جعلت القوي منقادًا للضعيف، فاعلم أني قادر عليك ومتولٍ عليك فينبغي أن تكون خائفاً مني منقادًا لحكمي وإلا كسرت رقبتك في محل القهر، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

وصلى الله على سيدنا محمَّد وآله وأصحابه والملائكة والنبيين كلَّما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

الفصل الخامس: في مناظرة أخرى جرت لإبراهيم عليه السلام في تقرير التوحيد 321
الفصل السادس: في تفسير استدلال نوح عليه السلام 334
الفصل السابع: في شرح مناظرة موسى عليه السلام مع فرعون 348
الفصل الثامن: في شرح كيفية دلالة الشروق والغروب على وجود الصانع . . . 361
الفصل التاسع: في كيفية الاستدلال باختلاف أحوال الليل والنهار 372
الفصل العاشر: في مباحث متفرقة في هذا الباب 381
الباب الثالث: في الاستدلال بخلقة الإنسان على وجود الصانع 403
الفصل الأول: في الحكمة في خلق الإنسان 403
الفصل الثاني: في شرح فضيلة الإنسان 413
الفصل الثالث: في بيان أول الآباء هو آدم عليه السلام 436
الفصل الرابع: في كيفية تخليق آدم عليه السلام 445
الفصل الخامس: في عجائب تكوين الأجنّة 457
الفصل السادس: في شرح أحوال الإنسان من وقت ولادته إلى وقت موته . . . 508
الباب الرابع: في الاستدلال بأحوال الحيوانات على قدرة الصانع . . . 533
الفصل الأول: في الاستدلال الكلي بأحوال الحيوانات 533
الفصل الثاني: في الاستدلال بأحوال الطيور 542
الفصل الثالث: في البعوض 551
الفصل الرابع: في الذباب 561
الفصل الخامس: في الكلام في بقية الحيوانات المذكورة في القرآن 569
الفصل السادس: في حيوانات الماء 577
الفصل السابع: في أحوال الأنعام 579
فهرس المحتويات 583

البحث السادس: 102
البحث السابع: 103
البحث الثامن: 103
البحث التاسع: 104
البحث العاشر: 104
الفصل السادس: في فضل المؤمن 108
الفصل السابع: في إقامة الدليل على أن الله واحد لا شريك له 121
الفصل الثامن: في الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا إلٰه إلا الله 132

النوع الثاني: في تقرير الدلائل الدالة على إثبات الصانع

الباب الأول: في كيفية دلالة السمٰوات والأرض على إثبات الصانع . 159
الفصل الأول: في شرح مبدأ تكون السمٰوات 159
الفصل الثاني: في تفسير آية أخرى دلت على حدوث مبدأ السموات 169
الفصل الثالث: بصفات السمٰوات وأحوالها 182
الفصل الرابع: صفات السمٰوات 197
الفصل الخامس: في تفسير كونه تعالى فاطر السموات والأرض 210
الفصل السادس: في شرح كون السمٰوات خالية عن العبث 215

الجزء الثاني

الفصل السابع: في الاستدلال بأحوال الأرض على وجود الصانع 232
الباب الثاني: في وجوه الدلائل المأخوذة من الشمس والقمر والنجوم 261
الفصل الأوّل: في تقرير دليل الخليل عليه أفضل الصلاة والتسليم في قوله: . 261
الفصل الثاني: في شرح مناظرة إبراهيم مع ملك زمانه 290
الفصل الثالث: في شرح مناظرة إبراهيم عليه السلام مع أبيه في التوحيد . . . 301
الفصل الرابع: في شرح مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه بكسر الأصنام . 316


$ 17


THG
DCS